

آندريه مائرو

الأمم



رواية

السمير

علي مولا

٨٠٠

الأمل

الكتاب: الأمل

المؤلف: أندريه مالرو

الغلاف: مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة

الطباعة: مؤسسة مصطفى قانصو للطباعة والتجارة

الناشر: دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت

هاتف: 03 / 728471 / 00961/1 / 471357 خليوي: 00961/1 / 479505

تلفاكس: 00961/1/479505

E-mail: kansopress@hotmail.com

kansopress@yahoo.com

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

سنة الطبع: 2007

تباع النسخة الكترونياً على موقع:

www.arabicebook.com

آندريه مالرو

الأمل

رواية





الجزء الأول

الوهم الغنائي

الفصل الأول :

شملت جلبة سيارات النقل المحملة بالبنادق « مدريد » المتوترة في ليل الصيف ، فقد أخذت منظمات العمال تعلن منذ عدة أيام أن إنقلاباً فاشياً يوشك أن يقع ، وأن ثكنات الجنود قد أغرقت ، وأن الذخيرة بدأت تتدفق ، وكانت مراكش قد تم احتلالها آن ذاك . وفي الساعة الواحدة عقدت الحكومة عزمها - في نهاية الأمر - على توزيع الأسلحة على الشعب ، وما أن حانت الساعة الثالثة صباحاً حتى كانت البطاقة النقابية تسمح لصاحبها بالحصول على السلاح . لقد أزف الوقت ، والمكالمات التليفونية الواردة من الأقاليم خلعت الآن من كل تفاؤل بعد أن كان يشيع فيها من منتصف الليل حتى الساعة الثانية صباحاً .

طفق المركز التليفوني الرئيسي لمحطة الشمال يتصل بالمحطات الواحدة تلو الأخرى ، وكان راموس Ramos سكرتير نقابة عمال السكك الحديدية ، ومانويل Manuel الذي كلف مساعدته هذه الليلة - يقومان بالتوجيه . وباستثناء « نافار » Navare (نبرة) التي انقطع الاتصال التليفوني بها كان الرد لا يخرج عن أحد أمرين : إما أن الحكومة مسيطرة على الموقف ، وإما أن المنظمات العمالية تتحكم في المدينة إنتظاراً لتعليمات الحكومة . . بيد أن الحوار طرأ عليه الآن شيء من التغيير ، فبدأ على هذا النحو :

- « ألو وشقة Huesca ؟ » .

- « من الذي يتحدث ؟ » .

- « لجنة العمال بمدريد » .

- « لم يعد لها وجود . . يا أكواماً من الأقدار ! فلتحيا أسبانيا ! »
وعلى الجدار ثبت العدد الخاص من صحيفة كلاريداد (الصادر في
الساعة السابعة مساء) بالدبابيس : وعلى عرض ستة أعمدة امتد هذا
العنوان :

« الى السلاح يا رفاق ! » .

- « آلو أبلة^(١) ؟ كيف تجري الأمور عندكم ؟ هنا المحطة » .

- « تعال ، واشهد بنفسك أيها الوغد . عاش يسوع - الملك ! » .

- « إلى اللقاء ! » .

واستدعي راموس على وجه السرعة .

وكانت خطوط الشمال تتقاطع متجهة صوب سرقسطة وبرغش وبلد
الوليد Valladolid .

- « آلو سرقسطة ، نريد الاتصال باللجنة العمالية للمحطة ؟ » .

- « لقد أعدمت رمياً بالرصاص ، وهذا مصيركم عن قريب ، فلتحيا
أسبانيا . » .

- « آلو طبلاطة ؟ هنا مدريد الشمال وأنا المسؤول عن النقابة . » .

- « إتصل بالسجن ، يا ابن الفاجر ! وسيأتي اليوم الذي نسحبك فيه
من أذنيك ! » .

- « موعذك على « القلعة » . . . الحانة الثانية على اليسار » .

وكان عمال « الستترال » يحمقون في سحنة « راموس » الذي يشبه
بمرحه وشعره المجعد رجلاً من رجال العصابات .

(١) أبلة Avila مدينة اسبانية . (المترجم) .

- « آلو . برغش ؟ » .

- « هنا القومندان » .

لم يعد ثمة رئيس للمحطة ، وأنزل « راموس » السماعة ودق جرس تليفون :

- « آلو مدريد ؟ من أنت ! » .

- « نقابة عمال النقل بالسكك الحديدية . » .

- « هنا ، ميراندا ، المحطة والمدينة في أيدينا . فلتحيا أسبانيا . . . » .

- « ولكننا نسيطر على مدريد . . سلام ! »

وهكذا لم يعد في الامكان الاعتماد على معونة الشمال ، اللهم إلا عن طريق بلد الوليد . ولم يبق إلا إقليم الأستوريش .

- « آلو ! أوفيدو ؟ من المتحدث ؟ » .

وبدأ راموس يلتزم جانب الحذر .

- « مندوب المحطة » .

- « هنا راموس سكرتير النقابة ، كيف الحال عندكم ؟ » .

- « إن الكولونيل أراندا موالٍ للحكومة ، وليس لهذا الولاء وقع حسن في بلد الوليد ، ولقد أرسلنا ثلاثة آلاف من عمال المناجم المسلحين لتعزيز قواتنا . » .

- « متى ؟ . . . » .

وأخاطت براموس جلبة أحدثتها كعوب البنادق الخشبية ، فلم يعد يسمع شيئاً .

- « متى ؟ » .

- « في الحال . . . » .

- « سلام ! » .

وقال راموس لمانويل : « حافظ على الاتصال التليفوني بهذا القطار ، ثم اتصل ببلد الوليد » .

- « آلو بلد الوليد ؟ من المتحدث ؟ » .

- « مندوب المحطة » .

- « كيف تسير الأمور ؟ » .

- « قواتنا محتفظة بالثكنات ، ونحن ننتظر مدداً من أوفيدو ، ابذل كل ما في وسعك ليصل هذا المدد مبكراً على قدر الامكان ، ولكن لا تقلق ، فالحال عندنا على ما يرام ؟ »

وارتفعت أصوات بالغناء أمام المحطة ، فلم يعد راموس قادراً على سماع صوته هو نفسه .

وتساءلت بلد الوليد : « كيف ؟ » .

- « على ما يرام . . . على ما يرام . » .

- « هل تمردت القوات ؟ » .

- « ليس بعد » .

وأنت بلد الوليد المكاملة .

كان من الممكن تحويل كل معونة تصل من الشمال من هذا الطريق .

ومن خلال الخطوط الحديدية المتحركة التي تقوم بتحويل القطار من خط الى آخر ، وهي لغة لم يكن يفهمها مانويل جيداً ، وبين رائحة الورق المقوى المنبعثة من الكتب ، ومن القضبان الحديدية ومن دخان المحطة (كان الباب

مفتوحاً على ليل قانظ) أخذ مانويل يسجل مكالمات المدن . وفي الخارج كانت تنبعث ضجة تختلط فيها الأناشيد بكعوب البنادق الخشبية ، وكان ينبغي عليه أن يردد بلا انقطاع تلك المكالمات (أما الفاشيون فكانوا يقطعون المكالمات فحسب) ، فشرع يحدد المواقع على خريطة شبكة الخطوط الحديدية الاتصال مقطوع بنبرة ، أما شرق خليج بسكاي كله ، وبلباو وسانتاندر وسان سبستان فكانت موائية ، غير ان الاتصال مقطوع بينها وبين ميراندا . ومن ناحية أخرى كانت أقاليم الأشتوريش وبلد الوليد موائية ، وتوالى رنين اجراس التليفون دون انقطاع .

- « آلو . هنا شقوية من أنت ؟ » .

فقال مانويل وهو يرنو الى راموس بنظرة استفهام : « أنا مندوب النقابة »
ولكن ماذا كان في حقيقة الأمر ؟ . »

- « سنحضر قريباً لانتزاعها منكم ! » .

- « وسيحدث ذلك دون أن يشعر به أحد . سلام ! » .

وكانت المحطات الفاشية هي التي تطلب الاتصال الآن : ماراسين وليرما ، وأندا دل دويرو وسولفيديا ، وبرغش مرة أخرى . ومن برغش حتى جبال سيرا أخذت التهديدات تنهال من قطارات النجدة .

- « هنا وزارة الداخلية ، هل هذا هو سترال الشمال ؟ أبلغوا المحطات أن الحرس المدني وحرس الهجوم يقفان الى جانب الحكومة » .

- « هنا مدريد - الجنوب . كيف تسير الأمور في الشمال يا راموس ؟ » .

- « يبدو انهم قد استولوا على ميراندا ، وليست حالهم أسوأ في الجنوب » .

- « وهنا ثلاثة آلاف عامل من عمال المناجم يهبون الى بلد الوليد ، وسيحصلون على المدد من هناك . وكيف الحال عندكم ؟ » .

- « إنهم يسيطرون على محطتي أشيلية وغرناطة ، أما الباقي فما زال صامداً » .

- « وماذا عن قرطبة ؟ » .

- « لا نعلم عنها شيئاً ، وسيحاربون في الضواحي حين يستولي الأعداء على المحطات ، وثمة مآزق خطير في طريانة وكذلك في بنيارويا ، بيد أنك تذهلني بحكايتك عن بلد الوليد : هل استولوا عليها حقاً ؟ » .

وتحول راموس إلى تليفون آخر ونادى قائلاً :

- ألو بلد الوليد ؟ من المتحدث ؟ » .

- « مندوب المحطة » .

- « آه ! ... قيل لنا أن الفاشيين كانوا عندكم

- « هذا خطأ ... كل شيء على ما يرام . وعندكم ؟ هل تمرد الجنود ؟ » .

- « كلا » .

- « ألو مدريد الشمال ؟ من المتحدث ؟ » .

- « المسؤول عن النقل . »

- « هنا طبلاطة ، ألم تتصل هنا ؟ » .

- « لقد قيل لنا انكم أعدتمت رمياً بالرصاص ، أو بشيء من هذا القبيل ! » .

- « لقد خرجنا من ذلك المكان ... والفاشيون هم الذين فيه الآن . سلام ! » .

- « هنا دار الشعب ، أبلغوا جميع المحطات الموالية أن الحكومة التي تستند على الميليشيا الشعبية - تسيطر على برشلونة دمرسيه وبلنسية وملقة وعلى

- الأكستريمادورا وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط كله . «
- « آلو ! هنا تورديسياس ، من المتحدث ؟ » .
- « مجلس العمال في مدريد . »
- « لقد أعدم من هم على شاكلتكم من الأوغاد ، فلتحيا أسبانيا ! »
- ودار هذا الحوار نفسه في مدينة الريف (دل كامبو) .
- وبقي خط بلد الوليد خط الاتصال الوحيد مع الشمال :
- « آلو ليون ؟ من المتحدث ؟ » .
- « مندوب النقابة . . . سلام ! » .
- « هنا مدريد الشمال هل مر عليكم قطار عمال المناجم أوفييدو ؟ . »
- « أجل » .
- « هل تعرف أين هو الآن » .
- « إنه يتجه صوب ميورقة على ما أظن » .
- وفي الخارج . . . في شارع مدريد كانت تنبعث دائماً ضجة الأناشيد
وكعوب البنادق .
- « آلو ميورقة ؟ هنا مدريد . . . من المتحدث ؟ » .
- « من أنت ؟ » .
- « مجلس عمال مدريد ؟ » .
- وقطعت المكالمة .. والآن ؟ أين ذهب القطار ؟ .
- « آلو بلد الوليد ؟ هل أنتم واثقون من الصمود حتى يصل عمال
المناجم ؟ » .

- « تمام الثقة » .

- « ميورقة لا تجيب ! » .

- « لا أهمية لذلك » .

- « آلو مدريد ؟ هنا أوفبيدو . لقد شارث آراندا منذ برهة . والقتال دائر » .

- « أين قطار عمال المناجم ؟ » .

- « بين ليون وميورقة » .

- « لا تقطع الاتصال ! » .

وأخذ مانويل في النداء ، على حين انتظر راموس .

- « آلو ميورقة ؟ هنا مدريد » .

- « من ؟ » .

- « مجلس العمال ، من الذي يتكلم ؟ » .

- « رئيس وحدة الفلانج الأسبان ، لقد مرّ قطاركم أيها الحمقى ، وأصبحت المحطات جميعاً تحت سيطرتنا حتى بلد الوليد ، بلد الوليد نفسها قد وقعت في أيدينا منذ منتصف الليل ، أما عمالكم فنحن في انتظارهم بالمدافع الرشاشة . ولقد ظهرت آراندا . . . الى اللقاء ! » .

- « إلى لقاء قريب ! » .

وشرع مانويل في الاتصال بجميع المحطات التي بين ميورقة وبلد الوليد الواحدة اثر الأخرى .

- « آلو سيولفيدا ؟ هنا مدريد - الشمال . لجنة العمال » .

- « لقد مرّ قطاركم أيها الأقدار . . . وسنذهب هذا الأسبوع لجز

رؤوسكم ! » .

- « هراء ... سلام ! » .

واستمر الاتصال :

- « آلو مدريد ؟ آلو ! آلو ! مدريد ؟ هنا نافالبيرال دي بنارس المحطة . لقد أستعدنا المدينة مرة أخرى . والفاشيون - أجل - قد جردناهم من السلاح .. أبلغوا هذه الأنباء .. واتصلوا بهم تليفونياً كل خمس دقائق لمعرفة احتمال أن المدينة لا تزال تحت سيطرتهم ... آلو ! آلو ! » .

وقال راموس : « ينبغي أن نبعث بأنباء كاذبة في كل مكان » .

- « سوف يتحرون عن صدقها » .

- « ومع ذلك فسوف يشغل ذلك أذهانهم دائماً » .

- « آلو .. مدريد - الشمال ... هنا الاتحاد العام للعمال ... من

المتحدث ؟ » .

- « راموس » .

- « قيل لنا : أن قطاراً للفاشيين في طريقه إلينا محملاً بأحدث

الأسلحة ، وهو قادم من برغش ... ألدیکم معلومات ؟ » .

- « سنعرف ذلك هنا ، فإن المحطات جميعاً تحت سيطرتنا حتى سييرا (إقليم

الشارات) ، ومع ذلك فلا بد من اتخاذ الاحتياطات ... لحظة من

فضلك » .

- « اتصل بسييرا يا مانويل » .

واتصل مانويل بالمحطات الواحدة بعد الأخرى ، كان يمسك بيده

مسطرة كأنه يضبط بها ايقاعاً معيناً - وكانت سييرا كلها موالية ، ولم يلبث أن

اتصل بالمركز الرئيسي للبريد ، فتلقى نفس المعلومات ، وهي لا تخرج فيما

يتعلق بالمنطقة المجاورة لسييرا عن أحد أمرين : إما أن الفاشيين لم يحاولوا شيئاً على الاطلاق ، أو أن الهزيمة قد حاقت بهم .

ومهما يكن من أمر فقد كانوا محتفظين بنصف المنطقة الشمالية ، وفي نافارا (نبرة) كان القائد هو « مولا » Mola الرئيس السابق لقوات الأمن في مدريد ، وكان ثلاثة أرباع الجيش ضد الحكومة كما هي العادة ، والى جانب الحكومة يقف حرس الهجوم والشعب ، وربما الحرس المدني أيضاً .

- « هنا الاتحاد العام للعمال . . . هل هذا راموس ؟ » .

- « أجل . . . » .

- « ماذا عن القطار ؟ » .

ونقل راموس الانباء في إيجاز ، ثم سأل بدوره :

- « وما الموقف بوجه عام ؟ » .

- « حسن ، حسن جداً ، اللهم إلا في وزارة الحرب ، فقد قالوا في الساعة السادسة : أن كل شيء قد ضاع ! فقيل لهم : ان هذا غير صحيح ، على حين زعموا هم أن رجال الميليشيا سوف يفلتون . . . بيد أننا لا نعبأ بحكاياتهم ، إنني أسمعك في مشقة . . فالناس يغنون في الشارع » .

ومن السماعه تناهت الى راموس تلك الأغاني التي اختلطت بالأصوات المنبعثة من المحطة » .

ومع ان الهجوم يكاد يكون قد بدأ دون شك في كل مكان في نفس اللحظة . فقد بدا أن جيشاً سائراً هو الذي يقترب ، وأصبحت المحطات التي استولى عليها الفاشيون أشد قريباً من مدريد ، ومع ذلك فقد كان الجومند أسابيع متوتراً أشد التوتر والجمهور شديد القلق من هجوم ربما كان عليه أن يواجهه دون سلاح ، حتى لقد بدت ليلة الحرب هذه تحريراً هائلاً من هذا

القلق وذلك التوتر .

وسأل راموس مانويل : « أما زالت سيارة الانزلاق على الجليد هناك دائماً ؟ » .

- « بلى » .

وعهد بالاشراف على السترال الى واحد من المسؤولين عن المحطة ، وكان مانويل قد ابتاع منذ بضعة شهور في أحد « الأوكازيونات » سيارة صغيرة ليذهب بها الى جبال سييرا لممارسة رياضة الانزلاق على الجليد ، أما راموس فقد كان يستخدمها في أيام الأحاد في أغراض الدعاية ، وفي هذه الليلة وضعها مانويل مرة أخرى تحت تصرف الحزب الشيوعي ، وعاد للعمل ثانية مع زميله راموس .

قال راموس : « لا أظن أننا سنعيد عام ١٩٣٤ مرة أخرى ، فلنذهب الى تطوان عن طريق لاس فيكتورياس ؟ » .

- « وأين هي ؟ » .

- « عند كواترو كامينوس (الطرق الأربعة) » .

وما أن ابتعدا حوالي ثلاثمائة متر حتى أوقفهم أول مركز للتفتيش .

- « أوراكم ! » .

وكانت أوراقيهم لا تزيد عن البطاقة النقاية ، ولم يكن مانويل يحمل معه قط بطاقة عضويته بالحزب الشيوعي ، ولما كان يعمل باستديوهات السينما (كان مهندساً للصوت) فإن أسلوباً غامضاً تميز به سكان حي مونبارناس في لباسهم جعله يتوهم أنه قد أفلت من تأثير الطبقة البورجوازية ، وكان حاجباه الكثيفان - في ذلك الوجه الشديد السمرة المنتظم التقاطيع الثقيل نوعاً ما - هما وحدهما اللذين يمكن أن يتتبعيا في شيء ما الى طبقة العمال (البروليتاريا) ، وما كاد جنود الميليشيا يلقون بنظرهم اليه حتى تعرفوا على رأس راموس المرح

المجدد ، واستأنفت السيارة سيرها بين الخطبات المتبادلة على الاكتاف والقبضات الملوحة وصيحات « السلام » . . . لقد كان الليل أخاءً كله .

ومع ذلك فقد كان الصراع بين الاشتراكيين اليمينيين والاشتراكيين اليساريين ، ومعارضة كاباليرولأية حكومة يؤلفها برييتو- لم يكن هذان شيئاً ضعيفاً في الأسابيع الأخيرة- . . . وفي المركز الثاني للتفتيش كان رجال « الاتحاد الفوضوي الأيبيري » يسلمون شخصاً مشبوهاً الى جماعة من عمال الاتحاد العام للعمال أعدائهم القدماء ، وقال راموس في نفسه : إن هذا شيء حسن ولم يكن توزيع الأسلحة قد انتهى ، فقد وصلت سيارة نقل محملة بالبنادق .

وقال راموس : « إنها أشبه بكعوب الأحذية ! » .

والواقع انه لم يكن يظهر من البنادق سوى اللوح المعدني الذي في نهاية الكعب .

فقال مانويل : « هذا حق . . . إنها أشبه بالأحشية » . . .

- « بماذا تهرف ؟ » -

- « لقد كسرت إحدى أسناني في أثناء الأكل . . ولم يعد لساني يهتم إلا بهذه السن المكسورة ، فهو لا يعبأ بكفاحة الفاشية » .

- « وماذا كنت تأكل ؟ » -

- « شوكة ! » -

وكانت ثمة أطياف تحتضن ما تسلمته لتوها من بنادق أطياف يلعبها الآخرون الذين كانوا ينتظرون دورهم في العتمة متلاصقين كأنهم أعواد الثقاب ، ومرت بعض النسوة يحملن سلالاً مملوءة برصاص البنادق .

وهتف صوت : « ليس الوقت مبكراً جداً . . . هذا إذا وضعنا في اعتبارنا الوقت الذي انتظرنا فيه انقضاضهم علينا ! » .

- « لقد اعتقدت أن الحكومة سوف تتركنا تحت رحمتهم » .

- « لا تنزعج ، فسوف يرون عن قريب ما يمكن أن نصنعه بهم . .
هؤلاء العصبة من الأوغاد ! » .

- « الشعب هو حارس مدريد ، هذه الليلة » .

وبين كل خمسمائة متر - كان يقوم مركز تفتيش جديد ، والسيارات
الفاشية تطوف بالمدينة مسلحة بالمدافع الرشاشة ، نفس القبضات المرفوعة ،
ونفس الأحاء . . دائماً . . ودائماً نفس الحركة الغريبة للحراس الذين لا
يكفون عن تحسس بنادقهم ، وكأنهم لم يلمسوا هذه البنادق منذ قرن من
الزمان . . . !

وحين وصلا القي راموس سيجارته وداسها بقدمه » .

- « كف عن التدخين » .

واختفى مسرعاً ، ثم عاد بعد عشر دقائق يتبعه ثلاثة من الرفاق ، وكانوا
يحملون جميعاً لفافات مغطاة بورق الصحف وملفوفة بالحبال .

وفي هدوء أشعل مانويل لفافة تبغ جديدة ، فقال راموس بلهجة جدية :

- « دع سيجارتك ، فهذا الذي تحمله ديناميت » .

ووضع الرفاق اللفافات ، نصفها على مقدمة السيارة ، ونصفها الآخر
على المؤخرة ، ثم عادوا الى المنزل ، وكان مانويل قد ترك مقعد القيادة
ليسحق سيجارته دون أن يقذف بها . ورفع إلى راموس وجهاً مدعوراً .

فسأله راموس : « ما هذا ؟ ماذا دهك ؟ » .

- « أنت تضايقني يا راموس » .

- « هذا حق . . والآن ، هيا بنا » .

- « ألا تستطيع العثور على سيارة أخرى ؟ إنني أستطيع قيادة سيارة

أخرى .

- «إننا سننسف الجسور ، وسنبداً بجسر أبلة ، ونحن نحمل الديناميت ، وسيذهب الى حيث ينبغي أن يذهب ... الى بيجو ... ينوس ... الخ .. وليس في نيتك أن تضيع ساعتين ، ليس كذلك ، ونحن نعلم على الأقل أن هذه السيارة تسير؟» .

فقال مانويل حزيناً مدعناً : « بلى » ...

ولم يكن مانويل متمسكاً بسيارته تمسكه بالأشياء الاضافية الديدعة المركبة فيها ... واستأنفت السيارة سيرها : مانويل على عجلة القيادة ، وراموس في الخلف محتضن حزمة من القنابل اليدوية ، وبغته ، أحس مانويل أنه لم يعد يبالي بهذه السيارة ... بل لم تعد ثمة سيارة ... لم يكن هناك سوى هذه الليلة المشحونة بأمل غامض لا حدود له ... هذه الليلة التي لا بد لكل إنسان أن يصنع فيها على الأرض شيئاً ... وسمع راموس دقات طبول بعيدة ، كأنها نبضات قلبه ...

وكانت مراكز التفتيش تتصدى لهم كل خمس دقائق .

وكان رجال الميليشيا - وأكثرهم لا يعرفون القراءة - يجبطون على اكتاف راكبي السيارة حين يتعرفون على راموس ، ولا يكادون يسمعون بصيح : « لا تدخنوا ! » ويرون السيارة محملة بالفائف حتى يدقوا الأرض بأقدامهم فرحاً ، فقد كان الديناميت هو السلاح الرومانتيكي القديم في اقاليم الأشتوريش .

وواصلت السيارة سيرها .

وعند « القلعة » داس مانويل على البنزين ، فعن يمينه برزت سيارة نقل من سيارات الفاشيين غاصة بالعمال المسلحين ، ولكنها استدارت فجأة الى اليسار ، وكانت السيارات جميعاً تسير في تلك الليلة بسرعة ثمانين كيلومتراً في الساعة ، وحاول مانويل أن يتفادى سيارة النقل ، فأحس بسيارته الخفيفة

ترتفع عن الأرض ، وقال في نفسه :

- « انتهينا » .

ووجد نفسه منبطحاً على بطنه وسط لفائف الديناميت التي كانت تندرج كثمار الكستناء على الرصيف ، لحسن الحظ ، وتحت وجهه كانت دماؤه تلمع ، وقد أضاءها المصباح الكهربائي ، لم يتألم ، وإن كان أنفه ينزف دماً ، وسمع راموس يصيح : « لا تدخلوا .. أيها الرفاق ! » وصاح مرة أخرى ، ثم التفت أخيراً فرأى صديقه وقد صلب ساقيه وتدلت خصلات شعره المجدد على وجهه ، وأمسك بين يديه بقنابله اليدوية وهو يضمها الى حضنه حانقاً محوطاً بحاملي البنادق الذين أخذوا يدورون حول اللفائف دون أن يتجاسروا على لمسها ، وفي الوسط كان يلمع عقب سيجارة ألقاه راموس (الذي استغل فرصة وجوده في المؤخرة لكي يشعل سيجارة أخرى) ، وكان الدخان يرتفع من هذا العقب الوحيد ، فأطفأه مانويل بقدمه وشرع راموس بصف اللفائف على طول الحائط ، أما فيما يتعلق بسيارة الانزلاق على الجليد فمن الأفضل ألا نتحدث عنها .

وصاح مكبر الصوت : « القوات المتمردة تسير وسط برشلونة ، والحكومة مسيطرة على الموقف » .

وأخذ مانويل يعاون على رص اللفائف ، أما راموس الذي كان جم النشاط دائماً فلم يتحرك من مكانه .

- « ماذا تنتظر لكي تمد لنا يد المساعدة ؟ » .

- « آلو ! القوات المتمردة تسير وسط برشلونة » .

- « لا أستطيع أن أحرك ذراعي ، فلقد كانت الصدمة قوية جداً ... ولكنني سيعود الى حالته الطبيعية ، فلنوقف أول عربة خالية ... ولنواصل السير » .

الفصل الثاني

وبين الطراوة المنبعثة من الطرقات المرشوشة بزغت على برشلونة تباشير فجر الصيف ، وفي الحانة الضيقة التي ظلت مفتوحة طوال الليل في مواجهة الشارع الواسع المهجور كان سيلز الشهر باسم « النجاشي » وعضو الاتحاد الفوضوي الأيبيري ونقابة عمال النقل - يقوم بتوزيع المسدسات على رفاقه .

كانت القوات المتمردة قد بلغت ضواحي المدينة ، والجميع يتحدثون في آن واحد :

- « ماذا ستفعل القوات التي هنا ؟ »
 - « ستعمل على إهلاكنا ، ونستطيع أن تكون على يقين من ذلك » .
 - « والضباط قد حلفوا أيضاً يمين الولاء للشركات أمس » .
 - « المذيع يجيبك » .
- وكان المذيع الصغير الذي في آخر الحجرة الضيقة يردد الآن كل خمس دقائق : « القوات المتمردة تجتاح منتصف المدينة » .
- « وهل ستوزع الحكومة أسلحة ؟ » .
 - « كلا » .
- « لقد قبضوا أمس على اثنين من زملائنا أعضاء الأتحاد الفوضوي الأيبيري لأنها كانا يتنزهان وهما مسلحان بالبندق ، وكان لا بد من اللجوء

إلى دوروتي وأوليفر لاطلاق سراحهما » .

- « وماذا يقولون في الترانكليداد^(١) ؟ هل سيحصلون على البنادق أو لا ؟ » .

- « الأرجح لا » .

- « والمسدسات ؟ » .

واستمر « النجاشي » في توزيع مسدساته .

- « هذه المسدسات قد وُضعت تحت تصرف الزملاء الفوضويين بفضل السادة الضباط الفاشيين . إن لحيتي توحى بالثقة » .

وكان قد استطاع بمعونة صديقين وبعض المتآمرين أن يجرد ليلاً مخازن السلاح في سفيتين من سفن الحرب ، وما برح يحتفظ بعفريتة الميكانيكي الزرقاء التي ارتداها ليستطيع التسلل الى السفينة .

قال وهو يناول المسدس الأخير: « والآن ، فلنجمع نقودنا ، وعلينا أن نشترى الرصاص من أول مخزن للسلاح يفتح هذا الصباح . مع كل منا خمس وعشرون طلقة . . . وهذا لا يكفي » .

- « القوات المتمردة تحتاج منتصف المدينة » .

- « مخازن السلاح لا تفتح اليوم . . لأن اليوم يوم الأحد » .

- « لا داعي للقلق ، سنفتحها بأنفسنا » .

- « على كل واحد أن يبحث عن رفاقه وأن يصحبهم معنا » .

وبقي ستة ، على حين رحل الآخرون .

« القوات المتمردة . . . »

(١) هو المشرب الذي يجتمع فيه الفوضويون . (المؤلف)

وكان النجاشي يصدر الأوامر ، لا بسبب وظيفته في النقابة ، ولكن لأنه أمضى خمسة أعوام في السجن ، ولأنه حين طردت شركة الترام في برشلونة أربعمائة عامل عقب قيامهم بإضراب - أشعل ذات ليلة بمعاونة عشرة من رفاقه - النار في عربات الترام التي في المخازن عند هضبة تبيدابو ، وقذف بها مشتعلة محمولة الفرامل ، حتى منتصف برشلونة وسط « كلاكسونات » السيارات المدعورة ، أما فيما يتعلق بالتخريب الأقل أهمية الذي تولى قيادته بعد ذلك فقد كلفه سنتين فحسب .

وخرجوا في ضوء الفجر المشح بالزرقة ، وكل منهم يسائل نفسه كيف سيكون الفجر المقبل ، وعند كل ركن من أركان الشارع توافدت جماعات يصحبها أولئك الذين سبقوا الى مبارحة الحانة ، وحين بلغوا الشارع الرئيسي شاهدوا القوات تخرج مع مطلع النهار .

وتوقفت دمدمة الخطوات ، إذ انهمر سيل من الرصاص على الشارع مكتسحاً إياه من أوله إلى آخره على التوالي ، ومن أكبر شوارع برشلونة المستقيم تمام الاستقامة كان جنود ثكنات « بدرالس » وعلى رأسهم ضباطهم يسيرون صوب مركز المدينة .

وأحتمى الفوضويون بأول شارع متقاطع مع الشارع الرئيسي ، أما « النجاشي » فقد عاد اليه مع اثنين آخرين .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تقع أعينهم فيها على هؤلاء الضباط ، فقد كانوا هم أنفسهم الذين اعتقلوا ثلاثين ألف سجين في « الأشتوريش » (الأقاليم الشمالية الغربية) ، وهم أنفسهم الذين قاموا بدورهم عام ١٩٣٣ في سرقسطة ، وهم بأعينهم الذين سمحوا بتخريب الثورة الزراعية ، والذين بفضلهم ظلت مصادرة ممتلكات اليسوعيين التي أمرت الدولة بها ست مرات خلال قرن من الزمان - ظلت بفضلهم هذه المصادرة جبراً على ورق ست مرات أيضاً ، وهؤلاء الضباط هم أنفسهم الذين طردوا أبوي النجاشي . والقانون القطلوني يقضي بطرد زارعي الكروم حين لا تؤتي الكروم

ثمارها ، وحين اجتاح وباء الفلقسير (نوع من الحشرات يصيب النبات)
اعتبرت الكروم التي أصيبت به عقيمة ، وطرد الزارعون من كرومهم التي
زرعوها وتعهدها برعايتهم منذ عشرين أو خمسين عاماً ، أما هؤلاء الذين
حلوا محلهم فلم تكن لهم أية حقوق على هذه الكروم ، ومن ثم كانوا
يتقاضون أجوراً زهيدة . . . ولعلمهم كانوا يتقاضونها من أولئك الضباط
الفاشين أنفسهم .

وتقدموا الى منتصف الشارع محاصرين الجنود ، تتقدمهم دوريات
الحماية على الرصيفين ، وعند كل ركن كانت الدوريات تطلق رصاصها من
أقصى الشارع قبل العبور ، ولم تكن مصابيح الشارع الكهربائية قد أطفئت
بعد ، وأخذت إعلانات النيون تسطع سطوعاً أقوى من نور الفجر ،
واستدار النجاشي على عقبه متجهاً صوب رفاقه .

- « ليس من شك في أنهم قد رأونا ، فلا بد من أن نقوم بدورة ، ولنهبط
عليهم من عل » .

وشرعوا في العدو دون ضجة ، فقد كانوا جميعاً يتتعلون نعالاً من
الكتان ، واحتموا تحت أبواب شارع متقاطع من الشارع الرئيسي في حي من
الأحياء الغنية له أبواب جميلة عميقة ، وكانت أشجار الشارع مثقلة بالطيور ،
ورأى كل منهم في مواجهته على الجانب الآخر من الشارع رقيقاً لا يريم ،
وبيده مسدس .

وامتلاً الشارع الخالي شيئاً فشيئاً بضوضاء خطوات منتظمة ، وسقط أحد
الفوضويين إذ أطلق عليه الرصاص من نافذة . . . ولكن أي نافذة ؟ الجنود
على بعد خمسين متراً . ومن كل نافذة من النوافذ المطلة على الشارع كان من
الممكن رؤية أبواب الرصيف المقابل جميعاً . وتحت الأبواب المسقوفة في
الشارع الخالي الذي امتلاً بخطوات الجنود المنتظمة - وقف الفوضويون بلا
حراك ينتظرون إطلاق الرصاص عليهم من النوافذ كأنهم أرناب في ميدان
للرماية !

وانهمر وابل من الرصاص عن الدورية ، وكانت الرصاصات تنثر في عبورها كسرب من الجراد ، ورحلت الدورية من جديد ، وما كاد القسم الرئيسي من الجنود يمر أمام الشارع حتى انهالت طلقات المسدسات من جميع الأبواب .

ولم يكن الفوضويون رماة سيئين .

وصاح الضباط « الى الأمام » ، ولم يقصدوا التقدم ضد هذا الشارع ، وإنما ضد مركز المدينة ، فلكل شيء أوانه ، ولم يكن النجاشي - وهو قابع تحت زخارف المدخل الأثري الذي يحميه - يرى من الجنود سوى الجزء الممتد من الوسط حتى القدمين ، فما كان يستطيع أن يرى الأسلحة ، وكانت البنادق جميعاً تطلق الرصاص ، غير أنه لاحظ تحت السترات العسكرية سراويل مدنية . . . وهذا معناه أن ميليشيا الفاشيين قد انضموا الى الجنود . .

ومرت الدوريات التي تحمي المؤخرة ، وخفت ضجة الخطوات .

وجمع النجاشي رفاقه ، وسار بهم في شارع آخر ، ثم لم يلبث أن توقف . . إن ما يفعلونه شيء لا جدوى منه ، فسوف يدور القتال الخطير في وسط المدينة ، في ميدان قطالونيا بلا شك . وكان ينبغي الانقضاء على الجنود من الخلف . . ولكن كيف ؟

وكانت الفرقة قد تركت كتيبة في الميدان الأول . . على سبيل الحذر . . وهذه الكتيبة مسلحة ببندقية سريعة الطلقات .

ومر عامل وهو يجري ، وقد أمسك بيده مسدساً .

- « انهم يسلحون الشعب ! » .

وسأله النجاشي : « ونحن أيضاً ؟ » .

- « قلت لك : انهم يسلحون الشعب ! » .

- « وكذلك الفوضيون ؟ » .

بيد أن العامل لم يلتفت اليه .

وبحث النجاشي عن مشرب ، واتصل تليفونياً بصحيفة الفوضيين . كانوا يسلمون الشعب حقاً ، غير أن الفوضيين لم يتسلموا حتى الآن سوى ستين مسدساً « الأفضل أن يبحث الانسان بنفسه عنها في سفن الحرب ! » .

في الصباح انطلقت صفارة أحد المصانع .. انطلقت كما تنطلق في الأيام التي لا تتحدد فيها سوى المصاير الصغيرة .. في الأيام التي يسمعا فيها النجاشي ورفاقه ، فيهرولون أمام جدران طويلة رمادية وصفراء .. جدران لا نهاية لها .. وفي نفس هذا الفجر ، في هذه الأنوار الكهربائية التي ما تزال مضاءة ، والتي تبدو كأنها معلقة بأسلاك الترام . وانطلقت صفارة أخرى ... عشرة .. عشرون ... مائة ...

وتسمرت الجماعة كلها في منتصف الطريق ، كأنما مستها صاعقة ، فما من رفيق من رفاق « النجاشي » قد سمع أكثر من خمس صفارات تنطلق في وقت واحد ، وكما كانت مدن أسبانيا التي يهددها الخطر تفرع في الماضي أجراس كنائسها جميعاً أجاب عمال برشلونة على طلقات المدافع باطلاق صفارات المصانع اللاهثة .

وصاح رجل يعدو نحو المركز يتبعه شخصان آخران يحمل كل منها بندقية ! :

- « بويج في ميدان قطالونيا » .

فقال أحد رفاق النجاشي : « لا أظن أنه خرج من المستشفى . »

وفقدت هذه الصفارات جميعاً - حين انطلقت معاً - رنتها الحزينة التي تتسم بها سفينة تشرع في الرحيل ، لكي تصبح كأنها إبتهاج اسطول ناثر .

وقال النجاشي وهو ينظر الى فصيلة الجنود والى البندقية السريعة

الطلقات :

- « توزيع الأسلحة .. سنفرغ لهذا الأمر نحن أنفسنا » .

وابتسم ابتسامة غاضبة ، وكانت أسنانه تبرز قليلاً بين شاربته ولحيته الأسودين . ومن المصانع المحتلة جميعاً ، ملأ زئير الصفارات ، الطويل تارة ، المتعجل تارة أخرى ، ملأ الشوارع والمنازل والجو والخليج كله .. حتى بلغ الجبال !

وهبط جنود ثكنات الحديقة - كغيرهم من الجنود - متجهين صوب مركز المدينة .

وكان « بويج » الذي يرتدي صديرية سوداء - يحتل ميداناً مع ثلاثمائة شخص ، وكان أقصرهم وأضخمهم في آن معاً . . . لم يكونوا جميعاً من الفوضويين ، ففيهم أكثر من مائة قد تسلموا بنادق وزعتها الحكومة . . أما هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يطلقون الرصاص فقد شرحت لهم طريقة استخدام البندقية ، وقال بويج وهو يوزع البنادق على أفضل المدافين : « الملكية الخاصة لا تنفع اليوم هنا » وعلى هذا الكلام آمن الجميع .

ووصل الجنود من أوسع طريق ، فقسم رجاله على الشوارع المقابلة بعضها للبعض الآخر ، وكان النجاشي قد وصل لتوه مع رفاقه ومعهم البندقية السريعة الطلقات . . . التي يعرف النجاشي وحده كيف يستخدمها ، وانقطعت الأصوات جميعاً حتى وقع أقدام الميليشيا الذين ينتعلون نعلاً من الكتان . . . وحتى عربات الترام . وخطوات الجنود الذين ابتعدوا الآن تماماً ، ومنذ أن صمتت صفارات المصانع خيم على برشلونة صمت رهيب .

وتقدم الجنود متاهين لاطلاق بنادقهم تحت أعمدة ضخمة للاعلان عن فندق وعن محل للعطور . وتساءل بويج بينه وبين نفسه : « هل أصبح

الاعلان أثراً من آثار الماضي ؟ » وكان الفوضويون قد رفعوا بنادقهم إلى اكتافهم .

وأطلق الصف الأول من الجنود الذين يرتدون سراويل مدنية النار على أحد الشوارع ، ثم انتشروا تحت سرب من الحمام الأبيض ، سقط الكثير من أفرادهم ، على حين أطلق الصف الثاني النار على شارع آخر ، ثم أخذ في التفرق ، وأطلق رجال بويج المحتمون النار هم أيضاً لا على قطاع من الشارع ، كما فعل رجال النجاشي ، وإنما على الميدان كله من زوايا مختلفة ، ولم يكن الميدان واسعاً ، واتخذ الصف الأول خطوة الركض حتى وصل إلى بندقية النجاشي السريعة الطلقات ، وكما تنحسر موجة من الأمواج تاركة حصاهها - كذلك أسفرت موجة الرصاص الذي أنطلق صوب الشارع عن خط متعرج من الأجسام المنبطحة أو المتكومة

وفي نوافذ أحد الفنادق كان عدد من الأشخاص يرتدون قمصانا قصيرة الأكمام يصفقون (للمدنيين أو للجنود) وهؤلاء كانوا جماعة من الرياضيين الأجانب جاؤوا لمشاهدة الألعاب الأولمبية ، وواصلت صفارة أحد المصانع صفيرها كأنها نداء تطلقه سفينة .

واندفع العمال متعقبين الجنود :

فصاح بويج : « إلزموا مراكزكم ! » ولوح بذراعيه القصيرتين يند أن أحداً لم يسمعه .

وفي أقل من دقيقة كان ثلث المطاردين قد تساقطوا ، وكان الجنود الآن يجتمون تحت المداخل المطلة على الشارع ، على حين ألقى العمال أنفسهم في نفس الموقف الذي اتخذته الجنود منذ خمس دقائق . وفي مؤخرة الشارع كانت هناك جثث ملقاة ، وجرحى يرتدون الزي العسكري ، وفي المقدمة جثث وجرحى يرتدون زياً أسود أو أزرق . وبين هاتين المجموعتين حمامات مقتولة ، وفوق هذا كله أستأنفت عشرون صفارة زئيرها في وجه الشمس .

وكان بويج ورجاله الذين أخذوا في الازدياد على الرغم من الجرحى الذين تناثروا في المكان - يشاغبون الجنود بين ضجة الرصاص المقتضبة ، وزئير الصفارات الخافت . أما الجنود فكانوا يقاتلون قتال المنسحب في خطوة رياضية ، كأنهم إن لم ينسحبوا فقد يحيط بهم محاربو الجبهة الشعبية من أحد الشوارع الموازية للشارع الرئيسي ، ليشنوا عليهم هجوماً تحت حماية أحد المتاريس . . .

وأغلقت أبواب الثكنات من جديد في صليل .

- « أين بويج ؟ » .

- « إنه أنا ، ماذا تريد ؟ »

وكان مقاتلون جدد يصلون بلا انقطاع ، ورجال الحرس المدني ورجال حرس الهجوم يقاتلون في الوسط ، ولما كان الشيوعيون شرذمة قليلة في برشلونة فقد وجد الزعماء الفوضويون أنفسهم قادة المعركة ، ولم يكن « بويج » معروفاً الى حد ما ، إذ لم يكن يكتب في صحيفة « التضامن العمالي » ، بيد أنه كان من المعروف عنه أنه نظم المعونة لأطفال « سرقسطة » ، ولهذا السبب كان غير الفوضويين يؤثرون التعامل معه على التعامل مع زعماء « الاتحاد الفوضوي الأيبيري » (قام عمال سرقسطة بقيادة دوروتي بأكبر اضراب عرفته اسبانيا في ربيع عام ١٩٣٤ استمر خمسة أسابيع ، وقد رفضوا كل مساعدة مالية مطالبين بأن يظهر العمال تضامنهم من أجل أطفالهم ، وكان أكثر من مائة ألف شخص قد قدموا أموالاً ومؤونة إلى « هيئة التضامن العمالي » ، وقام بويج بتوزيعها على الفور ، وأعد صفاً من عربات النقل حملت أطفال عمال سرقسطة الى برشلونة) ، ولما لم يكن الفوضويون يدفعون أي اشتراكات فقد هاجم بويج - شأنه في ذلك شأن دوروتي ، وكل جماعة « المتضامنين » - هاجم السيارات التي تنقل الذهب من بنك اسبانيا واستولى عليها لمساعدة المضربين « والمكتبة الفوضوية » ، وكم كانت دهشة أولئك الذين يعرفون سيرة حياته الرومانتيكية حين وقعت أعينهم

على هذا القزم الربعة ذي الأنف الأقي ، والنظرة الساخرة ، والذي لم يكف منذ هذا الصباح عن الابتسام ، اذ لم يكن فيه ما يتفق مع تلك السيرة اللهم إلا صديريته السوداء .

وترك هناك ثلث رجاله الذين أخذوا يتزايدون شيئاً فشيئاً ، وشرعوا يقيمون المتاريس ، وينصبون المدفع سريع الطلقات ، وكان أحد الرجال الجدد مدرباً على استعماله ، ووصل في هذه الآونة كثير من الجنود الذين انضموا الى الشعب وقد خلعوا ستراتهم خشية اللبس ، ولكنهم احتفظوا بخوذاتهم ، وكان الضباط الفاشيون قد أعطوهم في الصباح أكواباً من الروم ، وقالوا لهم : إنهم ذاهبون لإخاد مؤامرة شيوعية .

وانتهج بويج مع الآخرين صوب ميدان قطالونية ، كان مقصدهم سحق المتمردين في مركز المدينة ، والعودة فوراً الى الثكنات .

ووصلوا الى هناك عن طريق شارع قطالونية . وفي مواجهتهم كان يقوم فندق « كولون » يسيطر على الميدان ببرجه الذي يشبه ثمرة أناناس وبمدافعه الرشاشة ، وكان جنود ثكنات بدرالبيس المعزولون يحتلون المباني الثلاثة الرئيسية : الفندق في المؤخرة ، ومركز التليفون الرئيسي على اليمين ، والألدورادو على اليسار ، لم يكن الجنود يقاتلون بيد أن المدافع الرشاشة كانت تسمح للضباط وللفاشيين المتكبرين ولأولئك الذين « أصبحوا جنوداً » منذ خمسة عشر يوماً - أن يسيطروا على الميدان .

واندفع ثلاثون عاملاً عبر المربع المرتفع الذي يؤلف مركز الميدان محاولين الانتفاع ببعض الأشجار المحيطة به . وبدأت المدافع الرشاشة في اطلاق النار ، فتساقطوا كحبات المسبحة . . وعبرت ظلال طيور الحمام التي كانت تحلق في دوائر وعلى ارتفاع قريب - دون أن تبتعد - على الأجسام المنبطحه ، وعلى رجل أخذ يترنح أيضاً ، وقد رفع بندقيته فوق رأسه على امتداد ذراعه .

وحول « بويج » كانت هناك لافتات من جميع أحزاب اليسار ، وحشود

مؤلفة من الناس .

ولأول مرة ، كان الأحرار ورجال الاتحاد العام لعمال النقل والاتحاد القومي للعمل والفوضويون والجمهوريون ، والنقابيون ، والاشتراكيون - يركضون معاً صوب مدافع الأعداء ، ولأول مرة أدلى الفوضويون بأصواتهم من أجل تحرير المعتقلين في الأشتوريش ، وهذه الدماء التي امتزجت اليوم هي التي حققت وحدة برشلونة ، وحققت لبويج أمله في أن يرى أخيراً تلك الراية ذات اللونين الأحمر والأسود رفاقه بعد أن لم تكن حتى الآن سوى علم سري .

وهتف رجل ملتج حاملاً ديكاً تحت أبطه : « لقد عاد الجنود الذين كانوا في الحديقة الى ثكناتهم ؟ »

وصاح آخر : « لقد وصل جوديد لتوه من جزر البليار » .

وجوديد هذا كان من أفضل القواد الفاشيين .

ومرت سيارة تحمل هذه الحروف U. H. P. مكتوبة باللون الأبيض على غطائها . وقال بويج في نفسه : « هذا شعارنا » وقد خطرت له الاعلانات القائمة في الميدان الصغير .

وحاول بعض المهاجمين أن يتسللوا بمحاذاة الجدران ، وأن يستغلوا الافاريز والشرفات والتي كانت هدفاً لنيران وكارين على الأقل من أوكار المدافع الرشاشة ، وكان بويج يراقبهم - وهم يسقطون بعضهم وراء البعض الآخر ، وقد أحس بحلقه جافاً ملتهاً وكأنما دخن ثلاث علب من السجائر !

كانوا يتقدمون لأن من تقاليد الشوار أن يحملوا على العدو ، فإذا أوقفوا أمام الفندق على ذلك الرصيف الذي تزاخت عليه مناضد المشرب المستديرة أطلقت عليهم النار في وهج الشمس . والبطولة المحاكية للبطولة لا تفضي الى شيء . وكان بويج يعجب بالرجال الأشداء المراس ، ولهذا كان معجباً بأولئك الرجال الذين يتساقطون ، غير أنه كان في هذه اللحظة مدعوراً ،

ذلك أن مقاتلة حفنة ضئيلة من الحرس المدني للاستيلاء على ذهب الدولة لم تكن شيئاً بالقياس الى الاستيلاء على فندق « كولون » . وكانت تجربته المتواضعة تكفيه لكي يدرك أن المهاجمين لا يجمعهم تنسيق واحد ، أو أهداف محددة .

وعلى اسفلت الشارع العريض الذي يحيط بالميدان كانت الرصاصات تتوالت كالحشرات . وما اكثر عدد النوافذ ! وأخذ بويج يحصي نوافذ الفندق : ما يربو على المائة ، وخيل اليه أن هناك مدفعين رشاشين وراء حربي « الواو » في الاعلان الضخم القائم على برج فندق (كولون) .

- « بويج ؟ » .

- « ماذا ؟ » .

وكانت إجابته على هذا الرجل الأصلع ذي الشارب الذي وخطه الشيب تكاد تنطوي على شيء من العداة : إنهم سيطلبون منه أن يصدر أوامره ، وكان كل ما في نفسه من عمق يأبى عليه إصدار الأوامر .

- « هل نهاجهم ؟ » .

- « انتظر » .

ثمة جماعات قليلة تحاول دائماً التقدم صوب الميدان ، وطلب بويج من رجاله أن ينتظروا ، وكانوا على ثقة منه : فانتظروا . . . ولكن ماذا كانوا ينتظرون ؟

وها هي ذي موجة أخرى قادمة مؤلفة من عدد من الموظفين ذوي الياقات البيض ، بل والقبعات ، يخرجون بخطوات راكضة من شارع « دي كورتيز » .

ولكن سرعان ما يتساقطون في شارع « دي جراسيا » بعد أن تحصدتهم المدافع الرشاشة من برج كولون وأبراج « الألدورادو » .

وتكدست جثث أخرى فوق الجثث الراقدة ، وسالت دماء أخرى فوق
الدماء المسفوحة .

وسمع « بويج » أول طلقة مدفع .

لو أن العمال كانوا يملكون هذه المدافع لاستطاعوا الاستيلاء على
الفندق ، أما إذا نزل الجنود من الثكنات صوب الميدان يجمعهم المدفع
فسيكون مصير المقاومة الشعبية هو مصيرها سنة ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ . . .

وهرول بويج للاتصال بالتليفون : كان هناك مدفعان ، ولكنها كانا
ملكاً للفاشيين .

وجمع رجاله ، ودخل أول حظيرة للسيارات ، ثم كدسهم في عربات
النقل ، وشرع في الرحيل تحت أشجار الصيف التي تطير عنها العصافير .

وكان المدفعان - وهما من عيار ٧٥ - منصوبين على جانبي شارع واسع
يكتسحانه اكتساحاً . ووقف أمامهما جنود يرتدون كلهم سراويل مدنية هذه
المرّة ، وقد حملوا بنادقهم ومدفعاً رشاشاً ، وخلفهما وقف جنود أكثر عدداً -
دون مدفع رشاش على ما يبدو . . وكان الشارع ينتهي على بعد مائتي متر
يعترضه شارع آخر يتعامد عليه . ووسط حرف T هذا مدخل باب يغطيه
إفريز ، وتحت هذا الإفريز مدفع من عيار ٣٧ يطلق نيرانه .

وأرسل بويج جماعة صغيرة لمعرفة مدى الحماية التي يتمتع بها رجال
المدفعية في فرعي T ، ووضع رجاله في شارع متعامد على الطريق الرئيسي .

ولم يلبث أن وصلت خلفه سيارتان من طراز كاديلاك تسيران في خط
متعرج كما تسير السيارات في أفلام العصابات بين ضجة مختلفة من أصوات
النفير وآلات التنبيه (الكلاكسون) . . . وكان يقود السيارة الأولى الرجل
الأصلع ذو الشارب القصير الذي اقتحم النيران المتقاطعة من البنادق والمدفع
الرشاش وتحت القنابل التي كانت تعبر فوق رأسه من بعيد ، واندفع في
المكان الممتد بين المدفعين ، فقذف الجنود كأنه كاسحة جليد ، ثم اصطدم

بالجدار القائم على جانب الأفريز الذي نصب عنده المدفع عيار ٣٧ ، وكان هذا مقصده بلا شك . ولم يتخلف عنه غير حطام أسود بين بقع من الدماء . . وكأنه ذبابة سحقت على جدار . .

وواصل المدفع عيار ٣٧ إطلاق نيرانه على السيارة الأخرى التي غاصت بين المدفعين . وكان الكلاسون يزجر ، واندفعت تحت الأفريز بسرعة ١٢٠ كيلومتراً في الساعة .

وانقطع المدفع عيار ٣٧ عن إطلاق نيرانه ، ومن الشوارع كلها كان العمال يميلقون في فجوة الأفريز السوداء بعد أن صمت آلة التنبيه ، وانتظروا أن يظهر راكبو السيارة . . بيد أن هؤلاء لم يظهروا .

وانطلق زئير الصفارات مرة أخرى ، وكأنما تضخم صوت آلات التنبيه الذي ما برح معلقاً في الجوح حتى ملأ المدينة بأسرها ، وكأنه يحتفل بالاستشهادات البطولية الأولى للثورة ، وأخذت حلقة كبيرة من الحمام الذي ألف هذه الضجة اليومية - تحوم فوق الشارع . وأمتلأ بويج حسداً لرفاقه الذين استشهدوا ، ومع ذلك فقد كان متلهفاً على رؤية الأيام القادمة ، وكان تبرشلونة جبلي بأحلام حياته جميعاً .

قال النجاشي : « لا داعي للوقوف طويلاً عند هذا العمل . . . لقد كان عملاً محترماً . . ولكنه لم يكن جاداً ! » .

وعاد أولئك الذين أرسلهم بويج للكشف وقالوا : « هناك على اليمين خلف المدافع ليس أكثر من عشرة أشخاص » .

ولم يكن من شك أن الفاشيين أقل من أن يحتفظوا بكل الشوارع المحيطة بهم . وبرشلونة مدينة أشبه بقرعة الشطرنج .

قال بويج للنجاشي : « تول القيادة ، أما أنا فسأحاول العبور في اتجاه عكسي بأن أذهب الى الخلف : ولتقرب مع الآخرين من المدافع على قدر الامكان ، ولتنقضوا عليهم بعد أن نكون قد مررنا » .

وانصرف مع خمسة من الرفاق .

وتقدم « النجاشي » ومن معه من الرجال .

ولم تكد تنقضي عشر دقائق حتى استدار الجنود على أعقابهم مذعورين ، وحاول رجال المدفعية تغيير مدافعهم الى الجهة المضادة ، أما سيارة بويج التي اقتحمت مركز الحراسة الصغير فقد تدحرجت على المدافعين ، على حين أطلت فوهة البندقية السريعة الطلقات من بين شرفتي حاجب الريح ، وأخذت مؤخرة السيارة تهتز من اليمين الى اليسار كأنها بندول مختل ، وشاهد بويج رجال المدفعية الذين لم يعد درع المدفع يحميهم يتضحمون كما تنضخم اللقطات القريبة في السينا ، وأطلق فاشي نيرانه ، ثم تضخم . وهناك في الزجاج ذي الطبقات الثلاث كانت ثقب ثلاثة مستديرة ، وانحنى بويج الى الأمام ، وقد تملكه الحنق على ساقيه القصيرتين ، وداس بكل قوته على جهاز السرعة وكأنه يريد أن يسحق أرضية السيارة لكي يصل الى رفاقه على الجانب الآخر من المدافع . وأضيف ثقبان آخران في الزجاج ذي الطبقات الثلاث ، وأحس بتصلب في قدمه اليسرى ، وتشنجت يده على عجلة القيادة ، وتناثر بارود المدفع على حاجب الريح ، وضجة المدفع الرشاش في أذنيه ، والمنازل والأشجار تتراقص أمام ناظره - وسرب الحمام يبذل لونه في نفس الوقت الذي يبذل فيه اتجاهه - . . . وصوت النجاشي الذي يصيح . . .

ولما أفاق من اغمائه وجد أن الثورة قائمة على قدم وساق ، وانه قد تم الاستيلاء على المدافع . . . ولم يكن قد تلقى سوى صدمة قوية على عنقه حين تارجحت السيارة . ولقي اثنان من رفاقه مصرعهما ، أما النجاشي فقد كان يضمده جراحه .

- « هذه الهيئة تكون كمن يرتدي عمامة . . أنت الآن عربي . . . وهذا شيء يناسبك ! » .

وفي الطرف الآخر من الشارع الرئيسي ، كان يمر رجال من الحرس المدني ، ومن حرس الهجوم يقتادون الضباط والرجال الذين يرتدون سراويل

مدينة الى مركز الأمن ، أما الجنود الذين جردوا من السلاح فكانوا يسوقونهم الى إحدى الثكنات ، وهؤلاء كانوا يسيرون وهم يتحدثون مع العمال الذين أخذوا أسلحتهم ، وتولوا حراستهم ، أما الآخرون فقد يّموا جميعاً شطرا ميدان قطالونيا .

وهناك ، لم يكن الموقف قد تغير ، كل ما في الأمر أن الجثث كانت أكثر عدداً . . ووصل بويج هذه المرة عن طريق شارع « جارسيا » الذي يحتل فندق « كولون » إحدى نواصيه ، وكان ثمة مكبر للصوت يصيح :

- « ولقد انضمت فرقة طيران « برات » الى المدافعين عن الحريات الشعبية » .

هذا حسن ، ولكن أين هم ؟

ومرة أخرى خرج من جميع الشوارع المقابلة للفندق ، فوضويون واشتراكيون . . وبورجوازيون بياقات منشأة ، وبعض جماعات الفلاحين . وكان الوقت ضحى ، لهذا بدأ الفلاحون في الوصول . . وأوقف بويج رجاله . . ذلك أن موجة الهجوم التي اكتسحتها أركان المدافع الرشاشة الثلاثة قد تراجعت بعد ان تركت وراءها خطأ متعرجاً من القتل .

وكسرب آخر من أسراب الحمام تساقطت على مهل أوراق هيئة فاشية أقيت من النواذ ، واستقر بعضها على الأشجار .

ولأول مرة أحس بويج أنه قاب قوسين أو أدنى من الانتصار ، وأنه لا يقدم على محاولة يائسة كما كان الحال سنة ١٩٣٤ ، بل كما كانت الحال دائماً ، وعلى الرغم مما يعرفه عن باكونين (وقد كان بلا شك الشخص الوحيد في جماعته كلها الذي قرأ باكونين السطور) فقد كانت الثورة في نظره دائماً لا تعدو أن تكون ثورة فلاحين فاشلة . ولما كان يقف في مواجهة عالم يخلو من الأمل فإنه لم ينتظر من الفوضوية سوى تمردات نموذجية ، وعلى هذا كان يرى أن الجرأة والشخصية تحلان كل مشكلة سياسية .

وتذكر لينين حين جعل يرقص على الجليد يوم أن زاد عمر المجالس السوفياتية بأربع وعشرين ساعة من عمر « كوميون باريس » ، أما اليوم فلم يعد الأمر يتعلق بضرب الأمثلة ، ولكن بأن يكون المرء منتصباً ، وإذا كان رجاله رحلوا كالأخرين فإنهم سيسقطون مثلهم ، ولن يتم لهم الاستيلاء على الفندق .

ومن الشارعين اللذين يتفرعان من الميدان على شكل حرف V متجهين الى « كولون » ، ومن شارع « دي كورتيز » الذي يتعرض طريقهما - وصلت معاً في وقت واحد تماماً - ثلاث كتائب من الحرس المدني . ونظر بويج الى الخوذات ذات الطرفين المديبين التي يضعها اعداؤه القدامى وهي تلمع في الشمس . وكان واضحاً من الهتافات التي احاطت بهم أنهم موالسون للحكومة ، ولم يلبث الصمت أن ساد الميدان بحيث كان المرء يسمع رفيف أجنحة الحمام .

وأصيب الفاشيون هم أيضاً بالتردد ، وقد اعتراهم الدهول لرؤية البوليس منضماً الى جانب الحكومة ، فما كانوا يجهلون أن رجال الحرس المدني هدفون من أبرع طراز .

وصعد الكولونيل اكسيمينز وهو يطلع درجات الميدان ، وتقدم مباشرة صوب الفندق ، لم يكن يحمل سلاحاً - وقطع ثلث طول الميدان دون أن يطلق النيران أحد . وفجأة ، انطلقت المدافع الرشاشة من الجوانب الثلاثة ، وجرى بويج الى الطابق الأول من المنزل الذي ألقى نفسه أمامه - وكان رجال الحرس المدني هم أبغض أعداء الفوضويين الى نفوسهم . أما الكولونيل اكسيمينز فكان كاثوليكياً متحمساً ، وها هم أولاء يحاربون اليوم معاً في أخوة عجيبة .

واستدار اكسيمينز على عقبه ، ورفع عصا قيادة الحرس المدني ، فاندفع من الشوارع الثلاثة الرجال الذين يضعون على رؤوسهم خوذات ذات حافتين مديبتين . وسار « أكسيمينز » الذي كان يطلع دائماً (تذكر بويج أن

رجال الكولونيل كانوا يسمونه بالبطة العجوز) سار وحيداً من جديد متجهاً نحو الفندق بين سيل من الرصاص المنهمر وسط الميدان الواسع ، هذا على حين تقدم حرس السيارة على طول المركز الرئيسي للتليفونات الذي لم يكن يستطيع اطلاق النار رأساً عليهم ، أما حرس اليمين فساروا بمحاذاة « الألدورادو » . وكان ينبغي أن يطلق رجال المدافع الرشاشة في « الألدورادو » على الرجال المرابطين على اليسار ، غير أن كل جماعة فاشية كانت تحاول الدفاع عن نفسها في مواجهة رجال الحرس المدني بدلاً من الدفاع عن حلفائها .

وكانت المدافع الرشاشة المنصوبة فوق فندق « كولون » تسدد نيرانها ذات اليمين وذات الشمال ، في كثير من العناء ، ولم يكن رجال الحرس يتقدمون في جبهة واحدة ، وإنما يتقدمون في طابور ضئيل مستخدمين في حذر حماية الأشجار لهم ، يتبعهم الشيوعيون الذين خرجوا الآن من جميع الشوارع . وفي الوقت نفسه مر أمام بويج رجال الحرس القادمون من شارع « دي كورتيز » بخطوة هجومية وفي ضجة أحدثتها أحذيتهم الثقيلة ، بيد أن أحداً لم يطلق عليهم النيران ، وفي وسط الميدان كان الكولونيل يطلع أمامه تماماً .
وبعد عشر دقائق ، تم الاستيلاء على فندق كولون .

احتل رجال الحرس المدني ميدان قطالونيا ، وامتلات برشلونة تلك الليلة بالأغاني والصيحات وطلقات البنادق .

وكان المدنيون المسلحون ، والبورجوازيون والعمال والجنود وحرس الهجوم يملكون في النور المنبعث من مشرب الجمعة ، وعلى الموائد استقر رجال الحرس جميعاً حيث أخذوا يحتسون الجمعة .

وكان الكولونيل « اكسيمينز » يشرب هو أيضاً في صالون صغير من الطابق الأول الذي تحول الى مركز للقيادة ، وكان يشرف على الحي كله ،

ومنذ ساعات وفد عليه كثير من قواد الجماعات ليتلقوا منه التعليمات .

ودخل بويج . كان يرتدي الآن صديرية من الجلد ويحمل مسدساً ضخماً . . . وبدا هذا الزي رومانتيكياً تحت عمامته المتسخة الملطخة بالدماء . وعلى هذا النحو ، تبدى أصغر وأضخم في آن واحد .

وتساءل : « أين يمكن أن نكون أكثر نفعاً ؟ فلدي ألف من الرجال . »

- « لا في أي مكان ، فالأمور تسير في هذه اللحظة على ما يرام ، وسيحاولون الخروج من الثكنات ، من ثكنات « أتاراثاناس » على أقل تقدير ، وخير ما تفعله هو أن تنتظر نصف ساعة ، وليس من العبث أن يكون الاحتياطي من رجالك أكبر من عدد رجالي في هذه اللحظة بالذات . . . إذ يبدو أنهم منتصرون في اشبيلية وبرجوس وشقوبية وبالمال دون أن نذكر مراكش . . . ولكنهم هنا سيهزمون » .

- « وماذا تصنع الآن بالجنود الأسرى ؟ » .

كان الكولونيل الفوضوي منطلقاً على سجيته وكأنه قد قاتل مع بويج منذ شهر ، وكان يريد بموقفه أن يشعر بويج - عن طريق خفي - بأنه يطلب منه النصيحة ، ولا ينتظر منه أوامر . وكان اكسيمينيز يعرف ملامح بويج إذ فحصها مرات عدة في ملفات تحقيق الشخصية ، ولكنه كان مأخوذاً بقامته القصيرة الربعة التي تشبه قامة القرصان ، ومع أن بويج كان قائداً من الدرجة الثانية فإنه كان يجذب اهتمامه أكثر من الآخرين بسبب المعونة التي قدمها لأطفال سرقسطة ، وقال الكولونيل :

- « تعليمات الحكومة تقضي بتجريد الجنود من أسلحتهم وإطلاق سراحهم ، أما الضباط فيسقدمون للمحاكمة أمام مجلس عسكري » .

- « إنك أنت الذي كنت في الكاديلاك ، وهذا ما سمح بالاستيلاء على المدافع ، أليس كذلك ؟ » .

وتذكر بويج أنه شاهد في أقصى الشارع خوذات الحرس المدني التي كانت تمر مع كاسكتات حرس الهجوم المفلطحة .

- بلي .

- «كان عملاً طيباً . فلو أنهم وصلوا الى هنا بالمدافع ، فلربما تغير كل شيء» .

- « لقدواتك الفرصة في أثناء عبورك الميدان . . . »

وكان الكولونيل الذي يعشق اسبانيا عشقاً مبرحاً - معترفاً بجميل الرجل الفوضوي ، لا من أجل الثناء الذي وجهه اليه ، ولكن لأنه تكلم بذلك الأسلوب الذي يقدر عليه كثير من الأسبانيين ، ولأنه أجابه كأنه كاتب من ضباط شارل الخامس ؛ فقد كان من الواضح أنه سمع كلمة « شجاعة » بدلاً كلمة « فرصة » .

قال بويج : « كنت أخشى ألا أصل الى المدفع . . . وكنت أريد أن أصل اليه حياً أو ميتاً . . . وأنت . . . ماذا جال بخاطرك ؟ »

وابتسم اكسيمينز . . . كان عاري الرأس ، وشعره الأبيض القصير يشبه زغب البطة ، والبطة هو الأسم الذي أطلقه رجاله عليه بسبب عينيه الضيقتين السوداوين جداً وأنفه المفلطح .

- « في مثل هذه الحالة ، تقول الساقان : « هيا بنا . . . ماذا أنت فاعل أيها الأحمق ! » وعلى الأخص تلك الساق التي تطلع . . . وأغمض إحدى عينيه ، ورفع سبابته :

« ولكن القلب يقول : « أقدم . . . » ، ولم أر قط الرصاص يهمني كما يهمني الغيث ، ومن الممكن في ذلك المكان المرتفع أن يخلط المرء بين الرجل وظله ، وهذا يقلل من فعالية التصويب . »

قال بويج في حسد : « كان الهجوم حسناً » .

- «أجل . . . إن رجالك يعرفون كيف يقاتلون . . ولكنهم لا يعرفون كيف يحاربون» .

ومرت تحتهم على الرصيف محفات (نقالات) خالية ، ولكنها ملطخة بالدماء .

قال بويج : «إنهم يعرفون القتال» .

وكان بعض باعة الزهور قد ألقوا بأزهار القرنفل على المحفات ، وكانت الزهرات البيض ملقاة على الأحزمة الى جانب بقع الدماء .

وقال بويج : «حينما كنت في السجن لم أكن أتصور وجود كل هذا الاخاء» .

وعند كلمة «سجن» أدرك أكسيمينز أنه - وهو الكولونيل في حرس برشلونة المدني - على وشك أن يعاقر الخمر مع زعيم من زعماء الفوضويين ، فابتسم مرة أخرى . وكان رؤساء هذه الجماعات المتطرفة يتحلون جميعاً بالشجاعة ، والكثيرون منهم قد قتلوا أو أصيبوا بجراح ، وكانت الشجاعة بالنسبة لأكسيمينز كما هي بالنسبة لبويج شيئاً كحب الوطن ، ومر المقاتلون الفوضويون في ضوء الفندق بوجناتهم السود ، إذ لم يكن فيهم حليق واحد ؛ لأن القتال بدأ في وقت مبكر . ومرة أخرى تدلت زنبقة من إحدى قضبانها الخشبية .

وارتفع وهج أحمر فيما وراء الميدان ، ووهج آخر بعيد على الهضبة .

ثم ارتفعت هنا وهناك كرات مرتعشة حمراء صافية ، وكما طلبت برشلونة النجدة في ذلك الفجر بما أطلقتها من زئير صفاراتها فقد أحرقت هذه الليلة كنائسها جميعاً . واقتحمت رائحة النيران ذلك الصالون الرحب المفتوح على ليل الصيف ، وألقى أكسيمينز ببصره الى سحب الدخان الهائلة وقد أضيئت من أسفل ، وخيمت فوق ميدان قطالونيا ، فنهض ورسم علامة الصليب . . لم يقم بهذه الحركة علانية كأنما ليشهد الناس على إيمانه ، بل قام بها وكأنه وحده .

وسأله بويج : « هل تعرف الثيوصوفية ؟ »

وأمام باب الفندق ، كان عدد من الصحافيين يصخبون ويتحدثون عن
حياد رجال الدين الأسبان ، أو يتحدثون عن رهبان سرقسطة الذين صرعوا
جنود نابليون بضربات الصلبان . وارتفعت أصواتهم واضحة في الليل على
الرغم من طلقات المدافع والصيحات البعيدة .

وغمغم أكسيمينز دون أن يحول نظراته عن الدخان : « آه ! إن الله لم
يوجد لكي يقحم في الأعيب الناس كما تدس علبة القربان في جيب
سارق ! »

- « ممن استمع عمال برشلونة الى ما يقال عن الله ؟ لقد استمعوا الى
ذلك من أولئك الذين يدعون باسمه الى فضائل اضطهاد الأشتوريش . . .
أليس كذلك ؟ » .

- « كلا ، بل عرفوه عن طريق الأشياء الوحيدة التي يسمعاها الانسان
حقاً في حياته عن طريق الطفولة والموت والشجاعة . . لا عن طريق أقوال
الناس ! فلنفترض أن الكنيسة الاسبانية لم تعد بعد جديرة بمهمتها ، ولكن
كيف يمنعك القتلة الذين ينتمون الى أسرتك - ولا شك في وجودهم - من أن
تسلك سبيلك الخاص ؟ من الخطأ الحكم على الناس بمعيار دناءتهم . . . » .

- « حين نرغم جمهوراً من الناس على أن يحيا حياة منحطة لا يدفعهم
هذا الى أي سمو في التفكير ، ومن الذي كان « مسؤولاً عن هذه
النفوس » كما تقول ، منذ أربعة قرون ؟ لو أنهم لم يتعلموا البغض على
هذا النحو الجيد فلربما تعلموا الحب . . أليس كذلك ؟ » .

ونظر « أكسيمينز » إلى السنة اللهب البعيدة :

- « هل تأملت صور الأشخاص الذين دافعوا عن أنبل القضايا ؟ كان
ينبغي أن تكون مرحلة . . أو على الأقل رزينة . . بيد أن أول تعبير يرسم
عليها . . هو دائماً الحزن . . . » .

- « القساوسة شيء ... والقلب شيء آخر ... ولكنني لا أستطيع أن أشرح نفسي لك ... ومن عادتي أن أتكلم ، ولست جاهلاً ، فأنا أعمل جامعاً للحروف ... ولكن ثمة شيئاً آخر : لقد تحدثت في أحيان كثيرة الى كتاب في المطبعة سوكان الأمر أشبه بما دار معك : فأنا أتحدث اليك عن رجال الدين ، وأنت تحدثني عن القديسة تريزا ، وأنا أتحدث اليك عن كتاب تعليم الديانة المسيحية ... وأنت تحدثني عن .. ماذا ؟ عن القديس توما الأكويني » .

- « كتاب تعليم الديانة المسيحية أهم عندي من القديس توما » .

- « إن كتابك في تعليم الديانة المسيحية يختلف عن كتابي ، وحياتي وحياتك مختلفتان كل الاختلاف . وقد قرأت ذلك الكتاب للمرة الثانية وأنا في الخامسة والعشرين ، عثرت عليه هنا في جدول ماء (وهذه قصة أخلاقية) . ولا معنى لتعليم الناس أن يعطوا خدهم الآخر أناساً لم يتلقوا سوى الصفعات منذ ألفين من الأعوام ! » .

وأشاع بويج القلق في نفس اكسيميز ، إذ كان الذكاء والغباء ممتزجين فيه امتزاجاً يختلف عما ألفه الكولونيل في غيره من الناس .

كان آخر الزبائن الذين أطلقوا من المخازن والمحال والكهوف ودورات المياه حيث سجنهم الفاشيون - يخرجون وقد انعكست ظلال النار البرتقالية على وجوههم الداهلة ، وتكاثفت سحب الدخان تكاثفاً شديداً ، وأصبحت رائحة النار من القوة بحيث بدا وكأن الفندق نفسه هو الذي احترق .

- « أما عن رجال الدين ... فاسمع ، أولاً : أنا لا أحب الناس الذين يتحدثون ولا يفعلون شيئاً ... بل أنا من الجنس الآخر . بيد أنني من جنسهم أيضاً ، ولهذا فأنا أمقتهم ، ونحن لا نعلم الفقراء ، ونعلم العمال أن يرضوا باضطهاد الأستوريش وهؤلاء القساوسة يصنعون ذلك باسم .. باسم الحب ! وكم يبعث ذلك على الأشمزاز ! هناك من الرفاق من يقول : يا لنا

من حمقى ، فالأفضل أن نحرق البنوك ! أما أنا فأقول : كلا . فان يفعل بورجوازي ما يفعله . . هذا شيء منتظر منه . أما القساوسة فكلا . وتلك الكنائس التي وافقت على اعتقال ثلاثين ألف شخص ، وعلى التعذيب ، وبقية هذا كله . . . فلتحترق ، هذا حسن ، أما أعمال الفن فلا بد من المحافظة عليها من أجل الشعب ، والكاتدرائية لم تحترق » .

- « المسيح ؟ » .

- « المسيح في نظري فوضوي ظفر بالنجاح . . . وهو الوحيد في هذا المضمار ، وبمناسبة الحديث عن القساوسة ، أقول لك : انك لن تفهم جيداً لأنك لم تكن فقيراً . . . وأنا أبغض الرجل الذي يريد أن يصفح عني لأنني فعلت خيراً ما يمكن أن أفعله » .

ونظر اليه متثاقلاً ، وكأنه عدوله هذه المرة !

- « أنا لا أريد أن يصفح عني أحد » .

وصاح مكبر الصوت في ذلك الميدان الذي ألقى الليل عليه غلالته :

« قوات مدريد لم تستقر على حال بعد .

« النظام يسود اسبانيا .

« الحكومة مسيطرة على الموقف .

« القي القبض على الجنرال فرانكو في اشبيلية .

« انتصر شعب برشلونة على الفاشيين وعلى جنود المتمردين انتصاراً كاملاً » .

ودخل النجاشي ملوحاً بذراعه وصاح مخاطباً بويج :

- « لقد خرج الجنود من المنتزه مرة أخرى ! وأقاموا متراساً » .

وقال بويج لاسكيمينيز : « إلى اللقاء » .

وأجابه الكولونيل : « إلى اللقاء » .

وفي سيارة من سيارات الحكومة رحل بويج والنجاشي بأقصى سرعة وسط ليل متوهج بالحمرة زاخر بالأناشيد . وفي حي « كاراكول » ، ومن نوافذ المواخير كان رجال الميليشيا يقذفون بالحشايا على عربات النقل التي وصلت فوراً صوب الثكنات .

وكان هناك في تلك المدينة الليلية حشايا واحجار للرصف ، وقطع الأثاث مكدسة على هيئة متاريس ، وكان أحد هذه المتاريس غريب الشكل صنع من أوراق الاعترافات ، وآخر سقطت أمامه بعض الجياد ، فبدا في نور الفئار السريع أشبه بكوم من رؤوس الخيل الهالكة .

لم يفهم بويج الغرض من المتاريس التي أقامها الفاشيون الذين يقاتلون الآن وحدهم يحاصرهم عداء الجنود ، وكانوا يطلقون النيران الآن من وراء حطام مؤلف من سيقان المقاعد ، وقد اختلط عليهم الأمر في الظلمة الحالكة بعد أن تحطمت مصابيح الشارع الكهربائية برصاص البنادق ، وما أن تعرف الثوار على بويج بعمامته حتى ردد الشارع هتافات مرحة . . ففي كل معركة يطول أمدها . . تبدأ الرغبة في تمجيد الزعماء ، وتوجه بويج - بصحبة النجاشي دائماً - إلى أول حظيرة للسيارات واستقل سيارة نقل .

كان الشارع طويلاً ، تحفه أشجار زرقاء في عتمة الليل ، وكان الفاشيون يطلقون النار دون أن يراهم أحد ، إذ كانوا يملكون مدفعاً رشاشاً ، والفاشيون يملكون دائماً المدافع الرشاشة .

وقاد بويج سيارة النقل بأقصى سرعة ، وقد ضغط على دواسة السرعة كما فعل بسيارة الصباح ، وتلاشت ضجة تغيير السرعة ، فاستمع النجاشي الى طلقة وحيدة بين طلقتين متباعدتين ، ولح بويج ينهض فجأة وقد ارتكز بقبضته على عجلة القيادة كما يرتكز على منضدة ، مطلقاً صيحة رجل حطمت الرصاصة أسنانه .

فقد غاص دولاب بمرآة موضوع بين المتاريس كأنه قذيفة في مصباحي
العربة اللذين عكستها مرآته ، بيد أن كومة الأثاث لم تلبث أن انفتحت على
مصراعيها كالباب المخلوع تحت الطلقات المتشنجة التي أطلقها النجاشي من
بندقية الرشاشة .

وتجاوز رجال الميليشيا الذين خرجوا من تلك الفجوة سيارة النقل التي
عطلتها قطع الأثاث . أما الفاشيون فقد لاذوا بالفرار الى أقرب ثكنة ، ونظر
النجاشي الى بويج دون أن يكف عن اطلاق النار ، على حين تداعى بويج على
عجلة القيادة تحجبه عمامته - صريعاً .

الفصل الثالث

٢٠ من يوليو :

بين الأجسام العارية من الخصر حتى الرأس ، أو تلك التي ترتدي قمصاناً ذات أكمام قصيرة ، وبين النسوة اللواتي يطردن ثم يعدن من جديد - حاول رجال الحرس المدني بخوذاتهم ذات الطرفين المسحوبين ورجال حرس الهجوم - حاولوا عبثاً تنظيم الجمهور الذي تناثر أفراده في المقدمة وتكاثروا في الخلف ، وصدرت عنه ضوضاء عميقة متصلة ، واقتاد ضابط الى حانة جندياً استطاع الهرب من ثكنات الجبل ، ورآهما جيم الفير وهما يتجهان الى الحانة ، فسبقهما الى الدخول . وكان المدفع ينطلق بانتظام كقلب هذا الحشد ، فيطغى صوته الضخم على طلقات البنادق النحيلة التي كانت تصدر عن النوافذ والأبواب جميعاً ، وعلى الصيحات وعلى رائحة القار والصخور الساخنة المتصاعدة من مدريد .

وتكأكات رؤوس الزبائن حول الجندي كالذباب فقال لاهتأ : « لقد قال الكولونيل : ... يجب إنقاذ ... الجمهورية . »

- « الجمهورية ؟ » -

- « أجل ؟ حين رأى أنها وقعت في أيدي البلاشفة واليهود والفضولين . »

- « وبم أجابه الجنود ؟ » -

- « قالوا . . . مرحى ! » .

- « مرحى ؟ » .

- « أجل . . لماذا ؟ أنهم لا يعبأون بشيء ! وينبغي أن أقول : إن الجنود الجدد - على الأخص - هم الذين كانوا يجيئون . . . ولقد كانت الثكنات منذ أيام . . . مملوءة بالجدد » .

وسأل صوت : « وماذا عن جنود اليسار ؟ »

كان الكونياك والمائثانيليا يرتعشان في الأكواب الثابتة على وقع القتال . . . وتجرع الجندي كأسه ، واسترد أنفاسه رويداً رويداً .

- « ولم يبق إلا أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن الموضوع ، أما الآخرون جميعاً فقد نقلوا منذ أسبوعين . وربما كان عدد اليساريين عندنا حوالي الخمسين . ولكنهم لم يكونوا هناك : ويقال أنهم وضعوا جميعاً كحزمة واحدة في أحد الأركان ! » .

وكان المتمردون مقتنعين بأن الحكومة لن تقوم بتسليح الشعب ؛ ولهذا كانوا ينتظرون الفاشيين القادمين من مدريد ، بيد أن هؤلاء لم يحركوا ساكناً بعد .

وساد الصمت بغتة ؛ فقد هُييء مكبر الصوت للعمل ، وكانت الصحف لا تصدر إلا مرة واحدة في اليوم ، وهكذا كان مصير اسبانيا يتم التعبير عنه بالاسلكي .

« ثكنات برشلونة مستمرة في الاستسلام » .

« استولى النقيبون بقيادة أسكاسو ودوروتي على ثكنة أثارازاناس ، ولقي أسكاسو مصرعه في أثناء الهجوم على الثكنة » .

« استسلمت قلعة مونتويتش للشعب دون قتال » .

وهتفت الحانة كلها من فرط الحماس ، فلم يكن هناك اسم أكثر دلالة من مونتيوتش في ارتباطه بالذكريات الأليمة - حتى في أقاليم الأشتوريش .

« . . . وبعد أن رفض الجنود تنفيذ الأوامر الصادرة من ضباطهم ، وبعد أن استمعوا الى مكبرات الحكومة الشرعية لأسبانيا - اعلنوا أنهم لا يدينون بالطاعة للضباط المتمردين . »

وسأل الضابط : « من الذي يجارب في الثكنة في هذه اللحظة ؟ »

- « الضباط ، والجنود الجدد ، أما رفاقنا فيحملون عليها بكل ما في وسعهم ، ولا بد أن الكهف ممتلئ بهم ، وحين شرع مدفعكم في اطلاق نيرانه كف الجميع عن السير ، وعرفنا معنى هذه الطلقة : فنحن نعلم جيداً أن الفوضويين والبلاشفة لا يملكون أي مدافع . وقلت للرفاق : « إن تلك الخطبة التي ألقاها الكولونيل . . . ما هي إلا طلقة أخرى من طلقات الفاشيين . وحين أراد أن تطلق النار على الشعب . . . قفزت اليكم . »

ولم يتوصل الجندي الى التحكم في رجفة كتفيه ، وكان المدفع يطلق نيرانه باستمرار . . ودوي القنابل يتردد صداه .

وكان جيم قد شاهد المدفع الذي اشرف على استخدامه ضابط من حرس الهجوم برتبة كابتن ، ولم يكن هذا الضابط من رجال المدفعية ؛ ولهذا فقد كان يطلق المدفع دون أن يتمكن من تصويبه . وكان الى جانبه المشال لوبيز ، وهو قائد الميليشيا الاشتراكية التي ينتمي اليها جيم . ولم يكن الموقع يسمح بوضع المدفع في مواجهة الباب ، ولهذا كان الكابتن يطلق النار على الجدران كيفما اتفق ، وانفجرت القنبلة الأولى - وكانت عالية جداً - في الضواحي ، وأما الثانية فانفجرت عند جدار من الطوب الأحمر ، فأثارت غباراً عالياً أصفر اللون ، وكان المدفع الذي لم يكن مثبتاً في مكانه - يتراجع تراجعاً عنيفاً كلما أطلق إحدى قنابله فيعيده الى مكانه رجال الميليشيا الذين يقودهم لوبيز وقد شمروا عن سواعدهم وكأنهم رسوم في لوحات الثورة

الفرنسية ، ومع ذلك فقد اخترقت قبلة إحدى النوافذ ، وانفجرت داخل
الثكنات .

قال الجندي : « انتبهوا .. حين تدخلون .. ذلك أن الرفاق لم يطلقوا
عليكم نيرانهم .. وقد فعلوا ذلك عمداً ! » .

- « وكيف يمكن المرء أن يتعرف على الجدد ؟ » .

- « على الفور ؟ لا أعرف ... ولكن فيما بعد أستطيع أن أقول لكم :
أنهم بلا عائلات ... دائماً » .

وكان يريد أن يقول : إن الفاشيين المنضمين إلى الجيش لمحاربة الثورة
كانوا يخفون زوجاتهم الأنيقات جداً ، وقد كانت الشوارع القريبة مملوءة
بزوجات الجنود اللواتي ينتظرن ، كن الجماعة الوحيدة الصامتة بين هذا
الحشد .

وعلى حين غرة ارتفع ضجيج طلقات البنادق فوق جلبة سيارات النقل :
هذا عدد جديد قد وصل من رجال حرس الهجوم .

وكانت هناك فعلاً سيارة مصفحة من سياراتهم . والمدفع يرج النبذ في
الأكواب دائماً ، وهؤلاء أشخاص يتأبطون بنادقهم ، ويحملون الأنباء ،
وكانهم ممثلون بثياب التمثيل جاؤوا ليعاقروا الخمر في مشرب الأستوديو في
فترة الراحة بين منظرين . ولكن ها هنا آثاراً تركتها النعال الملطخة بالدماء
على أرضية المشرب البيضاء المخططة كرقعة الشطرنج .

- « هذا كبش آخر ! » .

والواقع أن لوحاً ضخماً من الخشب كان يتقدم كأنه وحش هندسي ،
يحملة خمسون رجلاً في صفين متوازيين ، وقد انحنت قاماتهم الى الأمام كأنهم
نواتية يشدون مركباً ، وكان بعضهم يرتدي ياقة ، والبعض الآخر بدونها .
ولكنهم كانوا جميعاً يضعون بنادقهم فوق ظهورهم .

واجتاز هذا الموكب انقاض الطابق الأرضي المكونة من الجبس وقطع الحديد ، ثم قرع الباب كأنما بصناجة هائلة ، وانسحب ، ومع أن الثكنات كانت مملوءة بالصيحات والانفجارات والدخان فقد تردد الصوت خلف بابها كما يتردد الرنين في دير للرهبان . وسقط ثلاثة ممن يحملون اللوح برصاص الفاشيين ، فحل جيم محل أحدهم . وفي اللحظة التي شرع فيها الكبش في التحرك من جديد أمسك نقابي ضخمة الجثة ذو حاجبين كثيفين رأسه بين راحتيه وكأنما يريد أن يسد أذنيه ، وهبط على المحفة السائرة وقد تدلى ذراعه من ناحية ، وساقاه من الناحية الأخرى ، ولم يفتن إليه معظم الحاملين ؛ ومع ذلك استمر الكبش في حركته بطيئاً متثاقلاً ، وقد انثنى الرجال نصفين على الخشب . أما جيم الذي كان عمره ستة وعشرين عاماً فقد كانت الجبهة الشعبية تعني عنده الاخاء في الحياة والموت على السواء ، وكان أملة الذي وضعه في المنظمات العمالية يزداد بمقدار يأسه من أولئك الذين حكموا بلاده منذ عدة قرون ، وكان يعرف على الأخص أولئك « المحاربين » المجهولين المستعدين لكل عمل ، والذين يجسدون روح التفاني في اسبانيا ؛ ولهذا كان يجارب من كل قلبه تحت تلك الشمس الحارقة ، وتحت رصاص الفلانجيين دافعاً تلك الكتلة الخشبية الضخمة التي تحمل رفيقهم الصريع نحو مصراعي الباب . . . وقرع الكبش ثانية الباب الذي تأرجحت أمامه جثة القتيل ، وهنا أخذه زميله - وكان راموس أحدهما - ليحملاه ، وتراجعت الكتلة الخشبية الى الخلف في ببطء أشد ؛ فقد تساقط خمسة رجال آخرون ، وهناك حيث مر الكبش بين صفين من القتلى والجرحى - كان ثمة طريق أبيض خاو .

وارتفع نهار يوليو ، فالتمعت الوجوه عرقاً ، وتحت طلقات المدفع المكتومة وضربات اللوح الخشبي التي كانت توقع على أصوات الهجوم جميعاً ، وفي الشوارع المنحدرة ، وعند درجات السلم المؤدية الى الثكنات - كان حشد من الموظفين والعمال والبورجوازيين الصغار يقبضون على بنادقهم بأيديهم - وكانت الحكومة قد وزعت البنادق ، ولكنها لم توزع حملاتها -

ويضعون خزانات الرصاص مدلاة وسط صدورهم في عقود قصيرة جداً . .
كان هؤلاء ينتظرون الهجوم ، وقد شخصت أبصارهم الى الباب .

وخفف الكبش من سرعته ، وانقطع المدفع عن اطلاق نيرانه ، ومالت
الرؤوس العارية والخوذات الى الوراء ، وحتى الفاشيون كفوا عن اطلاق
النار ، وترامى الى الأسماع الصوت العميق لمحرك طائرة :

- « ما هذا ؟ » .

وانجهت الأنظار صوب جيم ، وكان رفاقه في الميليشيا الاشتراكية يعرفون
أن هذا العملاق ذا الجلد الأحمر وخصلات الشعر السوداء المتهدلة على محياه -
كان مهندساً في مصنع « هسبانو » وكانت الطائرة إحدى طائرات الجيش
الأسباني العتيقة من طراز بريجيت . ولم تلبث أن هبطت في خط منحني كبير
فوق الصمت الكثيف الذي خيم على الحشد ، وانفجرت قنبلتان في فناء
الثكنات ، وتطايرت منشورات متناثرة في الجو ظلت معلقة لحظة في سماء
الصيف فوق هتافات الجمهور .

ومن الشوارع المحيطة بالثكنات اندفع الحشد مهاجماً من خلال درجات
السلم ، ودق الكبش مرة أخرى على الباب ، فقابله وابل يائس من
الرصاص . وفي اللحظة التي تراجع فيها برزت من إحدى نوافذ الواجهة
ملاء عقدت في آخرها عقدة ضخمة حتى يمكن القاؤها . ولم يرها الكبش ،
فعاود اندفاعه وحطم الباب الذي كان الفاشيون قد فتحوه لتوهم في ضربة
واحدة .

وكان الفناء الداخلي خالياً تماماً .

وراء هذا الخلاء وخلف نوافذ الفناء وأبوابه بدأت عملية الأسر .

خرج الجنود في أول الأمر وهم يبرزون بطاقتهم النفاية ، وقد تعرى

جدع الكثيرين منهم . وكان واحد من الفوج الأول يترنح ، وبينما كان الحشد ينهال عليه بالأسئلة انطرح على أربع ، وأخذ يعب من ماء الجدول . ثم جاء الضباط ، رافعين أيديهم في الهواء ، وكان بعضهم يبدو غير مكترث أو يتظاهر بعدم الاكتراث على حين أخفى أحدهم وجهه داخل قبعته العسكرية ، وابتسم آخر كأنما لا يعدو الأمر أن يكون مجرد دعابة لطيفة ، لم يكن هذا الأخير يرفع يديه إلا الى مستوى كتفيه ، فبدا وكأنه يتقدم نحو رجال الميليشيا لمعانقتهم .

وفوقهم سقط آخر مصراع من إحدى النوافذ الوسطى كان قد أصابه المدفع ، ومن اطار النافذة على الشرفة التي كان نصفها مفقوداً اندفع شاب أخذ يطلق ضحكات عالية ، وعلى ظهره بندق ثلاث ، وفي يده اليسرى اثنان يجرحهما من الماسورة كما يجرح المرء كلباً بسلسلة، وألقى بهما في الشارع صائحاً : « سلام ! » .

وهرعت زوجات الجنود ، وميليشيا الكباش ، ورجال الحرس المدني وركضت النسوة وهن ينادين في دهاليز الثكنات الشبيهة بدهاليز الأديرة وقد سادها صمت غريب منذ أن كف المدفع عن اطلاق نيرانه . وبلغ جيم ورفاقه الطابق الأول - حاملين بنادقهم على أكتافهم ، على حين دخل بعض رجال الميليشيا من فتحة ما تقدم بعض الضباط تزفهم جماعة مبرحة من المدنيين التفت خزانات الذخيرة حول صديرياتهم ، وقد امسكوا بنادقهم في وضع التصويب .

ولم يكن من شك في أن الفتحة كانت واسعة . . إذ تكاثر عدد جنود الميليشيا ، ومن الخارج ترامت هتافات جمهور ضخم هزت الجدران وأطل جيم من النافذة : فشاهد آلافاً من الأذرع العارية بقبضات مطبقة تبرز من الحشد دفعة واحدة كأنها في تمرين رياضي ، وبدأ توزيع الأسلحة التي تم الاستيلاء عليها .

كان الجدار الذي رصت أمامه البنادق الحديثة وسيوف المسرح يخفي عن الشارع فناء رجباً لمحج جيم ، وفي مؤخرة هذا الفناء كان هناك مصنع للدراجات . نهب هذا المصنع على حين كان رجال الميليشيا يقاتلون ، وأضحى الفناء مفروشاً بمساحات كبيرة من أوراق اللف ومن موجهات الدراجة ، وتذكر جيم النقابي الذي كان مثنياً نصفين فوق الكباش الخشبي .

وفي القاعة الأولى كان يجلس ضابط ، وقد وضع رأسه على يده فوق بقعة من الدم كان لا يزال يسيل على المائدة . وعلى الأرض ضابطان آخران . وبالقرب من يد كل منها مسدس .

أما في القاعة الثانية - وهي مظلمة الى حد ما - فكان ثمة جنود راقدون ، وكانوا يزمجرون قائلين : « سلام ! سلام ! » دون أن يتحركوا من أماكنهم وكان هؤلاء هم الذين يرتاب الفاشيون فيهم لولا أنهم للجمهورية أو لتعاطفهم مع الحركات العمالية . وعلى الرغم من الحبال التي أوثقوا بها فقد كانوا يضربون الأرض بكعوبهم اغتباطاً ، وعانقهم جيم والميليشيا على الطريقة الأسبانية وهم يحلون وثاقهم .

قال أحدهم : « هناك رفاق لنا أيضاً في أسفل الثكنات » .

فهرع جيم وصحبه عن طريق سلم داخلي الى حجرة أشد إظلاماً ، وسارعوا الى الرفاق المقيدون وهم يعانقونهم أيضاً : وكان هؤلاء قد أعدموا بالرصاصة الليلة البارحة .

الفصل الرابع

(١) من يوليو

قال « شاد » مخاطباً قطاً أسود ينظر اليه مرتاباً : « مساء الخير ! » . وغادر مائدته في مشرب « لاجرانجا » ويسط يده ، غير أن القط اختفى في ثنايا الحشد والليل .

واستطرد « شاد » : « والقطط أيضاً قد أصبحت حرة منذ قيام الثورة ، ولكنني ما زلت أشمئز منها ، أما أنا فما زلت دائماً واحداً من المضطهدين » .

فقال لوبيز : « تعال واجلس أيها السلحفاة ، القطط حيوانات معادية ، وربما كانت فاشية ، أما الكلاب والحياد فلا تزيد على امعاء خنزير محشوة ، لن تستطيع أن تستخلص منها شيئاً للنحت . الحيوان الوحيد الذي يعد صديقاً للإنسان هو نسر البرانس . وفي المرحلة التي كنت مولعاً فيها بنحت الوحوش كنت أملك نسراً من جبال البرانس . وهو طائر لا يتغذى إلا على الثعابين . والثعابين تكلف كثيراً ، ولما كنت لا أستطيع سرقتها من حديقة النباتات فقد كنت أشتري لحمًا رخيصاً ، وأقطعه مزقاً طويلة أحركها أمام النسر ، فيتظاهر - على سبيل اللطف منه - بالأنخداع ، ثم لا يلبث أن يلتهمها في شراهة ! »

وقاطعها مكبر الصوت قائلاً : « هنا راديو برشلونة . . . المدافع التي استولى عليها الشعب اتخذت مواقعها ضد « الكابيتانيا » حيث التجأ النزعماء المتمردون » .

وبينما كان « شاد » يراقب « القلعة » وهو يدون ملاحظات لمقاتله التي سينشرها غداً ، لاحظ أن النحات بأنفه البوربونوية يشبه الزعيم الأمريكي « واشنطن » ، على الرغم من غلظة شفته السفلى وشعره الذي يشبه عرف الديك ، بل يشبه على الأخص نوعاً من البيغاوات الضخمة ، إذ كان في هذه اللحظة بالذات يحرك ذراعيه كأنهما جناحان .

وهتف قائلاً : « إلى المنظر .. في الداخل ! فنحن نلتقط الآن مناظر الفيلم ! » .

وكانت مدريد - في ضوء المصابيح الكهربائية الساطع - مدريد المكتسية بكل ما ألقته عليها الثورة من ثياب تنكرية - كانت عبارة عن استديو ليلي .

بيد أن « لوبيز » ثاب إلى الهدوء ، فقد أقبل عليه رجال الميليشيا بصافحونه ، وكانت شهرته بين الفنانين الذين يترددون على مشرب لاجرانجا لا ترجع إلى أنه كان يطلق البارحة نيران مدفع الجبل كما كان الجنود يطلقونه في القرن الخامس عشر ، بل انها لا ترجع إلى موهبته بقدر ما ترجع إلى أنه أجاب عن ملحق السفارة الذي طلب منه أن ينحت تماثلاً نصفياً لدقة ألبا بقوله : « من الممكن أن أصنع ذلك في حالة واحدة : إذا وقفت أمامي كما تقف جاموسة البحر ! » وكان « لوبيز » من أكثر الناس جدية في العالم ، قابلاً دائماً في حديقة النباتات ، أكثر معرفة بالحيوانات من القديس فرانسوا (الأسيسي) وهو يؤكد أن جاموس البحر يقبل على المرء حين يصفر له ويظل ساكناً ، وينصرف حين لا نكون في حاجة إليه .

وكان لوبيز ينحت تماثله من معدن الدوريت ، وبعد أن استمعت الدوقة إليه عدة ساعات وهو يطرق المعدن كالحداد رأت أن تماثلها النصف لم « يتقدم » أكثر من سبعة ملليمترات .

ومر الجنود تحوطهم الهتافات ويزفهم الأطفال .. وكان هؤلاء الجنود يؤلفون الكتبية التي تخلت عن الضباط الفاشيين المتمردين في قلعة هنارس

(قلعة عبد السلام) لينضموا إلى الشعب .

قال شاد : « أنظر إلى هؤلاء الصبيان الذين يرون ، لقد جن جنونهم زهواً . ثمة شيء أحبه هنا . فالرجال أشبه بالأطفال . وكل ما أحبه يشبه الأطفال من قريب أو بعيد ، وأنت تنظر الى رجل وترى الطفل فيه - بطريق المصادفة - فتتعلق به ، فإذا فعلت هذا بالنسبة لامرأة - أصبحت لها عاشقاً . انظر اليهم : إنهم يظهرون الآن الطفل الذي يخفونه عادة في نفوسهم ، وها هم أولاء جنود الميليشيا يهرجون ، على حين يموت آخرون في اقليم الشارات . . والأمر سيان .

« وفي أمريكا يصورون الثورة على أنها انفجار للغضب . . وحين ذاك لا يسيطر على الجميع سوى المرح » .

- « لا وجود لشيء سوى المرح ! » .

لم يكن « لوبيز » يلتزم الدقة إلا حين يتحدث عن الفن . . . ولما لم يجد الكلمات التي يبحث عنها اكتفى بأن قال :

- « أنصت » .

كانت السيارات تنهب الأرض بأقصى سرعتها في الاتجاهين مغطاة بحروف ضخمة بيضاء هي الحروف الأولى من أسماء النقابات ، وكان راكبوها يجيئون بقبضات أيديهم ويصيحون : « سلام ! » ووحدت هذه الصيحة بين هذا الحشد الظافر كأنها نشيد ولاء أخوي .

وقال : « كل انسان في حاجة الى أن يعثر يوماً على ما فيه من غنائية » .

- « يقول جرنيكو ان الأمر هو أعظم قوى الثورة » .

- « يقول جارسا مثل هذا القول . . بل ان العالم كله يقول هذا . . غير أن جرنيكو يبعث في نفسي الملل . . المسيحيون جميعاً يبعثون في نفسي الملل . . . استمر »

كان « شاد » يشبه قسيساً من مقاطعة بريتانيا الفرنسية ، وهذا ما أخذه لوبيز على أنه السبب الجوهرى في عداته للنزعة الكهنوتية .

- « ومع ذلك ، فإن هذا حق ، أيها السلحفاة ! أنظر . . أنا مثلاً - ماذا أريد منذ خمسة عشر عاماً ؟ إحياء الفن . حسن . . إن كل شيء هنا على استعداد لذلك . هذا الجدار الذي يقف قبالتنا . . هؤلاء الأوغاد . إنهم يرون فوقه بظلالهم ، ومع ذلك فإنهم لا ينظرون اليه . وهنا مجموعة كبيرة من المصورين ، وكأنهم ينبشون بين أحجار الأرصفة ، وفي الأسبوع الماضي اصطدمت بأحدهم تحت بواكي الأسكوريال . . . وكان نائماً . هؤلاء يجب إعطاؤهم الجدران لكي يعملوا عليها . ونحن نحتاج الى جدار نجده دائماً قدرأ ضارباً الى الصفرة ، أو في لون الأطلال . وهنا ينبغي أن تجعله أبيض اللون وتعطيه مصوراً ! » .

كان شاد يدخن غليونه كأنه زعيم الهنود الحمر وهو يصغي في اهتمام ، اذ كان يعلم الآن أن لوبيز يتحدث حديثاً جدياً . والمجنون يحاكي الفنان ، والفنان يشبه المجنون ، وكان شاد لا يثق في النظريات الفنية التي تهدد كل ثورة ، ولكنه كان على معرفة بأعمال الفنانين المكسيكيين وبفريسكات لوبيز الوحشية الزاخرة بالمخالب والقرون الأسبانية التي كانت في الواقع لغة انسان مشتبك في صراع .

واتجهت سيارتان للركاب محملتان بالميليشيا . ومكدستان بالبنادق شطر طليطلة . . فهناك لم يكن التمرد قد انتهى بعد .

- « نحن نعطي المصورين الجدران - يا صديقي . . الجدران العارية ، ونقول لهم : هيا ارسموا وصوروا . . . وأولئك الذين سيقدمون على مثل هذا العمل في حاجة الى أن تتحدث اليهم ، فليس من المستطاع أن تصنع فناً يتحدث الى الجماهير حين لا يكون لديك ما تقوله لهم ، بيد أننا نكافح معاً ، ونريد أن نضع حياة جديدة معاً . . ولدينا الكثير مما يمكن أن نقوله . إن الكاتدرائيات تكافح من أجل الجميع - مع الجميع ضد الشيطان . .

وعندهم بالإضافة الى ذلك حلق فرانكو . إننا . . . » .

- « الحديث عن الكاتدرائيات يجعلني أتصيب عرقاً . فثمة اخاء هنا في الشارع - أكثر من الاخاء الذي بأية كاتدرائية قائمة في الطرف الآخر .
إستمر » .

- « ليس الفن مشكلة موضوعات ، ولا وجود لفن ثوري عظيم . لماذا ؟
لأنهم يناقشون توجهات طيلة الوقت بدلاً من الحديث عن وظيفة الفن ،
ولهذا ينبغي أن يقال للفنانين : هل أنتم في حاجة الى مخاطبة المحاربين ؟
(أعني الى شيء محدد ، لا إلى شيء مجرد كالجماهير مثلاً) تقولون : لا ؟
إذن أفعالوا شيئاً آخر . نعم ، إذن اليكم هذه الجدران ، الجدران يا
صديقي . . وهذا هو كل شيء ، فسوف يمر أمامها ألفان من الأشخاص كل
يوم وأنتم تعرفونهم . وأنتم « تريدون » الحديث اليهم . . . والآن . . . رتبوا
أنفسكم . ولديكم الحرية والحاجة الى استخدامها . وهذا كل ما في الأمر ،
نحن لا نبدع روائع ، فهذا لا يمكن أن يتم تحت الطلب ، بل نبدع
أسلوباً » .

وكانت القصور الأسبانية التي تحتلها البنوك وشركات التأمين تشرف من
عل في الظلام ، وهناك ، في مكان أدنى من ذلك قليلاً ، كانت أبنية
الوزارات تبدو ساكنة في هذا الليل الذي لا نسمة فيه بكل ما فيها من فخامة
مفرطة . وبعرباتها المظلمة وبالألاء الأندية ، وبالثرينات القديمة المعلقة في فناء
وزارة البحرية .

وغادر المشرب رجل عجوز ، وفي أثناء عبوره ترامت الى سمعه بضع
كلمات ، فوضع يده على كتف لوبيز قائلاً :

- « سأرسم لوحة لرجل عجوز يجبو ولشاب يغتسل ، والأحمق الذي
يغتسل رياضي سخيف لا يستقر في مكانه . . . إنه فاشي . . . ! » .

ورفع لوبيز رأسه ، كان الشخص الذي يتحدث اليه مصوراً أسبانياً

مرموقاً ، وقال لوبيز في نفسه مكملاً : « أو هو شيوعي » .
- « .. فليكن فاشياً إذن .. والعجوز الذي يجب .. هو اسبانيا
العجوز ... أحبيك يا عزيزي لوبيز » .

وانصرف ظالماً بين الهتافات التي تملأ الليل ، فقد كان رجال حرس
الهجوم الذين هزموا متمردى « القلعة » عائدين الى مدريد .. ومن الموائد
ومن الأرصفة كانت القبضات المرفوعة تلوح في الليل ، ومُرُّ رجال الحرس
رافعين قبضاتهم هم أيضاً .

واستأنف لوبيز كلامه منطلقاً : « من المحال ألا يتولد أسلوب عن قوم في
حاجة الى الحديث وقوم في حاجة الى الأنصت . فلنتركهم هادئين ولنزودهم
بفرشاة الهواء ، ومسدسات الماء ، وكل ذلك التكنيك الحديث ، ثم لنعطهم
فيما بعد قطعة من السيراميك (الفخار) ولنتنظر قليلاً ! » .

قال شاد متفكراً وهو يشد أطراف رباط عنقه المعقود على هيئة فراشة :
« إن خير ما في مشروعك هو أنك معتوه .. وأنا لا أحب سوى المعتوهين ...
أو ما كان يسمى في الزمن الخالي بالبراءة ... ولأغلب الناس رؤوس كبيرة
ولكنهم لا يعرفون ماذا يصنعون بها .. أما هؤلاء فهم معتوهون مثلنا » .

وطغت الأقوال على صوت تغيير السرعة في الشارع ، يصحبها وقع
خطوات على نشيد « العالمية » . ومرت أمام المشرب امرأة تحمل آلة خياطة
تضمها الى صدرها كأنها حيوان مريض .

وظل « شاد » بلا حراك ، واضعاً يده على أنبوبة الغليون ، وازاح شاد
قبعته الصغيرة اللينة ذات الحواف المرفوعة الى الوراء وتصافح لوبيز في اثناء
عبوره وضابط يحمل نجمة من الجلد على قميصه الأزرق . وسأله لوبيز
قائلاً :

- « كيف الحال في سبيرا ؟ » .

- « انهم لا يستطيعون اجتيازها ، ورجال الميليشيا يتدفقون بلا انقطاع » . فقال لوبيز على حين واصل الضابط سيره : « رائع . . . وسيأتي يوم يسود فيه هذا الأسلوب أسبانيا كلها . . كما توجد كاتدرائيات في أوروبا ، وكما يسود أسلوب المصورين الفريسك في المكسيك » .

- « أجل . . . ولكن أرجو ألا تذكر لي هذه الكاتدرائيات مرة أخرى » .

وكانت سيارات المدينة التي تم الاستيلاء عليها والتي تسير بأقصى سرعة في خدمة الحرب أو السلم تتلاقى بين الهتافات الأخوية ، ومنذ الصباح كانت الصور التي التقطها في الجبل مصورو الصحف الفاشية القديمة المؤممة تنتقل في الشرفة من يد الى يد ، وفيها تعرف رجال الميليشيا على أنفسهم . وسأل شاد نفسه : هل يكرس مقالته هذه الليلة لمشروع لوبيز أو لمناظر « لاجرانجا » الرائعة ، أو للأمل الذي يزخر به الشارع ؟ . ربما كرسها لهذا كله ، (كانت تقف خلفه إحدى مواطناته وهي تأتي بإشارات ، وعلى صدرها وضعت علماً أمريكياً مساحته أربعون سنتيمتراً مربعاً . . وعلم فيما بعد أنها صماء بكباء) .

أجل . . من الممكن أن يولد أسلوب من هذه الجدران المتناثرة ، ومن هؤلاء الرجال الذين يمرون أمامه . . نفس هؤلاء الرجال الذين يمرون أمامه في هذه اللحظة ، تهزم نشوة الحرية . إن بينهم وبين مصوريهم ذلك التواصل الخفي الذي هو في الواقع الدين المسيحي والثورة ، وهم قد اختاروا نفس طريقة الحياة . . والموت . . ومع ذلك . . .

وقال شاد : « هذا مشروع خيالي . . أو لعله شيء ينبغي أن تقوم أنت بتنظيمه أو تقوم به رابطة الفنانين الثوريين أو الوزارة . . . أو جمعية النسور وعجول البحر . . أو ماذا ؟ » .

ومر أناس يحملون لفائف من الثياب ، وأعلاماً مطوية في عناية يضمونها تحت أذرعهم كأنها حقائب المحامين الجلدية ، ومر بورجوازي صغير يضم الى صدره لحافاً بدا أحمر قانياً في ضوء المشرب ، تماماً كما كانت تضم المرأة التي قبله آلة الخياطة ، ومر غير هؤلاء يحملون مقاعد مقلوبة فوق رؤوسهم .

وأجاب لوبيز : « سنرى .. وإن كان ذلك لن يتحقق بوساطتي الآن على كل حال .. ففرقتي راحلة الى سيرا ... ولكن تستطيع أن تطمئن » .

ونفت شاد دخان غليونه :

- « عزيزي لوبيز : ليتك تعرف كم أمقت البشر جميعاً ! » .

- « ليست هذه أنسب لحظة لذلك .. » .

- « لا تنس أنني كنت في برغش أول أمس ... كان الأمر وأسفاه .. مماثلاً .. كان الأمر مماثلاً ... فالحمقى المساكين يتآخون مع الجنود ... ! » .

- « ولكن الأمر هنا على خلاف ذلك أيها السلحفاة ، فالجنود هم الذين يتآخون مع الحمقى المساكين ! » .

- « أما في الفنادق الكبرى فقد شاهدت الكونتيسات بظهورهن العارية يعاقرن الخمر مع الفوضويين الفلاحين الذين يضعون البيريه فوق رؤوسهم ، والبطاطين على أكتافهم .. » .

- « والفلاحون يموتون في سبيل هاته الكونتيسات اللواتي لا يمتن من أجل الفلاحين .. ولكن ... لا بد من النظام ! » .

- « وهم يبصقون حين تصل الى آذانهم كلمات مثل : الجمهورية أو النقابة .. هؤلاء الحمقى التعسرون .. ولقد رأيت قسيساً يحمل بندقية كان يعتقد أنه يدافع عن إيمانه .. وفي حي آخر شاهدت رجلاً أعمى ، وعلى عينيه عصا جديدة كتب عليها هذه الكلمات بحبر بنفسجي : « يحيا المسيح الملك » واعتقد أنه كان يظن نفسه متطوعاً هو أيضاً » .

- « لقد كان أعمى ! » .

ومرة أخرى ساد حولهم الصمت . كما يحدث دائماً حين تصيح مكبرات
لصوت « آلو » بأصواتها المكتومة :

- « هنا راديو برشلونة . . تستمعون بعد لحظة الى الجنرال جوديد » .

وكان الناس جميعاً يعرفون أن جوديد هو زعيم الفاشيين في برشلونة وأنه
يقود التمرد من الواجهة العسكرية ، وبدا الصمت كأنه يمتد حتى الحدود
المحيطة بمدريد .

وقال صوت يشيع فيه التعب ولكنه لا يخلو من وقار : « هنا . . .
الجنرال جوديد ، وأنا اخاطب الشعب الأسباني لأعلن اليه أن القدر كان
ضدي وإنني الآن اسير . . وأقول ذلك حتى يشعر كل أولئك الذين لا
يريدون مواصلة القتال بأنهم في حل من كل التزام نحوي » .

كان هذا أشبه باعلان الشركات المنهزمة عام ١٩٣٤ ، وشاعت في المدينة
الليلية بهجة غامرة .

وأستطرد لوبيز وهو يفرغ كأسه دفعة واحدة علامة على الابتهاج : « هذا
يدعم ما كنت على وشك أن أقوله . . وحين قمت بنحت تلك الرسوم البارزة
التي تسميها أنت «تفاهاتي السكيتية» لم تكن لديّ أحجار والحجر الجيد يكلف
غالياً ، والمدافن وحدها هي التي تمتلئ به ، في داخلها بالطبع ، ومن ثم
سقطت على الجبانة ليلاً ، ولهذا فقد صنعت تماثيلي جميعاً في تلك الفترة
وضروب الندم الأبدية تلتهم نفسي ، وعلى هذا النحو هجرت النحت
بالدوريت ، والآن سننتقل الى درجة أعلى : فأسبانيا الآن عبارة عن جبانة
ملاى بالأحجار ، وسنصنع منها تماثيل هل تسمعين أيتها السلحفاة ؟ » .

ومر رجال ونساء يحملون لفائف مغطاة بالساتان الأسود ، ثم سيدة
عجوز تمسك ساعة حائط ، وطفل يحمل حقيبة ، وآخر زوجاً من الأحذية ،

وكان الجميع ينشدون ، وعلى بعد خطوات الى الورااء كان ثمة رجل يجر عربة يد محملة بحانوت كامل للعادييات ، وهو يصاحب الأغنية متأخراً عنهم ، وأخذ شاب منفعل يلوح بذراعيه كطاحونة الهواء ، وأوقفهم لكي يلتقط صورة لهم . . وكان هذا الشاب صحافياً ومعه آلة تصوير بالمغنسيوم .

وتساءل « شاد » وهو يعيد قبعته الصغيرة الى الأمام : « ما كل هذا العزال . . أتراهم يخشون الغارات ؟ » .

ورفع لوبيز عينيه ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي ينظر فيها الى شاد دون تظاهر أو احتداد . . « أنت تعرف أن هناك محال كثيرة للرهون في أسبانيا وقد أصدرت الحكومة عصر هذا اليوم أمراً بفتحها ، ويرد الأشياء المرهونة كلها دون مقابل ، وخرج بؤس مدريد كله دون اندفاع على الاطلاق ، بل على مهل . (وليس من شك في أنهم لم يكونوا يصدقون أن أوامر الحكومة ستنفذ) ، وها هم أولاء يعودون بما رهنوه من سلاسل للساعات وآلات للخياطة ، وألحفة . . فالليلة ليلة الفقراء » .

كان « شاد » في الخمسين من عمره . . ولما كان قد اطوف ببلاد كثيرة واجتاز محناً عدة (من بينها البؤس الأمريكي ، وعلة طويلة قاتلة ، أصابت المرأة التي أحبها) فإنه لم يكن يعلق أية أهمية إلا على ما يسميه بالحماقة أو الحيوانية ، أعني على الحياة الجوهرية التي نسيجها الألم والحب والتواضع والبراءة . وهبطت الى الشارع جماعات تجر وراءها عربة محملة بأرجل المقاعد يتبعها آخرون يحملون ساعات الحائط ، وكانت فكرة محال الرهون المفتوحة ليلاً للفقير الذي أنقذ ولو مرة ، ومنظر هذا الحشد المتناثر العائد إلى أحيائه الفقيرة بحاجاته التي استردها ، كان هذا المنظر هو ما جعل شاد يفهم ما يمكن أن تعنيه كلمة « الثورة » لبني البشر .

وفي مقابل العربات الفاشية المنطلقة عبر الشوارع المظلمة بمدافعها الرشاشة كانت تنحدر العربات التي استولت عليها الحكومة ، وعلى هذه

الضجة كلها طغت صيحات التحية « سلام » مسيطرة تارة .. متلاشية تارة
أخرى ، ثم متصلة من بعد ، وموزونة ، ثم ضائعة من جديد .. عاملة على
التوحيد بين الليل والناس في أخوة المهادنة .. أخوة أشد قسوة بسبب المعركة
المقبلة .. فقد وصل الفاشيون الى « سييرا » .

الفصل الأول

الأول من أغسطس :

باستثناء أولئك الذين يرتدون عفرية الميكانيكية ذات « السوستة » التي أصبحت الزي الموحد للميليشيا كان المتطوعون في فرقة الطيران العالمية يرتدون - وقد استخفهم المرح - قمصاناً مفتوحة بسبب حرارة شهر أغسطس في أسبانيا ، فبدوا كأنهم عائدون من رحلة صيد أو سياحة ولم يكن بسبيل القتال سوى الطيارين المدربين ، وجنود المدافع الرشاشة الذين حاربوا من قبل في الصين أو مراكش ، أما الآخرون - وكانوا يصلون يومياً - فكان عليهم أن يجتازوا اختباراً في أثناء النهار .

ووسط مطار مدريد المدني القديم كانت طيارة ذات محركات ثلاثة يتألف هيكلها المصنوع من الألومنيوم في وهج الشمس (حين استمع قائدها إلى إذاعة أشبيلية وهي تعلن الاستيلاء على مدريد هبط المطار مفعماً بالثقة) .

واشتعلت عشرون سيجارة على الأقل دفعة واحدة . وكان « كاموتشيني سكوتير الفرقة قد قال منذ لحظة :

- « ليس لدى » « ب » إلا ما يكفي ساعتين وربع الساعة فحسب » .

وكان يريد أن يقول ان طائرة « ب » ليس لديها من الوقود إلا ما يكفي ذلك الوقت المذكور ، وكان الجميع من « لكليير » Leclere الجالس جلسة

القرد على منضدة الحساب حتى أولئك الذين هم أشد صرامة ممن عكفوا على تنظيف أجزاء المدفع الرشاش - كانوا يعلمون جميعاً أن الطائرة قد طارت برفاقهم إلى « سيررا » منذ ساعتين وخمس دقائق .

ولم يعد الدخان يتصاعد من الحانة في سحب طويلة متكاسلة ، بل على دفعات صغيرة متلاحقة . ومن خلال قضبان النوافذ كانت الأنظار جميعاً مسددة على قنة التلال .

لن تعود أول طائرة سواء أكان ذلك اليوم أو غداً أو قريباً ، وكان كل منهم يعلم أن موته - بالنسبة لأولئك الذين سينتظرونه - لن يكون شيئاً آخر سوى دخان تلك السجائر التي أشعلت في عصبية هنا حيث يناضل الأمل نضال شخص يختنق .

وغادر الحانة بولسكي - الشهير ببول - وريمون جارديه دون أن تتحول أبصارهما عن التلال . . .

- « الرئيس في طائرة « ب » .

- « أوافق أنت ؟ » .

- « لا تكن أحمق ؟ لقد رأيته راحلاً » .

وكان الجميع يتذكرون الرئيس في تعاطف ، فقد كان في تلك الطائرة .

- « الساعة الآن الثانية والدقيقة العاشرة » .

- « انتظر لحظة . ان ساعتك ليست مضبوطة ، كانت الساعة الواحدة

حين رحلوا . . وهذا معناه أن الساعة الآن الثانية والدقيقة الخامسة » .

- « كلا يا عزيزي ريمون . . لا تحاول . . إنها الثانية والدقيقة العاشرة

كما أخبرتك ! إصعد ببصرك إلى « إسكالي » هناك . . إنه معلق الى التليفون » .

- « من إسكالي هذا ؟ هو إيطالي ؟ » .

- « على ما أظن » .

- « من الممكن أن يكون أسبانياً ، أنظر اليه » .

والواقع أن وجه « اسكالي » المهجن كان مألوفاً في الشطر الغربي من البحر الأبيض المتوسط .

- « أنظر اليه ... كيف يناضل ! » .

- « الأمور تسير على ما يرام .. لا تسير على ما يرام ، وأنا ، أقول

لك ... »

وأستأنفا النقاش بصوت هامس كأنها يخشيان أن يسمعها الموت .

أخطرت الوزارة « اسكالي » ان طائرتي المطاردة الأسبانيتين وقاذفتي القنابل التابعتين للفرقة العالمية أُجبرت على الخروج من المعركة بوساطة سزب مؤلف من ست طائرات من طراز فيات . وقد سقطت إحدى قاذفتي القنابل داخل خطوط الجمهوريين ، أما الأخرى التي أُصيبت اصابة خفيفة - فإنها تحاول العودة ، وهبط اسكالي ركضاً صوب سمبرانو وقد تبعثره في كل الجهات تقريباً .

وكان الرئيس مانيان يقود فرقة الطيران العالمية ، أما « سمبرانو » فكان مسؤولاً عن المطار المدني وعن طائرات الركاب التي تحجرت الى طائرات مقاتلة ، وكان سمبرانو يشبه فولتير .. فيكاد يكون نسخة شابة طيبة منه ... وكانت الطائرات الجديدة من طراز دوجلاس التي اشترتها الحكومة من الخطوط الجوية تستطيع بمساعدة الطائرات العسكرية العتيقة الرابضة في مطارات مدريد أن تُقاتل الطائرات الحربية الايطالية ... مؤقتاً ...

وفجأة توقفت الضوضاء التي أحدثها رجال طائرات البليكان Pelicans ومع ذلك لم يسمع أي صوت لمحرك أو أية صفارة نداء ، غير أن أولئك الرجال كانوا يشيرون الى شيء ما بأذرع ممدودة ، وهناك على قمة من قمم التلال كانت إحدى قاذفات القنابل قد عطلت محركها . . . وفوق المطار الرملي اللون الذي أضفت عليه الساعة الثانية بعد الظهر طابعاً من الوحشة كأنه كوكب مهجور . انزلق في صمت جسم الطائرة مليئاً بالرفاق الأحياء منهم والأموات .

قال سميرانو : « الربوة ! » .

فأجاب اسكالي وهو يحك أنفه بسبابته : « إن داراس طيار من الخط المدني » .

فردد سميرانو : « الربوة ! الربوة ! . . . »

وقفزت الطائرة من عل كما يقفز الجواد ، وبدأت تحوم حول المطار وهناك على أرض المطار كتم الجميع أنفاسهم حتى لم تعد تتحرك في كوب من الأكواب قطعة ثلج واحدة .

وقال اسكالي : « أنظر الى أغطية الأظارات . . . لم تعد ثمة اظارات بكل تأكيد » . . .

وأخذ يحرك ذراعيه القصيرتين وكأنما يريد أن يساعد الطائرة ، وكانت هذه قد لامست الأرض ، ومالت على أحد جانبيها ، فاستندت على طرف جناحها ، دون أن تنقلب ، وجرى رجال المطار صائحين حول جسم الطائرة المغلق .

ونظر « بول » - وكأنما وقفت قطعة من الحلوى في حلقة - إلى باب الطائرة الذي لم يرفع ، وكان في الداخل ثمانية من الرفاق ، وأخذ جارديه - بشعره المصفف الى الأمام - يهز مقبض الباب بكل قواه دون جدوى ، واتجهت

الرجوه جميعاً ناحية تلك القبضة الغاضبة التي تناضل الباب المعاند . . . وأخيراً ارتفع الى منتصف علوه العادي وظهرت أقدام ، ثم النصف السفلي من بذلة ملطخة بالدماء . . . وكان من الواضح بالنظر الى بطء حركاته أن الرجل مجروح . وأمام هذه الدماء التي لم يعرف صاحبها بعد ، وأمام هاتين الساقين اللتين تتحركان في حذر في الطائرة المملوءة بالرفاق . . . أمام هذا كله خطر لبئول الذي أوشك أن يختنق بقطعة الحلوى المتوقفة في حلقه - أن الجميع بسبيل أن يدركوا معنى التضامن إدراكاً يسري في خلايا أجسامهم .

وجعل الطيار يمد قدميه شيئاً فشيئاً خارج الطائرة ، وقد أخذت قطرات من الدم الأحمر القاني تتساقط منهما تحت ضوء الشمس الذي يغشي الأبصار ، وأخيراً ظهرت رأسه التي تشبه رأس زارع للكروم من « اللوار » تحت قبعة بستانى ، هي تيمته . . .

وصاح سمبرانو بصوته الخجول : « لقد أحضرت الزنك ! » .

فهتف اسكالي : « ومايان ؟ » .

وقال داراس وهو يحاول الاستناد على حافة الباب لكي ينزلق :

- « لم يحدث له شيء » .

وأسرع سمبرانو نحوه . . وعانقه فسقطت قبعة كل منهما .

وهنا ظهر رأس « داراس » الذي اشتعل شياً ، على حين أخذ رجال المطار يتحركون في عصبية .

وما أن خرج داراس ، حتى وثب « مايان » الى الأرض . كان يرتدي حلة الطيار ، وقد أضفى عليه شارباه المتدليان الأشقران شقرة رمادية ، والسماعة التي تمسك برأسه مظهر محارب من الفيكنج أصابته الدهشة بسبب نظارته المصنوعة من البلاستيك .

وصاح مخاطباً اسكالي : « والطارثة س ؟ » .

- « ما زالت في خطوطنا . معطلة . . غير أن الجروح طفيفة » .

- « اهتم بهؤلاء الجرحى ، حتى أتمكن من الاتصال بالتليفون لتقديم تقريرى » .

وعندما وثب الرفاق الذين لم يصابوا بسوء الى الأرض أخذوا يغدون ويروحون بين رفاقهم الذين امطروهم بوابل من الأسئلة ، وهم يحاولون الصعود الى الطائرة لمساعدة الجرحى . . . وكان جارديه وبول قد صعدا الى الطائرة . . .

- « وهناك في الداخل ، كان فتى صغير السن راقداً وسط البقع الحمراء والآثار الدامية التي تركتها نعال الأحذية . كان يدعى « هاوس »
« الكابتن هاوس » ، ولم يكن قد تسلم بعد حلة الطيار . وكان مسؤولاً عن المدفع الرشاش الذي في مؤخرة الطائرة ، وعاد من خرجته الأولى بست رصاصات في ساقه . وهو لا يتكلم إلا الانكليزية . وربما كان يعرف اللغات القديمة ، ذلك أن نسخة للجيب من مؤلفات أفلاطون باليونانية ، سرقت هذا الصباح من اسكالي الذي أخذ يصيح كما تصيح بنت آوى (العرسة) وهذه النسخة خرجت الآن من الجيب الدامي في الصدرية الحمراء الزرقاء التي يرتديها ذلك الفتى .

أما قاذف القنابل الذي أصيب برصاصتين في فخذه فكان يجلس منتظراً الى جانب مقعد الملاحظة ، وكان هذا الرجل بحاراً من مقاطعة بريتانى ، وعمل قاذفاً للقنابل بمراكش ، واشتهر بأنه شاب صلب شديد المراس ، وكان يصبر على أسنانه دون أن يتغير بذلك التعبير المرح الذي يظهر برغم جراحه على وجهه الباش ، على حين أخذ جارديه يجره متمهلاً من الطائرة .

صاح بول بلهجة أمرة وبعينين محمقتين : « انتظروا أيها الرفاق ! سأذهب للبحث عن محفة « نقالة » وإلا أرهقنا الفتى إرهاقاً شديداً » .

واستند « لكثير » النحيل الذي يشبه القرد والذي كان يرتدي حلة طيار ، وإن وضع على رأسه قبعة رمادية - استند عليها زميله سيروزيه Séruzier الشهير باسم « الدهشة الطائرة » نظراً لدهشته الدائمة ، ثم شرع ينشد اغنية عن مغامراته .

- « عليك أن تنظر يا صديقي قبل أن تسحب على عربة العذاب ، وسأقص عليك حكاية للتسرية عنك ، وهي عن آخر مضايقاتي مع البورجوازيين : كان ذلك بسبب أحد الرفاق . ولم يكن بواب عمارته يطبق رؤيته ، فذلك الوغد يلحق أحذية المستأجرين الأثرياء ، ويستأسد على العمال البائسين ! وكان يسب رفيقي قائلاً . . . « حسن . . . فليتنظر لحظة . » وفي الساعة الثانية صباحاً حللت حصاناً عجوزاً وحيداً من إحدى العربات ، وسحبته الى مدخل العمارة أمام حجرة البواب وأعلنت بصوت أجوف قائلاً : « حصان » - ثم وبلا مؤاخذه - انسحبت في هدوء . . . ! »

ونظر قاذف القنابل الى لكثير وسيروزيه دون أن يهز كتفيه ، وألقى على رجال المطار نظرة ملكية ، وأمرهم قائلاً :

- « فليبحث لي أحد عن نسخة من صحيفة « لومانيتيه » .

والتزم الصمت من جديد ، حتى وصلت « المحفة » .

الفصل الثاني

ظهرت سحابة صغيرة مستديرة فوق قمة جبل سييرا ، وانتفضت الأكواب ، وصلصت داخلها الملاعق الصغيرة بعد حدوث الانفجار بلحظة تكاد تكون عشراً من الثانية ، وكانت القذيفة الأولى قد سقطت عند طرف الشارع ، ولم تلبث قطعة من القرميد أن هوت من السقف على منضدة ، فتدحرجت الأكواب وتصاعد وقع خطوات تركض في شمس الظهيرة ، فلا بد أن القذيفة الثانية سقطت في منتصف الشارع ، وتزاحم الفلاحون المسلحون في قاعة المشرب وهم يتحدثون حديثاً خاطفاً وإن كانت عيونهم حافلة بالتوقع .

وعندما سقطت القذيفة الثالثة (على بعد عشرة أمتار) تطاير زجاج النوافذ الكبيرة شظايا متناثرة في أوجه الرجال الذين تمنطقوا بأحزمة مملوءة بالرصاص . . . فالصقتهم بالحائط ، مشلولين .

وانغرزت شظية من الزجاج في اعلان للسنيما لطخته قطرات من النييد المتطاير .

وحدث انفجار آخر . . وآخر أبعد كثيراً . . . على اليسار هذه المرة ، وانتشرت الصيحات في القرية ، وكان مانويل يمسك بيده ثمرة كستناء ، وفرعها بين أصبعيه فوق رأسه ، وانفجرت قذيفة أخرى ، أقرب هذه المرة .

قال مانويل وهو يبرز ثمرة الكستناء مفتوحة : « شكراً » (وكان هو

الذي كسرها بين أصابعه) .

وتساءل فلاح بصوت خفيض : « ولكن ماذا يصنع الانسان لكي يزيح تلك القنابل عن طريقه ؟ » .

فلم يجبه أحد . وكان « راموس » يركب القطار المصفح ، ومكث الجميع في أماكنهم وهم يتعدون عن الحائط ثم يعودون اليه منتظرين القنبلة القادمة .

قال الأب « باركا » بصوته المتعجل : « ليس لما نفعله هنا أي معنى ولو أننا مكثنا هنا لأصبحنا مجانين . . . ينبغي أن نعود الى الداخل » .
وتفحصه مانويل ، فلم يكن على ثقة من لهجة صوته قال : « هناك سيارات نقل في الميدان » .

- « هل تعرف القيادة ؟ » .

- « أجل » .

- « قيادة سيارة نقل ضخمة ؟ » .

- « أجل » .

وهتف باركا : « يا لكم من فتيان ! »

وكان الانفجار شديداً بحيث انبطح الجميع على الأرض ، وحين نهضوا ثانية ، كان المنزل المواجه للمشرب قد فقد واجهته ، وأخذت هياكله الخشبية تتساقط بعد برهة قصيرة في الفضاء ، ودق جرس التليفون ، وأستأنف باركا حديثه قائلاً : « إذن فهناك سيارات نقل . . . فلنركبها، ولنحطم رؤوسهم ! » .

وأخذ الجميع يتحدثون في نفس واحد :

- « حسن جداً ! » .

- « بل سوف نتحطم نحن جميعاً » .

- « لا أوامر لدينا » .

- « سأعطيك إياها . . . تلك الأوامر . . . إذهب الى السيارات بدلاً من الصباح ! » .

وخرج مانويل وباركا راكضين . . وكان الجميع تقريباً يركضون خلفها . . أي شيء أفضل من البقاء هنا . . والقذائف لا تنقطع . . وعلى مسافة بعيدة نوعاً ما . . . وقف المتخلفون الذين يؤمنون بالتأمل . . .

وتسلق ثلاثون رجلاً سيارة النقل ، وكانت القنابل تساقط حول أطراف القرية ، وأدركا باركا أن رجال المدفعية الفاشيين يرون القرية ، ولكنهم لا يرون ما يجري فيها (لم تكن في الجوطائرة في هذه اللحظة) ، وانطلقت السيارة محملة بالمدينين الذين ينشدون النشيد العالمي (الانترناسيونالي) . ويلوحون بينادقهم فوق ضوضاء تحويل السرعة .

كان الفلاحون يعرفون مانويل منذ ان كان « راموس » يقوم بالدعاية في اقليم الشارات . وكانوا يشعرون نحوه بتعاطف متحفظ يزداد بازدياد طول لحيته ومع تحول وجهه الروماني الثقيل نوعاً ذي العينين الخضراوين الصافيتين تحت حاجبين شديدي السواد الى وجه بحار من بحارة البحر الأبيض المتوسط .

وتابعت السيارة طريقها في وهج الشمس ، ومن السماء تساقطت القنابل على القرية في زفيف كزفيف الحمائم ، وكان مانويل يقود السيارة متوتر الأعصاب ، ومع ذلك رفع عقيرته بأغنية من أوبرا مانون :

- « وداعاً . . . يا مائدتنا الصغيرة . . . »

أما الآخرون وكانت أعصابهم لا تقل عنه توتراً فقد قاطعوه بالنشيد العالمي ، ووقعت أبصارهم على جثتين لقتيلين من المدنيين داست عليهما العربة بكل سرعتها ، فثار في نفوسهم ذلك الشعور بالزمالة القلقة الذي يشعر به أولئك الذين يسيرون الى القتال نحو الشهداء الأوائل ، وتساءل باركا : « ترى أين المدافع ؟ » .

- « إن موضع الدخان ليس محددأ » .

- « لقد سقط أحد الزملاء » .

- « قف ! » .

وصاح باركا : « هيا .. هيا .. الى المدافع ! » .

وسكت الآخر .. فباركا هو الذي يصدر الأوامر الآن .. وغيرت السيارة من سرعتها ، فبدت كأنها ترد على الانفجار بصرخة من محركها المجروح . ومرت أمام جثث القتلى .

- « هناك ثلاث سيارات تتبعنا ! » .

والثفت رجال الميليشيا جميعاً حتى مانويل الذي كان يقود السيارة . وهتفوا : « مرحى ! » .

وشرعوا ينشدون بالأسبانية وهم يدقون الأرض بأقدامهم :

« وداعاً ! يا مائدتنا الصغيرة ! » .

وعند مدخل نفق تبرز منه قاطرة القطار المصفح كما تبرز الأنف من الوجه أشرف راموس على سيارات النقل المرصوفة على بعد أربعمئة متر من السفوح المغطاة بأشجار الصنوبر .

قال لسالازار : « إن لديهم - يا صديقي - تسع فرص من عشر للنجاح » ، وكان راموس قد حل قائد القطار المصفح الذي انضم الى

الفاشيين ، أو لعله ذهب الى حانات مدريد .

كانت سيارات النقل تبدو ضخيلة الحجم وسط منظر الجبل الشامخ ،
وتألفت الشمس على خوداتهم ، فكان من المستحيل ألا يراهم الفاشيون .

وتساءل سالازار وهو يفتل شاربه الجميل في عكس اتجاهه :

- « لماذا لا نساندهم ؟ » وكان قد خدم قبل ذلك جاویشاً في مراكش .

- « الأوامر الصادرة لنا هي ألا نطلق النار . . . ومن المحال أن نحصل
على أمر آخر ، وتليفونك الموصول بالخيوط يعمل جيداً ، ولكن لا يوجد أحد
في الطرف الآخر من الخط » .

وكان ثلاثة من رجال الميليشيا بسبيلهم الى وضع حلتين من حبل
القداس ومسوح للرهبان فوق القضبان على بعد بضعة أمتار من القاطرة ،
دون أن يحولوا أنظارهم عن سيارات النقل التي أخذت تتقدم على طريق
الأسفلت الأزرق الفاتح ، وهو الطريق الذي تعترضه جثتا القتيلين .

وصاح أحدهم : « هل نمضي في طريقنا ؟ » .

فأجاب راموس : « كلا . . . الأوامر هي ألا نتحرك . . . »

وظلت سيارات النقل تتقدم دأباً ، وكان صوتها مسموعاً بوضوح برغم
طلقات المدفع ، وما هي إلا ثوان حتى غادر أحد رجال الميليشيا صهريج
القاطرة ، وذهب ليجمع ثياب الكهنة ثم طواها ، وكان ذلك الرجل من
فلاحي قشتالة ذوي الوجوه النحيفة التي تشبه وجوه خيولهم ، ولحق به
راموس .

- « ماذا تفعل يا ريكاردو ؟ » .

- « هذا شيء اتفقت فيه مع الرفاق . . . »

وبسط مسوح الرهبان قليلاً ، وقد بدت عليه الحيرة ، وتآلق الوشي

الذهبي (القصب) في النور .

وما فتئت السيارات تصعد دائماً ، ولاح رأس السائق الذي أبرزه خارج القاطرة وضاء في الشمس على خلفية النفق الأسود ، وأخذت السيارات تقترب من موقع المدافع .

استأنف ريكاردو قائلاً : « ينبغي أن نكون على حذر ، فهؤلاء الأوغاد قد يحاولون اخراجنا عن القضبان أو قد يحملون شراً لرفاق السيارات ! »

قال راموس : « أعطها زوجتك فقد تستطيع أن تصنع منها شيئاً » .

كان هذا الفتى العملاق المرح الجعد الشعر يوحى بالثقة للفلاحين ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون قط هل هو جاد أو مازح !

- « هل هذا الثوب ترتديه زوجتي ؟ »

وقذف الفلاح بكل قوته الربطة الموشاة بالذهب إلى أعماق الوادي .

وبدأت مدافع الأعداء الرشاشة في اطلاق نيرانها تصحبها تلك الجلبة المحددة التي تحدثها عادة .

وانزلت السيارة الأولى ، ودارت في ريع دائرة ، ثم سكبت رجالها كأنها سلة ، ولم تلبث أن أنقبت ، وظل أولئك الذين لم يموتوا ولم يصابوا بجراح يطلقون النار محتمين خلفها ، لم يكن رجال القطار يرون من «راموس» سوى نظارته المكبرة وخصلاته المتموجة ، وفي هذيانهم كان شخص يغني أغنية أندلسية ، وملأت الجوّ الذي أخذ يرتجف كأنما تهزه المدافع الرشاشة - رائحة الصمغ المنبعثة من أشجار الصنوبر المقتلعة كأنها رائحة نعش .

وعلى جانبي السيارة المقلوبة كانت تحف اشجار الزيتون ، ومن تلك السيارة خرج واحد . . اثنان . . خمسة من رجال الميليشيا وشرعوا يعدون صوب الأشجار ، وسقطوا الواحد تلو الآخر ، ولما كانت السيارة تعترض

الطريق فقد توقفت السيارات التي كانت تتبعها .
قال سالازار : « لو انبطح الفتيان أرضاً ... فالأرض صالحة
للاستعمال ... » .

- « دعك من الأوامر .. عد الى القطار وأطلق النار » .

وجرى سالازار بقامته العسكرية يعوقه حذاؤه الضخم . ولم يعد رجال
الميليشيا قادرين الآن على التقدم ، ولهذا لم يخاطر (راموس) باطلاق النار
عليهم ، ذلك أن فرصة أصابته لمدافع الأعداء الرشاشة التي يجهل مكانها
ضئيلة الى أبعد حد ...

وفي الطريق الى مخزن القطار كانت بعض عربات البضاعة ما زالت تحمل
هذه الكلمات : « يحيا الاضراب ! » وخرج القطار المصفح من النفق يهدد
بالخطر ، دون بصيرة ، وأدرك راموس مرة أخرى أن القطار المصفح لا يعني
اكثر من مدفع ويضع بنادق رشاشة .

ووراء المدفع كان الرجال يطلقون النار على المصدر الذي تنبعث منه
الأصوات . فقد بدأوا يدركون أن الاقتراب في الحرب أهم من القتال نفسه
وأصعب ، وأن المسألة ليست مسألة صراع بين أفراد وإنما هي أشبه
بالاغتيال .

واليوم ، كان العدو هو الذي يقوم باغتيالهم .

وصاح باركا : « لا تطلقوا النار ما دمتم لا ترون شيئاً ... وإلا فلن
نجد معنا ذخيرة حين يحيطون بنا ! »

كم كانوا يودون أن يروا الفاشيين وهم يشنون هجمتهم ! والقتال أرحم
من هذا الانتظار الذي يشبه انتظار المرضى ! وركض أحد رجال الميليشيا -

الى الامام صوب المدفعية ، وما كاد يخطو الخطوة السابعة حتى سقط صريعاً كأولئك الرجال الذين حاولوا الاحتواء خلف أشجار الزيتون .

وقال مانويل مخاطباً باركا : « لو أن مدافعهم أطلقت نيرانها علينا . . . »

وكان هذا مستحيلاً بالطبع لسبب ما ، وإلا فعلوا . . . وصاح صوت امرأة : « أيها الرفاق ! »

واستدار الجميع تقريباً مبهورين . لقد وصلت سيدة من سيدات الميليشيا .

قال باركا : « ليس هذا المكان بالمكان الصالح لك » وكان قوله ذاك من غير اقتناع ، إذ كان الجميع مغتبطين لوجودها معهم

وكانت تجر حقيبة ضخمة قصيرة مملوءة بعلب التموين وسألها باركا : « أخبريني إذن : كيف أتيت الى هنا ؟ » .

وكانت تعرف هذه البقعة ، لأن أباها فلاحان من هذه القرية . وسدد باركا بصره في انتباه : كان الطريق يمتد أمامهم مكشوفاً حوالي أربعين متراً .

قال أحد رجال الميليشيا : « إذن . . . نستطيع أن نمر ؟ » .

فقال الفتاة : « أجل » ، وكانت الفتاة ذات وضاعة، وفي السابعة عشرة من عمرها .

وقال باركا : « كلا . . . انظروا . . إن الأرض المكشوفة أوسع مما ينبغي . . وسيهبطون عليها بقضهم وقضيضهم » .

- « لقد وصلت سائلة . . فلماذا لا نصل نحن أيضاً ؟ » .

- « انتبهوا ، فمن المحتمل أن يكونوا قد تركوها تمر عامدين . . ونحن في مأزق . . فلا داعي للمزيد » .

- « في رأيي أننا نستطيع بلوغ القرية . »

فصاحت الفتاة مرتاعة : « لا أظنكم طلبتموني لكي تعودوا على أعقابكم » .

« إن جيش الشعب ينبغي أن يحتفظ بمواقفه . قالت الاذاعة ذلك منذ ساعة ! » .

وكانت قد اصطنعت ذلك الصوت المسرحي الذي تصطنعه النساء الأسبانيات دون عناء ، كما شبكت يديها دون أن تشعر ، واستطردت قائلة :

- « سنحمل اليكم كل ما تطلبون . . . »

وكانها تقدم لعباً لأطفال ابتغاء تهدئتهم . وأمعن « باركا » في الفكر ، ثم قال : « أيها الرفاق . . . المسألة ليست هنا . . . فالصبية تقول . . . »

- « لست صبية . . . »

- « فليكن . . . الزميلة تقول : إننا نستطيع أن نرحل . . . ولكن ينبغي علينا البقاء . . . أما أنا فأقول : إنه ينبغي لنا الرحيل ، ولكننا لا نستطيع . فلنحاول أن نستخلص من هذا الخلط شيئاً » .

قال مانويل للفتاة بصوت هامس : « إن لك شعراً جميلاً . . . أعطني واحدة منه » .

- « أيها الرفيق ، أنا لم أحضر للاستماع الى سخافات » .

- « حسن . . . احتفظي بشعرك . . . أيتها الشحيحة ! »

وبينما كان يتحدث الى الفتاة - دون افراط منه في الاقتناع - لم يكف عن ارهاق سمعه .

وهتف قائلاً : « أنصتوا . . . أنصتوا . . . »

وأرهب الجميع أسماعهم للصمت الذي لم يكن يعكره حفيف أجنحة طائر ، وكانت مدافع العدو الرشاشة تطلق وابلاً من الرصاص تلو وابل . . . وتوقف مدفع منها . . . كلا . . . هذا مجرد أعطال . . . فقد استأنف إطلاق نيرانه من جديد . . . بيد أن الرصاص لم يعد يصل الى السيارة . . .

- « أخفض رأسك أيها الأحمق ! »

وخفض رأسه هناك في الاتجاه الذي اشار اليه ، كانت ثمة بقع زرقاء تصعد صوب المدفعية الفاشية موازية للطريق ، ولكنها محمية ومنتمعه من رقعة الأرض : وكانت هذه البقع هي رجال حرس الهجوم .
قال باركا : « من الواضح اننا لو فعلنا مثل هذا » .
وكلما صعّدوا . . . قل عددهم .

قال رجل من الميليشيا : « هذا عمل رائع ! هل نغد لهم يد المعونة ؟ »
وهتف مانويل : « حذار ! لا داعي لأن نبدأ في الاستعجال مرة أخرى . . .
تجمعوا عشرة ، عشرة . . . وأول كل مجموعة مسؤول عنها . . . ولتتقدم كل مجموعة عن الأخرى بحوالي عشرة امتار على الأقل ، ينبغي أن يتقدموا في مجموعات أربع ، كما ينبغي أن تصلوا جميعاً معاً . . . وستكون المجموعة الأولى في المقدمة . . . بيد أن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً ، لأنها سوف تنتشر على مسافة أبعد من الأخرى » .

قال باركا : « ليست المسألة واضحة » .

ومع ذلك فقد أصغى الجميع ، وكأنهم يصغون الى درس في الاسعافات الأولية التي يجب اجراؤها للجرحى .

- « حسن . . . كونوا مجموعات كل مجموعة من عشرة أشخاص » .

وفعلوا كما أمرهم . . . ثم اقترب المسؤولون من مانويل .

وهناك من أعلى الجبل - كانت المدافع تطلق قذائفها على القرية دون انقطاع ، أما المدافع الرشاشة فلم تكن تطلق رصاصها إلا على رجال حرس الهجوم الذين أخذوا يصعدون دائماً . وكان مانويل قد تعود قيادة رجال حزبه . بيد أنهم كانوا شرذمة قليلة في هذا المكان .

- « عليك أنت أن تقود الستة الأوائل » .

« سوف نتشر جميعاً على يمين الطريق ، ولا داعي لأن نجازف بأن نشطر شطرين إذا هبط هؤلاء الأوغاد في سيارة مصفحة . . أو في شيء من هذا القبيل . . . وهذا يقربنا من رجال حرس الهجوم .

« وليذهب عشرة من الرفاق على بعد مائة متر » .

« وأنت « رقم واحد » انصرف ورفاقت العشرة . . وعلى بعد ثلاثمائة متر إترك واحداً منهم كل عشرة أمتار .

وحين تلمح أن الجماعة التي على يسارك تتقدم - تقدم أنت أيضاً . . . فإذا لم تسر الأمور على ما يرام فسلم القيادة الى جارك ، وعد مسرعاً ستجد ورائك . . . »

يجد من ؟ كان مانويل يريد أن يرسل باركا لتنظيم سيارات النقل الأخرى . . أما فيما يتعلق بنفسه فقد كان ينبغي أن يكون في النصف الأول في مثل هذا الجو . . . ولكن . . .

« . . . ستجد ورائك باركا » .

وقرر أن يبعث شخصاً آخر لتنظيم سيارات النقل .

- « وحين أصفر فليجتمع الجميع حول باركا . . مفهوم ؟ »

- « مفهوم » .

- « أعيدوا ما قلته » .

- « سيسير كل شيء على ما يرام » .

- « من المسؤولون : نقابيون أم سياسيون ؟ » .

- « أيها الرفاق ، القطار المصفح يطلق نيرانه ! »

وأحس الجميع برغبة في أن يعانق بعضهم البعض الآخر ، وكان القطار يطلق نيرانه جزافاً على الموقع الذي يعتقد أن المدفعي والبنادق والرشاشات قائمة فيه ، غير أن رجال الميليشيا حين سمعوا مدافعهم ترد على مدافع الفاشيين بارحهم الشعور بأنهم في مأزق ، ولهذا هتف الجميع هتافاً عالياً تحية للطلقة الثانية .

وأرسل مانويل أحد الشيوعيين لتحذير راموس ، كما أرسل أحد رجال اتحاد نقابات النقل الى حرس الهجوم ، وكذلك بأكبر الفوضويين سناً الى رجال السيارات الأخرى ليدلهم على ما ينبغي أن يفعلوه .

وقالت الفتاة : « خذ معك من باب الحذر شيئاً لتأكله .. » .

- « هيا بنا .. أيها الرفاق ! »

وقالت الفتاة وقد بدا عليها الشعور بالمسؤولية : « سأحمل لكم طعامكم » .

وفي نفس الوقت الذي انصرفوا فيه ركض باركا نحو سيارات النقل ، وكانوا يطلقون من البنادق نيرانهم على تلك السيارات ... ورحلت المجموعة الثانية ، ثم الثالثة ، فالأخيرة التي يقودها مانويل .

كانت العين تستطيع أن تكشف صفوف أشجار الزيتون المتراسة دون أن يعوقها عائق . وفي طريق من تلك الطرق الرحبة الساكنة رأى « باركا » رجلاً من رجال الميليشيا يتقدم ، يتبعه عشرة آخرون ثم طابور طويل . . . ولم يكن يستطيع أن يرى الى أبعد من خمسمائة متر ، وملاً هذا الطابور كل مجال ،

رؤيته ، واحتل الغابة المرئية متقدماً على ايقاع المدافع البراعد ، وعلى السفح المجاور الذي اختفى عن نظر باركا منذ أن وقف تحت الأشجار - وكان رجال حرس الهجوم يطلقون نيرانهم ، ولم يكن من شك في أنهم يملكون بندقية سريعة الطلقات إذ كانت ضجة الاطلاق الميكانيكية تطغى على صوت طلقات البنادق متصاعدة صوب الضوضاء الثابتة الصادرة عن مدافع الفاشيين الرشاشة ، وتقدم طابور الميليشيا ، وأطلقت بنادق الفاشيين نيرانها عليهم دون طائل . وركض مانويل ، فتبعه الطابور كله في منحني أشبه بمنحنى سلك يسحب في الماء . وجرى باركا أيضاً منتشياً مستغرقاً في اضطراب محموم يسميه الشعب . . . اضطراباً نسيجه القرية التي أقيت عليها القنابل ، والفوضى اللانهائية ، وسيارات النقل المقلوبة ، ومدفع القطار المصفح الذي أخذ رجاله يصعدون الآن كجسم واحد للهجوم على مدافع الفاشيين .

وحطموا في ركضهم أغصاناً مقطوعة ، فقد أطلقت المدافع الرشاشة نيرانها على غابة الزيتون قبل وصول حرس الهجوم ، وحلت رائحة أرض الصيف الجافة محل رائحة الصمغ ، وتساقطت أوراق الشجر من أثر الرصاص كما تتساقط أوراق الخريف ، وطابور الميليشيا الذي يجري على ايقاع طلقات المدفع يظهر تارة في ضوء الشمس ، ويختفي تارة أخرى تحت ظلال أشجار الزيتون ، وكان باركا يستمع الى صوت البندقية السريعة الطلقات وإلى صوت موقع القطار المصفح كأنما يستمع الى صوت البشرى ، فلن يستطيع أحد بعد اليوم أن يتتزع الكروم ممن زرعوها .

وكان عليهم أن يعبروا عشرين متراً من الأرض المكشوفة ، وفي اللحظة التي غادروا فيها غابة الزيتون أدار الفاشيون واحداً من مدافعهم الرشاشة ، وكانت الرصاصات تلسع الهواء حول باركا بما ينبعث منها من أزيز كأزيز النحل ، وجرى صوب البنادق تحيط به ألوان من الطنين الحاد دون أن يمس بسوء ، وتدحرج وقد تقاطعت ساقاه ، وعلى الرغم من الألم ظل ناظراً

أمامه . كان نصف رجال الميليشيا قد سقطوا ولم ينهضوا مرة أخرى ، أما
النصف الآخر فقد استطاع المرور ، والى جواره كان يقال القرية يرقد صريعاً
وعلى جثته يحوم ظل فراشة ، وكان الصف الأول من رجال سيارات النقل
الأخرى ما برح متردداً على حافة غابة الزيتون . وبدا باركا يسمع أصوات
محركات الطائرات . هل هي طائراتنا أو طائراتهم ؟ وبالقرب من المكان الذي
تطلق فيه البندقية السريعة الطلقات نيرانها تصاعد صاروخ الى صفحة السماء
الرائعة ، وانقطع القطار المصفح عن اطلاق نيرانه .

وتساءل سالازار : « هل وصل رجال حرس الهجوم الى موقع
المدفعية ؟ »

وكانوا قد بعثوا أحد رجالهم الى القطار ليخبر من فيه أنهم سوف يطلقون
صاروخاً « عندما يصلون الى المدفعية » . ولم يكن من شك أنهم قريبون منها
الآن ، وعلى هذا فقد توقف راموس عن اطلاق النار .

قال : « أعتقد ذلك » .

- « وماذا حدث لرجال الميليشيا ؟ » .

- « لم نعد نراهم ، ويبدو أنهم لم يمروا ، ما دامت المدفعية والبنادق
السريعة الطلقات تطلق نيرانها » .

- « أتريدني أن أذهب الى هناك ؟ » .

- « يبدو أن مانويل يقوم بعمل رائع بمعونة باركا . . وقد بعث اليّ
رسولاً » .

واستطاع راموس بالنظارات الكبيرة أن يقرب اليه منظر الصخور وأشجار
الصنوبر والزيتون وما خيم عليه من هدوء . . هدوء مليء بالجرحي ، وكان

من المحال معرفة أي شيء ، كل ما كان يستطيعه هو أن يرهف سمعه .
قال : « إن أسوأ ما في الأمر هو أنهم هم الذين يشنون الحرب .. لا نحن . »

وكان الفاشيون يلقون قنابلهم ، ويظهرون المناطق ، ثم يعثون رجالهم الى أرض ممهدة . أما الشعب فكان بلا زعماء ، ويكاد يكون مجرداً من السلاح ، وعلى هذا لم يكن أمامه سوى القتال ...

- « لا شك في أن أولئك الرجال المساكين الذين عند أسفل الوادي يخوضون مذبحة في هذه اللحظة » .

- « ولكن ما داموا قد هاجموا - فرميا أتاحت لرجال حرس الهجوم فرصة الاستيلاء على المدفعية » .

وكان راموس يتحدث في انفعال ، واستحال فمه الشهواني الى خط نحيل ، وتلاشت ابتسامته ، وبدا شعره المتموج أشبه بالباروكة ! .

- « ومهما يكن من أمر فلن يمر الفاشيون ! » .

- « لقد توقفت مدفعية اليسار عن الاطلاق » .

وأصيب الاثنان بصداع في جبينيهما بسبب ما بذلاه من جهد في الانصات . واقتربت طائرة صفراء اللون في السماء المضيئة . كانت طائرة سياحية سريعة الى حد ما ألقت بقنبلة على بعد خمسمائة متر من القطار ، ولم يكن فيها بالطبع جهاز لإصابة الهدف أو القاء القنابل ، وكانت تلقي بقنابلها من النافذة ، وقاد السائق الذي أصدر اليه راموس أوامره - القطار في هدوء تحت نفق قريب ، وما أن ألقت الطائرة كل حمولتها من القنابل على أشجار الصنوبر حتى أنصرفت راضية ، واشتدت رائحة الصمغ المنبثقة من الغابة .

لم يكن من الممكن رؤية شيء من القطار ، وبين هزات الصلب التي

كانت تسري في عربات القطار بين كل طلقة مدفع وأخرى ، كان « بيب » وهو من أقاليم الأستوريش - يشرح لزملائه المتصبين عرقاً العراة الصدور تركيب القطار .

- « وهنا استخدمنا الأسمنت بدلاً من الصلب . . ومع أن منظره مقزز فإنه متين صلد ، وقد يبدو القطار كأنه مصنوع من الورق المقوى ، ولكنه يستطيع الدفاع عن نفسه ، وكنا في بلادنا نقوم بتصفيح العربات سنة ١٩٣٤ تصفيحاً بديعاً أيها الرفاق . . . كان عملاً كاملاً حقاً أما اليوم فيبدو أن الجميع قد أصابهم شرود الذهن : الثورة شاردة الذهن ! ومن ثم فقد نسي الأولاد أن يصفحوا القاطرة ، ولكم أن تخيلوا القطار المصفح الذي يقتحم بكل سرعة خطوط « ترثيو » بقاطرة عادية ، فما أن قطع خمسين كيلومتراً حتى أصيب بما لا يستطيع أن أحصيه من الرصاص ، ولا أذكر ما أصيب به الميكانيكي ، أما نحن فقد استطعنا أن نلّ ليلاً عن طريق قطار آخر ، وقاطرة أخرى - مصفحة هذه المرة - والتقطنا الرفاق قبل أن تهيم ترثيو مدفعيتها » .

- « بيب ؟ » .

- « ماذا ؟ » .

- « لم تعد المدفعية تطلق نيرانها بعد ! »

وأخذ « راموس » الذي خرج من النفق - محرك نظارته المكبرة ليرى ما يدور في صفوف المتمردين ، وكأنه أعشى يتحسس طريقه بيديه .

قال : « إن رجالنا يهبطون القرية » .

وكان رجال الميليشيا يستحبون وهم يطلقون نيرانهم دون جدوى ، ولم يلبثوا أن اختفوا في الخندق ، وكان على الفاشيين أن يجتازوا خلفهم ثلاثمائة

متر من الأرض العراء .

ووثب راموس الى القاطرة ، وتقدم بالقطار حتى استطاع الاشراف على المكان الخالي من الأشجار الذي يختفي مع ذلك عن مدفعية الفاشيين التي واصلت اطلاق نيرانها .

وتقدم الفاشيون - كأنهم آلات - عقب الفوضى التي أحدثها رجال الميليشيا . ودخلت مدافع القطار الرشاشة الى المعركة .

وبدأ الفاشيون يتساقطون يميناً وشمالاً في سراخٍ رافعين أذرعهم في الهواء ، أو واضعين قبضاتهم على بطونهم .

وعقدت موجتهم الثانية التي كانت مترددة على حافة الأشجار الاخيرة عزمها ، وأخذت تعدو ، فسقط رجالها صرعى من اليمين الى اليسار هذه المرة ، وكان رجال المدافع الرشاشة القصابون في القطار جنوداً سيئين ، ولكنهم كانوا رماة مهرة . . ولأول مرة في ذلك النهار رأى راموس تلك الحركة الغريبة تتكرر أمامه من العدو المقتول في أثناء ركضه : « ذراعاً مرفوعة في الهواء ، وساقين مضمومتين » وكأنه يريد أن يمسك بالموت في أثناء وثوبه ! أما أولئك الذين لم يصابوا بسوء فقد حاولوا بلوغ الغابة حيث يستطيعون الافلات من مدافع القطار الرشاشة .

ومن اليمين انهالت طلقات البنادق . . كان هؤلاء رجال الميليشيا وأخذ الفاشيون ينسحبون وهم يطلقون بنادقهم عبر الغابة .

وعغم راموس متخللاً غصنات شجره بأصابعه : « إن لهم زهاءهم وعندهم الأسلحة ، ولكنهم لن يمروا . . هذا أمر واقع: لن يمروا » .

الفصل الثالث

واستمر اختبار الطيارين .

واقترب من مانيان متطوع يرتدي صديرياً صوفياً برغم شدة الحرارة في وهج الصيف الهاديء ، وقال :

- « أنا الكابتن شراينر » .

وكان يشبه ثعلباً عصبياً صغيراً ، وله أنف مدبب ، وعينان صلبتان ، وقد عمل نائباً لرئيس فرقة ريختهوفن سابقاً ، وتأمله مانيان من فوق شاربيه في مودة :

- « منذ متى لم تقدر طائرة ؟ » .

- « منذ الحرب » .

- « يا للشيطان ! كم من الوقت تحتاج اليه لكي تعود الى لياقتك ؟ » .

- « بضع ساعات على ما أظن » .

ونظر اليه « مانيان » دون أن يقول شيئاً .

وأعاد شراينر قوله : « بضع ساعات ، على ما أظن » .

- « وهل كنت تعمل في الطيران ؟ » .

- « كلا ؛ وإنما كنت أعمل في مناجم أليس » .

ولم يكن شرايزر ينظر الى « مانيان » في أثناء إجابته له ، وإنما كان ينظر الى طائرة الاختبار التي كانت محركاتها دائرة، على حين أخذت أصابع يده اليمنى ترتجف ، قال :

- « لقد وصل إذن متأخراً . . . ولهذا جئت الى تولوز في سيارات للنقل » .

وأغمض عينيه الضيقتين ، وأنصت للمحرك ، وجعلت أصابعه التي لم تكف قط عن الأرتعاش تشد جانبي صدირيته ، وكان شغف « مانيان » بالطائرات من القوة بحيث أحس أنه مرتبط بهذا الرجل عن طريق تلك الصديرية التي أعمل فيها أنامله بحركة تشنجية . وطفق « شرايزر » يتنفس الهواء المختلج بالضجة دون أن يفتح عينيه ، وحدث « مانيان » نفسه قائلاً : « لا شك أننا نتنفس على هذا النحو حين نخرج من السجن . . وهذا الرجل يمكن أن يكون قائداً (كان مانيان يبحث عن أشخاص يحملون محله) : وصوته يتميز بذلك الوضوح المشترك بين المسؤولين من الشيوعيين والعسكريين » .

وعاد المدرب الأول - ويدعى « سيبرسكي » عبر المطار المرتعش بالضوء ، ونادى المدرب الثاني شرايزر الذي أتجه صوب طائرة الاختبار دون تسرع ، وإن تكن أصابعه متشنجة دائماً .

وأخذ الطيارون جميعاً ينظرون من مشرب المطار أو من ممراته .

كان عدد كبير قد خاضوا غمار الحرب ، بيد أن نفس « مانيان » لم تكن تخلو من القلق ، ولم يكن أولئك الذين يقفون أمامه الآن ، وهو الذي أسقط اثنتين وعشرين طائرة ، ويتابعون الطائرات لحظة بلحظة - يشعرون بغير شعور واحد هو شعور المنافسة المهنية .

وعلى مقربة من المشرب ، كان « اسكالي » و « مارسيلينو » و « جيو

الفير» - يتبادلون النظارة المكبرة واحداً بعد الآخر ، وكان جيم الفير الذي درس في فرنسا - قد عين مترجماً محارباً بفرقة الطيران العالمية . هذا الرجل الطويل الذي يشبه زعيماً من زعماء الهنود الحمر ، تتدلى خصلات شعره الأسود على وجهه دائماً؛ وقف الآن الى جوار رجل آخر أقصر منه شبيه بالهنود الحمر أيضاً يدعى « فيجاس » اشتهر بين أخوانه باسم القديس انطوان ، وكان هذا الأخير يوزع على رجال المطار السجائر والأسطوانات في سخاء باسم الاتحاد العام للعمال ، وبين هذين الأثنين كان كلب جيم الأسود « رابلاتي » الذي أصبح باروكة الفرقة يدس أنفه ، وقد كان والد جيم مؤرخاً للفن مثله في ذلك مثل « اسكالي » .

ومن الطرف الأقصى للمطار ، هناك حيث كان « كارليتس » يضع رجال المدافع الرشاشة في مواقعهم - صدرت جلبة متلاحقة من الرصاص وارتفعت الطائرة عن أرض المطار على نحو لا بأس به .

وقال سيبرسكي لمانيان : « سيكون الأمر صعباً مع المتطوعين . . . »

وكان مانيان يعلم أنه ليس من اليسير أن يشرف المتطوعون على رجال الطيران التجاري ، وخاصة اذا كان الأولون أقل مرتبة من الناحية المهنية .

- « شكراً يا سيد « مانيان » على الثقة التي أوليتني إياها بأختيارك لي مرشداً . . . »

وتقدما بضع خطوات دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر ، وإنما أخذ الاثنان ينظران إلى أعلى ، حيث حلقت الطائرة .

- « هل تعرفني ؟ » .

- « أظن ذلك . . . » .

وقال مانيان في نفسه في اللحظة التي كان يتكلم فيها وهو يمضغ شاربته المتدلي كشوارب الغاليين : الحق أنني لا أعرف شيئاً على الاطلاق . وكان

يشعر بتعاطف نحو سيبرسكي على الرغم من شعره الأشقر المتموج وشاربه الصغير ، ذلك أن الحزن الذي يتمشى في صوته يدفع المرء الى الاعتقاد في ذكائه ، أو على الأقل في خبرته ، ولم يكن « مانيان » يعرف عنه حقاً إلا قيمته الفنية ، وهي قيمة لا جدال فيها .

- « أريد أن أخبرك يا سيد مانيان بأنهم يقولون عني هنا : انني هندي أحمر . . ! وعلى كل حال . . . ربما كان لذلك بعض النفع . . . شكراً . . . وما أريد أن تعرفه هو أنني لست رجلاً أبيض ، إنهم لا يعرفون الكثير عن الحياة . . أقصد هؤلاء الطيارين جميعاً ، حتى أولئك الذين تحطوا سن الشباب . . . ! » .

ونظر سيبرسكي الى قدميه من فرط ارتباكته ، ثم رفع عينيه صوب الطائرة ، وجعل يتابعها بنظراته حوالى دقيقة :

- « وأخيراً . . ها هو ذا يطير . . هذا كل ما يمكن أن نقوله . . » .

كان يتحدث دون سخرية ، وإن شاب صوته شيء من قلق . كان شرايز من أكبر الطيارين سناً ، ولم يكن في المطار طيار واحد لا ينتظر في قلق ما يمكن أن تصنعه ست وأربعون سنة بطيار عظيم أمضى منها عشر سنوات في مصنع . قال مانيان قلقاً : « لا بد لمعركة سيرا غداً من خمس طائرات على الأقل » .

- « كنت أمقت الحياة التي أحيهاها عند عمي في سيبريا ، إذ كنت لا أسمعهم يتحدثون دائماً إلا عن المعارك . . ورحلت للالتحاق بالمدرسة . . وحين حضر البيض . . رحلت معهم . ثم ذهبت بعد ذلك الى باريس ، اشتغلت سائقاً في بداية الأمر ، ثم ميكانيكياً ، وطياراً من جديد . . . وأنا الآن ملازم في الجيش الفرنسي » .

- « أعلم ذلك . . . وأنت تريد العودة الى روسيا ، أليس كذلك ؟ »

وكان كثير من الروس - البيض سابقاً - الذين يخدمون الآن في أسبانيا يفعلون ذلك لإثبات ولائهم ، على أمل الرجوع بعد ذلك الى أوطانهم .
وابل جديد من طلقات المدفع الرشاش يصدر عن الطرف الأقصى من المطار عبر الضوء .

- « أجل . . . ولكن لا أريد الرجوع بوصفي شيوعياً ، فما أبغي الانتماء إلى أي حزب . إنني هنا من أجل العقد الذي أبرمته ، ولكنني ما كنت لأنضم الى الآخرين نظير ضعف هذا المبلغ ؛ فأنا من يمكن أن تسميه شخصاً متحرراً (ليبرالي) . أما كارلتيش فكان يعيش النظام ، وكان حينئذٍ من البيض . لدينا الآن النظام والقوة ، ومع ذلك فهو الآن من الحمر ، أما أنا فلا أعشق سوى الديمقراطية ، كل ما في الأمر ، أن روسيا . . . هي وطني . . . »

ولم يجرؤ مانيان على سؤاله : هل مركز القيادة والمدرسة المانيان أو بلشفيان ؟

- « اسمح لي أن أطلب منك شيئاً . . لا أريد بأية حال أن ألقى قنابل على أهداف داخل مدينة ، أما فيما يتعلق بالمطاردة فلعلني لم أعد شاباً لمثل هذا العمل . . ولكن « الاستكشاف » أو القاء القنابل على جبهة القتال . . . »

- « الاغارة على المدن أمر استبعدته الحكومة الاسبانية » .
- « لقد حدث ذات مرة أن كلفت الاغارة على مركز للقيادة ، غير أن القنابل سقطت على مدرسة . . . »

ولم يجرؤ مانيان على سؤاله : هل مركز القيادة والمدرسة المانيان أو بلشفيان ؟
واتخذت طائرة شراير وضع الهبوط .

وزجر « مانيان » وهو يضع يديه على ذراعي نظارته : « هذا أطول مما

ينبغي !» .

والواقع أن « شراينر » داس على جهاز السرعة مرة أخرى . . . فتوقف « مانيان » و « سييرسكي » عن السير ، لا يحولان أنظارهما عن الطائرة ، كان المطار واسعاً غاية الاتساع ، ومع هذا لم يستطع شراينر أن يقوم بأول هبوط له على هذا النحو . . . وقد كان « مانيان » معتاداً الاختبارات ، إذ كان رئيساً لإحدى شركات الطيران الفرنسية .

وعادت الطائرة ، وإن جاء هبوطها قبل المكان المحدد لها بمسافة قصيرة ، وشد الطيار جهاز التوقف ، فقفزت الطائرة كما تقفز صخرة فوق سطح الماء ، ثم سقطت بكل ثقلها محطمة .

وحدث مانيان نفسه قائلاً : من حسن الحظ أن طيارة الاختبار لا تستخدم في الحرب .

وجرى سييرسكي صوب الطائرة ، ثم عاد يتبعه شراينر والمدرّب الثاني .

قال شراينر : « أرجو المَعذرة » .

قالها بلهجة جعلت « مانيان لا يجرؤ على النظر الى وجهه .

- « قلت لك : إنني احتاج الى ساعتين ، والواقع أنه لا ساعتين ولا يومين يكفيان . . . لقد اشتغلت طويلاً في المناجم . . . ففقدت أفعالي المنعكسة سلامتها » .

وابتعد سييرسكي والمدرّب الثاني .

وقال مانيان : « ستحدث عن ذلك فيما بعد » .

- « لا فائدة . . . شكراً . . . لم أعد أستطيع أن أرى طائرة بعد ذلك .
الحقني باليليشيا . . . أرجوك . . . » .

ووسط الضجة المنبعثة من طلقات المدافع الرشاشة التي أخذت تتقارب

شيئاً فشيئاً شرع رجال الميليشيا يدفعون على أرض المطار طائرة اختبار أخرى كانت ذات يوم طائرة سياحية يملكها أحد الأثرياء . . .

وانصرف شراينر ، وقد شردت عيناه في الفضاء . . . وابتعد عنه الطيارون كأنما يربأون بأنفسهم أن يروا طفلاً يتعذب كما يحدث عادة عقب الكوارث التي تعجز حياها الكلمات الانسانية . وكانت الحرب بما فيها من عنصر رومانتيكي قد وحدت بين الطيارين التجاريين والمتطوعين ، أما الطيران فقد وحد بينهم كما توحد عاطفة الأمومة بين النساء ، وكف « لكبير » و « سيروزيه » عن سرد الحكايات ، وكان كل من هؤلاء الطيارين يعلم أن ما شاهده سيكون مصيره يوماً ما ، ولهذا لم تكن أية نظرة تجرؤ على الالتقاء بنظرة الطيار الألماني الذي كان يتحاشاهم جميعاً .

غير أن هناك نظرة كانت مسددة على مانيان وهي نظرة الطيار الذي سيعقب شراينر في الاختبار ويدعى « مارسلينو » .

وردد مانيان مرة أخرى : « لا بد لسييرا غداً من خمس طائرات » . وأطلق المدفع الرشاش سبع رصاصات ، عشر رصاصات ، ثم توقف ، وحين رأى كارليتش - رئيس المدافع الرشاشة ، مانيان قادمًا هرع إليه وحياه ، وانتحى به جانباً ، ودون أن ينطق بكلمة واحدة أخرج من جيبه ثلاث رصاصات ، وكان خزان البارود فيها يحمل آثار الزناد ، ومع ذلك فإنها لم تنطلق .

قال كارليتش وهو يشير بظفره الى الأثار : « هذه صناعة طليطلة » .

- « تخريب ؟ » -

- « كلا . . . ولكنها صناعة رديئة . . . وإذا أطلقنا ذلك في الهواء في أثناء

القتال . . . » .

كان كارليتش قد وصل الى إنجلترا خائب الرجاء ذليلاً ، قد حطمت

تجربة الشقاء كل ما آمن به حتى الآن من معتقدات ، وبعد بضعة أعوام يائسة انضم الى حركة « العودة الى الوطن » وهي الحركة التي كانت تتعاطف مع الاتحاد السوفييتي منتشرة بين المهاجرين ، إذ كان بطلاً قديماً من أبطال المدافع الرشاشة في جيش « رانجل »(*) ولعله المتطوع الوحيد الذي كان يمقت العدو لأنه عدو فحسب .

وسأل مانيان : « وماذا عن المدافع الرشاشة المنصوبة على الأرض ؟ إننا في حاجة الى عدد منها بأسرع ما يمكن من أجل سيرنا » .

وكان رجال الميليشيا لا يستطيعون استخدام أي نوع من أنواع المدافع الرشاشة ، بله اصلاحه ، ذلك أن مانيان قد حول أمره رجاله الذين يحسنون استخدام تلك المدافع الى مدربين تحت اشراف كارليتس . وفي نفس الوقت الذي كانوا يدرسون فيه رجال المدافع الرشاشة الأرضيين على اطلاق النار من الجو - كانوا يدرسون بعض رجال الميليشيا المختارين على استخدام المدافع الرشاشة الأرضية وصيانتها ، وكان مانيان يأمل تكوين فرقة من راكبي الموتوسيكلات الذين يجيدون استخدام المدافع الرشاشة .

وقال كارليتس : « إن رجال الميليشيا ممتازون .. وكان اختيارهم موفقاً .. فهم محبوبون للنظام ، جادون ، متيقظون . وهذا حسن .. حسن جداً .. أما « فوتس » - أيها الرفيق مانيان - فليس حسناً على الاطلاق ، إنه دائماً في الحزب ، ولكنه لا يعمل أبداً .. « وجارديه » هو وحده الذي يساعدني ، ورجالنا يعرفون الآن كيفية استخدام مدافع الطائرات الرشاشة .. أما عن التجربة فلا أستطيع أن أقول شيئاً ، إذ لا أستطيع أن أقوم بتدريبهم في الجو ، فليس هناك غاز الأيثيل ، ولا آلات تصوير للمدفع الرشاش ، ولا أهداف نسوقهم اليها . والذخيرة تكاد تكون معدومة . أستطيع أن أضع أهدافاً ، أما البنزين فلا أستطيع أن أصنعه ، وهم يعرفون

(*) بيير نيقولايفتش رانجل جنرال روسي (١٨٧٨ - ١٩٢٨) كان يحارب البلاشفة سنة ١٩٢٠

على رأس الجيش الأبيض . (المترجم) .

كيف يستخدمون برج الطائرة ، ولن أضع في البرج الخلفي إلا أولئك الذين جاؤوا من الطيران ، حتى لا يصيبوا ذيل الطائرة . . وأعتقد انهم سيكملون تدريبهم حينما يلتقون بالعدو » .

وأطلق كارليتس ضحكة حادة . . ضحكة صبيانية الى حد ما ، وقد رفع حاجبيه وخصلة شعره في الهواء ، واختلج أنفه مرحاً . . لقد وجد مدافعه الرشاشة ، كما وجد شرايين طائرته . . واكتشف « اسكالي » الذي حضر خاتمة هذا الحوار أن للحرب جانبها الفسيولوجي أيضاً .

كان على جميع الطيارين الثوريين الذين تركوا تدريبهم العسكري بسبب نزعتهم السلمية أن يختاروا بين أحد أمرين : إما أن يعودوا الى التدريب ، أو أن ينسحبوا من الخدمة . . ولكن لم يكن ثمة مجال للانتظار حتى العام القادم لمواجهة فرانكو ، ولم يكن مانيان يستطيع الاعتماد إلا على الطيارين المدنيين القدامى وإلا على أولئك الذين أنهوا فترات تدريبهم .

وكان قد قام لتوه بتصفية عدد من الطيارين الذين اشتركوا في حرب مراكش ، والذين تعودوا استخدام طائرات عتيقة ، وعلى مقاتلة عدو لا دفاع له ، وكانت رؤيتهم للجرحى الأوائل العائدين قد رفعت روحهم المعنوية . « . . . ومهما يكن من أمر فسوف نشاغب أولئك الأشخاص الذين لم يلحقوا بنا أي أذى . . . » ومع ذلك فإنهم لم يتخلوا تماماً عن عقودهم . . . فليعودوا الى فرنسا . . جميعاً !

وكان « دوجيه » أول متطوع طلب مقابلة مانيان على انفراد . . وكان في الخمسين من عمره وله شارب أبيض ، أشد نضاعة من مجياه .

قال : « لا تنبغي إعادتي الى فرنسا أيها الرفيق مانيان . . . صدقني لا تنبغي إعادتي . . . لقد كنت مدرباً خلال الحرب ، ولكنني أعجز من أن أكون طياراً . . هذا حق . . أعطني خرقة من قماش واحتفظ بي كمساعد

ميكانيكي . . . أو كأى شيء تشاء . ولكن لا تبعدي عن الطيارات . . لا تبعدي عنها . . . » .

ووصل سميرانو بأقصى سرعته وهو يلوح بذراعه الأيمن .

- « اسمع يا مانيان ، لا بد من طائرة فوراً للذهاب الى سان بنيتو . . إنهم يزحفون على بطليوس . . . » .

- « طبعاً . . ولكنك تعلم أن الطيارين قد رحلوا جميعاً . . . فهل تريد طائرة بلا طيارين ؟ » .

- « لقد تلقيت الأوامر . . . لا بد من ثلاث طائرات وليس لدي سوى اثنتين من طراز دوغلاس . . . » .

- « حسن . . حسن . . وهل هذا الطراز مجرد أسطوانة بمحرك ؟ » .

- « أجل » .

- « فليكن » .

وذهب ليتصل بالتليفون ، وانصرف سميرانو وقد برزت شفته السفلى الى الأمام .

وقال دوجيه : « والآن . . . ايها الرفيق مانيان . . ماذا قررت بشأني ؟ » .

- « ايه . . فليكن . اتفقنا . تستطيع البقاء . . ماذا نسيت ؟ » .

ولكنه لم ينس شيئاً ، كل ما في الأمر أن تظاهره « بالاستغراق » قد أصبح عادة لديه . كتلك الجملة التي يرددتها دائماً . . أما تصرفه فكان دقيقاً .

وما أن انصرف دوجيه حتى وفدت عليه مجموعة جديدة ، وكان أفرادها

جميعاً من الحاصلين على مؤهلات في الطيران السياحي وعلى استعداد للتدريب ، وتلت هذه المجموعة طائفة أخرى من صغار البورجوازيين المرتزقة الذين يسعون وراء الكسب أياً كان ، وهؤلاء جميعاً رفضهم « مانيان » فاستأنفوا سيرهم صوب جبال البرانس .

ودخل « جيم » وبين ساقيه « رابلاتي » . . ولم يكن مانيان ينتظره .

- « أيها الرفيق مانيان ، أريد أن أقول : إنني لم أحضر هنا بوصفي مترجماً . . ولكن . . أخيراً ، أصبح الأمر على هذا النحو : لا بد أن يجتاز مارسيلينو الاختبار بالطبع . . كل ما في الأمر أنك ربما لا تعلم - أيها الرفيق مانيان أن مارسيلينو قضى سنتين في السجن في أثناء حكم الفاشية . . » .

وكان مانيان يصغي في مودة الى هذا العملاق ذي الجبين والذقن البارزين ، والأنف المقوس غاية التقويس الذي يرتدي عفريته ضيقة . وكان يبدو أن الصداقة لا تستطيع أن تظهر على هذه الملامح البارزة الصلبة ، وإنما كل ما تستطيعه هو أن تبدل من نظرتة فحسب .

- « لقد كان طياراً في الخطوط المائية ، وبعد وفاة « لاورودي بوسيس » ذهب للقاء منشورات على ميلانو ، ومن الواضح أنه أُجبر على النزول بطائرات بالبو ، وكان يقود طائرة سياحية . وحُكم عليه بالسجن ستة أعوام ، ولكنه تمكن من الهرب من جزائر ليباري . ومنذ محاكمته لم يتول قيادة طائرة ثقيلة ، أو طائرة مطاردة منذ رحيله عن الجيش الايطالي . . وهو إنسان محطم . . . وأريد أن أقول لك أيها الرفيق مانيان - دون أي تدخل في قرارك ، ودون إسناد قيادة أية طائرة اليه بالطبع - إننا إذا أردنا أن نسدي صنيعاً فسوف يدخل ذلك السرور على رفاقه الأسباب الذين هنا » فقال مانيان :

- « وهذا يدخل السرور على نفسي أنا أيضاً » .

وانصرف جيم ، فدخل الكابتن مرسيري ، وكان هو أيضاً في الخمسين

من عمره تقريباً ، وله شارب وخطه الشيب يمتد بطول ثغره ، وترتسم على وجهه نظرة صارمة كنظرة القرصان العجوز (كان يتعمد أن يزيد لها حدة) ويتعلل حذاء ذا رقبة طويلة على حلة مدنية .

- « المسألة مسألة تكنيك يا سيد مانيان . . . وهل تريدها أن تكون غير ذلك ؟ والتكنيك يقول . . . » .

- « هل ستعود الى فرنسا ؟ . » .

ورفع مرسيري ذراعيه مشيراً إلى السماء .

- « لقد كانت زوجتي هنا - يا سيد مانيان - في السادس عشر في مؤتمراً هواة طوابع البريد ، وكتبت لي في اليوم العشرين قائلة : إن الانسان لا يستطيع أن يحتمل العار الذي يحدث هنا . امرأة تقول هذا يا سيد مانيان ! امرأة ! ولكنني كنت قد رحلت فعلاً ، وأنا الآن في خدمة اسبانيا ! لا أهمية للوظيفة ، ولكنني في خدمة اسبانيا . ولا بد من القضاء على الفاشية . وكما قلت للمحافظين منا في « نوازي ليسيك » : ليست المومياءات ايها السادة هي التي حافظت على مصر ، وإنما مصر هي التي تحافظ على المومياءات ! . » .

- « كل هذا حسن . . أنت برتبة كابتن ، فهل تريد أن أضعك تحت تصرف وزارة الحرب ؟ » .

- « أجل . . أعني . . أنني كابتن أليس كذلك ؟ ويمكن أن أكون ضابطاً احتياطياً . . غير أنني رفضت الالتحاق بالجيش بسبب معتقداتي . . » .

وكانوا قد أخبروا مانيان بأن مرسيري قد خاض الحرب برتبة صول ، وأنه كان يدعى قائد (كابتن) المطافئ . . ومن ثم فقد أخذها مانيان على أنها دعابة .

- « أجل . . بكل تأكيد . . » .

- « ولكن اسمح لي ! إنني أعرف ما الخندق ؟ لقد خضت غمار

الحرب» .

وكانت السماحة واضحة وراء المبالغة . . وقال مانيان في نفسه : « وعلى كل حال فإن صولاً جاداً ينفع هنا أيضاً كأبي كابتن . . » .

وجاء دور مارسيلينو . . وكان قد وصل بعفريته لا حزام لها وهو ينظر الى قدميه متحسراً . . . ثم رفع عينيه في حزن وقال :

- « أنت تعرف أن السجن ضار بالنسبة لردود الفعل المنعكسة . . » .

وأسكته عاصفة من طلقات المدافع الرشاشة ، وكان كارليتش يطلق مدافعه في الطرف الأقصى من المطار .

وأستأنف مارسيلينو حديثه : « أنا أعرف كيف أسقط القنابل جيداً . . واعتقد أنني ما زلت صالحاً » .

وكان مانيان منذ خمسة عشر يوماً مضت في تلك الفترة ما بين ندائه للمتطوعين وتعبثته للمرتزقة - حين كان يحاول أن يشتري للحكومة الاسبانية كل ما يمكن أن يعثر عليه في السوق الأوروبية - كان قد وجد ذات يوم حين عاد الى شقته هذا الشاب المتدلي الشارب الذي يزيح قبعته الى الوراء ، ويضع على عينيه نظارات غائمة . . . وجده واقفاً بين مصراعي الباب ، وما أن دخلا الشقة حتى دقت التليفونات جميعاً ، وجعل عدد من الزوار يجهل بعضهم البعض الآخر يجوسون خلال الحجرات كلها ، وكان قد أجلس مارسيلينو على سرير طفله الصغير ، وظهره الى صوان مفتوح ، ولكنه سرعان ما نسيه . . . وحين عاد مرة أخرى في الساعة الثانية مساءً وجده محوطاً بكل العرائس التي أخرجها الطيار الايطالي من الصوان وهو يروي لنفسه عنها حكايات .

- « اذا سعدت الى الجو بوصفي قاذفاً للقنابل فربما استطعت أن أؤدي مع ذلك عملاً آخر . . . وأنا على ثقة من أنني سأعود الى لياقتي

سريعاً»

وأخذ مانيان يراقب ذلك الوجه بشعره المتموج كأنه ميدالية من فينيسيا ،
وينظر الى ثوبه الفضفاض .

- « سنقوم غداً باختبار لالقاء قنابل من الاسمنت » .

وفي هذه اللحظة وصلت طائرات سمبرانو من طراز دوجلاس ، وطائرة
مانيان لتقل الجنود الى أقصى المطار .

وكانت عدة حكومات قد وافقت - بعد سقوط الطائرات الحربية الايطالية
في الجزائر - على بيع طائرات حربية - من طرز قديمة مجردة من السلاح ، بيد
أن هذه الطائرات التي تسير الآن نحو الطرف الأقصى من المطار لن تصمد
طويلاً ضد طائرات « سافوا » الحديثة ، هذا إذا عقد الطيارون الايطاليون
عزيمتهم .

واستدار مانيان صوب شراير الذي حل مكان مارسيلينو . ولم يكن
صمت هذا الأخير هو عناد الخجل الذي يتصف به الشاب الايطالي ، كما لم
يكن نتيجة لاضطراب دوجيه ، وإنما كان صمتاً أشبه بصمت الحيوان .

- « لقد ترويت في الأمر ، أيها الرفيق مانيان . . وأقول لك : إنني لم
أعد أطيق رؤية الطائرات . . لم أعد أطيق رؤيتها . . ولكنني هذاف
ماهر . . وهذه خبرة لم أفقدها . بسبب أعياد القرية ، ولأنني أملك
مسدساً»

كان وجهه جامداً ، أما صوته المتقطع فلم يكن يخلو من الكراهية . ثبت
عينيه الضيقتين على مانيان ، وغاص رأسه بين كتفيه كما يفعل النسر . ونظر
« مانيان » الى سيارة من سيارات القوضيين تمر أمام حظائر الطائرات وكانت
هذه أول مرة يشاهد فيها العلم الأسود .

- « الطائرات لم تعد تريديني . فليكن ، ولكن أدخلني في الدفاع ضد

الطائرات .

وانطلقت المدافع الرشاشة ثلاث مرات أو أربع مرات وقال شرايتر :
« أرجوك ! » .

هل هناك أسلوب للثورات ؟ ففي المساء كل رجال الميليشيا الذين يشبهون رجال الثورات المكسيكية ورجال كوميون باريس في وقت واحد - كانوا يمرون وراء أبنية « ليكوريبيسيه » المقامة على أرض المطار . وكانت الطائرات كلها مربوطة . . أما مانيان وسمبرانو وصديقه « فالادو » فكانوا يجتسون الجعة الفاترة ، فلم يكن ثمة ثلج في المطار منذ أن نشبت الحرب .

قال سمبرانو : « الأمور لا تسير على ما يرام في المطار الحربي . . . وجيش الثورة يحتاج الى تنظيم من البداية الى النهاية . . . وإلا فسيملأ فرانكو المقابر بضحايا النظام ، ماذا تعتقد أنهم صنعوا في روسيا ؟ » .

وكانت شفته النحيله السفلى التي تبرز من صورته الجانبية على ضوء المشرب تزيد شهباً بفولتير ، ولكنه يتسم بالطيبة ، ويرتدي عفرته طيار بيضاء .

- « انهم يملكون بندق ، بالاضافة الى أربع سنوات من النظام والقتال في الجبهة ، و « كان » الشيوعيون هم أيضاً يخضعون للنظام » .

وتساءل فالادو : « لماذا أنت ثوري يا مانيان ؟ » .

- « أوه ! لقد توليت ادارة عدة مصانع ، والشخص الذي يهتم - مثلنا - بعمله ، ربما لا يدرك معنى أن تمضي حياة بأكملها في عمل يستغرق ثماني ساعات يومياً . . أريد أن يعرف الناس : لماذا يعملون ؟ » .

وكان سمبرانو يعتقد أن رجال الأعمال في اسبانيا عاجزون في مجموعهم

عن إدارة مصانعمهم ؛ ومن ثم سيطر عليها الفنيون ، ولما كان سمبرانوفنياً متخصصاً ، فإنه يؤثر أن يعمل من أجل المجموع لا من أجل صاحب المصنع (وهذا ما كان يعتقد أيضاً جيم ألفير ، وكل الفنيين الذين يتمون الى اليسار) .

أما فالادو فكان يريد إحياء اسبانيا ، ولا ينتظر شيئاً من الجناح اليميني الأسباني . وقالادو بورجوازي كبير ، وكان هو الذي ألقى المنشورات على ثكنات «الجيل» ووجهه شبيه بوجه «سنيوريتا» ما عدا شاربيه الصغيرين اللذين أزالهما منذ قيام الثورة .

وكان «مانيان» يتعجب من التبريرات التي يقدمها عقل الناس لما يعمل في قلوبهم من عواطف .

قال : « ثم ماذا ؟ لقد كنت يسارياً لأنني يساري .. ولم تلبث أن انعقدت بيني وبين اليسار كل صنوف الأواصر وضروب الولاء ، وأدركت ما يريدون ، وعاونتهم على بلوغه ، وكنت أقرب منهم باطراد كلما حاولوا منعهم ... » .

قال سمبرانو : « حين يكون المرء متزوجاً من سياسة فحسب فليس للأمر أية أهمية .. ولكن حين ينجب منها أطفالاً ... » .
- « وبالمناسبة ، ماذا كنت ، هل كنت شيوعياً ؟ » .

- « كلا .. وإنما أنا اشتراكي من الجناح اليميني .. وأنت ، هل كنت شيوعياً ؟ » فأجاب مانيان وهو يجذب شاربه جذبات صغيرة : « كلا .. وإنما أنا اشتراكي أيضاً ، وإن كنت من اليسار الثوري » .

وقال سمبرانو بابتسامة حزينة تتناسب مع الليل الذي شرع في ارخاء سدوله : « أما أنا .. فقد كنت على الأخص من أنصار السلام ... » .

قال فالادو : « الأفكار تتغير ... » .

- « ولكن الناس الذين أَدافع عنهم لم يتغيروا .. وهذا هو المهم . »
وأخذ البعوض يحوم حولهم .. وما برحوا يتجاذبون اطراف الحديث ،
وكان الليل قد استقر فوق المطار جليلاً ، كما يكون دائماً فوق المساحات
المترامية الأطراف ... حاراً كليالي الصيف جميعاً .

الفصل الرابع أغسطس / آب

هبط عشرون من رجال الميليشيا من إقليم الشارات لتناول الغداء . . ولم يكن بينهم ضباط ، وكان من الواضح أن المسؤولين - لأنهم لا يعتمدون كثيراً على حراسة المراكز القائمة عند عمرات الجبال في أثناء وجبة الغداء - قد قاموا هم أنفسهم بهذا العمل . وقال مانويل في نفسه : من حسن الحظ أن الأمور تجري على هذا النحو في معسكر الأعداء ! .

وكان خمسة من رجال الميليشيا الذين وصلوا يضعون على رؤوسهم قبعات نسائية من طراز سنة ١٩٣٥ أشبه بأطباق فستقية اللون أو زرقاء فاتحة ، وقد نمت لحاهم نمواً عمراً ثلاثة أيام ، ورشقوا في تلك القبعات زهور النسرین الأخيرة التي اقتطفوها من إقليم سيرا الشارات .

قال مانويل وهو يحاكي لهجة راموس الأمرة : « من الآن فصاعداً - سيكون الرفاق المندوبون عن منظمات العمال والفلاحين هم وحدهم المكلفين بتقديم الموضات . وستكون أعمار معينة هي المفضلة مع بطاقات ضمان من نقابتين على الأقل . . فلتضعوا ذلك في أذهانكم جيداً » .

- « لقد كانت الشمس في أعيننا حين هاجمناهم . . فلم تكن نراهم . . وكان هناك محل للقبعات . . مغلق بالطبع ، ولكننا أستطعنا تدبير الأمر ، واحتفظنا بعد ذلك بالقبعات » .

وكانت القرية التي اتخذوها ذلك اليوم قاعدة لهم وللقطار المصفح قائمة على بعد ستمائة متر ، وهي تتألف من ميدان تطل عليه شرفة خشبية كأنه فناء داخلي في مزرعة ، ومن برج له قمة مدببة كمبنى الأسكوريال ، ومن بعض الحوانيت المطلية باللون البرتقالي أو القرمزي ومنها حانوت تزينه مرآة ضخمة .

وأستأنف رجل الميليشيا كاملاً قائلاً : « إنها تناسبنا الى حد ما . . . ولكننا سنلقيها على كل حال ! » .

وجلسوا الى موائد الخانة ، وقد وضعوا بنادقهم متقاطعة مع ظهورهم ، وقبعاتهم النسائية فوق رؤوسهم ، وخلفهم على سفوح الجبال التي تمتد ثلاثين كيلومتراً - كانت زهور الجلجل التي تغطي صخور سيرا قبل موعدها بشهرين قد تحولت فوق حقول القمح الصفراء الى اللون البني . واقتربت ضجة سيارة تسير بأقصى سرعتها ، وفجأة ظهرت من الرواق سيارة من طراز فورد عسكرية اللون ، وأرتفعت منها ثلاث أذرع تلوح بالتحية الفاشية ، وتحت الأذرع المرفوعة كانت القبعات النابليونية ذات الطرفين المدبين ، والخطوط الصفراء فوق الحلة العسكرية الخضراء ، إنهم من رجال الحرس المدني ، ولم يكن قد لحوا رجال الميليشيا الذين يتناولون طعامهم على يمين الباب ، وخيل اليهم أنهم قد وصلوا الى قرية فاشية ، ونهض الفلاحون المسلحون الذين يجلسون الى المائدة الثانية في تودة .

وصاح رجال الحرس وهم يوقفون السيارة بغتة : « أيها الأصدقاء نحن معكم ! » .

وأستعد الفلاحون لاطلاق بنادقهم ، وكان بعض رجال الميليشيا قد أطلقوا النار فعلاً . والواقع ان كثيراً من رجال الحرس الوطني كانوا يخرجون من صفوف الأعداء ، ولكنهم لم يكونوا يجيئون بالتحية الفاشية ، وانطلقت ثلاثون رصاصة على أقل تقدير . ومن خلال هذه الضجة استطاع مانويل أن

يُميز صوت انفجار اطارات السيارة ، وكان أقل حدة من صوت اطلاق النار ، وكان معظم الفلاحين قد سدّدوا بنادقهم على السيارة ، ومع ذلك فقد أصيب أحد رجال الحرس ، وملأت الريح الميدان برائحة الزهور المحترقة .

وجرد مانويل رجال الحرس من أسلحتهم ، وقام بتفتيشهم بعناية ثم ساقهم الى قاعة العمدة تحت حراسة رجال الميليشيا (فقد كان الفلاحون يمتنون رجال الحرس المدني) ، واتصل تليفونياً بالمركز العام للكولونيل مانجادا .

وسأله الضابط القائم بالخدمة : « هل هناك خطر أو المسألة عاجلة ؟ » .

- « كلا » .

- « إذن لا داعي لعقد « محكمة عاجلة » . سنرسل ضابطاً للمحكمة العسكرية وسيصدر عليهم الحكم في خلال ساعة » .

- « بكل تأكيد . . . شيء آخر - إن وصولهم يدل على أنه من الممكن الوصول من أحد المراكز الفاشية حتى مكاننا هذا ؛ ولهذا وضعت مجموعة للحراسة على مدخل القرية ومجموعة أخرى على الطريق - وهذا لا يكفي . . . » .

وانعقد المجلس العسكري في دار العمدة . وفي تلك القاعة ذات الجدران البيضاء وقف الفلاحون خلف المتهمين - بمصانهم الرمادية والسوداء ، كما وقف رجال الميليشيا . . الجميع يقفون صامتين ، وفي الصف الأول وقفت النسوة اللواتي قتل الفاشيون أزواجهن ، وبدا على الرجال وقار المحاربين المسلمين .

وتكلم اثنان من رجال الحرس المدني ، فأعترفا بأنهما قد حياها بالتحية الرومانية ، هذا حق ، ولكنها كانا يعتقدان أن هذه القرية فاشية فأرادا أن يجتازاها لكي ينضموا الى صفوف الجمهوريين . وهذه الكذبة - ككل كذبة

واضحة - كان الاستماع اليها من العسر بقدر ما كان النطق بها ، وكان يبدو على رجال الحرس الثلاثة أنهم يتخبطون في أكاذيبهم ويلهثون تحت ثيابهم الصلبة كأنهم يخنقون بها . واقترت فلاحه من هيئة المحكمة ، كان الفاشيون قد احتلوا قريتها - وهي قرية قريبة ، ثم أستعادها الجمهوريون ، وقالت : إنها شاهدت رجال الحرس حين وصلوا في سياراتهم :

- « حين طلبوا مني الحضور من أجل ولدي .. أنا ، حين طلبوا مني الحضور ، اعتقدت أن ذلك لدفن ولدي ... ولكنهم استدعوني لسؤالي .. هؤلاء الأوغاد ... » .

وتراجعت خطوة ، وكأنما تريد أن تحسن النظر :

- « وكان هناك .. ذلك الرجل ... كان هناك - لو أنهم قتلوا ابنه - فماذا كان يقول ؟ ماذا كان يقول ؟ ماذا كنت تقول أيها التعس ؟ » .

وحاول الرجل الجريح أن يدافع عن نفسه وقد أخذ لهائه يشتد شيئاً فشيئاً ، وشرع يأتي بحركات تشنجية كأنه سمكة أخرجت من الماء ، وخطر للأنويل أنه ربما كان بريئاً ، فالإبن قد أعدم قبل استجواب الأم ؛ فهي ترى فيهم جميعاً قتلة ابنها . وتحدث رجل الحرس عن ولائه للجمهورية ، وبدأ العرق يتفصد قليلاً قليلاً على وجنتي جاره الخليقتين ، وسالت القطرات على جانبي شاربه المدهون بالشمع ، وبدت تلك الحياة التي تتحدث في ذلك السكون كأنها حياة الخوف وقد تجسدت في كيان مستقل .

قال رئيس المجلس : « لقد أتيتم للانضمام إلينا ، فهل لديكم معلومات تدلون بها إلينا ؟ »

والتفت صوب الرجل الثالث الذي لم ينبس بكلمة .. فنظر إليه باصرار مؤكداً بذلك أنه لا يتحدث إلى أحد سواه :

- « استمع .. أنت ضابط ، وإن كنت قد أنضمت إلي هؤلاء

الناس . وقد استمعت الى ما يكفي من هذين الرجلين . وبطائقي رقم ١٧ عند الفلانجين في شقوية . من واجبك أن تأمر بإعدامي رمياً بالرصاص . . . فليكن . . . وأعتقد أن ذلك سيتم اليوم ، ولكن قبل أن أموت أريد أن أشفي غليلي برؤية اعدام هذين النذلين امامي . إن بطائقيها رقم ٦ و ١١ . إنهما يبعثان التفزز إلى نفسي . والآن أتحدث اليك حديث جندي الى جندي : أما أن تأمر بإسكاتهما ، أو تأمر بإخراجي » .

قالت العجوز : « يا لهذا الرجل من شخص متكبر . . . بالنسبة لقاتل أطفال ! . . . » .

وصاح الحرس المدني الجريح في وجه الرئيس : « إنني معكم ! » .

وتفرس الرئيس في الضابط الذي انتهى لتوه من الكلام : كان انفه مفلطحاً وفمه مكنتزاً ، وشاربه قصيراً ، وشعره موجاً ، وله رأس أبطال الأفلام المكسيكية ، وخيل للرئيس في لحظة من اللحظات أنه سيصفع ذلك الحارس الجريح ، ولكنه لم يفعل شيئاً فلم تكن يده كأيدي رجال الشرطة . أتري قد بث الفاشيون جواسيسهم بين رجال الحرس المدني ، كما فعلوا في ثكنات الجبل ؟ » .

- « متى التحقت بالحرس المدني ؟ » .

ولم يجب الرجل ، غير عابئ بالمجلس العسكري .

وصاح الجريح من جديد بلهجة مقنعة لأول مرة : « إنني معكم ! أقول لكم إنني معكم ! » .

لم يصل مانويل إلى الميدان إلا بعد أن سمع طلقات الرصاص ، وكان الرجال الثلاثة قد اعدموا في شارع مجاور ، وسقطت أجسادهم على بطونها ، وأستقرت رؤوسهم في الشمس ، وأقدامهم في الظل ؛ وكان قط صغير يعلو

الزبد فمه يغمس شواربه في بركة الدماء التي أحاطت بالرجل ذي الأنف
المفلطح . واقترب صبي أبعد القط ، وغمس سبابته في الدماء ، وشرع
يكتب على الحائط . وأخذ مانويل يتابع هذه الأصبع ، وكأن يداً تضغط على
مخنقة : « الموت للفاشية » ، وشمر الفلاح الصغير أكمامه ، وذهب ليغسل
يديه من ماء النافورة .

ونظر مانويل الى الجسد المسجى ، والى القبعة الملقاة على بعد خطوات
والى الفلاح المنحني على الماء ، والى الكتابة التي ما زالت حمراء وقال لنفسه :
« ينبغي أن تصنع اسبانيا الجديدة ضد هذا وضد ذاك وليس أحدهما بأيسر من
الأخر » .

وألقت الشمس بكل لهيها على الجدران الصفراء .

الفصل الخامس

سار راموس ومانويل على الرصيف ، وكان المساء شبيهاً بالأمسيات الأخرى التي تحملون قصف المدافع ، وكانت جبال سييرا تنحدر بسفوحها المزخرقة حتى تبلغ وادي مدريد الذي هبط عليه الليل كما يهبط على البحر ، ووراءها خلفية من الشفق كأنها مرسومة في لوحة من لوحات الفرسان القديمة . وفي الجوشاعت رائحة أشجار الصنوبر وأعشاب الصخور ، كان الشيء الشاذ الوحيد في هذا المنظر هو القطار المصفح القابع في النفق كأنما نسيته حرب غربت مع الشمس الغاربة .

قال راموس : « لقد قضيت نصف ساعة أتشائم فيها مع الرفاق ، فهناك أكثر من عشرة يريدون أن يتناولوا عشاءهم في منازلهم ، وثلاثة يريدون تناوله في مدريد ! » .

- « إنه موسم الصيد الآن . . وهم يخلطون بين الأمور ، ولكن ما نتيجة مفاوضاتك بعد كل تلك الشتائم ؟ » .

- « رحل سبعة ، ومكث خمسة . . ولو أنهم كانوا شيوعيين لمكثوا جميعاً » .

وانطلقت بضع رصاصات متفرقة ، وزأر مدفع بعيد ، جعل السلام السائد على الجبال يبدو أكثر عمقاً ، وأشارت الدلائل جميعاً الى أن الليل سيكون جميلاً .

« لماذا أصبحت شيوعياً ، أي راموس ؟ » .

وأمعن راموس في الفكر ثم قال : « لأنني صرت عجوزاً » ...

« اثنان وأربعون عاماً ليست معناها أنني عجوز جداً .. ولكن ، عندما كنت فوضوياً كان حبي للناس أكبر ، والفوضوية عندي هي النقابة ، ولكنها على الأخص علاقة الانسان بالإنسان . والتكوين السياسي لعامل ما ، لا يصبح شخصياً إلا في وقت متأخر ، أما في البداية فالمسألة مسألة مؤثرات » .

« أخبرني إذن يا مانويل ، اشرح لي إذا كنت تفهم في هذا الأمر شيئاً .. هناك في مواجهتنا الجيش الأسباني .. فلنفترض أنهم الضباط على وجه أخص . وفي جزر الفيليبين حاقت بهم الهزيمة .. وفي كوبا أيضاً .. فهل هذا بسبب الاميركان ؟ فليكن لك ما تشاء : بسبب الانتاج الضخم على أحدث طراز . وفي مراکش - هُزموا أيضاً ... وفي المرة كان السبب هو الأمير عبد الكريم ، لا الأميركيان .. لماذا يفر سادتنا الصغار ذوو الشوارب اللامعة أمام عبد الكريم ؟ ولماذا لا يواجهونه الآن ؟ لقد قالوا دائماً انه « جيش هزلي » ، فلماذا لاذوا بالفرار في مليلة ، ولم يفرؤا هنا » .

وكانت العلاقة بين مانويل وراموس قد بدأت في التحول ، كانت حتى الآن علاقة نقابي ذي خبرة في الثلاثين من عمره ، جاء برغم دعاياته يجتهد في معرفة العالم الذي وضع فيه أمله دون أن يخلط بين واقعه وأحلامه ، ولكنه يفتقر الى الخبرة السياسية . وهذه الخبرة بدأ في اكتسابها . وكان راموس يعلم أن معلومات مانويل أوسع كثيراً من معلوماته .

وكما كان مانويل يحرك مسطرة في مبنى السترال ، فقد كان يحرك هذا المساء فرعاً من شجرة صنوبر ما زالت الأشواك في طرفه وكأنه يحرك منفضة ، فما كان يستطيع الشعور بأن يده اليمنى خالية :

- « لا وجود لجيش هزلي يا عزيزي راموس ، وإنما هناك هزليات تحاك

عن الجيش . وما نسميه جيشاً هزلياً إنما هو في الواقع جيش يقوم بحرب أهلية ، وجيشنا - الذي هو في نهاية الأمر الجيش الأسباني - فيه ضابط لكل عشرة جنود ، فهل تعتقد أيها الساذج أن ميزانيته مكرسة للحرب ؟ إطلاقاً . . . وإنما هي مكرسة لمرتبات الضباط ، وهم جميعاً من الملاك ، أو في خدمة الملاك ، كما أنها مكرسة لشراء الأسلحة الأوتوماتيكية ، وهي غير كافية للحرب ، ولكنها كافية كل الكفاية للبوليس : ولأضرب على ذلك مثلاً بمدافعنا الرشاشة طراز سنة ١٩١٣ ، وبطائراتنا التي مضى عليها الآن أكثر من عشر سنوات : طائرات لا وزن لها بالنسبة لأمة من الأمم ، ولكنها حاسمة ضد الثورات ، من المستحيل الدخول في حرب أجنبية بمثل هذه الأسلحة أو حتى في حرب استعمارية ومن منا سمع عن الجيش الأسباني إلا بمناسبة الحديث عن الهزائم أو الاختلاسات ، أو إخماد الحركات الشعبية ، ولكنه ليس جيشاً هزلياً ، وإنما هو تزوير سىء لجيش الرايخ » .

وارتفعت من الوديان طلقات مدافع بعيدة ، وكانوا يحملون بعض رجال الميليشيا الجرحى على أغطية يمسكون بها من أطرافها الأربعة .

وقال مانويل ناظراً الى قمم الجبال التي احتفى وراءها الفاشيون في شقوية : « الشعب ينقذ مدريد كل يوم » .

- « أجل ، ثم يذهب للنوم بعد ذلك » .

- « ولكنه يبدأ من جديد في اليوم التالي » .

- « أنت الآن في سبيلك الى تكوين نفسك يا مانويل . . . وهذا أفضل . . . لقد قدت رجالك قيادة حسنة ضد المدفعية . . » .

- « لعل شيئاً قد تحول في نفسي ، وسيظل كذلك الى آخر أيام عمري ، غير أن هذا لم يأت من هجوم المدفعية أول أمس ، لقد ولد في نفسي اليوم حين رأيت ذلك الصبي يكتب على الحائط بدم الفاشي المقتول ، فلم أكن أشعر بالمسؤولية سواء حين كنت أصدر الأوامر في غابة الزيتون ، أو حين

كنت أقود عربة النقل ، أو حتى حين كنت أقود سيارة الانزلاق في تلك الأيام الخوالي ..

فردد راموس : « في تلك الأيام الخوالي ! » .

ولم يكن قد مضى على تلك الأيام أكثر من شهر .

- « ليس الماضي مسألة زمن فحسب . . . ولكنني أحسست أمام الصبي الذي يكتب على الجدار هناك . . . أحسست أننا مسؤولون . هذه بكاراة القيادة يا عزيزي راموس . . . » .

وهنا بعيداً في أرض الحكومة كانت ألسنة من النار لا دخان لها ترتفع من كوخ راعٍ أو فلاح .

وأخذت أشرعة الضباب الهائلة في ذلك الليل المتصاعد تتلاقى حول تلك النيران . وأختفت الأرض ، وأصبحت النيران هي وحدها البقعة الظاهرة في تلك السفوح ، وبدأ السلام الذي طرد من قنن الجبال وألقي على الأرض كالقطار المصفح القابع تحت النفق - بدا كأنه ينبثق من خلال هذه النار المرحة ، وتصاعدت نار أخرى ، أبعد كثيراً ، في أقصى اليمين .

وتساءل مانويل : « من الذي يهتم بالجرحى ؟ » .

- « رئيس أطباء المصححة . . وهو رجل صبور الى أقصى حد » .

- « هل هو من اليسار الجمهوري ؟ » .

- « إنه اشتراكي من الجناح اليميني على ما أظن . . . وفتيات الميليشيا يقدمن معونة قيمة أيضاً » .

وقص مانويل عليه وصول الفتاة وراء عربات النقل ، وابتسم راموس وهو يضع يديه في خصلات شعره المتموج .

- « ما انطباعك يا مانويل عن فتيات الميليشيا ؟ » .

- « من حيث القتال الفعلي : صفر ، وكل ما يقلحن فيه هو اضعاف اعصاب الرجال ، أما في القتال السلبي فهن صالحات جداً . إن شجاعتهن تأتي على نوبات ، وهذا ما يحدث كثيراً بالنسبة للرجال أيضاً ، وهذه الشجاعة تكون عظيمة أحياناً » .

- « اليك . ثمة شيء يعجبني : في كل قرية استولى عليها فرانكو أصبح الجميع أكثر عبودية ، ولا أقصد رجالنا وحدهم ؛ فهذا لا يحتاج الى فضل بيان ، بل الأطفال الذين يرسلونهم الى القسيس كما نرسل النسوة الى المطبخ ؛ ولهذا فإن جميع المضطهدين بأية طريقة - ينضمون للقتال في صفوفنا ... » .

واكتسبت النيران قوة غريبة صاعدة هابطة في ايقاع منتظم ، وكأنها تحرق أجساد الموتى الذين سقطوا في أثناء النهار ، وتنتشر على حماقة الناس رداء الليل الصاعد .

وأحس راموس أن ابتسامته تتلاشى ، ولاحظ النار الأخرى ، فتناول نظارته المكبرة .

هذه ليست نيران الرعاة ، إنها إشارات .

أترأه بدأ يعتقد كرجال الميليشيا أنه يرى اشارات في كل مكان ؟

بيد أن هذه الأشارات النارية مألوفة لديه ، وفضلاً عن ذلك فإن هؤلاء الأندال (وأخذ يحمي الأشارات) يستخدمون طريقة مورس ، ولكن في لغة غير واضحة .

وكانت النار الأخرى عبارة عن إشارات أيضاً ، هؤلاء الفاشيون قد تهيئوا لعملهم جيداً . كم من نيران مماثلة ترتفع الآن في هذه الساعة وراء صفوف الجمهوريين ؟ وعلى هذه السفوح جميعاً ، والى أبعد مدى يمكن أن تصل اليه عينا راموس . كان رجال الميليشيا راقدين أو نائمين وقد سكتت

صيححاتهم ، ودخل موق النهار الجاثمون بكل ثقلهم على أسفلت الطريق أو
بين أحراج السفوح ومن يلتصقون بالأرض - دخلوا في ليلهم الأول بوصفهم
أمواتاً . وفي ذلك الهدوء الشفاف المخيم على سيرا ، كانت لغة الخيانة
الصامتة هي وحدها التي تملأ الظلمة المتصاعدة .

الفصل الأول

أدرك « مانويل » أن الحرب معناها أن يفعل المرء المستحيل لكي يدخل قطعاً من الحديد في اللحم الحي .

وكانت صرخات رجل أو امرأة (في الدرجة القصوى من الألم لا يمكن التمييز بين الجنسين) تشق لاهثة قاعة مستشفى سان كارلوس ، ثم لا تلبث أن تتلاشى .

وكانت القاعة مرتفعة جداً ، مضاءة من أعلى بفتحات صغيرة مستديرة تكاد تسدها تماماً نباتات ذات أوراق عريضة ينفذ منها ضوء الصيف الساطع . وكان ذلك النهار الأخضر وتلك الجدران الهائلة التي لا تتخللها أية ثغرات اللهم إلا حين يرفع المرء رأسه الى أعلى ، وأولئك الأشخاص الذين يرتدون المنامات ، والذين ينسابون على عكازاتهم بأجسادهم المعقودة في ذلك الهدوء القلق الذي يسود المستشفى ، وتلك الظلال التي تغطيها الضمادات كأنها ثياب في حفلة تنكرية - كان هذا كله يبدو وكأنه مملكة الجرحى الأبدية وقد استقرت ها هنا خارج الزمان والعالم .

وكان يتصل بهذه القاعة الشبيهة بحوض الأسماك حجرة المصابين بجراح خطيرة ، ومنها كانت تنبعث الصرخات ، وكان سقفها على ارتفاع عادي ، وتضم خمسة من الأسرة ، ونوافذ حقيقية . ولم تقع عينا مانويل حين دخلها إلا على ناموسيات من الموسلين مسدلة على هيئة مكعبات ، وعلى ممرضة

جالسة الى جانب الباب ، وبدت الحجره خالية وسط ذلك النهار الساطع . . . حجره مستشفى مضيئه تختلف كل الاختلاف عن كهف التفتيش الذي تنساب فيه أشباح ملفوفة في ضمادات ، بيد أن الأصوات المنبعثه من تلك الحجره كانت كافيه لرده إلى حياته الواقعيه .

وكانت تلك التأوهات تصدر بلا انقطاع عن سرير وسط الحجره . . . تأوهات تعبر عن ألم أقوى من كل تعبير إنساني ، حين لا يعود الصوت سوى صرخه عامه تعبر عن العذاب . . . صرخه مشتركة بين الانسان والحيوان : انها مجرد أنات تتبع إيقاع التنفس ، ويخيل إلى من يسمعها أنها ستوقف عن التنفس . وحين تتوقف - في الواقع - فإن صرير الأسنان بصورته الوحشية المريحه الشبيهه بصرخات النساء في اثناء الوضع - يحل محل تلك الأنات ، وأحس مانويل أن الصرخات سوف تتصل مع التنفس العائد .

وسأل الممرضة هامساً : « ماذا به ؟ » .

- « حادثه طيران . . لقد هبط مع قنابله ، فأنفجرت حين سقوطها . وفي جسده خمس رصاصات من مدفع رشاش ، وسبع وعشرون شظية . ! » .

وتحرك ستار الكلة تدفعه يد من الداخل وكان الجريح قد جلس على فراشه .

قالت الممرضة : « هذه أمه . . وهو في الثانية والعشرين من عمره » .

قال مانويل في مرارة : « لقد تعودت مثل هذه المواقف » .

- « ليس لدينا ما يكفي من الممرضات . . أما أنا فطبيبة جراحة » .

وعادت الصرخات مرة أخرى ، وكانت هذه المرة أشد ارتفاعاً ، وكان الجريح يريد أن يفقد رشده بأن يضاعف من ألمه ، ثم انقطعت الصرخات فجأة ، ولم يعد مانويل يسمع صرير الأسنان ، ولكنه لم يجرؤ على التقدم .

ماذا جعله يشعر بأن الجريح يتشبث بأصابعه في الملاءة؟ وبدأت ضجة جديدة ، ولكنها خافته في بداية الأمر الى درجة جعلت مانويل يتساءل : ماذا يمكن أن تكون؟ حتى اتضحت تماماً . . انها صوت شفاه ، ماذا تجدي الكلمات في مواجهة جسد ممزق؟ فالآن حين بلغ الصبي بألمه الى حد الصمت أقدمت أمه على الشيء الوحيد الذي يمكن أن تفعله وهو أن تعانقه .

وانصت مانويل الى صوت القبلات الذي أخذ يزداد سرعة ، وكأنها أرادت الأم حين أحست بالألم معلقاً وعلى استعداد للعودة أن توقفه بقوة الحنان ، وأمسكت يد بالكلية وجعلت تمزقها في قبضتها ، وأحس مانويل بذلك العذاب المعلق في الهواء الخالي كأنه يحدث في ذراعه نفسها ، وانفتحت اليد ثانية واتصلت الصرخات من جديد .

وسأل مانويل : « منذ متى ؟ » .

- « منذ أول أمس . »

وأخيراً نظر الى المريضة : كانت صغيرة غضة السن ، ولم تكن تضع غطاء رأس المرضات ، فبدأ شعرها أسود لامعاً .

وترددت ، ثم قالت أخيراً : « ونحن أيضاً . . . قد نألف صرخات الجرحى ، ولكننا لا نألف صرخات أهلهم . . . وهؤلاء إذا لم نبعدهم لم يعد في الامكان اجراء العمليات » .

وسأل مانويل في الفترة التي تمتد ما بين صرختين : « ألا يزال باركا هنا ؟ » وكان يبدو أن تلك الصرخات قد استقرت في القاعة الى الأبد .

- « نعم ، انه في الحجرة المجاورة » .

وأحس مانويل أن عبثاً أزيح عن صدره ، وكان مرهف الحس بآلام الآخرين ، ولكنه كان عاجزاً في الوقت نفسه عن التعبير عن تعاطفه ، ولهذا

أحس بارتبائه ، وضيقة بهذا الارتباك .

وكانت الحجرة التي بها « باركا » متصلة بتلك الحجرة التي غادرها مانويل وبحوض الأسماك في وقت واحد . وفتح مانويل الباب ، وتردد لحظة وكأنما كان إغلاقه للباب إغلاقاً لغطاء التابوت على الجريح ، وأخيراً تركه نصف مفتوح .

وكان « باركا » جالساً على سريره كلا . . . انه لم يكن يريد أكثر مما هو فيه ، فلديه عدة برتقالات ، وبعض المجلات المصورة ، والصدقة ، وكان أشنع ما في الأمر أنهم لم يكونوا يريدون حقنه بالمورفين ، فاذا كانوا يخشون أن يصبح مدمناً للأفيون في مثل سنه فأحري بهم أن يتركوه في سلام ، ولما كانوا قد وضعوا الثقل على طرف ساقه التي أصيبت في موضعين منها بكسور فإنه لم يكن يستطيع النوم ، ولو أنهم تمكنوا من تنويمه لأضحى كل شيء على ما يرام .

- « هل تستطيع أن تنام مع كل . . . » .

وكان مانويل يشير الى صرخات الجريح التي كانت تبلغ أسماعهم عن طريق الباب نصف المفتوح .

- « ما كان ينبغي أن أكون معه في نفس القاعة . . وليس لهذا تفسير . وربما استطعت في حجرة أخرى . . . ولكن ينبغي أن يضعوا المرضى الهادئين معاً ، أغلق الباب . . . ففي تلك الحجرة الأخرى . . لا يصرخ أحد . . . » .

وسأل مانويل : « ماذا كان يعمل ؟ » وكأنه بالحديث من جديد عن الجريح يفتح الباب الذي أغلق عليه مرة أخرى .

- « كان ميكانيكياً . . وانضم الى الميليشيا ، ثم الى الطيران قاذفاً للقنابل . . » .

- « ولماذا انضم الى صفوفنا ؟ » .

- « أكنت تريده أن يظل ميكانيكياً مع الفاشيين ؟ » .

- « كان يمكن ألا ينضم الى أحد » .

- « أوه ! أما هذا . . . » .

وعقد باركا حاجبيه ورفع رأسه : لقد استولى عليه الألم من جديد ،
واسند رأسه الى الوسادة ، واكتسى وجهه العجوز بتعبير الألم الملح - فبدت
عيناه أشد تجويفاً ، وملاحه مهياة دائماً للتحوّل - ذلك التعبير الذي تتسم به
طفولة هشّة حزينة في وقت معاً ، وفي هذا التعبير ينتزع الألم من كل وجه ما
يخفيه من نبل . وفي سيرنا لاحظ مانويل عيني باركا ، فرأى أن كل ما في هذا
الوجه ذي القسّمات المتبدلة من تعبير يبشرته التي هي أدكن من شعره ،
وشاربه الأنصع من عينيه الصافيتين - رأى أن هذا التعبير يأتي من جفنيه
الثقلين الكثيفين المشحونين بتجربة مريرة تخلو من الاستسلام ، تكسوها عدة
غضون صغيرة كأنها شروخ في اناء من الخزف ، فتضفي على وجهه طابعاً من
المرح الريفي . وكان يبدو حين يغمض عينيه ، كأنه يتسم .

- « ماذا حدث للقطار المصفح ؟ » .

فقال مانويل : « كل خير على ما أعتقد . . . ولكنني لست أدري ، فلم
أذهب الى هناك ، إذ عُينت قائداً للكتيبة الخامسة » .

- « وهل أنت مسرور ؟ » .

- « أمامي الكثير مما ينبغي أن أتعلّمه . . » .

وتناهت اليهما الصرخات ، على الرغم من الباب الموصل .

- « هذا الشاب . . كان معنا . . لأنه كان معنا . . » .

- « وأنت يا باركا ؟ . . » .

- « لعدة أسباب . . . »

وقطب وجهه . ثم حاول أن يتحرك ، وأستدار صوب مانويل وكأنه يتوقع منه أن يفسر نفسه .

واستطرد مانويل : لا شيء يرغمك على ذلك . «

- « لقد كنت نقابياً . . كما تعلم ! » .

- « أجل . . ولكنك لم تكن مناضلاً . . ولم يكن ثمة ما يهددك

مباشرة . »

- « أخبرني إذن أيها الصبي : هل كان وباء الفلقسير يرضيك أنت ؟ » .

وقد كان « باركا » من زارعي الكروم في قطالونيا ، كما كان أبوه وجده .
وسمح وباء الفلقسير الذي أصاب الكروم للملاك بطرده هو أيضاً من عمل
دام خمسين عاماً .

- « ولكنك صنعت حياتك من جديد ، وتستطيع أن تعيش . . . » .

ومن اللهجة التي يتحدث بها مانويل أدرك « باركا » أنه لا يسعى الى
الجدال ، ولكن إلى مزيد من الفهم .

- « تريد أن تقول : لماذا لم أقف على الحياض ؟ » .

- لا .

وابتسم « باركا » إبتسامة أضفى عليها الألم تجربة غريبة .

- « ثمة أناس لا يستطيعون أن يقفوا على الحياض . . . ومتى كنت

محايداً ؟ » .

وتسلل من الباب المفتوح الى « حوض الأسماك » أشخاص يتوكلون على

عكازات الواحد وراء الآخر .

- « ومع ذلك فالمسألة لا تحتل المزاح ، إنها مسألة جدية ؛ ذلك أن أبشع أنواع الفاشية أفضل من أن يموت المرء ! ... »
وأغمض عينيه ثم قال :

- « إن ساقبي تؤلمني أكثر مما يضايقني أي فاشي ... ومع ذلك ...
فأنا ... »

ودهمه الوهن فأوقف حركته ، قبل أن يدهمه الألم .

- « كلا ... ليس الأمر على هذا النحو ، كلا ... فإنني برغم هذا كله على استعداد لأن أبدأ من جديد نفس البداية : ماذا اذن ؟ » .

وبلغتهما صرخات الجريح مرة أخرى . هل يمكن أن يعيش هذا الجريح حياته نفسها مرة أخرى ؟ وكان هذا هو ما خطر ببال « باركا » .

- « إن ما سألته الآن ليس فكرة جديدة عليّ ، فعندما اعتقدت أنني ساموت ... هناك تحت أشجار الصنوبر .. فكرت في الأمر .. كما يفعل كل الناس .. لا كما تفعل أنت .. ربما .. ولكنني أمعنت في التفكير .. فإن أتعلم ما لا أعرفه فهذا شيء أستطيعه إذا تذرعت بالصبر ، ولكن أن أفهم من أنا .. فهذا ... ! إنها الكلمات التي أعجز عن الإفصاح بها ، هل تتابع حديثي ؟ » .

- « بكل تأكيد » .

- « هذا لأنك ذكي .. ومجمل القول هو : إنني لا أريد أن يحتقرني الناسإستمع إليّ يا بني » .

ولم يرفع صوته ، وإنما كان يتحدث بلهجة أشد اثتاداً .. بنفس اللهجة التي يصطنعها حين يجلس الى مائدة ، ويرفع سبابته .

- هذه هي المسألة .. أما الباقي فيدور حولها ، وأنت على حق فيما

يُخص بالنقود ؛ فربما أستطعت أن أسوي الأمر معهم ، ولكنهم يريدون أن يحترمهم الناس . وأنا لا أريد أن أحترمهم ؛ لأنهم ليسوا قوماً محترمين ، وأنا أحب أن أحترم الناس ، ولكن لا أحترم هؤلاء ، أحترم السيد جارسيا مثلاً لأنه عالم ، أما هؤلاء فلا .

وكان جارسيا من خيرة علماء الأجناس الأسبان ، وهو يقضي الصيف في سان رافائيل ، وقد لاحظ مانويل الى أي حد يحبه المحاربون في هذا الجزء من إقليم الشارات .

واستطرد باركا قائلاً : « ثم هناك شيء آخر : سأروي لك ذكري ، وربما وجدتها غير جادة ، ولعلها كذلك حقاً : عندما كنت زارعاً قبل أن أذهب الى برينيان ، حضر المريكز عندنا ، وكان يتحدث مع رجاله ، كان يتحدث عنا ، وقال هذا القول ، وأنا أعيد عليك كلمة كلمة : « هل شاهدتم مثل هؤلاء الناس ؟ إنهم يفضلون الإنسانية على عائلتهم ! » كان يقول ذلك في احتقار ، وما كنت أستطيع أن أناقش هذا القول في تلك اللحظة ، ولكنني أخذت أفكر في تلك المرة أيضاً ، وأدركت أننا حين نريد شيئاً للإنسانية فإن ذلك يعود بالنفع « أيضاً » على عائلتنا . وهذا شيء واحد ، أما هم فإنهم يختارون بين أحد الأمرين . . . هل تتابع حديثي ؟ إنهم يختارون . »

وسكت برهة ثم قال :

« وجاء السيد جارسيا ليراني ، كنت أعرفه منذ زمن طويل وهو رجل يهتم دائماً بالأشياء ، ولما كان الآن في المخابرات العسكرية فإنه يريد أن يعرف كل ما يجري في القرى . ولكنه سألني : ما معنى المساواة ؟ اسمع يا مانويل ، أريد أن أقول لك قولاً طيباً لا تعلمان عنه شيئاً ، أنتما الاثنين . . . لأن لديكما . . . لديكما الكثير . . . الكثير من الفرص ، كما يقولون . ورجل مثله - أعني مثل جارسيا - لا يعرف جيداً معنى أن يكون المرء مضطهداً . واليك ما أردت

أن أقوله لك : إن عكس ذلك أعني المذلة - كما يقول - ليست هي
مساواة ، وإن أولئك الفرنسيين قد فهموا شيئاً ما حين نقشوا فوق مبانيهم
تلك الكلمات . . لأن عكس الاضطهاد هو الاخاء . . .

ومن خلال باب القاعة الكبرى المفتوح سار الجرحى الذين وضعت
أذرعهم في الجبس ، فبدوا كعازي الكمان الذين يسندون آلتهم الى
رقابهم . . وكان هؤلاء هم أتعب الجميع : ذلك أن الذراع التي في الجبس
كانت تتخذ شكل حركة من الحركات ، وإن هؤلاء العازفين الأشباح الذين
يحملون أذرعاً ثابتة متفتحة يتقدمون كتماثيل يدفعها شخص من الخلف في
ذلك السكون الذي يسود حوض الأسماك ، والذي لا يشوبه شيء سوى
طنين خفي يحدته الذباب .

الفصل الثاني

١٤ من أغسطس

وسط الحماس العام ، والحرارة الخانقة - اصطفت ست طائرات حديثة للشروع في الرحيل ، وسار الطابور المغربي الذي قام بالهجوم على اكستريمادورا من ميريدا قاصداً «مدلان» . وكان طابوراً قوياً مجهزاً بالسيارات المصفحة ، يضم بلا شك صفوة القوات الفاشية ، وأبلغ سميرانو ومانيان تليفونياً تجاه هذه العمليات ، وأن فرانكو يقودها شخصياً .

أما رجال الميليشيا في اكستريمادورا فقد عقدوا عزمهم على المقاومة دون قواد ، ودون أسلحة . ومن «مدلان» خرج الفلاح وصاحب الحانة أو الفندق والعمال الزراعيون ويضعة آلاف من أشد الناس بؤساً في اسبانيا - خرجوا يحملون بنادق الصيد ليواجهوا البنادق السريعة الطلقات التي تملكها المدفعية المغربية .

وكانت ثلاث طائرات من طراز دوجلاس ، وثلاث طائرات مقاتلة مزودة بمدافع رشاشة طراز سنة ١٩١٣ تحتل نصف عرض المطار ، ولم تكن طائرات مطاردة ، إذ كانت كلها في اقليم الشارات . وحول هذه الطائرات وقف سميرانو وصديقه فالادو ، والطيارون المدنيون الأسبان ومانيان ، وسيبيرسكي ، وأراس ، وكارليتس ، وجارديه ، وجيم ، وإسكالي ، وبعض المستجدين ، والأب دوجيه ؛ ووقف العمال الميكانيكيون أمام حظائر الطائرات ومعهم الكلب رابلاتي .

وظفق جيم يغني أغنية من أغاني الفلامنكو .

واتجهت الطائرات صوب الجنوب الشرقي وقد اتخذت شكل مثلثين .

وعلى الرغم من رطوبة الجو داخل الطائرات فقد كان في استطاعته أن يرى القيظ محيطاً بالأرض ، كما يرى الهواء الساخن الذي يرتجف فوق الأفران ، وكانت قبعات الفلاحين العريضة المصنوعة من القش تظهر في حقول القمح هنا وهناك . ومن جبال طليطلة حتى جبال اكستريمادورا وفيما وراء ميدان القتال - كانت الأرض التي اتخذت لون الحصاد تغفو إغفاءة ما بعد الظهيرة ، يغلفها السلام من أفق الى آخر . وفي الغبار الذي يصاعد صوب الشمس المتوهجة ، كانت سفوح الجبال وصخورها الناتئة تبدو جميعاً أطيافاً مسطحة ، وفيما وراء ذلك كانت بطليوس وميريدا اللتان استولى عليهما الفاشيون يوم ٨ ، وميدلان ما زالت غير مرئية ، وكأنها نقاط تافهة في السهل الرحب المرتعش .

وتكاثرت الصخور رويداً رويداً ، وأخيراً لاحت بطليوس بسوقها وحلبات مصارعة الثيران الخاوية مريرة كأرضها الصخرية ، وسقوفها الخالية من الأشجار ، وقرميدها العتيق الذي حولته الشمس الى اللون الرمادي ، وكأنها هيكل رجل من البربر مسجى على أرض افريقية ، والقى الطيارون نظرة على خرائطهم ، وقاذفو القنابل على أهدافهم ، ورجال المدافع الرشاشة على علامات التصويب الصغيرة التي كانت تدور بأقصى سرعتها خارج الطائرة . وتحتهم كانت ترقد مدينة عتيقة من مدن اسبانيا المتآكلة بنسائها السمرات القابعات خلف النوافذ ، وبزيتونها وينسونها الموضوعين في دلاء مملوءة بمياه الأبار ، وبآلاتها للبيانو التي يعزف عليها الأطفال بإصبع واحدة ، وبقططها الهزيلة التي ترهف آذانها للنغمات التي تتلاشى واحدة أثر الأخرى في حمارة القيظ ، وكان انطباع الجفاف يخيل إلى المرء أن أحجار القمر يد والصخور والمنازل والشوارع ستتهار وتتداعى عند أول قنبلة في قرقة هائلة للعظام والحطام ، وفوق الميدان كان كارليتش وجيم يلوحان بمناديلهما ،

وألقي الطيارون الأسبان بأوشحة في لون علم الجمهورية .

والآن ها هي ذي مدينة فاشية : وهنا تعرف المراقبون على مسرح ميريدا القديم ، وعلى الأطلال ، إنها مدينة شبيهة ببطليوس ، وبكل مدن الأكستريمادورا . وأخيراً ، لاحت « ميدلان » .

من أي طريق يصل الطابور ؟ لقد كانت الطرقات العارية من الأشجار تبدو صفراء تحت وهج الشمس وإن كانت أنصع من الأرض ، ولكنها خالية تماماً على امتداد البصر .

وحام السرب فوق الميدان المربع في « ميدلان » ثم شرع يتجه في الطريق المؤدية الى صفوف الأعداء ، ولكنه صعد أيضاً صوب الشمس ، بيد أن هذه الشمس التي كانت تسطع في الساعة الخامسة مساءً بهرتهم جميعاً وأعشت أبصارهم ، فلم يروا من الطريق سوى شريط يتوهج من النور .

وبدأت الطائرتان من طراز دوغلاس اللتان تسييران خلف طائرة سميرانو في تهدئة السرعة ، ثم سارتا في الصف ، فقد وصل طابور الأعداء .

وكان « داراس » الذي أسلم مهمة الأشراف الى الطيار الأول ، يطل بجماع جسده ، وقد أنحنى بجذعه كله في عمر الطائرة ، كان في اثناء الحرب لا يبحث إلا عن هذه الفرقة الألمانية أو تلك ، ولكنه يبحث الآن عما كان يناضله طيلة تلك السنوات متخذاً عديداً من الأشكال سواء في صورة العمدية ، أو في المنظمات العمالية التي أسست بصبر والتي لحقتها الهزائم ، ولكنها لم تلبث أن تلبثت أن بعثت من جديد ، وهذا العدو هو الفاشية . وبعد أن كافح في روسيا جاء دور إيطاليا والصين والمانيا . . ولكن ما كادت الفرصة تتاح لأمله الذي وضعه في العالم حتى وجد الفاشية جاثمة هنا على أسبانيا تحت طائرتها ، وكان كل ما يراه الآن هو طائرات رجاله وهي بسبيل تغيير خط سيرها .

واستدارت الطائرة التي كان فيها « وهي طائرة مانيان قائد الفرقة

العالمية « لكي تحدد خط السير . الطريق الممتدة أمامهم تتناثر عليها نقاط حمراء على أبعاد منتظمة ، تمتد على مسافة كيلومتر على اليمين ، وحامت الطائرة فوقها ، فظهرت الشمس مرة أخرى ، هذه النقاط أصغر من أن تكون سيارات ، كما أن طريقة سيرها الآلية جداً تستبعد احتمال أن تكون جنوداً . . . بيد أن الطريق أخذ يتحرك .

وفجأة فطن داراس الى الأمر ، وكأنه يرى بفكره لا بعينه ، فميز الأشكال : لقد كان الطريق مغطى بسيارات النقل ذات السقف المصنوع من قماش سميك يكسوه غبار أصفر ، أما النقط الحمراء فكانت خوذات الجنود المدهونة بأوكسيد الرصاص الأحمر دون محاولة للتعمية .

وكانت تحيط بالمدن الثلاث طرق تمتد حتى الأفق البعيد الغارق في سكون الريف وسلامه ، وكأنها آثار خلفتها مغالب طيور هائلة الحجم ، وبين هذه الطرق الثلاث الثابتة كان هناك ذلك الطريق المتحرك ، وتمثلت الفاشية - في عيني داراس - في هذا الطريق المرتجف .

وعلى جانبي الطريق انفجرت القنابل . . وكانت زنة الواحدة منها عشرة كيلو غرامات ، فاندلعت ألسنة من اللهب الأحمر ، وانداحت سحب الدخان على الحقول . . . ولم يكن ثمة ما يشير الى أن الطابور الفاشي قد أسرع في سيره ، غير أن الطريق كان ما يزال نابضاً بالحركة .

وتقدمت السيارات والطائرات بعضها للقاء البعض الآخر ، ولم يستطع داراس أن يرى - في وهج الشمس - القنابل في أثناء سقوطها ولكنه شاهدها وهي تنفجر الآن في الحقول دائماً كحبات المسبحة ، وعادت قدمه المضمدة الى إيلامه ، من جديد . . وكان يعلم أن إحدى الطائرات من طراز دوغلاس غير مزودة بجهاز لقذف القنابل ، ولهذا كانت تلقي بقنابلها من فتحة المرحاض بعد أن تم توسيعها ، وبغثة ثبت جزء من الطريق « المتحرك » لقد توقف الطابور ، إذ لمست قبلة إحدى عربات النقل التي سقطت عبر

الطريق دون أن يراها « داراس » .

وكما يواصل رأس الدودة طريقه بعد انفصاله عن الجسد فكذلك اتجه الجذع الذي يتقدم الطابور بعد أن مزق الى الثلث - صوب « ميدلان » واستمرت القنابل في السقوط ، على حين وصلت طائرة « داراس » فوق ذلك الجذع .

ولم يعد الطيار الثاني يرى ما يدور تحته .

ونظر « اسكالي » - وهو الذي يتولى قذف القنابل في الطائرة العالمية الثالثة - الى القنابل وهي تدنو من الطريق ، وكان مدرباً أحسن تدريب في الجيش الايطالي ، وأكمل فيه - قبل أن يهاجر - فترة من الخدمة الاحتياطية كان يقضيها كل عام ، واستعاد دفته في التصويب بعد ثلاث غارات قام بها في جبال سييرا ، وفي خلال خمس عشرة ثانية كان فيها سييرسكي يخلق عمودياً فوق الطريق - رأى القنابل تنفجر مقتربة أكثر فأكثر من سيارات النقل . بيد أن الوقت قد فات لضرب الجزء الرئيسي من الطابور ، وحاولت السيارات الأخرى أن تعبر الى يمين وشمال السيارة المقلوبة وسط الطريق الذي حطمته القنبلة بلا شك . وبدت العربات - منظوراً إليها من الطائرات كأنها وهي مثبتة في الطريق دبابات ملتصقة بورق مصمغ ، وكأنما كان « اسكالي » ينتظر أن يراها تطير أو تنطلق عبر الحقول ، لأنه داخل طائرة ، غير أن الطريق كان محوطاً برصيفين طبعاً ، وحاول الطابور الذي كان متمسكاً منذ لحظة أن يتقسم على جانبي السيارة المقلوبة كما ينشطر نهر على الجانبين إذا اعترضته صخرة . وشاهد اسكالي في وضوح - القمم البيضاء للعمامات المغربية ، وذهب فكره الى بنادق الصيد التي يتسلح بها رجال « ميدلان » المساكين ، وفتح فجأة صندوقي القنابل الخفيفة حين دخلت مجموعة السيارات في مجال تصويبه ، ثم استند على الفتحة ، وانتظر وصول

قنابله : تسع ثوانٍ من المصير تفصل بينه وبين هؤلاء الرجال ! .

« اثنان .. ثلاثة » من المحال أن يرى من الفتحة مسافة بعيدة الى الوراء ، ومن ثغرة جانبية كان بعض الأشخاص يجرون على الأرض رافعين أذرعهم في الهواء ، يحاولون دون شك استنقاذ حياتهم بالاتجاه صوب الرصيف « خمسة . . ستة » وانطلقت مدافع رشاشة تجاه الطائرات « سبعة . . ثمانية » انهم يركضون تحت ركضاً شديداً ! « تسعة » لقد كفوا عن الجري تحت عشرين بقعة حمراء انفجرت في وقت واحد ، وواصلت الطائرة سيرها ، كأنما لا يعينها هذا كله في شيء ! .

ودارت الطائرات دورة كاملة لتبلغ الطريق مرة أخرى . وعادت طائرة « مانيان » في اللحظة التي انفجرت فيها قنابل « اسكالي » بحيث شاهد « داراس » في وضوح لا مزيد عليه - الدخان وهو يتبدد فوق حطام العربات التي انقلبت رأساً على عقب . . وما عدا لحظة الانفجار الأحمر للقنابل لم يكن يبدو أن الموت يؤدي أي دور في هذه المسألة ، ولم ير « داراس » سوى بقع من الكاكي تملوها العمامات كنقط بيضاء تلوذ بالفرار كأنها شمال مذعورة تحمل بيضها ! .

كان سمبرانو هو أوضحهم رؤية ، وعادت أولى الطائرات من طراز دوغلاس وراء آخر طائرات الفرقة العالمية ، وبذلك أغلقت الدائرة ، وكان يعرف معرفة أفضل من معرفة « اسكالي » كيف كان نضال رجال الميليشيا في « الاكستريمادورا » ويعرف أنهم لم يكونوا يستطيعون شيئاً ، وأن الطيران هو وحده الذي كان يستطيع مساعدتهم ، وعبر مرة أخرى فوق الطريق حتى يستطيع قاذفو القنابل الذين احتفظوا بقنابل خفيفة تحطيم مزيد من السيارات ، فقد كانت هذه السيارات هي العنصر الأول الذي تتألف منه

القوة الفاشية ، ولكن كان لا بد من الوصول الى رأس الطابور الذي سار صوب « ميدلان » قبل وصول طيران العدو .

وأسرعت بضع سيارات أخرى الى الحقول ، وما أن أزيحت عن الطريق ولم تعد في مواجهة الشمس حتى أطال الضوء الساقط عليها ظلها وراءها ، وبذلك ظهرت حين تحطمت ، كالسلك الميت لا يطفو على سطح الماء إلا بعد أن يصاد بالديناميت ! .

وكان الوقت كافياً أمام الطيارين لاتخاذ أماكنهم المناسبة فوق الطريق . . . وكانت ظلال العربات المحطمة تستطيل الآن عند رأس الطابور وذيله كأنها حواجز .

وقال سميرانو في نفسه وهو يمط شفته السفلى : « أمام فرانكو أكثر من خمس دقائق لترتيب ذلك » : واتجه بدوره صوب « ميدلان » .

ومع بقاءه من دعاء السلام في أعماق قلبه ، فقد كان يلقي بالقنابل خيراً من أي طيار إسباني ، ولكنه كان يلقيها - حين يكون وحده - من ارتفاع منخفض ، حتى يخفف من هواجس ضميره : فالخطر الذي يتعرض له كان يحل مشاكله الأخلاقية . كان شجاعاً بطبيعته مثل مارسيلينو ومثل غيره ممن يسيطر عليهم الحياء ، وقال في نفسه : إما أن تكون العربات في المدينة ، وهنا ينبغي الاطاحة بها جميعاً في الهواء ، أو أن تكون خارج المدينة وحينئذ ينبغي الاحاطة بها جميعاً حتى لا تحدث مذبحه لرجال الميليشيا ، وهكذا انطلق تجاه « ميدلان » بسرعة مائتين وثمانين كيلومتر في الساعة .

وكانت السيارات التي تؤلف رأس الطابور متجمعة في ظل الميدان ، فلم تكن تجرؤ على التفرق لأن سكان القرية من الأعداء ، وهبط سميرانو الى آخر ما في وسعه ، تبعه خمس طائرات أخرى .

الشمس الآن تملأ الشوارع بالظلال . . ومع ذلك فقد كان من الممكن تمييز المنازل على بعد ثلاثمائة متر ، فهذا قرمزي وذاك أزرق فاتح ، أو

أخضر بلون الفستق ، وكذلك كان من الممكن تمييز أشكال العربات ، وكان بعضها يختبئ في الشوارع المجاورة للميدان .

واتجهت إحدى طائرات « دوجلاس » صوب سمبرانو بدلاً من أن تتبعه ، لا شك في أن الطيار ضل عن خط السير .

وشرعت الطائرات في تكوين دائرة جديدة مماسة لميدان ميدلان ، وتذكر سمبرانو أول غارة له ، كان قد قام بها فارجاس الذي هو الآن رئيس العمليات ، وتذكر عمال « بينياروبا » الذين حاصروهم الفاشيون فعلقوا من النوافذ وفي الأفنية ، ستائرهم وأغطية الأسرة ، وأجمل ثيابهم لتحية الطيارين الجمهوريين .

وتألفت القنابل المنطلقة في أشعة الشمس ، ثم اختفت ، وواصلت سيرها مستقلة كالطوربيدات . وبدأت السنة برتقالية هائلة من اللهب تنفجر كالألغام في الميدان الذي ملأه الدخان . وفي دوامة ضخمة ، وفوق أعلى شعله من النيران - اندفع دخان أبيض وسط الدخان البني وفجأة وثب طيف أسود لسيارة نقل فوق هذا الدخان ، ثم سقط داخل السحابة المتعددة الألوان . وفي أثناء انتظاره حتى تتلاشى تلك السحابة ألقى سمبرانو نظرة أمامه ، فرأى الطائرة الدوجلاس التي خرجت على التشكيل ، كما شاهد طائرتين غيرها ، وكانت تشترك في القتال ثلاث طائرات دوجلاس بما فيها طائرته ، فكيف يمكن أن يرى ثلاث طائرات أمامه ؟

وحرك جهاز اللاسلكي لكي تتخذ الطائرات تشكيل القتال .
كان مستغرباً فيما يدور على الأرض فلم يعين في النظر : ذلك أن هذه الطائرات لم تكن من طراز دوجلاس ، بل كانت من طراز يونكرز .

وكانت هذه هي اللحظة التي عرف فيها « اسكالي » ان الطيران سلاح يبعث على التقزز . فمنذ أن أخذ المغاربة في الهرب أحس برغبة قوية في الرحيل ، ومع ذلك لم يمنعه من أن ينتظر كالقطة دخول الميدان في مجال

تصويبه تبقت لديه قنبلتان زنتهما خمسون كيلوغراماً ولم يعبا، بالمدافع الرشاشة التي تطلق عليه من الأرض، بل أحس أنه قاضٍ وقاتل معاً، وكان شعوره بأنه قاضٍ أبعث على تفززه من شعوره بأنه قاتل، غير أن الطائرات اليونكرز الست - ثلاثاً في مواجهته وهي التي شاهدها سميرانو، وثلاثاً تحته - أعفته من هذا التأمل الباطني .

وحاولت الطائرات « الدوجلاس » الفرار، فلم يكن من الممكن بمدفعها الرشاش التعس القائم الى جانب الطيار أن تخوض المعركة مع الطائرات الألمانية بمدفعها الرشاشة الثلاثة من أحدث طراز، وكان سميرانو يعتقد دائماً أن السرعة خير وسيلة للدفاع عن قاذفات القنابل، والواقع أن الطائرات الدوجلاس أنطلقت بأقصى سرعتها، على حين حملت الطائرات العالمية على الطائرات اليونكرز الثلاث التي تحتها : أي ثلاث طائرات ضد ست ولكن بلا طائرات مطاردة لحسن الحظ .

وإذا كان الهدف قد أُصيب فلا معنى الآن للقتال، وإنما المهم هو الافلات . واختار « مانيان » أن يهاجم أدنى الطائرات اليه لأنها سوف تتضح بالنسبة للون السماء، على أن طائراته تكاد تكون غير مرئية فوق الحقول . . وربما لم تستطع الطائرات اليونكرز الثلاث الأخرى أن تجرد متسعاً من الوقت تستعد فيه للقتال، وهكذا طار هو أيضاً بأقصى سرعته .

ووصلت الطائرات التي كانت تحته مغلقة كأنها غواصات، وخزاناتها تتذبذب كالبنديول بين الأطر الحافظة للعجلات، وحاولت إحداها الدوران، وكانت الطائرات العالمية تشاهد بوضوح هوائي اللاسلكي فيها، والصفحة الجانبية من وجه ضارب المدفع الرشاش القابع في المؤخرة فوق جسم الطائرة، وأخذ « جارديه » ينتظر في برجه الأمامي واضعاً بندقيه فوق ظهره، مشيراً باصبعه الى اليونكرز وملوحاً بذراعه اليسرى، إذ كان من البعد بحيث لا يمكن أن يسمعه أحد . ورأها مانيان - وكان يجلس الى جانب داراس - وهي تتضخم كأنهم ينفخون فيها .

وأدرك الطاقم كله أن طائرة يمكن أن تسقط .

وأدار جارديه برج المراقبة محدثاً ضجة غير مألوفة السرعة ، وصلصلت المدافع الرشاشة في اصطدامها بجسم الطائرة ، وتقاطعت خطوط سير الطائرات بعضها مع البعض الآخر ، ولمن تكن الطائرات العالمية قد تلقت سوى بضع رصاصات قلائل من المدافع الرشاشة المنطلقة من طائرات الأعداء ، وبقيت طائرات اليونكرز في الخلف ، وهبطت إحداها دون أن تتحطم . ومع أن المسافة لم تكف عن الاتساع بين طائرة مانيان والطائرات اليونكرز فقد اخترق جسم طائرته فجأة ما يقرب من عشر رصاصات . وظلت المسافة في الاتساع ، على حين عادت الطائرات اليونكرز الخمس الى صفوفها تحت نيران المدافع الرشاشة المنطلقة من مؤخرات الطائرات العالمية ، وسقطت السادسة منقضة فوق الحقول .

وما أن عاد مانيان حتى قدم تقريراً بالتليفون وطلب جارديه :

قال كاموتشيني : « إنه في الطائرة اليونكرز التي هبطت هنا معتقدة أنه قد تم الاستيلاء على مدريد ! » .

- « وهذا سبب آخر يدعوني إلى طلبه » .

وكم كانت دهشة مانيان ، حين وجد أن مندوباً من الأمن ينتظره .

قال المندوب بعد أن جالت عيناه بنظرة فاحصة في جميع أركان حجرة المكتب البيضاء :

- « أيها الرفيق مانيان ، لقد كلفني رئيس مكتب الأمن ابلاغك أن ثلاثة من المتطوعين الألمان » .

وأخرج ورقة من جيبه :

« كريفلد وفورتنس وشرايب . . نر ، أجل . . شراينر . . هم من

جواسيس هتلر .

وهم «مانيان» أن يقول له : إنه مخطيء ، بيد أن المرء يؤمن دائماً بالخطأ في مثل هذه الحالات . . . وقد لاحظ كارليتش أن كريفلد يلتقط صوراً باستمرار (ولكن هل يلتقط الجاسوس صوراً ؟) ودهش مانيان حين سمعه يذكر ذات يوم اسم أحد الموظفين في المكتب الفرنسي للمخابرات .

- «حسن . كريفلد . . هل أنت على ثقة ؟ وعلى كل حال ، هذا عملكم ، أما بالنسبة لشرانير فأنت تدهشني دهشة بالغة ، ذلك أن فورتس وشرانير من الشيوعيين القدامى على ما أظن . . . وحزبها يشهد بذلك » .

- «الأحزاب كالأشخاص - أيها الرفيق مانيان - تؤمن بأصدقائها . . ونحن نؤمن بالمعلومات التي وصلتنا » .

- « وماذا يريد رئيس مكتب الأمن ؟ » .

- « ألا يضع أي واحد من هؤلاء الثلاثة قدمه في المطار مرة أخرى » .

- « ثم ماذا ؟ » .

- « ثم انه مسؤول بعد ذلك » .

وأمعن مانيان في الفكر وهو يشد شاربه .

- « إن مسألة شرانير مفزعة حقاً . . وأخيراً . . أجل . . . إنني اعتقد أنه بريء ! هل يمكن أن يجري استكمال للتحقيق ؟ » .

- « لا مبرر للعجلة على الاطلاق . . وسيصل تليفونياً في الحال ، ولكن ليؤكد ما أبلغتك إياه .

ووصل جارديه بينديتته الصغيرة ، وخصلة شعره المتدلّية الى الأمام ، ونظرتة المازنة .

وخرج رجل البوليس .

وأضفت عليه خصلته الطويلة ، ووجنتاه البارزتان هيئة قط يلعب به الأطفال ، ولكنه ما أن يبسم حتى تضيئ أسنانه الصغيرة المنفصلة بعضها عن البعض الآخر - طاقة حادة على وجهه المثلث .

- « ماذا كنت تفعل في الداخل ؟ ولماذا جلست في مكان ضاربي المدافع الرشاشة ؟ » .

- « كنت أعتقد أنني واسع الحيلة . . . وكنت قد دخلت فيها من قبل . . . بيد أن ثمة إنطباعاً كان لديّ بأن هناك شيئاً لا أفهمه . . . وفهمت جيداً ما أريد ، وما داموا قد أطلقوا علينا الآن فقد أصبحت على يقين من الأمر . . . إن الطائرة تكاد تكون عمياء تماماً من الأمام ، ولهذا لم يلمسونا من أول دورة ، وإنما استطاعوا ذلك فيما بعد عندما كنا في الخلف » .

- « كان لديّ هذا الانطباع أيضاً » .

كان مانيان قد درس تركيب تلك الطائرة في المجالات المتخصصة ، فوجد أن المحرك الثالث في طائرة اليونكرز موضوع مكان البرج الأمامي في الطائرة ذات المحركين ، وكان يشك في أنه من الممكن الدفاع عن مقدمة الطائرة بمدفعي يطلق نيرانه بين العجلات ، ومدفعي في المؤخرة ، ولهذا شن هجوماً على اثنين منها .

- « أخبرني يا مانيان : هل طاروا بأقصى سرعة عندما كانوا خلفنا ؟ » .

- « طبعاً » .

- « إذن . . . ما أشد سخرية هؤلاء الألمان منا طيلة هذين العامين ! إنهم يتخلفون عن طائراتنا العتيقة بحوالي ثلاثين كيلومتراً على الأقل . . . واذن ، هذا هو أسطول جيرنج الشهير ؟ » وأستطرد قائلاً :

- « ولكن انتظر لحظة ، إن مدافعهم الرشاشة تختلف تماماً عن مدافعنا

الأسبانية . . فهي لم تتعطل مرة واحدة . . لقد كنت أنصت إليها » .

- « لو أن الروس أو مواطنينا الأبقار قرروا تزويدنا بشيء منها . . . »

وانصرف مانيان الى ادارة العمليات ، وقد استبدت الحيرة به .

وكان يريد أن يزور المستشفى أولاً .

كان قاذف القنابل البريتوني يجادل جاره الفوضوي الأسباني - في غير اكتراث ، وإن تقلصت ملامح وجهه ، وقد تناثرت علم سريره أعداد صحيفة « لومانييه » ومؤلفات « كورتلين » . وكانت قد أفردت لهاوس حجرة خاصة بالطابق الأعلى مما لا يبشر بأي خير .

وفتح مانيان الباب ، وحياه الانكليزي بقبضة مرفوعة ، وهو يتسم غير أن عينيه لم تكونا تبسمان .

- « كيف حالك ؟ » .

- « لا أدري ، فإن أحدها لا يعرف الانكليزية . . . » .

ولم يجب « الكابتن » عن السؤال ، وإنما أجاب عن الفكرة المسيطرة عليه ، وكان ما لا يعرفه هو: هل تبت ساقه أو لا ؟ .

وكان منظره بشاربه الأصفر الدقيق تحت أنفه الحاد يوحى بمنظر تلميذ حمل الى فراشه ولف بعناية في الأغطية . وكم بدت تلك القبضة المرفوعة مصادفة مجرد حادث عارض ! وربما كان أنسب الى الحقيقة ذلك الوضع الذي اتخذته يده اللتان استقرتا في وداعة فوق الملاءة ، ووجهه - الذي من المحتمل جداً أن تفكر فيه مسز هاوس في كوخ ما - مستنداً على هذا النحوبين الوسادة ، والملاءة ، ثم حقيقة أخرى تجهلها مسز هاوس هي تلكما الساقان اللتان استقرت فيها خمس رصاصات ، والملفوفتان بعناية تحت الملاءة . وقال مانيان في نفسه : « إن هذا الفتى لم يبلغ الخامسة والعشرين بعد . ماذا

أقول ؟ ان فكرة أياً كانت لا تستحق أن تقال أمام ساقين على وشك أن تبترا .
قال مانيان وهو يشد شاربه : « أوه . ! أجل . . ماذا نسيت ؟ لديّ
تحت بضع برتقالات . »

وخرج إذ كان العجز يؤثر في نفسه أكثر من الموت ، ولم يكن يجب
الكذب ، ولا يعرف إلا أن يجيب بما يترأى له ، وكان ينشد المعرفة قبل كل
شيء ، فصعد الى حجرة كبير الأطباء .

وقال له هذا : « كلا . . إن الطيار الانكليزي محظوظ ، فالعظام
سليمة ، ولم تفكر قط في مسألة البتر . »

ونزل « مانيان » راكضاً ، وكان ثمة رنين للملاعى يملاً السلم ،
ويصلصل في قلبه .

قال له وهو يدخل الحجرة : « العظام لم تمس » ونسي حكاية البرتقال .

وحياه « هاوس » مرة أخرى بأن رفع قبضة يده ، ولم يكن في المستشفى
من يفهم لغته ، ومن ثم فقد اعتاد هذه الحركة التي تعبر عن مودته .

واستطرد مانيان متلعثماً ، وقد أحس بالارتباك في محاولته لنقل ما قاله
الطبيب بالاسبانية الى الانكليزية : « أما مسألة البتر فلم يفكر فيها
أحد . . . »

وخفض « هاوس » عينيه متأرجحاً بين الأمل والخوف من أن تكون هذه
كذبة إختلقها صديق ، ولكنه ما لبث أن سيطر على نفسه ، وتساءل : « متى
أستطيع المشي ؟ » .

- « سأذهب لسؤال كبير الأطباء » .

وحدث مانيان نفسه قائلاً وهو يصعد درجات السلم البيضاء مرة
أخرى : « سيظن كبير الأطباء أنني معتوه ! »

وقال للطبيب : « أرجو المعذرة ، ولكن ذلك الفتى يسأل متى يستطيع المشي ، وأعتقد أنه من الصعب التموه عليه » .

- « بعد شهرين » .

ونزل مانيان ثانية ، وما أن نطق بعبارة : « بعد شهرين » حتى ارتفعت من السرير نشوة سجين أطلق سراحه ، نشوة غامضة لا سبيل الى التعبير عنها ، لم يكن « هاوس » يستطيع أن يحرك ساقيه ، وكانت ذراعاه فوق السرير ، ورأسه على الوسادة ، كل ما حدث هو أن تقلصت أصابعه في طرفي ذراعيه الساكتين ، وأخذت فتاحة آدم الظاهرة تمام الظهور في عنقه ، ترتفع وتنخفض ، وحركات هذا السرور الذي لا حد له هي نفسها حركات الخوف . . .

وفي ضواحي مدريد كان رجال الميليشيا الذين يطوحون بينادقهم أقل عدداً في سيارات أقل تغطيتها شعارات أقل ، وهناك صوب بوابة طليطة أخذ شابان يتدربان على المشي بخطى عسكرية ، فتذكر مانيان فرنسا ، لقد كانت طائرات اليونكرز هي التي تولف - حتى نشوب هذه الحرب - الجزء الجوهرى في أسطول الطيران الألماني ، وكانت عبارة عن طائرات تجارية تحولت الى طائرات حربية ، وأوروبا تثقل في الصناعة الألمانية الى درجة أنها رأت فيها أسطولاً حربياً . بيد أن تسليحها وإن يكن ممتازاً - لم يكن فعالاً وها هي ذي تعجز عن ملاحقة طائرات الدوجلاس ، مع أنها طائرات تجارية اميركية . حقاً . . . إنها صفقة ممتازة جديدة بما بذله « مانيان » من جهد في أسواق أوروبا ، ولكنها لا تستطيع أن تصمد أمام الطائرات الفرنسية الحديثة ، أو أمام الطيران السوفيتي . . وهذا كله سوف يتغير ، فقد بدأت المناورات الدامية الكبرى في العالم كله ، وانسحبت أوروبا - طيلة العامين الأخيرين - أمام تهديد هتلر المستمر بحرب لا يستطيع - من الناحية الفنية - أن يشنها .

الفصل الثالث

عندما وصل « مانيان » الى الوزارة ، كان « فارجاس » مدير العمليات يصغي الى جارسيا الذي أخذ يقرأ عليه تقريراً .

- « صباح الخير يا مانيان ! »

ونفض فارجاس ، ولكنه لم يبرح طرف الأريكة ، وكان قد خلع سرواله الطويل بسبب الحرارة ، ولكنه لم يخلص منه ساقيه تماماً « اما لفرط الكسل ، أو لكي يصبح مستعداً في أية لحظة » كأنه أرنب بقي جلده لاصقاً بمخالبه ، فأعاقه ذلك عن الحركة ، وجلس مرة أخرى ، وقد مد ساقيه الطويلتين في حدائه ذي الرقبة ، وارتسم على عيائه النحيل البارز العظام كوجه دون كيشوت - اذا خلا من اللحية - تعبير حافل بالمودة . وكان « فارجاس » واحداً من الضباط الذين نظم معهم مانيان الخطوط الجوية الأسبانية قبل الثورة ، كما اشترك معه هو وسمبرانو في سف الخط الحديدي بين أشبيلية وقرطبة وقام بتقديم جارسيا ومانيان كل منهما الى الآخر ، ثم طلب لهما شراباً وسجائر .

قال جارسيا : « تهاني .. لقد أحرزت أول انتصار في الحرب » .

- « أوه .. حقاً ؟ .. يسعدني ذلك .. . وسأنقل تهنتك الى من

يستحقونها ، لقد كان سمبرانو قائد الجماعة » .

وتفرس كل منهما في الآخر بنظرة ملؤها السود ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتصل مانيان فيها مباشرة بواحد من رؤساء المخابرات العسكرية ،

أما جارسيا فكان يسمع المحيطين به يتحدثون كل يوم عن مانيان .

كل ما في جارسيا يبعث على دهشة مانيان ، فلم يكن يتخيل أن يكون هذا الأسباني بتلك البدانة ، وبهذا الوجه الذي يشبه وجه مالك من ملاك الأرض الانكليز أو النورمانديين ، وبذلك الأنف القوي المرفوع في الهواء ، كما لم يكن يتخيل أن يكون هذا المثقف مرحاً ودوداً ، وله أذنان مديبتان ، وبأن عالم الأجناس هذا الذي عاش طويلاً في بيرو والفيليبين لم تلوح الشمس وجهه أو تضيء عليه ذلك اللون البرونزي ، وفضلاً على ذلك فقد كان يتخيل جارسيا دائماً ممن يضعون نظارات .

وأستطرد مانيان قائلاً : « لقد كانت غارة صغيرة كما تعلم قامت بها ست طائرات . . . واستطعنا أن نحطم بعض العربات على الطريق . . . » .

قال جارسيا : « لم تكن قنابلكم التي أقيمتوها على الطريق هي التي ألفت بهم أكبر الخسائر ، وإنما قنابل « ميدلان » فقد سقطت قنابل كثيرة من الحجم الكبير على الميدان ، ولا تنسوا أن هذه أول غارة جوية على المغاربة ، وقد عاد الطابور على أعقابها الى نقطة بدايته . . وهذا هو انتصارنا الأول » .

« غير أن بطليوس وقعت في أيدي الأعداء ، وهذا معناه أن جيش فرانكو قد انضم الآن الى جيش مولا » .

ونظر اليه مانيان نظرة تساؤل . .

وأدهشه موقف جارسيا أيضاً ، فقد كان ينتظر منه موقفاً متحفظاً بدلاً من هذا الموقف الودي الصريح .

قال جارسيا : « وبطليوس مجاورة للحدود البرتغالية . . . » .

وقال فارجاس : « لقد أحضر « المونتسارميون » Montesarmiento في السادس من هذا الشهر الى لشبونة أربع عشرة طائرة المانية ومائة وخمسين خبيراً . وفي اليوم الثامن غادرت ايطاليا ثمانى عشرة قاذفة قنابل ، ووصلت

- أشبيلية أول أمس عشرون طائرة .
 - « من طراز سافوا ؟ » .
 - « لست أدري . . وقد رحلت عشرون طائرة إيطالية أخرى » .
 - « ومنها الثماني عشرة التي أشرنا إليها ؟ » .
 - « كلا . . . وهذا ستقف ضدنا قبل أسبوعين مائة طائرة حديثة » .

فاذا كانت الطائرات اليونكرز رديئة فإن قاذفات القنابل من طراز سافوا تفوق كل ما يستخدمه الجمهوريون .

ومن النافذة المفتوحة دخل النشيد الجمهوري صادراً عن عشرين مذباعاً تصحبه رائحة الأوراق المحترقة .

قال جارسيا مستأنفاً قراءة تقريره : « سأستمر . . وقال موجهاً كلامه الى مانيان : « إنها أبناء بطليوس هذا الصباح » .

الساعة الخامسة : دخل المغاربة قلعة سان كريستوبال التي حطمتها الغارة تقريباً .

الساعة السابعة : أخذت مدفعية الأعداء التي استقرت في قلعة سان كريستوبال تصلي المدينة وإبلا من قنابلها دون انقطاع ، وقد صمد لها رجال الميليشيا ، وتحطمت صيدلية المستشفى الأقليمي بسبب غارة جوية .

الساعة التاسعة : تحول السور الشرقي الى رماد ، وفي الجنوب اشتعلت النيران في الشكنات ، ولم يتبق لنا سوى مدفعين رشاشين ، وما زالت مدفعية سان كريستوبال ، وما زال رجال الميليشيا صامدين .

الساعة الحادية عشرة : ظهرت دبابات الأعداء .

ووضع الورقة المكتوبة بالاختزال ، وتناول ورقة أخرى ، ثم قال في
مرارة :

- « أما التقرير الثاني فشديد الإيجاز » .

الساعة الثانية عشرة : وصلت الدبابات الى الكاتدرائية ، تتبعها
المدفعية ، ولكنها صدت .

قال : « إنني أتساءل : بماذا أمكن صدها ، فليس في بطليوس سوى
أربعة من المدافع الرشاشة ! » .

- الساعة ١٦ : « قوات العدو تدخل المدينة » .

- الساعة ١٦ وعشر دقائق : « القتال يدور من منزل الى منزل » .

وسأل مانيان : « في الساعة الرابعة ؟ ولكن قيل لنا : اننا ما زلنا
مسيطرين على بطليوس حتى الساعة الخامسة » .

- « لقد وصلت الينا الأنباء توأ » .

وتذكر مانيان شمس الساعة الخامسة بظلالها الطويلة الممتدة في شوارع
تلك المدينة الصخرية الهادئة ، وكان قد اشترك في بداية الحرب سنة
١٩١٤ ، بأن التحق بالمدفعية ، وهناك عرف أنه لن يعلم شيئاً عن سير
المعركة ، لأنه لم يكن يرى منها شيئاً ، وتلك المدينة التي كانت الدماء تجري
فيها أنهاراً لم يكف عن رؤيتها مدينة هادئة صديقة .. كان يشرف عليها من
عل .. كالإله ! « لقد دخلت الدبابات إلى الكاتدرائية » .. الكاتدرائية بظلمها
الهائل الممتد الى جوارها .. والشوارع الضيقة ، وحلقات مصارعة الثيران .

- « متى انتهت المعركة ؟ » .

قال فارجاس : « قبل مروركم بساعة باستثناء القتال الدائر داخل

المنازل .. »

وقال جارسيا : « اليكم التقرير الأخير .. حوالي الساعة الثامنة . وربما كان قبل ذلك ، وهو منقول الينا من صفوفنا .. اذا كان هناك صفوف .. »

« تم تسليم المعتقلين الفاشيين السياسيين أصحاب سالمين ، أما رجال الميليشيا والمشبوهون المقبوض عليهم فقد تم إعدامهم ، وبذلك يكون عدد الذين أعدموا رمياً بالرصاص حتى الآن حوالي مائتين وألف ، وتهيئتهم هي « المقاومة المسلحة » ونفذ حكم الاعدام في اثنين من رجال الميليشيا في الكاتدرائية ، على درجات سلم المذبح المقدس ، وكان المغاربة يحملون الألواح والقلب المقدس وظل الجنود منهمكين في تنفيذ أحكام الاعدام طيلة العصر .. وما برح إطلاق النار مستمراً » .

وتذكر مانيان منديلي « كارليتس وجيم » اللذين كانا يلوحان بهما في مودة فوق أولئك الذين يعدمون .

واتصلت من جديد الحياة الليلية في مدريد ، وتعالى النشيد الجمهوري من أجهزة الراديو جميعاً ، وترددت الأغاني من كل نوع ، وارتفعت « التحيات » عالية أو خافتة وفقاً لقربها أو بعدها ، مختلفة كأنها أنغام البيانو ، وامتزجت أصوات الأمل والحماس التي يتألف منها نسيج الليل ، فملأت الكون .

وهز فارجاس رأسه قائلاً : « خير لهم أن يغنوا » ثم بلهجة أشد همساً : « ستطول الحرب .. والشعب متفائل ، والزعماء السياسيون متفائلون .. والقائد جارسيا وأنا ينبغي أن نكون كذلك بما جبلنا عليه من مزاج .. » .

وخفض حاجبيه في شيء من القلق .. وحينما يخفض فارجاس حاجبيه يتخذ هيئة رجل ساذج ، ويبدو شاباً على حين غرة ، ولاحظ مانيان أنه لم يخطر له قط أن دون كيشوت يمكن أن يكون قد مر بمرحلة من الشباب ! .

« تفكر في هذا النهار يا مانيان : لقد استطعت بطائراتك الست ، وبغارة

صغيرة على حد قولك أن توقف طابوراً بأكمله ، واستطاع ذلك الطابور بمدافعه الرشاشة أن يكتسح رجال الميليشيا ويستولي على بطليوس . ولاحظ أن رجال الميليشيا لم يكونوا جبناء ، إن هذه الحرب ستكون حرباً فنية ، ونحن نخوضها دون الحديث عن شيء سوى العواطف .

- « ومع ذلك لا تستطيع أن تنكر أن الشعب هو الذي حافظ على إقليم الشارات ! » .

وأخذ جارسيا يراقب « مانيان » بنظرة فاحصة ، كان يعتقد شأنه في ذلك شأن فارجاس - أن الحرب تعتمد على التكنيك ، ولم يكن يعتقد أن زعماء العمال سيتحولون بقدرة قادر إلى خبراء ، ويؤمن بأن مصير الجبهة الشعبية يتوقف في جزء منه على الخبراء الفنيين ، وكل ما يصدر عن مانيان يشير إهتمامه : افتقاره الى الروح الاجتماعية مع الآخرين ، وشروده الظاهري ، وتكلفه ، وشعوره بالتفوق (كان في الواقع مهندساً من خريجي مدرسة الاسترال) ، وطاقته الواضحة المنظمة التي كانت تتأرجح تحت نظارته المستديرة المحيرة ، وكان في مانيان شيء يجعله أشبه بصانع أثاث على الطراز القديم في ضاحية سان أنطوان ، وربما كان ذلك بسبب شاربه ، وكذلك في شفثيه المقلوبتين اللتين تدلان على سنه ، وفي نظرتيه حين يخلع نظارته ، وفي حركاته وابتسامته - يتبين المرء في هذا كله تلك السمة المعقدة التي تميز الرجل المثقف - ولقد أشرف مانيان على إدارة خط من أكبر الخطوط الجوية الفرنسية ، غير أن جارسيا الذي كان يجتهد في ألا يقيس المرء بمعياري وظيفته - حاول أن يستشف في مانيان طبيعته نفسها كإنسان .

قال فارجاس : « الشعب عظيم يا مانيان ... عظيم حقاً ! ولكنه عاجز » .

فقال جارسيا : « لقد كنت في إقليم الشارات » وأشار الى مانيان بضم غليونه « فلنبحث الأمر في نظام ، إن رجال سيرا قد « باغتوا » الفاشيين ،

وكانت المواقع صالحة بالذات لشن حرب العصابات ، والشعب يملك القدرة على احداث صدمة كبيرة جداً ، ولكنها قصيرة جداً .

« ونحن يا عزيزي مانيان تؤيدنا وتدس لنا السم في الوقت نفسه أسطورتان أو ثلاث على جانب كافٍ من الخطورة : الأسطورة الأولى هي الفرنسيون : فالشعب (مكتوباً بحروف التاج) هو الذي قام بالثورة الفرنسية ، فليكن ، ولكن لا يمكن أن نستتج من ذلك أن مائة حربة يمكن أن تهزم بضع غدارات فاسدة ، وأن مائة بندقية صيد يمكن أن تهزم طائرة جيدة . وجاءت الثورة الروسية ، فزادت الأمور تعقيداً ، فهي تعد من الناحية السياسية الثورة الأولى في القرن العشرين ، ولكن لاحظ أنها تعد من الناحية العسكرية آخر ثورة في القرن التاسع عشر . فلم يكن أعوان القيصر يملكون طائرات أو دبابات ، ولكن الشوار يستخدمون المتاريس ، كيف ولدت المتاريس إذن ؟ للقتال ضد فرسان الملك ، لأن الشعب لم يكن لديه فرسان قط ، وأسبانيا مغطاة اليوم بالمتاريس ضد . . . طائرات فرانكو ! .

« وما أن سقط رئيس مجلس الوزراء العزيز حتى رحل الى جبال سييرا حاملاً بندقية . . وربما كنت لا تعرف أسبانيا يا سيد « مانيان » معرفة جيدة ؟ لقد قتل « جيل » صانع الطائرات الوحيد في اسبانيا في الجبهة - قتل بوصفه نقرأ بين الجنود . .

- « اسمحو لي . . إن الثورة . . » .

- « نحن لسنا الثورة . . والأحرى أن تسأل فارجاس عنها ، نحن الشعب ، أجل ، ولكننا لسنا الثورة ، وإن كنا لا نتحدث إلا عن ذلك . . . إنني أسمى ثورة ما كان نتيجة لحركة موجهة بوساطة تنظيمات (سواء أكانت سياسية أم تكتيكية . . أو ما شئت) تشكلت في أثناء الصراع ، وقادرة على أن تحل بسرعة محل النظم التي حطمتها » .

وقال فارجاس وهو يرفع سرواله الضيق : « ولا سيما أننا لسنا نحن

الذين قمنا بالمبادأة ، كما لا يخفى عليك يا مانيان . . ولم نؤلف تنظيماتنا بعد ، وفرانكو لا يملك أي تنظيمات على الاطلاق اللهم إلا التنظيمات العسكرية ، ولكنه يعتمد على الدولتين اللتين تعرفهما . . لقد هزم الجيش الأحمر رانجل وأعوانه ، ولم يهزمهم الوطنيون المتحمسون » .

وكان جارسيا يؤكد جملته بضربات من غليونه :

- « لم تعد هناك من الآن فصاعداً تغيرات اجتماعية أو بالأحرى ثورة دون حرب ولا حرب بلا تكنيك . إذن . . »

وأيد فارجاس هذا القول بإنحناءة من رأسه في نفس الوقت الذي كان جارسيا ينجي فيه غليونه .

قال مانيان : « الناس لا يموتون من أجل التكنيك أو النظام » .

- « في مثل هذه الظروف لا أعبأ بالأسباب التي يضحى الناس من أجلها بأرواحهم قدر اهتمامي بالوسائل التي يقتلون بها أعداءهم . . ومن ناحية أخرى أرجو أن تتبهاوا : أنت تظن أنني حين أتحدث عن النظام أقصد ما تسمونه في بلادكم باستبداد السلطة ، كلا مطلقاً ، وإنما أعني بالنظام مجموعة الوسائل التي تعطي الجماعات المناضلة اعظم فعالية ممكنة (كان جارسيا مولعاً بتعريف الأشياء) . وهذا تكنيك لا يختلف عن غيره ، ومن العبث أن أقول لك : إنني لا أعبأ مطلقاً بالتحية العسكرية ! » .

- « إن ما نسمعه الآن من النافذة شيء إيجابي ، وأنت تعلم مثلما أعلم أننا لا نستغله أحسن استغلال : وأنت تقول : « نحن لسنا الثورة . إذن لنكن الثورة ! ولكن ألا تعتقد مع ذلك أن السديموقراطية ستهرع لمساعدتكم ؟ » .

قال مانيان : « لا تكن واثقاً الى هذا الحد يا مانيان ! » .

وسدد جارسيا فم غليونه الى الاثنيين كأنه فوهة مدفع ، وقال :

- « لقد رأيت أن الدول الديمقراطية تتدخل ضد كل شيء تقريباً إلا ضد الدول الفاشية ، والدولة الوحيدة التي تستطيع أن تساعدنا إن عاجلاً أو آجلاً - بغض النظر عن المكسيك - هي روسيا ، ولكنها لن تساعدنا ، لأنها بعيدة عنا غاية البعد .

« أما فيما يتعلق بما يصل الى أسماعنا عن النافذة فإنه يا سيد مانيان رؤيا الاخاء ، وهي شيء يؤثر على مشاعرك ، وإني لأفهم ذلك جيداً ، فهي من أشد الأشياء على الأرض تأثيراً في النفس ، وإن كنا لا نراها كثيراً ، ولكن ينبغي أن تتحول خوفاً من الموت » .

- « هذا ممكن تمام الامكان .. ولكن . اسمحوا لي . . . انني لا أوافق من جانبي ، ولا أريد أن أوافق على أن يقوم أي صراع بين ما يمثل النظام الثوري ، وأولئك الذين لا يفهمون بعد ضرورته . والحلم بالحرية الشاملة السلطة في أيدي أنبل الناس ، وما شاكل ذلك ، كل هذا يؤلف جزءاً في عيني من السبب الذي من أجله أوجد هنا ، وإني أريد للجميع ولكل فرد حياة لا تتحدد بما يتطلبه من الآخرين ، أظن أنكم تفهمون ما أعنيه ؟ » .

- « أخشى أنهم لم يجعلوك تحيط بالموقف إحاطة تامة » .

- « نحن بصدد انقلابين منفصلين ، ولكنها يحدثان معاً يا عزيزي السيد مانيان :

« . . . الأول : ليس أكثر من صديقنا القديم العصبية العائلية . برجوس ، بلد الوليد ، يامبلونا - سيرا ، ولقد كان الفاشيون يسيطرون في اليوم الأول على حاميات اسبانيا جميعاً ، ولكنهم لا يسيطرون الآن إلا على ثلثها . . . وقصارى القول أن هذا الانقلاب قد أصابته الهزيمة . . . هزمته الرؤيا .

« بيد أن الدولة الفاشية التي ليست حمقاء قد حسبت حساباً لإخفاق ذلك

الانقلاب ، ومن هنا تبدأ مشكلة الجنوب . . . فخذوا حذرکم ، لأنه ليس من نفس الطبيعة .

« ولكي نتبين ما نتحدث عنه فلنطرح كلمة فاشية جانباً . « أولاً » فرانكولا يعير الفاشية أي اهتمام ، فهو صبي ديكتاتور من الطراز الفنزويلي ؛ « ثانياً » : موسوليني نفسه لا يهتم بإقامة الفاشية في اسبانيا أو عدم إقامتها ، والمشاكل الأخلاقية شيء والسياسة الخارجية شيء آخر ، وكل ما يريده موسوليني حكومة يستطيع أن يتصرف فيها ، ولهذا الغرض جعل من مراكش قاعدة للعدوان ، ومن هذه القاعدة خرج جيش حديث بأسلحة حديثة ، ولما كانوا لا يستطيعون الاعتماد على الجنود الأسبان (فقد رأوا ما حدث في مدريد وبرشلونة) . فإنهم يعتمدون على قوات قليلة العدد ولكنها ذات قيمة فنية ، كالمغاربة والفرقة الأجنبية و . . . »

فقاطعته فارجاس قائلاً : « ليس في مراكش غير اثني عشر ألفاً من المغاربة يا جارسيا . »

- « أؤكد لك أن عددهم أربعون ألفاً ، إن أحداً هنا لم يدرس - ولو أقل دراسة - الرابطة الحالية بين السلطات الروحية للإسلام وبين موسوليني . انتظروا لحظة فسوف تفاجأ انكلترا وفرنسا بمفاجآت ، وإذا لم يكف فسيعثون بالايطالين يا صديقي الطيب . »

وسأل مانيان : « وماذا تريد ايطاليا ، في رأيك ؟ » .

- « لا أعلم . . . وفي رأيي أنهم يتطلعون إلى امكانية السيطرة على جبل طارق ، أعني القدرة على تحويل حرب انكليزية إيطالية - بطريقة تلقائية - إلى حرب أوروبية ، بإرغام انكلترا على شن هذه الحرب عن طريق حليف أوروبي . وقد كان نزع السلاح النسبي في انكلترا من العوامل التي جعلت موسوليني يفضل الالتقاء بها وحدها . غير أن إعادة تسليحها يبدل السياسة الايطالية تديلاً عميقاً ، ولكن هذه كلها افتراضات . . . تدور في « مقهى

التجارة» ، والمهم هو أن جيش فرانكو سيحاول الاستيلاء على مدريد بسياراته المصفحة ومدافعه الرشاشة وتنظيمه الإيطالي - الألماني ، وطياراته الايطالية الألمانية معتمداً على البرتغال بصورة ملموسة جداً وبمعاونة الدولتين الفاشيتين ! وسيلجأ الى الارهاب الجماهيري كما بدأه في بطليوس لكي يحمي مؤخرته ، ولكن بماذا سنواجه - عملياً - هذه الحرب الثانية التي لا تشبه في شيء حرب سيرا (اقليم الشارات) ؟ ... هذا هو السؤال .

وترك جارسيا مقعده ، واقترب من مانيان وقد ظهرت ظلال أذنيه المذبتين أمام المصباح الكهربائي المضاء على المكتب .

- « والمسألة بالنسبة لي - يا سيد مانيان - تلخص في هذا : إن حركة شعبية كهذه أو ثورة ، أو حتى تمرداً - لا يمكن أن تحافظ على انتصارها إلا بإتخاذ تكنيك « مضاد » للوسائل التي أتاحت لها لهذا الانتصار . . بل أحياناً يكون هذا التكنيك « مضاداً » للمواطن . تأمل هذا القول في ضوء خبرتك الخاصة . . فانا أشك في أنك تؤسس فرقتك للطيران على الاخاء وحده . . .

« إن « الرؤيا » تريد كل شيء . وفي الحال ، أما الثورة فتحصل على القليل على مهل وفي اصرار ، ويكمن الخطر في أن كل إنسان ينطوي في ذاته على الرغبة في تحقيق « الرؤيا » وهذه الرغبة تتحول في الصراع - بعد زمن قصير - الى هزيمة محققة لسبب بسيط ، هو طبيعتها نفسها . لأن « الرؤيا » لا مستقبل لها . . . حتى لو ادعت أن لها مستقبلاً » .

وأعاد غليونيه الى جيبيه ، واستطرد قائلاً بلهجة حزينة :

- « ووظيفتنا المتواضعة - يا سيد مانيان - هي تنظيم « الرؤيا » . . . »

٢ - تمرين على الرؤيا

الفصل الأول

دخل جارسيا - يتقدمه أنفه وجليونه - إلى مركز القيادة في طليطة ، وكان هذا المركز - من قبل - حانوتاً للأحدية .

وعلى يمين الباب الصقت صورة فوتوغرافية كبيرة انتزعت من مجلة مصورة ، وكانت تمثل الرهائن التي ساقها الفاشيون الى القصر « Alcazar تلك الرهائن التي كان ينبغي حمايتها حين تهجم القوات الجمهورية على الأنفاق ، وكان تحت كل شخص اسم : السيدة س . . . ، الشاب س ، والطفل س . . . » وكأنه من الممكن أن يتذكر المتحاربون تلك الوجوه في معمرات القتال ! ودخل جارسيا . . . ترك الشمس الساطعة والصدور العارية والقبعات المكسيكية ، فبدت له الحجرة في ظلام دامس .

وكانت ثمة أصوات تنصايح : « المدفعية تطلق نيرانها علينا ؟ » .

- « أي مدفعية يا نجاشي ؟ » .

- « مدفعتنا . » .

- « لقد اتصلت بهم تليفونياً وأخبرتهم أنهم يطلقون النار على مسافة قصيرة جداً ! فاجابني الضابط : « يكفيك الآن ما أطلقت على رجالي ! والآن سأقوم بتغيير الهدف » .

فقال صوت يخلو من كل بساطة وبلكنة فرنسية واضحة : « هذا تحد

لأقدس مبادئ المدنية» .

وقال الكابتن بصوت أكثر خفوتاً يتسم بالمرارة والتعب في آن واحد :
« هذا وجه خائن آخر» وبدأ جارسيا في تمييز ملامح وجهه ، ثم أضاف مخاطباً
أحد الضباط برتبة ملازم : « خذ عشرين رجلاً ومدفعاً رشاشاً وتعقبهم » .
وأخيراً قال للسكرتير :

- « أطلع الكولونيل على الأنباء » .

قال النجاشي : « فيما يتعلق برجل المدفعية فقد أرسلت ثلاثة من
الزملاء لتسوية حسابه » .

- « ولكنني قد فصلته . . . ماذا كنت تريد . . . ؟ فإذا لم يكن الاتحاد
الفوضوي الأبيري قد أعاده . . . » .

ولم يسمع جارسيا نهاية الجملة ، ومع ذلك فقد كانت الضجة في الداخل
أقل كثيراً منها في الخارج . وكانت بعض الانفجارات تصعد عن الأرض من
حين إلى آخر فتقاطع « موكب الفالكيري »^(١) التي كانت تنبعث من مذياع
الميدان ، واعتادت عيناه العتمة ، فاستطاع الآن أن يميز الكابتن
« ارنانديث » : كان يشبه ملوك اسبانيا في اللوحات الشهيرة ، وهؤلاء جميعاً
يشبهون شارل الخامس في شبابه .

وكانت النجوم المذهبة فوق كتفه تلمع في الظل لمعاناً خافتاً ، وأخذت
تتضح حوله بقع منتظمة على الجدار شيئاً فشيئاً حتى أحاطت به كما تحيط
بتمائيل بعض القديسين الأسبان شعاعات « قصيرة » ، ولم تكن هذه البقع
سوى نعال ونماذج تركها صانع الأحذية في خانوته ، وإلى جانب الكابتن كان
يجلس « سيلز » وهو أحد الفوضويين المسؤولين من لشبونة .

(١) مقطوعة موسيقية في إحدى أوبرات فاغزر . (المترجم) .

وأخيراً التقت نظرة ارنانديث بجارسيا الذي تدلى غليونه من ركن
ابتسامته .

- « القومندان جارسيا ؟ لقد اتصلت المخابرات الحربية تليفونياً . . . »
وضغط على يده ثم سحبه الى الشارع .

- « ماذا تريدني أن أفعل ؟ » .

- « أن أصحبك بضع ساعات ، إذا سمحت . . ثم سنرى . . » .

- « أنا ذاهب الآن الى سانتا - كروز . وسنحاول تفجير الديناميت في
مباني الحكومة العسكرية . . » .

- « هيا بنا » .

ونظر النجاشي - الذي كان يتبعهما - الى جارسيا في تعاطف ، فلأول مرة
تبعث الهم مدريد بمندوب وسيم ، وكان جارسيا يرتدي صديرياً من الجلد
ولا يبدو عليه أنه من البورجوازيين بأذنيه المرحتين ، وجسمه القوي ، وإلى
جانب النجاشي كان ثمة رجل يلوح بيديه ، وقد ارتدى سترة من « الألباجا »
وينظلون ركوب ، وبدا وجهه مؤلفاً يلوح من عظام وغضون ، وتهدل شعره
المموج الذي وخطه الشيب على جانبي وجهه . كان هذا الرجل هو الكابتن
« مرسيري » الذي أرسله مانيان الى وزارة الحرب ، ووضعه تحت تصرف
قائد طليطلة الحربي .

وصاح صوت بالخانوت : « أيها الرفيق أرنانديث ، لقد ابلغنا الملازم
لاريتا بالتليفون أن ضابط المدفعية قد لاذ بالفرار . . . » .

- « فليحل هو مكانه » .

وهز ارنانديث كتفيه في اشمزاز ، وتخطى آلة خياطة تعترض الشارع ،
وكانت كوكبة من الحراس تتبعها .

- وتساءل جارسيا في شيء من السخرية : « من القائد هنا ؟ » .
- « ومن تريده أن يكون ؟ الجميع ، ولا أحد . أنت تبتسم ؟ .. » .
- « إنني أبتسم دائماً .. وهي حركة عصبية مرحة . من الذي يصدر الأوامر ؟ » .
- « الضابط .. والمجانين .. ومندوبو المنظمات السياسية .. وآخرون لست أذكرهم .. » .
- ولم يكن ارنانديث يتحدث بلهجة عدائية ، وإن كانت هزة من شاربه الأسود فوق شفته الرقيقة توحى بشيء من القنوط .
- وسأله جارسيا : « ما العلاقات القائمة بين ضباطكم المحترفين والمنظمات السياسية ؟ »
- ونظر اليه ارنانديث دون أن يأتي بحركة ، أو ينبس بحرف ، كأن شيئاً لا يستطيع أن يعبر عما يكتنف تلك العلاقات من كوارث ، وصاحت الديكة في وضح النهار .
- وتساءل جارسيا : « لماذا ؟ لأن كل أحق يزعم أنه يملك السلطة ؟ والثورة تبدأ دائماً بأن تكون ادعاء عريضاً للسلطة » .
- « هذا أولاً .. ثم يأتي بعد ذلك الجهل المطلق الذي يتصف به أولئك الذين يأتون لمناقشتنا في المسائل الفنية .. إن من الممكن سحق رجال الميليشيا هؤلاء بالآلاف من الجنود الذين يعرفون مهنتهم ، وعلى الجملة فإن نفس الزعماء السياسيين الحقيقيين يؤمنون بالشعب بوصفه قوة عسكرية ! » .
- « أما أنا فلا أو من بذلك ، على الأقل ليس الآن ، ثم ماذا ؟ » .
- وفي الشوارع التي أقسمتها الظلال كانت الحياة تجري على وتيرتها المألوفة ، والبنادق وسط سلال الطماطم ، وتوقف جهاز الراديو عن اذاعة

مقطوعة « موكب الفالكيري » . وارتفعت مكانها أغنية من أغاني الفلامنكو ينشدها صوت أجش جياش بالعاطفة يمزج بين لوعة الحزن وصيحة رجال القوافل اليائسة . وكان رائحة الجثث تتشبث بالمدينة كما تتشبث أيدي القتل بالأرض .

- « ولا بد أولاً - يا قائدي - لكي تكون اشتراكياً أو شيوعياً أو عضواً في أي حزب من أحزابنا الليبرالية - من حد أدنى من الضمانات ، بيد أن المرء يدخل كما يدخل طاحونة ، وهذا شيء آخر ، وفي كل مرة تلقي القبض على شخص من الفلانجيين معه بطاقة عضوية الاتحاد القومي للعمال » .

« وهناك فوضويون ممن لهم قيمة ، كهذا الرفيق الذي يسير خلفنا مثلاً ، ولكن ما دام مبدأ الباب المفتوح قائماً فإن الكوارث جميعاً تدخل من هذا الباب ! وهأنذا قد رأيت ما حدث بالنسبة لضباط المدفعية » .

- « ما الأسباب التي تدفع بالضباط المحترفين إلى أن يكونوا معكم ؟ » .

- « إن منهم من يعتقد أنه ما دام فرانكو لم ينجح الآن فالهزيمة محيقة به ، ومنهم من يرتبط بهذا الضابط العظيم أو بذاك من أعداء فرانكو ، مثل مولا أو غيره ، ومنهم من لم يتحرك سواء بسبب التردد أو الخوف .. » .

« وقصارى القول أنهم وجدوا أنفسهم معنا ، فظلوا معنا .. ولكن منذ أن شرعت اللجان السياسية في الحملة عليهم تراهم يأسفون لأنهم لم يرحلوا ... » .

وكان جارسيا قد رأى في سيرا ضباطاً يزعمون أنهم جمهوريون ، ويؤيدون ما يقوم به رجال الميليشيا ولو كان مايقدرون به خالياً من أي معنى ، ولكنهم ييصقون على الأرض حالماً ينصرفون ، كما شاهد ضباط أحد المطارات العسكرية يسحبون المناضد والمقاعد من مطعمهم حين يصل متطوعون أجانب يرتدون ثياباً بالية ، ولكنه شاهد من ناحية أخرى ضباطاً محترفين يصححون أخطاء رجال الميليشيا في صبر لا يكل ، ويعلمون وينظمون وهو

يعرف مصير الضابط الجمهوري الذي عين قائداً للفرقة الثالثة عشرة للفرسان ، وهي إحدى الفرق المتمردة في بلنسية ، وكان قد ذهب ليتولى قيادتها داخل الثكنة المتمردة . ودخل وهو يعلم تمام العلم المخاطرة التي يقدم عليها ، وأغلق الباب وراءه ، وسمع الناس طلقات رصاص .

- « ألا يتعاون أحد من ضباطك مع الفوضويين ؟ » .

- « أسوأ الضباط هم الذين يتعاونون معهم جيداً . . . والوحيد الذي يطيعه الفوضويون أو الذين يزعمون أنهم فوضويون - هو الكابتن الفرنسي . . أنهم لا يأخذونه مأخذ الجد ، ولكنهم يحبونه » .

ورفع جارسيا غليونه متسائلاً ؟ وقال ارنانديث :

- « إنهم يسدون الي نصائح تافهة في التكنيك ، ونصائح ممتازة في النواحي العلمية . . » .

وكانت الشوارع جميعاً تتلاقى في الميدان الذي يفصل المحاصرين عن «القصر» Alcazar ، ولما لم يكن جارسيا وارانانديث يستطيعان اجتيازه فقد دارا حوله ، وأخذت خطوات جارسيا ترن على أرض شارع شارل الخامس على حين كان ارنانديث يجير رجله ، غير أنها كانا - يجدان الميدان مرة ثانية عند نهاية كل شارع تسده الحشيات ، وكل حارة اقيمت فيها متاريس واطئة من الحقايب .

وكان الرجال يطلقون الرصاص وهم رقود دون أن تنتظمهم تشكيلات فأصبحوا بذلك هدفاً واضحاً للمدافع الرشاشة .

وسأل جارسيا وهو يراقب زميله بطرف عينيه : « ما رايك في هذه المتاريس ؟ » .

- « هو نفس رايك . . ولكنك ستري » .

واقترب أرنانديث من الشخص الذي كان يبدو عليه أنه يشرف على المتاريس : وكان له وجه حوذى وشوارب . . ويا لها من شوارب ! وعلى رأسه قبعة مكسيكية من أجل طراز ، ويكسو الوشم جسده كله ، وقد ثبت على ذراعه اليسرى بحبل من المطاط رأس ميت من الألومنيوم .

- « كان ينبغي رفع المتاريس بحوالي خمسين سنتيمتراً ، وتفريق الرماة أكثر من ذلك ، ووضع بعضهم في النوافذ ، على هيئة الرقم « سبعة » .
وزجر المكسيكي وسط ضجة قريبة أحدثتها طلقات الرصاص قائلاً :
« أوراقك ؟ » .

- « ماذا ؟ » .

- « أوراقك التي تثبت شخصيتك ! » .

- « أنا الكابتن أرنانديث قائد قطاع زوكو دوفر » .

- « إذن فأنت لست من أعضاء الاتحاد القومي للعمال ، فهل يعينك متراسي في شيء ؟ » .

وتفحص جارسيا القبعة العجيبة : كان يحيط بقبتها تاج من الورود الصناعية ، وتحتها شريط من القماش يحمل هذه العبارة مكتوبة بالحبر :
« مربع بانشو فيلا » .

وسأله جارسيا : « ما معنى هذا : مربع بانشو فيلا » .

فأجاب الآخر : « معناه واضح بما فيه الكفاية » .

فقال جارسيا : « طبعاً » .

ونظر إليه أرنانديث صامتاً . وانصرفوا . وكانت الأغنية الرائعة قد انتهت من المذيع ، وفي أحد الشوارع أمام حانوت لبيع اللبن اصطففت أوعية اللبن ، وإلى جانب كل وعاء بطاقة من الورق المقوى كتب عليها اسم من

الأساء ، فقد كان تكوين طابور يضايق السيدات ، ومن ثم فقد تركن أوعيتهن لكي يملأها بائع اللبن ، وسيعدن لأخذها .. اللهم إلا إذا ...

وانقطع اطلاق النار ... وظلت خطوات الحارس وحدها ترن لحظة في السكون . وتناهى الى جارسيا صوت يقول : « كما كانت تكتب الى مدام مرسييري وهي سيدة مثقفة جداً .. أيها الرفاق .. وهم يخطئون إذا اعتقدوا انهم يستطيعون محو وصمات هزائمهم في افريقيا بدماء العمال ! » ولم تلبث ان طغت على هذا الصوت ضجة أحدثتها طفلة بقباب الانزلاق .

وعاد اطلاق النار ... وهذه شوارع اخرى في حمى من رصاص « القصر » وما برحت تتقاسمها الظلال ... وهناك على الجانب المظلم كان أناس يتحدثون أمام الأبواب : منهم من كان واقفاً ، ومنهم من استند على بنادق الصيد ، على حين جلس الباقون ، وفي زاوية من زوايا الحارة ، كان ثمة رجل يرتدي قبعة لينة وصديرياً برغم حرارة الجو ، ويعطي الناس ظهره ، ويطلق النار وحده .

وكانت الحارة تمتد حتى جدار مرتفع جداً هو ظهر أحد الأبنية المطلة على الميدان ... ولم تكن فيه ثغرات أو نوافذ يتربص منها عدو . وطقق ذلك الرجل يطلق على الجدار رصاصة تلو رصاصة محوطاً بالذباب ، ولما استنفذ دخان الرصاص وضع خزاناً آخر ، وسمع وقع خطوات التي توقفت خلفه ، فالتفت ناحيتها ، كان في الأربعين من عمره وله وجه تلوح عليه سياء الجد .

- « إنني أطلق الرصاص » .

- « على الحائط » .

- « على أي شيء أستطيع » .

ونظر الى جارسيا في وقار .

- « ألك أطفال في الداخل ؟ » .

فنظر اليه جارسيا دون أن يجيب .

- « أنت لا تستطيع أن تفهم » .

واستدار الرجل ، ثم شرع يطلق النيران من جديد على الأحجار الضخمة ، وأستأنفوا سيرهم .

وسأل جارسيا ارنانديث وهو يربت بغليونه ربتة خفيفة على ظهر يده اليسرى :

- « لماذا لم نستول حتى الآن على القصر ؟ » .

- « وكيف نستولي عليه ؟ » .

ومضوا في سيرهم .

« إن أحداً لم يستول على قلعة ما باطلاق النيران على نوافذها ... هناك شيء اسمه الحصار ... ولكن لا هجوم . فماذا تنتظر ؟ ... »

ونظروا الى الأبراج .

- « هناك شيء غريب في هذه الرائحة .. ايها القائد ، القصر « لعبة » ولم أعد أشم رائحة العدو ، كنت أشمها في البداية ، أما الآن فقد اختفت ، فاذا اتخذنا اجراءات حاسمة فستشعر بأننا مجرد قتلة . هل ذهبت الى سرقسطة ؟ » .

- « ليس بعد ، ولكنني أعرف وشقة » .

- « حين يخلق المرء فوق سرقسطة يرى الأحياء محفورة بقنابل الطائرات أما النقاط الاستراتيجية كالثكنات وغيرها فقد قذفت بالقنابل عدداً من المرات يقل عشرأ عن المدينة المفتوحة ... ولم يكن ذلك نتيجة للارتباك أو الجبن ، وإنما لأن الحرب الأهلية أسرع في عملها من البغض الذي يتولد في كل لحظة بين الناس . لا بد مما ليس منه بد .. هذا شيء مفهوم ، ولهذا لا أحب أن

أرى تلك المصفاة المحيطة بسرقسطة .. كل ما في الأمر اني اسباني ،
وأستطيع أن أفهم ... »

وقاطعت الكابتن ضجة هائلة من التصفيق لم تلبث أن تلاشت في ضوء
الشمس ، وكانوا يرون أمام قاعة متواضعة للموسيقى تغطيها الإعلانات ،
وهز ارنانديث كتفيه في شيء من الكلال ، كما فعل من قبل ، وأستأنف سيره
بخطوة أبطأ قليلاً

- « ليس رجال الميليشيا في طليطلة هم وحدهم الذين يهاجمون القصر ،
وإنما أكثر المهاجمين من طليطلة نفسها ، والأطفال الذين سجنهم الفاشيون ،
هم أبناء رجال الميليشيا في طليطلة .. فماذا تريد ؟ » .

- « كم عدد الرهائن ؟ » .

- « من المحال معرفة هذا العدد ... وجميع التحريات عنه تذهب أدراج
الرياح . هو عدد كبير على كل حال ، معظمه من النساء والأطفال ، وفي
البداية اعتقلوا كل من استطاعوا اعتقاله ، وليست الرهائن هي ما يشل
حركتنا ، وإنما أسطورة الرهائن ... وربما لم يكونوا بالكثرة ، التي نظنها
جميعاً ... » .

- « من المستحيل إذن معرفة العدد ؟ » .

وكان جارسيا قد شاهد - كما شاهد الكابتن - صورة النساء
والأطفال معروضة في « الجيفاتورا » (وكان هؤلاء رهائن بلا أدنى جدال)
وصور الحجرات الخالية واللعب التي تركها الأطفال .

- « لقد حاولنا ذلك أربع مرات ... »

ووصلوا الى « سانتا كروز » وسط غبار أثارته جماعة من الفرسان الفلاحين
الذين يشبهون قافلة مغولية . ووراءها كانت نوافذ أعداء الحكومة العسكرية
يشرف فوقها « القصر » .

- « هل هذا هو المكان الذي تريد أن تجرب فيه الديناميت ؟ » .

- « أجل » .

واجتازوا ركاماً مختلطاً من الحدائق المحترقة ، ومن القاعات الرطبة ومن السلام ، حتى بلغوا قاعة المتحف ، وكانت النوافذ مسدودة بزكائب من الرمل ويحطام التماثيل ، وأخذ رجال الميليشيا يطلقون نيرانهم في جو أشبه بجو الأفران ، وقد تناثرت على صدورهم العارية بقع من الضوء فبدوا كالفهود ذوي النقط السوداء . وكان رصاص الأعداء قد جعل الجزء الأعلى من الحائط مثل المصفاة ، ووراء جارسيا كانت أحزمة رصاص المدافع معلقة على ذراع أحد الرسل الممدودة كأنها قطع من الثياب نشرت لتجف ! .

وأقرب مرسيري منه لأول مرة وقال وهو يعدل قامته :

- « يا قائدي ، أحب أن أخبرك بأن أجمل التماثيل قد وضعت في مكان أمين » . فحدث جارسيا نفسه قائلاً : « فلنأمل ذلك » . ووضع يده في يد أحد القديسين .

وتوالت الدهاليز ، والحجرات المظلمة ، حتى وصلوا الى برج . وفيما وراء أحجار القرميد التي حال لونها بفعل الشمس كانت الحقول القشتالية التي يكسوها قمح الحصاد مشتعلة بزهورها الحمراء حتى تلتقي بالأفق الأبيض ، واكتشف جارسيا الجبانة وقد استبدت به كل تلك الانعكاسات من النور الباهر والحرارة الشديدة حتى أوشك أن يقيء ، وأحس بشيء من التواضع ، وكان هذه الأحجار وتلك الأضرحة الناصعة البياض في ذلك الخلاء الضارب الى الحمرة قد جعلت من كل صراع شيئاً تافهاً لا غناء فيه ، وعبرت بضع رصاصات في أزيز ناعم كظنين النحل ، على حين أحدث بعضها الآخر في الوقت نفسه رنيناً صلباً من ارتطامه بقوالب القرميد ، وتقدم أرنانديث قابضاً على مسدسه ، وقد انحنى جسده ، وتبعه جارسيا ومرسيري ورجال الميليشيا الذين يحملون الديناميت ، وقد أحرقت الشمس ظهورهم

جميعاً ، وأحرقت قوالب القرميد بطونهم بانعكاس الحرارة المتجمعة فيها ، وكان الفاشيون يطلقون نيرانهم على بعد عشرة أمتار ، وقذف أحد رجال الميليشيا بلقافة انفجرت فوق أحد الأبراج ، فتناثرت قوالب القرميد حتى بلغت الجدار الذي احتمي فيه حاملو الديناميت وارانانديث وجارسيا وانتشرت فوقهم شبكة هائلة من الرصاص .

قال مرسيري : « هذا عمل رديء » .

وانضم مدفع رشاش الى المعمة . وقال جارسيا في نفسه : « لو أن قبلة يدوية واحدة سقطت في هذا الديناميت . . ! ونهض مرسيري وقد ظهر نصفه الأعلى فوق الحائط ، ولم يكن الفاشيون يرون من جسمه إلا ذلك النصف الأعلى ، فأخذوا يطلقون على هذا الجسم الغريب الذي يرتدي صديرية ، من « الألباجا » (الصوف) ورباط عنق أحمر ، ويلقي بحملة من الديناميت في حركة رامي القرص ، وقد سد أذنيه بالقطن .

وطار البرج كله في الهواء في جلبة وحشية ، وفيما كانت قوالب القرميد تتطاير عالياً وتتساقط بين الصرخات جلس مرسيري القرفصاء وراء الحائط الى جنب ارانانديث .

قال مخاطباً رجال الميليشيا الذين تسللوا وراء الحائط بحمولتهم : « افعلوا مثل هذا ! » .

وكان وجهه على بعد عشرين سنتيمتراً من وجه الكابتن الذي سأله :

- « كيف كانت حرب سنة ١٩١٤ ؟ » .

- « نعيش . . . لا نعيش . . نتنظر . نوجد هناك من أجل شيء . . .

نخاف . . . » .

والواقع أن مرسيري أحس بالخوف آتياً لأنه تسمر في مكانه ، وأمسك بمسدسه مصوباً ورأسه كله في العراء ثم أطلق النار ، ها هو ذا يتصرف من

جديد ، وعلى هذا النحو تبدد خوفه ، وانفجرت الشحنة الثانية من الديناميت .

وكانت شرابة الطاقة التي يلبسها ارنانديث في مواجهة شرخ في الجدار فطوح بها الهواء الى الجانب الآخر من وجهه ، فسقطت الطاقة ، وكان رأس ارنانديث أصلع فأعاد الطاقة اليه ، وبذلك عاد شاباً .

وأخترقت الجدار بضع رصاصات أمام أنف جارسيا الذي قرر أخيراً اطفاء غليونه ووضعها في جيبه . وفي هذه اللحظة انفجر الجزء الأمامي من المبنى الفاشي وكأنه نُسف ، وبدت الدماء كأنها تتبثق من رأس أحد رجال الميليشيا الذي تداعى الى يمين جارسيا وما زالت يده التي قذفت بالديناميت مرفوعة في الهواء . وفي الفراغ الذي ظهر بسقوط هذا العنق الذي انبجس منه الدم ، وعلى البعد من أمام الجبانة ، وعلى شرفة من القصر، ووسط خط النار - كانت تقف سيارة سليمة في مظهرها في نور الشمس الحاد ، وجلس اثنان في المقاعد الأمامية ، وثلاثة في الخلف ، لا يتحركون . وعلى بعد عشرة أمتار .. إلى أسفل ، رقدت امرأة ، وقد وضعت رأسها الذي يعلوه شعر ملفوف على هيئة خصلات من تجويف ذراعها ، ومدت يدها (بيد أن رأسها كان يشير الى أسفل الوادي) . . . وكان يخيل لمن يراها أنها نائمة لولا أن ثوبها كان لاصقاً بالأرض التصاق الجثث ، ولم تكن تلك الأشباح المشتعلة بالشمس أشباح أموات إلا بما ينبعث منها من رائحة .

وسأله ارنانديث : « ألا تعرف في مدريد خبراء في المفرعات ؟ » .

- « كلا » .

وكان جارسيا لا يرى أمام ناظره سوى الجبانة ، وقد استولى على أحشائه ذلك الشعور بما في اشجار السرو وتلك الصخور من طابع أبدي ، ونفذت رائحة الجثث العفنة حتى بلغت دقات قلبه ، وشاهد ضوء النهار الباهر وهو يمزج بين الموق والقتل في شعلة واحدة ، وانفجرت الشحنة الأخيرة

من الديناميت في الجزء الأخير من المبنى الفاشي .

وفي قاعة المتحف ، كانت الحرارة هي نفسها ، والضجة لا تتغير أبداً .
وظفق رماة الديناميت ورجال الميليشيا الذين يعملون في السرايب ، والذين
يعملون في المتحف يهثون بعضهم بعضاً .

واستعاد جارسيا صديريته من سبابة القديس ، وكانت البطانة قد تعلقت
بها ، ورفض القديس أن يتخلى عنها ، ومن سلم يفضي الى قبوما صعد
رجال الميليشيا بصدورهم العازية يحملون ثياب القديس التي أخذ الذهب
الضارب الى الخضرة والحريير الوردي الفاتح فيها يتألقان تألقاً خافتاً ، وكان
رجل آخر من رجال الميليشيا يضع على مؤخرة رأسه قبعة من طراز القرن
السادس عشر ، وقد دق وشياً على ذراعه ، يسجل تلك الثياب .

وتساءل جارسيا : « ما معنى هذا الذي صنعناه ؟ » .

- « إن تدمير هذه المباني يجعل كل خروج للمتمردين أمراً مستحيلاً .
هذا كل ما في الأمر . . . وهذا أقل الأشياء حماقة . . . وكنا حتى الآن نستخدم
قنابل تحتوي على البنزين وعلى حامض الكبريت محوطة بغلاف من كلوروات
البوتاسيوم والسكر . . . ومع ذلك . . . » .

- « أفما زال طلبة الكلية الحربية يحاولون الخروج ؟ » .

ورفع مرسييري - الذي كان الى جانبه - ذراعيه وقال :

- « أنت الآن تقف أمام أعظم افتراء في التاريخ ! » فنظر اليه جارسيا
مستفسراً .

- « سأقدم لك أيها القائد تقريراً عن ذلك » .

ووضع ارنانديث يده على ذراع جارسيا ، وابتعد مرسييري احتراماً

لتدريب الرتب . ونظر أرنانديث الى القومندان وكأنه يقول : « هذا شيء تجاوز كل حد » وهو نفس التعبير الذي ارتسم على وجهه حين أثير موضوع العلاقات بين الضباط والمنظمات الفوضوية - مع إضافة شيء من الدهشة عليه ، وسمع الجميع صوت طائرة .

- « وأنتم أيضاً ! يا رجال المخابرات العسكرية ! ... »

وأنصت جارسيا بأنفه مشرعاً في الهواء وعينه الجاحظة متنبهة :

- « إن كلية القصر اختراع بديع من اختراعات الدعاية ، فلا وجود لأكثر من عشرين طالباً في الداخل ، وحين قامت الثورة كان طلاب الكلية العسكرية جميعاً في العطلة الصيفية ، ويقوم بالدفاع عن القصر الحرس المدني بقوة ضباط المدرسة الحربية ، مثل موسكاردو وغيره ... »

ووصل عشرة من رجال الميليشيا راكضين ، يصحبهم النجاشي .

- « ها هم أولاد يحملون مرة أخرى قاذفة اللهب ! » .

ومن دهاليز ذات سلام وصل أرنانديث وجارسيا والنجاشي ومرسييري . ورجال الميليشيا الى قبوله قبة عالية مليء بالدخان وطلقات الرصاص ، ومفتوح أمامهم على دهليز كبير تحت الأرض تحولت فيه سحب الدخان الى اللون الأحمر . وكان رجال الميليشيا يجتازونه راكضين حاملين بأيديهم أو بين أذرعهم دلاء مملوءة بالماء . ولم تكن ضجة القتال في الخارج تصل اليهم إلا في صعوبة ، وفي إصرار حلت رائحة البنزين محل رائحة الجثث النتنة ، لقد كان الفاشيون داخل الدهليز ، كانت فتحة قاذفة اللهب التي تلمع في الظلام كالفسفور قد وصلت عن طريق الدهليز ، وأخذت ترش السقف والجدار المواجه ، والأرض في حركة بطيئة نوعاً ما ، وكان الفاشي الذي يمسك بها مضطراً الى رفع خرطوم طويل مليء بالبنزين . ولما كان اطار الباب يعوق الخرطوم الملتهب ، فإنه لم يكن يستطيع أن يبلغ يمين الحجر أو شمالها . وعلى الرغم من الفورة التي كان يلقي بها رجال الميليشيا جرادل الماء

على الجدار ، وعلى البنزين الزاحف ، فقد أحس أرناديث أنهم ينتظرون اللحظة التي يظهر فيها الفاشيون من الباب ، ومن الطريقة التي كان بعضهم يلتصق بها بالجدار - أحس أنهم على استعداد للفرار ، ولم يكن للحرب أي دخل في هذا الصراع بين الانسان وعنصر من عناصر الطبيعة ، وزحف البنزين على حين أخذ حماس رجال الميليشيا الذين يرشون الماء على الجدران في الفتور ، وأختلط أزيز البخار بسعال الرجال الذين اختنقت حلوقهم برائحة البترول الحادة ، وما ينبعث من قاذفة اللهب ومن روائح أخرى لاذعة ، وتقدمت رقعة البنزين الزاحفة خطوة خطوة ، فضاعفت السنة اللهب الزرقاء المتشجعة من هياج رجال الميليشيا ، وألقت تلك الألسنة عناقيد من الظلال المخبولة طفقت تراقص على الحائط كأنها قطيع من الأشباح يدور حول حماقة بني البشر الأحياء ! وكان الرجال في هذه اللحظة أتفه من تلك الظلال الملتائة ، وأتفه من ذلك الضباب الخائق الذي يجيل كل شيء إلى أطياف ، وأتفه من هذا الأزيز الوحشي الذي يحدته الماء والسنة اللهب ، وأتفه من الأناث الصغيرة التي أنبعثت من شخص محترق ، ارتفع صياحه من الأرض قائلاً :

- « لم أعد أرى شيئاً . . لم أعد أرى شيئاً . . أخرجوني ! » .

وأمسك به أرناديث ومرسيري من كتفيه ، وسحبه ، ولكنه ظل يصرخ قائلاً : « إسحبوني » .

ووصلت قاذفة اللهب الى مدخل الحجرة ، وكان النجاشي واقفاً بطول الباب ، ملتصقاً بالحائط قابضاً على المسدس بيده اليمنى ، وفي اللحظة التي بلغ فيها الجزء النحاسي من قاذفة القنابل زاوية الجدار قبض عليه براحه يده اليسرى . وقد أحاط شعره الناعم بوجهه في هالة زرقاء على خلفية لهب البنزين ، ولكنه تركه في الحال بعد أن أحرق جلده ، وكان الرصاص ينهال من كل جانب ، وقام الفاشي بقفزة مائلة لكي يصوب تيار اللهب على النجاشي الذي كان يضع يده على صدره فعلاً ، وأطلق النجاشي النار ،

وسقطت قاذفة اللهب المشتعلة وهي ترن على بلاط الحجره ملقيه بالظلال كلها على السقف ، وترنح الفاشي فوق الضوء الصادر من القاذفة على الأرض ، وقد أضيء وجهه من أسفل - وكان ضابطاً كبير السن الى حد ما - فبدأ واضحاً تمام الوضوح في ضوء البنزين الفوسفوري . وسقط أخيراً الى جوار النجاشي في بطء كحركة السينا البطيئة ورأسه في المكان الذي يتدفق منه اللهب المغلي ، فلفظه اللهب كرفسة بالقدم ، وأدار النجاشي قاذفة اللهب الى الناحية المضاءة ، فغرقت الحجره كلها في ظلام تام على حين بدأ القبو مليئاً بسحب تهرب منها الظلال .

واندفع رجال الميليشيا راكضين الى الدهليز المستطيل حيث تدفق الآن تيار اللهب الأزرق محدثين جلبة هائلة من الصيحات وطلقات البنادق . . . وفجأة ، انطفأ كل شيء ما عدا مصباحاً من مصابيح العاصفة ، وشعلة كهربائية ، وقال صوت في الحجره :

- « لقد قطعوا البنزين حين رأوا أننا قد استولينا على قاذفة اللهب » . ثم قال الصوت نفسه بعد لحظة : « إنني أعرف ما أقول ، فقد كنت قائداً لفرقة مطاقء » .

وصاح ارنانديث من الدهليز أيضاً : « توقفوا ! فهناك متراس في نهاية الدهليز ! » .

وعاد النجاشي من الدهليز ، وكان رجال الميليشيا قد شرعوا في إشعال مصابيح العاصفة ، وقال النجاشي لارنانديث :

- « لا يستطيع المرء أن يتخلل عن طبيعته الوحشية . . . ولم يكن الأمر يتطلب اكثر من ريع ثانية .. وقبل أن أطلق النار كان لديه من الوقت ما يكفي لتوجيه القاذفة نحوي . » .

« ونظرت اليه . . . إنها لعجيبه تلك الحياة . . . » .

« لا بد أنه من الصعب أن تحرق رجلاً حياً ينظر اليك . . . »

وكان دهليز الخروج يسبح في ظلام دامن اللهم إلا في نهايته عند المستطيل الذي يلقي عليه الباب ضوءاً خافتاً ، وأشعل النجاشي لفافة تبغ ، وفعل كل من كان يتبعه مثل فعله في نفس الوقت ، فهذه هي العودة الى الحياة ، وظهر كل رجل منهم لحظة وجيزة في ضوء الثقب أو الولاة ، ثم عادوا جميعاً الى العتمة ، وساروا متجهين صوب قاعة متحف سانتا كروز .

وهتفت صوات في القاعة : « هناك طائرة فوق السحب »

وأستأنف النجاشي حديثه قائلاً : « من الواضح ان الشيء الصعب هو ألا تتردد ، والمسألة كلها مسألة ثوان . ومنذ يومين صوب الرجل الفرنسي قاذفة لهب مثل هذه . . . وربما كانت هي نفسها . . . ولم يحترق ، ولكنه لم يقتل عدوه أيضاً . والفرنسي يقول : انه يعرف المسألة ، وأن المرء لا يستطيع بكل تأكيد أن يصوب قاذفة اللهب على شخص ينظر اليك . . . الانسان لا يجرؤ على ذلك . . . لا يجرؤ بأية حال ! » .

يمر كل يوم ضابط من ضباط الطيران العالمي على ادارة العمليات ، وأحياناً على ادارة الأمن ، وكان « مانيان » يبعث بأسكالي دائماً تقريباً ، إذ كانت ثقافته تجعل اتصالاته يسيرة بهيئة قيادة الطيران التي تكاد تتألف كلها من ضباط الجيش القديم . (كان سمبرانو وطياروه يؤلفون جماعة خاصة) ، وكانت بشاشته ورقته - وهو الرجل الربعة ، الذي يميل الى السمنة كلما تقدمت به السن - تجعلان علاقته طيبة بالناس جميعاً ، بما فيهم من رجال الأمن . وكان زميلاً بصورة ما لجميع الايطاليين بالفرقة الجوية ، وهم الذين اختاروه مسؤولاً عنهم وعن معظم الطيارين الآخرين ، وأخيراً فإنه يتكلم الاسبانية بطلاقة .

وكان البوليس قد استدعاه على عجل .

أبواب ادارة الأمن تحرسها المدافع الرشاشة ، وحول المقاعد الوثيرة الخالية المغطاة بالصدف المذهب تقف وجوه الشقاء المتواضعة التي تظهر في كل الحروب . وفي حجرة صغيرة للطعام (لم يتغير شيء في هذا الفندق منذ أن استقر فيه هذا الملحق العسكري لادارة الأمن) وبين حارسين ، كان سيروزويه زميل « لكليز » يتحرك في عصبية ، وقد بدت عليه تلك الدهشة الطائرة اكثر من أي وقت مضى .

- « آه . . . اسكالي ! هل هذا هو أنت اسكالي صديقي العزيز ! . . . »

وانتظر اسكالي حتى يفرغ من هذا الطنين .

ولما كان سكرتير من ادارة الأمن هو الذي سحب اسكالي فقد ابتعد الحارسان اللذان أحاطا بسيروزيه قليلاً ، بيد أن هذا الأخير لم يجرؤ على الشعور بأنه حر .

- « فجرة على هذه الشاكلة ... يا عزيزي ... لا يمكنك أن تتصور تماماً ! ... » .

وعلى الرغم من أنه كان جالساً فقد كانت عيناه السوداوان كعيني المخبول تدوران في وجهه الذي يخلو من الحاجبين ، فتضفيان عليه منظر فراشة مذعورة في حجرة مغلقة .

قال اسكالي رافعاً سبابته : « لحظة من فضلك ... إبدأ من البداية » .

- « أنت فاهم ... واليك القصة : كانت إحدى بنات الهوى تسكع في الشارع الكبير .. ولم أعرف ماذا قالت لي ؟ ولكنني فهمت أنها تستطيع أن تقوم بحيل والأعيب فقلت لها : « هل تمارسين الحب على الطريقة الإيطالية ؟ » فأجابت : « نعم » ... وصعدت معها .. وأرادت أن تخدعني .. فقلت لها : كلا ، لقد إتفقنا على الطريقة الإيطالية ، لا على طريقة أخرى . ولم تكن تريد أن تفهم .. فقلت لها ان هذا خداع ، وذهبت لأرتدي ملابس ، ولكنها تحدثت في التليفون بالأسبانية وحضرت سيدة أخرى بدينة .. بيد أننا لم نتفاهم ... وحاولت أن أشرح لها ، ولكنها اعتقدت أنني كنت أنوي سوءاً ، وليس معنى ذلك أنني كنت متمسكاً بالطريقة الإيطالية .. لا تظن ذلك على الإطلاق ! .. ولكنني كنت أريد أن تتركاني ... ومع ذلك لم تفعل قط . أنت تفهم .. أليس كذلك ؟ » .

- « ولكن ، ماذا تصنع هنا ؟ هل ألقى القبض عليك بسبب الدعارة ؟ » .

- « حين وجدت الفتاة انني لم انصرف ، أتصلت بالتليفون أيضاً ..
فقلت .. » .

- « .. وحضرت سيدة أخرى أشد بدانة ... »

وهنا توقف سيروزيه : وعادت البشاشة الى اسكالي ، فالمسألة قد
تمخضت عن لا شيء .. وحين يتسم اسكالي فكأنه يضحك ويضيق المرح
من عينيه ويبرز طابع وجهه المهجن .

- « ماذا حدث ؟ ستة رجال من الاتحاد الفوضوي الأيبيري يحملون
غداراتهم ! ماذا يريد هؤلاء أيضاً ؟ وحاولت أن أشرح موقعي . لم أكن أنا
الذي طلبتها ، وإنما هي التي عرضت عليّ تلك الطريقة ، ومن ناحية كنت
أعلم أنهم ضد الدعارة ، أي أنهم ضد هذه المرأة ، ومن ناحية هم أناس
فضلاء ، ومن ثم لا بد أن يكونوا جميعاً ضد الطريقة الايطالية على الأقل من
حيث المبدأ ، هؤلاء النباتيون جميعاً ! وكان أسوأ ما في الأمر أنني لم أكن
أعرف الأسبانية ، وكلما مضيت في الشرح ازدادت المسألة تعقيداً . بل أن
أحدهم انتهى به الأمر الى أن أخرج مسدسه ، وكلما صحت قائلاً : إنني لم
أفعل شيئاً على الطريقة الايطالية . يا الهي .. ازدادت الأمور سوءاً ، وكانت
المرأتان تصيحان : ايطاليانو .. ايطاليانو ، ولم يعد أحد يسمع إلا هذه
الكلمة . وانتهى بي الأمر الى أن أحسست يا عزيزي بالارتباك ، وخطرت لي
فكرة أن أظهر لهم بطاقتي التي تثبت أنني من رجال الاتحاد الفوضوي الأيبيري
وهي باللغة الأسبانية ، فلما فعلت ذلك اقتادوني الى هنا ، فاتصلت تليفونيا
بالمطار » .

وسأل اسكالي السكرتير باللغة الأسبانية : « ما التهمة الموجهة اليه ؟ » .

والقى الآخر نظرة على البطاقة ثم قال : « ليست بالتهمة الخطيرة .. إن
المومستين تتهمانه .. انتظر لحظة ، أجل هذه هي التهمة : تنظيم التجسس
لحساب ايطاليا .. »

ولم تمض خمس دقائق حتى أطلق سراح سيروزييه وسط عاصفة من التهليل والتهريج .

وقال السكرتير : « ثمة شيء أشد من ذلك خطورة ، لقد سقط بيننا اثنان من الطيارين الفاشيين الايطاليين ، جنوب طليطلة ، وقد مات أحدهما ، وما زال الآخر هناك ، المخابرات العسكرية تطلب منك أن تفحص أوراقهما . »

واخذ اسكالي يقلب - بإصبعه الصغير وهو في حالة من الارتباك - خطابات وبطاقات زيارة وصوراً وايصالات وبطاقات اشتراك في جمعيات وجدت في المحفظة ، وكذلك بعض الخرائط التي وجدت في الطائرة ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يلتقي فيها اسكالي بعدو ايطالي ويطلع على حياته الخاصة . . . بيد أن هذا الذي التقى به كان قد مات ، واسترعت ورقة اهتمامه . . كانت طويلة ، كأنها خريطة طيران مطوية ، ولم يكن من شك أنها كانت ملصوقة بخريطة الطيار . . وكان يبدو أنها قد استخدمت كمفكرة صغيرة ، وبها عمودان « من . . الى » وبعض التواريخ : ١٥ من يوليو (أي قبل ثورة فرانكو) . . ثم كلمة سبزييا ، وليلة يوم ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ثم أشيلية وشلمنقة . وفي الهوامش دونت الأغراض : الاغارة ، والملاحظة والمصاحبة والحماية . وأخيراً - وهو اليوم السابق على سقوط الطائرة من شقوية « الى » . . . وكان مكان « الموت » خالياً .

ولكن تحت هذه العبارة كتبت كلمة طليطلة بقلم أبوس آخر ، وقبل ذلك بعدة أيام بحروف كبيرة بحيث تغطي العمودين ، وبتاريخ اليوم التالي ، إذن فقد كانوا على وشك القيام بحملة هامة على طليطلة .

ومن الحجرة الأخرى ارتفع صوت بصيح في التليفون :

- « أنا لا أجهل يا سيدي الرئيس ضعف تنظيماتنا ! ولكنني لن أضم إلى حرس الهجوم بأية حال . . بأية حال . . أسمعني . . أشخاصاً لا تضمنهم

منظمة سياسية ! » .

- « »

- « وماذا عن اليوم الذي ينبغي أن نخمد فيه تمرداً فاشياً بحرس هجوم ينتشر فيه الجواسيس ؟ لن آخذ تحت مسؤوليتي رجالاً بغير ضمان ، لقد امتلأت ثكنات الجبل بما يكفي من الفلانجيين ، ولا أريد أحداً منهم في إدارة الأمن ! » .

وتعرف اسكالي منذ البداية على صوت مدير الأمن الساخط .

قال أحد رجال السكرتارية : « إن حفيده أسيرة في قادش » .

وأغلق الباب ، فلم يسمعوا بعد ذلك شيئاً ولم يلبث باب حجرة الطعام أن فتح ، وعاد منه السكرتير .

- « هناك أوراق أخرى في المخبرات ، ويقول القومندان جارسيا : إنها أوراق هامة . أما بالنسبة للأوراق التي معك فهو يرجوك أن تفرزها . فتفصل أوراق الطيار الميت عن أوراق الملاحظ ، على أن تعهد إليّ بها كلها بعد ذلك ، وسأحملها فوراً إليه ، وستقدم تقريراً عنها الى الكولونيل مانيان » .

- « معظم هذه الأشياء عبارة عن أوراق مطبوعة أو خرائط ، ومن المستحيل معرفة صاحبها . . . » .

- « الملاحظ هنا ، وتستطيع أن تستجوبه » .

فقال اسكالي في فتور : « كما تشاء » .

وكانت مشاعره تجاه الأسير متناقضة كتلك المشاعر التي أحس بها في أثناء فحصه للأوراق ، ولكنها لم تكن خالية من حب الاستطلاع ، وكان طيار الماني قد سقط أول أمس في اقليم الشارات على مقربة من مركز القيادة

(حيث تصادف وجود وزيرين يقومان بالتفتيش) ، وسبق للاستجواب ..
وكم كانت دهشته حين رأى جنرالاً . إذ كان يعتقد أن « الحمر » ليس لديهم
جنرالات ، ولما ذكر المترجم أسماء الحاضرين منهم هتف الأسير الألماني
قائلاً ؛ « يا إلهي ! وقد حلقت خمس سنوات فوق هذا الوكر دون أن ألقى
عليه قنبلة واحدة ! » .

قال اسكالي للسكرتير : « لحظة واحدة ، قل للقائد انني وجدت بين ما
فحصته من الأوراق وثيقة يمكن أن تكون ذات أهمية . » وكان يفكر في قائمة
مرات الطيران نتيجة لتاريخ الرحيل عن ايطاليا وهو سابق على تاريخ قيام
حركة فرانكو .

وذهب الى المكتب الذي وضع فيه « الملاحظ » تحت الحراسة ، وكان
الأسير يجلس الى مائدة مغطاة بمفرش أخضر مستنداً على مرفقيه مولياً ظهره
الى الباب الذي دخل منه « اسكالي » . ولم يلمح « اسكالي » في أول الأمر
سوى طيف مدني وعسكري في آن واحد ، فالسترة من الجلد والسروال
ازرق ، ولكن ما أن سمع الطيار الفاشي صوت الباب حتى نهض ملتفتاً
بوجهه ناحيته ، وكانت حركات ساقيه وذراعيه الطويلتين النحيفتين - وظهره
الذي ظل مقوساً - كانت كلها حركات مسلول عصبي المزاج !

وسأله اسكالي دون أدنى إنفعال : « هل أنت جريح ؟ » .

- « كلا .. مجرد كدمات » .

ووضع اسكالي مسدسه والأوراق التي كان يحملها على المنضدة ،
وجلس ، ثم أشار الى الحارسين بالانصراف ، وكان الفاشي يقف أمامه الآن
وجهاً لوجه ، كان يحياه شبيهاً بوجه العصفور ، وله عينان صغيرتان وأنف
مشرع في الهواء ، وهي ملامح شائعة بين الطيارين ، ولكنها كانت لديه أكثر
حدة بسبب بروز عظامه ، وشعره المرتب ، ولم يكن يشبه « هاوس » ، غير
أنه كان من نفس الأسرة ، ولكن لماذا تبدو عليه الحيرة الى هذا الحد ؟

واستدار اسكالي ، فشهد وراءه تحت لوحة « ازانا »^(١) Azana كومة من الفضيات المقدسة يبلغ ارتفاعها متر وتحتوي على أطباق وأباريق للشاي وصوان إسلامية ، وساعات للحائط ، وأوانٍ للزهور ، وأغطية ، تم الاستيلاء عليها بعد المصادرات .

- « هل هذا ما يبعث الدهشة الى نفسك ؟ » .

فتردد الآخر ، ثم قال :

- « هذا .. ما هذا الذي تعنيه ؟ الـ ... »

وأشار باصبعه الى كنوز السندباد :

- « أوه .. كلا ! ... »

وبدا عليه كأنه وقع في فخ .

وربما كان ما يدهشه هو اسكالي نفسه : بهيئته التي تشبه أحد رجال الكوميديا الأميركيين والتي لا ترجع الى وجهه بشفتيه الغليظتين بقدر ما ترجع الى قسماته المنتظمة ، برغم ما يغطيها من نظارات مستديرة ، ويقدر ما ترجع الى ساقيه القصيرتين بالنسبة الى جذعه ، مما يجعله يمشي مشية تشارلي تشابلن ، والى صديريته المصنوعة من جلد الغزال ، وهي ثوب قليل الشيع بين الحمر ، وإلى القلم الذي يضعه خلف أذنه .

قال اسكالي بالاطالية : « لحظة من فضلك ... إنني لست من رجال البوليس ، بل أنا طيار متطوع ، قد استدعيت الى هنا للإجابة عن أسئلة فنية ، وطلبوا مني فرز أوراقك عن أوراق زميلك الميت . هذا كل ما في الأمر . »

(١) من رجال السياسة الأسبان (١٨٨٠ - ١٩٤٠) تولى رئاسة الجمهورية الأسبانية سنة ١٩٣٦ ، واستقال عقب انتصار فرانكو سنة ١٩٣٩ . (المترجم) .

- « سيان عندي ! » .

- « ضع ما يخصك على اليمين ، والباقي على اليسار » .

وشرع الملاحظ يؤلف حزمتين من الأوراق دون أن ينظر الى اسكالي ، وإنما كان ينظر الى النقطة المضيئة التي كانت تنعكس من الفضيّات المقدسة على السقف بفعل المصابيح الكهربائية .

وسأله اسكالي : « هل سقطت بسبب خلل في الطائرة ، أو في أثناء القتال ؟ »

- « ليس في هذا المكان طائرات روسية . . ولكن ، لا عليك فلنأمل أن توجد » .

ولم تكن استمارة الطيران تحتوي على أية أوامر للكشف ، وإنما كانت الأوامر للإغارة ، وأحس اسكالي في حدة بذلك التفوق الذي يأتي من معرفتنا بأن الشخص الذي يقف أمامنا كاذب ، ومع ذلك فلم يكن يعلم أن في الجبهة الأسبانية قاذفات قنابل ايطالية ذات مقعدين ، وهذه معطلة بالنسبة لرجال البوليس ولكنه سجل هذه الملاحظة في مفكرته ، ووضع الملاحظ على مجموعة الأوراق التي على اليمين إيصالاً ، وبعض أوراق النقد الأسبانية ، وصورة فوتوغرافية صغيرة . قرب اسكالي نظارته لفحصها (لم يكن اسكالي قصير النظر ، ولكنه كان بعيد النظر) إنها جزء تفصيلي من أحد فريسكات بيرو دلافرانسكا .

- « هل هذه تخصك أو تخصه ؟ » .

- « لقد قلت لي ، ضع على اليمين ما يخصك » .

- « حسن ، إذن استمر » .

بيرو دلافرانسكا . وفحص اسكالي جواز السفر : طالب ، من

فلورنسا ، ولم لم تكن الفاشية ، فلربما كان هذا الرجل من تلاميذه ، وتخييل اسكالي لحظة أن الصورة ملك للطيار المتوفي الذي شعر بشيء غامض من المشاركة معه . . فلقد نشر تحليلاً على اكبر جانب من الأهمية لفريسكات بييرو .

(في الأسبوع السابق ، انتهى تحقيق قام به طيار اسباني ، ولم يقم به مكتب الأمن انتهى الى مناقشة عن أرقام الطيران القياسية) .

- « وهل قفزت من الطائرة ؟ » .

- « لم تحترق الطائرة . . وإنما هبطنا في الريف . . هذا كل ما في الأمر » .

- « وانقلبت الطائرة ؟ » .

- « أجل » .

- « ثم ؟ » .

وتردد الملاحظ في الاجابة ونظر اسكالي الى التقرير : خرج الطيار أولاً ، أما الملاحظ الذي يتحدث اليه الآن فقد ظل متعثراً في حطام الطائرة واقترب فلاح ، فأخرج الطيار مسدسه ، واستمر الفلاح في الاقتراب ، وحين وصل على بعد ثلاث خطوات من الطيار القى اليه هذا الأخير من جيبه الأيسر بحفنة من الأوراق المالية ، وكانت من الورقات البيضاء ذات الألف بيزيتا ، وتقدم الفلاح على حيث أضاف الطيار حفنة من الدولارات ، ولم يكن من شك أنه على استعداد لكل الاحتمالات - كل ذلك بيده اليسرى ، على حين قبضت يده اليمنى على المسدس دائماً ، وعندما اصبح الفلاح قريباً من الطيار الى درجة الملازمة ، سدّد بندقية الصيد وقتله .

- « لم يكن زميلك هو الذي أطلق النار أولاً . . فلماذا ؟ » .

- « لست ادري . . . »

وكان « اسكالي » يفكر في العمودين اللذين في استمارة الطيران :
الذهاب والإياب . . . والإياب كان هو الموت على يد الفلاح .

- « حسن .. وماذا فعلت أنت ؟ » .

- « انتظرت .. »

حضر عدد كبير من الفلاحين ، وأقتادوني الى دار العمدة . ومن هناك
الى هنا . . .

« فهل سأحاكم ؟ » .

- « لماذا ؟ »

وصاح الملاحظ :

- « بلا محاكمة ! انتم تعدمون الناس بلا محاكمة ! » .

وكانت هذه الصيحة أشبه بالاعتراف منها بالجزع ، فهذا الفتى كان
يعتقد أن أقصى ما يمكن أن يتمناه منذ أن سقط هو أن يعدم بلا محاكمة ،
وكان قد نهض وأمسك مسند كرسيه بكلتا يديه ، وكأنه يخشى أن ينتزعوه
منه .

وأعاد اسكالي نظارته بدفعة خفيفة ، وهز كتفيه في حزن لا حد له .
وكانت تلك الفكرة الشائعة بين الفاشيين بأن عدوهم بطبيعته جنس
أحط منهم ، وخلق بالاحتقار ، وهذا الاستعداد للازدراء الذي يتسم به كثير
من الحمقى ، لم تكن تلك الفكرة ولا ذلك الاستعداد هما أقل الأسباب التي
دفعته الى مغادرة وطنه .

قال اسكالي : « لن تعدم بأية حال » واسترد لهجة الأستاذ الذي يؤدب
تلميذه .

ولم يصدق « الملاحظ » كلامه ، وكان تأله من عدم التصديق هذا يرضي

اسكالي من حيث انه عدالة مريرة .

قال : « انتظر لحظة » ، وفتح الباب ثم قال للسكرتير : « صورة الكابتن فالادو من فضلك . » وأحضرها له السكرتير ، فناولها اسكالي بدوره للملاحظ .

- « أنت طيار .. أليس كذلك ؟ أذن فأنت تعرف : هل داخل طائرة لكم أولنا .. أليس كذلك ؟ » .

وكان صديق سميرانو الذي أسقط طائرتين من طرازفيات قد هبط بطائرة ركاب على مقربة من قرية في اقليم الشارات . فلما استولى رجال الميليشيا على القرية في اليوم التالي وجدوا ركاب الطائرة دون أن يبرحوا أماكنهم ، وقد فقئت أعينهم . وكان قاذف القنابل هو قائد فرقة حرس الهجوم الذي أطلق المدفع على ثكنة الجبل دون أن يكون على معرفة بتصويب المدفع .

ونظر « الملاحظ » الى الوجوه التي فقئت أعينها ، فصر على أسنانه ، غير أن وجنتيه كانتا ترتعشان .

- « لقد شاهدت كثيراً من الطيارين الحمر الذين أسروا ، ولكنهم لم يعذبوا قط » .

- « ما زال عليك أن تتعلم أنه لا أنت ولا أنا نعرف الكثير عن الحرب ... نحن نخوضها ، وليس هذا هو نفس الشيء ... » .

وكرت نظرة الملاحظ الى الصورة مرة أخرى ، وكان شيئاً يجتذبه فيها ، وكان في هذه النظرة شيء صياني يتفق مع الأذنين الصغيرتين المتباعدتين عن الوجه ، أما الوجوه التي في الصورة .. فكانت بغير نظرات .

وسأل قائلاً : « وماذا يثبت أن الصورة لم ترسل اليك .. بعد أن زيفت ؟ » .

- « إنها مزيفة فعلاً .. فنحن نفقأ عيون الطيارين الجمهوريين لكي

نلتقط لهم صوراً . . . ولدنيا لهذا العمل جلادون صينيون شيوعيون ! » .

وكان اسكالي يفترض لأول وهلة حين تعرض عليه الصورة المزعومة عن « جرائم الشيوعيين » أن في الأمر خداعاً ، فمن الصعب على الناس أن يعتقدوا خسة أولئك الذين يجاربون الى جانبهم .

واستأنف « الملاحظ » عملية الفرز وكأنه يلوذ بها من شيء يخشاه . وسأله اسكالي : « هل أنت واثق من أنني لو كنت مكانك في هذه اللحظة فإن قومك . . . ؟ »

وتوقف عن الكلام . . . فقد خرجت عن تلك الكومة الفضية دقات . . . « واحد ، اثنين ، ثلاث ، أربع » كأنها فيران . . دقات فضية خفيفة . وكأنها ليست صادرة عن ساعة حائط مدفونة في ذلك الكوم المأساوي ، بل صادرة عن كنوز علاء الدين نفسها . . وهذه الساعات - (ترى كم من الوقت تستغرقه لكي ينفذ زمنها ؟) التي دقت - وسط هذا الحديث بعيداً عن أصحابها أوحى إلى اسكالي بانطباع بعدم الاكتراث وبالأبدية ، وبدا له أن ما يمكن أن يقوله عبث لا طائل وراءه حتى لم يعد يريد شيئاً سوى الصمت ، فهو وهذا الرجل قد اختار كل منها طريقه .

وألقي اسكالي نظرة شاردة على خريطة الميت ، وتابع بعض سطورها بقلمه الذي كان يضعه وراء أذنه ، والى جانبه كان « الملاحظ » قد قلب صورة فالادو ، وفجأة أدنى اسكالي نظارته مرة أخرى ، ونظر الى الملاحظ ، ثم الى الخريطة من جديد .

كانت استمارة الطيران تبين ان الطيار قام من قصرش Caceres وهي في الجنوب الشرقي من طليطلة . وكان مطار قصرش التذي يراقبه الطيارون الجمهوريون يومياً - خلو من الطائرات بكل تأكيد ، وكانت الخريطة من خرائط الطيران الأسبانية الممتازة ، والمطارات مبيّنة بمستطيل صغير مليء باللون البنفسجي . . وهناك على بعد أربعين متراً من كاسيريس ، مستطيل

آخر خالٍ من اللون لا يكاد المرء يتبينه ، رسم بالقلم الرصاص ، ولما لم يكن القلم الرصاص يتضح على المادة اللامعة التي صنعت منها الخريطة ، لم يتبق منها إلا آثار السن المحفورة . وثمة مستطيل آخر متجه صوب شلمنقة مستطيلات أخرى جنوب منطقة الأستريمادورا في إقليم الشارات ، وكلها تشير الى مطارات الفاشيين السرية ، ومنها أيضاً مطارات منطقة نهر تاجة التي تقوم منها الطائرات قاصدة جبهة طليطلة .

وأحس « اسكالي » ان اعصاب وجهه قد أصابها التوتر ، والتقت عيناه بعيني العدو ، كان كل منهما يعلم أن الآخر قد فهم ، ولم يتحرك الرجل الفاشي ، ولم ينطق بكلمة ، وإنما غاص رأسه بين كتفيه ، وأخذت وجنتاه ترتعدان ، كما ارتعدتا حين حذق في صورة « فالادو » .

وطوى « اسكالي » الخريطة ..

كانت سماء عصر يوم من أيام الصيف الأسباني تسحق المطار كما سحق طائرات داراس الساقطة اطاراتها الجوية بعد أن مزقتها الرصاص كل ممزق . . . وهناك خلف اشجار الزيتون كان فلاح ينشد أغنية اندلسية .
وكان مانيان الذي عاد لتوه من الوزارة قد عقد اجتماعاً لمعاونيه في المشرب .

- « أريد طاقماً متطوعاً لقصر طليطلة » .

وخيم عليهم صمت طويل ، حافل بطنين الذباب ، وكانت الطائرات تعود الآن يومياً حاملة جرحاها ، وخزاناتها مشتعلة في السماء أو في وقدة الشمس ، تجر أذيالها في صمت بعد أن أوقفت محركاتها ، أو ربما لا تعود على الاطلاق ، أما الطائرات المائة التي تكهن بها فاراجاس فقد وصلت الى الغامسين ، كما وصل غيرها ، ولم تتبق للجمهوريين طائرة واحدة من

طائرات المطاردة الحديثة ، في الوقت الذي يقوم فيه العدو بمطارداته على نهر
تاجة .

وأعاد مانيان قوله : « أريد طاقياً متطوعاً للقصر » .

الفصل الثالث

كان مارسيلينو يعتقد - كما يعتقد مانيان - أنه لا مفر من الاحتباء بالسحب بسبب العجز في الطائرات المقاتلة ، وكثيراً ما عاد من المعارك التي كانت تنشب فوق الجبهة جنوب نهر تاجة مع غروب الشمس ، حين تبدو طليطلة وسط حقول القمح كعقد كبير يزين جيدها ، ويلوح القصر منتصباً على قرط النهر ، وتتصاعد سحب الدخان من المنازل المحترقة في خط مائل على الصخور الصفراء ، وقد توهجت في بقاياها الأخيرة ذرات من النور كأنها أشعة من الشمس تحترق الظلال . كانت المنازل تحترق في هدوء مدافئ القرية وقت غروب الشمس ، في تلك الساعات الهامدة من الحرب بين معركة وأخرى ، ولم يعد مارسيلينو الى قيادة الطائرات برغم إحاطته بهذا العمل مما يجعل في استطاعته التكهن بحركات رفاقه الذين يقودون الطائرات ، ولكنه كان أحسن قاذف للقنابل في الفرقة العالمية ، كما كان رئيساً ممتازاً لطاغم الطائرة واليوم كان قتالاً سجالاً في طليطلة تحت هذه السحب ، وطائرات المطاردة التي يملكها الأعداء قريبة غاية القرب .

وفوق السحب كانت السماء صافية صفاء غير مألوف ، فما من طائرة من طائرات الأعداء تخلق صوب المدينة ، وثمة سلام كوني يسود ذلك الخصم الأبيض . وكان من الممكن معرفة أن الطائرة تقترب من طليطلة بعملية حسابية بسيطة ، إذ كانت تسير بأقصى سرعتها ، وكان جيم يغني ، أما الآخرون فكانوا يشربون بكل قواهم للنظر ، وقد ثبتت نظراتهم فصارت

أشبه بنظرات الشاردين . وهناك في الأفق البعيد كانت قمم بعض الجبال
تخترق وادي السحب الأبيض ، ومن فروج السحب كانت حقول القمح
تظهر من حين إلى آخر .

لا بد أن تكون الطائرة قد وصلت الآن فوق المدينة ، ولكن لم يكن
بالطائرة جهاز يشير الى الانحراف الذي انحرفته نتيجة لريح متعامدة على خط
سيرها ، فلو أنها هبطت من خلال السحب لأصبحت على يقين تقريباً من
أنها فوق طليطلة ، ولكن اذا كانت بعيدة عنها فإن طائرات العدو المطاردة
تملك من الوقت ما يكفي للوصول قبل اللقاء القنابل .

وانقضت الطائرة .

وفي انتظار رؤية الأرض ومدافع القصر وطائرات العدو نظر الطيار
ومارسيلينو الى جهاز تحديد الارتفاع في لهفة لم ينظرا بها قط الى وجه
انساني .. وكانت الطائرة على ارتفاع ٨٠٠ - ٦٠٠ - ٤٠٠ على التوالي ، وما
زالت السحب تحاصرهم ، لا بد من الصعود مرة أخرى ، وانتظار فجوة
تنفتح تحتهم .

وعادوا الى السماء مرة أخرى ، السماء الساكنة فوق السحب التي بدت
كأنها تتبع حركة الأرض ، وكانت الريح تدفعها من الشرق الى الغرب ،
والفجوات كثيرة نسبياً ، فشرعوا في التحويم وحدهم في الفضاء العريض ،
وفي دقة نجم من النجوم .

وأشار جيم - المسؤول عن المدفع الرشاش الأمامي - إلى مارسيلينو :

لقد أحس الرجلان في وقت واحد بتأثير حركة الأرض على جسميهما ،
وكانت الطائرة التي تدور كأنها كوكب صغير ضائع في جاذبية العوالم التي لا
تبالي شيئاً تنتظر أن تمر تحتها طليطلة وقصرها المتمرد ، ومحاصروها ،
يصحبهم ارتفاع الأشياء الأرضية الخالي من كل معنى .

وما أن ظهرت أول فجوة - وكانت صغيرة جداً - حتى استولت عليهم جميعاً من جديد غريزة الطائر الجارح . وكما يحوم الصقر في دائرة حامت الطائرة انتظاراً لفجوة أكبر ، وقد انخفضت عيون الرجال مترقبة للأرض ، وبدا كأن منظر السحب كله يدور في بطن كوكبي حول الطائرة الثابتة .

وفجأة ظهرت الأرض من فرجة في السحاب ، وعلى بعد مائتي متر من الطائرة كانت فقاعة صغيرة جداً تطلق نيرانها : إنها القصر .

وانقضت الطائرة من جديد .

وانكمش الفضاء ، ولم تعد ثمة سماء ، فالطائرة تحت السحاب الآن . . . وانطوى ذلك الامتداد الرحب . . . ولم يعد هناك سوى القصر .

وكانت طليطلة على اليسار ، وتحت زاوية الهبوط كان الأخدود الذي يحيط بنهر تاجة أظهر من المدينة كلها ، بل من « القصر » الذي استمر في إطلاق النار ، وكان الهدافون ضباطاً في مدرسة المدفعية ، بيد أن الخصم الحقيقي لطاقم الطائرة كان طائرات العدو المطاردة .

وبعد ان كانت طليطلة مائلة أصبحت أفقية رويداً رويداً، وكان لها دائماً طابع زخرفي بدا غريباً في هذه اللحظة ، وتصاعدت أشرطة طويلة من دخان الحرائق مرة أخرى ، وشرعت الطائرات في الدوران مماسة للقصر .

وكان هذا التحويم الذي يشبه تحويم الصقر ضرورياً لدقة التصويب ، فقد كان المحاصرون قريبين أشد القرب ، بيد أن كل تحويم كانت تتيح لطائرات العدو المطاردة مزيداً من الوقت ، وكانت الطائرة الآن على بعد ثلاثمائة متر ، وفي أسفل أمام « القصر » كانت تتراص غمال ترتدي مستديرة ناصعة البياض !

وفتح مارسيلينو باب خزان القنابل ، وسدد علامة التصويب ، ولكنه لم يطلق أية قنبلة ، وإنما تحكم في جهاز القذف ، وكان التصويب جيداً في

تقديره . ولما كان القصر صغيراً ، وكان مارسيلينو يخشى أن يشتت تأثير القنابل الخفيفة - فقد أراد أن يقذف بالقنابل الثقيلة وحدها ، ولم يعط أية إشارة ، فبقي أعوانه في حالة انتظار ، وللمرة الثانية صدرت الأوامر الى الطيار بالدوران ، ذلك أن سحب الدخان الصغيرة كانت تقترب .

وصاح مارسيلينو : « استعدوا ! » .

وبدا وهو واقف في مكان الركاب بعفريته التي لا حزام لها دائماً ، اشبه برجل مخبول . . ولكنه لم يحول عينه عن القصر ، وفي هذه المرة فتح باب خزان القنابل على سعته ، جثا على ركبتيه ، ومع الهواء البارد الذي اقتحم الطائرة ادرك الجميع أن المعركة قد بدأت .

وكانت هذه أول ربيع باردة في الحرب الأسبانية .

ودار القصر ثم اقترب ، وكان مارسيلينو منبسطاً الآن على بطنه رافعاً قبضته في الهواء محصياً للثواني . . وتتابعت القبعات تحت الطائرة ، وبدت ذراع مارسيلينو وكأنها تمزق ستاراً . . . ومضى القصر على حين أحاطت به - من فوق - بعض القنابل الطائشة وكأنها كواكب تابعة تدور في فلكه ، ثم دار ومضى الى اليمين ، وتصاعد دخان غامض وسط فئائه الرئيسي ، هل كانت هذه هي القنبلة ؟

وواصل الطيار تحليقه في دائرة متخذاً من « القصر » هدفاً . . وكانت القنبلة وسط الفناء ، وتعقبت قنابل القصر الطائرة التي مرت فوقه مرة أخرى ، وألقت بقنابلها الضخمة الثانية ، ثم ابتعدت واقتربت من جديد ، ولم تنزل ذراع مارسيلينو المرفوعة ثانية ، وفي الفناء ارتفعت ملاءات بيضاء في كثير من العجلة ، لقد استسلم « القصر » .

وتلاحم جيم وبول من شدة الفرح ، وأخذ الطاقم كله يرقص طرباً في المكان المخصص للركاب .

وفي مستوى السحب ظهرت طائرات العدو المطاردة .

الفصل الرابع

كان « لوبيز » يستكمل استجوابه في مركز القيادة - وهي كلية قديمة حولت الى ثكنات - بطريقته الودية البوربونية (الارستقراطية) لجماعة من الهاربين من القصر ، ومنهم سيدة أخذت كرهينة واستطاعت الفرار بتصريح مزيف للخروج سلمه لها صانع للأسلحة ، استطاع أن يهرب هو أيضاً ، وعشرة من الجنود أسروا في اليوم الأول ، بيد أنهم تمكنوا من القفز الى أخذود من الأخاديد المحيطة بالقصر .

وكانت السيدة امرأة طيبة سمراء متينة البنيان في الأربعين من عمرها ، لها أنف مستدير وعينان متيقظتان ، ترك عليها الضعف آثاره .

وسأل لوبيز : « كم كان عددكم ؟ » .

- « لا أستطيع أن أقول لك يا سيدي القومندان ، لأننا لم نكن جميعاً معاً ، وكان المساجين متناثرين هنا وهناك ، أما في الزنزارة التي كنا فيها فقد كان عددنا حوالي خمسة وعشرين . . . بيد أنها لم تكن أكثر من حجرة صغيرة على ما يبدو . . . » .

- « أكان لديكم ما تأكلونه ؟ » .

ونظرت المرأة الى لوبيز ، وقالت :

- « أكثر مما يلزمنا . . . » .

ومر عدد من الفلاحين أمام الجيفاتورا وقد وضعوا شوكاتهم الخشبية الضخمة الشبيهة بالشمعدانات على أكتافهم اليسرى ، وتأبطوا بنادقهم تحت أذرعهم اليمنى ، وخلفهم كان المحصول الوافر يدخل طليطلة ، تجره ثيران زينت قرونها بالزهور .

- « معي هنا أناس يقولون : انهم لم يكونوا يصيرون شيئاً من الطعام في القصر ! لا تصدقهم يا سيدي القائد . . كانوا يقدمون لنا لحم الخيول وخبزاً رديئاً ، ولكنه كان طعاماً على كل حال . . لقد شاهدت ما شاهدت . . . وأنا أعرف شؤون المطبخ أكثر مما يعرف الرجال . . . فأنا صاحبة حانة ! وكان هناك ما يأكلونه ! » .

وصاح جندي من الهاربين : « وكانت طائراتهم تلقي بالجامبون والسردين . بيد أن الجامبون كان مخصص للضباط أما نحن فلم نأكل منه مرة واحدة طوال تلك الأسابيع ! هذا عار ! ومع هذا ما زال بعض الحراس يقفون الى جانب أولئك الأوغاد ! » .

فقالت المرأة : « وماذا تريد أن يفعل الحرس يا بني ؟ » .

- « أن يفعلوا مثلنا ! » .

ولكنها سألته متمهلة : « أجل . . ولكن أخبرني . . . ألم تقتل أحداً في طليطلة . . أنت ؟ » .

وكان هذا هو ما يفكر فيه لوبيز ، فإن رجال الحرس المدني كانوا عملاء القمع والارهاب في اقليم طليطلة حينما كان اليمينيون في الحكم ، ولهذا السبب كانوا يخشون ألا يحترم أولئك الذين يعرفونهم شخصياً شروط التسليم .

- « وزوجات الفاشيين ؟ » .

فقالت المرأة : « يا لهن من نساء ! . . . »

وفجأة انقلبت سحتتها التي كان يعلوها الاحترام في أثناء حديثها مع لوبيز . . .

- « ولكن ماذا بكم أيها الرجال . . بحيث تخافون أن تمسوا النساء بأذى ! إنهن لسن جميعاً أمهاتكم ! وكن يعاملننا معاملة أسوأ من الرجال ! ولكن اذا كانت النسوة يخفنكم فأعطونا تلك القنابل ! » .

فقال لوبيز ولكن في شيء من الارتباك : « لن تعرفي كيف تقذفين بها . »

والتفت الى اثنين من الصحفيين وصلا في هذه اللحظة وقد أمسك كل منهما بدفتر المذكرات :

- « لقد اقترحنا اجلاء جميع المدنيين ، غير أن المتمردين رفضوا هذا الاقتراح ، وقالوا : زوجاتهم ، يردن البقاء معهم . »

واستطردت المرأة : « آه ! صحيح تلك التي وضعت في الداخل تريد البقاء ، وتلك التي همت باطلاق النار على زوجها تريد البقاء ، لكي تبدأ من جديد على ما اعتقد ، وتلك التي تئن طوال الليل ساعة بعد أخرى ، حتى لو أصبحت مجنونة تريد البقاء ؟ »

فقال أحد الجنود : « ولا يستطيع المرء أن يصم عنهن أذنيه ! » .

وواصل حديثه وهو يسد أذنيه بقبضتيه في حركة هستيرية : « ونحن نسمعهن ! ونحن نسمعهن ! » .

وصاحوا من الخارج : « الرفيق لوبيز ، التليفون يطلبك من مدريد ! » .

ونزل لوبيز وقد تملكه القلق ، وكانت المناظر البديعة تستهويه ، لا العذاب ، وبدأت رؤية هذا « القصر » المليء بالبغضاء دائماً ، حيث يعدم

الناس في افئته رميةً بالرصاص ، ويولد الأطفال - بدأت هذه الرؤية تثير
سخطه .

وذات صباح دون أن يلمح وجهاً واحداً سمع أصواتاً تصيح في القصر :
« نريد أن نسلم أنفسنا ! نريد أن ... » أعقبها طلقات الرصاص ... ولا شيء
غير ذلك .

وفي التليفون ، أوجز ما سمعه من الرهائن ، وكان شيئاً قليلاً . وقال :
« وأخيراً لا خطأ فيما ينبغي أن تقوم به من انقاذ هؤلاء الناس ! » .
- « في اسبانيا بأسرها ، أخذ الفاشيون رهائن » .

ولم يكن الصوت يصل واضحاً الى لوييز ، ففي الفناء كان أحد الضباط
يعزف على بيانو على الرصيف ، ورومبا قديمة تدور فوق فونوغراف ، ومكبر
للصوت بالقرب من هذا المكان يذيع انباء كاذبة .

واستطرد الصوت المتحدث من مدريد قائلاً في وضوح أشد : « أوافق
على أنه ينبغي أن نفعل المستحيل لانقاذهم ، ولكن يجب أن نفرغ من
القصر ، وأن نرسل رجال الميليشيا الى طلبيرة ، كما ينبغي أن تتيح لأولئك
الأوغاد الذين هم فوق فرصة أخرى ، وحاول أن ترتب الوساطة بأسرع ما
يمكن ، ونستطيع أن نتصرف معهم نحن أنفسنا عن طريق السلك
الدبلوماسي » .

- « لقد طلبوا قسيساً .. وهناك قساوسة في مدريد » .

- « وساطة دينية ... فليكن ، سنستدعي فوراً قائد المكان ...
شكراً » .

وعاد لوييز الى الطابق العلوي .

قال أحد الجنود : « النساء السراديات بسبب الطائرات ، فاذا كن نسوتنا

فإنهم يثمنونهم بالقرب من الاصطبلات هناك حيث القوا بنا ، أما نساؤهن فيوضعن في مكان آخر ، وذلك المكان فظيع بسبب الرائحة ، إذ هناك نحو ثلاثين جثة قد دُفنت بالقرب من سطح الأرض ، هذا بالإضافة الى جثث الخيول التي لا ينتزع جلدها جيداً . . . شيء بشع ! والجثث هي جثث أولئك الذين أرادوا التسليم . . . وهكذا يمكن أن تتصور حالنا بين أولئك المدفونين تحت أقدامنا ، وأولئك الذين نشروا الملاءات في الفناء أمام الاصطبل ، حيث كنا حين جاءت الطائرات . . . ومع أن الطائرات قد أصابتنا بالأذى فإننا كنا مسرورين مع هذا كله . . . كان ذلك حين نشروا الملاءات البيضاء . »

- « ومن الذي فعل ذلك ؟ رجال الحرس المدني ؟ »

- « كلا . . . بل هم جنود ، أما الآخرون فقد تركوهم يفعلون ذلك . . . ولكن حين رحلت الطائرة ، بدأت المدافع الرشاشة في اطلاق نيرانها ، وشهد الزملاء وهم يتساقطون هنا فوق الملاءات ، وفي أي مكان وحين عاد رجال لأخذ الملاءات لم تكن بيضاء ! . . . وحملوها بأن سحبوها من أطرافها كالمناديل ، وفي هذه اللحظة ، تجمعنا ، ثم قفزنا مخاطرين بكل شيء . . . »

وسأل صوت :

- « هل تعلم انهم قتلوا أونباشياً ، يسمى موراليس أولاً ؟ إنه أخي . . . وهو اشتراكي ذومبول . . . »

ولم يجب الجندي .

وقالت المرأة في استسلام : « ألا تعلم أن هؤلاء يقتلون الجميع . . . »

وعندما خرج « لوبيز » من مركز القيادة كان بعض الأطفال عائدين من المدرسة وقد تأبطوا حقائقهم ، ومضى في طريقه بذراعين كجناحي الطاحونة شارد النظر ، وكادت قدماه تغوص في بركة سوداء ، فأبعده أحد

الفوضيين ، وكأنه أوشك أن يسحق حيواناً جريحاً ، وقال :
- « انتبه الى موضع قدمك » ثم أردف في احترام : « انها دماء
الرفاق ! » .

الفصل الخامس

كان نصف رجال طائرات البليكان يرقد في اغفاءة على أرائك المقصف ، والنصف الآخر - ويتألف من الميكانيكيين - يقوم بالعمل ، أما ربع الطيارين ورجال المدافع الرشاشة فلا يعلم غير الله أين هم الآن .

وظالما تساءل مانيان كيف يمكن أن يؤسس هو نظاماً أياً كان دون وسيلة للقهر ، وعلى الرغم من تهريجهم واستهتارهم وفوضاهم واستظرافهم كان الواحد منهم يعادل سبعة في حومة القتال ، وهذا القول نفسه ينطبق على رجال سمبرانو من الأسبان ، وعلى رجال بريجه من كواترو - فيينتوس الرياح الأربع ، ومن خيتافي ، وكانوا قد فقدوا جميعاً نصف فاعليتهم الحربية ، وطلب كثير من رجال الطيران التجاريين - ومنهم سيبيرسكي - السماح لهم بالقتال على أن يتقاضوا مرتب شهر كل شهرين ، وبهذا لا يجرمون من المال ، ولا الاخاء حرماناً تاماً .

وكان « سان - أنطوان » يعود يومياً محملاً بالسجائر ، وبالنظارات الكبيرة ، والأسطوانات ، وحزنه يزداد يوماً بعد يوم ، ذلك أن الطائرات المغيرة دون حراسة من الطائرات المطاردة (ومن أين تأتي طائرات المطاردة تلك ؟) - كانت تجتاز اقليم الشارات بفضل الفجر والحذر أو نشوب معركة في مكان آخر ، كانت تعود أو لا تعود ، وإذا عادت تكون في حالة يرثى لها . . . وفي المقصف كان استهلاك المشروبات الروحية في ازدياد .

وبدا أولئك الذين يرقدون على الأرائك واسكالي يتبعه « رابلاتي » -

يجولون في شرفة المقصف كأنهم مساجين ، ومع أن الرجل الذي يدفع عربة القنابل لم يعلنهم بالوقت فقد كانوا يعرفون جميعاً أن طائرة مارسيلينو لم تعد بعد ، وكان ما تبقى له من البنزين لا يكفيه على أقصى تقدير أكثر من ربع ساعة أخرى .

وكان انريك - وهو احد قوميساري اللواء الخامس⁽¹⁾ - ويزعم أنه مكسيكي « وربما كان صادقاً في هذا الزعم » - يمشي مع مانيان على أرض المطار ، وكانت الشمس قد غربت خلفهما ، ورجال المطار يرون شاري مانيان كطيفين - في آخر شعاع من أشعة الشمس بحيث يتجاوزان جانباً من وجه القوميسير الحاد الملامح .

وسأل هذا الأخير : « كم عدد الطائرات الباقية لديكم فعلاً ؟ » .

- « من الأفضل ألا أتحدث عن هذا الموضوع ، إذ لم يعد لنا وجود بوصفنا قوة طيران منظمة . . . ونحن نتنظر دائماً وصول مدافع رشاشة مناسبة ، بالله عليك ماذا يفعل أولئك الروس ؟ » .

- « وبالله عليك ماذا يفعل الفرنسيون ؟ » .

- « دعنا من هذا ، المهم هو ما يمكن عمله ، وبغض النظر عن مواتاة الحظ سأقوم بالإغارة ليلاً ، فلم يعد أمامي إلا أن ألعب بين السحب ، وها هوذا الخريف يقبل لحسن الحظ . . . »

ورفع عينيه فرأى أن الليل سيكون بديعاً :

- « وأنا الآن مشغول بالجو ، قبل أي شيء آخر . . . فنحن قوة طيران نقوم بحرب عصابات . . . ولما أن تصل إلينا طائرات من الخارج ، أو لا يبقى أمامنا إلا أن نموت أفضل ميتة ممكنة . . . ماذا نسيت ؟ أه ! أجل

(1) هؤلاء هم رجال الميليشيا الشيوعيون الذين كان هدفهم انشاء جيش منظم في اسرع وقت ممكن . (المؤلف) .

أخبرني ما حكاية تلك الطائرات الروسية التي وصلت الى برشلونة ؟ » .

- « كنت في برشلونة أول أمس ، وشاهدت في إحدى حظائر الطائرات المفتوحة طائرة جميلة ، تكسوها النجوم الحمراء في كل مكان ، ومنجل ومطرقة على الذيل ، وكتابات على كل جانب من جوانبها . وفي المقدمة كلمة « لينين » غير أن حرف I الروسي « ورسمه بأصبعه » كان مقلوباً كحرف IN الأسباني ... وفي نهاية الأمر ذهبت لأشاهد عن كثب ، فتعرفت على طائرة النجاشي ... » .

وكان « مانيان » قد عثر في السوق الانكليزية على طائرة الامبرطور هيلاسلاسي الخاصة .. وهي طائرة سريعة الى حد ما مع خزانات احتياطية للوقود ، ولكن من الصعب قيادتها ، وكانت قد أرسلت للتصليح في برشلونة بعد أن أفسدها أحد الطيارين ...

- « فليكن .. ولكن لماذا كل هذه التعمية ؟ » .

- « عبث صيباني .. أو لعلها عملية سحر لاجتذاب الطائرات الروسية الحقيقية أربما كان نوعاً من الاستفزاز في نهاية الأمر ... » .

- « محتمل جداً ... وكيف حالكم ؟ » .

- « على ما يرام ... ولكن في ببطء » .

وتوقف أنريك ، ثم أخرج من جيبه مشروعاً للتنظيم أعضاء بمصباحه الكهربائي ، إذ كان الليل قد هبط ، ثم قال :

- « تستطيع منذ الآن أن تعتبر هذا المشروع كله قد تحقق فعلاً » .

وكان هذا المشروع مشابهاً تقريباً لخطة «كتائب العاصفة» وتذكر مانيان رجال الميليشيا في سرقسطة الذين ذهبوا الى القتال دون ذخيرة ، ودون اتصال تليفوني على طول جبهة أرغون كلها وفي طليطلة كانوا يستبدلون

الإسعافات الأولية بالكحول أو اليود .

- « وهل نجحت في اقرار النظام ؟ » .

- « أجل » .

- « بالوسائل القهرية ؟ » .

- « كلا . . . » .

- « إذن ، ماذا فعلت ؟ » .

- « الشيوعيون منظّمون فعلاً ، وهم يطيعون سكرتارية الخلايا ، كما يطيعون المندوبين العسكريين ، وهؤلاء وأولئك هم نفس الأشخاص في أغلب الأحيان ، وكثير من الناس الذين يودون القتال يقبلون علينا حباً في التنظيم الجوي ، وفي الماضي كان رجالنا منظمين لأنهم شيوعيون ، أما الآن فإن كثيرين يصبحون شيوعيين لأنهم يحبون النظام ولدينا في كل وحدة عدد كبير نوعاً ما - من الشيوعيين يلتزمون النظام ويحرصون على أن يحترمه الآخرون ، وهم يؤلفون نواة متماسكة ينتظم حولها المنضمون الجدد الذين يؤلفون بدورهم نواة أخرى . وفي نهاية الأمر ينضم إلينا عشرة أضعاف ما نطلبه فعلاً من الرجال الذين يفهمون أنهم يؤدون معنا عملاً مفيداً ضد الفاشية » .

وبهذه المناسبة أريد أن أتحدث معك أيضاً عن الألمان . . .

وكان هذا الموضوع يزعج مانينان على الرغم من كثرة عدد المرات التي حاول فيها معالجته . . .

وكان « أنريك » قد تأبط ذراع « مانينان » وهي حركة أدهشت مانينان ، لأنها صادرة عن ذلك المحارب الصلب . . . وكان يقسم الزعماء الشيوعيين الى نوعين هما : الشيوعيون من النمط الحربي ، والشيوعيون من النمط الديني ، أما أن يدرج في النمط الأخير هذا الرجل الذي خاض خمس حروب

أهلية ، والذي لا يقل قوة وضخامة عن جارسيا - فكان أمراً يحيره ، ومع ذلك فقد كان يرى أن شفتيه اللتين تشبهان شفتي تمثال مكسيكي تبرزان الى الأمام أحياناً كشفتي تاجر للسجاجيد .

ماذا تريد ادارة الأمن ؟ ألا يطأ الألمان الثلاثة بأقدامهم أرض المطار بعد ذلك أبداً . وكان مانيان يرى أن كريفلد شخص مشبوه ، وأنه يفتقر فضلاً عن ذلك الى الكفاية ، وضارب المدفع الرشاش الذي أراد أن يعمل بوصفه مرشداً لا يعرف بدوره كيف يستخدم المدفع الرشاش ! كما أنه يذهب دائماً الى الحزب الشيوعي حين يحتاج اليه كارليتس وهذا الأخير كان يقوم بالعمل كله بمفرده ، أما سيرة شراينر فكانت مأساوية ، ولم يكن من شك أنه بريء ، ولكن أياً كان الأمر فلا بد أن يترك الدفاع ضد الطائرات .

- « إن المسألة كلها - يا أنريك - مؤلمة من الناحية الانسانية ، ولكنني لا أملك حجة واحدة صحيحة معقولة للامتناع عن اجابة طلب ادارة الأمن ، في استطاعتها الإصرار عليه ، وأنا لست شيوعياً ، وعلى هذا لا أستطيع التظاهر بأنني أذعن لنظام الحزب الذي أنتمي اليه . . . والعلاقات الطيبة بين قوة الطيران وادارة الأمن والمخابرات ذات أهمية عظيمة بالنسبة لنا في الوقت الحاضر الذي نتصرف فيه معتمدين على قبضاتنا بحيث لا نستطيع أن نعرض هذه العلاقات للخطر بسبب تلك المسألة . . . وقد أبدو حينئذٍ عنيداً . . . واعتقد أنك تفهم ما أعنيه » .

وقال أنريك : « لا بد من الاحتفاظ بهم . والحزب مسؤول عن تبرير موقفهم . . . وأنت تعلم أن هذا الرحيل سيبدو في نظر زملائهم جميعاً بمثابة اعتراف بالشبهات التي حامت حولهم . . . والواقع أنه لا ينبغي معاملة أشخاص ظلوا محاربين جيدين طيلة أعوام - على هذا النحو » .

وكان ضارب المدفع الرشاش متمياً الى الحزب ، أما مانيان فلم يكن متمياً إليه .

- « أنا مقتنع بأن شرايتر بريء ، ولكن ، ليست هذه هي المسألة ، ولديك معلومات من الحزب الألماني في باريس ، وأنت تعتقد تلك المعلومات .. حسن ، خذ المسؤولية على عاتقك أمام الحكومة ، أما أنا فلا أملك أية وسيلة للتحري ، لا أستطيع أن أبت في موضوع يمكن أن تكون له نتائج خطيرة ، وفق هواي .. فضلاً على ذلك أنت تعلم أنهم غير كفاة تماماً بوصفهم طيارين » .

- « من الممكن ترتيب حفل عشاء انقل اليه فيه تحية الرفاق الاسبان وتحيي أنت فيه الرفاق الألمان .. وقد بلغني أن ثمة روحاً من العداة منتشرة في الفرقة ضد الألمان ... أو إن شئت شيئاً من التعصب القومي ... » .

- « لا أشعر بأية رغبة في أن أشرب نخب قوم يحملون اليك أبناء من هذا القبيل » .

وكان تقدير مانيان - وإن يكن ذلك التقدير للعمل الذي يقوم به أنريك ، لا لشخصه « فهو لا يكاد يعرفه شخصياً » - عاملاً من العوامل التي زادت من حنقه ، وكان قد حضر تكوين كتائب الفرقة الخامسة ، وهذه الكتائب في جملتها أفضل كتائب الميليشيا ، ومن الممكن تكوين جيش الجبهة الشعبية كله بنفس المنهج ، ذلك أن هذه الكتائب قد حلت مشكلة النظام الثوري حلاً حاسماً ، وعلى هذا كان مانيان يعتبر « أنريك » واحداً من خيرة المنظمين للجيش الاسباني الشعبي ، غير أنه كان مقتنعاً بأن هذا الرجل الحاد الحذر المجتهد لا يمكن أن يوافق على الطلب الذي تقدم به الآن إذا وضع نفسه موضع مانيان .

قال أنريك : « لقد تروى الحزب في دراسة المسألة ، ورأى أنه ينبغي الاحتفاظ بهم » .

واستعاد « مانيان » أشجانه حين كان الصراع ناشباً بين الاشتراكيين والشيوعيين .

- « أرجو المعذرة . . . الثورة أهم عندي من الحزب الشيوعي » .

- « أنا لست متعصباً . . . أيها الرفيق مانيان ، وقد كنت من قبل متمنياً الى حركة تروتسكي . وقد أصبحت الفاشية اليوم سلعة للتصدير فهي تصدر منتجات جاهزة من جيوش وطيران . وفي مثل هذه الظروف أقول : إن خط الدفاع الأول عما نريد الدفاع عنه لا يقوم في المحل الأول على البروليتاريا العالمية ، وإنما على الاتحاد السوفييتي وعلى الحزب الشيوعي ، ومائة طائرة روسية تساوي بالنسبة لنا أكثر من خمسين ألفاً من رجال الميليشيا الذين لا خبرة لهم بالحرب ، ومن ثم فإني أدعو الى التعاون مع الحزب ، والتعاون بلا تحفظ ، فالحزب كتلة واحدة » .

- « أجل . . . ولكن لا وجود لطائرات روسية بعد . . . أما فيما يتعلق برفقتك الثلاثة اذا أخذ الحزب الشيوعي على عاتقه أن يكون مسؤولاً عنهم فليتحمل هذه المسؤولية أمام ادارة الأمن ، أو فليضمهم للعمل في خدمته . . . فلا اعتراض لي على ذلك » .

- « إذن فأنت تريدكم في نهاية الأمر أن يرحلوا ؟ » .

- « أجل . . . » .

وتحلى أنريك عن ذراع مانيان .

كانا قد دخلنا الآن في منطقة الأضواء المنبعثة من المباني ، وظهر وجه القوميسير الشبيه بوجه الهنود الحمر في النور بعد أن كان خافياً في الظلام ، وحين تحلى عن ذراع مانيان استطاع هذا الأخير أن يراه رؤية أوضح بسبب ابتعاده عنه ، وتذكر « مانيان » جملة لأنريك أوردوها أمامه ، ولكنه نسيها ، قال أنريك : « ان رفيقاً واحداً في الحزب أهم عندي من جميع الأشخاص الذين في العالم كله من أمثال مانيان وجارسيا » .

واستأنف مانيان حديثه قائلاً : « لا تنس انني اعلم ما معنى الحزب ،

وأنا أنتمي الى حزب ضعيف هو حزب اليسار الثوري الاشتراكي ، وحين يدوس الانسان على عاكس التيار فلا بد أن تضاء الأنوار جميعاً في آن واحد ، ولا بد طبعاً من وجود بعض المصاييح الفاسدة ، فضلاً على ذلك قد تكون المصاييح الكبيرة رديئة . . . إذن فالحزب يأتي في المقام الأول » .

وسأله أنريك بصوت محايد - لا لكي يتظاهر بعدم الاكتراث - وإنما ليبين أنه لا يريد التأثير على مانيان : « إذن فستحفظ بهم ؟ » .

- « كلا » . . .

وكان القوميسير يهتم بالقرارات أكثر من اهتمامه بالعمليات النفسية .

فقال : « سلام » !

ولم يعد ثمة ما يمكن أن يفعله مانيان في هذه المسألة ، لقد قام بتنظيم فرقة الطيران هذه ووجد الرجال ، وخاطر بحياته باستمرار ، وأخذ على عاتقه أكثر من عشر مرات مسؤولية القيام بعمليات لم يكن من حقه القيام بها ، ولكنه لم يكن منهم ، ولم يكن عضواً في الحزب وها هو ذا يرى أن كلام ضارب للمدفع الرشاش لا يعرف كيف يستخدمه أرجح وزناً من كلامه ، ويرى رجلاً يحترم عمله وقيمه على استعداد لأن يطلب منه اتخاذ موقف صياني ارضاء لنزوة رفيق من حزبه ، وكان من الممكن الدفاع عن هذا كله بهذه الجملة : « لا بد من وجود مصاييح في كل حجرة ! » ومع ذلك فقد كان أنريك هو الذي قام بتنظيم خيرة القوات الأسبانية . وهو نفسه - أعني مانيان - يوافق على طرد شراينر . . فالعمل هو العمل ، وهو شيء يختلف عن العدالة .

وكان الظلام الآن تاماً . . .

ولكن لم يأت الى اسبانيا من أجل الظلم . . .

ومرت عدة رصاصات بعيدة فوق المطار . .

كم يبدو هذا كله تافهاً إذا قيس بجماهير الفلاحات المهاريات بحميرهن
من القرى التي اندلعت فيها النيران !

وأحس لأول مرة في أعماق نفسه بالعزلة التي تفرضها الحرب ، فأخذ
يجر قدميه فوق أعشاب المطار الجافة ، إذ كان يريد أن يصل بأسرع ما يمكن
الى حظيرة الطائرات ، هناك حيث كان الرجال الذين تجمعهم روح واحدة
يقومون باصلاح الطائرات .

ووصل الظلام الدامس قبل وصول مارسيلينو ، ولم يكن الهبوط الليلي
شيئاً مستحجاً بالنسبة للطيارين الجرحى ، وكان يبدو أن العمال الميكانيكيين
يراقبون هبوط المساء . وكان هذا الذي ينظرون اليه مشدوداً في هدوء
الغسق القلق هو ذلك السباق غير المرئي بين الطائرة والليل ، ووصل
أتينيس ، ونظرته شاخصة الى التلال .

قال مانيان : « الشيوعيون يزعجونني يا عزيزي زيجفريد » .

وكان الأسباب وأولئك الذين يجنون أتينيس يسمونه زيجفريد فيما بينهم ،
وكان أشقر الشعر وسيماً ، وهذه هي المرة الأولى التي ينادى فيها بهذا الاسم
في حضوره . . . ولكنه لم يلحظ شيئاً وقال :

- « في كل مرة أرى توتراً بين الحزب وبين شخص يريد ما نريده -
مثلك - يكون ذلك مدعاة لأساي » .

وكان مانيان يحمل لاتينيس أعظم تقدير يحمله لواحد من الشيوعيين في
فرقتة ، وكان يعرف أنه من أعداء كريفلد وكورتس ، بيد أنه - أي مانيان -
كان بحاجة الى الكلام ، وكان يعلم أن أعصابه متوترة مثله ، لأنه ينتظر
مارسيلينو الذي يجبه .

قال أتينيس : « أعتقد أن الحزب مخطيء في هذه المسألة . . . ولكن

هل أنت واثق من أنك لست مخطئاً أنت أيضاً ؟ » .

- « الرجل المندفع يخطيء كثيراً يا عزيزي » .

ولم يكن يتحدث إليه بلهجة شخص يحمي شخصاً آخر ، ولكن بلهجة أبوية .

- « وهناك بلا شك أشياء يمكن أن تقال في تأييد كل جانب » .

ولم يكن مانيان يود أن ينكأ أشجانه ، ولكنه لم يملك نفسه من أن يضيف قوله :

- « أعتقد أنني أجهل مدى هجوم الشيوعيين عليّ منذ أن كان كورتس يقوم بدور التجسس القذر من أجل الحزب ؟ » .

- « انه ليس جاسوساً ، لقد حارب في المانيا هتلرية ، وربما كان رجالنا الذين حاربوا عند هتلر هم أفضل الرجال . . وهذه المسألة في جملتها غير معقولة ، وليس ثمة ما يمكن أن يفعل ، ولكن وأنت الرجل الثوري صاحب الخبرة لماذا لا تتجاوزها ؟ » .

وتروى مانيان قبل أن يجيب :

- « اذا كان أولئك الذين ينبغي أن أحارب معهم ، والذين أحب أن أحارب معهم لا يثقون فيّ - فلماذا أقاتل يا عزيزي ؟ الأفضل : أن أموت . . . » .

- « إذا أخطأ ابنك فهل تتخلى عنه بسبب هذا الخطأ ؟ » .

وكانت هذه أول مرة يلتقي فيها بتلك الرابطة الفسيولوجية العميقة التي توحد بين صفوة الشيوعيين وحزبهم .

وسأل أتينييس : « إن جيم في الطائرة . أليس كذلك ؟ » .

- « بلى . . وهو مسؤول عن المدفع الرشاش الذي في المقدمة » .
 وكان الظلام يهبط سريعاً كلما تقدم الوقت .
 وأستأنف الشاب كلامه قائلاً :
 - « إن حساميتنا بل حياتنا نفسها أشياء تافهة في هذه الحرب » .
 - « أجل . . ولكن إذا أخطأ أبوك » .
 - « لم أقل « أبوك » ، وإنما قلت « إبنك » .
 - « أليديك ابن يا أتينييس ؟ » .
 - « كلا . . وأنت ، لديك ابن ، أليس كذلك ؟ » .
 - « بلى » .

وتقدموا بضع خطوات وأنظارهم شاخصة الى أعلى بحثاً عن مارسيلينو ،
 وكان مانيان يعلم أن أتينييس يريد أن يقول شيئاً :
 - « أتعلم من أبي ، أيها الرفيق مانيان ؟ » .
 - « نعم . . ولهذا السبب فإنني . . . »

وما كان أتينييس (وهذا اسم مستعار) يعتقد انه سر كانت الفرقة كلها
 تعرفه ، فقد كان أبوه زعيماً فاشياً في بلاده .
 قال : « ليست الصداقة أن يقف المرء الى جانب أصدقائه حين يكونون
 على صواب ، وإنما هي أن يقف الى جانبهم حين يخطئون . . . »
 وصعدوا الى حيث كان سمبرانو .

كان الفئار على أهبة الإستعداد ، وكانت السيلابوت الموجهة قد أرسلت
 كلها حول المطار وصدرت إليها الأوامر ببصاءة مصابيحها عند أول إشارة

قال مانيان : « هيا .. أضيئوا في الحال ! » .

قال سمبرانو : « ربما كنت على حق ، ولكنني أؤثر الانتظار ، فلو أنهم كانوا فاشيين ما كان ثمة داعٍ لاضاءة المطار لهم ، ثم اني أفضل الانتظار ! » .
وكان « مانيان » يعلم أن سمبرانو يؤثر عدم اضاءة الأنوار بسبب تطيره ، فلقد أصبح الآن جميع الطيارين تقريباً متطيرين .

وكانت النوافذ مفتوحة ، وفي مثل هذه الساعة ، قبل نشوب الحرب اعتاد رئيس المطار أن يجتسي الويسكي ، ومن الأرض كان يصاعد ظلام ليلة من ليالي نهاية الصيف .

وصاح ثلاثهم بصوت واحد : « الأنوار ! » .
فقد سمعوا صفارة النداء تطلقها الطائرة .

وبين الخطوط القصيرة المنبعثة من مصابيح السيارات كان عمود الضوء المنبعث من منار ارشاد الطائرات يمتد عبر المطار الخالي .. وهرول مانيان نازلاً من السلم يتقدمه شاربه ويتبعه أتينييس .

وفي أسفل ، اشارات الرؤوس المتوازية الى الطائرة .. لم يكد أحد قد شاهدها في اثناء اقترابها ، أما الآن فكان الجميع يرونها مهتدين بصوتها ، وهي تدور استعداداً للهبوط .. وعلى صفحة السماء التي أخذ لونها يميل الى الدكنة لحظة بعد أخرى - كان طيف الطائرة ينزلق محمداً كورقة مقصوصة وسط اطار من الزرقة الخافتة ، واضحاً كأنه صرح سلطت عليه أضواء ساطعة .

وقال صوت : « المحرك الخارجي مشتعل » .

وتضخمت الطائرة وتوقفت عن الدوران ، وأخذت تهبط مواجهم ، وتحولت أجنتها الى خطوط ، ثم اختفت في ظلمة المطار وتكدست العتمة فوق سطح الأرض ولم تعد العيون تتابع سوى بقعة غامضة من جسم الطائرة

تمزقه - كما يمزق الطير الجارح فريسته - شعلة من اللهب الأزرق ، كأنها صادرة عن أنبوبة ضخمة من أنابيب اللحام بالأكسجين ، وبدا كأنها لن تهبط أبداً الى الأرض ، والطائرات التي تحمل أمواتاً تهبط على مهل .

وزجر مانيان وقد وضع كلتا يديه فوق ذراعي نظارته : « القنابل ! » ففي اللحظة التي لمست فيها الطائرة تقاربت السنة اللهب وجسم الطائرة كأنما ليدخلا في صراع رهيب حتى الموت ، ووثب جسم الطائرة وسط السنة اللهب التي انكششت على نفسها وانسحقت ، ثم انبثقت من جديد وهي تتزايضا ، ولم تلبث الطائرة ان انكفأت على وجهها ! . . .

واندفعت سيارة الإسعاف التي كانت تقف متأهبة كالموت نفسه ، وقفز اليها مانيان . . . وكان رجال المطار الذين شرعوا في العدو منذ أن رأوا الطريقة التي ستهبط بها الطائرة ، « يتبعهم الطيارون وهم يسبونهم » يركضون الآن حول النار العظيمة التي ارتفعت مستقيمة ، وقد سقطت ظلالمهم حولهم كأنها أسلاك عجلة ، ولم تصل النار مرة أخرى الى الطائرة بل اضاءتها الآن بنور راعش لا لون له . وانفلق جسم الطائرة الى نصفين كأنه بيضة ، فأخذ رجال المطار يخرجون الجرحى من الطائرة في حذر شديد ، كما يفصل الطبيب ضمادة عن جرح وكأئنا التصق أولئك الجرحى بدمائهم في جسم الطائرة ، وكانوا يعملون في صبر محموم تهددهم رائحة البنزين ، وبينما كان رجال المطافئ يخمدون النيران ، أبعد الجرحى والموق عن الطائرة ، وقد التف رفاقهم حولهم في خليط من الظلال ، وفي هذا النور الذي يشيع فيه الموت كان الأحياء يبدون كأنهم أموات متحركون يجرسون أمواتاً ساكنين !

وكان عدد الجرحى ثلاثة ، وعدد القتلى ثلاثة بينهم مارسيلينو . . . المجموع سبعة . . . فأين ضارب المدفع الرشاش ؟ أنه هجم الذي نزل بعد الآخرين . . . وكانت يدها ممدودتين الى الأمام وهما ترتفجان ، يقوده زميل من زملائه . . . لقد انفجرت رصاصة أمام عينيه فحرمته نعمة البصر .

وحمل الطيارون الموتى من أكتافهم وأقدامهم الى المقصف ، حتى تحضر
عربة نقل الموتى ، ولما كان مارسيلينو قد قتل برصاصة في عنقه فقد نزلت منه
الدماء . وعلى الرغم من الثبات الفاجع المائل في عينيه اللتين لم يغلقهما
أحد ، وعلى الرغم من الضوء الكئيب ، فقد كان القناع جميلاً . . .

ونظرت اليه إحدى خادمتي المقصف ، ثم قالت :

- « لا بد من ساعة على الأقل ، قبل أن تبدأ الروح في الظهور » .

وكان مانيان قد شاهد كثيراً من الموتى لكي يعرف السكينة التي يضيفها
الموت على كثير من الوجوه . . فالغضون والتجاهيد الصغيرة تختفي مع اختفاء
القلق والتفكير . . وأمام هذا الوجه الذي اغتسل من الحياة ، وإن ظلت
العينان المفتوحتان ومساكة الرأس الجلدية تحتفظ له بإرادته - استعاد مانيان
الجملة التي سمعها لتوه ، والتي سمعها من قبل بصور كثيرة في اللغة
الأسبانية وهي : « أن أقنعة الرجال لا تبدأ في الكشف عن وجوههم الحقيقية
إلا بعد انقضاء ساعة على موتهم ! » .

الفصل الأول

كان الفاشيون يحتلون ثلاث مزارع منازلها من الصخور الصفراء ، وسقفها من نفس اللون محتضنها جميعاً تجويف واحد ، وكان ينبغي أولاً إجلاؤهم عن هذا المكان .

ولم تكن هذه العملية عسيرة ، ذلك أن تلك المناطق الصخرية المحيطة بنهر تاجة بين طليبرة وطليلة كانت تسمح لرجال الميليشيا أن يبلغوا تلك المزارع دون أن يكشفهم أحد ، ثم إذا تصرفوا في نظام وحيدة ، وكان « أكسيمينيس » قد طلب قتابل يدوية في أثناء الليل ، وكان الضابط المكلف بتوزيع الأسلحة مهاجراً المانياً . وفي الفجر شاهد أكسيمينيس - وقد بهرته تلك الكفاية - سيارات النقل تصل محملة بشمار الرمان .

وأخيراً ، وصلت القنابل الحقيقية المطلوبة .

وكانت إحدى جماعات أكسيمينيس مؤلفة من رجال الميليشيا الذين وصلوا منذ عدة أعوام ، ولم يخوضوا أي قتال بعد ، فعهد أكسيمينيس الى أفضل صولاته بتدريبهم . . وهو يشرف عليهم اليوم بنفسه .

بدأ بتدريبهم على القاء القنابل اليدوية .

وكشفت الجماعة الثالثة المؤلفة من رجال الميليشيا الجدد عن قلة خبرتها ، وظل أحدهم أفرادها محتفظاً بالقنبلة في يده بدلاً أن أشعلها - دون أن يقذف بها . . ! وصاح فيه الشاويش : « ألقها ! » . . وكادت القنبلة

تنفجر وهي في يده فلا تبقي على شيء من الشاب المسكين لولا أن ضربه اكسيمينيس بقبضته تحت مرفقه ، فاطاح بالقنبلة في الهواء وسقط رجل الميليشيا ، وسالت الدماء على وجه « اكسيمينيس » .

وأصيب الرجل لحسن حظه بجرح في الكتف ، وما أن تم تضميده وحمل بعيداً حتى بدأ اعداد الضمادات لاكسيمينيس الذي قال : دعوا العمائم للمغاربة ، وناولونا « البلاستر » (المشمع) الانكليزي . وكان منظره بعد وضع ذلك البلاستر أقل بطولة ، فكأنما كسا وجهه طوايع البريد . ووقف الى جانب من جاء دوره لالقاء القنابل ، ولم تقع حادثة أخرى ، وإن تم استبعاد عشرين رجلاً .

وكان اكسيمينيس قد بعث بمانويل لكشف المنطقة ، وكان حزب هذا الأخير من الذكاء بحيث أرسل معه واحداً من الضباط يستطيع أن يفيد منه أعظم فائدة ممكنة ، وأحس ذلك الضابط بميل الى مانويل ، ولم يكمن مانويل حريصاً على النظام حباً في الطاعة أو حباً في الرياسة ، ولكنه كان كذلك بطبيعته ، وباحساسه بما ينبغي أن تكون عليه الكفاية وفضلاً على ذلك كان مثقفاً ، وهذا شيء لمسه الكولونيل المرافق له ، بل كان من بواعث دهشته أن هذا الموسيقي الممتاز ، والمهندس للأصوات البارع ، ضابط بالسليقة ، ولم يكن الكولونيل يعرف الشيوعيين إلا عن طريق الأساطير السخيفة التي تحاك حولهم ، أو يعلم أن واجبات الشيوعي المحارب من الصف الأول تلزمه اتباع نظام صارم واصطناع وسائل الاقناع ، وأن جمعه بين مواهب الاداري والمنفذ الصارم والداعية يتيح له فرصاً كثيرة ليكون ضابطاً ممتازاً .

وبدأ الهجوم على المزرعة الأولى ، وكان ذلك في صباح يوم هادئ سكنت فيه أوراق الأشجار كأنها أحجار ، ومن حين الى آخر كانت تهب نسمة خفيفة ، تشوبها البرودة وكأنها تعلن مقدم الخريف ، وشرب رجال الميليشيا هجومهم بالقنابل اليدوية محتمين بالصخور وبرجال المدافع الرشاشة حتى أصبح الموقع لفاشي ضعيفاً ، وعلى حين غرة وثب ثلاثون من رجال

الميليشيا على الصخور، وهاجوا المكان المكشوف وهم يتصايحون كأنهم قبيلة زنجية .

وزأر أكسيمينيس : « لقد فعلوها ! » وخبط بقبضة يده على باب السادة .

وسقط عشرون رجلاً من الميليشيا على الصخور متكورين أو شابكين أذرعهم على هيئة صليب ، أو واضعين أكفهم على الوجه كأنما يحمون أنفسهم ، وكانت الدماء المنبثقة من إحدى الجثث تتألق في الشمس ، وتغطي شيئاً فشيئاً صخرة منبسطة بيضاء في نقاء السكر .

ولحسن الحظ استطاع رجال الميليشيا الآخرون أن يصلوا من جانبي المزرعة الى الصخور الأخيرة ، فلم يشاهدوا رفاقهم وهم يتساقطون ، وبدأت قوالب القرميد تتطاير في الهواء كالنافورة بفعل القنابل اليدوية ، ولم تنقض ربع ساعة حتى تم الاستيلاء على المزرعة .

وجاء دور رجال الميليشيا الجدد للهجوم على المزرعة الثانية ، وكانوا قد رأوا كل ما حدث

قال لهم أكسيمينيس معتلياً سقف السيارة الفورد : « يا ابنائي ، لقد استولينا على المزرعة ، وهؤلاء الذين خرجوا من الصخور - مخالفين للأوامر سواء أكانوا قد دخلوا المزرعة قبل غيرهم أم لا - مبعدون عن الطابور . ولا تنسوا أن ذلك الذي يتأملنا - وأعني به التاريخ - والذي يحكم علينا وسيحكم علينا ، في حاجة الى شجاعة المنتصر لا الى شجاعة الشخص الذي يقدم العزاء .

« واتباع الطرق التي حددت لكم لن يكون ثمة خطر حتى مسافة مائتي متر من العدو ، والدليل على ذلك أنني سأذهب معكم في هذه السيارة ، ولا ينبغي أن يصاب جريح واحد قبل ذلك .

ثم سنبدا القتال ونستولي على المزرعة . . . فلنتمس العون من الله . . . (ولم يكمل الكلمة) من الحظ ! وليقف معنا من يرى كل شيء . . . أعني الأمة الأسبانية فنحن أبناؤها الذين نحارب في سبيل ما نعتقد أنه الحق . . . » .

وراء رجال الميليشيا الجدد الذين يحملون القنابل اليدوية أختار صاربي المدافع الرشاشة من بين أفضل جنوده .

وقبل أن يصلوا الى المزارع بلحوا الفاشيين وهم يجلون عنها .

وكان بعض الجنود الفاشيين قد انضموا اليهم في الأسبوع السابق : عين منهم ثلاثون في جماعة مانويل ، وكان زعيمهم - وإن لم ينتخب لهذا المنصب - رجلا يدعى ألبا ، وهو محارب شجاع ، ولكنه يتصيد الأخطاء حتى لقد حسبته الكثيرون جاسوساً .

واستدعاه مانويل .

وشرعوا في المسير عبر الصخور ، ويم مانويل صوب الخطوط الفاشية ولم تكن ثمة جبهة ، بيد أن العدو أستقر بعد انسحابه من المزارع على بعد ثلاثة كيلومترات في ذلك الإتجاه الذي سار فيه مانويل .

وسأله مانويل : « هل لديك مسدس ؟ » .

- « كلا » -

وكان ألبا كاذباً ، إذ يكفي أن ينظر مانويل الى سرواله ليتبين به ثقيل عند الخصر .

« خذ هذا » .

وأعطاه المسدس الذي كان يضعه في جيبه ، واحتفظ في خاصرته بغدارة

أوتوماتيكية طويلة في غمدها المغلق .

- « لماذا لم تنضم الى الاتحاد الفوضوي الأيبيري ؟ » .

- « لا أريد » .

وراقبه مانويل ، كانت ملامحه متورمة أكثر من أن تكون ناضجة نضج الرجولة : أنفه المستدير ، وثغره ذو الشفتين الغليظتين ، وشعره الذي يكاد يكون متموجاً ، ولكنه غزير على جبهة ضيقة . . وتصور مانويل أن أمه كانت تراه في طفولته « طفلاً غندوراً » .

قال مانويل : « أنت تلهث كثيراً » .

- « ثمة أشياء كثيرة تجعل المرء يلهث » .

- « ثمة بالأحرى أشياء كثيرة على المرء أن يفعلها ، ولو أنك كنت في مكان اكسيمينيس ، أو كنت أنا - ما سارت الأمور أفضل من ذلك ، بل ربما كانت أسوأ ، ومن ثم ينبغي أن نساعد فيها يصنع . . وسنرى النتيجة فيما بعد » .

- « قد تصبح الأمور أسوأ ، ولكن في هذه الحالة لن يكون الشخص الذي يأمر عدواً لطبقتي ، وهذا ما أفضله » .

- « أنا لا أهتم بطبائع الناس ، وإنما أهتم بما يفعلون ، ولينين لم يكن من العمال على كل حال ، واليك ما أريد أن أقوله لك : أنت تملك قيمة ما ، وهذه القيمة يجب أن تستخدم ، فلتستخدم بأسرع ما يمكن ، وفي شيء آخر غير اللهاث ، أمعن في الفكر ، وأخبرني بعد ذلك : أي الأحزاب تناسبك ، سواء أكان الاتحاد الفوضوي الأيبيري أم الحزب الشيوعي أم الاتحاد القومي للعمال أيها تشاء ، وستجمع الأشخاص الذين يشملهم تنظيمك ، وتكون بذلك مسؤولاً عنهم . . فنحن في حاجة الى ملازمين . . . هل جرحت ؟ » .

- « كلا » .

- « أما أنا فقد جرحت في تلك القصة الحمقاء . . . قصة الديناميت .
خذ هذا ، فإنه يؤلمني في الكليتين » . وخلع حزامه ، ثم استطرد قائلاً :
« لكل لذته . . . ولذتي هي : أن أبدو معتوهاً يسك بغصن شجرة ! » .

وكسر غصناً وجده ملقى على حافة الطريق ، وعاد الى جانب البيا .
وكان في هذه اللحظة أعزل ، وربما كان الفاشيون على بعد كيلومتر واحد . .
ومهما يكن من أمر فألبا الى جانبه . . « إن رأيي هو أنك لا تنتمي الى هذا
المكان . . . وربما لن تنتمي أبداً . . . ولكن يجب أن تعطي كل شخص
فرصته » .

- « حتى ولو كان مفصلاً من الحزب ؟ » .

وتوقف مانويل مذهولاً ، فلم يكن قد فكر في هذه المسألة .

- « اذا أصدر الحزب تعليمات رسمية عن هذا الموضوع فسأنفذها أيضاً
كانت ، ولكن ما دامت لا توجد مثل هذه التعليمات فلنني أقول : « حتى من
فصلوا من الحزب . فإن كل رجل ذي كفاية يجب أن يساعد الجمهورية في
هذه اللحظة على الانتصار » .

- « وأنت لن تبقى في الحزب ؟ » .

- « لا »

ونظر اليه ما نويل ، وابتسم ، وكان مانويل عندما يضحك يبدو
كالأطفال ، ولكنه يبتسم ابتسامة تخفض ركني فمه ، وتضفي طابعاً مريئاً على
ذقنه !

وسأل دون أن يتوقف عن السير ، وكأنه يريد أن يثبت مقدماً أن السؤال
الذي سيضعه لا أهمية له : « هل تعرف ما يقولون عنك ؟ »

- « ربما ... »

وكان آلبا ما زال قابضاً بيده على حزام مانويل ، وكان جراب المسدس يرتطم بسمانتي ساقيه ، والوحشة تامة بين الصخور ، وتساءل بضحكة استهزاء خفيفة : « وما رأيك أنت فيما يقولونه عني ؟ » .

- « لا يستطيع المرء القيادة إن لم يثق في الناس » .

وكان مانويل يضرب الأحجار الصغيرة في اثناء سيره بالغصن الذي يمسك به .

- « قد يستطيع الفاشيون ذلك . أما نحن فلا بد من الثقة ، وإلا لم يعد ثمة مبرر للعناء ، ومن الممكن أن يصبح الرجل الايجابي المتشائم فاشياً ، إلا اذا كان ثمة ولاء يدين به لأحد » .

- « يقول الشيوعيون عن اعدائهم دائماً : انهم فاشيون » .

- « أنا شيوعي » .

- « ثم ماذا ؟ » .

- « ولا أعطي الفاشيين مسدساتي » .

- « هل أنت واثق ؟ » .

ونظر آلبا الى مانويل وقد ارتسمت الحيرة على وجهه :

- « أجل » .

وتلاشى اقتناع مانويل بأنه لا يجازف بشيء حين أضحي ارتباك محدثه واضحاً ، وقال مانويل لنفسه في شيء من التهكم : إن القاتل الذي يتحدث إلى من ينوي قتله يشعر - دون شك - بالارتباك ، وأحسن أن موته قد يكون إلى جانبه في هذه اللحظة متخذاً هيئة ذلك الفتى العنيد ذي الوجه الطفولي السمين .

قال آلبا : « إنني أرتاب في أولئك الذين يسعون الى القيادة » .

- « أجل ، ولكنهم ليسوا أفضل من أولئك الذين لا يسعون اليها » .

وعاد الى القرية ، ومع أن عضلات مانويل كانت متوترة فإنه شعر بثقة صماء بين هذا الرجل وبينه ، كما يشعر أحياناً بمشاعر الحب بينه وبين عشيقته ، وقال في نفسه : ربما كانت مضاجعة جاسوسة شبيهة الى حد ما بهذا الشعور .

- « إن كراهية السلطة (في ذاتها) يعد مرضاً ، أي ألبا . . . ذكريات راسبة من أيام الطفولة . . ولا بد من تجاوزها » .

- « ما الاختلاف الذي ترى أنه قائم بيننا وبين الفاشيين إذن ؟ » .

- « «أولا» أن ما يجلّم به ثلاثة أرباع الفاشيين الأسباب ليس هو السلطة ، وإنما هو المتعة .

«ثانياً» إن الفاشيين يؤمنون دائماً في أعماق نفوسهم بالجنس الذي ينتمي اليه الزعيم ، وليس الألمان فاشيين لأنهم يؤمنون بالتفرقة العنصرية ، فإن كان فاشي يحكم بالتفويض الإلهي ، ولهذا السبب فإن مسألة الثقة لا توضع بالنسبة له ، كما توضع بالنسبة لنا » .

وضغط ألبا الحزام حول خصره ، وتساءل دون أن ينظر الى مانويل :

- « أخبرني إذن . . . ماذا تفعل حين ترغم على تغيير رأيك في الأشخاص ؟ » .

- « إن أسبانيا الآن بلد لا يفتقر المرء فيه الى مناسبات للموت » .

ووضع ألبا يده على القراب ، وفتحه ، ثم جعل يسحب المسدس في ببطء دون أن يحاول إخفاء حركته ، لن تنقضي ثلاث دقائق حتى يصبحها على مرأى من القرية مرة أخرى ، وحدث مانويل نفسه قائلاً : « لقد وضعت

نفسى فى موقف أحمق . . . ولكن - فى الوقت نفسه اذا مت على هذا النحو
فلا بأس « وأعاد ألبا السلاح الى مكانه .

- « أنت على حق . . إنها بلد لا يعدم فيها المرء مناسبات للموت » .

وتساءل مانويل : أكان ألبا قد سحب المسدس ليقفل نفسه ؟ من يدري ربما كانت
المسألة كلها مهزلة !

وأستأنف كلامه : « تدبر فى الأمر ، وأمامك ثلاثة أيام انضم بعدها الى
التنظيم الذى يعجبك ، وإلا فاعمل دون تأييد من الحزب ، وترغم رجالاً لا
حزب لهم . . . سيتجد فى ذلك متعة ، ولكن هذا شأنك » .

- « لأن . . . » .

- « لأن من الواجب أن يعرف المرء معتقداته إذا أراد أن يقود أناساً
يختلفون فيما بينهم تمام الاختلاف ، ولست أعرف الكثير . . . ولكننى أحاول
أن أتعلم . . . ومهما يكن من أمر فهذه مسألة تخصك ، أما مسألتى أنا فهي
أنك قد أخذت على عاتقك هنا نوعاً من السلطة الأخلاقية ، وعليك أن
تتحمل مسؤولية عملية ملموسة ، وبالطبع سوف أراقب ذلك » .

ولو أن « ألبا » أجاب بالنفى لاستبعده مانويل فى الحال ، فهل يدل سكوته
على الرضا ؟ ومع ذلك فإنه يبدو معادياً .

وفى القرية استعاد مانويل حزامه ، وطوق به خصره ، ووضع يده على
ذراع ألبا ، وهو ينظر فى وجهه :

- « هل فهمت ؟ » .

فقال الآخر بوجه متجهم : « ربما » ثم انصرف .

كانت الشمس على وشك المغيب ، وكانت القرى الثلاث التى تم
الاستيلاء عليها قد حصنت على قدر الامكان ، وأرسل الى طليطلة رجال
الميليشيا الذين هاجموا فى العراء ، وبعد أن أصدر اكسيمينيس تعليماته الى

الضباط سار مع مانويل وقد ألصق صليباً من الشمع الانكليزي على الجانب الأيسر من رأسه الحليق - قاصداً سان ايزودورو ، هناك حيث يتم تنظيم اقامة الطابور ، وكان الطريق بلون البلاط تكسوه الحصباء ، وعلى امتداد الأفق لم تكن العين تقع إلا على صخور ، وكانت الشجيرات الشوكية المتناثرة هنا وهناك تبدو وكأنها تتمشى بأعضائها المدبية مع الصخور الناتئة الصفراء .

وظفق مانويل يفكر في بعض العبارات التي ألقاها اكسيمينيس لتوه على ضباط الطابور ، قال : « إن شجاعة الزعم الشخصية تكون أعظم - بوجه عام - كلما كان شعوره بزعامته من أسباب تنقضات ضميره ، وتذكروا أننا أشد احتياجاً الى النتائج منا الى الأمثلة » وسار مانويل متمهلاً حتى لا يتقدم على الكولونيل الذي كان يجر ساقه ، وكان هذا العرج سبباً من أسباب تسميته « بالبطة » .

وسأل مانويل : « لقد أبلى الجدد في القتال ليس كذلك ؟ » .

- « لا بأس » .

- « لقد فر الفاشيون دون قتال » .

- « سيعودون » .

وكان اكسيمينيس يجب أن يتحدث في اثناء سيره ، وأن يناجي نفسه بسبب سمعه الثقيل .

« والحالة في طلبيرة أقرب الى الكارثة . فهم يهاجمون بدبابات ايطالية » .

« الشجاعة شيء ينظم ، شيء يحيا ويموت ، ولا بد من صيانته كما تصان البنادق ، وليست الشجاعة الفردية سوى المادة الخام الصالحة لشجاعة الجماعات ، ولا يوجد شخص واحد من عشرين يكون جباناً حقيقياً . وهناك شخصان من كل عشرين شخصاً يتصفان بالشجاعة من الناحية العضوية ، ولتكوين فرقة ينبغي استبعاد الشخص الأول ، واستخدام الإثنين

الأخريين أفضل استخدام ممكن وتدريب السبعة عشرة الباقيين . . . »

وتذكر مانويل مغامرة أصبحت من التراث الشعبي للطابور ، ومؤداها أن اكسيمينيس - وقد اعتلى ظهر سيارته الفوردي - أخذ يردد لرجال كتيبته الذين ألتفوا حوله تعليماته ضد اغارة الطائرات ، وكانت فرقة طيران من فرق الأعداء وصلت حديثاً من ايطاليا ، قد غادرت طلييزة ذلك الصباح قاصدة طليطة ، قال لهم : « إن قبلة الطائرة تنفجر كما يخرج الماء من رأس رشاشة المياه » . وكان رجال الميليشيا في حالة يرثى لها من توتر الأعصاب ، اذ كانت سبع من قاذفات قنابل الأعدله تحرسها طائرات المطاردة على وشك تكوين تشكيل للتخليق فوق الميدان . . . فإذا كان الكولونيل مصاباً بالصمم فإن الكتيبة كانت تسمع صوت المحركات « وأذكركم بانه في هذه الحالة لا جدوى من الخوف أو الشجاعة على السواء . ولا شيء يمكن أن يلحق به أذى اذا كان على ارتفاع أقل من المتر . . . فاذا انبطح رجال الفرقة أرضاً فلن تستطيع قبلة الطائرة أن تصيب منهم إلا من كان في المكان الذي سقطت فيه فعلاً » .

وقال المستمعون لأنفسهم : « الأمر اذن على هذا النحو دائماً » وهم يخلسون النظر نحو السماء ، وصك أسماعهم أزيز المحركات العميق الذي أخذ يتضخم لحظة بعد أخرى ، وكان لا بد من سلطة كسلطة اكسيمينيس لكي تمنع رجال الميليشيا من الانبطاح على بطونهم . . . وكانوا يعلمون جميعاً كيف استولى على فندق كولون . . . وفجأة ارتفعت الأنوف في الهواء بشكل ظاهر ، إذ أشار مانويل الى السماء دون أن يتحرك وصاح اكسيمينيس : « انبطحوا جميعاً على الأرض ! » وكبها فعلوا لتوهم في التدريب اختفى المربع الذي أحاط بالسيارة في ثوانٍ

ولما رأت قاذفة القنابل الأولى أن التجمع قد اختفى من مجال التصويب القتت قنابلها على القرية كيفما اتفق ، على حين احتفظت الطائرات الأخرى بقنابلها لإلقائها على طليطة . . . وأسفرت الغارة عن جريح واحد . . . ومنذ

هذه اللحظة انتهى رعب الطيارات بالنسبة لرجال أكسيمينيس .

« شيء عجيب هذه الحرب ! فحتى بالنسبة لأشد القواد وحشية يمكن أن يتحكم الاقتصاد في القتل ، فهو يتفق أقصى ما يمكنه من الحديد والمفرقات لكي يوفر أقصى ما يمكنه من اللحم الحي .. أما نحن فلا نملك كثيراً من الحديد »

وكان مانويل يعلم أن كل ما قرأه من لوائح المدفعية الأسبانية (وهي لوائح لا سبيل إلى فهمها) ومن كلاوزفيتش إلى المجلات الفرنسية المتخصصة لم يتعلم من هذا كله عن الحرب إلا أجروميتها ، على حين كان أكسيمينيس يعرف لغتها الحية ، ومن وراء القرية ، أشعل رجال الميليشيا نيرانهم الأولى ، فنظر إليها أكسيمينيس في شيء من المرارة :

- « ومن العبث مناقشة مواطني ضعفهم ، ففي اللحظة التي يقدم فيها الناس على القتال تصبح كل أزمة تحيق بالجيش ترجع إلى أزمة في القيادة ... ولقد خدمت في مراكش .. فهل تعتقد أن المغاربة حين يصلون إلى الثكنات يصبحون راثعين ؟ من الأسر بالطبع تكوين جيش في ظل النظام العسكري ! ونحن مرغمون بالطبع على وضع نظام جمهوري لقواتنا جميعاً ، أو لا مناص لنا من أن نموت ، ولكن حتى في هذه المرحلة - وأرجو ألا تسيء فهمها يا بني - إن أزمنا العميقة أزمة في القيادة ، ومهمتنا أصعب من مهمة خصومنا .. هذا كل ما في الأمر .

- « وما يقوم أصدقاؤك الشيوعيون بتنظيمه الآن - من كان يصدق منذ عام أنني سأنتزه نزهة ودية مع أحد البلاشفة - إن ما يقوم أصدقاؤك بتنظيمه - أعني اللواء الخامس - عمل خطير حتى وإن لم يصل إلى مستوى جيش الرايخ ... ولكن بأي أسلحة سوف يزودونه حين يصبح جزءاً من الجيش ؟ » .

- « لقد وصلت السفينة المكسيكية إلى برشلونة » .

« عشرون ألفاً من البنادق . . . والطائرات تكاد تكون معدومة »
والمدافع أيضاً ، والمدافع الرشاشة . . . ليس منها في جناحنا اليميني كما رأيت يا
بني سوى واحد لكل كتيبتين ، وفي حالة الهجوم يتبادلون إعارتها . وليس
الصراع قائماً بين مغاربة فرانكو وجيشنا الذي لا وجود له ، وإنما هو بين فرانكو
وتنظيم الجيش الجديد ، وكل ما يستطيع أن يفعله رجال الميليشيا - وأسفاه -
هو أن يقتلوا لكسب الوقت . . . ولكن هذا الجيش أين تجد بنادقه ومدافعه
وطائراته ؟ نحن نرتجّل جيشاً بأسرع مما نرتجّل صناعة من الصناعات » .

قال مانويل في حزم : « سنحصل إن عاجلاً أو آجلاً على المعونة
السوفيتية » .

وأنغض اكسيمينيس رأسه ، وتقدم بضع خطوات صامتاً ، إن الأمر لم
يعد مقصوداً على التنزه مع أحد البلاشفة ، ولم يعد ينتظر شيئاً من فرنسا .
وكان ينتظر منها كل شيء . . . ولا مناص من أن ينقذ الروس ببلاده أو
تضيع . . .

وأخذ شعاع أخير من الضوء يتراقص حول شعره المصفف الذي تقاطع
عليه صليب كبير من الشمع الانكليزي على حين جعل مانويل يراقب النيران
المنبعثة من معسكرات الميليشيا ، وأضفى الماء الهابط طابعاً من الغرور
اللامتناهي على مجهود البشر الابدي الذي لفته ظلمة الأرض وعدم اكتشافها
رويداً رويداً .

قال الكولونيل أن روسيا بعيدة

وكانت الأماكن المحيطة بالطريق قد ضربتها الطائرات العاصية ضرباً
شديداً . . . وعلى اليمين واليسار انتشرت قتابل لم تنفجر بعد ، وتناول مانويل
احداها بين يديه ، ونزع عنها كبسولتها ، فوجد ورقة مكتوبة بالإختزال ، ناوها
لأكسيمينيس . وقرأها هذا باللغة البرتغالية : « أيها الرفاق ، هذه القنبلة لن

تنفجر .. هذا كل ما في الأمر - في الوقت الحاضر » .

ولم تكن هذه أول ورقة من نوعها يعثرون عليها .

قال مانويل : « حتى ولو ! » .

ولم يكن اكسيمينيس يجب إظهار عواطفه ، فسأل قائلاً :

- « ماذا فعلت مع ألبا ؟ » .

وقص عليه مانويل الحديث الذي دار بينهما .

وبدت الصخور كأنها تعود الى حياة تعسة كأن النور قد خلسها منها ، وفي كل مرة كانت أشكال الصخور تعود بالكولونيل الى طفولته ، فيتذكر شبابه . قال : « تقريباً جداً سوف يكون من واجبكم أنتم تكوين ضباط من الشبان .. وهؤلاء الضباط يريدون أن يكونوا محبوبين . هذا شيء طبيعي في الانسان ، ولا شيء أفضل من ذلك ، على شرط أن يفهموا هذه الحقيقة وهي أن الضابط يجب أن يكون محبوباً من حيث طبيعة قيادته ، أي من حيث أنه عادل كافٍ أفضل لا من حيث الصفات الخاصة بشخصه .. هل تفهمني يا بني - حين أقول لك أن الضابط لا ينبغي له أن « يغوي » رجاله أبداً ؟ » .

وكان مانويل يصغي اليه وهو يفكر في الزعيم الثوري ، وخطر له أن الانسان حين يجعل نفسه محبوباً دون اغواء يختار حين ذاك مصيراً جميلاً من مصائر الانسان .

واقتربوا من القرية ، وكانت بيوتها المستوية البيضاء ملتصقة بفجوة في الصخور كأنها دبابيس في ثغرة شجرة .

قال اكسيمينيس بلهجة يتقاسمها الجد والسخرية معاً : « من الخطر دائماً أن يريد المرء أن يكون محبوباً » وكان كعب ساقه الجريح يرن بانتظام على الأحجار ، وسارا لحظة صامتين ، وقد تلاشى من الجو كل ظنين للحشرات .

واستطرد الكولونيل قائلاً : « أنبل كثيراً للانسان أن يكون زعيماً من أن يكون فرداً .. فهذا أصعب » .

وكانوا قد وصلوا الى القرية .

وصاح اكسيمينيس مجيئاً عن بعض الهتافات : « أحييكم يا ابنائي ! » وكان رجال الميليشيا في شرقي القرية التي لم يحتلوها ، وإن كانت مهجورة تقريباً .. واجتازها الضابطان ، وفي مواجهة الكنيسة كان يقوم قصر ذو شرفات .

- « أخبرني يا سيدي للكولونيل : لماذا دعوتهم « ابنائي » ؟ » .

- « هل أدعوهم رفاقي ؟ لا أستطيع ، فانا أبلغ من العمر ستين عاماً ، وهذا لا يتناسب معهم ، بل يشعرني أنني أمثل في مهزلة .. ولهذا فيإني أدعوهم فتياناً ، أو ابنائي .. والأمر يسير على هذا النحو » .

ومرا أمام الكنيسة ، وكان الحريق قد التهمه ، ومن بابها المفتوح انبعثت رائحة القبو والرماد ، ودخل الكولونيل على حين أخذ مانويل يتأمل الواجهة .

كانت إحدى الكنائس المبنية على الطراز الباروكي الطراز الشعبي الأسباني في آن واحد ، وكان استخدام الحجارة في بنائها بدلاً من الرخام الايطالي يضيف عليها طابعاً يكاد يكون قوطياً ، وكانت النيران قد شبت من الداخل ، ولعقت السنة اللهب الهائلة السوداء المتشنجة كل نافذة لكي تنسحق فيها فيما بعد عند أقدام التماثيل العالية التي ترنحت في الفراغ .

ودخل مانويل .. كانت الكنيسة سوداء من الداخل ، ولم تكن الأرض الغائرة تحت ثقل الحديد المتساقط سوى أكوام من الحطام ، وكانت التماثيل الداخلية المصنوعة من الجبس ، والتي صقلتها النار حتى أضحت في لون

الطباشير تبدو كأنها بقع عالية باهتة متناثرة عند اقدام الأعمدة المتفحمة ، وكانت حركات القديسين الهاذية تعكس أضواء المساء الزرقاء الصادرة عن نهر تاجه ، إذ تلج عن طريق المدخل المحطم ، وامتلاً مانويل إعجاباً ، وأحس أنه فنان مرة أخرى ، فهذه التماثيل المسورة قد وجدت في الحريق الذي أخذ عظمة وحشية ، وكان رقصها قد ولد هنا بين السنة اللهب ، وكان هذا الأسلوب قد أصبح فجأة هو أسلوب الحريق نفسه .

وأختفى الكولونيل ، وأخذ مانويل يفتش عنه بنظراته في أعلى الكنيسة ، ولكنه كان راکعاً يصلي وسط الأطلال .

كان مانويل يعرف أن اكسيمينيس كاثوليكي متحمس ، ومع ذلك لم تخفف هذه المعرفة من دهشته ، وخرج ليبتظره ، وسارا لحظة صامتين .

- « هل تسمح لي بسؤال يا سيدي الكولونيل : كيف انضمت اليها ؟ » .

- « أنت تعلم أنني كنت في برشلونة ، وهناك تلقيت رسالة الجنرال جوديد التي يدعوني فيها الى الاشتراك في الثورة ، فمنحت نفسي مهلة خمس دقائق للتفكير . . . ولم أكن قد حلفت بيمين الولاء للحكومة ، غير أنني كنت أعلم بيني وبين نفسي - أنني وافقت على خدمتها ، ولهذا اتخذت قراراً بالطبع ، ولكنني لم أكن أريد - وأنا في هذه السن أن يراودني الاحساس فيما بعد بأنني قد تصرفت عضو الخاطرة . . . وبعد الدقائق الخمس ذهبت الى كومبانيز وقلت له : « سيدي الرئيس ، الفرقة الثالثة عشرة ، وقائدها رهن تصرفك » .

ورفع بصره الى الكنيسة مرة أخرى ، وقد بدت شيئاً خيالياً في هدوء المساء المقعم برائحة التبن ، وبواجهتها الممزقة وتماثيلها المحترقة المحطمة على مهاد من السماء .

قال بصوت هامس : « لماذا يخلط الناس دائماً بين الدعوة المقدسة لمن

يرانا في هذه اللحظة ، وبين أفعال قساوسته الأردباء ، أو أفعال الأردباء من قساوسته ؟ » .

- « ولكن من أين سمع الناس الحديث عنه يا سيدي الكولونيل إلا من قساوسته ؟ » .

وأشار اكسيمينيس بحركة بطيئة الى الهدوء الريفي ، ولم يقل شيئاً .

- « اليك مثلاً يا سيدي الكولونيل : لقد كنت عاشقاً ذات مرة في حياتي عشقاً مبرحاً ، ولكنني كمن أحب جداراً ، وكان من الممكن أن أكون عاشقاً لتلك المرأة ، بيد أن ذلك لم يكن ليغير من الأمر شيئاً ، فبيني وبينها جدار هو الكنيسة الأسبانية ، لقد أحببتها ، وحين افكر الآن في هذا الحب أحس وكأنني أحببت امرأة مجنونة ، مجنونة وديعة وطفلة . . انظر . . هذه هي بلادنا يا سيدي الكولونيل ، ماذا فعلت الكنيسة بها سوى أن جعلتها ضرباً من الطفولة المروعة ؟ وماذا صنعت بنسائنا وبشعبنا ؟ لقد علمتهم شيئين : الطاعة والتناسل » .

ووقف اكسيمينيس فوق ساقه الجريح وامسك بذراع مانويل وغمز بإحدى عينيه قائلاً :

- « لو أنك كنت يا بني - عاشقاً لتلك المرأة فلربما كفت عن أن تكون صماء مجنونة ، وفضلاً عن ذلك كلما كان الهدف عظيماً أفسح مكاناً كبيراً للنفاق والكذب . . . »

ودنا مانويل من جماعة من الفلاحين سود مستقيمين على حائط ما زال يبدو أبيض في الظلام ، وقال لهم متودداً : « أخبروني أيها الرفاق : إن مدرستكم ذات هيئة قبيحة ، فلماذا لم تحولوا الكنيسة الى مدرسة - كما فعلوا في مرسية - بدلاً من إحراقها ؟ »

ولم يجر الفلاحون جواباً ، وكان الليل قد أرخى سدوله تقريباً ، وبدأت

تمائيل الكنيسة في الاختفاء ، ورأى الضابطان الأطياف الثابتة الملقاة على الحائط ، بقمصانهم السود ، وقبعاتهم العريضة . . . ولكن دون أن يلمحا وجوههم .

- « يريد الكولونيل أن يعرف : لماذا أحرقوا الكنيسة ؟ ما الذي يأخذونه على القساوسة هنا ؟ ما جريرتهم الملموسة ؟ » .

- « لماذا يقف القساوسة ضدنا ؟ » .

- « كلا ، العكس هو الصحيح » .

وبقدر ما كان يستطيع التخمين في الظلمة ادرك أن الفلاحين مرتبكون قبل كل شيء : هل هذان الضابطان شخصان يمكن الوثوق فيهما ؟ ربما كان للأمر كله علاقة بحماية الآثار الفنية .

- « ما من أحد هنا حاول أن يعمل لمصلحة الشعب إلا كان هدفاً لاضطهاد القساوسة . . . فلماذا إذن ؟ » .

كان الفلاحون يأخذون على الكنيسة انها كانت تقف دائماً في صف السادة الأغنياء ، وأنها أيدت الاضطهاد الذي أعقب ثورة المقاطعات الأشتورية وأيدت نهب القطالونيين ، ولقنت الفقراء باستمرار الخضوع للظلم ، وها هي ذي تشن الآن حملة صليبية ضدهم ، وكان أحدهم يأخذ على القساوسة صوتهم « الذي لم يكن يشبه صوت البشر » ، وكثيرون كانوا يشكون من النفاق أو القسوة التي أنصف بها الرجال الذين كان القساوسة يعتمدون عليهم في القرى وفقاً لمراتبهم ، وكلهم قد وشوا الى الفاشيين في القرى التي استولى عليها هؤلاء بأساء أولئك الذين « يفكرون تفكيراً سيئاً » ، وهم لا يجهلون انهم بذلك يحكمون عليهم بالاعدام رمياً بالرصاص . . . كما كانوا يلومونهم جميعاً على ثرائهم .

وأستطرد أحد الفلاحين قائلاً : « انهم كل ذلك . . . اذا شئتم ! ولقد

كنتم تتسألون الآن : لماذا لم نجول الكنيسة الى مدرسة ؟ يا أطفالي هيه ..
وإنكم لأطفالي حقاً ... الجوليس دافئاً هنا دائماً في الشتاء .. وبدلاً من أن
أرى اولادي يعيشون في الداخل أفضل أن أراهم يتجمدون من البرد ..
أتفهموني ؟ »

ومد مانويل يده بسيجارة ، ثم أشعل ولاعته ، وكان الرجل الذي
تحدث لتوه فلاحاً في الأربعين من عمره ، حليق اللحية ، لا يتميز بشيء غير
عادي ، وانتزعت الشعلة القصيرة وجه جاره الأيمن لحظة من العتمة . وكان
وجهاً أشبه بشمرة الفاصولياء ، والأنف والفم لا حدود واضحة لهما بين جبين
وذقن بارزين الى الأمام ، وما هم أولاء حين سُئلوا عن الأسباب قد
أوضحوها ، بيد أن الرنين الصادق الصادر من القلب كان هو الرنين الشائع
في الصوت الأخير .

وأنبعث صوت فلاح آخر من الظلام قائلاً : « هؤلاء الأشخاص جميعاً
مخالون » . فسأله اكسيمينيس : « هل هم يسعون الى المال ؟ » .

- « إن كلا منهم يسعى الى مصلحته ... وهم يقولون : إن الأمر على
خلاف ذلك . أعلم هذا .. ولكنهم كاذبون .. وأنا لا أعني ذلك ... إنني
أعني أعماق الضمير ... وهذا شيء لا يمكن تفسيرهإنهم دجالون ...
هؤلاء الناس ! » .

- « القساوسة .. المسألة هي أن هناك المدن لا يستطيعون فهمهم ،
وينحت الكلاب من بعيد .. ترى أي الفلاحين هو الذي يتكلم ؟ قال
صوت آخر :

« لقد حكم الفاشيون عليه بالاعدام ... يا جوستافيو ... » .

وكان يبدو أن الجميع يريدون من هذا الشخص أن يبدي رأيه

وقال صوت آخر هو صوت جوستاف بلاشك : « لا تخططوا الأمور :

كولادو وأنا من الأشخاص الذين يؤمنون ، ولكننا ضد القساوسة .. الناس كلهم ضد القساوسة .. كل ما في الأمر هو أنني أؤمن ... » .

- « هذا هو ... انه لا يتورع عن تزويج عذراء بيليه الى القديس جاك دي كومبوستل ! » .

- « القديس جاك دي كومبوستل ؟ إنني أؤثر أن تصبح فاجرة قبل ذلك ... أجل ! » .

ثم أردف بصوت أكثر انخفاضاً . وبلهجة الفلاح الوثيدة حين يحاول أن يشرح شيئاً : « فتح الفاشيون باباً .. عن عمد .. وأخرجوا شخصاً كان يقول : ماذا ؟ وتكرر ذلك مرة أخرى ، أما إطلاق النار ، فلم نسمعه قط . وأما جرس القسيس فقد سمعناه : فعندما يثق جرس ذلك الوغد فهذا معناه أن أحدنا سوف يعدم ، وهم يحاولون بذلك إرغامنا على الاعتراف .. وقد نجح ابن العاهرة أحياناً .. وكان يقول : إنه جاء ليمنحنا الغفران ... عن ماذا ؟ لأننا دافعنا عن أنفسنا ضد الجنرالات ! وظللت أسمع صوت الجرس خلال خمسة عشر يوماً ، فكنت أقول في نفسي : هؤلاء هم لصوص الغفران ! ... »

إنني أعرف ما أقول ... ليست المسألة مسألة أموال ... افهموا ما أعنيه جيداً ، ماذا يقول لك القسيس حين يتلقى اعترافك ؟ انه يطلب منك أن تتقدم على ما فعلت .. فلو استطاع قسيس واحد أن يتنزح من أحدنا اعترافاً بأنه نادم على الدفاع عن نفسه أعتقد أن هذا يكفي ، لأن الندم يكون عن أفضل ما في الإنسان .. هذا ما اعتقده .

وتذكر اكسيمينيس بويج .

- « كولادو ، يريد أن يقول شيئاً ! » فقال جوستافو :

- « تقدم ! » .

فلم يقل الفلاح شيئاً .

- « ماذا .. ألم تحزم أمرك بعد ؟ » .

فقال ذلك الذي لم يتحدث بعد :

- « لا يستطيع المرء أن يتحدث على هذا النحو » .

- « قص علينا قصة الأمس .. وألق علينا الموعدة » .

- « انها ليست قصة .. » .

وفي هذه اللحظة وصل بعض رجال الميليشيا محدثين بينادقهم ضخمة في الظلام ، وكانت الظلمة الآن تامة .

قال أخيراً في لهجة ساخرة : « كل هذه الضجة لأنني رويت لهم أن الملك قد مر ذات مرة على اقليم الأوردس Hurdes ، في اثناء رحلة صيد .. وسكان تلك البلاد مصابون بتضخم الغدة الدرقية بلهاء مرضى ، يعيشون في فقر مدقع الى درجة أن الملك لم يصدق أنه من الممكن أن يكون الناس على مثل هذا الفقر . وكانوا أقزاماً ، فقال الملك : لا بد أن نصنع شيئاً من أجل هؤلاء الناس ؟ فقالوا له : أجل يا مولاي كما جرت بذلك العادة ؛ ولم يصنعوا شيئاً كما جرت بذلك العادة .. . ولما كانت تلك البلاد في غاية التعس فقد أرادوا أن يتفعلوا منها ، ومن ثمن جعلوها مكاناً للسجناء .. . كما هي العادة .. ثم ... »

من المتحدث ؟ إن نبرة هذا الصوت القوي الأداء لا يمكن أن تكون إلا لرجل ألف الكلام في المحافل ، على الرغم مما شاب حديثه من تعبيرات ريفية . وأنصت اليه اكسيمينيس دون أن يجد في ذلك مشقة على الرغم من أنه لم يكن يتحدث بصوت جهير ..

« ووجد المسيح عيسى أن الأمر لا يمكن أن يمضي على هذا النحو ، فقال في نفسه : سأذهب الى هناك ، وبحث الملاك عن أفضل امرأة في

المنطقة ، ولم يلبث أن ظهر لها ، فأجابته المرأة : أوه ! لا داعي للعناء ، فالطفل سينزل قبل مواعده ، ما دمت لا أجده ما أكله ، وهناك في الشارع الذي أعيش فيه فلاح ذاق اللحم منذ أربعة شهور ، فقد ذبح قطته .

كانت السخرية قد تخلت عن مكانها لمرارة يائسة ، وكان اكسيمينيس يعلم أن هناك في بعض الأقاليم منشدين يرتجلون القصص في أثناء السهر على الموت ، ولكنه لم يسمعهم قط .

« وذهب المسيح الى امرأة أخرى . . فلم يجد حول المهد سوى فئران؛ فإذا كانت قد اجتمعت للتدفئة فهي تدفئة ضعيفة ، أما إذا كان اجتماعها للصدقة فإنها صدقة حزينة . . وهكذا قال المسيح في نفسه : إن الأمور لن تكون على ما يرام أبداً في اسبانيا » .

وارتفعت من منتصف القرية ضوضاء سيارات النقل والفرامل ، تصحبها طلقات بنادق بعيدة ونباح الكلاب ، وحملت الريح من الكنيسة المحترقة رائحة الصخور والدخان . . . وكانت ضجة العربات من القوة بحيث لم يستطع الضابطان متابعة الكلام .

« . . . وأرغموا اصحاب الأراضي على تأجير اراضيهم للفلاحين وولول اصحاب الأبقار قائلين : إن اصحاب الفئران قد جردوهم من أملاكهم . . . واستدعوا الجنود الرومانيين .

« ثم ذهب السيد المسيح الى مدريد ، ولكي يسكته ملوك العالم أخذوا يذبحون أطفال مدريد . . فقال المسيح في نفسه : حقاً لا يوجد ما يمكن أن يفعله المرء من أجل البشر . . وانهم ليعثون على التقزز الى درجة اني لو نزفت دمأ ليلاً ونهاراً الى الأبد فلن أتمكن من تطهيرهم » .

ضجة سيارات النقل لا تنتهي أبداً وهناك في الادارة كانوا ينتظرون اكسيمينيس . وكان مانويل مأخوذاً وحانقاً في الوقت نفسه .

« ولم يحضر نسل الحكماء مولده ؛ لأنهم صاروا اما جائلين أو موظفين . .
ولأول مرة في تاريخ العالم ، ومن كل البلاد - شرع أولئك الذين كانوا
قريبين ، ومن كانوا بعيدين ، ومن كانت أوطانهم حارة ، أو متجمدة ، ومن كانوا
شجعاناً أو تعسین - شرع أولئك جميعاً في المسير يحملون بنادقهم » .

وكان في ذلك الصوت اقتناع يطغى عليه الشعور بالوحدة الى درجة أن
اكسيمينيس أحس - برغم الظلام - بأن ذلك الذي يتحدث قد أغمض
عينيه .

« وادركوا بأفتدتهم أن المسيح حي في مجتمع الفقراء والمساكين الذين
يعيشون بين ظهرانينا ، وهكذا اجتمع في صفوف طويلة ومن كل البلاد - أولئك
الذين يعرفون الفقر الى الدرجة التي يضحون فيها بأرواحهم لمحاربتة ،
وبعضهم كان يملك بندق ، وبعضهم يتخذ من يديه بندق اذا لم يكن
يملكها . . جاؤوا جميعاً ، ووقدوا الواحد الى جنب الآخر فوق أرض
أسبانيا . . .

« وكانوا يتكلمون بكل اللغات ، بل كان بينهم أيضاً تجار صينيون
يبيعون أربطة الأحذية » .

وزاد الصوت خفوتاً ، كان الرجل يتحدث من بين أسنانه منكمشاً على
نفسه في الظلام كمن أصيبوا في بطونهم ، وقد أحاطت به حلقة من
الرؤوس ، ومن بينها رأس اكسيمينيس بصليبه من المشمع الانكليزي .

« وحين قتل الناس أكثر مما ينبغي ، وحين شرع الصف الأخير من الفقراء
في المسير . . . »

وكان ينتزع الكلمات بصوت خفيض ، في شدة الساحر الهامسة .

« . . وارتفعت فوق رؤوسهم نجمة لم يرها أحد من قبل . . . »

ولم يجرؤ مانويل على اشعال ولاعته ، وكانت أبواق السيارات تعوي في

الليل ساخطة كأنما سدت دونها المنافذ .

قال صوت يكاد يكون همساً : « ما هكذا رويتها أمس ؟ » .

أعقبه جوستافو بصوت أكثر ارتفاعاً :

- « أنا لم أخلق لرواية مثل هذه القصص ، وما أن تشرع فيها حتى لا تدري ما أنت صانع .. ولا بد أن يعرف المرء ما يريد .. هذا كل ما في الأمر » .

قال صوت آخر متمهل مكدود : « لا داعي للعناء ؛ فإن سكان المدن لا يمكنهم أن يفهموا عن القساوسة شيئاً ... » .

- « انهم يعتقدون ان هذا هو الدين » .

- « ساكن المدينة لا يستطيع أن يفهم » .

وسأل اكسيمينيس : « ماذا كان عمله قبل الثورة ؟ » .

- « هو ؟ » .

وانقضت برهة قصيرة من الصمت .

وقال صوت ما : « ... لقد كان راهباً ... »

وجر مانويل الكولونيل صوب جحيم الضوضاء الصادرة عن أبواق السيارات .

وسأل اكسيمينيس حين عادوا المسير : « هل رأيت الشارة التي يعلقها جوستافو حين أشعلت السيجارة ؟ انها شارة الاتحاد الفوضوي الأيبيري على ما أظن ؟ » .

- « هي أو غيرها فالأمر سيان ... وأنا لست فوضوياً يا سيدي الكولونيل ، ولكنني تلقيت تربيتي على أيدي القساوسة ، مثل كل واحد منا ،

ومع ذلك ثمة شيء في (وخاصة من حيث أنني شيوعي ، فأنا ضد كل هدم) ثمة شيء في يفهم هذا الرجل .

- « أكثر من الرجل الآخر ؟ » .

- « أجل » .

وقال اكسيمينيس : « أنت تعرف برشلونة ، هناك بعض الكنائس التي بدلاً من أن تحمل لللائحة المعتادة المكتوب عليها عبارة « تحت اشراف الشعب » تحمل هذه العبارة : « من الأملاك الخاصة بانتقام الشعب » . . . ومع ذلك . . . إنني لا أتذكر كيف ترك الموق طويلاً في ميدان قطالونيا في اليوم الأول ؛ وبعد ساعتين من توقف النيران عادت الحمايم الى الميدان ، وحامت فوق الأرضة وفوق الموق . . . إن بغض البشر يلتهم نفسه . . . »

ثم أردف بصوت أبطأ ، وكأنه يلخص أعراماً من القلق :

- « يملك الله وقتاً كافياً للإنتظار . . . »

وأخذت أحذيتها الثقيلة ترن على أرض جافة صلبة ، وقد تخلفت ساق اكسيمينيس الجريح عن خطوة مانويل .

واستكمل الكولونيل كلامه قائلاً : « ولكن لماذا . . . لماذا ينبغي أن يكون انتظاره هو هذا كله ؟ » .

الفصل الثاني

كانت ثمة محاولة جديدة للتوسط على وشك أن تبذل ، وكان من المقرر أن يصل الى طليطلة قسيس في اثناء الليل ؛ ليدخل إلى « القصر » بالطبع - صباح اليوم التالي .

وكانت مصابيح الغاز المنتشرة في الميدان الصغير قد أطفئت والضوء الوحيد ينبعث من مصباح للعاصفة مغلق في مكان منخفض نوعاً ما أمام حانة « القطة » (الجاتو) El Gato . وأغرى « شاد » القط المرسوم على مدخل الحانة ، وكان يجلس الى منضدة قريبة من الباب ، منهمكاً في ألفاء ظلال مختلفة الصور من غليونه على جدار كاتدرائية طليطلة .

وكان « شاد » يستطيع أن يبرق الى صحيفته حتى الساعة الثانية صباحاً ، ولا بد أن يكون لوبيز قد عاد من مدريد قبل هذه الساعة فهو الذي سيصحب القسيس فيا له من موضوع صالح لمقالة بديعة ! ولم تكن الساعة قد بلغت العاشرة بعد ، وجعلت الوحدة التامة من ذلك الميدان بدرجاته وقصوره الصغيرة القابعة تحت أوراق الشجر الصفراء ، « ديكوراً » أضفت عليه طلقات الرصاص الأخيرة الصادرة عن « القصر » جواً خرافياً غامضاً ، وأخذ « شاد » يحلم - مسحوراً - بمحطات الإذاعة الكبيرة المنسية في الهند في القصور المطلية بلون العقيق ، والتي تغزوها أشجار الجوز وهي تنقل كل ضوضاء الحرب الى الطواويس والقروء ، وكانت رائحة الجثث في طليطلة شبيهة برائحة مستنقعات آسيا . « ترى : هل هناك أجهزة للراديو في

القممر؟ من الجميل أن تحمل الموجات جلبة القتال الغامضة الى هذه الى الكواكب الميتة ! . . . » وكانت الكاتدرائية المهجورة التي لم يلحقها ضرر والمملوءة - بلا ريب - في هذه الساعة برجال الميليشيا - ترضي عداؤه للكنيسة الكاثوليكية ، وغرامه بالفن في آن واحد ، وفي داخل الحانة ترامت الى سمعه أصوات تقول :

- « لقد اكتسحتهم طائراتنا اليوم ، ومدافع الفاشيين الرشاشة استقرت في مواضع جيدة في حلبات بطليوس ، ولكنها لم توضع في الوسط تحت البرج . »

- « ينبغي الاحتراس بالنسبة للشكنات ؛ فقد وضعوا فيها كثيراً من المعتقلين . »

وقال صوت آخر أكثر شباباً - يسري فيه التهكم وتشويه لكنه انكلوسكسونية واضحة :

- « بعد المعركة حدث هرج ومرج كثير في الميدان . . . وكنت أراقب ما يحدث إذ كنت على ارتفاع خمسمائة متر ، وكانت النسوة جميعاً شابات وفاتنات . وأخذت كل منهن تقول : من ذلك الشاب الاسكتلندي الجميل الذي يطل علينا من عل ؟ » .

وكان « شاد » يدون ملاحظاته حين وصل لوبيز أخيراً بهيته الملكية وذراعيه المرفوعتين في الهواء ، وعرفه المهتر ، ولم يلبث أن جلس في تؤدة رافعاً ذراعيه من جديد . ثم تركهما تسقطان ، فارتطمت يده بفخذه في السكون الذي ساد الميدان ، وتجاوبت اصدااء بضع طلقات نارية ، وانتظر شاد وقد ازاح قبعته الصغيرة إلى مؤخرة رأسه .

- « إنهم يطلبون قساوسة . . حسن ، ينبغي إعطاؤهم قساوسة ! ولكن يا إله السموات ! » .

- « هل تقصد انهم هم الذين يطلبون قساوسة ، أو انتم الذين تطلبون رهاثكم ؟ » .

واتخذ لوبيز هيئة شخص شاهد الكثير في يومه حقاً .

- « هذا كله سيان . أيتها السلحفاة ! لقد طلبوا قساوسة .. وهذه مسألة تخصهم ، ومن ناحية أخرى لا يريد أولئك الأوغاد أن يسمحوا بإجلاء النساء والأطفال ، سواء أكانوا نساءهم وأطفالهم ، أم نساءنا وأطفالنا . وهم يعلمون جيداً أن هذا خيراً لهم ، وخلاصة القول انهم ما داموا يريدون قساوسة فانا أعرف منهم اثنين ، وهكذا اتصلت تليفونياً بمديري ، وأمرتهم باعداد هذين القسيسين ، على أن أصل الى مديري حوالي الساعة الثالثة .

وكأنهم يعتقدون أن هناك في كل ركن قساوسة لم يلوذوا بالفرار ! ووصلت الى مديري ، ولكي أبدأ أقول : إنني لم أجد وسيلة للاتصال بجريكو .. وكان في الخارج مع عربات الأسعاف ، وأخيراً حصلت على عنوان القسيس الأول ، وهو رجل شهيم كان يزورنا في السجن حين كنا فيه سنة ١٩٣٤ ، ووصلت اليه مع أربعة من رجال الميليشيا (كنا نرتدي سراويل الميدان) ، وكان المنزل كاثوليكياً ، والبواب كاثوليكياً والسكان كاثوليكين ، والنوافذ كاثوليكية ، والجدران كاثوليكية ، وفي كل ركن من أركان السلم كانت هناك تمثال من الجبس للسيدة العذراء ، ولم تكد السيارة تقف حتى بدأ السكان يتصايحون من الطوابق جميعاً ! فقد اعتقد أولئك الرعايد أننا جئنا لقتلهم ! وشرحت الأمر للبواب ، ولكن دون جدوى ، كان يفكر طبعاً في المذابيح الشهيرة ، وما أن رأى القسيس السيارة حتى لاذ بالفرار عن طريق الحديقة .. هذه قصة القسيس « رقم واحد » .

واختفى ضوء القمر من الميدان ، وكان لوبيز قد ملاء بحضوره ، كما يفعل في كل مكان يحل فيه .

- « واليك قصة الآخر ... كنت أعرف أن له اتصالات بالادارة العامة

للميليشيا ، فوصلت الى هناك ، ووجدت الضباط جميعاً على وشك التهام طعامهم ، فناديت أحدهم ، وشرحت له المسألة فقال :

- « حسن ، سيكون هذا القسيس لديك في الساعة الرابعة . » وكان عليّ أن أفعل الكثير ، وأن أحث الناس جميعاً للحصول على الذخيرة ، وعدت في الساعة الرابعة .

« وقال لي الزميل : لقد كان القسيس موجوداً حين حضرت وكان يأكل معنا ، ولكنني أردت أن أحذره ، حتى يبدو الأمر وكأنني أجد مشقة في العثور عليه ؛ فهذا يخفف من غلوائه . كيف يخفف من غلوائه ؟ إنهم عصاة من الأوغاد ، ولا يريدون حتى أن يقوموا بواجبهم ! وأخيراً أخبروني أنه كاهن بالكاتدرائية ، وأنت تعرف مرتبته في النظام الكنسي ، ولو أنه كان كاهناً ريفياً ما دارت حوله كل هذه الحكايات ، وأخيراً جاء دور قساوسة الريف ، والواقع انني لا أعرف منهم أحداً : فهم لا يهتمون بالنحت ! « فليكن ، ولكن قل له : « إنني أريد أن أتحدث اليه ، فلو أن ثمة فرصة لابعاد أولئك الأطفال عن الحرب ينبغي أن نبعدهم عنها » . وكادت أموت ظمئاً ، وزجاجات من البيرة في الثلاجة . . فتسللت الى المطبخ ، وهناك وجدت رجلاً يرتدي قميصاً قذراً بلا ياقة ، وصديراً مفتوحاً ، بنظولنا مخططاً ، وهو يحاول أن يفتح صناديق البيرة . (وينبغي أن أذكر أن الجو لم يكن بارداً) . وكان هو صاحب العظمة القسيس الذي أبحث عنه . »

- « أشاباً كان أم عجوزاً؟ » .

- « لم يكن حليق الذقن ، وكان شعر لحيته أبيض ، مكور الجسم ، له سحنة قدرة عليها شيء من وسامة ، ويدان خليقتان بالرسم . وشرحت له المسألة (وأنت تعرف معنى ذلك !) فأجابني إجابة استغرقت عشر دقائق . ونحن نسمة هنا الشخص الذي يجيب في ربع ساعة على ما ينبغي أن يجاب عنه في نصف دقيقة بأنه مهرج ، وكان هذا القسيس أمهرجاً ، وقلت له شيئاً

لا أتذكره ، فأجابني قائلاً : « لقد تعرفت فيما تقوله على لغة الجنود » ولا بد أنهم قالوا له : إنني ضابط مسؤول وإن كنت ارتدي سروالاً عسكرياً ولكن دون شارة . وقال لي : « إن ضابطاً مثلك ! . . . » أجل قال لي ذلك أنا النحات المسكين ! وأخيراً أجبته : « سواء كنت ضابطاً أم لم أكن فإنهم لو طلبوا مني أن أقاتل في مكان ما لذهبت اليه ، وأنت رجل دين ، وثمة أناس يستنجدون بك ، وأنا أريد انقاذ الأطفال ، فهل ستأتي معي أو لا ؟ » فأستغرق في التفكير ثم قال في وقار : « هل تضمن لي حياتي ؟ » وكان الضيق قد بلغ مني أقصى مداه فأجبته قائلاً : « حين حضرت الى هنا - منذ لحظة كنت تتناول طعامك مع رجال الميليشيا ، فماذا تظن . . ؟ أتظن أنهم سوف يتعشون بك في طليطلة ؟ » وكنا جالسين نحن الإثنين الى مائدة واحدة ، فنهض ثم قال في نبل واضعاً يده على صدريته : « لو كنت تعتقد أنني استطيع انقاذ روح واحدة . . فسأذهب » أنت رجل شهيم ، والآن ما دمتا بسبيل انقاذ أرواح فلننقذها فوراً : السيارة تقف في الخارج » : « ألا تعتقد أنه من الأفضل أن أضع ياقة وألبس سترة ؟ أنا لا أهتم شخصياً بذلك ، ولكن ربما سر الآخرين أن تكون في ردائك الديني » . « لا أملك واحداً هنا » ، « ولم أكن أعرف هل كان صادقاً أو حذراً ؟ ، والأرجح أنه كان صادقاً ، ولم يلبث أن اختفى ، ونزلت ، فوجدته واقفاً بعد بضع دقائق امام السيارة ، وقد وضع ياقة ورباط رقبة أسود وسترة من الجلد . وهكذا بدأنا الرحلة ! » .

وهبت على الميدان ريح مشحونة برائحة الحريق ، وكان دخان القصر يصل حتى ذلك المكان ، وبدت المدينة فجأة بعد أن تخلصت من رائحة الجثث المتعفنة في صورة جديدة .

- « وكانت السيارة توقف طوال الرحلة للتفتيش عليها ، فقال لي القسيس بلهجة الشخص الذي فكر في الأمر ملياً : « من الجلي أن الخروج من مدريد أمر عسير » .

« وكان همه - طوال الطريق - أن يشرح لي كيف يمكن أن يكون الحمر على صواب كالبيض ، « بل ربما كانوا أكثر صواباً » ، كما أراد أن يعرف كيف ستكون المقابلة ، فكنت أردد له طوال ثلاثة أرباع الساعة : « ان المسألة بسيطة ، وشبيهة بمسألة الكابتن روجو ، سنخطرهم بوجودك ، ثم نصحبك الى مندوبيهم ، وسيعصبون عينيك ، ثم يصحبونك الى مكتب الكولونيل موسكاردو قائد القصر ، وهناك يرفعون العصا عن عينيك ! » « في مكتب الكولونيل موسكاردو ؟ » ، أجل وشرحت له - من جهتي - أن من واجبه أن يرفض منح الغفران لكل أولئك الأشخاص وكذلك التعميد ، وكل شيء ، « اذا رفض موسكاردو اطلاق سراح النساء والأطفال » .

وقال شاد : « وهل وعد بذلك ؟ » .

- « فلتذهب وعوده الى الجحيم ! فلو أنه يريد أن يفعل شيئاً فسيفعله أما وعوده فلن تغير من الأمر شيئاً ، وشرحت له ما وسعني الشرح . . . وأخيراً وصلنا الى طليطلة ، وعند المدفعية نزلت من السيارة ، فقد كنت أريد أن أتحدث الى الكابتن . وكان يصبح : « كوجون ! » وهو يقفز فوق سلم السيارة دون أن يترك لي فرصة للتفوه بكلمة : « أين القنابل ؟ لقد وعدونا بالقنابل . . . لن تكون لدينا ذخيرة مساء غد ! » فأتيت بحركات حذرة كحركات طاحونة الهواء لكي يغلق فمه ؛ فإن القليل الذي يعرفه قسيس هنا يعد دائماً شيئاً كثيراً . . . ولكنه لم يفتن الى اشاراتي ، وأخيراً انتهى الأمر بهذا القدم الى الفهم ، وقمت بواجب التعريف : « الرفيق - القسيس » . وأشار الكابتن وهو يضرب على فخذه الى برج « القصر » الذي بدأ يتداعى ، « أنظر الى منظر مكتب موسكاردو ! » قال ذلك وهو يشير الى ثغرة مثلثة الشكل : « ولكن يا عزيزي القومندان (كنا على هذه الدرجة من الألفة !) : هل تظن أنه من الممكن في مثل ذلك المكان المتهدم أن يتم اللقاء بين الكولونيل موسكاردو؟ وكيف يمكن أن أصل الى هناك ؟ » كان القسيس يقول ذلك وقد ارتسمت على سحنه تلك النظرة العنيدة التي ترتسم

على وجوه الصبيان حين يحرنون ، وهنا صباح الكابتن مؤكداً : « حاول أن تشق طريقك . . . وإن كنت أعرف أن في ذلك صعوبة أيما صعوبة ! » .

« وكان من الجلي أن الأمور تزداد تعقيداً ، ولكنني أفهمته أخيراً أننا نستطيع تدبير الأمر مع موسكارو ، وأرسلته مع ثلاثة من الحراس لحمايته . . . وهو بسبيله الآن الى التمتع باغفاءة قصيرة . » .

- « ولكنه : هل سيذهب في النهاية أو لا ؟ » .

- « سيذهب غداً في الساعة التاسعة ، وسوف تستمر الهدنة حتى الظهر . » .

- « هل تعلم شيئاً عن موضوع الأطفال ؟ » .

- « لا أعلم شيئاً ، وعلى المسؤولين أن يشرحوا الأمر للقسيس . . أو على من يعتقدون أنهم مسؤولون . . فلنأمل ألا يلقوا الرعب في نفسه ؛ فهناك بين الفوضويين شخص مغطى بالوشم ، وقد ينجح في اخافته . » .

- « فلنصعد لنرى ما يدور هناك » .

وصعدوا في صمت ميممين شطر ميدان « زوكو دوفر » ، معجبين في اثناء عبورهم « برعب بانشو فيلا » الذي بدت قبعته أجمل في اثناء الليل ، وكان الشارع يزداد ازدحاماً كلما صعدوا ، ومن الطوابق الأخيرة في المنازل كانت بعض البنادق ومدفع رشاش تطلق نيرانها من حين إلى آخر ، وكان « شاد » قد استمع في هذه الساعة منذ ثلاثة شهور مضت الى صوت حوافر حمار غير مرئي ، وبعض عازفي الغيتار الذين يعزفون النشيد العالمي عزفاً خفيفاً في اثناء رجوعهم ليلاً من حفلة مسائية ، ولاح القصر قائماً بين برجين تضيئه المصابيح الكشافة .

قال : « فلنذهب حتى نبلغ الميدان ، وسأكتب مقالتي في الدبابة » .

وكان الصحفيون قد اعتادوا الالتجاء الى دبابة غير مستعملة ، ليكتبوا

على ضوء شمعة .

ووصلوا أخيراً الى المتاريس ، وعلى اليسار كان بعض رجال الميليشيا يطلقون نيرانهم ، وعلى اليمين رقد آخرون على الحشايا يلعبون الورق ، على حين استقر فريق ثالث فوق مقاعد من الخيزران ، في الوقت الذي انبعثت اغنية أندلسية من مذياع في الوسط ، وفوقهم في الطابق الثاني كان مدفع رشاش يطلق نيرانه ، وأقرب شاد من ثغرة في الاستحكامات .

وكان منظر الميدان المهجور تماماً يضيئه مصباح قوي . . ذلك الميدان الذي كان ملوك قشتالة يصارعون فيه الثيران ممتطين صهوات جيادهم - كان منظره أشد بعداً عن الواقع من منظر الكاتدرائية ، فهو أشبه بميدان في كوكب ميت منه بأي مكان آخر في العالم بما فيه من خليط عجيب من رائحة الحريق ، ورطوبة الليل . وتحت أضواء منبعثة من استوديو انتشرت اجزاء من حطام كأنها أطلال معبد آسيوي ، وانتصب قوس للنصر ، وحوانيت خدشتها الرصاصات مغلقة ومهجورة ، وعلى جانب آخر مقاعد حديدية من إحدى الحانات متناثرة أو مكدسة أو فريدة وهناك عالياً فوق المنازل - كان يتوهج اعلان ضخم عن الفرموت على هيئة حرف Z ، وعلى الجانبين المظلمين اللذين يضيئهما نور واهن تناثرت حجرات المراقبين ، وفي الجانب المقابل كانت المصابيح الكشافات ترسل أضواءها المسرحية على الأزقة المتصاعدة جميعاً ، وفي نهاية تلك الأزقة وفي ضوء ساطع أيضاً كان القصر يطلق سحابات من الدخان ، وقد بدا مضيئاً للموت أكثر مما كان للسائحين ومسطحاً بصورة غريبة على صفحة السماء الليلية .

وبين حين وآخر كان أحد الفاشيين يطلق رصاصة ، وأخذ « شاد » يراقب رجال الميليشيا الذين يردون على طلقات العدو، والآخرين الذين يلعبون الورق ، وتساءل: « ترى من منهم الذين يعلمون أن زوجاتهم وأطفالهم في القصر ؟ » .

وكانت الأغطية الريفية المخططة كحشايا المتاريس والتي أخرجت في الليل تضفي على المدينة وحدة غريبة ملونة ، واندفع بغل الى الطريق العام فقال « شاد» في نفسه: « في منتصف الليل يحسن بهم أن يستبدلوا بالبغال الحمر الوحشية حتى ينسجم منظرها مع تلك الوحدة المخططة » . وكانت مصابيح السيارات المصفحة الواقفة أمام الدبابة العتيقة في الشارع المعتم الضيق ترسل بقعاً صغيرة من النور ، وعلى مقربة من الميدان كانت هناك واجهة شبه مضيئة لمحل من محال الأزياء الحديثة ، وقفت أمامها سيدة عجوز تضع قبعة من الريش دون أن تبدي حراكاً وقد بهرتها القبعات الحديثة الظاهرة في ضوء المصابيح الكشافة التي أنارت « القصر » المدخن .

ومن حين الى آخر كانت إحدى رصاصات الأعداء ترن على الجوانب المصفحة لأحدى السيارات التي تحمل مدفعا رشاشاً ، وصعد لوبيز صوب مركز القيادة على حين دخل « شاد » الى الدبابة ، حيث أفسح له ضارب المدفع الرشاش مكاناً . وما كاد يتناول مفكرته حتى أطلق المدفع والسيارات المصفحة ورجال الميليشيا نيرانهم في وقت واحد ، وأحدث هذا كله ضوضاء شديدة ، وأستولت على الشارع فيما وراء ذلك حالة من الهرج والمرج ، وقفز « شاد » من الدبابة . لعله هجوم مضاد قام به « القصر » ؟

وكان الفاشيون قد اطلقوا صاروخاً مضيئاً ، فأخذت المدينة كلها تطلق النار عليه .

الفصل الثالث

دخل القسيس الى القصر منذ نصف ساعة ووراء المتاريس كان الصحفيون والمسؤولون من كل نوع يجولون في تودة وبخطوات قصار انتظاراً لنزول طلّاع الأعداء الى الميدان لمراقبة الهدنة ، وكان «شاد» بأكامام قميصه ، ويقبعته المنزّلة الى الورااء - يسير بين موظف من الحزب الشيوعي هو «براداس» ، وصحافي روسي هو «جولوفكين» وصحافي ياباني ، وكلما تناهى الى سمعه وقع خطوات ، اختلس النظر من الفتحات التي تتخلل المتاريس .. غير أن الميدان لم يكن أهلاً إلا بمقاعد المقهى التي ترفع سيقانها في الهواء ... وعلى حسب الريح كانت تسود رائحة الموت تارة ، ورائحة الحريق تارة أخرى .

وبرز ضابط فاشي في ركن من الميدان عند زقاق من الأزقة المحيطة بالقصر ، ولكنه لم يلبث أن أنصرف ، فبدأ الميدان خالياً من جديد ... بيد أن خلوه هذا لم يكن اقفراراً كما كان كل ليلة تحت ضوء المصابيح الكاشفة .. وإنما كان في هذه المرة مهجوراً .. وكان النهار يعيده الى الحياة .. الحياة المتأهبة للرجوع ، المتربصة عند اركان الشوارع كالفاشيين ورجال الميليشيا .

وبدأت الهدنة ... ولكن لما كان هذا الميدان قد ظل طويلاً المكان الذي لا يستطيع أن يعبره محارب دون أن تستقبله مدافع الأعداء الرشاشة فقد بدا وكأنه يحمل الشر في طياته .

وأخيراً عقد ثلاثة من رجال الميليشيا عزمهم على مبارحة المتاريس . ويحكى أنه بعد الاستيلاء على بعض مناطق القصر وجدت حشايا تحت الدهاليز ورزم من أوراق اللعب شبيهة بتلك التي كان يستعملها رجال الميليشيا خلف المتاريس ؛ ومع أن أجزاء كثيرة من القصر قد تم الاستيلاء عليها - أصبح مكاناً غامضاً لأنه ضم العدو يوماً بين جدرانها - وكان رجال الميليشيا يعلمون أنهم لن يدخلوه في اثناء الهدنة ، ولكنهم كانوا يريدون الاقتراب منه ؛ ومع ذلك لم يتعدوا عن المتاريس التي كانوا يسرون بمحاذاتها جماعات جماعات .

« هؤلاء وأولئك أكثر تاهباً للانقضاض بعضهم على البعض الآخر » هذا ما قاله « شاد » في نفسه وهو يجتلس النظر من فتحة بين زكائب الرمل ، واضعاً جبينه على نسيج ساخن ، وقد انزلت قبعته الى الورا أكثر من أي وقت آخر ، وأردف قائلاً : « وانهم لأشبه بالقطط ! » .

وظهرت جماعة من الضباط الفاشيين في الجانب الآخر الذي اختفى منه الضابط الأول ، بيد أنهم ترددوا قليلاً حين شاهدوا الميدان الخالي ، ووقف رجال الميليشيا والفاشيون يحملق بعضهم في البعض الآخر دون حراك ، وفي هذه اللحظة اجتاز المتاريس عدد جديد من رجال الميليشيا ، وتناول «شاد» نظارته المكبرة .

وتوقع «شاد» أن يجد الحقد مرتسماً على وجوه الفاشيين التي كان يتبينها في عناء ، ولكنه لم يتبين على وجوههم غير شيء من الحرج زاد حدة الارتباك في طريقة السير ، وخاصة في حركة الذراعين التي كانت واضحة جداً عند هؤلاء الرجال الذين يرتدون ثياب الضباط الضيقة ، واقترب رجال الميليشيا .

وسأل الشخص الذي كان يجتلس النظر من الفتحة المجاورة :

- « ما رأيك ؟ » .

- « إن رجالنا يجردون حرجاً في الكلام . . . »

ولم يكن استهلال الحديث أمراً يسيراً بين أناس حاول بعضهم أن يقتل البعض الآخر طيلة شهرين ، ولم يكن ما يفصل بين هؤلاء الرجال ، وما جعل بعضهم يترصد وراء الأعمدة ، والبعض الآخر ، وراء المتاريس - هو ذلك الميدان المحرم عليهم الدنو منه بقدر ما كانت تفصل بينهم تلك الفكرة : وهي أنهم حين يقتربون بعضهم من البعض الآخر فإنهم سيتخاطبون !

نزل فاشيون آخرون من القصر ، وغادرت المتاريس طائفة أخرى من رجال الميليشيا .

وسأل جولوفكين : « إن أربعة أخماس الحامية من رجال الحرس المدني .
ليس كذلك ؟ » .

فقال شاد : « بلى » .

- « أنظر الى الثياب : إنهم لم يسمحوا بالخروج إلا للضباط » . ولم يعد هذا القول صادقاً ؛ فقد وصل عدد من جنود الحرس بقبعاتهم الجلدية ذات الطرفين المدبيين ، وحلهم الصفراء ، وأحذيتهم المصنوعة من المطاط الأبيض » .

قال شاد : « يبدو أن رجال الميليشيا قد أعدموا الأحذية جميعاً » .

بيد أن الحديث كان قد دار بين الطرفين في أسفل الميدان ، وإن كانت المسافة التي تفصل بينهما لا تقل عن عشرة أمتار .

وأشعل «شاد» غليونه بين زكيتين . وسار صوب الجماعتين ، يتبعه جولوفكين وبراداس .

وكان الطرفان قد شرعا في تبادل السباب .

ولما كانت عشرة أمتار تفصل بينهما كأنها مكان مقدس فقد كانت

حركاتهم غريبة كل الغرابة ؛ إذ أخذوا يلوحون بأذرعهم تأييداً لما يقولون دون أن يتقدم أحد منهم خطوة واحدة .

وكان الفاشيون يقولون في اللحظة التي وصل فيها «شاد» : .. « ذلك لأننا نحارب على الأقل في سبيل مثل أعلى أيها الأوغدا! ... »

- « ونحن ؟ لعلنا نقاتل من أجل خزائنا يا أولاد العاهرات ! والدليل على أن مثلنا الأعلى هو الأعظم أنه المثل الذي يؤمن به العالم أجمع ! » .

- « سحقاً للمثل الأعلى الذي يؤمن به العالم أجمع ! المهم في المثل الأعلى أن يكون هو الأفضل ... يا جهال ! » .

لقد كانوا يتراشقون بالحرصاء خلال الشهرين الأخيرين ، وهم لا يزالون متمسكين بعلاقاتهم في أثناء الحرب ما داموا لا يجدون غيرها ... ومع ذلك ...

- « هل تسمون اطلاق الغازات السامة على الأحباش مثلاً أعلى ، والقاء العمال في معسكرات الاعتقال مثلاً أعلى ، وإعطاء العامل الزراعي بيزيتا في اليوم .. مثلاً أعلى ، ومذابح بطليوس .. مثلاً أعلى ... أنتم يا أبناء السفاحين ؟ » .

- « وهل روسيا مثل أعلى ؟ » .

- « وماذا في ذلك ؟ »

- « لهذا السبب يبغضها رؤساؤكم ؟ ولو كنتم من ذوي الضمائر النزيهة قلقت لكم . إن كل ما هو مقرر في العالم يقف معكم ... وكل ما هو في حاجة الى العدل يقف إلى جانبنا .. حتى النساء : أروني نسوتكم اللواتي انضممن الى الميليشيا أنت حارس ، ولست أميراً ! فلماذا لا تقف نساؤكم معكم ؟ » .

- « من الأفضل أن يغلق النساء أفواههن ، أيها القواد ! ومن المضحك

حقاً أن يتحدث مشعلو النار في الكنائس عن المثل العليا ! » .

- « لو أن عدد الكنائس كان أقل ما كانت هناك حاجة لى احراقها » .

- « كنائس كثيرة حافلة بالذهب ، وقرى كثيرة لا تجد الخبز ! »

وكان « شاد » قد وصل الى جانب رجال الميليشيا ، فأزعجه أن يشعر بالاحساس الذي يذكره بسباب السائقين الفرنسيين والحوذية الايطاليين الذي لا طائل وراءه .

وسأل أحد رجال الميليشيا مشيراً الى جولوفكين : « من ذلك الرجل الواقف هناك ؟ » وكانوا قد رأوا شاد أمس بصحبة لوبيز ، فاعتبروه زميلاً . وأجاب « شاد » :

- « مراسل صحيفة سوفيتية » .

وكان لجولوفكين وجنتان بارزتان ، ووجه شبيه بوجوه الفلاحين الذين يشاهدهم المرء في النقوش القوطية ، وقد لاحظ « شاد » في أثناء عبوره موسكو لاجراء تحقيق صحافي أن الروس - وهم قرييون جداً من أصلهم الريفي - يشبهون في كثير من الأحيان وجوه الأوروبيين الغربيين في العصر الوسيط ، وحينئذ قال في نفسه : « إنني أشبه رجلاً هندياً ، وهذا الرجل يشبه الفلاح الروسي ، وهؤلاء الأسبان يشبهون الخيول ... ! » .

وظل رجال الميليشيا الثلاثة الذين كانوا أول من خرج من المتاريس - واقفين بمعزل دون أن يتقدموا صوب الميدان ...

واستمرت المقارنات بين المثل العليا .

وصاح ضابط من الفاشيين : « وهذا لا يمنع من أن القتال من أجل المثل الأعلى وأنتم رقبود في منازلكم شيء ، والقتال من أجله في الخنادق شيء آخر ! أنتم الذين تمشون كالخراف ونحن لا نجد حتى ما ندخنه » .

- « ما هذا ؟ ما هذا ؟ » .

واجتاز أحد رجال الميليشيا الأرض الحرام وقد شمر كم قميصه عن ساعد أزرق من الوشم ، وألقت الشمس العمودية تقريباً ظل قبعتة المكسيكية عند قدميه ، وكان يتقدم كأنه ينزلق على قاعدة سوداء ، واتجه صوب الفاشين ممسكاً في يده بعلبة من السجائر ، وكأنه يريد أن يبطش بهم . وكان «شاد» يعلم أن قواعد السلوك الأسبانية لا تسمح بتقديم علبة السجائر للآخرين ، فانظر ليرى ما سيفعله الفوضوي . . وتناول هذا الأخير السجائر واحدة واحدة ، وأخذ يوزعها دون أن يفارقه الغضب ، كان يقدمها الى الفاشين على أنها أدلة ، وكأنه يقول : « أنتم على صواب اذا لمتمونا على سجاثرنا ! فاذا كنتم لا تجدونها فهذا بسبب تعقيدات الحرب أيها الأوغاد . . ولكننا لا نعترض على السجائر ، يا جماعة من البقر ! » . واستمر في توزيعه متخذاً من النوافذ شهوداً عليه ، وحين خلت علبته من السجائر واصل رجال الميليشيا الذين كانوا قد انضموا اليه توزيع سجاثرهم .

وسأل براداس : « كيف تفسر هذا التوزيع الأحمق ؟ » .

وكان يشبه مازاران ، ولكن بعد أن جعل له لحية مدبية ليشبه لينين .

- « في جلسة من أعنف جلسات البرلمان البلجيكي رأيت كيف تحدث الأحزاب جميعاً اتحاداً أخوياً لرفض ضريبة على حمام الزاجل ؛ فقد كان ٨٠٪ من الأعضاء عشاقاً للحمام . . وهنا نوع من الرابطة التي تجمع بين المدخنين كتلك التي تجمع بين أفراد طائفة البنائين الأحرار » .

- « هذه أعمق من تلك . . . أنظر ! » .

وهنا صاح أحد الفاشين : « هذا لا يمنع من أنكم قد حلقتم لحاكم ! » والغريب في الأمر أن رجال الميليشيا لم يكونوا قد أزالوا لحاهم ، بيد أن واحداً منهم - كان فوضوياً أيضاً - شرع يعدو صوب شارع التجارة . وتعقبه الصحافيان بنظريهما ، وكان قد توقف للحديث مع أحد رجال الميليشيا الذين

ظلوا بالقرب من المتاريس ، وأطلق هذا الأخير مسدسه في اتجاه الفاشيين ، وأخذ يجره وكأنه يتحدث في غضب ، ولم يلبث الفوضوي أن عاد على أعقابهِ راكضاً .

وسأل شاد جولوفكين : « هل كان الأمر على هذا النحو عندكم ؟ » .

- « سنتحدث عن ذلك فيما بعد . . . هذا أمر لا تفسير له . . . »

وعاد رجل الميليشيا وهو يممسك بيده علبة من أمواس جيليت فتحها في أثناء ركضه ، وكان هناك على الأقل اثنا عشر ضابطاً فاشياً . وتوقف عن الجري ، وكان من الواضح أنه لا يعرف كيف يوزع الأمواس . وأق بحركة لكي يقذف بها ، كما يقذف المرء بقطع من الحلوى الى الأطفال ، ولكنه تردد قليلاً ثم أعطى العلبة أقرب الفاشيين اليه في حركة يشوبها العداء . وهرول الضباط الآخرون نحو ذلك الذي تلقاها ، ولكن واحداً منهم أصدر أمراً ، حين تعالت ضحكات رجل الميليشيا . وفي اللحظة التي ابتعدوا فيها وصل فاشي آخر من القصر ، ومن الناحية الأخرى من الميدان جاء رجل الميليشيا الذي أطلق مسدسه في أثناء عبور موزع الأمواس ، وأنضم الى الجماعة :

قال وهو ينظر الى الفاشيين واحداً بعد الآخر : « هذا كله تمر ، فيللا » .

وظل صوته معلقاً فانتظر الجميع أن يواصل كلامه :

- « . . . والرهائن ؟ إن أختي هناك . . . أختي أنا ! »

وفي هذه المرة كان صوته مشوباً بالبغض ، ولم تعد المسألة مسألة مقارنة بين المثل العليا .

وأجاب أحد الفاشيين : « ليس من حق ضباط اسباني أن يتدخل في قرارات رؤسائه » .

وكاد رجال الميليشيا لا يسمعون قوله إذ تحدث في الوقت نفسه آخر من وصل من الفاشيين فقال :

- « أريد أن أرى القائد . . . إنني موفد من الكولونيل موسكاردو » .

فقال أحد رجال الميليشيا : « اتبعني » .

وتبعه الضابط ، وتبعه أيضاً شاد وبراداس ، وقد تضاءلاً الى جانب جولوفكين العملاق ، ووسط الحشد الذي يتكاثف شيئاً فشيئاً ، فاتخذت مسيرته هيئة أناس يتزهون يوم الأحد لولا أن نظرات أولئك الصاعدين جميعاً كانت مسددة على القصر في اصرار .

وخرج أرنانديث من الحانوت يتبعه النجاشي ومرسير واثنان من الملازمين ، وذلك في اللحظة التي هم فيها الضابط الفاشي بالدخول ، وأدى هذا التحية ، ثم قدم مجموعة من الرسائل :

- « انها من الكولونيل موسكاردو . . . لزوجته » .

وأحس «شاد» فبجأة بأن كل ما رآه في طليطلة منذ أول أمس ومنذ أيام في مدريد - قد التقى في هذين الرجلين اللذين أخذتا يتبادلان النظرات في بغض نافذ وسط رائحة الحريق المنبثقة من القصر ، تلك الرائحة التي نشرت الريح دخانها على المدينة كأسمال من راية ممزقة ، وكانت السجائر الموزعة والأمواس هي التي أدت الى تلك الرسائل ، وكذلك أدت اليها الرهائن والمتاريس المضحكة والهجمات والانسحابات . وعندما تبددت رائحة الحريق لحظة أضحت رائحة الخيول الميتة كأنها رائحة الأرض نفسها ، وهز أرنانديث - كمعادته كتفه اليمنى ، وناول ضابطاً برتبة ملازم الرسائل مشيراً بحركة من ذقنه الطويلة ، الى الاتجاه الذي عليه أن يتخذه .

قال النجاشي بلهجة يمازجها الود : « يا للندم الكئيب ! » . . وهز أرنانديث كتفيه الاثنتين هذه المرة بالفتور نفسه ، وأشار الى الملازم بالانصراف .

وسأل براداس وهو يصحح وضع نظارته : « هل في طليطلة زوجة

موسكارو؟» .

فأجاب ارنانديث : « في مدريد » .

وسأل « شاد » في دهشة بالغة : « طليق ؟ » .

- « في إحدى العيادات » .

وهز النجاشي كتفيه بدوره ، ولكن في غضب .

وعاد ارنانديث صاعداً الى الحانوت الذي تحول الى مكتب للإدارة ، وهناك كانت تنبعث في الشارع الساكن منذ قيام الهدنة جلبة من آلات الكتابة وصلت حتى « شاد » ، وعبر الأزقة المتعامدة بدأت الكلاب تجازف بالخروج وقد أدهشها بلا شك توقف اطلاق النار ، واستولت ضجة الخطوات والأصوات من جديد على المدينة ، كما استولى عليها السلام بعد أن أضحت شيئاً مسموعاً منذ أن توقف القتال ، ولحق براداس بالكابتن ، وخطا الى جانبه بضع خطوات ممسكاً لحيته بيده .

- « ما معنى ارسال هذه الرسالة ؟ هل هو نوع من المجاملة ؟ » .

وسار الى جانب الضابط مقطب الحاجبين حائر النفس اكثر منه ساخراً على حين طفق الضابط ينظر الى أرض الشارع حيث كانت ظلال القبعات المكسيكية تلقي دوائر ضخمة .

وأجاب ارنانديث أخيراً ، مديراً ظهره : « على سبيل الكرم » .

وسأل براداس أن يعود حاجباه الى وضعهما الطبيعي : « أتعرف هذا الكابتن معرفة جيدة ؟ » .

فأجاب شاد : « هل تعني ارنانديث ؟ كلا » .

- « ماذا يدفعه الى أن يفعل ذلك ؟ » .

- « وماذا يدفعه إلى ألا يفعل ؟ » .

قال جولوفكين : « هذا ! » وأشار الى سيارة - يقال أنها مصفحة - كانت تمر ، وعلى سقفها جثة رجل من رجال الميليشيا يمكن أن يتكهن المرء من الطريقة التي ربطت بها أن صاحبها صديق لأولئك الذين يصحبونه في السيارة ، وشد الصحافي طرفي رباط عنقه وهذا يعبر - عنده - على الشك .
وسأل جولوفكين : « هل يحدث ذلك كثيراً ؟ » .

- « أجل ، على ما أظن . . . ولقد أمر قائد الميدان بحمل رسائل من هذا القبيل » .

- « هل هو ضابط من النظاميين ؟ » .

- « أجل . . وأرنا نديث أيضاً » .

وسأل براداس : « وما نوع تلك المرأة ؟ » .

- « لا داعي للسؤال ، يا رفيق السوء . لا أعرفها ، ولكنها ليست شابة » .

فقال جولوفكين : « إذن ماذا في الأمر ؟ هل هي نزعة اسبانيولية ؟ » .

- « أيرضيك هذا النوع من الكلمات ؟ انه يتناول غدائه في سانتا - كروز فاذهب الى هناك ، ولن تجد مشقة في أن يدعوك أحد : فهناك شيوعيون » .

وبين رجال الميليشيا من كل صنف - كان يجول « رعب بانشوفيللا » .
وفطن شاد الى أن طليطلة مدينة صغيرة سئوا في الحرب أو في السلم ، والى أنه سوف يلتقي فيها يوماً بعد يوم بنفس الأشخاص ذوي الشخصيات الأصلية ، كما التقى فيها في الماضي بنفس الأدلاء والمتقاعدين .

قال : « في الجانب الفاشي لا يشن هجوم فيما بين الثانية والرابعة

بسبب اغفاء القيلولة . . . فلا تسارع الى اتخاذ رأي عما يدور هنا » .

وكانت زكائب الرمل والحشايا المخططة التي تتألف منها المتاريس والتي تبدو متماسكة اذا نظر اليها المرء من جانب المدينة - تبدو مملوءة بالثقوب كأنها خشب أفسدته الديدان اذا نظر اليها المرء من جانب القصر ، وكان الدخان يغطي الظلال جميعاً ، وواصلت الحرائق حياتها اللامبالية ، ففي ذلك الهدوء العجيب الذي نشأ عن توقف القتال اشتعلت النار في منزل آخر بالقرب من « القصر » .

الفصل الرابع :

منضدتان تؤلفان زاوية قائمة ، وتحتلان ركناً من قاعة متحف سانتا-كروز . . وبضعة أشخاص استخفهم المرح يتحركون بين الظلال ، وتعلقت نقاط من الضوء تتسرب من الفجوات التي تتخلل قوالب الطوب بالبنادق المتقاطعة على الظهور ، وتألفت حبات العرق على الوجوه وسط تلك الرائحة الأسبانية المتميزة التي تنبعث من زيت الزيتون الخام ، ومن أكوام الفاكهة وأوراق الشجر . . وكان رعب « بانشو فيلا » يجلس على الأرض ، منهمكاً في اصلاح البنادق .

وكانت هيئة ارنانديث أبسط ما تكون : فقامته المحدودة لم تكن تسمح له باتخاذ اوضاع عسكرية ، على حين كان حراسه الجالسون على المائدة الأخرى يشعرون شعوراً قوياً بوضعهم كحراس ، ولم يكن أحد من الجرحى قد اعتنى بتغيير ضماداته ، وعلق براداس على ذلك بصوت خفيض قائلاً : « إنهم سعداء بدمائهم ! » وكان جولوفكين وبراداس قد جلسا في مواجهة ارنانديث الذي جعل يتحدث في تلك اللحظة الى ضابط آخر ، وكانت هناك بقعة من الضوء على جبين الكابتن ، وبقعة أخرى على ذقنه ، حتى ليظنه المرء رقيقاً من رفاق كورتيز ، فلم يبد عليه أنه من أمة أخرى غير أمة الصحافي الروسي ، بل بدا كأنه من عصر آخر ، وكانت بقع الضوء متناثرة على رجال الميليشيا جميعاً .

قال مانويل : « الرفيق براداس من اللجنة الفنية للحزب » . ورفع

ارنانديث رأسه مجيباً : « أعرف ذلك » .

واستطرد مانويل مواصلاً حديثه السابق : « وأخيراً . . أخبرنا بالضبط :
لماذا طلبت تلك الرسالة ؟ » .

- « لماذا قام رجال الميليشيا بتوزيع السجائر ؟ » .

وزجر براداس قائلاً : « هذا ما تهمني معرفته » ، وبدت عليه الحيرة وهو
يضع يده خلف أذنه ، وقد تعلقت بلحيته بقعة من الضوء .

أكان يجد عناء في الاستماع ، ولهذا استعان بيده ؟ ولكنه لم يضعها
وضعاً ثابتاً في مقابل أذنه ، بل أخذ يمسح بها خلفها كما تفعل القطة التي تقوم
بتنظيف نفسها ، وأجاب ارنانديث على مانويل بحركة من أصابعه الطويلة
تدل على عدم المبالاة - وكانت ضوضاء أجهزة الراديو الضائعة في أعماق أشعة
الشمس المتوهجة تتسرب من خلال فجوات الرصاص ، وتتدحرج حول
« بانشوفيللا » الذي نام الآن وسط البنادق ، وتحت قبعته العجيبة .

- « الرفيق السوفييتي يقول (كان براداس يترجم واضعاً يده على
رأسه) : لو أن زوجة موسكاردو كانت في بلادنا لألقي القبض عليها في
الحال . . . وأريد أن أفهم لماذا ترى أنت رأياً آخر ؟ » .

وكان جولوفكين يعرف الفرنسية ، ويفهم من الأسبانية نزرأ يسيراً .
وسأله النجاشي : « هل ذقت طعم السجن ؟ » .

فلم يجب ارنانديث .

- « كنت صغيراً جداً في عهد القيصرية » .

- « هل اشتركت في الحرب الأهلية ؟ » .

- « بوصفي فنياً . » .

- « ألدريك أطفال ؟ » .

- « كلا » .

- « أما أنا . . فكان عندي » .

ولم يستمر « شاد » في الموضوع .

وقال مرسييري في وقار : « السخاء من علامات الشرف في الثورات الكبرى » .

واردف براداس : « بيد أن أبناءنا في القصر » .

وحمل أحد رجال الميليشيا قطعة ضخمة من الجامبون (لحم الخنزير) محلاة بالطماطم . ومطهية بزيت الزيتون ، غير أن منظرها أفزع « شاد » ، وكذلك أحجم النجاشي عن الاشتراك في أكلها .

وسأل شاد - وكان يهتم بكل ما يمس شؤون المطبخ : « أتتفر من هذا اللون ، وأنت الرجل الأسباني ؟ » .

- « أنا لا أكل اللحم أبداً ، فأنا نباتي » .

وتناول شاد شوكته ، وكان عليها شعار الأسقفية ، وانهمك الجميع في الأكل ، وفي واجهات المتحف الحديثة صفت المعروضات المصنوعة من الزجاج والصلب والألومنيوم في نظام اللهم إلا بعض الأشياء الصغيرة التي حطمها الرصاص ، وأمام كل منها كان هناك ثقب واضح في الزجاج تحيط به شروخ كالأشعة .

قال النجاشي مخاطباً براداس : « أصغ إليّ جيداً : عندما يخرج الرجال من السجن فإن تسعة من عشرة منهم - لا تستقر نظراتهم ؛ فهم لا ينظرون كما ينظر الناس . وفي البروليتاريا أيضاً ثمة نظرات كثيرة لم تعد تعرف الاستقرار ؛ ولهذا ينبغي لكي نبدأ أن نغير هذا كله ، أتفهمني ؟ » .

وكان يوجه كلامه لجولوفكين كما يوجه لبراداس ، غير أنه لم يكن يود

قيام براداس بالترجمة .

قال « شاد » هامساً في شيء من الإرتياح : « يبدو لي جلياً أن هذا الرجل يملك عقلاً كبيراً » .

وأقرب منه أحد رجال الميليشيا ممسكاً بقبعة كقبعة الكاردينال :

- « لقد عثرنا على هذا الشيء ولما لم يكن نافعاً للجماعة فقد قررنا أن نعطيك إياه » .

قال شاد في رزاة : « شكراً . . . فأنا بوجه عام تحبني الأطهار والكلاب ذات الشعر الطويل والأطفال ولكنني وأسفاه لا تحبني القلط ! شكراً » .
ووضع القبعة على رأسه ، وربت على شرابات القبعة ، ثم استمر في تناول طعامه من لحم الخنزير .

- « هناك شرابات شبيهة بهذه عند جدتي في « أيوا - سيتي » في أسفل المقاعد . . . شكراً » .

وأشار النجاشي بسبابته القصيرة إلى لوحة لصلب المسيح مرسومة بأسلوب « بونيه » : لون باهت على خلفية سوداء داكنة ، ويبدو أنها ظلت معرضة لرصاص الأعداء طيلة الأيام الأخيرة ؛ فقد كادت الثقوب التي تجمعت بفعل الرصاص تنتزع الذراع اليمنى ؛ أما الذراع اليسرى التي كانت تحميها صخور الجدران فكانت محفورة في مواضع متناثرة هنا أو هناك ، ومن الكتف حتى أعلى الفخذ رسم وابل من رصاص المدافع الرشاشة خطأً منتظماً واضحاً كأنه ثقب أحدثتها آلة للحياكة .

- « وحتى لو هزمتنا هنا ، وفي مدريد - فقد عاش الرجال يوماً بقلوبهم ، أتفهمني ؟ على الرغم من البغض . انهم أحرار ، وهذا شيء لم يشعروا به قط . وأنا لا أعني الحرية السياسية وإنما أعني شيئاً آخر . . . أتفهمني ؟ »

فأجاب مرسيري : « تماماً .. أو كما تقول مدام مرسييري : القلب هو الشيء الجوهري » .

وقال شاد هادئاً تحت قبعته الحمراء : « أما في مدريد فالأمر أخطر من ذلك ... ولكنني أوافقكم .. الثورة هي اجازة الحياة .. وعنوان مقالتي اليوم هو : « اجازة » .

ومسح براداس رأسه براحته حتى بلغ منتصفه الذي يشبه الكمثرى ، وهو في غاية من الإنباه . ولم يكن قد سمع نهاية جملة شاد التي ضاعت في ضوضاء المقاعد ؛ اذ كانوا يفسحون مكاناً لجارسيا الذي وصل لتوه واضعاً غليونه في ركن فمه .

واستطرد النجاشي قائلاً : « ليس من اليسير أن يعيش الناس معاً ، ولكن لا وجود لقدر كبير من الشجاعة في العالم ، بالشجاعة يمكن أن نصنع شيئاً ! ولا داعي للجدال ؛ فإن الرجال الذين عقدوا عزمهم على الموت يبرزون من بين الناس ، ولكن لا داعي « للدبالكتيك » ، ولا داعي للبيروقراطيين مكان المندوبين ، ولا داعي لجيش للقضاء على جيش آخر ، ولا داعي للظلم للقضاء على الظلم ، ولا داعي للتواطؤ مع البورجوازيين ، بل علينا أن نحيا الحياة كما ينبغي أن نحياها ... منذ هذه اللحظة ، أو فلنذهب الى الجحيم .. فاذا فشلنا فيها ونعمت فلسنا نملك تذاكر للذهاب والاياب ! » .

واشتعلت عينا جارسيا اليقظتان الشبيهتان بعيني السنجاب ، وقال في مودة : « يا عزيزي النجاشي ، حين يريد المرء أن تكون الثورة في ذاتها طريقة للحياة فإنها تصبح وسيلة للموت في أغلب الأحيان ، وفي هذه الحالة يرضى الانسان - يا صديقي العزيز - بالاستشهاد كما يرضى بالانتصار » .

ورفع النجاشي يده اليسرى على طريقة المسيح حين كان يلقي تعاليمه :

- « الذي يخاف الموت لا يهدأ له ضمير » .

وقال مانويل رافعاً شوكتته في الهواء : « وفي أثناء ذلك ، يوجد الفاشيون في طلبيرة .. ولو استمرت الحال على هذا المنوال فستفقدون طليطلة » .
وقال براداس في لهجة الأستاذ : « ومجمل القول انكم مسيحيون ...
وفي أثناء ... » .

وحدث جارسيا نفسه : « هذه فرصة جميلة للصمت قد ضاعت » . قال النجاشي حانقاً : « فليسقط القساوسة .. ولكن ثمة شيئاً حسناً في الثيوصوفية » .

فقال شاد وهو يلعب بالكرات الصغيرة المتدلية من قبعته :

- « كلا ... ولكن استمر » .

- « لسنا قساوسة على الاطلاق ! أما انتم فقد أصبحتم قساوسة .. أنا لا أقول ان الشيوعية قد أصبحت ديناً ، ولكني أقول ان الشيوعيين بسبيلهم الى أن يصبحوا قساوسة ، وأن يكون الناس ثورين معناه في نظركم - أن يصيروا خبثاء . لم يكن الأمر على هذا النحو بالنسبة لباكونين أو كروبوتكين ، لم يكن على هذا النحو اطلاقاً . لقد التهمكم الحزب ، والتهمكم النظام ، والتهمكم التأمراً ، ومن لم يكن منكم فإنه لا أمانة عنده ولا واجبات ولا أي شيء .. لم يعد من المخلصين . أما نحن فقد قمنا منذ عام ١٩٣٤ بسبعة اضطرابات لا لغرض سوى التضامن ... ودون أي هدف مادي ! » .

وكان الغضب يدفع النجاشي الى الكلام بسرعة ، وهو يلوح بذراعيه ، ويعبث بيديه المنفعلتين حول شعره الثائر ، وفقد جولوفكين القدرة على الفهم ، غير أن بعض الكلمات التي يدركها هنا أو هناك أثارت قلقه ، وخاطبه جارسيا ببضع كلمات بالروسية .

قال براداس : « من الأفضل - في الواقع - أن يكون الناس غير أوفياء من أن يكونوا عاجزين » .

وسحب النجاشي مسدسه ، ثم وضعه على المنضدة .

وعلى هذا النحو نفسه وضع جارسيا غليونه .

وكانت الأطباق والقناني ذات الأعناق الرفيعة تعكس آلاف النقط من الضوء المتسرب من الفجوات التي تتخلل قوالب الطوب ، فتحيلها الى ديدان متألقة تتلوى . وكانت ثمار الفاكهة تلمع على الأغصان ، وكذلك تلمع مواشير المسدسات القصيرة الزرقاء .

قال مانويل : « الجبهة في حاجة الى جميع الأسلحة » .

وقال براداس : « عندما كان من الواجب أن نكون جنوداً . . . كنا جنوداً . ثم اقتضى الأمر أن نكون منظمين فأصبحنا منظمين ، وكان لا بد أن نكون اداريين ومهندسين . الخ ، فأصبحنا هذا كله . . . واذا كان من الضروري في نهاية الأمر أن نكون قساوسة فنسكون قساوسة . . . ولكننا انشأنا دولة ثورية ، أما هنا فنحن ننشئ جيشاً . . . هذا هو الواقع . . . بكل فضائلنا وذرائلنا . . . والجيش هو الذي سينقذ الجمهورية والعمال (البروليتاريا) » .

وهنا قال شاد بلهجة عذبة وهو يمسك بكلتا يديه الكرات المتدلية من

قبعته :

- « أما أنا . . . فلا أعبا بشيء . إن ما تفعلونه جميعاً - أبسط وأفضل مما تقولونه ، وإنكم لتملكون جميعاً عقولاً كبيرة . . . والواقع يا جولوفاكين أن كل فرد في وطنك بدأ يعتقد أن له عقلاً كبيراً . . . وهذا ما يمنعني من أن أكون شيوعياً . وربما وجدت أن النجاشي خبيث الى حد ما . . . ولكنه يعجبني » .

وتراخي التوتر الذي ساد الجو .

ونظر ارنانديث الى ساعته مرة أخرى ، ثم ابتسم ، وكانت أسنانه طويلة ، مثل يديه ووجهه .

واستأنف براداس حديثه واضعاً لحيته في يده : « إن ما يحدث في كل ثورة شيء واحد لا يختلف أمره : ففي عام ١٩١٩ طلب شتاينبرج الاشتراكي الثوري وقوميسير وزارة العدل اغلاق قلعة بطرس وبولس اغلاقاً نهائياً ، واستطاع لينين أن يحصل من الأغلبية على موافقة بوضع المعتقلين البيض في تلك القلعة ، وكان لدينا في المؤخرة من هذا الطراز ما يكفي من الأعداء . وقصارى القول ان النبل ترف لا يستطيع المجتمع أن يدفع ثمنه إلا فيما بعد ! » .

قال مرسيري بلهجة قاطعة : « وكلما دفعته مبكراً كان ذلك أفضل » .

واستطرد النجاشي قائلاً : « غداً سيخلق الناس أذقانهم مجاناً . . . ولا داعي للحكايات . . لقد خلقت الأحزاب من أجل الناس ، ولم يخلق الناس من أجل الأحزاب . . اننا لا نريد أن نصنع دولة أو كنيسة أو جيشاً . . بل نريد أن نصنع رجالاً » .

قال أرنانديث وقد عقد أصابعه الطويلة أمام ذقنه : « فليبدأوا بأن يسلكوا سلوكاً نبيلاً حين تتاح لهم الفرصة . . وهناك فعلاً عدد كافٍ من الأوغاد والسفاحين الذين يعلنون أنهم معنا . . . » .

قال مرسيري واضعاً يده على المنضدة ، وقلبه على راحته : « اسمحوا لي أيها الرفاق . . علينا أن نختار أحد أمرين : إذا انتصرنا فإن التاريخ سيدين أعداءنا بما صنعوه مع الرهائن ، وسيمجدنا لأننا منحنا مدام موسكار دو الحزبية . وأياً كان الأمر فإنك تضرب - أي أرنانديث - مثلاً يتسم بالنبل والعظمة ، باسم حركة « السلام والعدالة » التي كان لي شرف الانتفاء إليها . . . أرفع لك . . أخيراً . . . قبعتي ! » .

وكانت شخصية مرسيري تثير حيرة جارسيا منذ أن التقيا للمرة الأولى يوم معركة فاذاقات اللهب ، وكان جارسيا يسائل نفسه : ألا تفصل المهابة عن المثالية ؟ وكان يشعر في الوقت نفسه بأن شخصية مرسيري تنطوي على

شيء أصيل ، يدخل في تكوينه عداؤه للفاشية .

واستطرد النجاشي قائلاً : « ولا تظاهروا بأنكم تنظرون الى الفوضويين بوصفهم عصبة من المجانين ؛ فلقد قامت الحركة النفاية خلال الأعوام الأخيرة بعمل جاد . . . دون أن تلوث بأحد ، ولسنا سبعة ألفاً مثلكم ، ولكن اذا كانت قيمة الفكرة تقاس بعدد انصارها فإن عدد النباتيين في العالم أكبر من عدد الشيوعيين بما في ذلك من الروس جميعاً . الاضراب العام موجود : نعم أو لا ؟ لقد هاجتموه سنوات طويلة ، أعيدوا قراءة انجلز ، فإن هذا يفيدكم . . . الاضراب العام : هذا ما يدعو اليه باكونين . لقد شاهدت مسرحية شيوعية وفيها . . شخصيات فوضوية ، فماذا كانوا يشبهون ؟ كانوا يشبهون الشيوعيين كما يراهم البورجوازيون » .

وكان يبدو أن تمثيل القديسين تشجعه - في الظلال - بحركاتها المتشبية .

قال مانويل : « فلترتب قليلاً في الأحكام العامة . . فلعل النجاشي قد مر بتجارب تعسة - في نهاية الأمر : والواقع أن الشيوعيين جميعاً ليسوا كاملين . . . بغض النظر عن رفيقنا الروسي الذي نسبت اسمه . . معذرة ، براداس ، واعتقد انني عضو الحزب الوحيد الذي يجلس الى هذه المائدة . . . هل تعتقد يا ارنانديث أنني قسيس ؟ وأنت . . يا نجاشي ؟ » .

- « كلا : فأنت رجل شهيم . كما أنك تحارب ، وأن معك لكثيراً من الشجعان ولكنهم لا يزيدون شيئاً على ذلك » .

- « ثمة شيء آخر . . هو انكم تتحدثون وكأنكم قد احتكرتم الأمانة وتعاملون كل من يخالفكم في الرأي على أنه بيروقراطي ، ومع ذلك تعلمون جيداً أن « ديمتروف » ليس بيروقراطياً ! هناك أخيراً ديمتروف ضد دوروتي . . مذهب الأخلاق ضد مذهب آخر ، لا مجرد عصابة ضد مذهب أخلاقي ! نحن زملاء . . فلنكن مخلصين إذن » .

فقال براداس للنجاشي : « وهذا الدوروتي الذي تتحدث عنه أليس هو القائل : أننا نزل عن كل شيء . . . إلا الانتصار » .
فزجر النجاشي من بين أسنانه البارزة ؛ « بلى . . . ولكن ، لو أن هذا الدوروتي قد عرفك لركلك بحذائه على كفلك ! »

واستأنف براداس حديثه قائلاً : « ولكنك سوف تكتشف سريعاً لسوء الحظ أن مذهبك الأخلاقي لا يفيد السياسة في شيء . . . وعلى هذا النحو . . . » .

فقال صوت آخر : « . . . أو أي مذهب أخلاقي آخر » . . .

وقال جارسيا : « إن المشكلة العويصة . . أو ربما كانت مأساة الثورة - هي أنها لا تستطيع أن تقوم دون مذهب أخلاقي » .
ورفع أرنانديث رأسه .

وتألفت نقطة من الضوء على مدينة مانويل الذي كان يمشي أشعة الشمس .

قال النجاشي : « هناك شيء حسن عند الراسماليين . . . شيء هام ، وإن كنت في دهشة من أنهم استطاعوا أن يكتشفوه . ولا بد أن نصنع شيئاً مثله لكل نقابة بعد أن تنتهي الحرب . . الشيء الوحيد الذي احترمه عندهم . . هو « الجندي » المجهول . . بيد أننا نستطيع أن نصنع ما هو أفضل من ذلك . . ففي جبهة أرغون رأيت كثيراً من القبور بلا أسماء . . . وإنما نقش على الحجر أو حفرت على الخشب الحروف الأولى من الأسماء ف . أ . ي . أوس . ن . ت . . وهذا قد كان شيئاً حسناً . وفي برشلونة حين كانت الطواير تتجه الى الجبهة مارة بمقبرة أسكاسو- كان الصمت ينجيم على الجميع . . هذا شيء حسن أفضل من الكلام المنمق » .

وجاء أحد رجال الميليشيا باحثاً عن أرنانديث .

وغمغم براداس في لحيته : « مسيحيون ... »

وسأل مانويل ، كان قد نهض فعلاً : « هل خرج القسيس ؟ » .

- « ليس بعد ، والقائد هو الذي يستدعيني » .

وخرج أرناديث يصحبه مرسييري ، والنجاشي الذي تناول قبعته ، ولم تكن القبعة المكسيكية التي كان يضعها أمس على رأسه ، وإنما كانت القبعة الحمراء والسوداء التي يضعها أعضاء الإتحاد الفوضوي ، وسادت لحظة صمت لا تقطعها سوى الجلبة المبعثرة التي تميز نهاية الوجدات العسكرية .

وسأل جولوفكين جارسيا . « لماذا حمل الرسالة ؟ » .

وكان يشعر أن جارسيا هو الوحيد الذي يحترمه الجميع ، حتى النجاشي ، بالإضافة إلى أنه يتحدث بالروسية .

- « فلنبداً بالترتيب :

- أولاً : لأنه يرفض ، وكان ضابطاً وفقاً لقرار أبوي ، وجمهورياً منذ سنوات لاعتناقه المذهب الليبرالي ، وهو على درجة لا بأس بها من الثقافة .

النقطة الثانية : تذكروا أنه من الضباط النظاميين (وليس هو الوحيد هنا) وأياً كان رأيه في أعدائه من الناحية السياسية . فان لهذا الرأي دوره الذي يقوم به .

والنقطة الثالثة : نحن في طليطلة وأنتم تعلمون أن هناك ميلاً الى الميلودراما في بداية كل ثورة ، وليست أسبانيا في هذه اللحظة سوى مستعمرة مكسيكية ... » .

- « وماذا عن الجانب الآخر ؟ » .

- « إن الخط التليفوني الموصل بين القيادة العامة والقصر لم يقطع ، وإن الطرفين يستخدمانه منذ بدأ الحصار ، وقد أصبح من المفهوم بعد المحادثات

الأخيرة أن يكون المتحدث باسمنا هو القومندان روجو . . . وقد نشأ روجو هنا . . . وأمام أحد الأبواب رفعوا العصاة التي وضعت على عينيه ، فإذا به أمام مكتب موسكاردو . هل رأيتم من الخارج الجدار القائم على اليسار ؟ لقد أصبح مجرد فجوة ، وأصبح المكتب مكشوفاً دون سقف ، وكان موسكاردو في كامل بزه الرسمية جالساً في مقعد وثير ، وروجو على المقعد الذي اعتاد الجلوس عليه . ومن ناحية أخرى كانت هناك على الحائط المتماusk وفوق رأس موسكاردو تماماً صورة « أزانا » Azana التي نسوا أن يرفعوها .

وسأل جولوفكين في صوت أكثر إنخفاضاً : « وماذا عن الشجاعة ؟ » .

- « من الأفضل أن تسأل شخصاً أتاحت له فرصة ملاحظة ذلك على نحو أقرب مني ، وربما كانت قوات حرس الهجوم هي أفضل قواتنا في هذه اللحظة . مانويل ؟ » .

وترجم سؤال جولوفكين الى الأسبانية . . .

وأمسك مانويل شفته السفلى بين أصابعه :

- « لا تستطيع أية شجاعة جماعية أن تقاوم الطائرات والمدافع الرشاشة . وبجمل القول أن رجال الميليشيا حتى يكونوا منظمين تنظيمياً حسناً ومسلين لا تنقصهم الشجاعة ، وإلا فإنهم يلوذون بالفرار ، ولو أن لدينا عدداً كافياً من رجال الميليشيا ومن الطوابير لأمكن انشاء جيش ، وما الشجاعة سوى مشكلة تتعلق بالتنظيم . . . ويبقى أن نعرف من أولئك الذين يريدون التنظيم . . . ؟ » وهنا سأل براداس جارسيا :

- « أنظن أن هذا الكابتن يمكن أن يحتفظ بشيء من التعاطف مع الطلبة بوصفه ضابطاً نظامياً ؟ » .

- « لقد تحدثنا عن ذلك معاً ، وهو يقول : إنه ليس في القصر خمسون

طالباً ، وهذا حق ، وإنما يدافع عن القصر رجال الحرس المدني والضباط ..
والأبطال الشبان المتحدرون من جنس أعلى ، والذين يدافعون عن مثلهم
ضد شعب نائرهم رجال البوليس الأسباني .. هذا كل ما في الأمر ... »
وسأل مانويل :

- « وباختصار ، كيف يمكن أن تفسر - أي جارسيا - ما حدث في
الميدان ؟ »

- « إنني أعتقد أن الشخص الذي قدم السجائر والمهرج الذي حمل
شفرات الخلاقة ، وأولئك الذين تبعوه وأرنا نديث حين أخذ الرسائل - أعتقد
أن هؤلاء جميعاً قد خضعوا دون ادراك لنفس الشعور ، وهو أن يشبوا لأولئك
الذين يطلبون عليهم من على أن ليس من حقهم أن يحقروهم ، وقد يبدو ما
أقوله مزاحاً ، ولكنه على أكبر جانب من الجدية . أن ما يفصل بين اليمين أو
اليسار الأسبانيين هو الاحساس أو الفرع من المذلة ، والجهة الشعبية هي
مجموع أولئك الذين يشعرون بالفرع وإن تكن لها صفات أخرى : خذوا مثلاً
حالة شخصين من البورجوازيين الفقراء في قرية من القرى قبل الثورة ،
أحدهما معنا والآخر ضدنا ، الأول يريد الأخوة والمودة والآخر يريد التعالي .
الحاجة الى الإخاء في مقابل الإحساس بالطبقية ثمة تضاد خطير بينهما في هذه
البلاد ... وربما في بلاد أخرى ... » .

وكان مانويل يرتاب - في هذا المجال - فيما ينتمي الى علم النفس ،
ولكنه تذكر ما كان يقوله الأب باركا : « ليست المساواة - يا بني - هي ما
يضاد المذلة ... وإنما الإخاء » .

وأجاب براداس : « حين أعلم من الواقع الملموس أن الجمهورية قد
رفعت المرتبات الى ثلاث أمثالها ، وأن الفلاحين من ثم استطاعوا أخيراً شراء
قمصان ، وحين أعلم أن الحكومة الفاشية قد عادت إلى المرتبات القديمة ،
وأن آلاف محال القمصان التي فتحت نتيجة لذلك قد أغلقت - حينئذ أدرك

ارتباط البورجوازية الصغيرة بالبروليتاريا . . . إن المذلة لا تستطيع تسليح مائتين من الرجال .»

وبدأ جارسيا يردد عبارات الحزب النمطية : مثل كلمة : « الواقع الملموس » التي تعد من الكلمات المحببة لدى الشيوعيين ، وكان يعرف فضلاً عن ذلك ترتيب براداس ، بل حتى مانويل في علم النفس ، بيد أنه اذا كان يعتقد أن وجهات النظر في الصراع ضد الفاشية ينبغي أن تنتظم حول الاقتصاد فقد كان يعتقد أيضاً أنه لا وجود لأي خلاف من الناحية الاقتصادية بين الفوضويين (أو بين أصدقائهم) وبين الجماهير الاشتراكية أو الجماعات الشيوعية .

- « أوافق على هذا الرأي يا صديقي العزيز ، ومع ذلك فإن أفضل جنودنا أو أكثرهم عدداً لا يأتون من أقاليم الأستريمورا هناك حيث يأكلون ثمار البلوط ، ولكن أرجوك ألا تجعلني أضع نظرية عن الثورة يكون المحرك الأول فيها هو الإذلال ! كل ما في الأمر هو أنني أحاول أن أفهم ما حدث هذا الصباح ، ولا شأن لي بالموقف العام في اسبانيا ، والواقع أن أرنانديث ليس تاجر قمصان - على حد قولك - ولو على سبيل الرمز . . .

والكابتن رجل أمين جداً يعتقد أن الثورة وسيلة لتحقيق أمانيه الأخلاقية . وهو يرى أن الدراما التي نعيشها عبارة عن « رؤيا » شخصية . وأخطر ما في أنصاف المسيحين هؤلاء هو ولعهم بالتضحية ، وهم على استعداد لاقتراف أشنع الأخطاء بشرط أن يدفعوا ثمنها من حياتهم .

وكان جارسيا يبدو في نظر بعض من مستمعيه حاد الذكاء ، وذلك لأنهم كانوا يظنون ما يقوله اكثر مما يفهمونه .

واستأنف حديثه قائلاً : « ومن الواضح أن النجاشي ليس ارنانديث ، بيد أن الفرق بين الليبرالي والمتحرر لا يزيد عن فرق في المصطلح والمزاج ؛ لقد قال النجاشي : أن رجاله على استعداد للموت دائماً ، وهذا القول ينطبق على

أفضلهم : ولاحظوا أنني أقول « أفضلهم » . انهم سكارى باخاء يعرفونه أنه لا يمكن أن يدوم على هذه الحال ، وهم على استعداد للموت بعد بضعة أيام من النشوة أو من الانتقام على حسب الأحوال . . . انها لحظات يجيا فيها الناس وفقاً لأحلامهم ، واذكروا ما قاله عن « حماسهم » . . . كل ما في الأمر أن هذا الموت يبرر - في نظرهم - كل شيء » .

قال براداس : « إنني لا أحب الأشخاص الذين يقفون للمصور شاهرين مسدساتهم » .

- « قد يكونون أحياناً - هم أنفسهم الذين انتزعوا أسلحة الأغنياء يوم ١٨ من يوليو بأن وضعوا قبضاتهم في جيوبهم لتبدو كأنها مسدسات ! » .
- « الفوضويون » . . .

قال مانويل : « الفوضويون كلمة تستخدم للتضليل على وجه الخصوص . . . النجاشي عضو في الاتحاد الفوضوي الأيبيري ، هذا شيء مفهوم . . . ولكن المهم - باختصار - ليس هو ما يفكر فيه زملاؤه ، وإنما ما يفكر فيه ملايين الناس . . . الملايين التي ليست من الفوضويين » .

قال براداس بصوت متحشرج : « تعني رأيهم عن الشيوعيين ؟ »

فقال جارسيا : « كلا يا صديقي العزيز ، وإنما أعني رأيهم عن الصراع ، عن الحياة . . . أعني أفكارهم المشتركة . . . فلنقل - مع الكابتن الفرنسي . . . تذكر أنني قد عرفت هذا الموقف في روسيا سنة ١٩١٧ وفي فرنسا منذ ستة شهور . . . والأحزاب شيء آخر . هذه حقيقة تجلت لنا منذ ١٨ يوليو ! » .

ورفع أنبوبة غليونه : « ليس هناك أصعب من اقناع الناس بالتفكير فيما يفعلونه » .

فقال براداس : « ومع ذلك ، فليس ثمة ما هو أهم من ذلك » .

وقال جولوفكين في لهجة حزينة : « لقد قضي على الناس : إما التغيير وإما الموت » .

وكان جارسيا قد أخذ الآن الى الصمت ، والى التفكير . . ففي رأيه أن عبارة « النقاية - الفوضوية » تضم لفظتين هما النقاية والفوضوية ، ولقد كانت التجربة النقاية التي قام بها الفوضويون هي العنصر الايجابي لديهم ، أما الايديولوجية فكانت عنصرهم السلبي ، وكانت حدود الفوضوية الأسبانية « إذا جردناها من فخامتها » هي نفسها حدود النزعة النقاية ، وأدكى الفوضويين لا ينسبون أنفسهم الى الثيوصوفية ، بل الى سوريل ، ومع ذلك فقد تطورت هذه المناقشة كلها وكان الفوضويين جنس خاص ، وكأنهم يتحددون بطبعهم قبل كل شيء ، وكأننا من الواجب على جارسيا أن يدرسهم لا من الناحية السياسية ، ولكن بوصفه مختصاً في علم السلالات .

وناجى نفسه قائلاً : « ما أغرب أن يدور هذا الحديث نفسه ساعة الغداء في اسبانيا كلها ! من الأهم كثيراً معرفة الأسس التي يمكن بها تنفيذ قرارات الحكومة عن طريق العمل المشترك الذي تقوم به المنظمات التي تسمى الاتحاد الفوضوي الأيبيري أوالحزب الشيوعي أو غيرهما من المنظمات . وما أغرب ولع الناس بمناقشة أشياء أخرى في الوقت الذي تتعلق فيه الحياة بمناقشة الأحوال المحيطة بما يقدمون عليه من أفعال ! يبدو أنه لا مفر من أن أبحث عما يمكن فعله مع كل واحد من هؤلاء الرجال على انفراد » .

واقترب أحد رجال الميليشيا الذي كان قد سأل مانويل لتوه ، وقال :

- « أيها الرفيق جارسيا ، انهم يطلبونك في الخيفاتورا (مركز القيادة أو الرئاسة) . تليفون من مدريد » . واتصل جارسيا بـمـدرـيد .

وسأله صوت : « ماذا تم في تلك الوساطة ؟ » .

- « لم يخرج القسيس بعد ، وسيتهي الوقت المتفق عليه بعد عشر دقائق » .

- « اتصل بنا مباشرة اذا علمت شيئاً جديداً . ما رأيك في الموقف ؟ » .

- « سيء » .

- « سيء جداً ؟ » .

- « سيء » .

الفصل الخامس

انتظر أرنانديث الذي كان يعلم أن جارسيا قد استدعي بالتليفون ..
انتظر عودته الى المتحف .

- « لقد قلت شيئاً استرعى انتباهي ، وهو أن الأخلاق لا تصنع السياسة
ومع ذلك فلا يمكن أن تقوم السياسة بلا أخلاق ، هل قدمت تلك
الرسالة ؟ » .

- « كلا » .

وكانت جلبه الأسلحة في اثناء فترة الراحة ولمعان أواني الطعام العسكرية
في شمس الظهيرة ، ورائحة الموق - كان هذا كله يستحضر في النفس
الاضطراب الذي حدث نهار أمس ، حتى بدا انتهاء الحرب أمراً مستحيلاً .
وكان السلام قد أصبح فعلاً ذكرى عتيقة من ذكريات الماضي الفخمة بعد أن
لم يتبق على انتهاء الهدنة سوى ربع ساعة ، وانزلت خطوات أرنانديث
الصامته الطويلة الى جانب خطوات جارسيا الراسخة .

- « لماذا ؟ » .

« أولاً » : لأنهم لم يردوا الرهائن ؛ « ثانياً » : في اللحظة التي تقبل
فيها مسؤولية ما لا بد أن تكون متصراً لكي تستطيع تنفيذها .. هذا كل ما
في الأمر » .

- « ولكن اسمح لي ... لم أكن أنا الذي اخترتها .. لقد كنت ضابطاً

وقمت بواجبي كضابط .

- « ولكنك قبلتها » .

- « كيف تريدني أن أرفضها ؟ أنت تعلم جيداً أننا نفتقر الى الضباط ... »

ولأول مرة نعمت المدينة الراقدة في نعاس قلق ، بقلولة لا يتخللها اطلاق النار .

- « ما فائدة الثورة إن لم تجعل الناس أفضل مما كانوا ؟ أنا لست من البروليتاريا يا قائدي ، والبروليتاريا من أجل البروليتاريا لا تهمني أكثر مما تهمني البورجوازية من أجل البورجوازية ، ومع ذلك فأنا أقاتل بكل ما في وسعي .. فماذا تريد ؟ » .

- « هل البروليتاريا هم الذين يقومون بالثورة أو الرواقيون ؟ » .

- « ولماذا لا يقوم بها الناس الذين هم أكثر إنسانية ؟ » .

- « لأن الناس الذين هم أكثر إنسانية لا يقومون بالثورة يا صديقي العزيز : إنهم يصنعون المكتبات والمقابر لسوء الحظ .. » .

- « المقابر لا تمنع القدوة من أن تكون قدوة .. بل على العكس » .

- « وفي انتظار ذلك ، لدينا فرانكو » .

وأمسك أرنانديث جارسيا من ذراعه بحركة تكاد تكون أنثوية .

- « اسمع يا جارسيا ، فلندع لعبة من منا على صواب ، فليس هناك من أستطيع أن احادثه سواك . مانويل رجل أمين ، ولكنه لا يرى شيئاً إلا من وجهه نظر الحزب . أما الآخرون فأنت تعرف خيراً مني أنهم سيكونون هنا قبل ثمانية أيام . إذن : فيما أن تكون أنت على حق أو أنا ... » .

- « كلا » .

- « أجل ... »

ونظر ارتانديث الى القصر : لا جديد .

- « كل ما أريده لو لم يكن ثمة مفر من أن أموت هنا - ألا تكون الأمور

على هذا النحو . . . »

« في الأسبوع الماضي اتهم أحد رفاقي من الفوضويين أو من الذين يدعون ذلك - بسرقة الخزانة . . . وكان هذا الرفيق بريئاً ، وقد طلب الادلاء بشهادتي وبالطبع دافعت عنه ، ولكن يبدو انه فرض النظام الجماعي على القرية التي كان مسؤولاً عنها ، وشرع رجاله في تطبيق ذلك النظام على القرى المجاورة . . وأنا اعترف بأن هذه الاجراءات سيئة ، وأن الفلاح الذي ينبغي له أن يملا عشر استمارات للحصول على منجل لا بد أن يستشيط غضباً ، واعترف على العكس من ذلك بأن برنامج الشيوعيين من هذه المسألة برنامج سليم . . . »

وقد ساءت علاقتي معهم منذ أن أدليت بشهادتي . . . فليكن ! فماذا كنت تريد ؟ إنني لن أترك رجلاً يطلب شهادتي وأعلم أنه بريء يعامل على أنه لص . . . »

- « يعتقد الشيوعيون (وأولئك الذين يحاولون تنظيم شيء ما في هذه الأونة) أن نقاء قلب صديقك لا يمنعه من أن يمد فرانكو بمجموعة موضوعية إذا أدى به ذلك الى اشعال ثورات الفلاحين .

« إن الشيوعيين يريدون أن يفعلوا شيئاً ، أما أنتم والفوضويون فتريدون - لأسباب مختلفة - أن تكونوا شيئاً . . هذه هي مأساة كل ثورة كسورتنا . . والأساطير التي نعيش عليها متناقضة : النزعة الى السلام ، وضرورة الدفاع والتنظيم والأساطير المسيحية والفعالية والعدالة ، هلم جرا . . علينا إذن أن نرتب هذه المتناقضات وأن نحيل رؤانا إلى جيش . . . وإلا كان هلاكنا حتماً مقضياً . . . هذا كل ما في الأمر . »

- « ولاشك أيضاً أن الرجال الذين تنطوي أنفسهم على هذه المتناقضات عينها لا بد أن يهلكوا هم أيضاً ... هذا كل ما في الأمر ... على حد قولك » .

وتذكر جارسيا قول جولوفكين : « أما أن يتغيروا أو يموتوا ... » قال : « إن كثيراً من الناس ينتظرون من الرؤيا أن تحل مشاكلهم الخاصة ... غير أن الثورة تتجاهل آلاف الكمبيالات المسحوبة على حسابها .. ومقضي في طريقها .. » وسأله أرنانديك بأساً :

- « أظن أنني مقضي عليّ بالموت ؟ أليس كذلك ؟ » .

ولم تكن ابتسامته تحمل أي معنى من معاني التهكم .

- « ثمة راحة في الانتحار ... »

وأشار باصبعه إلى الاعلانات القديمة عن الفرموت وعن الأفلام ، تلك الاعلانات التي كانوا يسيرون تحتها ، واتسعت ابتسامته ، فكشفت عن أسنانه الطويلة الشبيهة بأسنان الحصان الحزين : « الماضي ... » ثم أردف بعد بضع ثوانٍ : « ولكن ، بمناسبة الحديث عن موسكاردو .. لقد كانت لي زوجة ، أنا أيضاً » .

فقال جارسيا :

- « أجل ... ولكننا لم نكن رهائن ... إن خطابات موسكاردو ، وشهادتك ... إن كل مشكلة من المشكلات التي تضعها تعد مشكلة أخلاقية ، والحياة طبقاً لمذهب أخلاقي مأساة دائماً ... وهذا القول يصدق على الثورة صدقه على أي شيء آخر » .

- « والناس يعتقدون عكس ذلك ما دامت الثورة لم تحدث بعد ! » ..

وفي الحدائق المنهوبة كانت شجيرات الورد ونبات البقس تبدو كأنها

تشارك في الهدنة ، وقال جارسيا :

- « من الممكن أن تكون بسبيلك الى الالتقاء ب... مصيرك ؛ والتخلي عما أحبيناه ، وعما عشنا من أجله ... ليس ذلك شيئاً يسيراً ... إنني أريد أن أساعدك يا أرنانديث .. بيد أن الدور الذي تؤديه خاسر مقدماً ، وذلك لأنك تحيا حياة سياسية ، وتقوم بعمل سياسي ، وفي قيادة عسكرية تتصل فيها كل دقيقة بالسياسة ، مع أن دورك ليس سياسياً ، وإنه مقارنة بين ما تراه رأي العين ، وما تحلم به ، ولا يمكن التفكير في الفعل إلا في اطار الفعل ، ولا وجود لتفكير سياسي إلا في المقارنة بين شيء ملموس وشيء آخر ملموس ، بين امكانية وإمكانية أخرى . اما أن تنضم إليّ أو إلى فرانكو ، أن تختار بين منظمة أو منظمة أخرى ، لا بين منظمة أو رغبة ، وحلم ورؤيا ! » .

- « لا يموت الناس إلا من أجل شيء لا وجود له . » .

- « ارنانديث ، إن التفكير فيما ينبغي أن يكون بدلاً من التفكير فيما يمكن فعله حتى ولو كان ما يمكن فعله شيئاً رديئاً - مثل هذا التفكير سم زعاف ، لا علاج له كما يقول جويبا ! إن هذا الدور خاسر مقدماً بالنسبة لكل إنسان ... إنه دور يائس يا صديقي العزيز ، والكمال الأخلاقي والنبيل مشكلتان فرديتان أبعد من أن تتصل بهما الثورة إتصلاً مباشراً ... والجسر الوحيد الذي يوصل بينهما في نظرك - وأسفاه - هو التضحية بنفسك ! » .

- « هل تعرف فرجيل عندما قال : لا معك ، ولا بدونك ... » .

والآن ، لن أخرج من هذا .. »

وهدر مدفع من طراز ١٥٥ ، تلاه أزيز القنبلة الحاد ، ثم انفجار وضوضاء تكاد تكون بللورية من جراء تساقط قوالب القرميد وحطام الجدران ، وقال جارسيا :

- « لقد أخفق القسيس ! » .

الفصل السادس

كان جيش «ياج» Yague يسير من طلبيرة متجهاً صوب طليطلة .
وكان المواطن «لكلير» في حلته البيضاء المتسخة تماماً ، وبقبعته
الرمادية فوق رأسه ، وزجاجة «الترموس» تحت ابطه - يقترب من باب
طائرته المفتوح .

قال بأعذب ما في صوته الأجلش من نغمات وكأنه يحدث نفسه : «يا
إلهي ، من ذا الذي كان يعبث بطياري الأوريون !» .

فقال أتينييس في هدوء وهو يدخل في صديرية من الصوف :
- «كل شيء على ما يرام . على ما يرام . . . لقد قمت بتركيب جهاز
للتصويب» .

فأجاب لكلير نازلاً عن شكواه : «رائع . . يا عزيزي» .

ولم يكن لكلير يحب أتينييس ، لم يكن يحب فيه شيا به الجاد ، أو أسلوبه
في السلوك ، الذي يشعره بأنه بوزجوازي متعال ، على الرغم مما يتصف به
من مودة ؛ كما لم يكن يحب ذخيرته من المعرفة (كان أتينييس متخرجاً من
الكلية الحربية) أو شيوعيته المتقشفة ، وإن لم يكن أتينييس يصطنع التقشف
قاعدة لحياته ، بل على العكس ، وعلى حين كان المتطوعون يشعرون
بالامتنان للفنيين كانوا يضمرون الغيرة للطيارين التجاريين من أمثال
«لكلير» . وكان لكلير مولعاً بالنساء .

وأدار محرك الطائرة .

عمال المطار والجرحى يدورون حول الطائرة ، وراياتي يسير في أعقاب « اسكالي » . و« جيم » - منذ أن فقد بصره - يأتي الى المطار كمألوف عادته ، وقد شطرت وجهه نصفين ضمادة كبيرة . بعض الأطباء يقولون : إنه سيستعيد بصره ؛ ولكنه لم يكن يطيق وجود كلب الى جانبه . وكان « هاوس » يقيم هو أيضاً في المطار متكئاً على عكازين ، مستبداً ينضح بالدروس والأوامر ، لا يطاق من أن منحه جروحه تلك السلطة ، أما سييرسكي فكان قد غادر اسبانيا .

والواقع انه منذ أن عاد رجال المطار الى الطيران ليلاً لمواصلة الكفاح تغير جو المطار اذ استطاعت هذه الوسيلة أن توقف نشاط طائرات الاعداء المطاردة ، ولم يكن هبوط الطائرات في الريف أمراً ممتعاً كما لم يكن الهبوط نهاراً في صفوف الاعداء أكثر من ذلك متعة . وكان القدر هو الذي يتحكم الآن في القتال . وإذا كان الفرسان يرتبطون بجيادهم في أثناء الحرب فإن تلك الجياد لم تكن عمياء أو مهددة كل يوم بالشلل ، وقد كان الجيش الفاشي أهون في عدائه لأولئك الطيارين من محركات طائراتهم المغطاة بالرقع كأنها سراويل بالية ، ومع ذلك فقد كانت الحرب عبارة عن طائرات لا ينقطع اصلاحها ، طائرات تطير في ظلام الليل .

وارتفعت الطائرة مخترقة السحب .

- « أيها الفتى الصغير ؟ » .

- « ماذا ؟ » .

- « أنظر إليّ ؛ ربما كنت أمثل دور العبيط طيلة الوقت . . . ولكنني رجل ! » ولم يكن يجب أتينييس ، غير أن كل طيار محارب كان يحترم الشجاعة ، وكانت شجاعة أتينييس فوق كل جدال .

وعادوا مرة أخرى تحت السحاب

وأحس « لكثير » وقد وضع قبعته الرمادية فوق رأسه تحوطه تلك الضوضاء المنبعثة من المحرك المطمئنة المهددة بالتوقف في كل لحظة - أحس بحرية تكاد تكون إلهية ، حرية تعلو على النوم وعلى الحرب ، وعلى الآلام والعواطف جميعاً ، حرية أحس بها من قبل في الحرب العظمى ، وفي الصين .

ومضت فترة من الزمن . ولم يلبث « لكثير » أن قال بلهجة القرارات الناضجة : « وأنت أيضاً . . . رجل » .

ولم يكن أتينييس يريد أن يجرح شعور الطيار ، بيد أن أمثال هذه المناقشات كانت تثير أعصابه . . . فأجاب بزجاجة دون أن يكف عن النظر تحته الى الطريق الذي تغمره الأنوار ، غائصاً أمامهم حتى يختلط بأعماق الليل ، مرتعشاً تحت ضربات الريح التي كانت تهب بلا شك على الأرض ، وأحس أتينييس أن القلق يربطه بهذا الأثر الوحيد للانسان في الظلام المعادي وفي العزلة المتوقعة : ما من ضوء ! وهذا معناه أن أي هبوط يؤدي الى الهلاك ، ولما كانت غريزته أرهف إحساساً من وعيه بدا أنها كانت أسبق الى الفهم ؛ إذ أدرك فجأة سبب قلقه : لقد كان المحرك يدق .

فهتف قائلاً لكثير : « صمام ! »

وصرخ الآخر : « إلى الجحيم : نستطيع أن نقوم بالمحاولة » وأحكم أتينييس مسافة الشعر ؛ فقد كان على استعداد دائماً للمحاولة .

كانت « طلبيرة » تلوح في الأفق ، وقد ضخمتها العزلة والظلمة ، وفي مستوى التلال كانت انوارها تتلاشى في النجوم ، وتبدو وكأنها تبتلع الطائرة ، وأشاعت ضجة المحرك المختل الحياة في المدينة وجعلتها مفعمة بالخطر ، وبين الأضواء التي تنبعث من مدينة من مدن الأقاليم ، وضروب البريق المحمومة المتحركة المصاحبة للحرب كانت البقعة السوداء التي تدل على وجود مصنع للغاز انطفأت أنواره - هادئة هدوءاً يبعث على القلق كهدهوء الوحوش

النائمة ، وكانت الطائرة تحلق الآن فوق طريق ممهد بالأسفلت تبلله مياه امطار حديثة تعكس على صفحاتها مصابيح الغاز ، وكانت كتلة أضواء تتضخم كلما اقتربت الطائرة من طلبيرة ، وفجأة شاهدنا اتينيس من جانبي الطائرة العتيقة الغائصة كأنها نجوم حول طائرة صاعدة .

وفتح باب الطائرة المسحور ، فاندفع هواء الليل البارد الى داخلها وجثا على ركبته مشرفاً على المدينة منتظراً ، وقد تحدد مجال بصره بجهاز التصويب ، كما تحدد نظرة الجواد بالمثمتين . أما لكثير فقد وضع مقدم الطائرة على المربع الأسود للمصنع ، وأرهف أذنيه ، وأخذ يتقدم فوق هيكل « طلبيرة » المضيء .

وتجاوز البقعة السوداء . واستدار غاضباً نحو اتينيس ، ولم يكن يرى منه سوى شعره الأشقر المتألق في عتمة الطائرة .

- « ماذا أنت صانع ، بحق السماء ؟ » .

- « أغلق فمك ! »

ومال لكثير بالطائرة : وكانت القنابل الساقطة تصاحبها بفعل السرعة ، وإن تكن أدنى منها قليلاً ، وأبطأ منها قليلاً ، وقد أخذت تلمع كالأسماك في ضوء القمر ، وكما يحتفي سرب من الحمام يغير اتجاهه فلا يبين منه سوى الجوانب النحيلة اختفت القنابل فجأة ، وأصبح سقوطها عمودياً ، وعلى حافة المصنع انبثق صف من الانفجارات الحمراء .

وأخطأوا الهدف .

ودار لكثير دورة قصيرة ، ثم انقض هابطاً مرة أخرى على المصنع ، وصاح اتينيس : « راقب الارتفاع ! » ذلك أن حركة الهبوط هذه يمكن أن تغير من زمن التصويب فالقى لكثير نظرة على جهاز تحديد الارتفاع ، وعاد الى الباب المسحور : هذه طلبيرة تبدو الآن معكوسة كأنها رجل يدور على

عقبه ، وتغلى النور المضطرب الساقط على الشوارع من المكاتب العسكرية عن مكانه للمستطيلات التي تضيئها النوافذ ، وأصبحت بقعة المصنع أقل تحديداً . . . وكانت المدافع الرشاشة تطلق نيرانها من الأرض ، بيد أنه لم يكن من المحتمل أن الرجال الذين يصوبون نيرانهم يتبينون الطائرة في وضوح ، وأطفأت المدينة أنوارها جميعاً ، ولم يبق في الليل الزاخر بالنجوم سوى اللوحة المعدنية المضيئة وظل بقعة « لكثير » على ميناء جهاز قياس الارتفاع .

كانت المدينة قد عاشت تلك الحياة الصماء التي أضفتها عليها أنوارها المنتشرة ، ثم عاشت تلك الحياة المحددة التي أضفتها أضواؤها المكشوفة حين عادت الطائرة على أعقابها ، ولم يكن من شك أنها الآن - وقد أطفأت أنوارها - قد أصبحت أكثر حياة . وكانت ألسنة اللهب القصيرة المنبعثة من المدافع الرشاشة تظهر وتختفي كأنها شرارات تتطاير من حجر الصوان ، وكانت المدينة المعادية في حالة ترقب ، وكأنها تتحرك وفقاً لكل حركة تقوم بها الطائرة المنقضّة عليها ، حيث كان لكثير يحملق بعينين مسدّتين وبقبعته الرمادية التي أزاحها الى الوراء ، فظهرت خصلتان من شعره على جانبي رأسه في حين كان أتينييس منبطحاً على بطنه وقد ألصق أنفه بجهاز التصوير ، ومنه كان يرى أصغر انعطافة للنهر زرقاء في ضوء القمر :

وكان المصنع ما زال قائماً في مكانه . . وأطلق الحمولة الثانية من القنابل .

وفي هذه المرة لم يروا القنابل وهي تهوي تحتهم ، فقد انقضت الطائرة وسط ضجة لا حد لها فوق كرة بلون البرق . . ولكي يتقي لكثير تلك النار الزرقاء التي كادت تبتلعهم ضغط في جنون على جهاز الارتفاع بالطائرة ، فصعدت حتى بلغت نطاق الهدوء غير المكثرت الذي يحيط بالنجوم ، ولم يعد يشتعل تحتهم سوى حريق زاحف أحمر ، لقد تمزق المصنع شرمزق !

واختزلت بضغ رصاصات جسم الطائرة : فمن المحتمل أن يكون الانفجار قد جعل الطائرة مرئية ، وأخذ مدفع رشاش يتعقب طيف الطائرة التي كانت قد دخلت لتوها في الهالة المحيطة بالقمر ، وشرع لكثير يسير بالطائرة في خط متعرج . . . وحين استدار اتينيس لمح شبكة الحريق الحمراء ، وكانت القنابل التي أسقطت على هيئة مسبحة قد أصابت الثكنات أيضاً ، لقرها من المصنع .

وحال بينهم وبين الأرض كثيب من السحب .

وأمسك لكثير بزجاجة الترموس التي كانت الى جانبه ، وتوقف مذهولاً وقد رفع الكوب في الهواء ، وأشار الى اتينيس : كانت الطائرة تشع نوراً ضارباً الى الزرقة ، وأشار اتينيس الى السماء ، فقد كانوا حتى هذه اللحظة ينظرون الى الأرض مستغرقين في القتال دون أن ينظروا الى الطائرة نفسها ، والواقع أن القمر المحتجب عن أنظارهم كان يضيء من فوقهم الألومنيوم الذي يكسو جناحي الطائرة . وأعاد لكثير الترموس الى مكانه ، ما من حركة إنسانية يمكن أن تكون الآن على مقياس الأشياء ، وجعلتهم تلك النشوة التي تعقب القتال بعيداً عن آلتهم الحربية التي كانت هي وحدها المضيفة في ذلك الفضاء الرحب - ولكنها لم تلبث أن تبددت في ذلك السكون الكوني ، وفي ذلك التوافق بين القمر وبين ذلك المعدن الشاحب الذي يلمع كما تلمع الأحجار فوق الكواكب الباردة منذ ملايين السنين . وعلى السحب الممتدة تحتهم كان ظل الطائرة يتقدم على مهل . ورفع لكثير سبابته ، وقطب جبينه كأنه يتذوق شيئاً جيداً بالتقدير ثم هتف في وقار : « هذا شيء عليك أن تذكره ! . . . » ثم تناول الترموس مرة أخرى ، ولاحظ أن المحرك ما زال يدق .

وأخيراً تجاوزوا السحب ، وكانت بعض الطرق تتحرك على الأرض .

وكان اتينيس يعلم الآن ما يعنيه اهتزاز تلك السبل الليلية : انها السيارات الفاشية تتقدم صوب طليطلة .

الفصل السابع

ظل مانويل يقوم بعمل المترجم حتى هبط الليل ؛ فقد كان هينريش أحد قواد الفرق العالمية التي تألفت في مدريد يتفقد جهة نهر تاجة (إن صح هذا التعبير) ، ومن طلبيرة حتى طليطلة باستثناء المناطق التي يعسكر فيها اكسيمينيس واثنان أو ثلاثة آخرون ، ولم يكن ثمة خطوط للمراقبة أو الاستماع ، والقوات الاحتياطية تفتقر الى التنظيم والحماية ، والمدافع الرشاشة في حالة زديثة ، وفي مواقع سيئة .

وكان مانويل قد تعلم من اكسيمينيس كيف يقود ، وها هو ذا الآن أخذ العرق يسيل على صلعته التي حلقها بالموسى حتى لا يرى أحد شعيراته البيضاء ، وطفق حذاؤه الثقيل يرن على الأرض التي تشققت بفعل صيف أشرف على نهايته ؛ ولم يكف طوال الجولة التفتيشية التي قام بها عن إصلاح الأمور ، يدفعه ذلك التفاؤل العنيد الذي يتميز به الشيوعيون .

وكان مانويل قد تعلم من اكسيمينيس كيف يقود ، وها هو ذا الآن يتعلم كيف يقوم بالتوجيه ، وكان يعتقد أنه تعلم فن الحرب ، ولكنه تعلم في الشهرين الأخيرين الحذر والتنظيم والعناد والصرامة ، وتعلم على الأخص كيف يملك هذا كله بدلاً من أن يكتفي بتصوره ، وفي أثناء صعوده ليلاً صوب القصر حيث كانت كتلة سائلة من اللهب تتموج مثل « ميدوزا » هلامية متألقة أدرك أنه بعد إحدى عشرة ساعة من التعديلات التي أدخلها هينريش - بدأ يشعر شعوراً ملموساً بما ينبغي أن تكون عليه فرقة محاربة ،

وأخذت تظن في رأسه عبارات قواد الجيش العظام ، وقد اختلطت بضجة النيران وضاعت وسط الارهاق : « الشجاعة لا تسمح بالنفاق » - « انك تنصت الى ما تسمعه وما تراه تحاكيه » العبارة الأولى لنابليون ، والعبارة الأخرى لكيروجا . وكان اكسيمينيس هو الذي كشف له عن كلاوزفنتش ، واتجهت ذاكرته الى المكتبة العسكرية والواقع انها لم تكن مكتبة رديئة ، وانعكس أتون القصر على صفحة السحب الواطئة كما تنعكس سفينة مشتعلة على ثبج البحر . وبين كل دقيقتين كان مدفع من المدافع الثقيلة يطلق نيرانه على ذلك الأتون .

وكان هنريش يريد ما يريد ما يريده أنشط جناح في هيئة القيادة الأسبانية : وتتلخص خطته في الاحتفاظ بحرس الهجوم لاستخدامه كقوات لمباغثة العدو ، والتوسع على قدر الامكان في تدعيم الكتيبة الخامسة انتظاراً لاشتراك الفرق العالمية في القتال ، وحين تصل وحداته الى العدد الكافي يمكن بعد ذلك ضمها الى الجيش النظامي لتؤلف نواته ، ولتسمح بادخال النظام الثوري كما سمحت العناصر الشيوعية الأولى بتنظيم اللواء الخامس ، وكانت كتاب « انريك » قد تحولت الى فرقة من فرق الجيش ، أما مانويل فقد بدأ بسرية ميكانيكية مدرعة ، وقاد كتيبة وفقاً لأوامر اكسيمينيس ، وسيتولى في مدريد قيادة لواء ، ولكنه لم يكن هو الذي ارتقى في الرتبة ، بل الجيش الأسباني .

وبوجه ألق عليه نيران القصر القصيرة الشائرة وهجاً برتقالياً أخذ يصعد صوب سانتا كروز تسفعه الرياح ، وقد أمسك بيده عوداً من أعواد الشمرة ؛ ليرى كيف يسير العمل في وضع اللغم ؛ اذ كان هنريش - وهو أشبه بالضباط الألمان بعنقه المحلوق الذي تكسوه الغضون كأنه جبين - ينتظر في المدينة مكالمة تليفونية من مدريد .

وكلما هدأت الرياح وصمتت معها ضجة المدافع والبنادق استمرت جلبة أخرى خافتة ولكنها قابضة للنفس ، وهي الطقطقة المخنوقة المنبعثة من السنة اللهب المشتعلة ببرج القصر . وكانت هذه الجلبة تتفق مع الرائحة التي

جعلت المدفع والصيحات البعيدة وكل ما ينشأ عن حركة البشر جعلت من هذا كله شيئاً جديراً بالسخرية ، وكانت رائحة النار التي اختلطت برائحة الجثث من الكثافة بحيث لم يكن القصر يكفي وحده تبرير مصدرها ، بل بدت كأنها لا يمكن أن تكون إلا رائحة الريح والليل نفسه .

وأصبح من الضروري القاء رجال الميليشيا في طليطلة في معركة تاجة ، وكان لا بد للقصر أن ينسف ليلاً باستثناء سراديبه ؛ ولهذا بدأ اجلاء سكان المدينة . وكان الفلاحون يمشون بخنازيرهم وعنزاتهم في صفوف طويلة صامتة عبر ليل أحمر لا يضيئه القصر وإنما تضيئه السحب المشتعلة .

وعندما وصل مانويل الى قاعة سانتا - كروز ، وجد هناك قائداً من قواد طليطلة ، وكان هذا القائد في الأربعين من عمره ، وقد أزاح قبعته العسكرية الى مؤخر رأسه .

- « بعد ! بعد ! فماذا هناك ؟ ماذا هناك ؟ » .

وتقدم صوب مانويل ، في مودة وحرارة لا تخلوان من خشونة واضعاً يديه في جيوبه ، وسأله مانويل :

« متى ينتهي العمل في اللغم ؟ » .

ونظر اليه القائد ثم قال :

- « عندما ينتهون من العمل ... غداً ... » .

قال ذلك بلهجة توحى بأنه يريد أن يقول : ان المرء لا يستطيع مع هؤلاء الحمقى أن يعرف شيئاً ، وكان في عينيه بريق ينم عن السخرية ، وكان المسألة كلها غريبة غاية الغرابة ، ومع أن شعور مانويل لم يكن يخلو من تعاطف مع أحزان ارنانديث ، فإن سخرية ذلك القائد المتعالية التي تتسم باللامبالاة كانت تضايقه ، ومنذ تلك السقطة التي حدثت له مع راموس كان الديناميت يبدو له سلاحاً رومانسياً ومن ثم يبدو سلاحاً مشكوكاً فيه .

وتوقفت ضوضاء الحرب لحظة ، وأصبح من الممكن للمرء أن يسمع في ذلك السكون ضربات منتظمة معدنية ومكتومة في آن معاً ، كأنها صادرة عن الأرض والجدران .

وتساءل مانويل : « هل هذا هو اللغم ؟ » .

وأشار رجال الميليشيا بالإيجاب ، وخطر لمانويل أن الفاشيين الذين في القصر يسمعون هذه الأصوات في نفس اللحظة ، وينفس الطريقة .

ووصل رئيس العمال الذين يضعون اللغم .

- « في أي ساعة تأمل الانتهاء ؟ حدد أقرب وقت وأبعده » .

- « ما بين الساعة الثالثة والرابعة » .

- « بالتأكيد ؟ » .

وتروى الرجل ثم قال : « بالتأكيد » .

- « وما الأجزاء التي ستسقط ؟ » .

- « لا يستطيع المرء أن يؤكد » .

- « في رأيك أنت ؟ » .

- « الجزء الأمامي كله » .

- « ولا شيء أكثر من ذلك ؟ » .

وتروى الرجل مرة أخرى ثم قال : « انهم يقولون : إنه من الممكن نسف جزء أكبر . . أما أنا فلا أظن ذلك ، لأن الأقيية لا يقع بعضها فوق البعض الآخر ، بل إنها مرصوفة الواحد بعد الآخر وفقاً لشكل الصخر » .

- « شكراً » .

وانصرف رئيس العمال ، فأمسك مانويل القائد من ذراعه ، دون أن

تخلى يده اليسرى عن غصن الشمر .

- « خذ حذرك أيها الرفيق في حالة وقوع اشتباك غداً ، فإن أوكار المدافع الرشاشة واطئة أكثر مما ينبغي ، ولا شيء يخفيها ، بل يستطيع المرء أن يراها في وهج النيران » .

وخرج الى الظلمة المتوهجة ، فحاصرته رائحة الجثث والصخور الساخنة ، ولكنها لم تلبث أن تلاشت لحظة بفعل الريح ، ثم تصاعدت من جديد ، واستولت على الحديقة المملوءة بالمعاطف .

وقام بتفتيش المراكز واحداً بعد الآخر ، حتى وصل الى مناطق القصر التي استولى عليها الجمهوريون ، وهناك ، كان كل شيء قد اصابه التغيير ، فوجد رجالاً من حرس الهجوم والحرس المدني ، والميليشيا المدربين ، بيد أن القلق لم يفارقه ؛ فالهجوم الذي سيتلو الانفجار لم يشرف أي خبير عسكري على تنظيمه .

وبين طلقات المدفع - تناهت الى سمعه ضوضاء العمل في وضع اللغم ، وكانت هذه الضوضاء تصعد الآن من الأرض ، لتتمشى في مفاصله ، ولم يكن من شك أن الأعداء يسمعونها في سراديبهم في وضوح أكبر .

وكان هينريش ينتظر الى جانب التليفون الرد الخاص بالدفاع عن مدريد ، وكان يريد الدفاع عن طليطلة ، ولكن سواء قاومت طليطلة أو سقطت فقد طلب التخلي عن نظام الوحدات الصغيرة ، وانشاء احتياطي قوي تدعمه الفرقة الخامسة ، أما فرانكو الذي بدأ في البحث عن خيول بيضاء ليدخل بها دخول الفاتحين فكان ينتظر الكثير من الانقلاب الذي سيقوم به الفاشيون في مدريد على حين أخذت قواته تتقدم في سرعة فائقة .

بعد أن انتهى ارنانديث من نوبته اليومية جلس مع صديقه مورينو الى

إحدى الموائد في مركز قيادة الميليشيا ، وهو المكان الوحيد في طليطلة الذي يستطيع فيه المرء أن يجتسي كوباً من الجعة الباردة ، وكان الملازم مورينو الذي سجنه الفاشيون يوم نشوب الثورة ، وحكموا عليه بالاعدام ، ولكنه تمكن بمصادفة سعيدة من الفرار في أثناء نقله من سجن الى سجن اخر - كان قد استطاع الوصول الى مدريد منذ ثلاثة أيام ، وقد استدعي من فوره لإعطاء بعض المعلومات ، وكان ارنانديث من طلبة المدرسة الحربية في طليطلة ، وفي هذه اللحظة كان بعض رجال الميليشيا يروحون ويغدون أمام النوافذ المفتوحة على مصاريعها كأنهم قلب النيران الأزرق في الشطر الأسفل من الحريق .

قال مورينو : « إنهم جميعاً مجانين » . وكان شعره الأسود الكثيف المفروق من الوسط يتهدل فوق وجهه ويخفيه ، ونظر اليه ارنانديث مستفهياً . وكانت تربط بينهما منذ خمسة عشر عاماً صداقة فاترة قوامها الذكريات والأسرار العاطفية .

قال مورينو : « لم أعد أو من بشيء مما كنت أو من به . . . لم أعد أو من بشيء على الاطلاق ، ومع ذلك فسأرحل مساء غد لانضم الى الصفوف الأولى » .

وأزاح شعره . . . كانت وسامته ذائعة الصيت في طليطلة : أنف مستقيم ، وعينان واسعتان جداً ، القناع التقليدي للجمال اللاتيني . . . ذلك الجمال الذي تحول في هذه الليلة الى شيء فريد بعد أن أطلق شعره وكأنه يريد أن يجعله شاهداً على السجن الذي هرب منه ، ولم يكن حليق الذقن ؛ اذ كان شعره القصير مادياً .

وكانت المنازل تحجب القصر ، ولكنها لم تكن تحجب ما يدور فيه من حركة ، وتحتم ذلك الضوء المنبعث من السحب والذي كان يتخذ كل ألوان العنب الأسود - كان رجال الميليشيا يمرون وسط طلقات المدافع المنتظمة ، وقد تساقطت ظلالهم على الأرصفة .

- « أي الأشياء تطلب منك أقصى ما فيك من قوة في اثناء سجنك ؟ » .

- « أن أتعلم كيف أتمزق . . . »

وكان ارنانديث يشك - منذ مدة طويلة - في أن مورينو مولع ولعاً فريداً بالجانب المأساوي من الحياة . بيد أن قلقه ، ذلك القلق الذي لم يكن ارنانديث يتبين طبيعته - كان جلياً .

وأخذ الى الصمت لحظة في انتظار طلقات المدفع ، وكان خروج السكان - الذي لا تراه الأبصار - يملاً الليل بصرير العربات .

- « كان وجودي في السجن أقل أهمية - يا صديقي العزيز - من الحكم باعدامي . إن ما أصابه التغيير . . . كنت أعتقد أنني أو من بالبشر ، وكنت ماركسياً ، أول ضابط ماركسي على ما اعتقد . . . وليس معنى ذلك أنني أعتقد العكس . . . كلا . . . وإنما لم أعتقد شيئاً . . . »

ولم يكن ارنانديث يشعر بأية رغبة في مناقشة الماركسية ، وكان بعض رجال الميليشيا يركضون وسط جلبة البنادق .

واستطرد مورينو قائلاً : « أصغ جيداً : عندما حكم عليّ بالإعدام سمحوا لي بالنزول الى فناء السجن ، وكان كل من فيه محكوماً عليهم بالاعدام لمعتقداتهم السياسية . . . بيد أن أحداً لم يكن يشير الى السياسة مطلقاً . . . مطلقاً : . . . ولو أن أحداً فعل ذلك لوجد حوله فراغاً في الحال . »

وحملت فتاة حذاء من فتيات الميليشيا رسالة الى ارنانديث ، وانفجر مورينو ضاحكاً في عصبية ، ثم قال :

- « ما رأيك - من وجهة نظر الثورة - في كل هذه المهزلة ؟ » .

- « انها ليست مهزلة فحسب » .

وتابع ارنانديث بنظرة الفتاة الحذباء التي انصرفت، ولكنه لم يكن يرى فيها - على عكس مورينو - سوى حماسها ، ولهذا كان ينظر اليها في مودة ، وكذلك كان ينظر اليها رجال الميليشيا ، على قدر ما يستطيع أن يحكم بذلك من خلال الظلمة القائمة . انها تشترك أخيراً في اللعبة بعد ان كانت تعاني بلا ريب من العزلة حتى الآن . واستقرت عينا ارنانديث القصيرتا النظر على مورينو ، لقد بدأ يفقد الثقة في صديقه .

- « هل سترحل الى الجبهة مساء غد ؟ ... » .

وتردد مورينو ، وأسقط كوبه دون أن يعبأ بذلك ، وظلت عيناه مستقرتين على ارنانديث .

وأخيراً قال : « سأرحل الليلة الى فرنسا » .

ولزم الكابتن الصمت ، وألقى أحد رجال الميليشيا الغرباء قطعة من النقود في كوبه ، دون أن يعلم أنه معفى من الدفع . وتناول مورينو من جيبه قطعة من النقود ، وقذف بها كأنه يريد أن يلعب بها القرعة ، وغطاها بيده دون أن ينظر الى الوجه الذي سقطت عليه ، وابتسم ابتسامة حائرة ، وكانت كل عاطفة عميقة تضع تعبيراً طفولياً فوق ذلك القناع المنتظم تمام الانتظام .

- « لم نكن - يا صديقي - في سجن أول الأمر ، وإنما كنا في دير قديم : مكان مقصود ، وهذا شيء جلي ، ولم نكن في السجن السابق نرى شيئاً ، أو نسمع شيئاً (كان الأمر دائماً على هذا النحو) ، أما في الدير فلدينا فرصة ؛ إذ كنا نسمع كل شيء . . . طلقات الرصاص في أثناء الليل ! » .

ونظر الى ارنانديث بعينين قلقتين ، وكان في تعبيره الطفولي نوع من السذاجة ، ولكنه لا يخلو أيضاً من وحشية .

- « هل تعتقد انهم كانوا يعدمون الناس رمية بالرصاص مع تسليط الأنوار الكاشفة ؟ » .

ودون أن ينتظر رداً ، اندفع قائلاً :

- « تخيل انك تعدم ، وقد سلطت عليك الأضواء الكاشفة .. كانت هناك طلقات الرصاص أعقبتها ضجة أخرى ، وكانوا قد أخذوا نقودنا ، ولكنهم تركوا لنا قطعاً نقدية صغيرة ، ومن ثم كان الجميع يلعبون بها القرعة ! هل نساق غداً الى الفناء مثلاً ، أو الى ساحة الإعدام ؟ وما كانوا يلعبون على رمية واحدة ، بل على عشر أو عشرين ! وكانت الطلقات تصل الى أسماعنا ، من بعيد مكتومة بسبب الجدران والحشايا الهوائية القائمة بينها ، وبينها وكان الليل ، وتلك الجلبة التي يحدثها رنين القطع النحاسية على اليمين وعلى الشمال . وحولي من كل جانب . . . كنت أستطيع أن أقيس يا عزيزي - اتساع السجن ببعده الرنين المنبعث من قطع النقود ! » .

- « والحراس ؟ » .

- « ذات ليلة سمع أحد الحراس رنيناً ، ففتح باب زنزاني وصاح : خسران ! ثم أغلقه ثانية ، وكان بعض حراسي أوغاداً . . أوغاداً بكل ما في الكلمة من معنى . . ولكن ، لم يكونوا في ذلك السجن . . هل نسمع ضوضاء الشوك ؟ كانت الأصوات عالية الى هذا الحد ، وربما وصل الأمر بنا الى أن نسمع أصواتاً لا وجود لها . . . وهذا شيء يثير الأعصاب . وكم مرة أحسست أنني غارق بين أصوات النقود كما يغرق المرء في الجليد ، ولم يكن الرفاق الآخرون قد اعتقلوا مثلي في اليوم الأول ، فقد كانوا من المحاربين . . وكانت تلك اللعبة مؤثرة بلهاء وباختصار كانوا يلعبون القرعة مع الموت . . . أخبرني إذن يا عزيزي : أين البطولة في مثل هذا العمل ؟ » .

وتناول قطعة النقود التي تحت راحته ، ثم قذف بها ، وقال مدهوشاً :

- « الوجه ! » .

وأعادها الى جيبيه . وكان ارنانديث قد شاهد مورينو في الماضي وهو

يقاتل ضد قوات عبد الكريم ، فوجده شجاعاً ، وواصل المدفع اطلاق نيرانه على القصر على حين أخذ صرير العربات الحاد يقاطع ازيز النيران بين آونة وأخرى .

- « اسمع يا صديقي ، لا وجود لأبطال دون نظارة . . . وما أن يكون الانسان وحده حقاً حتى يفهم معنى ذلك . يقول الناس ان للأعمى عالمه الخاص ، تستطيع أن تصدقني فيما أقول ، وفي اللحظة التي تدخل فيها هذا العالم تدرك أن تفكيرك عن نفسك ينتمي الى العالم الآخر ، العالم الذي تركته . . . فردوس الحمقى ، وربما استطعت في ذلك العالم أن تفكر في نفسك ، ولكنك ستشعر ببساطة أنك مجنون ، هل تذكر اعتراف باكونين ؟ هذا هو تفسير ما أقول . إن هذين العالمين لا إتصال بينهما : هناك العالم الذي يموت فيه الناس معاً وهم ينشدون ، أو وهم يصرون على أسنانهم ، أو على أي شكل يريدون ، ولكن وراء هذا العالم . . . هناك يا عزيزي ذلك الدير الذي . . . »

وتناول قطعة النقود من جيبيه ، ثم جعلها ترن على المائدة ، وانتابته رعدة ، ثم التقطها مرة أخرى دون أن ينظر على أي الوجهين سقطت ، وإنما ظلت نظرتة مثبتة على الشارع .

- « انظر اليهم . . . كلا . . . ولكن انظر اليهم ! البعض وراء البعض الآخر . إني أعانقك ، وأعجب بك ، إنني رجل تاريخي ، وأنا أفكر ! ولكن ضعهم جميعاً في زنزانة ، وهناك لن تجد غير قطع من النقود يقذفون بها الى الهواء . . . »

- ستوجد على الأرض بلاد تخلو من الفاشيين قبل أن أموت ، وعندما تمكنت من الفرار كنت أتلهف على العودة ، وقدمت نفسي للرجوع الى الخدمة العسكرية . . . ولكنني أرى الآن في وضوح أن كل انسان تهدده حقيقته ، تذكر ذلك . . . وحقيقته ليست هي الموت ، أو حتى عذابه ، انها

قطعة من النقود يا عزيزي . . . قطعة من النقود . . . »
- « أريد أن أعرف : لماذا كانت لحظة الموت - بالنسبة للملحد مثلك -
أكثر دلالة - أو أهم إن شئت - في حكمه على الحياة من أية لحظة أخرى ؟ »
- « يستطيع الانسان أن يتحمل كل شيء : يستطيع أن ينام وهو يعرف
أنه يفقد بهذا النوم ساعات من الحياة التي سيفقدتها بالاعدام غداً ، ويستطيع
الانسان أن يمزق صور أولئك الذين يجهم ، لأنه شبع من عذاب النظر
اليها ، ويستطيع أن يلاحظ في لذة كيف يشب كالكلب ليختلس نظرة لا
جدوى منها من ثقب في الجدار . . . اقول أنه يستطيع أن يتحمل كل ذلك .
أما ما لا يستطيع أن يتحمله فهو أن يكون متيقناً من أنه بعد أن يصفع ويركل
بالأقدام سيقتل ، وأنه بعد ذلك لن يوجد شيء ! » .

وأشاع الانفعال توتراً في وجهه الوسيم الذي تعاقبت عليه ألوان ذلك
الأتون الخفي من الأحمر القاني الى البنفسجي . . فكان جماله رائعاً .

- « ولكن ، حاول يا عزيزي - أن تتخيل ذلك بنفسك ! لقد قضيت في
بالما أسبوعين في زنزانه . . أربعة عشر يوماً . وكان ثمة فأر يأتي كل يوم في
ساعة بعينها ، فكنت أحدد الوقت بمجيئه ، ولما كان الانسان - كما يعرف ذلك
الناس جميعاً - هو الحيوان الذي يفرز الحب فقد أحبيت ذلك الفأر ، وفي
اليوم الرابع عشر سمحوا لي بالخروج الى فناء السجن ، فكنت أستطيع
التحدث مع المساجين الآخرين ، وما كدت أعود في ذلك المساء نفسه الى
زنزاني حتى بدأت أشعر بالضيق من الفأر ! » .

- « لا يخرج المرء من محنة كالمحنة التي عاينتها دون أن يحتفظ بشيء ، وما عليك
الآن أولاً إلا أن تأكل وتشرب وتنام ، وأن تفكر أقل تفكير ممكن . . . »
- « ما أيسر القول ، وأصعب الفعل ! فالانسان لم يتعود الموت ، وضع
ذلك في ذهنك جيداً . . . لم يتعود قط الموت ، ومن ثم عندما يحدث له ذلك
لأنه يتذكره . » .

- « وحتى حين لا يكون الانسان محكوماً عليه بالاعدام فإنه يتعلم هنا

أشياء ، لعله لم يخلق لتعلمها . . . ولقد تعلمت - أنا - شيئاً بسيطاً : يتوقع الانسان كل شيء من الحرية ، وعلى الفور ، ولكن لا بد من أن يموت الكثيرون لكي يتقدم الإنسان ستمتراً واحداً . . . هذا الشارع لا بد أنه كان ذات ليلة مثلها هو الآن في عهد شارل الخامس . . . ومع ذلك كم تغير العالم منذ عهد شارل الخامس ! وهذا لأن الناس قد أرادوا للعالم أن يتغير على الرغم من قطع النقود ، - وربما لم يكونوا - يجهلون أن هذه القطع النقدية في مكان ما . . . ما من شيء يمكن أن يكون أشد تشييطاً من القتال هنا . . . وهذا لا يمنع أن الشيء الوحيد الذي يعادل ذكرياتك وزناً هو المعونة التي يمكن أن تقدمها الى أولئك الأشخاص الذين يمرون أمامنا الآن دون أن يقولوا شيئاً » .

- « كنت أحدث نفسي بمثل هذه الأشياء في زنزانتني عند مطلع النهار ، فإذا هبط المساء عادت إليّ الحقيقة يا صديقي : المساء هو أسوأ ما في الأمر ، عندما يكون الانسان قد جال كثيراً في حجرة طولها ثلاثة أمتار ، وبدأت الجدران تتقارب ، هذا شيء يجعل الانسان ذكيفا ! إن مقابر الثورة لا تختلف عن غيرها من المقابر . . . » .

- « تفسد الحبوب جميعاً في بداية الأمر ، بيد أن بعضها ينبت . . . والعالم عندما يخلو من الأمل لا يصلح للتنفس . . . أو ربما أصبح عالماً فيزيائياً صرفاً ، ولهذا يتكيف معه كثير من الضباط تكيفاً حسناً ، لقد كانت الحياة فيزيائية دائماً بالنسبة للجميع ، ولكنها ليست كذلك بالنسبة لنا » .

- « ولقد كان ينبغي أن تطلب أسبوعين لعلاج نفسك » : « وإذا نظرت» بعدها في هدوء الى رجال الميليشيا دون أن ترى فيهم سوى جانب المهامة ، ودون أن يرتبط في نفسك شيء بالأمل الذي يعتمل في نفوسهم ، فارحل عندئذ الى فرنسا ، فماذا تريد أن تصنع هنا . . . ؟ » .

ووراء الجماعات الصامتة كانت تسير العربيات مملوءة بالسلال

والحقائب ، وبين حين وآخر كانت تتوهج زجاجة نبيذ أرجوانية تنعكس عليها الأضواء ، وعلى الحمير كانت تركب فلاحات لا يتبين المرء وجوههن ، وإن كان يستطيع أن يتبين من نظراتهن الثابتة ذلك الحزن القديم الذي لا بد قد ارتسم على الوجوه في اثناء الخروج من مصر . وانساب هذا الموكب الهارب متلفعاً بأعظيته بين رائحة النيران ، تصاحبه طلقات المدفع العميقة التي تعاقبت في ايقاع رتيب .

ومن النجوم الهادئة انحدرت التلال جميعاً صوب منخفض لن تلبث أن تتقدم منه دبابات العدو ، وعلى مسافات متباعدة انتظرت جماعات الناسفين بالديناميت في مزرعة أو في غابة صغيرة أو خلف صخرة .

وكانت صفوف الجمهوريين في طليطلة وراء هؤلاء على بعد كيلومتريين .

وتحت أشجار الزيتون رقد عشرة من الناسفين بالديناميت ، وكان أحدهم منبطحاً على بطنه وقد وضع ذقنه بين يديه ، لا تتحول نظرتة عن قمة الجبل التي وقف عندها المراقب الذي سيعطي الإشارة ، أما الآخرون فكان في أفواههم سجاجير دون أن يشعلوها .

وكانت منطقة سييرا صامدة ، وكذلك جبهة أرغون ، وجبهة قرطبة ، وملقة والأشتوريش ، غير أن سيارات فرانكو كانت تتقدم بأقصى سرعتها على طول نهر تاجة ، أما الحالة في طليطلة فكانت سيئة وحين تسوء الأحوال يتحدث رجال الديناميت دائماً عن سنة ١٩٣٤ في مناطق الأشتوريش ، وكان ييب يصف « أوفيدو » لجنود التعزيزات الذين وصلوا من قطالونيا ويقول : إن تلك الهزيمة أعقبتها تكوين الجبهة الشعبية .

« كانوا قد استولوا على الترسانة البحرية ، وحينئذٍ اعتقدوا انهم قد نجوا وأنهم أصبحوا في مأمن ، بيد أننا لم نستطع أن نصنع شيئاً بما وجدناه فيها . .

وكان الرصاص بلا بارود والقنابل بلا فتيل ، أما القنابل فقد استخدمتها للمدافع ، فما كنا نستطيع أن نفعل بها شيئاً آخر . . . وعلى أية حال فإن الضوضاء تمنحنا الثقة ، وهذا شيء غير قليل النفع . «

وانقلب بيب على ظهره ، وكان ضوء القمر يتلألأ فوق العمال كأنه الغبار الدقيق العالق بأوراق الشجر .

- « أجل . . . هذا يمنح الثقة . . . وكانت الثقة تدفعنا . . . بل لقد دفعتنا حتى زجت بنا في السجن ! » .

وأضاء القمر رأسه التي تشبه رأس جواد لطيف .

- « هل تعتقد انهم سيدخلون طليطلة ؟ » .

- « وأختك ؟ » .

- « لا تكن على هذه الثقة يا بيب ! أنا أعتقد أن الأمور في طليطلة على أسوأ حال . . . أما مدريد فهي التي اعتمد عليها » .

- « أو لم تكن الأحوال عندنا على أسوأ ما تكون ؟ » .

فقال صوت آخر .

- « لو لم يكن لدينا ديناميت لمت تصفيتنا في أيام ثلاثة ، وقد حاولنا تدبير أمورنا في الترسانة البحرية مع الزملاء الذين يعرفون كل شيء عن الذخيرة ، ولكننا كنا مخطئين ! وأخيراً ذهب الأولاد الى الجبهة ومع كل منهم خمس رصاصات . . . تصور خمس رصاصات ! أخبرني يا بيب ، هل تذكر النسوة اللواتي يحملن سلال السلاطة والزكائب ! لقد رأيت نسوة يجتمعن القمامة ، ولكنني لم أشاهد في حياتي قط نساء يجتمعن الرصاص . . . كانت هذه أول مرة ! وكن شديدات الحرص على ما يجتمعن من رصاص . . . وقد وجدنا أننا لا نطلق بالسرعة الكافية ! فوأسفاه ! » .

ولم يلتفت أحد برأسه ، فقد كان الصوت صوت جونثالث ، ويبدو أن ضخام الأجسام من الرجال يتميزون بصوت مرح لا يخطئه المرء . وكان الجميع ينصتون في الوقت الذي أرهفوا فيه حواسهم في انتظار جلبة الدبابات البعيدة .

واستطرد بيب قائلاً : « واستطعنا بالديناميت أن نحدث ضجة وأن نجد عملاً يشغلنا ، هل تذكر رماة أحجار مركادر ؟ » .

وكان قد استدار صوب القطلونيين الذين يعرفون من يكون مركادر ؟

- « كان فتى أريباً اخترع أنواعاً من الآلات تقذف شحناً ضخمة من الديناميت . . . باختصار آلات لرمي القنابل . . . وكانت تعمل بالحبال كآلات الحروب القديمة ، وتتطلب ثلاثة من الرجال ، وحين وصلت الى المغاربة في بداية الأمر شحنت حقيقية من مسافة مائتي متر استولى عليهم الدهول والانهار ، واخترعنا أيضاً أنواعاً من الدروع ، ولكنها لم تكن جيدة ، فقد كانت هدفاً للعدو » .

ومن مسافة بعيدة انطلق مدفع رشاش ، ثم توقف ، ثم انطلق من جديد ، وتلاشى كأنه صوت ضائع لماكينه خياطة في فضاء الليل الواسع . . . أما صوت الدبابات فلم يظهر له أثر .

وقال صوت تشويه المرارة : « أما هم ، فقد صنعوا طائرات » .

وفي ذلك الوادي أخذوا يتبادلون الحكايات الملحمية والقصص الساخرة منتظرين ظهور الدبابات ، ولم يكن من شك أن رجال الديناميت آخر طائفة يعتمد عليها الانسان لمواجهة الآلة ، وكان وجود القطلونيين هنا وجوداً عرضياً ، أما الأشتوريون فكانوا يتبعون تقليداً من تقاليد ماضيهم ، فهم استمرار لتراث ، وهم أقدم جماعة ثورية في أسبانيا ، وها هم أولاء أخيراً يخضعون للتنظيم ، وربما كانوا الوحيديين الذين تزداد عندهم أسطورة الثورة الذهبية عظيمة مع تجربة الحرب بدلاً من أن تتحلل بها .

- «والآن يملك الفرسان المغاربة بنادق سريعة الطلقات . . . » .

- «سحقاً لهم !» .

- «وأشبيلية غاصة بالألمان ، وكلهم من الخبراء » .

- «وعمديري السجون أيضاً » .

؛ ويقولون : إن فرقتين ايطاليتين شرعتا في المسير . . . » .

لأنهم لم يألفوا ذلك . . . » .

ها هم أولاء يعودون الى مكافحة الخطر بذكريات الماضي ! واستطرد
بيب قائلاً :

« وكانت النهاية هي أشد الأشياء جنوناً عندنا ، لم يكن الأولاد سيئين في لجنة الفلاحين المركزية ، ولكنهم كانوا بلا جدوى ، اذ تفوق عليهم العدو من حيث العدد . وأقبل المغاربة ، ومكثوا ثلاث ساعات صامدين حتى استطاعوا أن يحكموا علينا الحصار ، وكان الأولاد ما زالوا صامدين ولدينا الديناميت ، ولكن دون أن نجد شيئاً نضعه فيه ، فصنعنا أنواعاً من القنابل اليدوية بأوراق الصحف والمسامير ، أما فيما يختص بالأسلحة فالأفضل ألا نتحدث عنها : فقد كانت فاسدة تماماً ، وكان أحد الزملاء قد أرسل الى الترسانة في اليوم السابق ، وعاد يحمل قصاصة من جريدة كتب عليها المسؤول بالقلم الرصاص : أنه لا داعي لإرسال من يبحث عن الذخيرة ، اذ لم يبق منها خرطوشة واحدة . وقد أقتسم الرفاق آخرها بعد أن ملأوها بأنفسهم . وكان نصيب كل منهم خمساً ، فرحلوا الى الجبهة ببنادقهم ، هكذا كانت الحال ، وتستطيع أن تتصورها تماماً ، أما أعضاء لجنة الفلاحين المركزية فكان شغلهم الشاغل هو التصايح حول مائدة ما داموا لا يجدون شيئاً آخر يشغلهم ، وكان هناك كثير من الرفاق حولهم ، ولكنهم لم يقولوا

شيئاً ، بل لزموا الصمت ، وأخذت مدافع الأعداء الرشاشة في الاقتراب ،
كما تقترب في هذه اللحظة . . ثم أعقب ذلك نوع من المهرج والمرج . . .
كيف أصفه ؟ ضجة مكتومة . . . ضوضاء بلا ضوضاء ، إذ بدأت الأكواب
والسكاكين التي على المائدة ، والصورة المعلقة على الحائط . . . بدأت كلها
تنتفض . . ما هذا ؟ أدركنا فيما بعد ان ما حدث كان بسبب الأجراس :
ذلك أن قطعان الماشية تدفقت من الريف بعد أن أفرعتها طلقات الرصاص في
كل مكان . . وها هي ذي تنتشر في الشارع . . . وما لبث أحد أعضاء
اللجنة من الأذكىء الحكماء أن صاح بهم : أن أقيموا متراساً ، بأن تخلعوا
الأجراس من رقاب الأبقار (ولم تكن أجراساً صغيرة ، وإنما كانت أجراساً
ثقيلة من النوع الذي يوضع في رقاب قطعان الجبل) ، وفعلاً ، أراحوا تلك
الحيوانات من أجراسها ، وصنعوا منها قنابل يدوية ، وبهذه الطريقة صمدوا
ثلاث ساعات ، واستطاعوا إجلاء كل ما ينبغي إجلاؤه وإرساله بعيداً . . .

« أما فيما يتعلق بالدبابات فإننا نستطيع الآن بما لدينا أن نقف في وجهها
مدافعين عن أنفسنا » .

وتذكر « بيب » أيضاً القطار المصفح . . لقد حاربوا دائماً بأيديهم ولكنهم
يستطيعون منذ أن تم تنظيمهم إيقاف الدبابات حتى دون أن يزودوا بالبنادق
المضادة للدبابات .

ونجح كلب من بعيد .

- « وماذا حدث للحمار ؟ الحمار يا جونثال ! » .

- « من الغريب ان الانسان حين يتذكر الحرب لا يتذكر منها إلا جوانبها
المرحة . . لسوء الحظ ! » .

وكان معظم رجال الديناميت صامتين ، أو لعلهم كانوا لا يحسنون
الرواية ، أما بيب وجونثال ، وبعض الرجال الآخرين - فكانوا من محترفي
القصة والتهريج ، ولم يكن من شك ان الدبابات لا تستطيع أن تهاجم في اثناء

الليل ، ذلك أن راكبيها لا يعرفون المنطقة جيداً ، ومخشون الحفر . . . ولن يلبث
النهار أن ينشر ضياءه . . . لا مانع إذن من سرد قصة الحمار !

- « كانت فكرة إرسال الأتان فكرة مدهشة . وضعنا عليه حولة من
الديناميت ، وأشعلنا الفتيل ، ودفعناه إلى الأمام . . . هوب ! صوب
المغاربة ، وأخذ الحمار يجب ، رافعاً أذنيه في الهواء دون أن يعرف شيئاً مما
ينتظره . . وشرع الآخرون في إطلاق النار عليه . وما أن انهالت عليه
الرصاصات حتى جعل يحرك أذنيه كأنه يهش عنه ذباباً ، ثم توقف ، وأخذ
يسأل نفسه أسئلة ، وعندما لم يجد حلاً عاد أدراجه . . آه ! ولكن كلا !
وشرعنا نحن أيضاً في إطلاق النار عليه . . ولكنه كان يعترفنا . . . ويبدو
أنه بعد أن تدبر أمره بما فيه من الكفاية ، قرر العودة إلينا ما دام الرصاص
ينال عليه من الطرفين . . . » .

وحدث انفجار كأنما انشقت الأرض من أعماقها في مكان ما وأمطرت
السما سَيْلاً من الأوراق والغصون الجافة .

وعلى ضوء اللهب الأحمر الهائل الذي تصاعد من طليطلة - كان المرء
يستطيع أن يرى في الوجوه البنفسجية الفاغرة الأفواه الذاهلة النظرة ما يمكن
أن تكون عليه الوجوه بعد الموت .

وسقطت السجائر من الأفواه .

وكانوا يستطيعون تمييز الانفجارات بعضها من البعض الآخر ، فلم يكن
هذا انفجار لغم ، أو ديناميت أو مخزن مفرقات .

- « هل هو طوربيد جوي ؟ » .

لم يكن أحد منهم قد سمع أو شاهد شيئاً من هذا القبيل ، فأرهبوا
أسماعهم ، وتخيلوا أنهم يسمعون أزيز طائرة صادراً من السماء ، ولكن ،
ربما كان هذا الصوت ، صوت سيارات المغاربة .

وسأل جونثالث : « هل هناك مصنع للغاز في طليطلة ؟ » .

ما من أحد يعرف شيئاً عن هذا الموضوع ، بيد ان الجميع كانوا يفكرون في القصر .

الواضح ان شيئاً سيئاً قد حاق هناك بالفاشيين ، وظلت السماء حمراء حيث انطفاً عود اللهب المختلج : هل هو الفجر أو الحريق ؟ .

كلا ، ان الفجر يشرق من الجانب الآخر . . . وها هو ذا يبرز الآن ، ويبدو أن ندى الأوراق يتساقط من أشجار الزيتون .

لا مجال للذكريات ، ولم يبق الآن أمام رجال الديناميت الذين قبعوا في مراكزهم سوى الانتظار . . . انتظار العدو ، وانتظار النهار . . .

واستعادوا سجائرهم التي لم يشعلوها قط ، وخيم سكون الريف الأسباني ، ذلك السكون الذي ساد عند وصول طلائع المغاربة الأولى ، وساد في أيام السلم وأيام الشقاء على السواء ، وطفق عمود الفجر الأبيض يمتد على صفحة الأفق ، على حين أخذت الظلمة تنحسر شيئاً فشيئاً عن رؤوس الرجال الراقدين ، ولن يلبث النهار أن يعلن نداءه العميق ، أما الآن فلا شيء سوى حزن الفجر الدفين ، وشحوب لونه ، وفي الحقول ارتفعت صيحات الديكة الموحشة .

صاح بيب : « ها هو ذا ريكاردو يعود ! » .

وعاد المراقب راکضاً ، ومن ذلك المكان الموحش نفسه ، تقدمت دبابات العدو متجاوزة الجبل ، منتصبه كأنها لا تهدد الأرض ، وإنما تهدد السماء الشاحبة .

وأشعل جونثالث سيجارته ، ثم حذا بيب حذوه ، وتبعه الآخرون وبدأ الرجال يزحفون من كل مكان لملاقة الدبابات .

لعل راكبي الدبابات يعلمون انهم هناك ، وإن كانوا لا يرونهم ، إذ كان

رجال الديناميت يحنفون راقدين أو منبطحين في أعماق الوادي ، على حين كانت الدبابات بارزة تحت قبة السماء .

وعلى يمين جونثالث رقد شاب من قطالونية ، لم يقل شيئاً تقريباً منذ أن رقد في ذلك المكان ، وعلى يساره كان بيب . وكان جونثالث لا يكاد يتبينها ، ولكنه أحس في الفجر بخطواتها الخفيفة . . خطواتها التي تنم عن الرجولة . وكان أصدقاؤه يبدون له في بداية كل معركة كأنهم حيوانات رخوية انتزعت دروعها ، فأصبحت طرية مرنة ، لا تستطيع عن نفسها دفاعاً ، وكان يشعر بأنه أضخم الجميع ، وبأنهم ضعفاء ، أما الدبابات التي لم تكن بلا دروع فكانت تتقدم في ضجيج ، انقلب الى ضوضاء هائلة ، على حين أخذ الصف المرتحف الذي يمثل رجال الديناميت يزحف صوبهم في صوت غير مألوف .

كانت الدبابات تسير في صفين ، ولكنها كانت متباعدة الواحدة عن الأخرى الى درجة لم يلحظها رجال الديناميت ، فتولت كل مجموعة دبابة واحدة ، كأنهم مربوطون في خيط واحد ، ولم يكن بعض القطالونيين قد أخفوا سجاثرهم جيداً في أيديهم ، فهمس جونثالث لنفسه قائلاً : « يا لهم من حمقى ! » وكان يسير خلفهم فرأى أنهم مجرد نقاط غير مرئية ، ولعلمهم من الأمام أشد من ذلك اختفاء ، وتقدم معهم ، يدفعه نفس ذلك المد ، وتلك النشوة الأخيرة الصلبة ، وفي فؤاده كان يتغنى بنشيد الأشتوريش العميق دون أن تفارق عيناه الدبابات المقبلة عليه ، وما كان يستطيع أن يعرف إلا في هذه اللحظة معنى أن يكون الانسان رجلاً .

لن يلبث أن يظهر في العراء ، النهار يرتفع ، ويبب يتغطى على حين تمدد جونثالث على الأرض ، الدبابة على بعد أربعمائة متر ، غير ان الحشائش كانت تحفيها عن عينيه ، نوع من الحشائش له سنبلة كان يلقيها وهو طفل في أكمام رفاقه ، وضرب من الشوفان الشيطاني ، وزهرة اللؤلؤ التي تتوج ساقاً طويلة ، أخذت النمال تجول عليها ، كما شاهد عنكبوتاً

صغيراً ، مخلوقات تدب على الأرض في تلك الغابة من الأعشاب بعيداً عن الحياة والحرب . . . ووراء غلوتين منمكتين إنهماكاً شديداً وصلت بأقصى سرعة دبابة مزججة يهتز كل ما فيها ، ولم يكن جونثالث يرقد على الأرض المستوية ، فلو أن الديناميت ألقى بعناية لتعثر فيه ، ولهذا تقلب بجسمه على الجانب الآخر .

لا بد أن تمر الدبابة على اليمين ، وكان يحمي جونثالث من ابراج الدبابة كتيب صغير ، وذلك الى حين وصول الدبابة الى مستوى ارتفاعه ، والغلبة لمن يسدد ضربته قبل الآخر . ومهما يكن من أمر فسوف تكون الشمس المشرقة أمام عينيه ، ويتقن جونثالث أن لا شيء يعوق حركة ذراعه اليمنى .

أين ذهب ذلك القطلوني بحق الجحيم ؟ ان الدبابة التي أقبلت على يمينه تطلق نيرانها . وكانت الدبابة الموكل أمرها الى جونثالث تقترب بأقصى سرعتها في اتجاه جونثالث ، ثم ألقى بالديناميت بين ضجة المحركات والمدافع الرشاشة ، ثم ارتقى على الأرض بنفس الحركة ، وكأنه يغوص في الانفجار .

ورفع رأسه وسط ضجة الحصباء المتساقطة ، وتهاوت الدبابة على رأس برجها ، بعد أن رفعت بطنها في الهواء ، ولم تكن تنفتح إلا من قمة البرج ، وطلع النهار على احدى الدبابات التي استمرت في الدوران .

كان جونثالث راقداً على الأرض لا يحميه شيء ، ومدفع البرج المقلوب قد أخذ الى الصنمت ، وأرهف جونثالث سمعه ممسكاً بقنبلة في يده .

وفي أشعة الشمس المائلة ، أخذ « جنزير » الدبابة يبطيء رويداً رويداً ، كأنه عجلة الميسر .

وكان جونثالث يمسك سيجارته بالقرب من القنبلة الأخيرة ، وهمد مدفع الدبابة الرشاش هموداً تاماً ، ويبدو أن راكبي الدبابة قد قتلوا أو جرحوا وإلا فإنها لا يستطيعان الخروج منها بعد أن انقلبت رأساً على عقب ، وأصبحت تستند بثقلها كله على البرج . ولو انقلب خزان البنزين لكان مصيرهما

الاحتراق قبل مضي خمس دقائق ، وهذه هي الحرب الأهلية .

ولم يحدث شيء . . . وتوقف جنزير الدبابة عن الدوران .

وتلفت جونثالث . إن مدفعية الجمهوريين لا تطلق نيرانها . . . ولكن هل هناك مدفعية للجمهوريين ؟ ونهض فوق ركبتيه ، وفي الوادي الذي حفرت فيه الأخاديد جنازير الدبابات ، كما تشق السفن عباب الماء تنشرت الدبابات : ثلاث أو أربع أو خمس . . . الدبابات التي خرجت من المعركة ، وكأنها بعد أن تحطمت وأنقلبت قد صارت أشبه بالعربات التي كانت تستخدمها قبائل ما قبل التاريخ . (خيل اليه حين شاهد أول دبابة مقلوبة انه بازاء طراز جديد من الدبابات !) ، وأشتعلت النار في دبابتين . . . وفيما وراء ذلك بمسافة بعيدة وفي ضوء النهار الذي غمر الآن كل شيء - كانت الدبابات الأخيرة التي أخذت تخفي شيئاً فشيئاً وراء مرتفع من الأرض تتوغل في صفوف الجمهوريين ، وهي الصفوف الأخيرة قبل الوصول الى طليطلة .

وهكذا مرت الدبابات .

وسأل جونثالث : « أين القطالوني ؟ » فأجابه بيب : «

- قتل . » .

وعلى الرغم من ارتفاع النهار لم يكن يستطيع المرء أن يبين القتلى وسط الحشائش ، وبدأ الرصاص حول الرجلين ، وأخرج بيب صوتاً ليحاكي به أزيز الرصاص الأحمق ، ثم اندس تحت الغطاء مرة أخرى .

وفوق قمة التل تقدمت البقع البيضاء التي تمثل عمائم المغاربة .

كان الدخان الذي عقب الانفجار يغلف القصر المنخوب ، وقد انبعث منه مع أنداء الفجر رائحة رطبة ثقيلة امتزجت بها رائحة الجثث ، وكانت

الريح قد جمعتها على سطح الأرض ، فغطت الجدران التي ما زالت قائمة كأنها بحر تناثرت في قاعه الصخور .

وقوست هبة قوية من الريح سطحه الراكد ، فبرزت منه أحجار ذات أسنان مدببة . وعلى اليمين في مستوى أدنى من ذلك انتشرت لاعلى هيئة كتل مندفعة ، بل كالماء حين يسيل متسرباً في الشقوق والفجوات . وحدث مانويل نفسه قائلاً : إن القصر يشع كأنه خزان للمياه ! .

وغمر الدخان مراكز الجمهوريين شبراً شبراً ، بعد أن احتل الشوارع المملوءة بالحطام ، كأنه هو نفسه قد شن الحرب ، وكان المهاجمون الآن متباعدين بعضهم عن البعض الآخر ، فقد نسف اللغم المراكز المتقدمة للعاشيين ، ولكنه لم ينسف السرايب .

وسكنت كل ضروب الضوضاء لحظة ، فسمع مانويل شخصاً وراءه يدق على الأرض بقدمه ، كان هينريش وقد سقط شعاع من الفجر على عنقه الغليظ المتغضن كأنه جبين .

وسأله مانويل وهو ما زال ممسكاً بعود الشمر في يده : « ماذا عن مدريد ؟ » .

فأجابه الجنرال دون أن ينظر اليه : « الجواب بالنفي » . وكانت نظرتيه مركزة على أشد الصخور ارتفاعاً ، وهي تظهر رويداً رويداً من سحب الدخان ، كأنما ينحسر عنها المد .

وسأله مانويل : « لماذا ؟ » .

- « الجواب بالنفي . . . كان رجالنا في مواجهة المبنى . . . اليس كذلك ؟ » .

- « ولكنهم أدخلوا المكان قبل الانفجار » .

- « ألم تكن هناك طريقة للوصول الى الجزء المنسوف سوى القصر

نفسه ؟ ... » .

ومن نظارات الميدان التي وضعها أمام وجهه العجوز الأملس الذي يشبه وجه فلاحه بولندية - أخذ ينظر الى القمة الممزقة التي انجاب عنها الدخان ، وناول مانويل النظارات متسائلاً :

- « ألدينا مدافع رشاشة على السفوح ؟ » .

- « كلا » .

- « لم يكن الغرض منها إيقافهم ، بل إعاقتهم فحسب ! » .

وعبرت نقط على صفحة الصخرة ملتصقة بها كالذباب ، وفي كل مرة تمر نقطة على جزء بارز منها ، لا تلبث أن تختفي ، لتظهر من جديد على جزء أدنى قليلاً . ومن بعيد كان الدخان يجتاز الآن المراكز الأساسية القديمة التي أخلاها حرس المهجوم قبل حدوث الانفجار على حين أخذ الفاشيون يتقدمون وراء الدخان .

وكانت المراكز التي تم الاستيلاء عليها خلال عشرة أيام ، قد فقدت مرة أخرى .

قال هينريش : « لا بد من وضع المدينة في حالة الدفاع » .

ولم يكن تليفون الخيفاتورا يجير جواباً ، أما في سانتا - كروز فقد أبلغوا أن المغاربة على بعد عشرة كيلومترات .

وذهبوا الى الحانوت الذي اتخذته ارنانديث مركزاً له .

وفي شارع كان الزحام فيه شبيهاً بالزحام الذي يلتمسه المرء في المحطات في اثناء اندفاع الطلبة اليها في الأيام الأولى من العطلة الصيفية ، قدم أحد رجال الميليشيا مندقيته - وهي من طراز موزر - الى مانويل قائلاً : « أتريد بندقية ، أيها القائد ؟ » .

فاجابه هينريش بالألمانية : « ستحتاج إليها قبل مضي وقت طويل . » .

- « أريد أن أتخلص منها ، فربما ، لو أنك أخذتها . . . »

وأضفى حاجباً هينريش الأبيضان تعبيراً بالدهشة على عينيه الزرقاوين .
وتحولت نظرتة التي ثبتت في وجه حليق حتى الرأس بحاجبيه غير المرئيين ،
فاكتسبت ضراوة تامة ، بيد أن عشرين شخصاً حالوا بينه وبين رجل
الميليشيا .

وشرعت منازل مغلقة النوافذ في اطلاق النار على رجال الميليشيا من
البنادق المتروكة تحت الأبواب .

وأحس مانويل بالضيق الذي كان يشعر به عادة في الأماكن المغلقة . . .
أحس به لأول مرة في الشارع : فلم يعد يستطيع أن يضع قدمه قبل أن
يتحسس الأرض بإبهام قدمه . ما من حشد رآه في طليطلة ، أو في المواكب
الدينية ، أو في أيام مدريد التاريخية - يمكن أن يداني الحشد الذي يراه اليوم ،
كان رجال الميليشيا يحملون القبعات المكسيكية على أطراف أذرعهم كأنها
أطواق السيرك . عشرون ألفاً من الرجال محشورون في هذا الحشد المجنون ،
وعند عتبة كل باب بندق متروكة .

كان حانوت ارنانديث مفتوحاً على مصراعيه ، وكان ثمة رجل يضع على
رأسه قبعة حمراء وسوداء يسأل قائلاً :

- « من المسؤول هنا ؟ » .

- « أنا ، القائد أرنانديث » .

- « إذن أخبرني أيها القائد : لقد كنا في المنزل رقم ٣٥ بشارع التجارة ،
وأغاروا علينا ، فانتقلنا منه الى رقم ٤٥ ، فأغاروا علينا أيضاً ، فهل أنت
الذي تخطرهم حين نغير مكاننا لكي يهبطوا علينا هبوطاً أفضل أولئك القواد
الذين في الجانب الآخر ؟ »

فنظر أرنانديث الى الرجل ممتعضاً ، ثم قال :

- استمر .

- « ذلك لأن الكيل قد طفح بنا ، فأين طائراتنا ؟ » .

- « وأين تريدها أن تكون ؟ في الجو طبعاً » .

ولم تكن الحكومة تملك سوى عشر طائرات صالحة للطيران في مواجهة الطائرات الايطالية والألمانية ! . . .

- « وإذا لم تظهر طائراتنا في خلال نصف ساعة فسوف نرمي بنا دقنا ! فلسنا هنا لكي يتخذ منا البورجوازيون أو الشيوعيون طعاماً لمدافعهم ، سنتخلى عنها . هل فهمت ؟ » .

وكان يميلق في نجمة مانويل الحمراء الكبيرة من وراء الكابتن ، وأتخذت عينا هنريش مرة أخرى نظرتها الثابتة .

وأمسكه أرنانديث بيديه من قلابتي سترته ، وقال له دون أن يرفع صوته : « تخل عنها فوراً ! » ودفعه الى الخارج دون أن يتمكن الآخر من أن يضيف حرفاً ، ودار أرنانديث على عقبيه ، وحيا هنريش ، وصافح مانويل .

- « هذا الرجل إما أن يكون معتوهاً . . . أو وغبداً . . . أو الاثنيين معاً إن شئت . . . إن فكرة الخيانة تسيطر عليهم . . . وربما لم يكن ذلك بلا سبب . . . وما دامت الحال على هذا المنوال فلا حيلة للإنسان في الأمر . . . » .

- « هناك دائماً ما يستطيع الانسان أن يفعله » .

وترجم مانويل هذه العبارة ، وكانت يدها عصبيتين ، بعد أن أسقط عود الشمريين الجموع ، وهز أرنانديث كتفيه :

- « أوامرك يا سيدي » .

- « اذا ترك هذا الرجل مكانه فلا بد من إعدامه » .

- « ومن الذي يطلق عليه الرصاص ؟ » .

- « انت اذا اقتضت الحاجة ... وهل هناك من نستطيع الاعتماد

عليه ؟ » .

- « لا أحد ، وما من شيء نستطيع أن نفعله في هذا المكان . ومع

ذلك ... وأخيراً الأفضل ألا تدع القوات الصالحة تدخل المدينة ، فسوف

تفسد في خلال ساعة ! إنها وكر للهاربين من الجندية ... فلنقاتل في الخارج

اذا استطعنا مع قوات أخرى ... فما القوات التي تستطيع استخدامها ؟ » .

فقال هينريش : « لدينا آلاف من الرجال ومن البنادق ... وينبغي أن

نفيد من هذا الموقف » .

- « ليس هنا جندي نظامي واحد ، ... وإنما لدينا ثلاثمائة من رجال

الميليشيا يستطيعون القتال حتى الموت ... وحفنة من الأشتوريين ، اذا

أردت .. أما الآخرون ، فإنهم هاربون يريدون أن يبرروا فرارهم بانتقاد كل

شيء ، وهم يرمون بنادقهم تحت الأبواب ، وقد بدأ الفاشيون في استخدامها

ضدنا ، وحتى النساء لم يعدن يشعرن بالخوف من توجيه الشتائم اليها من

خلال النوافذ ! » .

- « حاولوا اكتساب خمس ساعات من الوقت أو ست ساعات » .

- « من الممكن الدفاع عن بوابة فيسنارجا ، ولكنهم لن يدافعوا

عنها » .

فقال هينريش : « من واجبتنا أن ندافع نحن عنها . هيا بنا » .

وبعد لفة طويلة جاسا فيها خلال الأزقة وصلا الى البوابة ... وهناك

كان المكان أشبه بسوق للسلاح .

وكان عشرة من رجال الميليشيا يلعبون الورق على الأرض ، فانحنى هينريش في أثناء عبوره وجمع أوراق اللعب وهو ينظر الى اللاعبين . . ثم وضعها في جيبيه ، وواصل سيره ، واجتاز الباب ، وفحص الموقع من الخارج ، وعثر مانويل على غصن مستقيم استبدله بعود الشمر : فقد كان يريد أن يهدىء من ثائرته ، وكانت البنادق المتروكة قد أثارت سخطه .

قال هينريش : « هذا جنون مطبق . . فمن الأسطح والشرفات نستطيع أن نقاوم حتى يحضروا مدفعيتهم على أقل تقدير ! » .

ودخلا المدينة ، دون أن يكف الجنرال عن النظر الى الأسطح .

- « ما أشد أسفي لأنني لا أعرف الأسبانية ! »

فقال مانويل : « ولكنني أعرفها » .

وشرع هو وأرنانديث في وضع الرجال في أماكنهم واحداً واحداً وأرسلوا بعضهم لإحضار الذخيرة ، وزودا الرماة الذين اتخذوا أماكنهم فعلاً بأفضل الأسلحة المتروكة وكانوا قد وجدوا ثلاث بنادق سريعة الطلقات . . . ولم تمض ساعة حتى كانت البوابة على استعداد للدفاع .

قال هينريش مخاطباً مانويل : ربما اعتقدت انني معتوه . . . ولكن ينبغي الآن أن تأمرهم بإنشاد نشيد « العالمية » . ولأن كلاً منهم قد اختفى عن عيون الآخرين فلا بد أن يشعر بعضهم بالبعث الأخر » .

ولم تنقص هذه الألفة الشيوعية شيئاً من سلطة هينريش ، وهنا صاح مانويل : « أيها الرفاق ! » .

ومن جميع الأركان والزوايا والنوافذ أطلت رؤوس . وبدأ مانويل في إنشاد نشيد « العالمية » يعوقه ذلك الغصن المورق الذي لم يكن يريد أن يتركه ، وإنما كان يود أن يقود به الايقاع ، وكان صوته جهيراً ، ولما كان

اطلاق الرصاص على القصر قد توقف تقريباً فقد أنصت اليه الجميع غير أن رجال الميليشيا لم يكونوا يعرفون كلمات النشيد .

واعترى هينريش شيء من الدهول ، أما مانويل فقد أخذ يردد المقطع المتكرر .

وقال هينريش في مرارة : « الأمر دائماً على هذا النحو ، سنكون في مدريد قبل الساعة الرابعة ، وسيملاً هذا النشيد وقتهم حتى نصل الى هناك » .

وابتسم ارنانديث ابتسامة حزينة .

وعين مانويل رؤساء للكثائب ، ثم اتجه الضباط الثلاثة شطر « بوابة الشمس » .

وفي ثلاثة أرباع الساعة كانت البوابة محوطة بالحراس .

وقال هينريش : « فلنعد الى باب شقرا » .

ومن النوافذ نصف المفتوحة أخذت طلقات بنادق الفاشيين تتكاثر شيئاً فشيئاً ، بيد أن الحشود كانت قد تفرقت . ففي خلال ساعة رحل عن المدينة ما يزيد على عشرة آلاف شخص ، وخلت المدينة من الناس ، كما يخلو الجسم من الدم .

وكانت سيارتهم جبيسة في إحدى الحظائر .

قال ارنانديث : « أخرجها فوراً .. حالاً ... »

وأمام الباب وقف ضابط له شاربان قصيران ينتظر .

- « قيل لي انكم ذاهبون الى مدريد .. ولا بد أن أكون هناك على عجل ... فهل تستطيعون اصطحابي ؟ » .

وأبرز لهم الأمر الخاص بمهمته ، واستقلوا السيارة ميممين شطر فيساجرا

في مبدأ الأمر ، وكان مانويل هو الذي تولى قيادة السيارة . . وعلى طول الطريق كانت البنادق متروكة فوق كل عتبة ، وفي اللحظة التي أبطأت فيها السيارة لكي تنعطف في أحد الطرق انفتح باب نصف فتحة ، وامتدت يد من الداخل لتمسك ببندقية ، فأطلق هنريش النار ، فانسحبت اليد .

قال الضابط : « إن الشعب الأسباني لم يرتفع الى مستوى المهمة التي أقيمت على عاتقه » .

وللمرة الثالثة اتخذت نظرة الجنرال تلك الصرامة الضارية التي لاحظها مانويل ، وأجاب هنريش :

- « في مثل هذه الحالة ، تكون الأزمة (دائماً) أزمة قيادة » .

وتذكر مانويل اكسيمينيس ، وجميع رجال الميليشيا الذين يراهم المرء في كل شارع من شوارع مدريد ، وهم يبذلون أقصى جهدهم ، يعلو وجوههم الهم ، ويتعلمون المشي كما يتعلم الانسان القراءة .

وحين وصلوا الى باب شقرا نادى مانويل رجاله . . بيد أن أحداً لم يرد عليه . . . فنادى من جديد . . . ولكن لا أحد ، فصعد الى الطابق الأخير من أول منزل يستطيع أن يشرف منه على الأسطح ، وهناك وراء كل زاوية وضع فيها رجلاً كانت ثمة بندقية ملقاة . . . حتى البنادق السريعة الطلقات . . كانت باب شقرا محمية أيضاً . . . محمية بأسلحة دون رجال .

ومع ذلك كانت جبهة « ملقة » تفتقر الى البنادق ، وكذلك جبهة قرطبة وجبهة أرغون ، وفي مدريد كان هناك نقص في البنادق .

وفوق جرن غير بعيد كانوا يدرسون القمح .

وأخيراً القى مانويل بالغصن ، وهبط السلم مرة أخرى ، وقد خانته ساقاه ، كانت الأبواب جميعاً مفتوحة ، والى جوار النوافذ كانت البنادق الأخيرة المستندة على الستائر تحرس طليطلة .

ومن النوافذ المفتوحة ظهرت بندقية فوق كل سقف وخلف كل مدخنة ،
والى جوارها حزمة من الرصاص .

وأبلغ مانويل هينريش ما رآه .. أما أرنانديث ، فكان قد تكهن
بالأمر ...

قال هينريش : « ينبغي أن نلقي بالفرق الشابة هنا .. فلنسارع الى
مدريد . ولن يكون من العسير في اللحظة الراهنة - اخلاء طليطلة » .

قال ارنانديث : « لقد فات الأوان » .

- « فلنحاول » .

وسأله مانويل :

- « وأنت ... ماذا أنت فاعل ؟ » .

فأجابه أرنانديث : « وماذا تريدني أن أفعل ؟ » ورفع كتفيه ، وهو يبتسم
ابتسامة مريرة كشفت عن أسنانه الطويلة الصفراء « عشرون منا يستطيعون
استخدام المدفع الرشاش استخداماً سليماً ... » .

وأشار الى المقابر في غير مبالاة .

- « هناك أو هنا ... » .

- « كلا .. سنصل في الوقت المناسب » .

ورفع أرنانديث كتفيه مرة أخرى .

وردد مانويل في حزم : « سنصل في الوقت المناسب ! » .

ونظر اليه ارنانديث مذهولاً .

وفطن مانويل فجأة الى أنه لم يخاطب ارنانديث بهذه اللهجة قط ، ان
المرء لا يترجم الأوامر بصوت محايد ، وقد قام بهذه الترجمة منذ ساعات

فاكتسب لهجة هينريش نفسها ، وتعلم لهجة القيادة ، كما يتعلم المرء لغة ما بالترديد .

واستأنف كلامه قائلاً : « اذا كان لديك عشرون رجلاً فحاول الدفاع عن هذه البوابة على كل حال » .

وقال هينريش : « استبدل الرجال قبل الانصراف » .

واستطرد ارنانديث بنفس عدم الاكتراث اليائس : « سمعاً وطاعة » .

وبعد أن وضعوا الرجال في مراكزهم عادوا الى الحانوت ، وتقاطعت في الشارع أصوات الشتائم التي انهالت عليهم من النوافذ مع طلقات الرصاص التي أطلقها الشيوعيون .

قال مانويل : « هؤلاء يودون لو عاد فيليب الثاني الى العرش ... ولتبدأ - أي ارنانديث - بجمع الأسلحة كلها ... باستثناء تلك التي على الأبواب ... سأرسل لك عربات نقل مع حرس الهجوم » .

- « إن جمعها أسهل من استخدامها » .

وتلاحقت لحظات الاحتضار الأخيرة التي تعانيتها المدينة .

قال هينريش : « فليصمدوا وجه النهار .. وسيصمد رجال الديناميت آناء الليل ، وبالفرق الشابة هنا ، وبرجال الفرقة الخامسة سوف نصمد ثمانية أيام ... وفي ثمانية أيام منذ الآن قد ... »

الفصل الثامن

تخلص أرنانديث من زيه العسكري ، وارتدى الثياب المدنية مثلما فعل جميع المحاربين الآخرين ، وتردد لحظة : ان الضجة تنبئ بأن الجمهوريين على اليمين ، ولكن ماذا يريد ؟ أن يظفر بالخلاص ؟ كان يستطيع منذ ساعتين أن يرحل بنفس البساطة التي يستقل بها الانسان قطاراً ، أو تراه يريد أن يقاتل حتى اللحظة الأخيرة ؟ إن ما يريده حقاً قبل كل شيء هو ألا يكون وحيداً ، ألا يعود الى الوحدة مرة أخرى ، لقد انفصل عن ذوي قرابته في أول هجوم على ترثيو Tercia فعليه الآن أن يجدهم بأي ثمن .

وركض ملتزماً جدار الحارة (وعلى اليسار كانت ضجة مدافع ترثيو الرشاشة تقترب) فلم يلبث أن بلغ شارعاً ، وكانت رصاصات الجمهوريين تسقط أجزاء من الواجهات العالية الباهتة ، فترتفع على أثرها من الجير سحب صغيرة من الدخان الكثيف ، وازدادت ضجة مدافع العدو الرشاشة اقتراباً ، ولم يكن من شك أن الفرقة قد وصلت لتوها الى الناصية التي اجتازها ارنانديث منذ لحظة ، فقد كانت الرصاصات تنهال الآن من أمامه ، ومن وراء ظهره .

وعلى بعد عشرة أمتار الى الأمام ، كان ثمة مصباح مضيء ، وحين وصل ارنانديث تحته لوح بمسدسه فوق رأسه حتى يتعرف عليه الرجال ، فأصطدمت رصاصة بمقدمة المسدس الموزر ، وقذفت به على الأرض ، فاندفع ارنانديث تحت مدخل أحد الأبواب ، وهنا كانت زوايا الشارع تحميه

من الترتيبو وسمك الجدار يحميه من الجمهوريين . ومن كل جانب أخذ مدفع رشاش يطلق نيرانه في عصبية دون تمييز ، ولم يلبث سيل من الرصاص أن أسقط المصباح في جلبة زجاجية شديدة ، وظلت المدافع الرشاشة تطلق نيرانها دوغما هدف تراه اللهم إلا الشعلة الزرقاء الصغيرة التي كانت ترتفع عند كل طرف من طرفي الشارع .

وانبطح ارنانديث ، وزحف حتى وصل الى مسدسه تحت شبكة افقية من الرصاصات ، واستطاع أن يبلغ مدخل الباب مرة أخرى .

وظل على هذا الوضع عشر دقائق ، ولم يكده ينهض حتى أمسكت يد بذراعه :

- « أرنانديث ، أرنانديث . . . »

- « هيه ، ، نعم .. »

وأطلق رجل الميليشيا الذي انضم اليه (وكان يرتدي الملابس المدنية أيضاً) ثلاث طلقات بين كل طلقة وأخرى نحو ثانية . . ثم اندفع الأثنان ، وهناتوقف المدفع الرشاش الذي كان يطلقه الجمهوريون .

وفي اللحظة التي وصلا اليه فيها لحق بهما من الخلف رجل آخر من رجال الميليشيا .

- « المغاربة ! »

وقال الرجل الذي كان يستخدم المدفع الرشاش وكان يبدو أنه قائد الجماعة : « إلى حلبة مصارعة الثيران ! » .

واندفع الجميع من الأزقة .

ولم يكن ارنانديث يريد أن يموت وحيداً .

واستدار ضارب المدفع الرشاش وأطلق سيلاً من حوالي خمسين رصاصة ، ثم عاود الاطلاق ، وكان لا يحسن استخدام المدفع ، غير أن

المغاربة كانوا قد توقفوا ، ولكنهم استأنفوا سيرهم مرة أخرى .
وتناثرت بضع رصاصات متفرقة هنا وهناك ، وفجأة حملت الريح من
الاتجاه المضاد لمسير الجمهوريين موسيقى من آلات نحاسية ، ومن طبول
ضخمة . . الموسيقى التي تعزف في السيرك وفي المعارض وفي الاحتفالات
العسكرية . وتساءل أرنانديث : أين تلك الجياد الخشبية التي ما زالت
تدور ؟ وتعرف أخيراً على النشيد الفاشي : إنها موسيقى تراثية تعزف في ميدان
زو كودوفر .

وتوقف ضارب المدفع الرشاش لحظة ، ثم استأنف الاطلاق من
جديد . . . وانقضت عشر ثوان ، خمس عشرة ، وصاح الرجل الواقف الى
جواره : « أهرب بجلدك أيها الأحمق » . وأخذ يركل بكل قوته ضارب المدفع
الرشاش في ردفه صائحاً : « إنج بجلدك ! » وأحدثت الركلات أثراً أقوى
من الرصاص ومن المغاربة الزاحفين ، فحمل الرجل مدفعه ولاذ بالفرار .
وأخيراً وصلوا الى الحلبة وهناك كان قد اجتمع نحو ثلاثين من رجال
الميليشيا وكانت حلبة مصارعة الثيران تبدو من الداخل كأنها قلعة . . قلعة
من الورق المقوى ، بهذا حدث أرنانديث نفسه ، ونظر اليها من الخارج . .
كان المغاربة قد بدأوا في حراسة الأبواب ، وقال أحد رجال المدفعية ، وكان
هو أيضاً يرتدي ثيابه المدنية : « سنكون على خير حال عند أول طلقة
مدفع » .

وقال أحد رجال الميليشيا : « لقد وضع الفاشيون المدنيون شريطاً أبيض
على أذرعهم فعلاً » .
- « انهم يرتلون تسيحة الحمد لله في الكاتدرائية ، ولقد ظهر القسيس
بينهم ، بعد أن اختفى هنا طيلة الوقت » .

وتذكر أرنانديث تنفيذ حكم الاعدام بالجملة .
وكان ينظر الى الخارج دائماً . وعلى اليسار ، لم تكن المدينة قد حوصرت
بعد .

وصاح أحد الرجال : « الخيالة المغربية ! » .

- « أنت مجنون ! » .

والواقع انه لم يكن أكثر من ذلك .

قال أرنانديث : « البقاء هنا حق ، فسوف يتكاثرون شيئاً فشيئاً ، وستهلكون بلا مبرر ، وعلى الشمال ما زال الريف مفتوحاً أمامكم . . . اتركوا الأبواب فهي محمية ، وسأكتسح نهاية أحد الشوارع بالمدفع الرشاش . وحين ذاك اقفزوا من الطابق الأول ، واحرصوا على ألا تحطمو رؤوسكم ، واضربوا المغاربة الذين لم يصابوا ، والذين يحاولون اعتراض طريقكم ، وهم قلة على كل حال ، ثم انعطفوا الى اليسار ، فانكم تستطيعون أن تفعلوا أشياء أفضل من الهلاك هنا ، فاذا انضمت اليهم تعزيزات جديدة فسأحاول ايقافهم حتى تتمكنوا من الفرار » .

ووضع المدفع الرشاش في حالة استعداد ، ثم اطلق سيلين طويلين من الرصاص مكتسحاً الشارع من طرف الى الطرف الآخر . . . وتساقط المغاربة أو ولوا الأدبار على حين وثب الرجال المتربصون في حلبة مصارعة الثيران ، وصدوا الفلول الباقية من المغاربة دون عناء ، ووصل بعض الفاشيين من اليمين فتولاهم المدفع الرشاش صفاً صفاً ، وأرغمهم على التوقف في فجوات الأبواب ، على حين اختفى الجمهوريون الأواخر في ضجة شديدة وهم يتخبطون بعضهم في أعقاب بعض ، ولم يعد أرنانديث يفكر في شيء ، بل ضم مدفعه الرشاش الى منكبه في سعادة لا حد لها .

وخلت حلبة المصارعة من الرجال فوثب أخيراً ، بيد أنه تلقى ضربة سوط غريبة فوق عينيه أحس بعدها أن الدم قد أعمى بصره . . ثم تلتها ضربة أخرى فوق العنق . . ضربة ضخمة قوية ، هذه المرة . . . لعلها من مؤخرة بندقية ، فمد ذراعيه الى الأمام ، وتهاوى على ظهره . . .

الفصل التاسع

صاح رجل بأعلى صوته في فناء سجن طليطلة . وكان ذلك شيئاً نادر الحدوث ، ذلك ان الثوريين يلتزمون الصمت لأنهم ثوريون ، وأن الآخرين يظنون انهم ثوريون لأنهم محوطين بالثوريين ، ولأنهم اكتشفوا بمواجهتهم للموت أن الحياة - أية حياة - هي ما يتمسكون به ، فلهذا كان الصمت هو حكمة السجناء الوحيدة ، والحشرات التي يهددها الخطر تحاول أن تكون شبيهة بالأغصان التي تتشبث بها .

وكانت هناك فئة لا تشعر بأية رغبة في اخراج صوتها .

وصاح الصوت : « حفنة من القوادين الأوغاد ! إنني محصل في الترام » وبأعلى صوت ممكن : « محصل ! محصل ! أيها الأندال ! » ولم يستطع أرنانديث أن يراه من خلال قضبان زنزانته ، ولكنه انتظر : وفعلاً ظهر الرجل في مجال رؤيته ، وكان يدق بكل قوته على سترة من الصوف يمسكها بيده اليسرى ، وكأنه يريد أن ينفذ عنها الغبار ، وكان الفاشيون في كثير من المدن يأمرؤن باعدام العمال الذين تلمع ستراتهم عند الكتف فهذه علامة على أنهم يحملون بنادق ، والواقع أن أولئك الذين يحملون المعاول والسيور الجلدية تلمع ستراتهم عند موضع الكتف ، فتترك علامة مائلة تماماً لمن يحملون البنادق .

- « أنا لا أعبا بسياستكم . . . يا أبنا الفاسقات ! » .

ثم عاد الى الصياح قائلاً : « أنظروا إلى الكتف على الأقل . . . إن البندقية تترك كدمة زرقاء يا إلهي ! فهل لديّ هذه الكدمة الزرقاء ؟ لقد قلت لكم : إنني محصل ترام ! » .

وأقبل عليه حارسان ، فقال ارنانديث في نفسه : الأرجح أنها يسوقانه الى زنزانة لا الى الحرية ، فلا بد من إقرار النظام .

وكان السجناء يطوفون بالفناء ، يمرر كل منهم مصيره المسموم ، ومن المدينة كانت تتعالى صيحات باعة الصحف .

هناك السجناء الجدد كما جرت بذلك العادة كل يوم . . . ونظر اليهم ارنانديث . . . كما اعتاد كل يوم . . . وكما يحدث كل يوم ، فأداروا رؤوسهم حتى لا تلتقي نظراتهم بنظراته . . . وبدا ارنانديث يعرف ان المحكوم عليهم بالاعدام ينقلون العدوى .

هذا صوت مزلاج الزنزانة . . . وقد أصبح الآن أهم صوت . . .

وانتظر ارنانديث تنفيذ حكم الاعدام فيه ، حسب ما قد عاناه . ان الرجال الذين أراد أن يعيش معهم قد قدر عليهم الموت جميعاً ، أما الآخرون فلم يعد يود الحياة معهم ، ولم يكن نظام السجن نظاماً شرساً من حيث هو نظام ، وكان المشرفون على الادارة والحراس من المحترفين الذين أحضروا من أشبيليه ، أما الحياة في السجن فشيء آخر ، وكانوا يجلبون اليه احياناً عشرين أو ثلاثين سجيناً دفعة واحدة ، وفي هذه الحالة كان المرء يسمع سيلاً من طلقات الرصاص ، تتبعه طلقتان أو ثلاث للاجهاز على الجرحى ، وأحياناً كان صوت المزلاج يسمع ليلاً يتلوه صوت رجل ، ونفس الكلمة : « ماذا ؟ » ثم جرس القسيس ولا شيء عدا ذلك ، بيد أن الملل كان يرغمه على التفكير ، ولا يفكر المحكوم عليهم بالاعدام إلا في الموت .

وقاد أحد الحراس أرنانديث الى مكتب البوليس الخاص ، ومكث معه اذ لم يكن الضابط به . هذه نافذة أخرى مفتوحة على الفناء ، على نفس الحلقة

من السجناء .

وكان أولئك الذين لم يصدر عليهم الحكم بعد في الفناء ؛ أما المحكوم عليهم بالاعدام فكانوا في الزنانات ، وحاول أرناديث أن يلمح عبر الفناء أولئك الذين تواجه قضبانهم تلك النافذة ، فكانوا أبعد من أن يراهم ، ولم يستطع أن يتبين من أصابعهم المشبثة بالقضبان سوى الأجزاء التي وصل إليها الضوء .

أما وراء القضبان فلم يكن هناك سوى الظلام ، ومع ذلك لم يكن حريصاً كل الحرص على أن يرى ؛ كل ما يريده هو أن يتبادل النظرات مع الحياة ، لا مع الموت !

ودخل رئيس المكتب ، وهو ضابط في الخمسين من عمره ذو عنق طويل ، ورأس صغير ، وشارب شبيه بشارب كويبودي لانو ، وكان يمسك في يده محفظة أرناديث .

- « هل هذه محفظتك ؟ » .

- « أجل » .

وأخرج منها رجل البوليس حزمة من الأوراق المالية .

- « وهذه أوراقتك ؟ » .

- « لا أعرف عنها شيئاً . . . والواقع أن محفظتي كانت تحتوي على بعض

الأوراق المالية ؟ » .

- « كم ؟ » .

- « لا أعلم » .

ورفع الرجل عينيه الى السماء ، وكأنه يشهداها على قلة نظام الشيوعيين .

ولكنه التزم الصمت .

قال أرنانديث ، رافعاً كتفه اليمنى :

- « من سبعمائة الى ثمانمائة بيزينا » .

- « هل تستطيع أن تتعرف على هذه الورقة ؟ » .

وكان رجل البوليس الذي يشبه رأسه رأس الدبوس يراقب ارنانديث معتقداً أن وجهه قد يشي بما يعتمل في نفسه ، وفحص ارنانديث الذي بلغ به الإرهاق حد اللامبالاة - الورقة المالية وابتسم في مرارة .

وكان ما يحير البوليس السياسي ورقة مالية رسم عليها بالقلم الرصاص وسط « شخبطات » مضطربة ولا معنى لها بكل تأكيد - رقم ٨ وكأنه علامة على شيء ما .

وكان مورينو هو صاحب هذا الرسم ، ولم يكن قد سافر الى فرنسا وإنما رحل الى جبهة نهر تاجة ، وكان يردد : « ان الرجال يتحدثون في فناء السجن عن كل شيء - يا عزيزي - اللهم إلا عن السياسة . . . ولو أن أحداً منهم قال : لقد دافعت عما اعتقدت أنه حق ، ولكنني خسرت ، وسأدفع الثمن ، لو أنه قال ذلك لانفض عنه الجميع . . . ان الانسان يموت وحده تماماً . . . يا ارنانديث . . تذكر ذلك » .

هؤلاء الذين يسيرون وراء هذه النافذة . . . هل يفكرون في السياسة أو في فوهات البنادق المصوبة اليهم . . . أو في لا شيء ؟

وقد رد ارنانديث على مورينو حين ذاك بقوله : « أنا لا أعلق مثل هذه الأهمية على الموت . . . أما على العذاب فإني أعلق أهمية كبيرة » .

وقال مورينو : « لقد سألت في سجنني أولئك الذين عذبوا ، فيم كانوا يفكرون في اثناء التعذيب ؟ فأجابوني جميعاً بأنهم كانوا يفكرون فيما سيأتي بعد ذلك . . . حتى التعذيب نفسه لا يساوي شيئاً الى جانب يقين الموت » .
والشيء الرئيسي في الموت هو أنه يجعل كل ما سبقه لا علاج له . . . لا

علاج له الى الأبد ، التعذيب والوحشية اذا تبعهما الموت . . . هذا هو الشيء
الفظيع حقاً . . . » . وشرع مورينو يرسم في الجزء الأبيض من الورقة المالية .
« كل احساس أياً كانت فظاعته شبيه بذلك . . . ولكن حين ينتهي . . . »

وأعاد رجل البوليس سؤاله : « هل تستطيع التعرف على هذه الورقة ؟ »
بيد أن ابتسامة أرنانديث ضابقتة .

- « أجل . هذا أمر مفروغ منه » .

وكان أرنانديث قد وضعها على المنضدة في شيء من الشرود ، اذ كانت
الطلبات تقدم مجاناً في مقصف الميليشيا .

- « وما دلالة هذه العلامات ؟ » .

ولم يجب أرنانديث .

- « سألتك عن معنى هذه العلامات ؟ » .

يبدو أن هؤلاء الرجال يأخذون الأمور مأخذ الجد ، ونظر أرنانديث الى
ذلك الرأس الصغير ، والى ذلك العنق . . عندما يموت هذا الرجل سيكون
عنته أطول . . وسيموت كما يموت الآخرون ، وربما كانت ميتته أصعب من
الموت بالرصاص ، فيا له من أحق مسكين ! » .

وأمام النافذة ، كان السجناء يمرون محولين عنه أنظارهم

قال أرنانديث أخيراً دون أن تفارق شفثيه تلك الابتسامة المريرة : « انه
واحد من رجالنا ، هرب من أحد سجونكم ، وكان قد حكم عليه بالاعدام
منذ أكثر من شهر ، وكان يشرح لي أن كل شيء في الحياة يمكن
تعويضه . . . وفي أثناء حديثه رسم هذين الخططين : الخط الأول يمثل
الشقاء - اذا شئت - والآخر يمثل تعويضه ، بيد أن مأساة الموت لم تكمن في
أنه يحول الحياة الى مصير ، وأنه ابتداء من الموت لا يمكن تعويض أي شيء
بعد . . . وهذا ما يضيفني على لحظة الموت أهميتها الخطيرة حتى بالنسبة

لشخص ملحد .

وأضاف أرنانديث في لهجة أشد تمهلاً : « ولكنه مخطيء على كل حال » . وأحس كأنه يلقي محاضرة .

ولم يرد عليه ضابط البوليس في الحال ، أتراه فهم ؟ إن كان قد فهم فهذا معناه أنه محظوظ ، ان البلهاء يفهمون دائماً شيئاً ما . . ما أسخف الأمور التي يضيع فيها الأحياء وقتهم ! لو أراد مزيداً من التفسيرات فسوف تتعقد الأمور .

وعلى الرغم من شجاعة أرنانديث - لم يكن يجب أن ينطق بينه وبين نفسه بكلمة : « التعذيب » .

وأستغرق ضابط البوليس في التفكير ، ثم قال أخيراً :

- « مسألة شخصية » .

وما برح السجناء يمرون أمام النافذة .

وأستطرد ضابط البوليس قائلاً : « تفكير عجيب بالنسبة لضابط . . كان من الأفضل أن يذهب الى قسيس » .

- « لم يكن في الخدمة حين ذاك » .

وكف أرنانديث عن الابتسام .

- « والخطوط القصيرة ؟ » .

- « الخطوط القصيرة لا تعني شيئاً ، كل ما في الأمر أن موضوع المناقشة جعل الشخص الذي يحدثني عصبياً » .

ولم يكن أرنانديث يتكلم بلهجة عدوانية ، وإنما كان يتحدث في شرود ، رنة جرس . . ودخل أحد الحراس ، وقال الضابط :

- « تستطيع الانصراف » .

ما زال ارنانديث يفكر في مورينو ، وعلى نفس المائدة في طليطلة في اثناء الربيع (ابعد من العصر الذي ظهرت فيه مسرحية « السيد ») سمع رامون جوميث من « سرنا » وهو يقول : « عرفت ان الانسان قد انحدر من القرد بالنظر الى الطريقة التي يقشر بها الفول السوداني ويمضغه . . . » أين ولى زمان المرح ؟ وأدى أرنانديث التحية ، وتقدم خطوة نحو الباب للخروج .

فصاح رجل البوليس حانقاً : « قف » .

« لقد صدرت اوامر توصي بمعاملتك في شيء من الرفق الخاص ، ولكن . . . » .

وكان ارنانديث المستغرق في ذكرياته قد ثاب الى نفسه عندما سمع العبارة العسكرية « تستطيع الانصراف » . فأدى التحية كما كان يؤديها طيلة شهرين في طليطلة ، أي بقبضة مغلقة ، فهل ينوي الضابط مناقشة هذه الحركة الآن ؟

فقال : « الرفق في زنزانة المحكوم عليه بالاعدام . . ثم ، لماذا صدرت هذه الأوامر الخاصة ؟ » .

فنظر اليه الضابط مبهوتاً ، أولعله كان ساخطاً :

- « ولماذا تظن أنها صدرت ؟ أمن أجل سواد عينيك ؟ » .

ثم طرأت عليه فكرة ، فأشار بسبابته اشارة تدل على النفي ، وكأنه يريد أن يقول : « كلا . . لا جدوى من اتخاذ احتياطات معي ، وابتسم ثم قال : « انني على علم . . . » .

فسأله ارنانديث في هدوء : « بماذا ؟ » .

لا يمكن الانسان أن ينقلب مجنوناً بسبب الاشمئزاز ، غير أن ارنانديث

أحس فجأة بلحيته القدرة التي لم يقربها منذ أربعة أيام تحوطه بالدفء وكف عن الابتسام ، فبدا وجهه أقل طولاً مما كان ، وتقبضت يده المستندة على المائدة .

قال ناظراً الى ضابط البوليس ومسنداً قبضته الى المائدة : « أرجو ألا تعرض هذه الفرصة مرة أخرى » ، وكانت كتفه ترتجف .

- « لا أعتقد ان الفرصة يمكن ان تتاح لك مرة أخرى » .

فلم يزد ارنانديث على أن أجاب : « هذا أفضل . . . » .

- « الناس يحتفظون بالأوراق المالية حتى ينفقوها . . . »

ودخل ضابط آخر ، فناوله رجل البوليس الورقة المالية واقتاد الحارس ارنانديث الى زنزانه .

الفصل العاشر

سار « ارنانديث » مرة أخرى في شوارع طليطلة ، وكان السجناء مقيدين كل اثنين في قيد .

ومرت سيارة وفتاتان صغيرتان تسييران معاً ، وامرأة عجوز تحمل جرة ، ثم مرت سيارة أخرى تحمل ضباطاً فاشيين ، وحدث أرنانديث نفسه قائلاً : « الحقيقة انني مقضي عليّ بالاعدام من أجل « تمرد عسكري » . وعبرت امرأة ثانية تحمل لفافة من البقالة ، وثالثة تحمل دلواً ، يتبعها رجل لا يحمل شيئاً .

انهم احياء .

بيد ان الموت سيأتي عليهم جميعاً .

كان قد شاهد إحدى صديقاته تموت بمرض السرطان الخبيث ، وقد تحول جسدها الى لون شعرها الكستنائي ، وكانت هذه الصديقة طيبة . ورأى في طليطلة رجلاً من الميليشيا تسحقه دبابة ، كما عاين آلام الاحتضار التي يعانيتها المريض بالتسمم البولي

الكل يموتون . . . باستثناء هؤلاء المغاربة ، الذين يسرقون المحكوم عليهم بالاعدام ، فالقتلة بمعزل عن الحياة والموت !

وما أن وضعوا أقدامهم على الجسر حتى قال زميل ارنانديث بصوت خافت : « شفرة جيليت . . . اقترب مني » .

واقترب منه ارنانديث . وعبرت عائلة بأكملها (أجل . . . ما زالت هناك عائلات) ، ونظر اليه صبي صغير ثم قال : « انهم عجائز ! » وقال ارنانديث في نفسه : « انه يغالي . . هل هو الموت الذي يمنحني تلك القدرة على السخرية ؟ » ومرت امرأة ترتدي ثياب الحداد ، وتمتطي حماراً يحسن بها ألا تنظر اليهم على هذا النحو اذا لم تكن تريد أن تبين أنها معهم ، ولم يكن ارنانديث يشعر من جسمه الطويل إلا بضغظ الحبل على معصميه ، وأخذت الشفرة تقطع الحبل .

- « لقد فعلتها . . . » .

وتخلص ارنانديث من الحبل في رفق . . أجل ، لقد انقطع الحبل حقاً . ونظر الى رفيقه . . كانت له لحية كثة صغيرة .

وقال هذا الرفيق : « ما زال رجالنا خلف قمة الجبل . . عند أول تقاطع واجتازوا الجسر . وعند أول دعامة ، قفز الرجل . . .
أما ارنانديث فلم يقفز .

كان مستنزف القوى ، وكذلك كانت الحياة . . الهرب معناه أن يجري . . وهل فيه بقية للجري ؟ ماذا في الجانب الآخر من الجسر ؟ أخراج ؟ والمرء لا يستطيع أن يتبين شيئاً . وتذكر رسائل موسكاردو . وقفز بعض المغاربة أيضاً ، وأطلقوا النار ، ولكنهم أقل من أن يجرأوا على مغادرة الطابور . ولن يعرف ارنانديث أبداً : هل رفيقه قد نجح في الفرار . . ؟ لعله ما زال حياً ، فلقد عاد المغاربة دون أن يضحكوا .

وواصل القطيع سيره .

وهنا أخذت الأرض تصعد هوناً ما ، وأمام حفرة مستطيلة لم يكن ارنانديث يرى مدى عمقها وقف عشرة من رجال الفلانج بأسلحتهم وقفة الطابور ، ومعهم ضابط والى اليمين عدد من الأسرى إذا أضيف اليهم

الأسرى الجدد بلغوا خمسين سجيناً ، وكانت ثيابهم المدنية هي البقعة القاتمة الوحيدة في ذلك الصباح المشرق ، إذ أن ثياب المغاربة العسكرية الصفراء لا تفترق عن لون طليطلة .

هذه اذن هي اللحظة التي سيطرت عليه طويلاً .. اللحظة التي يعرف فيها الانسان أنه سيموت دون أن يستطيع عن نفسه دفاعاً .

لم يكن الأسرى في ظاهر الأمر - أكثر حرجاً أمام الموت من المغاربة والفلانج الذين سيقومون بإعدامهم ، وكان يحصل الترام واقفاً هناك مع الآخرين ، لا يفترق عنهم الآن في شيء .

وكان الجميع مهوتين قليلاً ، لا لسبب آخر سوى ما يشعرون به من إرهاق شديد ، أما فرقة تنفيذ الأعدام فكانت تبدو عليها امارات الاشتغال مع أن كل ما عليها هو أن تنتظر اشارة اطلاق النار من البنادق المحشوة .

- « انتباه ! » -

قيلت هذه العبارة بأسرع مما تقال عادة ، وما أن صدر هذا الأمر حتى شد الرجال العشرة قاماتهم تمثيلاً لمهزلة طاعة الأوامر ، على حين شردت نظرات الرجال الخمسين المحيطين بأرنانديث في الفضاء عبر كل مهزلة .

وأقبل ثلاثة من الفاشيين لاقتياد ثلاثة من الأسرى ، وبعد أن وضعوهم أمام الحفرة قفلوا على أعقابهم عائدين .

- « استعدوا » -

وكان الأسير الواقف على الشمال حليق الشعر على هيئة دائرة .

وأجسام الأسرى الثلاثة أطول من المعتاد فهي تشرف من على الناظرين إليها ، وتلقى على أفق جبال تاجة الشهيرة . ما أتفه التاريخ بالقياس الى الجسد الحي .. ! أعني الجسد الذي ما زال حياً ...

ووثبوا وثبة خطيرة الى الوراء .. فأطلقت الكتيبة نيرانها .. بيد انهم كانوا قد سقطوا في الحفرة . كيف يأملون الهرب ؟ وضحك الأسرى الآخرون في عصبية .

وما كان لهم أن يهربوا ، كل ما في الأمر أن الأسرى شاهدوا الوثبة أولاً ، والحقيقة أن الكتيبة هي التي أطلقت النار قبل تلك الوثبة .. مجرد خداع أعصاب ... ووضعوا ثلاثة آخرين أمام الحفرة ، ونظر اليه ، ثم خطا خطوة مبتعداً عن الحفرة بدافع من غريزته ، وحين التفت دون أن يرفع عينه لاحظ أنه تقدم صوب أقدام الكتيبة التي تصوب اليه بنادقها . فما كان منه إلا أن توقف ، وفي اللحظة التي هبط فيها الأسير الواقف على اليمين بشيء ما تساقط الثلاثة معاً واضعين أيديهم على بطونهم ، ثم ترنحوا منكفئين ، فلقد أطلقت الكتيبة نيرانها هذه المرة على مستوى أدنى .

ولبث بقية الأسرى دون حراك .. لا صدى .. لا صرخة ، ومن المدينة تنهأ نهبق حمار موحش ، وصوت بائعة القلقل ، ولم تلبث هذه الأصوات جميعاً أن تبددت تحت أشعة الشمس .

وانحنى على حذر أحد أولئك الذين يقتادون الأسرى أمام كتيبة التنفيذ ، وقد أمسك بمسدسه مصوباً إياه إلى الأمام ، واختلجت السماء بالنور .. وتذكر ارنانديث نظافة النعوش ، ومع أن أوروبا لم تعد تحب شيئاً فإنها ما زالت تحب موتها ، وتتبع الرجل المحني على حافة الحفرة شيئاً يتحرك بفوهة مسدسه ، ثم أطلق النار ، وأياً كان الأمر فإن تصور المرء أن تكون تلك الطلقة المجهزة قد أطلقت على رأس لا يحس ، ليس بأشنع من تصورها وقد أطلقت على رأس محتضر ، وفي هذه الساعة ، وعلى نصف الأرض الأسبانية ثمة شبان يشتركون في هذه المهزلة البشعة ، ويطلقون النار في هذا الصباح المشرق نفسه ، وثمره فلاحون يتساقطون أو يقفزون في الحفر ، ولم يكن ارنانديث قد شاهد قط انساناً يشب الى الوراء اللهم إلا في ساحة السيرك .

ووقف ثلاثة آخرون في نفس الموضع ، ولن يلبثوا أن يقفروا بدورهم الى الورا .

لو انني لم أبعث برسائل موسكاردو ، ولو انني لم أحاول التصرف في نبل ، أفكان هؤلاء الرجال الثلاثة يقفون هذا الموقف ؟ وكان اثنان منهم مرتبكين ، وقد تقدما الى الأمام قليلاً ، وأخذوا يتلفتان يمنة ويسرة ، وكان أحدهما لا يدري هل يعطي الكتيبة وجهه أو ظهره ؟ وحدث أرنانديث نفسه قائلاً في هستيريا : إن المرء لا يدري أبداً أي موقف يتخذ حين يرحل القطار . . . ماذا لو انني تصرفت على نحو آخر ، أكان ذلك يغير من الأمر شيئاً ؟ إن هناك دائماً أشخاصاً يتصرفون على نحو مغاير ! . . .

وتقدم منظمو الموكب الجنائزي نحو الثلاثة المرتبكين ، وأمسكهم من مناكبهم دون وحشية ، ووضعوهم في الوضع السليم ، وكان يبدو أن الأسرى الثلاثة يحاولون مساعدتهم في هذه المهمة ، ويجهدون في فهم ما يراد منهم وتنفيذه . . . « وكانهم يصطفون للسير في جنازة » . وإن تكن هذه الجنازة جنازتهم في واقع الأمر .

« ثمانية عشر ، تسعة عشر ، عشرون . . . » واصطف الأسرى في صفوف ثلاثة ، وكان الشخص الذي يعد أولئك الذين يجب أن يعدموا قبله لا يستطيع العد عدداً صحيحاً . وهم أرنانديث بالالتفات ليخبره بالرقم الصحيح . بيد ان هذا الرقم لم يكن تسعة عشر ، ولم يكن عشرين : بل كان سبعة عشر . والتزم أرنانديث الصمت ، وكان أسير آخر قد قال شيئاً ما . . عن الموت بالطبع ، وأجاب صوت آخر :

- « آه . . كفى . . كفى . . دعونا في سلام : هناك ما هو أسوأ . . . » ألا ليت ذلك لا يكون حلماً ، حتى لا يتكرر كل شيء مرة أخرى ! . . .

الذين ينتهوا أبداً من تنظيم أولئك الأسرى أمام فوهات البنادق الأفقية ،

وكأنهم يريدون التقاط صورة في حفل زواج ؟

ظليظة تتألق في النسيم المضيء المرتجف فوق سفوح جبال تاجة ،
وارنانديث بسبيله الى فهم ما يصنع التاريخ ، وهذه مرة أخرى في تلك البلاد
ذات النسوة المتشحات بثياب الحداد - يضاف فيها جيل جديد من
الأرامل . . وما معنى نبل الخلق أو الكرم في فعلة كهذه ؟ ومن الذي يدفع
الثمن ؟

ونظر ارنانديث في شغف الى طين الأرض ، أبتها الأرض الطيبة
الجامدة ، لا يحس بالقلق والاشمئزاز سوى الأحياء .

أشنع ما في الأسرى شجاعتهم ، انهم مطيعون ، ولكنهم ليسوا
سليين . ما أسخف صورة المجزرة هنا ! ذلك ان الرجال لا يذبحون كما
تذبح النعاج ، بل أن قتلهم عناء ومشقة ، وتذكر ارنانديث براداس ، وتذكر
سخاء النفس . ها هم أولاء الأسرى الثلاثة قد اصطفوا أخيراً في مواجهة
البنادق ، والصورة الآن مهيأة . . . السخاء هو أن يكون المرء منتصراً .

وأطلق الرصاص ، وسقط اثنان في الحفرة ، على حين انكفاً واحد الى
الأمم ، واقترب أحد منظمي الموت ، هل سيدفع الجثة بقدمه ؟ كلا ، لقد
انحنى ، وسحبها من الذراع والساق ، الجثة ثقيلة ، لأن الأرض صاعدة
وهذا الميت متعب حتى النهاية . الى الحفرة . . . ولكن ألن تنتهي هذه
المهزلة أبداً .

وأصبحت المسألة مجرد عادة : الواقفون على اليمين هم القاتلون ،
والواقفون على اليسار هم المقتولون . ووقفت أطياف ثلاثة جديدة هناك حيث
وقف الآخرون ، واتخذ ذلك المنظر الأصفر المؤلف من مصانع مغلقة ،
وقصور متهدمة طابع الأبدية الذي تتخذه المقابر ، والى أبد الأبدين ، سيفق
ثلاثة رجال ، ليحل مكانهم ثلاثة آخرون دون انقطاع في انتظار الموت .

وصاح أحد الفاشيين : « لقد أردتم الأرض . . . وهاتم أولاء تظفرون
بها ! » .

وكان أحد الثلاثة هو محصل الترام ، والشمس تتألق فوق النسيج اللامع الذي يغطي كتفه اليمنى فوق المعطف الذي قاده الى الاعدام ، لقد كف الآن عن الاحتجاج ، ولم يبق أمامه إلا الانتظار . . . واستسلم كالأخرين لمن يضعونه في الموضع المطلوب دون أن يتفوه بحرف وكان لسان حاله يقول : « أنا لا أعبا بسياستكم يا ابناء العاهرات » !

ومع حركة البنادق التي ارتفعت رفع قبضة يده مؤدياً تحية الجبهة الشعبية ، وكان رجلاً ضئيلاً هزياً مثل حبات الزيتون الأسود .
ونظر ارنانديث الى تلك اليد التي لن تلبث أصابعها بعد لحظة أن تتشبث بالأرض .

وترددت الكتيبة ، لا لأنها تأثرت ولكن لأنها تتنظر رد هذا الأسير الى النظام . . نظام المهزمين ، انتظاراً للدخول في نظام الموت ، وتقدم منه المنظمون الثلاثة ، فنظر اليهم المحصل ، وكان غائصاً في براءته كما يغوص الوتد في الأرض . نظر اليهم في كراهية ثقيلة مطلقة تنتمي الى عالم آخر .

وخطر لارنانديث . . لو استطاع هذا الرجل الفرار . . ! ولكنه لن يستطيع ، فقد أمر الضابط باطلاق النار !

وخطر لارنانديث . . لو استطاع هذا الرجل الفرار . . ! ولكنهم رافعين قبضاتهم .

وصاح الضباط : « انزلوا ايديكم الى جوانبكم » .

وهز الأسرى الثلاثة اكتافهم ، وما زالت قبضاتهم مرفوعة في الهواء وانحنى الضابط ليربط رباط حذائه ، وانتظر الرجال الثلاثة ، ثم اعتدل الضابط ، وهز كتفيه بدوره وأمر باطلاق النار .

وصعد ثلاثة آخرون من بينهم ارنانديث ، وقد شاعت في الجوراثعة الصلب الساخن والتربة المحروثة .

الجزء الثاني

نهر المانثانارس
(نهر وادي الرمل)

الوجود والفعل

الفصل الأول :

تدفقت على محطة أرانخويث الجماهير المدعورة الهاربة من طليطلة ،
ورجال الميليشيا المجردون من السلاح القادمون من نهر تاجة ، والفلول الباقية
من كتائب الفلاحين في اكستريمادورا . . ومثلما تتجمع أوراق الشجر في
دوامات سرعان ما تذررها الرياح تبددت الجماعات التي تدفقت كالتيار في
حديقة أشجار الكستناء الحافلة بالورود الحمراء القائمة كالعقيق ، أو أخذت
تجوس - كما يجوس المجانين في حديقتهم - في الطرقات التي تحف بها أشجار
الدلب الضخمة .

وكانت فلول كتائب الميليشيا ذات الأسماء التاريخية مثل : « الذين لا
يقهرون » و« النسور الحمراء » و« نسور الحرية » - يروحون ويغدون فوق
بساط من الزهور المتساقطة الذي لا يقل كثافة عن بساط الأوراق الجافة وقد
تدلت أذرعهم وأخذوا يسحبون بنادقهم من فوهاتهما كما تسحب الكلاب ،
وهم يتوقفون بين حين وآخر للإنصات الى صوت المدافع التي اقتربت من
الجانب الآخر للنهر . . ومن خلال الطلقات الصاعدة من جوف الأرض ،
والتي تكتمها كثافة زهور الكستناء الذابلة - ترامى صوت جرس قديم .

وتساءل مانويل : « كنيسة ، في هذه اللحظة ؟ » .. فأجابه لوبيز : « انه
أشبه بجرس بستاني » .

- « انه صادر من ناحية المحطة » .

ولم تلبث ان صاحبت هذا الجرس أصوات أخرى صادرة من أجراس

كبيرة وصغيرة ، من أجراس الدراجات ، ومن أبواق السيارات ، بل من الأواني المنزلية ، من أعماق الحديقة تدفق حطام الحلم الثوري : من سيوف ، وأغطية مخططة ، وستائر ، وبنادق صيد - بل وأحدث القبعات المكسيكية كما تتجمع القبائل حول دقات الطبول .

قال مانويل : « ومع ذلك يستطيع المرء ان يقول: ان نصفهم شجعان على أقل تقدير . . . » .

فقال لوبيز : « المهم . . . أيها السلحفاة ، هو أنهم لم يحطموا تمثالاً نصفياً واحداً » .

وكانت التماثيل النصفية الشهيرة المصنوعة من الجبس مصطفة على طول الحديقة ، سليمة لم تمس تحت أشجار الدلب الشاعرية ، وقد سقطت عليها أضواء وردية منعكسة عن قوالب الطوب الأحمر . غير أن مانويل لم يكن ينظر إليها ، وتدحرج موكب الكرنفال صوب المحطة تحت أقواس القرميد التي تسبح في الضوء الوردي المنتشر في تلك المناظر الملكية ، وكأنه حظيرة طيور دوارة جلبها الأمراء من اميركا لحدائقهم في ارانجوز .

وما أن أتجه مانويل ولوبيز بدورهما صوب الجرس حتى اتضحت لهما كلمة واحدة هي : « القاطرة » وحدث مانويل نفسه بأنه ينبغي عليهم ألا يذهبوا الى مدريد بأي ثمن ! ولم يجد أية مشقة في أن يتخيل ما يمكن أن يحدثه وصول عشرة آلاف رجل قد هبطت معنوياتهم ، وأصبحوا متأهين لتصديق أشنع الشائعات عقب سقوط طليطلة في الوقت الذي أخذت فيه مدريد تجهز دفاعها تجهيز اليائس .

وكانوا قد اقتربوا الآن من المحطة . . . ومن كل جانب ، ترددت كلمة دريد - مدريد - دريد - دريد كأنها صريف سرب من الصراخ الحانقة .

قال لوبيز : « سيقولون ان المغاربة قوم لا يقهرون ما داموا قد ولوا

أمامهم الأدبار! ولا بد أن يكون المغاربة أفضل تسليحاً ما داموا قد لاذوا بالفرار .. بالطبع ! » .

- « لقد لاذوا بالفرار لأنهم لم يجدوا من يقودهم ! ... والواقع انهم كانوا من قبل يقاتلون مثلنا قتالاً طيباً » .

وتذكر مانويل باركا وراموس ورفاقه في القطار المصفوح وزملاءه في تاجة ، كما تذكر أيضاً نقابياً عجوزاً كان يحمل العلم في مظاهرة منذ عدة اعوام مضت ، وكانت قوات ضخمة من البوليس قد أوقفت المظاهرة ولكنها سمحت لها بمواصلة المسير على شرط أن تطوي أعلامها ، وصاح المسؤولون عن المظاهرة : « أطواوا الأعلام ! » . وكان صوت مانويل قوياً غاية القوة ، وحين ردد الصيحة نظر اليه العجوز دون ان يقول شيئاً : وكان وجهه يقول : « نعم ، إن لم يكن من ذلك بد ، ولكن كلما ابطأنا كان ذلك أفضل ... فما زالت أمامك يا بني أمور كثيرة تحتاج الى تعلمها » .

لم ينس مانويل هذه الحادثة قط ، ولم يكن نفس الأشخاص دائماً على خطأ . وكانت الرابطة التي تربط مانويل بالبروليتاريا منسوجة من ذكريات وولاءات لا تستطيع أية حماقة أن تفصمها .. حتى ولو كانت خطيرة كهذه الحمافة ... قال :

- « ليس من الصعب أن يقف المرء الى جانب أصدقائه حين يصيبون وإنما أن يقف الى جانبهم حين يخطئون » ...

- « تستطيع أن تحاول دائماً ! » .

وكان ثمة شخص ملتج يشبه النجاشي اذا شوهد في مرآة تطيل الملامح ، قد صعد الى سقف سيارة ليموزين أمام باب المحطة .. أما في داخل المحطة وفي دهاليزها وفي صالة الانتظار فقد تزاخم الناس تزاخماً شديداً ، وكان من المستحيل أن تجد على الأرصفة مكاناً لطفل ، وفوق هؤلاء جميعاً أطلت أشجار الميدان السامقة .

وصاح الرجل الملتحي : « من يستطيع قيادة قاطرة ؟ ... هنا القطار
وهنا القاطرة ... هنا كل شيء ! » .

صمت مفاجيء ... الجميع في انتظار المنقذ .

- « استطيع أن اجعل القاطرة تشرع في المسير » .

- « ماذا ؟ » .

- « تشرع في المسير ... »

وواصل الشخص الذي قال ذلك مدفوعاً وعمولاً وسط صيحات
لحماس ... وصل الى سقف سيارة .

- « اجعلها تسير ... أنا استطيع تسييرها » .

وكان المتحدث شخصاً وديعاً رث الثياب يضع نظارات ، أصلع الرأس
قليلاً .

- « إني أحذركم ... وبشيء من الحذر أستطيع قيادتها » .

وهبط حماس الجماهير ، واقترب مانويل ولوبيز من السيارة خطوة
خطوة .

وضاح صوت : « هل تستطيع أن تهديء من سرعتها ؟ » .

- « هيه ... أظن ذلك » .

- « لكي يستطيع الأولاد الوثوب اليها في اثناء سيرها » .

ووصل مانويل الى سقف السيارة ، ثم صاح :

- « والجرحى ... هل يقفزون هم أيضاً ؟ » .

وحاول الكثيرون التسلق فوق اكتاف رفاقهم ، ماذا يريد ؟ .. أن
نرحف على مدريد سيراً على الأقدام ، أو ماذا ؟ هذا ضابط آخر ...

- « ايها الرفاق ... انصتوا إليّ ... إني .. »

ولم يستمع اليه أحد ، بل غرقت كلماته في سيل من الصيحات اندفع من كل جانب ، فرفع ذراعيه الاثنتين . وهنا أمكنه الحصول على ثوانٍ ثلاث من السكون ، صاح فيهم :

- « إني مهندس ... ولهذا أقول لكم : انكم لن تستطيعوا التحكم في هذه القاطرة » .

وتهامست الجموع : « انه القائد القديم للقوات المصفحة » .

- « فلتتول أنت قيادتها ! » .

- « لا أعرف القيادة ، ولكنني أعرف الآلة حين لا يكون من المستطاع قيادتها .. وهؤلاء الذين يجازفون بالرحيل مسؤولون عن موت الفين من الرفاق .. وماذا عن الجرحى ؟ »

ولحسن الحظ ، لم تكن هيئة السائق المتطوع توحى بالثقة ..

فصاحت أصوات في الجموع : « وما العمل اذن ؟ » .

- « اقترح شيئاً ! » .

- « انطق ! » .

- « نذهب سيراً على الأقدام ؟ » .

- « وماذا لو قطعت علينا الطريق ؟ » .

- « أصحیح أن نافالكارنيرو قد سقطت ؟ » .

- « وهل ... »

وصرخ مانويل : « فلنبق هنا ! » .

والثفت الجموع حول نفسها في سخط عابث مرهق ، وخرجت من الحشد ماث الأيدي ، تتحرك في انفعال كأوراق الشجر التي يتقاذفها الريح ، ولكنها لم تلبث أن عادت الى كتلة الأجسام المختلطة .

- « مضى يومان منذ أن ... » .

- « المغاربة في طريقهم إلنا ! » .

وكان مانويل يعلم أنه لا وجود لامدادات .

- « ومن الذي سيطعمنا ؟ » .

- « أنا » .

- « ومن الذي سيؤوينا ؟ » .

- « أنا » .

انه اشبه الآن بمن يصد الأمواج ، ولكنه لم يكن على يقين من أن الأمواج لن تكون أقوى ...

صاح فيهم : « ان قتال المغاربة أيسر من الوصول الى مدريد بقطار جامع » .

وخرجت الأيدي من الحشد مرة أخرى ، وكانت مغلقة هذه المرة ، انها قبضات ، ولكنها ليست للتحية .

قال لوبيز هامساً وكان قد صعد بدوره الى سقف السيارة : « سنهلك رمية برصاص البنادق خلال ربع ساعة » .

- « لا أعابذلك، كل ما يعنيني هو ألا يضعوا أقدامهم في مدريد » .

وتذكر هينريش حين قال : « كل موقف حاضر يتضمن على الأقل عنصراً ايجابياً لا بد من العثور عليه ، واستغلاله » .

وشرع في الصياح من جديد :

- « لقد أصدر الحزب الشيوعي أوامره بالالتزام النظام المطلق تجاه السلطات العسكرية ، فليرفع الشيوعيون منكم أيديهم ! » .

ولم يسارع الشيوعيون الى الكشف عن أنفسهم ، ولاحظ مانويل ان الميكانيكي الضئيل الأصلع الذي يقف الى جواره يضع على ثوبه نجمة الحزب .

سأله مانويل : « أين بندقتك : ان الشيوعي لا يتخلى عن بندقيته » .

فنظر اليه الآخر ، وقال بلهجة لا يشوبها التهكم :

- « ولكنه يفعل ذلك كما ترى ذلك بعينك » .

- « وبهذه الفعلة يخرج نفسه من الحزب ، أين شارتك ؟ » .

- « ها هي ذي يا عزيزي ، ولكن لا تصرخ على هذا النحو . . ماذا تريد أن تصنع بها ؟ » .

وسقطت على سطح السيارة سبعة أو ثمانية نجوم قذف بها الجمهور دون أن تحدث سوى صوت ضعيف مكتوم .

قال لوبيز : « لن تمضي خمس دقائق حتى ينهال علينا الرصاص » .

- « الروح المعنوية هابطة أشد الهبوط » .

وبدأ مانويل في الصياح من جديد بملء صوته ، ولكن في تؤدة ليتيقن أنه مسموع .

- « لقد حملنا السلاح ضد الفاشية ، ونحن نعلم أننا قد نموت ، ولو اننا قتلنا في سوموسيرا لكان ذلك أمراً طبيعياً لا شذوذ فيه ، ولكن ، لماذا تغيرت الحال ؟ انه الارتباك » .

« لقد قال الحزب وقالت الحكومة : النظام العسكري أولاً ، ونحن هنا قائدان ، وعلينا تقع المسؤولية » .

« وهكذا ينتهي الارتباك ، وستأكلون هذا المساء ، ولن تناموا في العراء ، يديكم الأسلحة والمؤن . . . لقد كنا منتصرين في سوموسيرا وسنتنصر هنا أيضاً . . . قاتلوا بنفس الطريقة . . . هذا كل ما في الأمر ! . . . » .

« ومن اليسير الدفاع عن النهر ، لأن الدبابات لا تستطيع عبوره » .
وصاحت عشرات الأصوات :

- « الطائرات ؟ ماذا عن الطائرات ؟ » .

- « سنحفر الخنادق لنختفي فيها صباح غد . . . وهناك في الداخل مخبأء ارضية . . . وسنستخدم السكاكين . . . » .

« إن الأمر لا يحتاج إلا أن نحارب في مدريد أو برشلونة أو في القطب الشمالي . . . ولن نسلم بانتصار فرانكولكي نقع تحت رحمته عشرين عاماً خوفاً من أن يشي بنا عاهرة أو جار أو قسيس . . . تذكروا ما حدث لأستوريا . . . » .

« ستكون طياراتنا الجديدة على أهبة الاستعداد بعد أيام . . . »

« البلاد كلها تقف الى جانبنا . . . البلاد هي نحن . . . »

« وعلينا أن نصمد . . . أن نصمد هنا لا في أي مكان آخر . . . »

« ولا ينبغي أن نقود جيشاً من المتشردين ، ويجب أن نبقي مع جرحانا » .

- « كفى » . . . »

وصاح صوت كأنما ينبعث من أوراق الأشجار الجافة : « انهم يخدعونكم مرة أخرى » .

- « من ؟ اكشف عن نفسك أولاً ! »

ولم يتحرك ذلك الذي صرخ ، وكان مانويل يعرف ان الالتزام الشخصي له وزنه عند الأسباب .

- « لا وجود لأحد غيرنا . . نحن الآثنين - اللذين نقف أمامكم - لقد حاربنا منذ اليوم الأول ، وسنحمل المسؤولية على عاتقنا .

« وإني أقول لكم : إنكم ستنامون ، وستأكلون ، وأنتم تعلمون أن من يحدثكم صديق لكم . . ولقد كنا معاً في ١٨ من يوليو . . وان روحكم المعنوية هابطة ، وليست لديكم الأسلحة الكافية ، وقد عضكم الجوع بنابه . . ومع ذلك بينكم من كانوا يهاجمون المدافع بالسيارات وثكنات الجبل بالمنجنيق ، والفاشين في تريانا بالسكاكين وفي قرطبة بالمقلاع ، أنبثوني إذن يا أولاد : أكنتم تفعلون هذا كله لكي تولوا الأدبار الآن ؟ أقول لكم قولة رجل لرجل : إنني أتق فيكم على الرغم من صياحكم .

« وإذا لم تحصلوا غداً على ما أعدكم به فأطلقوا النار . . وحتى ذلك الحين ، افعلوا ما أمركم به . »

- « عنوانك ! » .

- « أرانجوز ليست واسعة . . . وليس لدي أي حرس . »

- « فليقل . . . » .

- « كفى ! انني أتعهد بتنظيمكم ، وأنتم تتعهدون بالدفاع عن الجمهورية . . من يوافق على ذلك ؟ »

وتحت دوامات الأوراق الجافة التي تصاعدت حتى أعالي الأشجار تمايلت الجموع كأنها تلمس لها طريقاً ، واهتزت الرؤوس المطرقة بمئة ويسرة ، وهي تسحب معها الأكتاف ، وكأنها ترقص رقصة وحشية تحت الأيدي المرفوعة في الهواء بأصابعها المتباعدة ، واكتشف لوبيز ان سلطان أي خطيب

لا يقاس إلا بما ينتج عنه من أثر ، وعندما قال مانويل - « إنني أثق فيكم » - أحس الجميع أنه صادق فيما يقول ، وبدأوا يختارون أفضل ما في نفوسهم ، وشعر الجميع انه عازم على مساعدتهم ، وكان الكثيرون منهم يعلمون انه منظم ممتاز .

- « فليتقدم الشيوعيون الى السيارة على اليمين ، فليست لكم حقوق اكثر مما للآخرين ، وإنما عليكم واجبات اكثر . . مفهوم .

« أما المتطوعون فليتقدموا الى اليسار » .

وصاح صوت وسط الجلبة : « فلنبدأ توأ في حفر الخنادق » .

- « ستذهب الى الخنادق عندما يأمرك المسؤلون بالذهاب » .

والآن كان كل منهم يريد أن يصنع شيئاً ، وتدافعوا بالمناكب للانتظام في الصفوف كما كانوا يتدافعون مسرعين نحو القطار .

- « على المسؤولين عن الميليشيا أو عن الحزب أن يخلوا قاعدة الانتظار وأن يحتلوها ، سأصدر اليكم التعليمات للحصول على الأسرة وعلى الطعام . . . أما الرفاق الآخرون فعليهم أن يكثوا حيث هم » .

- « وسيحصل كل منهم على حشية أو مرتبة » .

ووثب من السيارة يتبعه لوبيز .

وسأل هذا الأخير : « سيعودون الى التذمر مرة أخرى بعد خمس دقائق . . . أليس كذلك ؟ » .

- « نعم . . بل ينبغي ان ينهكوا في شيء ما حتى يحين موعد نومهم وسيكون كل شيء على ما يرام ، وعليك أن تبقى هنا » .

- « وماذا يمكن أن أصنع بحق الجحيم ؟ » .

ولم يكن لوبيز واهماً فيما يتعلق بقدرته على الزعامة . . .

- « دعهم يحصون أنفسهم ، وهذا شيء ضروري ، ما دمت أريد أن أخدمهم فليجمع كل مسؤول رجال وحدته أو منظمته ، وليعطك بعد ذلك عددهم ، ثم يعد تجميعهم ، فتتاح لي بذلك فسحة من الوقت مدتها ساعة ، إذ يوجد على الأقل خمسمائة رجل » .

- « حسن . . . فلنشرع في العمل » .

ولم يكن لوبيز ذا كفاية . . .

لقى مانويل بنفسه على مقعد كان يجلس عليه الأسقف في حجرة رئيس أحد الأديرة ، وقد أخذ منه الارهاق كل ما أخذ ، وجعل ينظر نظرة لا تخلو من الدهول الى التماثيل النصفية المصنوعة من الجبس المرصوفة في الحديقة وهي تلمع لمعاناً خافتاً في ظلام الليل ، وكأنها في حديقة فارسية ، وكان لوبيز قد اقترح نقل هذه التماثيل الى مدريد ، وأن توضع مكانها عقب الانتصار حيوانات « ذات دلالة » ، غير أن مانويل لم ينصت اليه . . وما أن ترك لوبيز حتى هرول الى لجنة الجبهة الشعبية . . وهناك وجد بعض الزملاء البارعين الذين يعرفون المدينة حق المعرفة ، وكانوا قد اختاروا هذا الدير مركزاً له ، وجمعوا ستمائة حشية وسريراً أو مرتبة . . وتبرعت فتيات ملجأ الأيتام بنصف فراشهن ، على أن تنام كل اثنتين منهن في فراش واحد بدلاً من واحدة وحمل كل ما يمكن حمله من الأديرة أو الثكنات أو مراكز الحراسة وكان على الباقي أن يكتفوا بالنوم على القش أو على البطاطين .

وفيا هو منهمك في عمله وصل الى المدينة وقد انتخبه الجنود ليكون حلقة اتصال بينهم وبين القيادة ، وكان الجميع قد آووا الى مضاجعهم بعد أن دقت العاشرة ، وأمضى مانويل ما يقرب من ساعة وربع الساعة في اتصال تليفوني بالحزب الشيوعي وبالفرقة الخامسة وبوزارة الحرب حتى استطاع الحصول على

وعد بتموين الرجال ثلاثة أيام متوالية ، على أن يتمكن من تنظيم التموين بعد ذلك في غضون تلك الأيام الثلاثة ، غير أن سيارات النقل لم تكن لتصل قبل الفجر ، وأياً كان الأمر ، فقد رحلت بعض العربات فعلاً تحمل طعاماً يكفي مائتين من الرجال ، وأصدر مانويل أوامره بأن يتناول الرجال طعامهم في الساعة الحادية عشرة . . .

وكان ينتظر أيضاً جنوداً مدربين من الفرقة الخامسة بحيث يمكن ان يقوموا بتدريب غيرهم ، أو أن يؤلفوا نواة فرقة جديدة .

وطرق الباب . . . انه الوفد عائد من جولته .

قال مانويل وقد أحاطت برأسه هالة من العذاري والقلوب المقدسة :

- « ماذا ؟ .. هل هناك متاعب أخرى ؟ »

- « لا شيء من ذلك ، وإنما الأمر على العكس . . . انظر مثلاً ، أنت ورفيقتك لستما من العسكريين ، ومع ذلك فقدتوليتما القيادة . هذا واضح ، ونحن من جانبنا . . . نحب ذلك ، لقد قلت كلاماً سديداً : انهم لم يفعلوا كل ما فعلوه لكي ينتهوا مثل تلك النهاية ، وما وعدت به وفيت به حتى الآن ، وكنا نعلم أن هذا ليس بالأمر اليسير ، ومن ثم فقد أمعنا في الفكر ، نحن رجال الوفد ، والرفاق . . . أفاهم أنت ؟ فوجدنا على سبيل المثال انك لم تكن مخطئاً فيما يتعلق بمسألة القطار » .

وكان المتحدث بلسان الوفد نجاراً له شاربان متدليان قد وخطهما الشيب ، وهناك في مؤخرة المتزّه كانت البلابل الشهيرة تغني بصوتها الرخيم .

« واليك ما انتهى اليه تفكيرنا : قلنا : لو اننا وضعنا حراساً لحماية المحطة ما تكررت حكاية اليوم . . . وعندنا ما يكفي من الرجال ، ومن ثم جئنا لنقترح عليك مسألة الحراسة هذه » .

ومن وراء المتحدث وقف ثلاثة من زملائه يرتدون الزي العسكري متصبي القامة - ووراءه خلفية الصومعة البيضاء : واحد الى الامام وثلاثة ورائه ، وهذا هو التشكيل الذي تتخذه الوفود العمالية عادة . وكان شعور أولئك الرجال بأنهم يمثلون أمام واحد منهم حيوات ومواطن ضعف ومسؤوليات شعوراً واضحاً أشد الوضوح حتى ليحسب المرء انهم يجسمون الثورة في أسط جوانبها وأثقلها وزناً وكان الثورة بالنسبة لذلك المتحدث هي الحق في أن يتكلم على هذا النحو واحتضنه مانويل على الطريقة الأسبانية دون أن يقول شيئاً .

ولأول مرة أحس انه يقف وجها لوجه ازاء أخوة تتخذ شكل الفعل قال : «والآن ، فلنلتهم طعامنا ! » .

ونزل الجميع معاً ، وكان المنظر كما توقع مانويل : ففي العنابر ، وفي القاعات ذات الأقواس ، وتحت التماثيل الزرقاء والمذهبة للقديسين الذين ظلوا في أماكنهم (علق رايات حمراء على حراب القديسين المحاربين) - نام الرجال المكدودون نوم الجنود الذين أرهقتهم المعركة ، وسأل مانويل دون أن يرفع صوته كثيراً : « من يريد أن يأكل ؟ » وكانت الاجابة غطيطة جماعة من المتعينين : لن يطلب الطعام إذن سوى مائة من الرجال ، وعلى هذا ، فإن عربات المؤونة القادمة من مدريد تكفي ورن كعبا حدائه على بلاط الكنيسة ، فأحس بالخجل ، وبرغبة قوية في الضحك .

وعندما انتهى الرجال من تناول وجبتهم عاد مانويل الى لجنة الجبهة الشعبية ، وكان عليه أن ينظم هذه الليلة تسليح الرجال ، وأن يجد صابوناً ، وأن ينتهي عند الفجر من تكوين التشكيلات الجديدة « من المضحك ان يكون الصابون ضرورياً للحرب » ولم يكن يرى الأشجار في ظلمة الليل ، ولكنه كان يحس بأوراقها الوافرة عالية فوق رأسه ، وقد أخذت رياح الليل تنتزعها من أغصانها

ومن أحواض الورد فاح عطر خفيف حجبتة رائحة نبات البقس
وأشجار الدلب المرة ، وكأنما حملت هذه الرائحة الأخيرة أصوات المدافع
المكتومة من الضفة الأخرى للنهر ، ولم تكن سيارات المؤن قد وصلت
بعد . . .

وكان أعضاء اللجنة ساهرين هم أيضاً .

وعندما عاد مانويل استوقفوه عند باب الدير . . .

فسألهم بعد ان كشف عن شخصيته :

- « بحق الجحيم ماذا تصنعون ؟ » .

- « نحن حراس البوابة » .

كم من هجمات شنها الفاشيون بنجاح بسبب فقدان الحراسة ! ونظر
مانويل في الضوء الخافت المنبعث من الدير - الى فوهات البنادق فوق معاطف
مبهمة : هؤلاء أول حرس تلقائي في الحرب الأسبانية .

الفصل الثاني

ليلة السادس من نوفمبر :

اصلحت ثلاث قاذفات للقنابل . . وكانت طائرة مانيان (التي أصبحت تسمى الآن جوريس (Juarès) قد وصلت فوق جزر البليار الليلية . وأخذت تحلق وحدها منذ ساعة فوق البحر ، وكان اتينيس هو الذي يتولى قيادتها ، وحول انوار ميناء « بالما » التي لم تطفأ جيداً أخذت قذائف المدافع المضادة للطائرات تنفجر من كل صوب ضد الطائرة غير المرئية ، كانت المدينة تدافع عن نفسها كأنها أعمى يصرخ مستنجداً ، وكان « مانيان » يبحث في الميناء عن طرادة من طرادات الوطنيين ، وعن السفن الناقلات للأسلحة .

وأخذت الأنوار الكاشفة تمزق حجب الليل أمامه وخلفه في خطوط متقاطعة . وقال في نفسه وهو متوتر الأعصاب : انهم كمن يقتل ذبابة بعيدان رفيعة . . . وكانت الطائرة تسبح في ظلام دامس اللهم باستثناء مكان القيادة .

هل تراهم يحاربون العدو أو يحاربون البرد ؟ كانت درجة الحرارة قد هبطت عشر درجات تحت الصفر ، وكان ضاربو المدافع الرشاشة يبغضون اطلاق نيرانهم وهم لابسون للقفازات ، غير أن صلب المدافع الرشاشة كان يلسع الأيدي من البرد ، والقت القنابل أضواء برتقالية على النافورات الليلية التي انبثقت حين سقوطها ، وأياً كان الأمر فإنهم لن يعرفوا احتمال اصابة

السفن إلا من وزارة الحرب .

وكان كل منهم يراقب من حوله انفجار القنابل المضادة للطائرات ، وقد تجمد وجهه ، واندرس جسده في عفريته الطيران المبطنة بالفراء وحيداً في أعماق الظلمة التي جثمت على البحر .

وأضيئت الطائرة فجأة : « أطفئوا الأنوار بحق السماء . . . » هكذا صاح مانيان ، ولكنه لم يلبث أن شاهد على وجه أتينييس وعلى جودته ظلال نوافذ الطائرة ، ومعنى ذلك أنها أضيئت من الخارج .

وعادت الأنوار الكاشفة ، فأمسكت بالطائرة مرة أخرى ، ورأى مانيان رأس « بول » الطيب . وظهر « جارديه » الذي تقاطعت عليه البندقية الصغيرة ، لقد أغاروا على السفن ، وتجنبوا القنابل المضادة للطائرات في ظلام العاصفة تمزقه بين حين وآخر بروق القنابل الزرقاء ، وشملت أخوة السلاح الطائرة كلها حين شملها ذلك الضوء الذي يتهددها ، ولأول مرة منذ أن بدأت رحلتهم أبصر كل منهم الآخر .

انحنوا جميعاً صوب ذلك النور الذي جمع بينهم ، والذي يقصدهم في آن واحد ، وكانوا يعلمون جميعاً أن ثمة مدفعاً تحت ذلك الوكر .

وهناك على الأرض كانت الأنوار تنطفئ ، وطائرات المطاردة تتأهب للصعود بلا شك ، والظلمة تمتد حتى الأفق ، ووسط هذا الظلام كله هبطت الطائرة في حلقات لولبية ، وهي تهزرجالها السبعة الذين سقط عليهم ذلك النور الباهر هزاً عنيفاً ، دون أن تنجح في التخلص من الأضواء الكاشفة .

ووثب « مانيان » الى جانب أتينييس الذي كان يشد كمه مغمضاً عينيه ليتحاشى الضوء الذي يغشي الأبصار . . . لن تمضي ثوان ثلاث حتى تطلق المدافع المضادة للطائرات نيرانها .

وهناك داخل الطائرة وضع كل منهم يده اليسرى على محبس مظلته . . .
ودار أتينييس بالطائرة ، مصراً على أسنانه ، وقد تشنجت أصابع قدميه

على أجهزة التحكم متمنياً بكل خلية من جسمه أن يكون في طائرة مطاردة ،
وانعطفت قاذفة القنابل كما تنعطف سيارة النقل ، وما فتئ النور ملتصقاً
بها .

وعلى بعد ثلاثين متراً انفجرت القنبلة الأولى ، فارتجت الطائرة . . . ولن
تلبث المدافع المضادة أن تصحح خطأها ، وانتزع « مانيان » السماعة من
مساكة رأس أتينييس . .

وصاح الطيار : « عاصفة ! » وهو يصور بيده الحركة التي سيقوم
بها . . .

وكانت هذه هي المناورة التي يستخدمها الطيارون للتخلص من ربح
العاصفة عندما تفشل أجهزة التحكم ، وتتلخص هذه المناورة في الانقضاض
بثقل الطائرة كله .

واحتج « مانيان » بشاربه احتجاجاً عنيفاً ، وسط ضجة المحرك والنور
الأبيض ، وأشار الى ان الأنوار الكاشفة ستتعقب انقضاض الطائرة ، وأشار
بيده أيضاً الى ان الطائرة يمكن أن تنزلق انزلاقاً جانبياً تتبعه دورة .

وهبط أتينييس هبوطاً يبدو كالسقوط ، وسط ضوضاء أحدثها صليل
الأجزاء المعدنية وحوامل القذائف التي تدرجت داخل الطائرة وهوى في
ظلمة الليل ، ثم دار دورة ملتوية على هيئة حرف S ومن تحته ومن فوقه
كانت الأضواء الكاشفة تمزق الظلام وتطعنه كأنها أعمى يتحسس طريقه
بحسام !

واستطاعت الطائرة أن تتحرر من أسر الضوء الكاشف ، وهامت من
جديد في الليل الذي بسط عليها حمايته ، وكما يستغرق الانسان في النوم عاد
طاقم الطائرة كل الى مكانه ، وأخذوا ينعمون بالراحة التي تعقب كل معركة
في القمة الثلجية التي شملت بحراً لا أضواء فيه ، غير أن كلا منهم كان
يتمثل الوجوه الأخوية التي تراءت لحظة قصيرة .

وبعد أن توقفت الطائرة برهة قصيرة في بلنسية بين غابات البرتقال ترك « مانيان » جوريس عند مدينة « البسيط » على أن تواصل رحلتها الى قلعة هنارس (عبد السلام) وهو المطار الأخير الذي تبقى للجمهوريين في اتجاه مدريد ، ومكث جزء من الطاقم في البسيط لاختيار الطائرات التي تم اصلاحها على حين نزل الجزء الآخر الى ساحة القتال في القلعة .

وكانت الكتائب العالمية تتشكل في البسيط ، وفي هذه المدينة الصغيرة السوردية المشوبة بلون أشبه بلون القشدة ، وفي ذلك الصباح البارد الذي يؤذن بمقدم الشتاء - كان آلاف الرجال يشيعون الحركة - كأنهم في مهرجان - في سوق زاخرة بمختلف أنواع السلع : من سكاكين وأوان وملابس داخلية وأحذية وأمشاط وشارات وحملات ، وأمام كل حانوت يبيع أحذية أو قبعات وقف صف طويل من الجنود ، وكان بائع صيني جائل يعرض سلعته على حارس اعطاه ظهره ، والتفت الحارس فانسل البائع ، فقد كان الأثنان صينيين .

وعندما وصل « مانيان » الى مركز الكتائب كان المندوب الذي يبحث عنه - في معسكر التدريب ، ولن يعود منه قبل ساعة ، ولم يكن مانيان قد تناول غذاءه فدخل أول مشرب صادفه .

وهناك وسط الجلبة ، طفق سكير يصيح ، فعلى الرغم من كل الاحتياطات التي اتخذوها كان ينضم الى تلك الكتائب رجال من كل المستويات . وعندما كانوا يرفضون ، ويتم ترحيلهم في قطار الظهر كانوا يبذلون كل ما في وسعهم لمضايقة المسؤولين طيلة الصباح حتى يحين موعد رحيلهم ، وذات مرة تقدم للالتحاق بالكتائب صعاليك ليون جميعاً ، ولكنهم أوقفوا عند الحدود ، وأعيدوا الى المحطة التي جاؤوا منها ، فالكتائب تتألف من محاربين لا من كومبارس .

وصاح السكير : « لقد سئمت . . سئمت ! أنا الذي اجتزت المحيط الأطلنطي بطائرة تحمل أمير موناكو ، أنا المحارب القديم في الفرقة الدولية .

يا لكم من أوغاد ، عصابة من الأندال ، أنتم الذين تزعمون أنكم ثوريون ! » .

وكان قد ألقى كوباً على الأرض ، وجعل يدوس على شظاياها .
ونفض شخص اشتراكي ، بيد أن سكيراً آخر منعه بيده . . .
- « دعه وشأنه ، إنه زميلي . . . ستري انه من اليسير إسكاته ، وهو على هذه الحالة » .

وذهب الرجل وراء رفيقه الذي حطم الكوب ، وأمره قائلاً :
- « إلى الصف . . . انتباه ! » . . .

وقام السكير بالحركات المطلوبة منه فوراً .
- « إلى اليمين . إلى اليمين . إلى الأمام . . . سر » .
واتجه السكير صوب الباب ، وخرج منه .
وقال الرجل وهو يعود إلى زجاجة الكونياك :
- « ليس ثمة ما هو أسهل من ذلك » .

وبحث « مانيان » عن وجوه يعرفها ، فلم يجد أحداً ، وصعد إلى الطابق الأول ، وهناك وجد ثلاثة من الطيارين المتطوعين يلعبون بالسلاميات على الأرض « لعبة العاشق » تحت صورة صاحب المشرب .

وكان عدد كبير من الطيارين المتطوعين قد عاد إلى فرنسا ، أما هؤلاء فكانوا يديرون ظهورهم لمانيان عاكفين على لعبتهم في جو ذلك الصباح البارد ، وكانت النافذة مفتوحة ، ومع درجة سلاميات أسبانيا الكبيرة اقتحمت الحجرة طرقات واضحة أشبه بطرقات سنابك الخيل ، ولكنها منتظمة كطرقات الحدادين . والواقع انها كانت خطوات الجنود المكتومة . وأبقى المتطوع الذي ألقى بالسلاميات يده مرفوعة في الهواء ، على حين

استمرت السلاميات في الاهتزاز ، وارتجفت المنازل المبنية باللبن تحت دقات الأحذية الثقيلة التي مرت الآن تحت النوافذ ، وحتى اللعب نفسه اهتزت تحت وقع الحرب .

وسار « مانيان » الى النافذة ، كان رجال الفرقة العالمية ، الذين لم يتخلصوا بعد من ثيابهم المدنية - وان انتعلوا الأحذية العسكرية - يذرعون الشارع الضيق بوجوههم العنيدة التي عرفت عن الشيوعيين أو بشعورهم المرسلة كالمثقفين ، وكان منهم البولنديون العجائز ذوو الشوارب الشبيهة بشوارب نيتشه ، والشباب الذين يذكرون المرء بالوجه التي تظهر في الأفلام السوفيتية ، ومنهم الألمان ذوو الرؤوس الحليقة ، والجزائريون والاطاليون الذين يشبهون الأسبان الحائرين بين الفرق العالمية ، والانكليز الذين يسترعون الأنظار أكثر من الآخرين جميعاً ، والفرنسيون الذين يشبهون توريث أو موريس شيفالييه ، وكانوا جميعاً متحمسين ، لا بفضل اجتهاد شبان مدريد وحرصهم على التعلم ، وإنما بتذكرهم للجيش الذي انتموا اليه ، أو للحرب التي اشتركوا فيها بعضهم ضد بعض ، وحين اقتربوا من الثكنات شرعوا في الانشاد . ولأول مرة في التاريخ أنشد رجال يتتمون الى أمم الأرض كافة نشيداً واحداً هو نشيد « العالمية » ، وقد اندمجوا في تشكيل عسكري واحد .

ودار مانيان على عقبه ، وعاد المتطوعون الى لعبتهم ، فما كانوا يسمحون لأحد بتعطيلهم عن اللعب .

وراوده الأمل الآن في انه سيكون قادراً على تكوين فرقة طيران أجنبية وكان قد أمضى خمسة عشر يوماً في برشلونة لتنظيم ورشة التصليح ، وليس من شك أن غيابه قد ضاعف من فوضى رجال المطار ، ولكن أياً كان الأمر فإن ست قاذفات قنابل ستمكن من الطيران قبل مضي أسبوع ، وعاد المندوب الذي كان عليه أن يقابله بصحبة الرجال الذين مروا تحت النافذة ، وانصرف « مانيان » متجهاً صوب مركز قيادة الكتائب ، وقد عقد ما بين حاجبيه مستغرقاً في فكرته التي استولت على رأسه .

الفصل الثالث

- « كلا . ولكن - وأرجو المعذرة - هل سيستغرق ذلك وقتاً طويلاً ؟ » .

بهذه العبارة صاح لكلير ، وهو يرتدي عفرينة الطيار ، وقد أضفت عليه خوذة الطيران هيبه رومانية ، وأخذ يلوح بيديه كطاحونة الهواء وسط أفراد طاقمه في مطار « القلعة » . وعلى بعد ثلاثين متراً هناك حيث لا يصل صوته - كان أحد أصدقاء « سمبرانو » وهو قائد كتيبة يدعى كارنيرو - يراقب بنظارة مقربة سماء مدريد ، وكان الطقس رديئاً .

- « لماذا لا نتقدم ؟ انهم لن يزيدوا عن كونهم ألماناً في نظري حتى ولو عن لهم أن يتنكروا في زي الملائكة ! » .

وصعد كارنيرو الى طائرته ، وجعلها تنتظم في الصف استعداداً للطيران . وكان « الكاربوراتير » في طائرته معطلاً ، ولهذا عهدت اليه قيادة الطائرة « جوريز » بطاقم اسباني ، وتبعه لكلير ، ووراء قاذفة قنابل اسبانية ، وكانت طائرات المطاردة الجمهورية - وهي مجهزة تجهيزاً ضعيفاً - تحوم فوق القلعة فعلاً .

وهذه الطائرات وصلت من اميركا دون ان تكون مزودة بمدافع رشاشة جديدة .

وهكذا استمرت قوات الحكومة تقاتل بطائرات لويس الأسبانية من طراز

سنة ١٩١٣ .

وكان لكثير منذ أن تحطمت طيارته « الأوريون » ، وكلف قيادة الطائرة « بليكان رقم ١ » المصنوعة من أجزاء طيارتين آخرين - كان قد تخلى عن قبعته الرمادية ، ووضع على رأسه خوذة جلدية أضفت عليه طابعاً رسمياً جاداً .

وسأل ضارب المدفع الألماني في « بليكان رقم ١ » : « وأين الترموس ؟ » ولم يكن قد رآه الى جانب مقعد لكثير .

- « اليوم .. أرجو معذرتك ، فسأقوم بعملية قصيرة ، المسألة أخطر مما تتصور ... » .

ولم تمض بضعة دقائق حتى كانت الطائرات الثلاث تتبعها طائرات المطاردة - تحلق فوق مدريد ، وكان الأعداء يحتلون المطارات التي كانت تستخدمها طائرات البليكان اللهم إلا مطار « باراخاس » ، وعلى جميع الطرقات حركة لا تنقطع ، وأمام خيتافي تحول حقل من الحقول الى حديقة لسيارات النقل ، وكان هذا كله يفتقر الى الحماية إلى درجة يبدو معها من المستحيل أن تكون أرضاً للعدو .

وكان لكثير يراقب من مركزه في أقصى اليمين من التشكيل الطائرتين الأخريين اللتين كانتا مختلفيان دون انقطاع في السحب الواطئة جداً مراقبة دقيقة ، وفوقهما كانت تحلق طائرات المطاردة لحمايتهما . وفي لحظة كانت السحب تقترب من الأرض الى درجة يحسن معها أن ترتفع الطائرات عنها ، وبين طبقتين رماديتين ، كانت ظلال الطائرات التي اتخذت تشكيل القتال تملأ الفضاء الشاحب بأجنحة الحرب السوداء ، وخرج التشكيل من السحب فوق الحديقة التي امتلأت بسيارات النقل .

وعلى جانبي الطريق لم تكن الطرق شيئاً آخر سوى سيارات فرانكو التي

التصقت الواحدة منها بجوار الأخرى، وكان الطابور الميكانيكي القادم من نهر تاجة يصل الى أبواب مدريد .

وهبطت طائرات المطاردة الفاشية من السحب العليا ، وكانت سبع طائرات من طراز فيات ، لا التباس في التعرف عليها نظراً لحرف W الذي يصل بين أجنحتها ، وهنا انطلقت طائرات المطاردة الحكومية التي توجد على ارتفاع اعلى منها - بكل سرعتها ، واتجهت لملاقاتها .
وبدأت استحكامات العدو في اطلاق نيرانها .

وكانت المدافع الألمانية المضادة للطائرات قد وصلت الى مدريد بالجملة ، وأخذت تقابل المدافع السريعة الطلقات تنفجر الواحدة على بعد خمسين متراً من الأخرى ، وتذكر لكثير أن أجنحة طائرته تمتد على ستة وعشرين متراً ، ولم يكن قد رأى حتى في سنة ١٩١٨ مثل هذه الاستحكامات . ولم يكن الرماة الألمان يصوبون على قاذفات القنابل ، ولكنهم كانوا يصوبون على بعد عدة مئات من الأمتار الى الأمام، وفي الارتفاع المضبوط، حتى لقد بدت الطائرة كأنها تلقي بنفسها في منطقة الخطر . فيما وراء ذلك بمسافة بعيدة شرعت طائرات المطاردة في القتال ، وانقضت لكثير ، فانخفضت منطقة انفجار القنابل المضادة .

قال قاذف القنابل : « إن المدافع مجهزة بأجهزة أوتوماتيكية للتصويب » وكان لكثير لا يكاد يستطيع متابعة المعركة الدائرة بين طائرات المطاردة التي كانت خطوط سيرها المتشابكة توحي بأنها على وشك السقوط ، وبأنها تقوم بحركات بهلوانية في آن واحد .

وكان ضاربو المدافع الرشاشة يراقبون سير المعركة ، أما قاذف القنابل فكان يراقب الأرض ، ولم يحول لكثير عينيه عن طائرة كارنيرو التي كانت تصعد وتهبط ، وتنحرف ، ولكنها تلتقي دائماً بالقنابل المضادة التي اقتربت منها فجأة ، ولما كان لكثير مرتبطاً بطائرة قائد المجموعة في ذلك الاضطراب

العام كما يرتبط الأعمى بمرشده ، وقد استولى عليه الاحساس بأنه وإياه شيء واحد - فقد حمل على الاستحكامات في اصرار الدبابة .

وكانت الاستحكامات على بعد مائة متر .

وتقاربت القنابل والطائرات بعضها بعض دفعة واحدة ، وقفزت طائرة لكليير الى أعلى عشرة أمتار ، على حين انكسرت الطائرة « جوريز » من منتصفها فنثرت ركاها الثمانية في السماء الرصاصية كأنهم حفنة من البذور ، وأحس لكليير ان الذراع التي كان يتكئ عليها قد بترت ، وأمام الرجال المتساقطين الذين بدوا كأنهم نقاط سوداء حول مظلة مفتوحة واحدة - شاهد وجهين مذعورين هما وجهها قاذف القنابل وضارب المدفع الرشاش الأمامي ، فدار دورة حادة ، ثم أطلق طائرته بأقصى سرعتها متجها صوب القلعة .

« لم أر شيئاً كهذا في حياتي حتى أثناء الحرب » . أخذ لكليير يردد هذه العبارة منذ أن قطع البنزين استعداداً للهبوط ، وأحاط به في المطار رجال الطاقم دون أن يجيبوا عليه .

واتجه لكليير بثغر ارتسمت عليه المأساة : وبظنرة شخص عاد لتوه من الجحيم - اتجه بخطوة مترنة صوب مركز القيادة .

وهناك كان ينتظره فارجاس جالساً على مقعد وثير ، وقد مد ساقيه الطويلتين ، والتفت بوجهه الضيق صوب السحب الواطئة التي ملأت النافذة . وكان يرتدي في هذه اللحظة بزته الرسمية .

وشرع لكليير يروي بلهجة بطولية أنباء غارته ، وحين بلغ في روايته الى سقوط طائرة كارنيرو ، سأله فارجاس :

- « ماذا كانت تعليماتك ؟ » .

- « نسف طابور خيتافي »^(١) .

- « وهل كانت سيارات النقل أمام حديقة السيارات فعلاً ، وكانت مرصوصة في صف واحد ؟ »

- « أجل . ولكن لم يكن من الممكن اجتياز الاستحكامات .. والدليل على ذلك ، سقوط كارنيرو ! » .

وعندما لم يكن لكليز يجرؤ على الكلام بلغته الخاصة كانت لهجته تتحول إلى لهجة ادارية ، وتفقد كل ما فيها من بساطة .

وأعاد فارجاس قوله : وهل كانت الاستحكامات في ارتفاع الحديقة ؟ .

- « أجل » .

- « ولكن هل كانت سيارات الى الأمام .. متجهة نحوك ؟ » .

- « ... أجل .. »

- « أخبرني : لماذا عدت بقنابلك ؟ » .

وأدرك لكليز لتوه أنه قد لاذ بالفرار :

- « كانت هناك طائرات الأعداء المطاردة » .

وكان الاثنان يعلمان أن طائرات المطاردة قد انهزمت على بعد كيلومترين من هذا المكان ، وحتى لو أن لكليز قد هوجم لكان من الواجب عليه أن يلقي قنابله موازية للاستحكامات ، وعلى طائرات المطاردة أن تقوم بالقتال . وكان مانيان قد قام بكثير من غاراته على خطوط الأعداء في معمعان القتال .

وسأله فارجاس : « لقد عدت بقنابلك ، أليس كذلك ؟ » .

(١) خيتافي ضاحية من ضواحي مدريد (المترجم) .

- « لم يكن هناك ما يبرر القاءها جزافاً . . . على رجالنا . . . وفضلاً على ذلك . . . فقد كان المحرك يدق . . . » .

بيد ان احساس فارجاس بأن لكلير لم يكن جباناً بأية حال قد زاد من مرارته لدى سماعه وهو يجيبه إجابة طفل قفز من سور المدرسة ! .

وأمر باستدعاء رئيس ضاربي المدافع الرشاشة وقاذف القنابل والميكانيكي الذين كانوا ينتظرون في الخارج ، وسألهم فارجاس : « كيف كان المحرك ؟ » .

فالتفت ضارب المدفع الرشاش لكلير ولكلير صوب الميكانيكي الذي أجاب بقوله : « لم يكن على ما يرام تماماً » . . .

- « ماذا ؟ » -

- « لم يكن . . . » -

ونفض فارجاس ، قائلاً : « حسن ، أشكركم . . . » .

وقال لكلير : « لم يكن في استطاعتنا القاء القنابل . . » .

فردد فارجاس قوله : « أشكركم » .

الفصل الرابع

تولى اسكالي قيادة المطار نظراً لغياب مانيان في « البسيط » وارتدى الزي العسكري لأول مرة وفقاً لتعليمات وزارة الحرب ، ذلك ان الاثنين اللذين هما أحق منه بتولي هذه القيادة كان أحدهما في المستشفى ، وكان الآخر وهو كارليش في مدريد لتنظيم وحدات ضاربي المدافع الرشاشة في أقرب وقت ممكن ، وكان اختفاء كل وسيلة للقهر في فرقة الطيران العالمية كما هي الحال في نصف الجيش الأسباني - يجعل سلطة القيادة مقصورة على السلطة الشخصية التي يتمتع بها من يتولى تلك القيادة ، وفي هذا المطار لم يكن الرجال يطيعون سوى شخصين هما : مانيان ، ورئيس الطيارين ، وهو شاب يكاد يكون حدثاً يتخذه الجميع صديقاً ، وكان قد أسقط أربع طائرات فاشية ، ولكنه كان مشغولاً منذ أول أمس بمكافحة الحمى التي أصابته وذراعه المتبورة .

وكان اسكالي يمزح قائلاً : إن احد رجال « البليكان » قد ختم على بطن رابلاتي الوردية شعار الفرقة حتى لا يضل الكلب حين استدعي للرد على التليفون .

وكان سمبرانوهو المتحدث ، قال له : « سأبعث اليك بواحد من طياريك » . ولم يكن من شك ان الطيار قد رحل منذ مدة طويلة . اذ لم تنقض بضع دقائق حتى وصل لكثير في سيارة نقل ملفوفاً كالديك الرومي ، يحوطه أربعة من رجال الميليشيا مثبتين السونكي في بنادقهم ، وكان رئيس

التاكسي جيش رانجل وجميع المنبوذين ، كنت أعرف ذلك قبل فرانكو . .
فأنا شيوعي قبل الحرب » .

قال داراس في رفق : « قبل الانقسام . هيا بنا - يا عزيزي ، فالكل
يعلم انك لا تمت الى الحزب بصلة ، وهذا لا يمنع أنك شخص طيب ،
ولكن لا صلة لك بالحزب » .

وكان الجرح الذي أصاب قدمه قد التأم ، وقام أمس بغارة شبيهة بتلك
التي فشل فيها لكليز .

وحملق فيها لكليز : اسكالي بنظارتيه المستديرتين ، وسرواله الطويل
الذي تنفخه الساقان ، ومظهره الشبيه برجل اميركي مضحك يشترك في فيلم
عن الطيران ، وداراس بوجهه المسطح الأحمر ، وشعره الأشيب وابتسامته
المهادئة ، وصدرة الذي يشبه صدر المصارع ، والتزم الصمت كل من ضارب
المدفع الرشاش والميكانيكي .

- « المسألة الآن هي مسألة الحزب ؟ هل طلبت مني بطاقة العضوية
عندما نسفت مصنع الغاز في طلبيرة ؟ إنني فريد . . . شيوعي فريد ، هذا
كل ما في الأمر . . كل ما أريده هو أن تتركوني في سلام . . وأنا عدو
للتماسيح الذين يريدون أن يعضوا أضلعي . . هل فهمت ؟ طلبيرة . انها
أنت ، قل لي : انك أنت ؟ » .

قال اسكالي وهو يتأبط ذراعه : « كلنا نعرف انه انت . لا تززعج
نفسك . هيا الى النوم » .

وكان اسكالي يعتقد مثلما يعتقد مانيان نفسه أن هروب هذا الأخير لم
يكن عن جبن ، وإنما كان مجرد حادثة ، وكان تشبته في هذه اللحظة بذكرى
طلبيرة ، يمس شغاف قلبه ، بيد أن هناك دائماً شيئاً بشعاً في الغضب ، و شيئاً
أبشع منه في شدة السكر ، وأضفت هذه الحالة على وجه لكليز الهزلي ارتخاء
في منخرية ، وانتفاخاً في الشفتين ، فظهر الحيوان فيه .

ضاربي المدافع الرشاشة في الطائرة « بليكان رقم ١ » والميكانيكي يرافقانه ،
وهما أقل منه سكرأ ، ولم يلبث رجال الميليشيا ان انصرفوا .

وكان لكليز قد عقد عزمه بعد أن ترك « فارجاس » أن يسكر حتى
الموت ، واصطحب معه زميليه ، وأمر إحدى سيارات المطار بالمسير دون
تصريح ، واستقلها متجهاً الى براخاس حيث يعلم انه يمكنه الحصول على ما
يشاء من الخمر ، وهناك احتسى ست كؤوس من البرنوودون أن يتفوه
بكلمة ، ثم انفكت عقدة لسانه . والنتيجة : سيارة النقل .

وأفاق من سكرته على مهل ، وتساءل « اسكالي » وقد حمل كلبه تحت
ابطه . ماذا سيفعل لو استبد الهياج بلكليز؟ فليس من شك ان هذا القرد
الضخم بيديه الطويلتين وشعر رأسه المنتصب كالمهرج - ليس من شك أنه
يتمتع بقوة هائلة ، وعقد اسكالي عزمه على ألا يستنجد برجال الميليشيا إلا
بعد أن تتجاوز الأمور كل حد ، وكان رجال الطيران ينظرون الى لكليز من
بعد يتقاسمهم العداء وحب التهريج ، وعاد اتينيس الى الظهور متلفعاً
بالصمت بعد أن غاب عنهم ، وأدرك اسكالي انه قد عاد ليقدم له يد
المساعدة اذا اقتضى الأمر ، وأخيراً انزل الكلب الى الأرض .

وبينا كانوا يملون وثاق لكليز شرع هذا في خطبة عصماء :

- « أجل ! اني رجل فظ شديد المراس ، وهذه هي الصفة البارزة في
الجنس ، الجنس الذي يصنع الثورات ، هل تفهمني ؟ ولكن أرجو أن
تلمس لي عذراً اذا قلت : اني لا أتعامل مع صغار الطيارين من أمثالك
ومن أشباه الموظفين المتقاعدين . . . مجرد أشخاص بسطاء . . ! أما أنا
فشيوعي قديم ، ولست العوبة ، أو سجعاً منفوخاً ، وعليك أنت أن تفسر لي
المسألة أو تراها الغدة الصماء هي التي تؤثر عليك ؟

اني أعرف الى أي صنف ينتمي أنصار فرانكو منذ أن زاحمنا في

ردد اسكالي : « هيا الى النوم » .
 فنظر اليه لكثير نظرة منحرفة ، وقد تغضن جفناه ، وتحت قناع السكير
 ظهر مكر الفلاح البدائي .
 - « انت تعتقد انني ثمل . . . أليس كذلك ؟ » .
 وكان ينظر اليه دائماً من طرف عينه .
 « أنت على حق . . هيا بنا الى الفراش » .
 فناوله اسكالي ذراعه ، وفي منتصف السلم التفت اليه لكثير قائلاً :
 « وأنا أحتقرهم جميعاً . . هؤلاء الأوغاد » .
 وعندما وصل الى الطابق الأول احتضن اسكالي وهو يقول : « لست
 جباناً . . أسمعني . . أنا لست جباناً . . » .
 وطقق بيكي ، وهو يردد :
 « المسألة لم تنته بعد . . . لم تنته بعد . . . » .

جاء « نادال » لاجراء تحقيق صحفي عن رجال طائرات « البليكان »
 لحساب صحيفة بورجوازية ، تحت ضمان السفارة الأسبانية في باريس . .
 ووضع بعض هؤلاء أنفسهم تحت تصرفه في شيء من التعالي ، ومن التلذذ
 الخفي ، وكان طاقم الطائرة « مارا » المؤلف من داراس واتينيس وجارديه . .
 الخ ، يمررون بياناً . أما جيم ألفير الذي كان يجلس آنذاك في قاعة الطعام
 مع اسكالي واضعاً نظارة سوداء مكان الضمادة فقد قرر أنه لا جدوى من أية
 محادثة ، ومن ثم فقد جلس بجوار نافذة مغلقة يستمع الى الاذاعة . وكان
 « هاوس » قد أملى ثلاثة أعمدة .

« نادال » فتي ربعة القوام مجعد الشعر ، ذو عينين بنفسجيتين تقريباً ، ومن الممكن ان يكون معشوقاً للنساء ، لو لم يكن كل شيء فيه شديد الاستدارة . وجهه وانفه ، بل ان حركاته الانسيابية ، تكاد تتفق مع شعره المموج ، وكانوا قد أفضوا اليه بأن لكثير هو أطرف شخصيات رجال الفرقة ، غير أن لكثير كان يبغض الصحفيين بغضاً شديداً ، ولو أن أحداً منهم خاطبه لشج رأسه على حد تعبيره وفضلاً على ذلك فقد كان نائماً في تلك اللحظة .

وعاد اتينيس يحمل بيان طاقم الطائرة مارا ، وكان كالآتي :

« نحن لم نسع الى هذا المكان بحثاً عن المغامرة . وسواء أكانا ثورين لا ننتمي الى أي أحزاب أم اشتراكيين أم شيوعيين فقد عقدنا العزم على الذود عن أسبانيا ، وأن نقاتل حيثما وجدنا الظروف الملائمة فلتحيا حرية الشعب الأسباني ! » .

ولم يكن هذا مما يهتم له نادال : ذلك أن صحيفته كانت توزع على قراء آخرين . . . على أكثر من مليون عامل ، فما ينتظره منه رئيس التحرير انما هو شيء من الليبرالية ، ومن الثناء على هؤلاء الطيارين الظرفاء « وخاصة الفرنسيين منهم » ، ومن الوصف المفخم للمتطوعين ، كما كان ينتظر منه شيئاً من التعاطف مع الآخرين ، ومرثية تستدر الدمع على الشهداء وعلى أصحاب الجروح الخطيرة (للأسف . . . لم يكن جيم . . . أخيراً وبعد كل شيء إلا اسبانياً) - ولا شيء عن الشيوعية ، وأقل القليل عن المعتقدات السياسية .

وعليه أن يبحث - لحسابه الخاص - عن بعض الحكايات ، ولتكن جنسية بوجه خاص ، فرمما كانت عودة الصحفي ليقص على زملائه هذه الحكايات ، هي أكثر الجوانب رومانسية في التحقيق الصحفي .

وكان مشغولاً في الوقت الحاضر بالكذابين ، ولكنه لم يكن ممن يصدقون

ذلك الكذب ، بيد أنهم كانوا ينسجون حكايات طريفة ، وكان يقول لنفسه : إن هناك روائياً داخل كل أحق ، وليس عليه إلا أن يختار ، وبدأ بشخص يقول : « رجالي » (وإن لم يكن ذلك بصوت مرتفع جداً) ، وعندما أخذ نادال يدون ملاحظاته تذكر عبارة كبلنج : « فلننتقل الآن الى الجانب الآخر ، ولنستمع أيضاً الى السخافات » . وهذا ما فعله .

وجاء الآن دور الهاربين من الجيش الفرنسي أو الجيش الانكليزي ، وكان أكثرهم قد تزوجوا اسبانيات ، واستطاع أن يحصل منهم على صور زوجاتهم وهو يقول لهم : « إن لصحيفتي جمهوراً نسياً كبيراً » . ثم جاء دور المأجورين الذين اسقطوا رسمياً أكثر من ثلاث طائرات فاشية ، وكان هؤلاء يتحدثون عن المتطوعين بقولهم : « السياسيون » وعن أنفسهم بقولهم : « المحاربون » ولكنهم لم يكونوا مضللين ، وأطلعوه في شيء من الحذر على مذكراتهم الخاصة بالطيران

واهتم بعد ذلك ببعض الرجال ذوي السمعة السيئة ، وبعض المشاغين ، وكان قد ترك المتطوعين على أساس أنهم أقل الناس طرافة ، كما انهم لم يكونوا يكذبون بما فيه من الكفاية .

وما أن هم بتدوين بعض ملاحظاته من مذكرات أحد الطيارين ، وبعد ان انتقل نصف علبة من الحلوى - كان قد تهور وأظهرها - الى جيب بول - حتى خيم نوع من سكون ، وشاع ضرب من الانتباه الشديد جعله يرفع رأسه :

كاد لكثير يهبط درجات السلم ، وقد لوى وجهه وحتى ظهره ، وظهرت خصلات شعره الأسود من تحت القبعة الرمادية ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة قلقة ، وبدت ذراعه أطول من المعتاد ، فنادى عليه ضارب المدفع الرشاش في الطائرة « بليكان رقم ١ » وهو يشير الى نادال : « هذا كاتب جاء ليكتب عنا . . تعال ، اشرب كأساً مع زميلك » . وجلس لكثير .

- « إذن فأنت كاتب أيضاً .. أيها الغندور ؟ ماذا تكتب ؟ » .

- « اكتب قصصاً قصيرة ، وأنت ؟ » .

- « روايات طويلة .. وكنت شاعراً أيضاً ... وأنا الشاعر الوحيد الذي باع بضاعته كلها من أجل الطيران .. أن قطاع الطرق اذا وقع في أيديهم سائح يسلبونه كل ما يملك .. أما أنا فلم أكن أفعل ذلك قط وإنما كنت أرغمهم على شراء كتابي لأنه ثمرة عمل .. ولم أكن آخذ منهم أكثر من خمسة عشر فرنكاً .. وبذلك نفذت الطبعة .. وكان عنوان الكتاب هو « ايكاروس الطائر » . وقد سميت ايكاروس لأنه يجمع بين الشعر والطيران ... أفهمت ؟ » .

- « وهل تكتب الآن ؟ » .

- « كلا .. لقد هجرت الكتابة .. ولكنني استطيت أن أخط نماذج بالمدفع الرشاش » .

- « وما نوع المدفع الرشاش الذي تستخدمه ؟ » .

وأقبل اتينيس وداراس الى جوار اسكالي للاستماع الى المذياع الذي يملكه جيم ، بعد أن وقعا بيانها .

وكان جيم يقضي نصف حياته ، منذ أن فقد بصره ، في الاستماع الى المذياع ، وترك داراس الجهاز ، ذلك أن سؤال نادال الأخير لم يقع من نفسه موقعا حسناً .

ولكن كلا .. فليدع المهزلة تستمر دون أن يتدخل ، ولم يكن لكثير قائداً لطائرة من طائرات المطاردة ، ولم يستخدم مدفعاً رشاشاً منذ أن انضم الى هذه الفرقة ، أما نادال الذي واصل المناقشة وهو يمضغ غليونه متخذاً هيئة الخبير المحنك فكان يجهل أن طائرات الحكومة الأسبانية من طراز « لويس » لم تكن مزودة بالمدافع الرشاشة ذات الحزام ، وإنما مزودة بمدافع

من طراز آخر ، ولهذا لم يفقه حرفاً واحداً مما كان يرويه لكليبر .

وسأله : « هل تطيب لك الحياة هنا ؟ » .

- « أجل .. هذه هي الحياة الحق ... ماذا كان يمكن أن أصنع في باريس: قيادة سيارة ركاب ، أو بالأحرى عربية أطفال ؟ لم أصل الى هذه الدرجة بعد .. لأنك اذا كنت من اليساريين ، فلن تتاح لك أية فرصة ... فهل التقط فتات المهن الباقية ؟ كلا .. أما هنا .. فالرجل هو الرجل .. وهكذا - وأرجو المذرة - كنت في طلبيرة ، وتستطيع أن تتحرى عني من أي إنسان ، لقد جعلت مصنع الغاز كالعجة المشتعلة ، وهذا أيضاً ما فعلته بفرانكو .. أنا لكليبر قد أوقفت فرانكو - لا تؤاخذني هل فهمتني - وهؤلاء الفتيان - من حولك - أنظر اليهم، هل تعتقد أن سجنهم توحى بأنني جئت لأقودهم سعياً وراء ميدالية البطولة ؟ »

وحول الفرن الضخم القائم في مؤخرة الصالة تحت الملصقات الثورية ، أخذت أسرة الطباخ تروح وتغدو كعادتها ، على حين كان بعض رجال البليكان يطالبونهم بطلبات اضافية من الطعام .

وكان اتينيس ينصت اليهما أيضاً .. دون أن يحول انتباهه عن المذيع ، وجعل يراقب في فضول ما يدور بين الرجلين ، على حين أخذ لكليبر يكور فتات الخبز بين أصابعه ، ويكاد من يقذف بها في وجه نادال ، كما لم يكن صوته ينم عن الود بالقدر الذي عبرت عنه أقواله .

- « لقد طفت طلبيرة بطائرة من طراز « أوريون » .. هل تعرف معنى ذلك ؟ ان هذه البلاد هي بلاد مصارعة الثيران ، أما نحن فقد كنا نملك قطعياً من العجول ، وبالعجول استطعنا أن نسدد ضربتنا .. هل فهمتني ؟ » .

وارتطمت كرة من الخبز بأنف نادال ، وتابع اتينيس اللعبة ، وهو أشد تلهفاً ، وتظاهر نادال بالضحك ، وهو عازم على أن يثار لنفسه في التحقيق

الصحافي الذي سيكتبه .

وسأل : « ما نوع الأسلحة التي تستخدمونها في طلبيرة ؟ » .

- « نستخدم البلح .. ونضع مدفعاً رشاشاً عند إحدى النوافذ ، ونقوم بتوسيع فتحات المراحيض لنسقط قنابلنا من خلالها » .

وقال جارديه بلهجة المتخصص الفني :

- « ومدافع للطائرات نضعها على حوامل خشبية بثلاث أرجل » .

وأجاب نادال بلهجة يشوبها ضرب من الازدراء المتألم :

- « كانت أسلحتنا لا تزيد على ذلك في فيلا كوبليه . وهذا شيء واضح - من العار أن تطلب من الرجال دخول المعركة بمثل هذه الطائرات ولما لم يكن للمدفع الرشاش الذي تحدث عنه جارديه أي وجود فقد ضحك رجال طائرات البليكان في رفق .

وصاح اتينيس : « أنتبهوا ! » .

وكان مذييع المحطة المتمردة التي يستمع اليها (وربما كانت اذاعة منقولة من راديو اشبيلية !) - قد ذكر كلمة طيران ، فرفع جيم من صوت المذياع :

- « ولقد أغرنا على صفوف الشيوعيين بنجاح ساحق ، واستطعنا أن نرغم رجال الميليشيا على التراجع من كارابا نشل الى مدريد ...

« والقينا قنابلنا على المدينة من الساعة الثالثة حتى الساعة الخامسة ، دون أن تظهر الطائرات الشيوعية ...

« وقد أسقطنا اليوم ست طيارات حكومية وراء صفوفنا ...

« كما سبق أن أعلنت أمام هذا الميكروفون أن طائرة ماينان الهارب المعروف وعميل ستالين سينتهي أمره في القريب العاجل .

« وقد هبطت هذه الطائرة داخل صفوفنا ، ولقي جميع ركبها حتفهم في هذا السقوط ، وأمكن التعرف على جثة مانيان المنكود في خيتافي فليكن في ذلك عبرة للآخرين .. طاب مساؤكم » .

وتبادل رجال « البليكان » النظرات ...

وصاح اسكالي : « لا تنزعجوا ، فانهم يهرفون » .

وبدأ نادال في القاء أسئلته ، ولكنه فطن سريعاً الى أنه لا ينبغي له أن يلح كثيراً ، فلقد كان رجال البليكان المتطيرون وحتى أشدهم مراساً - يظهرن روحاً عدائية حين يمس هذا الموضوع ، وكانوا جميعاً يعتقدون ان المذيع يقصد الطائرة « جوريس » ، والطاقم الذي يقوده كارنيرو ، ذلك أن مانيان هبط في « البسيط » وما من شيء ينفي انه قد قاتل ذلك العصر فوق جبهة مدريد ...

وزجر لكلير قائلاً : « ماذا تعرف عن هذا الموضوع ، أيها الغبي ؟ » .

كان اسكالي يعرف الكثير ، وقد أحس منذ العصر أن الأمور تزداد سوءاً ، ولهذا استدعى مانيان بالتليفون ، ليطلب منه أن يحضر الى « القلعة » هذه الليلة بالذات ...

بيد ان مانيان كان اكثر احاطة بالموضوع من اسكالي ، فقد اتصل به سمبرانو مباشرة إتصلاً تليفونياً ، وأفضى اليه بمعلومات أكثر تفصيلاً . وكان لكلير قد صب سيلاً من الشتائم على الطيارين الأسبان ، وإن كان يعلم حق العلم ان الطيارين الأسبان يصنعون كل يوم بطائراتهم الهزيلة ما كان يفخر بأنه قد صنعه ذات مرة بمدينة طلبيرة ، على الرغم من كل ما يمكن أن تحفبه بلنسية من كرائم . ولم يلبث بعد ذلك أن أخذ يدلل للميكانيكيين الأسبان الذين أحاطوا به على أن الحرب أصبحت صفقة خاسرة ، وأن الطائرات التي أصلحت ستسقط الى آخر ما يمكن أن يوحي به الشعور بالخزي . ولم يكن اسكالي يجهل - من جهة أخرى - أن لكلير قد خرج منذ عودته ، وأخذ

يتحدث الى رجال البليكان واحداً أثر الآخر بهذا الحديث نفسه ، وأسوأ ما في الأمر هو أنه كان ذا تأثير عليهم ، إذ اجتذبتهم شخصيته البطولية وسخاؤه الحقيقي (وكان في هذا السخاء مدفوعاً برغبته الشديدة في أن يكون محبوباً) ، فما كان منهم إلا أن استجابوا اليه .

ودهش اسكالي في بداية الأمر من تلك الاستجابة .

فعلى الرغم من قدرته في الحكم على الرجال الذين يعرف طبيعتهم أعني الرجال المثقفين - فقد أساء فهم شخصية لكثير ، وكان جارديه قد استرعى نظره إلى أن رجال الطيران الذين يتغيرون في كل مرة يذهب فيها جريح منهم الى المستشفى - قد تشكلت الآن عقلياتهم وفقاً لعلاقات معينة ، وعندما أدار لكثير ظهره لزملائه لم يكونوا قد فهموا مما قال شيئاً كثيراً ، فقد كانت السحب التي تحوطهم شديدة الكثافة ، فجعلوا يتخبطون الآن في مأساة أكبر من أن تحيط بها أفهامهم ، ولم يكن لكثير قد غفر لنفسه فراره من المعركة ، ومن ثم فقد كان يحاول أن يجر كل من كان معه للمشاركة في العار الذي لحقه ، وأن يجعلهم يشعرون بنفس الاشمئزاز الذي يشعر به مصحوباً بضرب من الخلاص الكئيب حين يحتسي الأبنست .

صاح اسكالي : « لقد اتصل بنا مانيان تليفونياً في الساعة السابعة » .
غير ان الجميع كانوا يتساءلون : أيقول الحقيقة ، أم يريد أن يبيث الأطمئنان في نفوسهم :

وساد صمت طويل قطعه نادال أخيراً بقوله :

- « لماذا حضرت الى هنا ؟ أمن أجل الثورة ؟ » .

وكان يوجه سؤاله هذا الى لكثير ، وقد أمسك في يده بالقلم الرصاص .

نظر اليه لكثير من طرف عينيه نظرة مشاكسة هذه المرة .

- « وفيم يعنيك هذا؟ الجميع يعرفون انني طيار يساري ، ولكنني اذا كنت هنا فما ذلك إلا لأنني رجل صعب المراس ، كما أنني طيار بالفطرة ، أما الأعمال الباقية فقد خلقت لغيري من المدللين والمثاعمين والضعفاء والصحافيين ، ولكل مزاجه الخاص ... بلا مؤاخذه ... هل فهمتني؟ » .

كان لكثير أشد نحافة من أي وقت مضى ، وقد اتسع منخره وتشعث شعره ، وقبضت يده الشبيهتان بيدي القرد على زجاجة من النبيذ الأحمر ، ودفع صدره الى الخلف وتغضنت جبهته . واحتضن المائدة كلها التي شاع فيها القلق . وقرب جارديه مقعده من حميم ، ثم جعل يعبث بشعره الكث الى الأمام والى الخلف باسماً .

قال له اتينيس : « سواء أكان ذلك عن ضعف أم عن جبن فانه اذا لم يعد مانيان الى هؤلاء اترانهم فسوف يفسدون الفرقة كلها . ماذا يحدث؟ هل صعدت الخمرة الى رؤوسهم؟ » .

- « على كل حال لقد بدأت أتضايق من لكثير ، وأنا لا أحب أن أحارب مع أصحاب النزوات ، أنظر. اليه الآن ، وهو يمثل دور البطل : ان منظره يبعث على الضحك » .

- « انه يعزو الى نادال الآن ، تلك المهزلة التي يقوم بتمثيلها .. انظر اليه .. انه يمقته في هذه اللحظة » .

- « ولكنه يعترف بفضله أيضاً . لأنه أتاح له هذه الفرصة لاطهار بطولته ! » .

- « ولكن بصورة أقل ... أنظر الى سحته ... » .

وأدرك نادال أن الأمور يمكن أن تسوء ، فطلب كأساً لكل واحد من الموجودين . ثم تسلل خارجاً بمذكراته متضائلاً ماكراً ، وقد برز غليونه

العدواني من ابتسامته الخبيثة .

واستطرد لكثير قائلًا « لست ثملاً . . . وأما فيما يتعلق بالثورة . . . » .

وكان من الواضح أنه يريد أن يقول : إنني لا أعبا بها . . ولكنه لم يجروء على هذا القول لا خوفاً من رفاقه الذين لم يكن يحجم عن استفزازهم ، وإنما لأن مدريد كانت تمتد هناك وراء النافذتين اللتين خلعت مصاريعهما .

وكان المذيع الى جوار إحدى هاتين النافذتين ، والتفت أتينييس فشاهد ميدان « قلعة هنارس » (قلعة عبد السلام) يغط في النوم بتمائيله وبمناضده الصغيرة المختفية وراء الأعمدة ، والتي تباع عليها القواقع (ولم يكن من شك أن بعض رجال البليكان يعاقرون الخمر في هذه الساعة حول تلك المناضد) وكانت المدينة الصغيرة بشوارعها ذات الأعمدة ، وحدائقها الهادئة ، وكنائسها ذات الأبراج المدببة ، وقصورها ذات النقوش الفخمة ، وجدرانها وشرفاتها التي تدعو العشاق الى العزف على الغيتار . . هذه المدينة القشتالية القديمة التي تشبه منظرأ في ملهاة اسبانية والتي هشمتها قنابل الطائرات - لم تكن تنام إلا بعين واحدة . . ساهرة ترقب أصوات الحرب التي تهددها بالخطر .

قال اسكالي مخاطباً جارديه : « عندما يصل مانيان أخبره اننا نستطيع برجال الطائرة « مارا » وبك وبيعض الرجال الآخرين - أن نشكل دائماً طاقماً نغير به على العدو »

وسأله جيم في نفس اللحظة : « أذهب أنت الى مدريد الليلة ؟ » .

- « أجل . . بدعوة خاصة من نجارسيا » .

- « أرجو أن تمر على أبي وأن تصحبه الى هنا » .

وكان اسكالي يعلم أن والد جيم رجل عجوز ، ولم يقدم جيم تبريراً لطلبه . . والواقع انه لم يتخذ من جرحه قط ذريعة للمطالبة بمزيد من

الحقوق .

- « لك ذلك سأذهب » .

قال لكثير متحرشاً : « أخبرني إذن يا اسكالي : متى سيتحسن ذلك الطعام الذي تقدمونه ؟ » .

وسأله جارديه من الطرف الآخر : « وهل زوال الانتفاخ يفتح الشهية ؟ » .

ونظر لكثير الى جارديه الذي كشفت ابتسامته المعادية عن أسنانه الصغيرة الشبيهة بأسنان القط ، ولكنه لم يتفوه بشيء .

وسأل قاذف القنابل في الطائرة بليكان رقم ١ : « وماذا عن العقود ؟ » فأجاب اسكالي : « انها لم ترد بعد من القيادة » .

- « انا لست ممن يجارون بالشكوى . . . ولكن ، مع ذلك ، كان من الممكن أن أقتل اليوم .. مجرد افتراض . . . فماذا كان سيحدث للعقود التي أبرمتها ؟ » .

وكان قاذف القنابل محتجاً وضحية في آن معاً ، وكانت له عينان صغيرتان محمقتان ، ويدان مؤثرتان ، وعلى كتفيه حيكيت - غداة زواجه ببرشلونة - نجومه بوصفه ملازماً فوق سترة من الجلد الأزرق الفاتح .

وقرر جارديه بينه وبين نفسه : « انه يشبه في ضوء النهار ابريقاً للشاي في شريط للرسم المتحركة » .

وكان من رأي اسكالي انه لا ينبغي أخذ هؤلاء الفتيان جميعاً مأخذ الجلد ، وكان هذا الرأي ينجح عادة . . .

يبد أن اليوم . . .

- « كانوا سيدفعون معاشاً لزوجتك بلا شك . . . ومن ثم ، دعنا في

سلام .

- « ولكن على فرض أن فرانكو وصل الى مدريد قبل أن يفعلوا شيئاً ؟ »

فأجاب جارديه وهو يسوي شعره الكث : « في هذه الحالة أرجو أن يعدموك رمياً بالرصاص ، ولن يكون ثمة داعٍ لنقود أو عقود . »

ومهما يكن من أمر فإن الأخطار التي يتعرض لها المتطوعون المرتزقة كانت تقرب بينهم أكثر مما تعمل « العقود » على تباعدهم ، غير أن صبر المتطوعين كان قد نفذ هذا المساء .

وسأل ميكانيكي الطائرة بليكان رقم ١ : « ولماذا لا يبعثون لنا بطائرات مطاردة كافية ؟ » .

وقال هاوس : « كما انهم لا يعنون بالجرحي العناية الواجبة » .

ولو أن ملك انكلترا جاء لزيارته في مدريد ما كان ذلك كافياً في نظره .

قال كبير ضاربي المدفع الرشاش الذي يعمل مع لكثير : « ليس هذا جواً يعمل فيه الانسان ، اذ لا طائرات مطاردة كافية ، والطائرات نفسها غير كافية . والمعدات لا تجدي نفعاً ، والمدافع الرشاشة في حالة يرثى لها » .

والواقع ان الأسبانيين كانوا يطلقون مدافعهم الرشاشة العتيقة من طراز بريجيه على المدافع المضادة للطائرات دون شكوى .

وعاد أتينييس صوب مائدة لكثير ، وأنصت عرضاً الى حديث يدور بين رجلين من رجال البليكان :

- « ولكن هذا لا يمنع أن أحداً لم يره منذ الصباح » .

- « .. يا لهم من رجال ! كأن أحداً قد نشرهم من كفه في الفضاء .. » .

- « لم أر شيئاً كهذا طيلة الحرب » .

- « وأسوأ ما في الأمر الطيارة « جوريس » التي شطرت نصفين » .
- « يبدو أن أولئك الأوغاد قد تعقبوا كارنيرو بمدافعهم الرشاشة » .
- « أكان كارنيرو هو ذلك الهابط بالمظلة ؟ » .
- « انها مظلة مانيان ، وتحتها تعلق كارنيرو » .
- « . . . كان من الممكن أن يذهب المرء - في البداية ، أما ضد ذلك السد من المدافع الذي يحدد المسافة أوتوماتيكياً فماذا يمكن أن تصنع بحق الجحيم ؟ أنا لا أسمى ذلك قتالاً عادلاً ! » .
- « أسوأ ما في الأمر تلك الطائرة التي انشطرت نصفين . . » .
- « إن ما ينقصنا هو التنظيم قبل كل شيء ، وكان ينبغي أن نجتمع كلنا لنناقش في المساء ما نحن فاعلوه غداً . . » .
- « لقد تقيأتهم الطائرة يا عزيزي . . أولئك الرجال . . وأنا . . » .
- « ليس من شك أن رأس مانيان قد تورم . . هذا شيء مفروغ منه . . ولكن اذا كان يريد الانتحار فليس معنى ذلك أن يحذو الجميع حذوه » .
- وحدث أتينييس نفسه قائلاً : « العار يفسد النفوس » ولأن ارتباطه بالأفكار ارتباط عضوي فإن كل هذه المسائل كانت تبدو متسمة بالتفاهة وبالكآبة العميقة في آن واحد ، وعلى حين يفكر هؤلاء في مائة من المناجورين التعسفين للجمهورية ، كان أتينييس يفكر في آلاف الإيطاليين والألمان ، وفي صفوف المغاربة الطويلة . أربعون ألفاً من المغاربة يومياً ، ومن خلفهم المجالس العسكرية ! إلى أي مدى إذن يمكن أن يثق الانسان في البشر ؟ . ولكن ينبغي لكي يثق المرء بالرجال الذين يمكن أن يقدموا حياتهم ثمناً لهذه الثقة أن يختار أولئك « الخبراء » الذين يتعفنون ، بل الذين أصبحوا أمواتاً فعلاً ؟ وفي هذه الأثناء تتكون في مكان ما - من « البسيط » أو مدريد - الفرق

العالمية الأولى .

وطغى صوت « جارديه » على الضجة المكتومة وقال وهو جالس على المائدة ، وقد تهذلت خصلات شعره الأمامية :

- « لحظة من فضلكم ! لقد تقيأتُم جميعاً على الأولاد المدللين الذين حضروا الى هنا ، وقد رشقوا غليوناً في ركن من أفواههم ، ولم يذهبوا مرة واحدة الى الصفوف ، ثم انهم يعودون الى باريس ليتلمسوا العيوب في تصرف مانيان دون أن يتحدثوا عما نصنعه نحن ، ودون أن يتعرفوا على المصاعب التي نلقاها ، ولكني أراكم هذا المساء على اتفاق معهم ، فهل كل شيء سيء هنا ؟ أنبثوني إذن أيها الأولاد الصغار ؟ أتراكم كنتم تفتحون أفواهكم لو كنتم تحاربون في صفوف فرانكو ، بل ربما لم تفتحوها الى الأبد ؟ » .

قال الميكانيكي : « ولهذا السبب فأنا هنا ولست مع فرانكو » .

وهنا وثب بول بجسده الضخم ، وشعره المجعد وقد استحال وجهه قرمزياً ، ورفع سبابته ، في حركة تشنجية :

- « كلا . . . يا مسيو ليفي ! انني لا أخدع بهذه السهولة ! أنت تحاول حرماننا من علاواتنا ! وأنت يا برتراند رجل طيب ، ولكن حين استمع اليك وأنت تحكم على عمل مانيان أشعر بالغثيان . . . » .

- « أليس من حقي أن أحكم أذن ؟ ألسنا كفاة لهذا الشرف ؟ » .

- « أنت لا تحكم ، وإنما تنفث سماً . . . وأنت تنفث سمومك ، لأنك لا تجد ما ينفخ في غرورك ! ولاحظ انني لا أقول شيئاً لهذا السبب ، فلن أكون ممن يقذف زميلاً بحجر من أجل حادث عابر ! فالحوادث يمكن أن تقع لأي إنسان ، وبالاختصار يعلم الجميع انك قد أدبت واجبك ، ولكني أقول : انك في هذه اللحظة تريد أن يفسد كل شيء ، لأنك لست راضياً

عن نفسك ، انني لن أنخدع كلا يا سيدي . . لن انخدع ! وأنت تشكو إذن . . . اذكر لي اسماً واحداً يمكن أن يحل مكان مانيان ؟ اسماً واحداً فحسب ؟ فلنفترض لحظة أن ما يقوله ذلك الوغد الآخر في المذبايح صحيح ؟ وأنه لن يعود . . . فماذا إذن ؟

« علاوة لي : عشرة في المائة لحسن السير والسلوك .

« الأخلاق : انكم تتصرفون كالحمقى الأغبياء » .

واقترب لكلير من اسكالي واضعاً قبضتيه على ظهر المقعد المجاور ، وفي عينيه نظرة مشتعلة بالحقد ، وقال وسط الصمت الشامل :

- « اما عن الثورة فقد قلت لكم : إن لكل عمله الخاص به ، وأما عن التنظيم فأني استميحكم عذراً ! لقد أحضرونا هنا للقتال ، وتركونا بزجاجة من الماء كل يومين ، وكل ثمان وأربعين ساعة دون شفرة للحلاقة . وقد استمر ذلك وقتاً كافياً ! هل تفهموني ؟ » .

ولم يجب اسكالي ، وإن لاح الاشمزاز في عينيه وراء نظارته .

وصاح صوت من أقصى القاعة جعلهم يتلفتون جميعاً :

- « دون سخافة ؟ » .

ولم يكن جيم منذ أن عاد من طائرته للمرة الأخيرة يتحدث إلا الى بعض رفاقه على انفراد حين يجلس الى واحد منهم الى مائدة في ركن من الأركان ، وكان يبدو عليه حين قال تلك العبارة كأنه وجد صوته الذي كان يغني في الماضي . . . ذلك الصوت الذي صمت طيلة تلك الفترة كأن شيئاً فيه قد أصيب بالعمى هو الآخر ، وكانوا يعلمون جميعاً انهم في كل مرة يرتفعون بطائراتهم يتهددهم خطر الاصابة بمثل ما أصيب به ، لقد كان زميلهم ، ولكن كان في الوقت نفسه - الصورة التي تهدد مصيرهم ، وتقدم جيم وقد برز أنفه الضخم من نظارته السوداء ، لاسماً بيده أسفل المنضدة ، حتى لا

يراه أحد وهو يتحسس طريقه ، وانتقل من طبق فارغ الى آخر فارغ ، فأنفح له زملاؤه الطريق وكأنهم يخشون ملمسه .. قال بصوت أقل ارتفاعاً :

- « هل يخلق أولئك الذين يعسكرون في الخنادق أذقانهم ؟ »

وزجر لكلير من بين أسنانه : « أنت .. أنت فارس الفرقة العالمية .. ولكن .. أرجوك ألا تتدخل ! » .

كان أسكالي يقف الى جانب الحائط على بعد أربعة أو خمسة أمتار على اليسار ، وهو يشد سروال حلته العسكرية (وكان أطول من مقاسه كثيراً) - دون أن يحول عينيه عن لكلير ، واقترب هذا الأخير منه ، تاركاً « جيم » يستمر في تقدمه ، ملتصقاً بالمائدة .

واستأنف لكلير حديثه قائلاً : « لقد سئمت من المدافع الرشاشة التي لا تصلح إلا للعرض في المتاحف ... سئمت غاية السأم ... هناك شعر كثيف على صدري ، وأستطيع أن أقوم بدور الثورة ، ولكنني لا أريد أن أكون حمامة ... هل فهمتني جيداً ؟ » .

وهز اسكالي كتفيه ، بعد أن وصل الى الحد الذي لا ينفع معه تثبيط المهمة .

وهز لكلير كتفيه أيضاً محاكياً اسكالي ، وقد أخذ السخط منه كل مأخذ ، فأصر على أسنانه .

- « انني أمقتك ، أتسمعني ؟ أمقتك » .

ونظر اليه أخيراً ، بوجه احتقن بالغضب ، وقال اسكالي مرتبكاً :

- « وأنا أيضاً » .

ولم يكن اسكالي ممن يحسنون التصايح أو اصدار الأوامر . ولأنه كان من

المثقفين الطيبين . لم يكن يريد أن يفسر الأمور فحسب ، بل أن يقنع من يحدثهم بوجهة نظره ، وكان يشمئز من استخدام العنف ، وحين أحس لكثير بغريزته بهذا الاشمئزاز حسبه ناشئاً عن الخوف .

- « كلا ، أنا الذي أمقتك . . . لا أنت ! أتفهمني ؟ »

وتذكر « بول » اليوم الأول الذي انتظروا فيه معاً الطائرة الأولى المحملة بالجرحي .

- « سلام ! »

بهذه العبارة صاح مانيان الذي وقف عند عتبة الباب ملوحاً بقبضته في الهواء كالمندبل ، وقد عبثت الريح بشاربيه .

وتقدم وسط الوجوه المعادية التي أحست بالخلاص من هذا الموقف الحرج أو التي تظاهرت بعدم الاكتراث ، ثم وقف أمام لكثير .

- « اذن فأنت تحتفظ بالترموس ؟ » .

- « ليس ذلك حقاً ! لا شيء معي ! » .

وصاح لكثير في استياء وامتعاض ، وقد أسعده أن يتهم بالسكر اتهاماً غير عادل ، في الوقت الذي يحتاج فيه الى أن يكون الاتهام بالهرب غير عادل أيضاً . قال مانيان :

- « لا شيء ؟ أنت مخطيء » .

وكان يفضل الطيار الثمل على الطيار المكتئب

وتردد لكثير كمن يبحث عن طريقه وقد استبدت به الحيرة .

وهتف مانيان : « على طاقم الطائرة بليكان أن يعود فوراً الى البسيط . السيارة تنتظر أمام الباب » .

قال لكثير مستعيداً ذلك الحقد الذي ارتسم على سحنته من قبل :
« سيارة نقل ! ولماذا هذه السيارة ؟ لماذا لا تكون عربة يد ! أريد سيارة
مناسبة . »

واحتج قاذف القنابل قائلاً : « ليس لدينا الوقت الذي يكفي اعداد
متاعنا ! » أي متاع ؟ كان الجميع يعلمون أن الطاقم قد وصل على طائرته
دون أن يحمل فرشاة أسنان . . . وهز مانيان كتفيه ، ثم نظر الى لكثير والى
رجاله الذين تفرقوا الآن في الحجرة . وناجى مانيان نفسه قائلاً : لو أنهم
قتلوا هذا الصباح ما تذكرنا إلا أفضل ما فيهم من جوانب . . . وحتى لو
قتلوا غداً . . . وكانت ذكرى مارسيلينو أقوى من حضور لكثير ، ونظر اليهم
جميعاً متطوعين ومرترزة . وكان كل ما يقولونه ويفعلونه ويسرونه عن أنفسهم
ما هو إلا حماقة عابرة ، حلم سوف يستيقظون منه إن عاجلاً أو آجلاً ، حين
يضعون الخوذات على جباههم ، وحين تتصلب قاماتهم تحت رداء الطيران .

واقترب لكثير من مانيان كما اقترب قبل ذلك من اسكالي ، وقد ارتسم
على وجهه تعبير طاغ بالحقد ، وإن لم يتغير وجهه كثيراً ، كل ما في الأمر
انحدار طفيف في جبينه المتغضن .
- « إنني أمقتك . يا مانيان » .

وكانت يده اللتان يغطيهما الشعر ترتجفان عند طرفي ذراعيه اللتين
تشبهان ذراعي قرد . وبرز حاجبا مانيان وشاربه على حين ثبت جفناه ثباتاً
غريباً .

- « سترحل غداً الى فرنسا بعد أن تتقاضى كل ما نص عليه العقد ،
ولن تضع قدميك في اسبانيا مرة خرى . هذا كل ما في الأمر » .

- « سأعود اليها عندما أريد ! . وبدون عقد ! أنت أيها . . . لقد كنت في
الفرقة يوماً . . . هيه . . . فلا تحسبني خرقة لمسح الصحون ! » .

والى جانب مانيان وقف الآن اسكالي وأتينييس وجارديه ، وأمام المائدة

وقف جيم بنظارته السوداء .

وصاح لكثير مرة أخرى وقد ازدادت يداه ارتعاشاً :

- « أريد سيارة ركاب . أتفهمني ؟ »

وسار مانيان صوب الباب مسرعاً منحنياً وفي غير اكتراث ، ومن مؤخرة القاعة تناهى صليل الشوك في يد الطاهي ، وتعلقت انظار الجميع بحركة مانيان الذي فتح الباب ، ثم ألقى ببضع كلمات ، وكأنه يخاطب الريح التي اجتاحت ميدان « القلعة » الواسع .

ودخل ستة من حراس الهجوم المدججين بالسلاح .

وصاح مانيان : « فليتقدم رجال الطائرة ! » .

ولما كان لكثير مصراً على أن يبدو أهم رجاله فقد سار في المقدمة

وظل الصمت معلقاً على الرؤوس ، وإن امتلأ الآن بضجة سيارة النقل وجلبة المحرك التي أخذت تخفت حتى اختلطت بعصف الريح ، وما برح مانيان واقفاً عند عتبة الباب ، وعندما عاد ارتفعت ضوضاء الأكواب والأطباق والسعال وأصوات التعجب والدهشة ، كما يحدث في المسرح ، عندما يزول التوتر السائد في القاعة عقب انتهاء فصل من الفصول ، وجلس مانيان الى المائدة ، وقطع هذه الاستراحة ، بأن دق بسكين على كوب لكي يسترعي اليه انتباه الحاضرين . قال بلهجة المحادثة العادية :

- « أيها الرفاق ، على بعد خمسة عشر كيلومتراً من هذا الباب الذي

تنظرون اليه يقف المغاربة . . . على بعد كيلومترين من مدريد . . . كيلومترين فحسب . وعندما يكون الفاشيون في كارابنشل فإن هؤلاء الذين يتصرفون مثل أولئك الذين رحلوا منذ لحظة - يتخذون موقفاً معادياً للثورة ،

وسيكونون جميعاً في فرنسا غداً .

« وابتداء من اليوم سندمج جميعاً في قوة الطيران الأسبانية ، وعلى كل منكم أن يكون حاصلًا على حلة رسمية يوم الاثنين ، وقد أقيمت جميع العقود ، وعُيِّن داراس رئيساً للميكانيكيين ، وجارديه لضاربي المدافع الرشاشة وأتينييس قوميساراً سياسياً . . . أما من لا يوافق على هذا فعليه أن يرحل صباح غد .

« لقد سويت مسألة « البليكان » تسوية نهائية ، وينبغي ألا نتذكر سوى ما قاموا به من أعمال مجيدة . . فلنشرب نخب رجال « البليكان » .

وكانت لهجته تجعل من هذا النخب وداعاً ، وتستبعد كل وهم بالتراجع . قال بعد أن عادت الأكواب الى المائدة : « فليجتمع المسؤولون في مكنتي » .

وشرح لهم مانيان كيف يدبر إعادة تنظيم الفرقة .

وسأله داراس : « كيف يمكن ان نحصل على العدد الكافي من الرجال ؟ » .

« من الفرقة العالمية ، وقد ذهبت الى « البسيط » لهذا الغرض . . ونحن على اتفاق في هذه المسألة ، فلديهم بعض الرجال الذين خدموا في السلاح الجوي كما أن لديهم عدداً لا بأس به من عمال مصانع الطائرات . وسيبعثون الينا - ابتداء من غد - كل مألديهم من رجال يمتون الى الطيران بصفة قريبة أو بعيدة . . . وسنختبر هؤلاء الرجال جميعاً كل في اختصاصه ، ويبدو اننا سنحصل على أكثر مما نحتاج اليه ، أما فيما يتعلق بالنظام فإن ثلاثين في المائة على الأقل ممن سيرسلون الينا شيوعيون ، وبينكم ها هنا اثنان من المسؤولين الشيوعيين ، وعليكما أن ترتبا الأمور فيما بينكما » .

وتذكر مانيان أنريك .

قال أتينييس : « وماذا عن طائرات المطاردة ؟ » .

- « أعتقد أننا سنحصل على عدد منها » .

- « عدد كافٍ ؟ » .

- « عدد كافٍ » .

ولم يكن يأمل الحصول على طائرات روسية .

وسأل داراس : « هل تفكر في الانضمام الى الحزب ؟ » .

- « كلا . . . فانا لا أتفق مع الحزب الشيوعي » .

قال جارديه : ألا تستطيع - أي داراس - أن تكف عن الدعاية للحزب مدة خمس دقائق ! » .

وكان من العسير اقناع جارديه في بداية الأمر : « عندما يرتبك ضاربو المدفع الرشاش أقدم لهم يد المعونة ، وتسير الأمور على هذا النحو لأنهم يثقون فيّ . أما أن أقودهم فهذا شيء لا يروق لي » .

وهنا سأله داراس : « واذا لم يكن المشرفون على النظام هم أولئك الذين يثق فيهم رفاقهم فمن يكونون إذن ؟ » . وعندئذٍ لم يجد جارديه بداً من التسليم .

وقال أتينييس مستفسراً : « هل جئت عن طريق مدريد ؟ » .

- « كلا . . . ولكنهم اتصلوا بالتليفون منذ لحظة : القتال دائر على أبواب المدينة » .

الفصل الخامس

كانت وزارة الحرب خاوية على عروشها ، بعد أن أنتقلت الحكومة من مدريد الى بلنسية ، ولم يكن هناك سوى قائد فرنسي جاء يعرض خدماته ، فطلبوا منه الانتظار ، فجلس على مقعد وثير مذهب ينتظر ، وكانت الساعة الحادية عشرة ، ولم تكن تضيء درجات السلم الرخامية البيضاء المغطاة بسجاجيد تملؤها رسوم الزهور والأغصان سوى شموع على درجات السلم ، لا يثبتها في مكانها إلا قطرات الشحم المنسكبة ، وما أن تنطفئ هذه الشموع وسط مستنقعاتها الصغيرة حتى تخيم الظلمة على تلك الدرجات الفخمة .

وكانت المصابيح الكهربائية الوحيدة المضاءة هي المصابيح التي في مكاتب ضباط « مياجا » ، وفي مكاتب المخابرات العسكرية .

جلس اسكالي ، وفتح جارسيا ملفاً لا عنوان له ، ويبدو أن الفاشيين قد وقفوا عند كارابانشل لا يستطيعون اجتيازها .

- « انت تعرف مدريد جيداً يا اسكالي .. أليس كذلك ؟ » .

- « معرفة لا بأس بها » .

- « وتعرف ميدان التقدم ؟ » .

- « أجل » .

- « شارع القمر ، وميدان البوابة في طليطلة ، وشارع فيونكارال ، وميدان كالاو؟ طبعاً » .

- « لقد سكنت في ميدان كالاو » .

- « وشارع فونكيو ، وشارع بوردادوريس ، وشارع شقوييه ؟ » .

- « لا أعرف الشارع الثاني » .

- « حسن ، أرجو أن تحيب بعد أن تتروى في الأمر : هل يستطيع طيار ماهر مهارة غير عادية أن يصيب تلك النقاط الخمس (وأعاد هنا الأسماء التي ذكرها آنفاً) التي تحدثنا عنها ؟ » .

- « ماذا تعني بقولك يصيبها ؟ أعني أن يضرب المنازل المجاورة لها ؟ » .

- « أعني أن يضرب الميادين بالقرب من المنازل ، ولكن دون أن يصيب الأسطح ولو مرة واحدة ، الشوارع فحسب . . . الشوارع التي تقف فيها صفوف من الناس . . محطة الترام التي في ميدان كالاو مثلاً » .

- « إن إصابة الترام مصادفة واضحة » .

- « فليكن ، والأماكن الباقية ؟ » .

وأمعن اسكالي في الفكر وراء نظارته ، على حين أخذت أصابعه تتخلل شعره . .

- « وكم عدد القنابل ؟ » .

- « اثنتا عشرة قنبلة » .

- « ستكون مصادفة عجيبة ، ولكن ماذا عن القنابل الأخرى ؟ » .

- « لا قنابل أخرى ، وإنما ينبغي أن تلقي القنابل الأثنتا عشرة على الهدف : على النسوة الواقفات أمام البقالين والأطفال الذين يلعبون في ميدان

بوابة طليطلة ! » .

- « إنني اجتهد في الاجابة وان يكن تفكيري قد ذهب لأول وهلة - إن شئت الصراحة - الى عدم تصديق كلمة واحدة من كل هذا ... حتى ولو كانت الطائرة تخلق على مستوى منخفض جداً » .

- « الطائرة التي أتحدث عنها كانت تخلق على ارتفاع بعيد بكل تأكيد ، اذ لم يكن أزيزها مسموعاً » .

وكلما ازداد الاستجواب استغلاًفاً اشتد قلق اسكالي ، ذلك انه كان يعرف شغف جارسيا بتحري الدقة .

- « اسمع .. ليس هذا كله سوى مزحة ... » .

- « انت تفترض وجود طيار ماهر مهارة فذة ؟ طيار من الطيارين المنتظمين الذين ضربوا أرقاماً قياسية في اصابة الهدف مثلاً ؟ » .

- « فليكن ما تشاء ، هذا شيء خارج الموضوع ، هل رأى الطائرة أحد ؟ » .

- « يزعمون الآن انهم شاهدوها . ولكنهم لم يدعوا ذلك في اليوم الأول .. كما انهم لم يسمعوها .. » .

- « انها ليست الطائرة ، الفاشيون يملكون مدفعاً أبعد مدى مما تعرف عن المدافع . وحكاية مدفع « برتا » تبدأ من جديد » .

- « واذا كانت طائرة فكيف تعلق دقتها في اصابة الهدف ؟ » .

- « لا أستطيع التعليل بأية حال . واذا كنت حريصاً على المعرفة فأصدر أوامرك ، واصعد معي غداً ، فلنني سأخلق بك فوق شارع القمر على الارتفاع الذي تريده ، وسترى أن نظريتك لا أساس لها ، أو ليرى كل إنسان طائراتنا كما يرى المرء سيارة أوشكت أن تسحقه ، واذا هبت الريح ،

فلن يستطيع الطيران أن يتابع طريقه فوق الشارع .

- « حتى لو كان الطيران هورامون فرانكو؟ » .

- « حتى لو كان لندبرج ! » .

- « حسن . ثمة شيء آخر .. هذه خريطة مدريد . هل ترى نقاط الهبوط المحوطة بدوائر حمراء ؟ أعتقد أن هذه العلامات لا تعرفك .. هل توحى اليك هذه الخريطة بفكرة ما ؟ » .

- « انها تؤكد ما قلته لك : ان الشوارع لا تتجه في اتجاه واحد . ومن ثم فإن الريح ستعتمد في لحظة ما على خط سير قاذف القنابل .. وإصابة شارع من ارتفاع معين ، ومن أول ضربة ، في مثل هذه الظروف شيء .. » .

ولمس اسكالي جبهته ليعبر عن استحالة مثل هذا الأمر .

وقال جارسيا في نفسه : كيف يمكن - يا عزيزي اسكالي - أن تسقط قنابل مدفع بعيد المدى وفقاً لزاوية حادة ، فتصيب شوارع تتجه اتجاهات متباينة دون أن تصيب جداراً واحداً ؟

قال مخاطباً اسكالي : « نقطة أخيرة - هل يمكن أن يخلق ذلك الطيران الماهر الذي افترضنا وجوده - فوق مدريد مدة معينة تحت ارتفاع عشرين متراً ؟ وأضيف : إن حالة الجو كانت سيئة » .

- « كلا ! » .

- « الطيارون الأسبان يتفقون معك تماماً ... » .

وحين ذكر جارسيا اسم « رامون فرانكو » خطر لاسكالي انه يشير الى غارة ٣٠ من اكتوبر .

لبث جارسيا وحيداً . . . وكان قد استجوب أيضاً ضباط المدفعية . . . فاستبعدوا أن تكون القنابل التي اشار اليها صادرة عن مدفع نظراً لزواية السقوط ، وفضلاً عن ذلك فإن الشظايا لم تكن من قذائف مدفع ، وإنما قنابل طائرة . وأخذ جارسيا يفحص في قلق الصور الفوتوغرافية التي التقطت لأمكنة سقوط القنابل ، وعليها تعليقات ادارات الجيش المختلفة ، وكان جارسيا قد طلب من الخبراء الاجابة عن أسئلته دون أن يقدم تبريراً لهذه الأسئلة ، وكان أحد الأجوبة كالتالي : « هذه القذيفة أقيت من ارتفاع لا يزيد عن عشرين متراً » .

وكانت المشكلة محلولة في نظر جارسيا ، لم تكن هناك طائرة ، ولم يكن هناك مدفع ، بل كان هناك طابور خامس - اثنتا عشرة قنبلة في وقت واحد . وكان عليه أن يكافح - بنجاح - ضد السيارات الفاشية التي تجوس في الظلام خلال شوارع مدريد مسلحة بالمدافع الرشاشة : وضد أولئك الذين كانوا يطلقون الرصاص عند الفجر على رجال الميليشيا من خصائص النوافذ ، وضد كل ما يمكن أن تمثله الحرب الأهلية ، بيد أن هذا كله شيء يتوقعه الانسان من الحرب ، إنما رجل ضرير يطلق النار على شخص مجهول . أما في هذه المرة فإن كل رجل من رجال الطابور الخامس قد رأى بعيني رأسه صف النساء الذي يقف أمام البقالة ، والشيوخ والأطفال الذين في الميدان ، ولم تكن مذبحه النسوة هي التي تزعجه ؛ فمن المحتمل أن تكون تلك التي القت القنابل امرأة ، والشفقة بالنساء من عواطف الرجل ، ولكن الأطفال ؟ . . . وكان جارسيا قد شاهد الصور الفوتوغرافية ، كما شاهدها غيره .

وكان أحد زملائه قد حدثه - بعد عودته من روسيا - عن التخريب ، قال له : « ان الحقد على الآلة شعور جديد ، ولكن حين نضع في العمل كل حماس أمة وأملها نخلق في الوقت نفسه عند أعدائها الداخليين الحقد على هذا العمل . . . » والفاشيون في مدريد يحقدون الآن على الشعب الذي لم يؤمنوا

بوجوده منذ عام مضى الى درجة انهم قد يرونه مائلاً في حركات الأطفال الذين يلعبون في أحد الميادين !

ولم يكن من شك أن القتلة الأثني عشر ينتظرون في هذه الساعة اعلان انتصارهم ؛ فلقد انشد الأسرى - في السجن النموذجي - بعد الظهر نشيد الفاشية .

ولكن كان عليه أن يلتزم الصمت ؛ إذ يعلم انه لا ينبغي اثارة الحيوان الكامن في أعماق الإنسان ، وانه اذا كان التعذيب يظهر في اثناء الحرب في كثير من الأحيان فذلك لأنه على ما يبدو الجواب الوحيد على الخيانة والقسوة . ولو انه تكلم لكان معنى ذلك أن يدفع ذلك الحشد المتحمس الذي تصل اليه هتافاته البعيدة مع هبات الرياح الى اتخاذ أول خطوة نحو الوحشية . وربما استمرت مدريد المتشعبة بالتاريس في الايمان بمغامرات رامون فرانكو ؛ ذلك ان الانتقام من الأعمال الوحشية يجعل الجماهير في حالة من الجنون شبيهة بحالة الفرد الذي يسعى الى الأخذ بالثأر .

كما جرت العادة ستصرف المخابرات العسكرية وادارة الامن وحدهما . . وتذكر جارسيا الشارع الكبير Grad Via - كما كان في الماضي - رائقاً في صباح ابريل ، بواجهاته ، ومقاهيه ، ونسائه اللواتي لا يقتلن أحد ، وعيدان السكر التي تذوب مثلها يذوب الثلج في أكواب الماء ، الى جانب فناجين الشوكولاته المحلاة بالقرفة ، وها هو ذا يجلس الآن في ذلك القصر المهجور وجهاً لوجه أمام عالم لا سبيل الى التنفس فيه .

وقال لنفسه : « وعلى أي نحو انتهت الحرب كيف يمكن أن يقوم السلام بعد هذا الحقد المرير ؟ وماذا ستصنع هذه الحرب مني ؟ » .

وتذكر أن الناس لا يكفون عن وضع المشاكل الأخلاقية ؛ فأنغص رأسه ، وتناول غليونه ، ونهض متثاقلاً ميمماً شطر ملحق ادارة الأمن .

الفصل السادس

كان طيف نحييل مقوس الظهر يصعد وحيداً وسط درجات السلم الرحبة . انه جرنيكو Guernico جاء بحثاً عن معونة الجهات الرسمية لادارة الاسعاف التي يجاهد في اعادة تنظيمها ، ذلك أن ما قام به من تنظيم في عهد طليطلة قد أصبح الآن عديم النفع منذ أن أقتربت الحرب من مدريد . وعلى الطابق الأرضي من الوزارة الذي يكاد يكون مظلماً تناثرت بعض الأسلحة التاريخية ، وبدأ الكاتب الكاثوليكي الطويل الأشقر شقرة شاحبة كلوحات فيلا سكينز - كأنما خرج لتوه من إحدى تلك الدروع التاريخية ، وسيعود إليها عند مطلع النهار . ولم يكن جارسيا قد رآه منذ ثلاثة أسابيع ، وكان يقول عنه : انه الوحيد بين اصدقائه الذي اتخذ الذكاء عنده مظهر الاحسان ، وعلى الرغم من كل ما يفصل بينها فقد كان جرنيكو هو الشخص الوحيد الذي أحبه جارسيا حباً صادقاً .

واتجه الاثنان معاً صوب الميدان الكبير Plaza Mayor .

وعلى الجدران وأبواب الخوانيت المسدلة ، انزلقت الظلال مخنية إلى الأمام ، ومتوازية كالنوتية الذين يسحبون سفينة شراعية ، وفوقهم انسابت في تناقل سحب هائلة حمراء قادمة من الضواحي . . وقال جارسيا : « انه أشبه بخروج اليهود كما تصوره التوراة » .

ولكن ، كلا . . . ما من أحد من هؤلاء المارة يحمل شيئاً ، وكلهم يسرون مسرعين في اتجاه واحد .

قال : « هذه المدينة تعيش على أعصابها » .

وكان ثمة رجل ضرير يعزف نشيد العالمية ، وقد وضع أمامه الوعاء الذي يجمع فيه النقود ، وكان الفاشيون - وهم أقوى مائة ألف مرة - ينتظرون معركة الغد في منازلهم المطفأة الأنوار .

قال جرنيكو : « لا صوت هناك » .

لم يكن هناك غير وقع الأقدام ، والشارع ينبض كما ينبض الوريد ، والمغاربة على بوابات الشرق والجنوب ، بيد أن الريح كانت تهب من المدينة . ما من طلقة بندقية ، أو حتى طلقة مدفع ، بل أن حفيف الجموع كان يسري تحت السكون كما تسري الديدان في جوف الأرض ، وإلى هذا الحفيف أضيف صوت الأكورديون .

وسار الاثنان صوب بوابة الشمس Puerta del Sol في اتجاه سحب الدخان الحمراء الزاحفة فوق رؤوسهم ، وفي اتجاه ذلك النهر الخفي الذي يدفع الناس نحو الميدان دونما هدف ، وكأئما أقيمت هناك متاريس « كارابانشيل » .

- « لو استطعنا أن نصدهم هنا . . . » .

وأمسكت امرأة بذراع جرنيكو وقالت له بالفرنسية :

- « أتعتقد انه لا مناص من الرحيل ؟ » .

قال جرنيكو مخاطباً جارسيا دون أن يرد على المرأة :

- « إنها رفيقة المانية » .

وأردفت المرأة : « انه يقول : إنه ينبغي علي أن أرحل ويقول : انه لا يستطيع أن يحارب جيداً اذا بقيت الى جانبه » .

قال جارسيا : « انه على حق بكل تأكيد » .

- « أما أنا فلا أستطيع أن أعيش اذا علمت أنه سيقا تل هنا . . . واذا لم أعرف ما يجري . . . » .

وعزف أكورديون آخر نشيد « العالمية » مصاحباً الكلمات في لحن مكتوم ، على حين أكمل ضرير آخر يضع أمامه الآنية التي يجمع فيها الصدقات الموسيقى في الموضع الذي انقطع عنه الأول .

قال جارسيا لنفسه : « النساء جميعاً سواء . . . ولو انها رحلت فسوف تتحمل الفراق في كثير من الانفعال . . ولكنها ستتحمله على كل حال ، واذا بقيت فسوف يقتل » .

ولم يتبين وجهها في الظلام ، والواقع انها كانت أقصر منه ، وكانت ظلال المارة تخفي وجهها .

وسألها جرنيكو متردداً : « ولماذا تريد البقاء ؟ » .

- « لأنني لا أعبأ بالموت . . والمشكلة هي انه ينبغي أن أتغذى جيداً ، ولكن لم يعد ذلك من الممكن هنا . . إنني حامل . . . » .

ولم يسمع جارسيا إجابة جرنيكو . وانضمت المرأة الى تيار آخر من الظلال . . .

قال جرنيكو : « ماذا نستطيع أن نفعل ؟ . . . »

ومر عليها عدد من رجال الميليشيا يرتدون العفريته . وعبر الشارع المشقوق ، وكانت ثمة ظلال تقيم متراساً .

وسأل جارسيا : « متى ترحل ؟ » .

- « لن أرحل » .

كان جرنيكو من أوائل الأشخاص الذين سيعدهم الفاشيون رمياً بالرصاص حين يدخلون مدريد ، وعلى الرغم من أن جارسيا لم يكن ينظر

الى صديقه ، فإنه كان يراه سائرا الى جواره بشاربه الأشقر القصير ، وشعره الأشعث ، وذراعيه الطويلتين النحيلتين ؛ وأشفق جارسيا على هذا الجسد الضعيف إشفاقه على الأطفال ؛ اذ كان يستبعد كل فكرة عن القتال ؛ إن جرنيكولن يقاتل ، وإنما سيقتل !

ولم يتحدث أحدهما عن هيئة الأسعاف في مدريد ؛ اذ كان كل منهما مقتنعاً بأنها لن تقوم لها قائمة .

- « ما دام الانسان قادراً على مساعدة الثورة فلا بد له أن يساعدها . ولكن تعريض الانسان نفسه للقتل شيء لا يفيد يا صديقي العزيز ، وليست الجمهورية مشكلة جغرافية تحل بالاستيلاء على مدينة » .

- « لقد كنت عند بوابة الشمس يوم « الجبل » ، حين أطلقوا النار على الجماهير من جميع النوافذ .. أما هؤلاء الذين كانوا يسيرون في الشارع فقد انبطحوا على وجوههم ، وامتلاً الميدان كله بأناس منبطحين يطلق عليهم الآخرون الرصاص ، وفي اليوم التالي ذهبت الى الوزارة ، فوجدت أمام الباب صفّاً طويلاً من النساء اللواتي جئن للتبرع بدمائهن من أجل الجرحى .. لقد « أبصرت » الشعب الأسباني مرتين ، وهذه الحرب هي حربها ، أياً كانت النتيجة ، وسأبقى معه حيثما كان ، هنا مائة ألف من العمال لا يملكون سيارة تحملهم الى بلنسية ... ! » .

ولم يكن جارسيا يستطيع أن يقول شيئاً يعادل - في تأثيره على جرنيكو عندما اتخذ قراره - حياة زوجته وأطفاله ، ولم يكن جارسيا كذلك يستطيع أن يتصور - في غير عناء - اذا قدر لهما ألا يلتقيا مرة ثانية - أن يكون حديثهما الأخير أشبه بالمعركة الكلامية .

وأشار جرنيكو بيده الطويلة المرهفة اشارة الى الأمام وقال :

- « من يدري ، ربما رحلت في اللحظة الأخيرة » .

بيد أن جارسيا كان مقتنعاً بأنه يكذب .

وارتفعت من الشارع ضجة مختلطة ، وكأنها تسبق جماعة الناس الذين اجتازوا النور ، قال جارسيا : « ها هم أولاء عمال الحفر » ، وكانوا يصعدون متجهين صوب الأراضي الأخيرة قبل كارابانشل لحفر الخنادق وبث الألغام ، وأمام جارسيا وجرنيكو كانت جماعة أخرى من الظلال أضفى عليها الضباب قتامة تقيم متراساً آخر .

قال جرنيكو : « انهم يستقرون جيداً » .

- « ويستطيعون التراجع عن طريق وادي الحجارة غير أن شقتك ومركز الرابطة مصيدتان للفئران » .

وأعاد جرنيكو تلك الإشارة التي تدل على ضرب من القدرية المبهمة . وهذا ضرير آخر يعزف نشيد العالمية . . لم يعد العميان يعزفون الآن سوى هذا النشيد ، وفي كل شارع كانت ظلال مختلفة ، تقيم نفس المتاريس .

واستأنف جرنيكو حديثه قائلاً : « ربما كانت الواجبات الملقاة على عاتقنا نحن الكتاب المسيحيين - أكثر من واجبات غيرنا » .

ومر أمام كنيسة القلعة ، وأشار جرنيكو إليها بيده إشارة غامضة ، وأدرك جارسيا من نبرة صوته انه يتسم في مرارة .

- « بعد أن ألقى قسيس فاشي موعظته في قطالونية الفرنسية وكان موضوعها :

« لا تضع على أعناقنا - يا رب - نفس النير الذي وضعته على الكفار » .

أبصرت الأب سارازولا يقترب من القسيس ، وبعد أن انصرف القسيس قال لي سارازولا : « إن معرفة المسيح تترك أثراً ما على الانسان ، وهذا أول رجل بين أولئك الذين شاهدتهم هنا يخجل من هذه المعرفة . . . » .

ومرت سيارة نقل محملة بأكداش مختلطة من رجال الميليشيا الذين يجلسون القرفصاء .

واستطرد جرنيكو بصوت أكثر همساً :

- « عندما أرى ما يفعلون ، أنا الذي أشعر بالخجل . . . » .

وكان جارسيا على وشك أن يجيب حين أوقفه رجل قصير من رجال الميليشيا يشبه رأسه رأس العرسة ، وقال له :

- « سيكونون هنا غداً ! » .

وسأل جرنيكو بصوت خافت : « من يكون هذا ؟ » .

قال ابن آوى : « لا سبيل الى التعامل مع هذه الحكومة . . . لقد حملت اليهم منذ أكثر من عشرة أيام جميع المعلومات الخاصة بانتاج ميكروب الحمى المالمطية على نطاق واسع . . خمسة عشر عاماً من الأبحاث . ولم أطلب منهم سحتوتاً واحداً . كل ذلك من أجل مكافحة الفاشية ! ولكنهم لم يصنعوا شيئاً ، وهذا الاهمال بعينه هو ما لقيته قبلي . . وسيأتي الآخرون هنا غداً » .

قال جارسيا : « كفى ! » .

بيد ان كاموتشيني كان قد اختفى في الزحام الليلي كأنه « عفريت النسوان » وصاحب الأكورديون الذي يعزف نشيد العالمية ، ظهوره واختفائه .

وسأل جرنيكو : « هناك كثير من هذا الصنف ؟ » .

- « في البداية . . أجل . كان المتطوعون الأوائل مجانيين الى حد ما أو أبطالاً الى حد ما ، أو الاثنين معاً في بعض الأحيان » .

كان جو الأمسيات التاريخية يشيع في القلعة ، كما يشيع في الطرقات

الضيقة ، وخرست المدافع وإن تعالت أصوات الأكورديونات من كل مكان . . وفجأة إنهال وابل من رصاص مدفع رشاش في نهاية أحد الشوارع ، كان رجل من رجال الميليشيا يطلق النار على أطياف .

والعمل في بناء المتاريس قائم على قدم وساق ، ومع أن جارسيا لم يكن يؤمن إيماناً عظيماً بجدوى المتاريس فإن هذه كانت تبدو استحكامات لا بأس بها ، ومن خلال الضباب كانت الأطياف لا تنقطع عن الحركة . وثمة طيف ساكن يتخلى لحظة عن سكونه ، ثم يعود اليه مرة أخرى . انه المشرف على التنظيم ، وفي هذا الضباب غير الواقعي الذي أخذ يتكاثف لحظة بعد أخرى ، كان الرجال والنساء ينقلون مواد البناء ، وكان العمال من جميع نقابات البناء يقومون بتنظيم العمل الذي يشرف عليه رؤساء فنيون ، وهؤلاء قام على تدريبهم خبراء الفرقة الخامسة في غضون يومين ، وفي هذا الموكب المسرحي الصامت الذي لفظت فيه مدريد العتيقة آخر أنفاسها ارتفعت لأول مرة من وراء مآسي الحياة الفردية ، والحماقات والأحلام ، والأطياف التي تجوس خلال الشوارع بآمالها وهمومها . ارتفعت وسط ضباب المدينة المحاصرة ارادة خليفة بمدريد الجديدة .

وذابت أنوار الشارع الكبير ، فاستحالت الى سدم مبهمة خافتة تحت الأشكال السابقة على التاريخ التي تشكلت بها ظلال ناطحات السحاب ، وتذكر جارسيا العبارة التي قالها صديقه : ربما كانت الواجبات الملقاة على عاتقنا - نحن الكتاب المسيحيين - أكثر من الواجبات الملقاة على سوانا . . . »

وسأل مشيراً بغليونه الى كنيسة أخرى : « ماذا تنتظر الآن بحق الشيطان من هؤلاء الناس ؟ » .

وسارا تحت عمود من أعمدة النور الكهربوي . وابتسم جرنيكو تلك الابتسامة الكثيبة التي تجعله أشبه بطفل عليل :

- « لا تنس اني أو من بالأبدية . . . » .

وأمسك بذراع جارسيا .

« وإني انتظر مما يحدث هنا الآن - بما في ذلك المحاريب التي أحرقت في قطالونيا - أن يصنع لكنيستي - أي جارسيا - أكثر مما صنعتها لها أسبانيا الكاثوليكية في السنوات المائة الأخيرة ! وقد راقبت القساوسة طيلة عشرين عاماً وهم يؤدون شعائزهم المقدسة ، هنا وفي الأندلس ، بيد انني في هذه الأعوام العشرين لم ألمح قط اسبانيا الكاثوليكية الحقيقية : شاهدت طقوساً .. أما في قلوب الناس وعلى صفحة الطبيعة فلم أجد سوى صحراء قاحلة ... ! »

وكانت أبواب الوزارة مفتوحة كلها ، ناحية بوابة « الشمس » ؛ إذ خصصت إحدى قاعاتها قبل الثورة مباشرة لتتضم معرضاً للنحت . وهناك كانت التماثيل من كل نوع : التماثيل الجماعية ، والعارية ، وتماثيل الحيوانات . تنتظر المغاربة في القاعة الخاوية التي تبددت فيها ضجة بعيدة تحدثها آلة كاتبة ؛ فالوزارة لم تكن قد أُخليت تماماً .

بيد أن الظلال نفسها كانت تعمل دون كلل ، وفي اصرار الضباب في اقامة المتاريس في الشوارع المتفرعة عن الميدان .

- « أصحيح أن كابليرو قد طلب مشورتك فيما يتعلق بإعادة فتح أبواب الكنيسة ؟ » .

- « أجل . » .

- « ويم أجبت ؟ » .

- « بالنفي طبعاً » .

« بأنه لا ينبغي إعادة فتحها ؟ » .

« بكل تأكيد ، وهذا يدهشك ، ولكنه لا يدهش الكاثوليك : إنني إذا أعدمت غداً فسوف تعتريني نفس المخاوف التي تعتريني كل إنسان عن

نفسه ، أما في هذا الموضوع فلا تساورني أية مخاوف ، لست بروتستانتياً ، أو زنديقاً ، ولكنني أسباني كاثوليكي . ولو انك كنت من رجال اللاهوت لقلت لك : إنني أهيب بروح الكنيسة ضد جسد الكنيسة ، ولكن دعنا من هذا ؟ فالإيمان ليس معناه انتفاء الحب ، والأمل لا يتطلب عالماً يسعى الى تبرير نفسه بأن يجعل الناس يقومون من جديد بعبادة ذلك الصليب القائم في أشبيلية الذي يسمونه مسيح الأغنياء - بوصفه تعويذة (وكنيستنا ليست زنديقة ، ولكنها سمعانية) ؛ كما أنه لا يقتضي وضع معنى العالم في امبراطورية أسبانية ، أو في نظام للحكم لا نسمع فيه شيئاً لأن أولئك الذين يتألمون يتوارون لسكب دموعهم ؛ فإنك تجد النظام أيضاً في السجون . . وما من أمل يراود أفضل رجال الفاشية لا يقوم على الغرور ؛ فليكن ولكن ما دخل المسيح في هذا الموضوع ؟ » .

وتعثر جارسيا بكلب في طريقه ، فكاد ينكفيء على وجهه ، ومدريد مملوءة بالكلاب الفخمة التي تركها أصحابها الهاربون ، وهكذا سيطر الكلاب والعميان على المدينة التي يتنازعها الجمهوريون والمغاربة .

- « وما شأن قساوسة نافارا « بالاحسان » ، وهم يسمحون باعدام الناس في سبيل مجد السيدة العذراء ؟ القساوسة البشكونيون هم الذين يدافعون عن الاحسان ؛ لأنهم لم يهابوا القبل أمام الفاشيين ، بل باركوا في أفبيرة ايرون Iron الفوضويين الذين أحرقوا كنائسهم ، لست قلقاً يا جارسيا ، ولكنني استند في عدائي للكنيسة الأسبانية على إيماني كله . . . وأنا ضدها باسم فضائل لاهوتية ثلاث هي : الإيمان والأمل والإحسان . . . » .

- « وأين تجد الكنيسة التي ترضي إيمانك ؟ » .

وأدخل جرنيكو يده في شعره المتهدل على جبينه ، وكان الحشد الذي خيم عليه الصمت ينساب بين البواكي والأعمدة التي تعوق السائر في الميدان الكبير ، وكانت الأعمال الأرضية التي توقفت قد تركت أكداساً من الزلط

والحجارة ، وتواثب الظلال فوقها كأنها تشترك في باليه ليلي حزين تحت أبراج صارمة شبيهة بأبراج الأسكوريال ، وبدت مدريد مغطاة كلها بالتاريس بحيث لم يعد يخلو منها مكان . قال جرنيكو :

- « أنظر: في هذه المنازل الفقيرة أو في هذه المستشفيات ، هذه اللحظة بالذات - فستجد فيها قساوسة لا يرتدون مسوحهم ، بل يلبسون صديريات شبيهة بما يلبسه جرسونات المقاهي الباريسية ، وهم يتلقون الاعترافات ، ويمنحون بركاتهم للمحتضرين ، بل لعلهم يقومون بالتعميد . لقد سبق أن قلت لك : انني لم أسمع في اسبانيا قول المسيح منذ عشرين عاماً . . . اما هؤلاء فالناس « يسمعونهم » . . . هؤلاء نسمعهم ، ولكننا لم نسمع أبداً أولئك الذين سيخرجون غداً بظيلسانهم الذي لبث طويلاً في مخبئه ليباركوا فرانكو ! كم من قساوسة يمارسون عمهم في هذه اللحظة ؟ خمسون وربما مائة . لقد سار نابليون تحت هذه البواكي ، ومنذ ذلك العصر الذي دافعت فيه الكنيسة عن « قطيعها » لا أعتقد في الواقع أن كلام المسيح قد عاش هنا ليلة واحدة . . . ولكنه حي في هذه اللحظة » .

وتعثرت قدمه بحجر من الأحجار الملقاة في الميدان المحفور ، فتهدل شعره الى الأمام ، واستطرد قائلاً :

- « إن كلمته حية بيننا ، وليس في العالم أماكن كثيرة يستطيع المرء أن يقول فيها : إن كلمته كانت حاضرة هنا ؛ ولكن لن يلبث الناس أن يعرفوا أن هذه الكلمة قد سميت هذه الليالي هنا في مدريد . أن شيئاً يحدث في هذه البلاد بالنسبة لكنيستي ، شيئاً لعله أن يكون هو مولد الكنيسة ، ولقد رأيت أمس الشعائر الدينية وهي تؤدي لرجل بلجيكي من رجال الميليشيا في سان كارلوس . هل تعرفها ؟ » .

- « رأيت هناك جرحى في الفترة التي وقعت فيها معركة القطار المصفح . . . »

وتذكر جارسيا القاعات الواسعة ذات الرائحة العفنة والنوافذ المنخفضة التي تفتحها النباتات ... ما أبعد هذا كله ! ...

- كانت قاعة مملوءة بالجرحي المصابين في أذرعهم ... وعندما قال القسيس ردت عليه الأصوات :

أربعة أصوات أو خمسة أصوات ، انطلقت وراء ظهري ... » .

- « هل تذكر ما كان يردده مانويل ؟ »

وكان ليف من اصدقاء جارسيا ، ومنهم مانويل وجرنيكو - قد قضاوا منذ خمسة اشهر مضت ليلة وداع حتى مطلع الشمس ، ورافقوه الى التلال المشرفة على مدريد ، وبينما كانت التماثيل الجبرية المصطبة باللون البنفسجي تبرز من ظلمة الليل وغابة الأسكوريبال المعتمة في آن واحد - شرع مانويل يغني أغاني الأستوريش التي تعلمها ، ثم قال : « وسأغني من أجل جرنيكو نشيداً دينياً » .

وختم الجميع ذلك النشيد في كورس واحد باللاتينية ، فقد تعلموا جميعاً على أيدي القساوسة ، وكما بدت تلك العبارات اللاتينية المنسية مصطبة بشيء من السخرية الرقيقة - فكذلك بدت العبارة اللاتينية التي قيلت في حفرة الموت لأولئك الجرحي الثورين بأذرعهم التي في الجبس المثنية في وضع من يستعد لعزف الكمان ...

وأردف جرنيكو : « وهنا قال لي القسيس : « عندما وصلت كشف الجميع عن أعظيتهم ، لأنني أحمل لهم العزاء في لحظاتهم الأخيرة ... » ولكن كلا ! لقد فعلوا ذلك لأنه من المحتمل أن يكون ذلك القسيس الداخل عدواً لهم » .

وتعثر في صخرة أخرى ، كان الميدان كله مغطى بالحجارة ، كأنما أغارت عليه طيارات العدو ، واتخذ صوته لهجة أخرى :

- « اعلم جيداً أن قساوستنا الكاثوليك الجادين يعتقدون انه ينبغي النظر الى هذه المسائل كلها من وجهة نظر جديدة ، ان ابن الله قد نزل الى الأرض ليقول كلاماً لا معنى له ، ويبدو ان العذاب قد أفقده صوابه قليلاً ما ، منذ أن وضع على الصليب ، أليس كذلك ؟ ... »

الله وحده يعلم المحن التي سيمتحن بها رجال الكهنوت ، ولكنني أعتقد أنه ينبغي أن تصبح الكهنوتية أمراً عسيراً مرة أخرى ... » .

ثم أردف بعد هنيهة :

« مثل حياة كل مسيحي ... »

ونظر جارسيا الى ظليهما المتوترين اللذين زحفا فوق ستائر الحوانيت الكثيرة ، وخطرت على باله قنابل ٣٠ أكتوبر الأثنا عشرة .

واستأنف جرنيكو حديثه هامساً : « إن اصعب شيء هو مسألة الزوجة والأطفال ... »

ثم قال بصوت أشد خفوتاً :

« ومع ذلك فأمامي فرصة .. فإنهم ليسوا هنا ... »

ونظر جارسيا الى وجه صديقه ، ولكنه لم يستطع أن يتبينه ، ولم ترتفع قط أية جلبة قتال ، ومع ذلك كان الجيش الفاشي يطوق المدينة كالهلال ، أو كوجود شخص في ظلام حجرة موصدة . وتذكر جارسيا حديثه الأخير مع « كاباليرو » ، وكانت عبارة « الأبن الأكبر » قد وردت في الحديث ، ولم يكن جارسيا يجهد أن ابن « كاباليرو » أسير الفاشيين في شقوبية وأنه سيعدم رمياً بالرصاص . حدث ذلك في شهر سبتمبر ، وكان كل منهما يجلس على جانب من جانبي المائدة ، وكاباليرو يرتدي ميدعة العمل ، وجارسيا الزي العسكري ، ودخلت جرادة من النافذة المفتوحة على نهاية الصيف ، وسقطت بينهما مقلوبة على المائدة ، وحاولت أن تتحرك فأخذ جارسيا ينظر الى ساقها المرتجفتين على حين التزم الاثنان الصمت .

الفصل السابع

تحركت ظلال وثيدة الخطى في الضباب الجاثم امام واجهات المحال وكلما اصطدمت بالحجارة أحدثت ضوضاء ، وفي الشارع الكبير كان الندل يخدمون في ذهول كثيب ثلاثة من الزبان هم آخر زبائن الجمهورية ، وفي صالة الفندق كان جنود الفرقة الخامسة يسحبون - واحداً إثر الآخر - من حقائب كبيرة قبضاتهم مملوءة بالرصاص ، ثم لا يلبثون أن ينضموا في جماعات على الرصيف ، وكانوا في الواقع مدججين بالسلاح ، وفي تطوان وكواتروكامينوس (الطرق الأربعة) كانت النسوة يحملن كل ما يمكنهن جمعه من البنزين الى الطابق الأعلى من المنازل . ولم يكن التسليم أو الفرار في تلك الأحياء العمالية - من المسائل التي يمكن ان ترد على الأذهان ، وكان رجال الفرقة الخامسة ينزلون على كارابانشل ، وعلى الحديقة الغربية وعلى المدينة الجامعية بسيارات النقل ، أو على الأقدام . ولأول مرة أحس اسكالي انه أمام طاقات منسقة تتألف من خمسمائة ألف رجل . ولم يكن من الممكن أن يحمل والد جيم معه سوى حقيبة واحدة ، فلم يكن ثمة متسع في السيارة .

وانفتح الباب على عجوز عملاق ضخم الجثة ، له لحية مدبية كالرمح ، مدفونة بين منكبيه العريضتين المنحيتين ، ولكن ما أن وقف الشيخ تحت المصباح الكهربائي الذي يضيء الدهليز ، حتى لاحظ اسكالي أن الشعر يغير من شكل هذا الرجل الذي يشبه شخصية من شخصيات « الجريكو » ، كما يغير رسام من عصر الباروك لوحة ينسخها من لوحات ذلك المصور

الأسباني : فهناك فوق العينين الحادتين الواسعتين جداً - وإن أطفأتها قليلاً كثافة الجفنين وكثرة غضونها - كان الشعر الذي في مؤخرة الرأس يتطاير في خصلات هوجاء ، وينتهي حاجباه المتحركان الحادان بشولتين مثلما تنتهي اللحية .

وسأل مبتسماً : « أنت جيوفاني أسكالي ، أليس كذلك ؟ » .

فقال اسكالي مدهوشاً من سماع اسمه الأول : « لقد حدثك ابنك عني ! »

- « أجل .. ولكنني قرأت لك .. قرأت لك ... » .

وكان اسكالي يعلم أن والد جيم كان استاذاً لتاريخ الفن ، ودخلا حجرة مغطاة بالكتب ، باستثناء تجويفين عاليين على جانبي الأريكة . وفي احدهما قامت تماثيل اسبانية مكسيكية بعضها بدائي وبعضها الآخر من عصر الباروك . وفي التجويف الآخر تماثيل جميل لموراليس ..

ومن خلال النظارات التي كان يمسكها بيده ، نظر ألفير الى اسكالي في انتباه فاحص ، يوجهه عادة الى الأشياء الفريدة ، وكان ألفير أطول من اسكالي بحوالي رأس .

وسأله اسكالي : « تبدو عليك الدهشة ؟ » .

- « إن رؤية شخص يفكر في مثل هذا الزي ... يدهشني دائماً » .

وكان اسكالي يرتدي زيه الرسمي بسروره الطويل جداً ، ونظارته . وعلى منضدة منخفضة قائمة بجوار مقاعد وثيرة من الجلد ، كانت زجاجة من الخمر وكأس مترعة وكتب مفتوحة ، وغادر ألفير الحجرة بخطوات متساقطة غاية التثاقل ، وكان كتفيه أقوى كثيراً مما تحتمله المساقان ، ثم عاد يحمل كأساً أخرى ...

قال اسكالي : « كلا ... شكراً ... »

وعلى الرغم من المصاريح المغلقة فقد تناهت اليها جلبة أقدام مسرعة ،
وأنغام أكورديون بعيد .

- « انت مخطيء في رفضك ؛ لأن نبيذ اكسبريس ممتاز حقاً ، وهو لا يقل
جودة عن النبيذ الفرنسي ، أتريد شيئاً آخر ؟ » .

- « إن سيارتي تنتظر عند باب المنزل تحت تصرفك ، ويمكنك أن تبرح
مدريد فوراً » .

وكان آفير قد غاص في أقرب المقاعد اليه ، كالنسر القوي الهرم الذي
نتف ريشه ، وله منقار معقوف ، غير منفر كمنقار ابنه .

ورفع عينيه الى اسكالي ، قائلاً : « ولماذا ؟ » .

- « لقد أوصاني جيم أن أمر عليك لأصحبك عند عودتي من الوزارة ،
وأنا عائد الآن الى قلعة هنارس » .

وكانت ابتسامة آفير أظعن في السن من جسمه :

- « عندما يسافر شخص في مثل سني فإنه يصطحب معه مكتبته » .

- « لعلك تعلم ان المغاربة سيكونون هنا غداً ، أليس كذلك ؟ » .

- « طبعاً . . . ولكن ماذا تريدني أن أصنع بحق الشيطان . . . إننا
نتعارف في ظروف عجيبة ، وأنا أشكر لك المساعدة التي تعرضها عليّ ،
وأرجوك أن تحمل شكري الى جيم على ما طلبه منك . . . ولكن لماذا أرحل
عن مدريد ؟ » .

- « الفاشيون يعلمون ان ابنك يحارب ضدهم ، ألا تدرك أنك تتعرض
للاعدام رمياً بالرصاص ؟ » .

وابتسم آفير بجفنيه السميكين ، ووجنتيه المهتلتين ، وأشار الى زجاجة
الخمر بالنظارة التي يمسكها بيده :

- « لقد اشتريت النيذ » .

كان له نفس أنف جيم المعقوف النحيل ونفس الوجه ذي التواءات الكثيرة ونفس المحجرين في تلك اللحظة التي رسم فيها الظل على جبينه نظارتين واسعتين سوداوين .

وأردف قائلاً : « تريد أن تقول : إن الخطر ينبغي أن يفصلني عن ... »

وأشار الى الجدران المغطاة بالكتب .

- « ولماذا ؟ لماذا ؟ هذا شيء عجيب : لقد عشت أربعين عاماً في الفن ، ومن أجل الفن ... وهأنذا - الفنان - تتعجب لاستمراري في ... أصغ اليّ جيداً يا سيد اسكالي : لقد أشرفت طيلة أعوام على ادارة صالة عرض للوحات ... وقدمت هنا فن الباروك المكسيكي ، والمصور جورج دي لاتور ، والفرنسيين المحدثين وتمائيل لوبيز وفن البدائيين . وقد تصل زبونة الى المعرض ، وتنظر الى لوحة من لوحات الجريكو أو بيكاسو ، أو بدائي من أراغونيا وتسالني : « كم ثمنها ؟ » وفي العادة تكون سيدة ارستقراطية بكل عنجهيتها الأسبانية وبجواهرها وبخلها . فأسألها : « معذرة يا سيدتي ، ولكن لماذا تريد شراء هذه اللوحة ؟ » وكانت الاجابة دائماً على هذا النحو : « لست أدري ! » إذن عودي الى منزلك وأمعني في الفكر ، وعندما تعرفين السبب عودي مرة أخرى » .

وكان جارسيا هو الشخص الوحيد الذي يتمتع بعادة التنظيم العقلي من بين جميع الأشخاص الذين التقى بهم اسكالي أو عاشرهم منذ نشوب الحرب .

وأحسن اسكالي بنشوء علاقة ذهنية بينه وبين ذلك الشيخ ، وكان احساسه ذاك أشد حدة على الأخص نتيجة لليوم المضني الذي قضاه ،

ونتيجة لشعوره بأنه قائد ضعيف ، كان العالم الذي وجد فيه قيمته يجتذبه اليه .

وسأل : « هل كنَّ يعدن ؟ » .

- « كن يحاولن معرفة سبب شرائهن لتلك اللوحة على الفور ، « أنا أريد هذه اللوحة لأنها تعجبني ، أو لأنني أراها جيدة ، أو لأن إحدى صديقاتي تمتلك واحدة » . وكان الناس يعلمون ان عندي أجمل لوحات الجريكو » .

- « ومتى تقبل البيع ؟ » .

ورفع ألفير الى شعره المجعد إصبغاً مملوءة بالعقد .

- عندما يجبن : « لأنني في حاجة إليها » فاذا كانت الواحدة منهن غنية بعثتها لها بثمن باهظ ، أما اذا كانت فقيرة ، فقد يحدث أن أبيعها دون ربح » .

ودوت طلقتان عن قرب ، أعقبتهما توأ جلبة أقدام متفرقة هنا وهناك .

قال ألفير دون مبالاة : « بهذه المصاريع الداخلية لا يرى أحد نورنا من الخارج على الاطلاق » .

- « كنت أبيع وفقاً للحقيقة التي او من بها يا سيد اسكالي ! وهل يستطيع إنسان أن يبلغ بحقيقته الى ابعد من ذلك ؟ والليلة أعيش معها ، المغاربة قادمون ؟ فالأمر سيان عندي . . . » .

- « أنت تستسلم للموت عن عدم اكتراث ؟ » .

- « لا عن عدم اكتراث . . » .

ونفض ألفير قليلاً دون أن تتخلى يدها عن مسند المقعد ، ونظر في حركة مسرحية الى حد ما ، وكأنه يريد أن يؤكد ما يقول :

- « وإنما عن احتقار . . . » ثم أردف قائلاً :

« ومع ذلك ، ومع ذلك ، هل ترى هذا الكتاب ، إنه رواية دون كيشوت ، وكنت أريد أن أقرأه في هذه اللحظة ، ولكنني لم أستطع . . . » .

- « لقد رأيت في كنائس الجنوب حيث كانوا يقاتلون ، رأيت بقعاً كبيرة من الدماء في مواجهة اللوحات ، وهكذا فقدت اللوحات تأثيرها . . . » .

فقال ألفير : « ينبغي أن نحصل على لوحات أخرى . . . هذا كل ما في الأمر » .

وأخذ يلف طرف لحيته على سبابته ، وكانت لهجته لهجة تاجر يقوم بتغيير اللوحات في شقة أحد الزبائن .

قال اسكالي : « حسن ، ومعنى هذا تقدير الأعمال الفنية تقديراً عظيماً » .

- « الفن ، لا أعمال فنية ، فليست الأعمال الفنية جملة هي التي تخاطب أنقى الجوانب في نفوسنا ، بل هذا العمل الفني أو ذاك على وجه التحديد . . . »

وفطن اسكالي الى ما كان يجرجه منذ بداية هذا الحديث : ان القوة التي يتسم بها وجه هذا الرجل تتركز في عينيه ، وفي كل مرة كانت غريزته الحمقاء تقوده بمساعدة الشبه بين الأب والأبن - الى أن يتوقع رؤية عينين كفيفتين في كل مرة يرفع الرجل العجوز نظارته عن عينيه .

قال الشيخ : « لا صوت الليلة للروائيين ورجال الأخلاق ، فإن الأشخاص الذين يتعاملون مع الحياة لا قيمة لهم أمام الموت ، والحكمة أشد تعرضاً للإصابة من الجمال ، ذلك لأن الحكمة فن مشوب ، أما الشعر والموسيقى فيشبتان للحياة والموت على السواء ، وما عليك إلا أن تعيد قراءة نومانس Numance هل تذكرها ؟ الحرب تتقدم صوب المدينة المحاصرة تصحبها تلك الضجة المكتومة . . . »

ونفض ، ثم أخذ يبحث عن أعمال سرفانتيس الكاملة ، ولكنه لم يجدها :

- « كل شيء مقلوب رأساً على عقب بسبب الحرب ! » .

وسحب كتاباً آخر من مكتبته ، وشرع يقرأ بصوت مرتفع ثلاثة أبيات من قصيدة الشاعر كيفيدو Quevedo :

« بم تنظاها هذه المرأة التي هرعنا مذعورة لانقاذ روحها . . . تلك الروح التي تشابكت فيها مشاعر دنيا لا قيمة لها ؟ » .

وكشفت السبابة التي تتابع ايقاع الشعر عن الأستاذ ، وانحنت كتفاه على ظهر المقعد كنسر عجوز لاذ بتلك الحجرة المغلقة ، وبذلك المقعد ، وبالشعر ، وجعل يطالع في تودة مع احساس بالايقاع اذداد تأثيره نتيجة لخلو صوته من كل لون ، ولشيوخ الشيخوخة فيه شيوخها في ابتسامته ، وكانت الضجة المكتومة للأقدام الهاربة في الشارع ، والانفجارات البعيدة ، وضوضاء الليل والنهار التي ما برحت عالقة بذهن اسكالي . . كانت هذه الضوضاء كلها تطوف حول هذا الصوت الذي يتمثل فيه الموت كالحيوانات الحائرة .

« ومن المحتمل جداً أن يقتلني العرب ، كما يمكن أن يقتلني أيضاً رجالكم ، فيما بعد ، هذا شيء لا أهمية له ، أمن العسير - يا سيد اسكالي - أن ينتظر الانسان الموت (الذي ربما لا يأتي !) وهو يحتسي الخمر في هدوء ويطالع أشعاراً رائعة ؟ ثمة احساس عميق نحو الموت لم يعبر عنه أحد منذ عصر النهضة . . . » ثم قال هذه العبارة وكأنه يضعها بين قوسين : « ومع ذلك كنت أخشى الموت في شبابي . . . » .

- « أي إحساس ؟ » .

- « حب الاستطلاع . . . »

ووضع ديوان كيفيدو فوق أحد الرفوف ، ولم يعد اسكالي يود الرحيل .
وسأله الشيخ : « ألا تشعر بشيء من حب الاستطلاع للموت ؟ إن كل رأي
قاطع عن الموت سخيف أشد السخف . . . »

وقال اسكالي واضعاً يده في شعره المجعد : « طالما فكرت في الموت ،
ولكن منذ أن اشتركت في القتال ، لم أفكر فيه قط ، لقد فقدت في نظري
كل . . كل حقيقة ميتافيزيقية ، إن شئت . وحين سقطت طائرتي ذات
مرة ، وبين اللحظة التي سبقت ارتطام مقدمة الطائرة بالأرض ، واللحظة
التي جُرحت فيها - وكان جرحاً طفيفاً - لم أفكر في شيء على الإطلاق ، بل
كنت متأهباً كالحيوان المطارد تأهباً تشنجياً . كيف أقفز ؟ وأين ؟ وأعتقد الآن
أن المسألة تكون دائماً على هذا النحو ، مجرد مبارزة : يربح فيها الموت أو
يخسر ، ولا يعدو الباقي أن يكون سوى مجرد علاقات بين أفكار . ليس
الموت شيئاً خطيراً ، أما الألم ، فإنه كذلك . والفن لا حيلة له أمام الألم ،
ولا تستطيع أية لوحة - لسوء الحظ - أن تصمد أمام بقع الدماء . »

- « لا تكن على هذه الثقة ، لا تكن على هذه الثقة ! عندما حاصر
الفرنسيون سرقسطة صنع الجنود خيامهم من قماش لوحات كبار الفنانين .
وبعد إحدى المعارك رجع الفرسان البولنديون على الأرض يرتلون صلواتهم ،
بين الجرحى أمام عذراوات « موريللو » التي استخدمت لاجل إغلاق أبواب الخيام
المثلثة . هنا كان الدين ، وكان الفن أيضاً ، ذلك لأنهم لم يكونوا يؤدون
صلواتهم أمام عذارى من الشعب . آه ، يا سيد اسكالي ، لقد اكتسبت عادة
عظيمة في تذوق الفن ، ولكنك لم تكتسب هذه العادة في احتمال الألم . . .
وسترى فيما بعد - فما زلت شاباً - إن الألم يصبح أقل تأثيراً حين تتيقن أننا لن
نستطيع تغييره . . ! »

وبدأ مدفع رشاش في اطلاق نيرانه على دفعات متقطعة ، وحيداً حانقاً
في السكون الحافل ، بضروب من الصرير .

وسأله آلفير وقد استولى عليه الشرود : « هل سمعت ؟ بيد أن الشطر الذي يستخدمه من نفسه ذلك الذي يطلق النيران الآن ليس هو أهم جوانبه . من يستطيع القول بأن المكسب الذي يجلبه اليكم التحرر الاقتصادي سيكون أعظم من الخسائر التي يلحقها بكم المجتمع الجديد الذي تهدده الأخطار من كل جانب . . ذلك المجتمع الذي يرغبه القلق على اتخاذ وسائل القهر والعنف ، وربما الوشاية ! العبودية الاقتصادية ثقيلة الوطأة ولكن اذا كان تحطيمها يرغب السلطات على فرض العبودية السياسية أو العسكرية أو الدينية أو البوليسية - فماذا يعينى إذن ؟ »

وهنا مس آلفير في اسكالي وترأ من التجارب التي يجهلها ، وترأ اتخذ طابعاً مأساوياً في نفس الايطالي القصير المجدد الشعر ، ولم يكن المستقبل هو الذي يهدد الثورة في نظر اسكالي ، بل الحاضر ، فمنذ اليوم الذي فاجأه فيه كارلتيش كان يرى العنصر الفسيولوجي للحرب ينمو لدى كثير من صفوفه رفاقه ، ممالقى الفزع في نفسه . ولم يكن المشهد الذي خرج منه تروأ باعثاً على اطمئنانه ، بل تركه حائراً لا يستطيع أن يجدد موقع قدميه .

- « وواصل الشيخ حديثه قائلاً : « أريد أن أتبين ما أفكر فيه يا سيد اسكالي » .

- « لا بأس بما تقول به ، ولكنه يجعل الحياة محصورة في نطاق ضيق » .

فقال آلفير في نبرات حاملة : « أجل . . . غير ان الحياة التي لا يحصرها شيء هي حياة المجانين . أريد أن تقوم علاقة بيني وبين شخص ما من أجل طبيعته ، لا من أجل أفكاره ، أريد الوفاء في الصداقة ، ولا أريد الصداقة المعلقة على موقف سياسي ، وأريد أن يكون الانسان مسؤولاً أمام نفسه ، وأنت تعلم طبعاً ان هذا هو الأصعب أياً كان مايقولونه - يا سيد اسكالي ، لا أمام قضية ، حتى ولو كانت قضية المضطهدين » .

واشعل سيجاراً : « في اميركا الجنوبية . . » (ونفت نفثة دخان) وفي

الصباح ، (نفثه أخرى من الدخان) تتصايح القرودة في الغابة تصايحاً شديداً ، وتقول الأسطورة : إن الله قد وعدنا بأن يحولها أناس في الفجر ، وتنتظر كل فجر . فاذا خاب ظنها بكت بكاءً تردده الغابة كلها !

« ثمة أمل رهيب عميق في الانسان ، والانسان الذي قضى عليه القضاء الجائر ، الانسان الذي التقى بكثير من الدناءة أو الجحود أو الجبن - لا بد أن يضع أمله في نظام جديد . . والثورة تؤدي فيما تؤدي من أدوار الدور الذي كانت تؤديه أنفأ الحياة الأبدية ، وهذا يفسر لنا كثيراً من خصائصها . ولو أن كل شخص أشغلت لحساب نفسه ثلث الجهود التي يبذلها اليوم لتغيير شكل الحكومة - لأصبحت الحياة في أسبانيا أمراً ممكناً . »

- « ولكن ، على الانسان أن يفعل ذلك وحده ، وهذه هي المسألة » .

- « الانسان لا يضع في الفعل إلا جزءاً محدوداً من نفسه ، وكلما ادعى الفعل انه « شمولي » كان هذا الجزء الملتزم أضال . وأنت تعلم - يا سيد اسكالي - انه من الصعب أن يكون المرء إنساناً . . أصعب مما يظن رجال السياسة . . »

ونفض آلفير قائلاً :

- « ولكن . . المهم ، كيف تستطيع وأنت مفسر ماساكيو وبيرو دلافرانسكا ، أن تحتل هذا الكون ؟ » .

وتساءل اسكالي : هل يواجه فكر آلفير ويواجه ألمه ؟ وقال أخيراً :
« حسن . . هل عشت مرة بين كثير من الجهلاء ؟ » .

واستغرق آلفير بدوره في التفكير :

- « لا أظن ، ولكنني أستطيع أن أتخيل ذلك جيداً » .

- « هل تعرف بعض المواعظ الشهيرة في العصر الوسيط . . . » .

فطاطا ألفير راسه :

« لقد استمع إلى تلك المواظ رجال أشد جهلاً ممن يقاتلون معي ، فهل تعتقد أنها فهمت ؟ » .

ولف ألفير طرف لحيته على أصبعه ، ونظر الى اسكالي وكأنه يقول :
« أدرك ما ترمي اليه ! » ولكنه لم يقل سوى هذه الكلمة : « طبعاً »

- « لقد تحدثت توأ عن الأمل ، والرجال الذين يتحدثون بالأمل والعمل معاً يصلون إلى آفاق لا يبلغونها وحدهم » كالرجال الذين يتحدثون بالحب . وهذه الفرقة في مجموعها أنبل من كل فرد فيها على حدة .

كان اسكالي يجلس ممسكاً نظارته بين أصابعه ، ولم يكن ألفير منه سوى وجهه الذي أصبح جميلاً ، لأنه يعبر عما خلق للتعبير عنه ، أعني عن الأفكار ، وفي هذه اللحظة كانت هناك وحدة عجيبة تجمع بين الشفتين الغليظتين والعينين الضيقتين نوعاً ما .

- « تتعني أشياء كثيرة في الحياة التي أحيائها ، بيد أن جوهر الانسان - إن صح هذا التعبير - « يوجد » في نظري - في تلك الأشياء . « ستكسب خبزك بعرق جبينك » . وهذا القول ينطبق علينا وبخاصة عندما يكون عرق الجبين بارداً كالثلج . . . » .

- « آه . . . كلكم مفتونون بما هو جوهر في الانسان . . . »

ثم أردف ألفير بوقار مفاجيء : « إن عصر ما هو جوهرى يبدأ من جديد ، وينبغي أن يقوم العقل على أسس جديدة . . . » .

- « أتعتقد أن جيم قلم أخطأ حين اشترك في القتال ؟ » .

وهز ألفير كتفيه المنحيتين ، وتدلّت وجنتاه الى أسفل قليلاً

- « فليصبح العالم كله فاشياً ، على أن يسترد ابني بصره . . . »

وفي الخارج ، غيرت سيارة من سرعتها محدثة صريراً .

- « هل تعتقد أن بصره سيعود اليه مرة أخرى ؟ » .

- « يؤكد الأطباء أن ذلك ممكن » .

- « أكدوا لك أنت أيضاً ! أنت أيضاً ولكنهم يعلمون انك صديقه . .

وأنت بهذا الزي العسكري . . انهم يكذبون على أي ضابط في هذه الأيام !
خشية أن تظنوا أنهم فاشيون ، اذا صارحوكم بالحقيقة . . أولئك
الحمقى » .

- « ولماذا ينبغي أن يكون ما يقولونه كاذباً ؟ » .

- « وهل تعتقد انه من السهل الايمان بالحقيقة عندما تكون معلقة على

كلمة رجل واحد ، وحين تتوقف عليها كل سعادتنا . . » .

والتزم الصمت برهة قصيرة ، ثم استأنف حديثه بلهجة أشد ارتفاعاً ،

وفي غير مبالاة ربما ليذود القلق عن نفسه :

- « الأمل الوحيد الذي تحاول به اسبانيا الجديدة المحافظة على ما تحارب

أنت ، وجيم وكثيرون غيركم - من أجله - هو نفس الشيء الذي ظللنا

أعواماً طويلة نعلمه للناس بأقصى ما فينا من جهد . . . »

وأصغى الى شيء في الخارج ، ثم اتجه صوب النافذة .

وسأله اسكالي : « ما هذا الشيء ؟ »

وعاد الشيخ . ثم قال بصوت تشوبه الحسرة :

- « ماهية الانسان . ما يجعل الانسان إنساناً . . . »

وأرهف سمعه مرة أخرى ، ثم أطفأ النور ، وفتح النافذة قليلاً ، فدخل

منها نشيد العالمية ، عالياً فوق وقع الأقدام . وفي الظلام ازداد صوته خفوتاً ،

وكأنه ينبعث من جسد أشد نحولاً ، وحرزناً ، وشيخوخة :

- « لئن دخل المغاربة في هذه اللحظة لكان آخر ما أسمع هذه الأغنية
المفعمة بالأمل التي ينشدها ضيرير . . . »

كان يتكلم دون إنفعال ، ولعله كان يبتسم ابتسامة غامضة ، وسمع
اسكالي صوت أغلاق مصاريع النافذة ، وفي لحظة كانت الحجرة تسبح في
ظلام دامس ، وأخيراً وجد الفير الزر الكهربى ، فأنار الحجرة مرة أخرى .
وقال :

- « انهم يحتاجون الى عالمنا ليلحقوا به الهزيمة ، وهم يحتاجون اليه أيضاً
حين يستخفهم الفرح . . . »

ونظر الى اسكالي الذي جلس توأ على الأريكة .

- « لم يصنع الآلهة الموسيقى - يا سيد اسكالي - وإنما الموسيقى هي التي
صنعت الآلهة . . . ! » .

- « ولكن ، ربما كان ما يدور في الخارج هو الذي صنع الموسيقى » .
وردد ألفير : « عصر ما هو جوهرى يعود من جديد . . . »

وصب كأساً من النبيذ ، ثم تجرعها دفعة واحدة ، دون أن يرتسم على
وجهه أي تعبير ، وكان مجال نور المصباح الكهربى لا يكاد يضيء سوى جبهة
اسكالي ونظارته وشعره المجعد :

- « لقد جلست في المكان الذي يجلس فيه جيم عندما يأتي . . . وأنت
تضع نظارات . . أيضاً . وعندما يخلع نظارته ، لا أستطيع النظر اليه . . . »

ولأول مرة سرت رنة الألم في صوته الرتيب ، وقال لنفسه بالفرنسية :
« ماذا أفادك يا بريام أن بلغت من الكبر عتياً ؟ . . . »

ورفع جبينه المتغضن تحت شعره الأشعث ، ونظر الى اسكالي نظرة تشي
بالفرع والطفولة في آن واحد :

- « ليس هناك ما هو أشع من تشويه « جسد » نجبه »

قال اسكالي هامساً : « إنني صديقه ، وقد تعودت رؤية الجرحى » .

قال ألفير في أناة : « ثمة شيء يبدو وكأنه حدث عمداً . . . فهناك في مواجهة عينيه تماماً ، وعلى هذه الرفوف من المكتبة - جميع الكتب التي تتناول فن التصوير . والآلاف المؤلفة من الصور التي شاهدها . . ومع ذلك فإنني إذا أدت الجرامفون ، وإذا دخلت الموسيقى هذا المكان - أستطيع أن أنظر إليه أحياناً حتى بعد أن يخلع نظارته . . . » .

الفصل الثامن

ووجد مانويل أيضاً وزارة الحرب مستسلمة للشموع المحتضرة ، كما وجد تلك القاعات الرحبة الكثبية التي حاول فيها آخر ملوك اسبانيا محاكاة شارل الخامس محاكاة هزيلة . . تلك القاعات التي عهدتها مانويل غاصة برجال الميليشيا المضطجعين على الأرائك وقد وضعوا مسدساتهم تحت أنوفهم ، على حين كان رئيس الوزراء ينصت في ركن من الأركان الى مذياع صغير ، ثم رآها بعد ذلك خاضعة لنظام صارم ، متجهم نوعاً ما ، فرضه كاباليرو . . . وعلى نفس هذا النظام ألفاها هذه المرة أيضاً ، غير أنها كانت مفتوحة النوافذ على المدينة المتوترة الأعصاب ، وعندما أدار زر المصباح الكهربائي طالعت المقاعد بوجوه علتها الدهشة ، اللهم إلا مكتب وزير الحرب حيث كانت المصابيح الكهربائية مضاءة كلها ، وفي هذا المكتب كان القائد الفرنسي يجلس وحيداً ينتظر ، ولم تعد الشموع تلقي على درجات السلم ذلك النور المسرحي الذي شاهده جارسيا وجرنيكو ، وإنما القت نوراً كئاسياً يضرب الى الحمرة قبل أن يأتي عليها الظلام الأخير .

وها هنا وهناك وسط دهليز داخلي تعلوه البواكي ، كانت الفوانيس الصغيرة - وهي نفس الفوانيس التي تشير ليلاً الى الشوارع المسدودة أو التي توضع على عربات اليد - تضيء درجات السلم الفخم التي تتلاشى في الظلام شيئاً فشيئاً .

ودنا مانويل من حجرة الجنرال « مياجا » بأعلى البناء تحت البرج ،

وكانت الممرات معتمة دائماً ، أما في هذا الطابق فكانت الأنوار تظهر تحت الأبواب . ودخل مانويل ، لم يكن الجنرال موجوداً وإنما كان نصف هيئة اركان حرب « دفاع الخونتا » (مجلس الثورة) جالسين ، أو سائرين داخل تلك الحجرة الشبيهة بحجرات الفنادق المتواضعة ، ويميز مانويل من بينهم رئيس فرقة الديناميت ورئيس فرقة الألغام ، وبعض ضباط هيئة أركان حرب « مياجا » وعدداً من ضباط الفرقة الخامسة . . . هؤلاء لم يكن منهم جندي واحد قبل ستة أشهر من هذا التاريخ ، كانوا يضمون مصمماً للأزياء ، ومقاولاً ، ويحاراً ، ورئيساً لمؤسسات صناعية ، واثنين من اعضاء اللجان المركزية للحزب وعمالاً في المعادن ، ومؤلفاً موسيقياً ، ومهندساً ، وعامل كارج . . وكان أنريك وراموس بينهم أيضاً ، وتذكر مانويل رجل الميليشيا الأعمى الذي شلت ساقاه نتيجة لاصابتها ، والذي جاء يبحث عن أزانا

فسأله الرئيس : ماذا تريد ؟ » .

- « لا شيء ، وإنما أردت أن أحييكم ، أو أشجعكم » . ولم يلبث أن عاد على عكازه .

لم يكن هذا مجلس دفاع ، وإن كان كل اجتماع يعد - هذه الليلة - مجلساً ، ذلك أن مصير هؤلاء الرجال الذين ألف القتال بينهم كان مماثلاً لمصير مانويل ، ولمصير اسبانيا . .

وسأل أنريك : « ما عدد الرجال الذين تخصم بندقية واحدة في هذه اللحظة ؟

فأجاب أحد الضباط : « بندقية واحدة لكل أربعة من الرجال » . وكان هذا الرجل هو مصمم الأزياء سابقاً ، وصديق مانويل والمشرف على تعبئة المدنيين - وكان الحزب الشيوعي قد طلب أمس اعلان تعبئة رجال النقابات .

قال أنريك : « لا بد من تنظيم عملية جمع البنادق ، وعلينا أن نحملها

الى الصفوف الخلفية اذا سقط زملاؤنا في الصفوف الامامية . نظموا هذه العملية الليلة مهتدين بالنموذج الذي يتبعه حاملو النقالات » .

وانصرف مصمم الأزياء .

- « هل من المستحيل تماماً استرجاع بعض الأسلحة الى مدريد ؟ »

وهنا أجاب شخص آخر :

- « لا وجود للبنادق الا في إدارة الأمن ، أما الحراس ورجال الدوريات والخفر فلا يملكون سوى مسدساتهم . . ما من أحد في مدريد يحمل سلاحاً هذه الليلة » .

- « لو أننا فقدنا مدريد يمكن أن نفقد الوزارات أيضاً . . والمسؤولين

والوزراء إذا بقي منهم أحد ! »

وسأل رئيس أركان حرب مياجا : « وأين الاستحكامات ؟ »

فأجاب راموس : « عشرون ألف رجل يعملون فيها على قدم وساق ، فقد قمنا بتعبئة رجال نقابة البناء على بكرة أبيهم ، وحوهم كثير من المتطوعين ، وعلى رأسهم جماعة أومتراس أحد رجال الفرقة الخامسة ، وعلى المغاربة أن يجتازوا استحكامات طولها كيلومتر ، اذا أرادوا اقتحام المدينة في هذه اللحظة ، وسيحيط بمدريد كلها بعد غد حزام من المتاريس ، بغض النظر عن الاستحكامات الأخرى » .

وقال أحد الضباط : « المتاريس التي تقيمها النسوة سيئة . . صغيرة

جداً » .

فأجاب راموس : « لم يعد لها الآن وجود ، ولم تبق إلا المتاريس التي شيدت بالشروط التي شرحتها ، أو تلك التي أشرف على تشييدها رجال الفرقة الخامسة ، والتي ثبتت صلاحيتها . . غير أن متاريس النساء لم تكن صغيرة جداً ، بل كانت على العكس من ذلك ضخمة كل الضخامة ، اذ لم

يكن من الممكن إيقافهن بعد أن شرعن في العمل !»

قال صوت آخر : « إن ما تصنعه النسوة فيما يختص بمخزون البترول في كل منزل لن يجدي كثيراً » .

- « ربما لا يجدي كثيراً ، غير أن الأثر الأخلاقي الذي يتركه عظيم » .

- « أخبرني : لماذا لم نستطع أن نفعل ذلك كله ، في وقت مبكر ؟ » .

- « إن نصف رجالنا ، بل تسعة أعشارهم ، لا يتصورون ان يكون الدفاع عن مدريد إلا داخل مدريد نفسها ، وقد قال لي رجل التقيت به في الشارع هذا الصباح : « لو انهم وصلوا الى مدريد فنسلقنهم درساً ! » فسألته :

- « أتعرف أين كارابانشل ؟ فأجابني : « إن مدريد هي مدريد وكارابانشل ، ليست مدريد » .

وسأل مانويل : « أترأهم يزحفون الآن على كارابانشل ؟ » .

- « أجل ، وقد صدمتهم الفرقة الخامسة ، وهم يتقدمون الآن من الجنوب ، ولن يلبثوا أن يهاجموا جناحك أنت أيضاً »

وكان على مانويل أن يسافر الليلة الى « وادي الرمل » ، فقد أصبح الآن برتبة كولونيل ، وكان شعره مقصوصاً ، وعيناه الخضراوان أشد صفاء من وجهه الذي اشتدت قتامته .

- « يقولون : إن رجال دوروتي قد وصلوا ؟ » .

- « لقد قطعت خطوط السكك الحديدية ، وأرسلنا سيارات النقل الى تارانكون . . . وهي الآن في طريقها الى هناك » .

- « أما زالوا ينتظرون الطائرات التي اشتريناها من الاتحاد السوفيتي ؟ »

ولم يجب أحد . كانوا يعلمون جميعاً أن العمل جارٍ في جميع تلك

الطائرات ، ولكن ، كم سينقضي من الوقت قبل أن يتم . . . »
وسأل مانويل : « ومن سينقضون عليه في الجنوب ؟ » .
- « هذا يتوقف على الوقت الذي ينقضون فيه ، ولقد استدعينا في الوقت
الحاضر الفرقة العالمية من فييكاس » .
ودخل الحجرة عدد من الضباط الواحد تلو الآخر .
وانطفأت الشموع الأخيرة على درجات السلم الواسعة .
وكان القائد الفرنسي قد رحل وعلى الطرف الأقصى من الردهات
الشاسعة ألقّت مصابيح الزينة التي كانت تعلق في الماضي على البوابات - نوراً
خافتاً شبيهاً بنور المصابيح الساهرة على توابيت الموت .
كان القصر المقفر كمقاهي مدريد - مجهز مثلها مقاومته السرية .

الفصل التاسع

المتنزه الغربي :

ارتفع في الجو تغريد عصفور ظل معلقاً كالسؤال ، وأجابه عصفور آخر ، ثم واصل العصفور الأول تغريده واضعاً سؤالاً آخر أشد قلقاً ، فاحتج الآخر حائقاً ، وهنا شقت الضباب ضحكات عالية .

قال صوت : « أنت على حق .. لن يستطيعوا العبور ، فهناك المسامير ! » .

كان العصفوران هما سيرى وكوجان من الفرقة العالمية الأولى ، وكان كوجان بلغارياً لا يعرف الفرنسية ، ولهذا كانا يصفران .

- « اسكت ! » .

وانفجرت اثنتا عشرة قنبلة .

وكان الألمان والبولنديون والفلمنكيون وبعض الفرنسيين ينتظرون وينصتون الى الانفجارات ، وفجأة استداروا جميعاً : الرصاص ينطلق عليهم من الخلف .

صاح الضباط : « الرصاص المتفجر ... لا تنزعجوا » .

ما اوضح صوت الرصاص الذي يخترق الضباب ! بل تكاد الأذن تلتقط الأزيز الناشئ عن مسار الرصاص . وكانت هذه الفرقة قد سميت منذ بداية التدريب باسم ادجار - آندريه ، اذ علم الألمان في أولى ليالي تدريبهم أن ادجار آندريه الذي سجنه هتلر اعدم بالبلطة .

وكان الألمان جميعاً يعيشون منذ عشرة أشهر حياة المهاجرين البائسة ، وقد تخلت عنهم ثقتهم في أنفسهم ، ولم يعد أمامهم إلا الانتظار ، وما برحوا ينتظرون منذ أعوام ثلاثة ، واليوم اتاحت لهم الفرصة أخيراً ليثبتوا انهم ليسوا من مرتزقة الثورة . . .
وكان البولنديون يتربصون بالأوامر بوجوه ارتسم عليها الانتباه الشديد ، أما الفرنسيون فكانوا يتبادلون الحديث .

واقترب المدفع ، وأخذ كثير من الجنود يلمسون زملاءهم المجاورين لهم في شرود ، يلمسون كتفاً أو ساقاً وكان الدفاع الوحيد للإنسان ضد الموت هو حضور اخوانه من البشر حوله .

والتصق « سيرى » و « كوجان » الواحد بالآخر ، كانا أصغر من أن يخوضا غمار الحرب ، ولكل منهما كان أكبر من سن الخدمة العسكرية ، وهكذا أرسلوا الى الجبهة بعد أسبوعين من التدريب ، وكان سيرى فتى ربعة القوام ذا وجه كبير مثلث الشكل ، داكن اللون ، وحركاته أشبه بحركات الممثل الهزلي ، أما كوجان فكان مجعد الشعر وله خصلة أمامية عمودية دائماً .

أمضيا الليلة تحت غطاء واحد : ذلك أن الجنود كانوا ينامون كل زوج تحت غطاء واحد بسبب برد نوفمبر ، وقال كوجان في نفسه : انني لم أصادف في حياتي شخصاً بهذه السرعة ! وفي كل مرة تسقط قنبلة على مقربة منهما ، كان سيرى يسارع بلفته العصفورية - الى التعبير عن حكمه مؤيداً أو محتجاً .

وسقطت قنبلة من طراز ١٥٥ دون أن تنفجر ، واختفت في الوحل ، في جوف الأرض . . . فحرك سيرى جناحيه في احتجاج عنيف ، وصاح :

« المغاربة ! »

كلا . . انه مجرد محارب متوتر الأعصاب . وانجاب الضباب رويداً رويداً ، بيد انهم لم يروا أحداً : لا شيء سوى الانفجارات ، والغابة المقفرة .

- « انبطحوا على وجوهكم » !

وانبطحوا جميعاً ، فانغمست أنوفهم في رائحة الأعشاب التي عادت بهم الى ذكريات الطفولة ، وتدحرج الجرحى الأوائل الذين أصيبوا في وجوههم ، وقد غطوها بأصابع اصطبغت بلون الدم ، ونهض الجنود برغم انهمار الرصاص لتحية زملائهم الجرحى بقبضات مرفوعة ، بيد أن الجرحى لم يشاهدوا شيئاً إلا واحداً منهم - أراد أن يجيب عن التحية فرفع قبضة دامية كشفت عن وجه تجسدت فيه الحرب نفسها ، وتهاوت الأغصان من كل جانب كما تهاوى الرجال ، وقال سيري :

- « حبذا الأمر لو استطاع المرء أن يدخل في جوف تلك البقرة التي تسمى الأرض ! » .

وصاح بهم صوت : « انهضوا ! » .

وشرعوا يتقدمون بأجسام منحنية عبر الغابة ، وسمعوا أصواتاً وهم يتقدمون أيضاً ، ولكنهم لم يتبينوا شيئاً اللهم إلا الأشجار المنعزلة التي كانت تشبه في الضباب نافورات التراب التي تنبثق عند انفجار القنابل .

ولم تعد ثمة محاكاة لصفير العصفور ، فمنذ أن شرعوا في السير ، ومنذ أن أقبلوا على المعركة بأقدامهم لم يفكروا في شيء اللهم إلا في اللحظة التي يظهر فيها المغاربة ، ومع ذلك كان أجهل من فيهم يعتقدون أنهم يصنعون التاريخ ، في ذلك الصباح الذي يغشاه الضباب . وتلقى الجندي الفلمنكي الصاعد على يمين « سيري » (وكان كوجان على يسار سيري) رصاصة في ساقه فانحنى ليمسك ركبته ، فأصابته رصاصتان أخريان في صدره وسقط على الأرض ، كان المغاربة يطلقون رصاصهم الآن في اتجاهات متقاطعة ، وحدث سيري نفسه قائلاً : « لم أعتقد قط أن في العالم هذه الكمية الضخمة من الرصاص ، والمصوبة نحوي على الأخص ! » ولكنه كان مسروراً لقدرته على ضبط أعصابه ، كان الخوف في نفسه ، ولكنه لم يكن يعوقه عن السير أو

عن الاتيان بأية حركة ، كل شيء إذن على ما يرام .

« سنريهم معنى أن يكون المرء فرنسياً ! » ففي هذه اللحظة كان كل جندي من جنود الفرقة العالمية يريد أن يثبت الصفات العسكرية التي تمتاز بها أمته ، وصاح أحد الضباط ، ولكنه لم ينطق بسوى مقطعين ، ثم هوى على الأرض، بعد أن أسكته رصاصة اخترقت فمه ، وبدأ الغضب يستولي على سيرري : فها هم أولاء يصرعون زملاءه ، ومن خلال ضجة القنابل لاحظ الصمت المفاجيء الذي خيم على الجميع ، وان تسكعت عبارة واحدة أخذت ترددها أصوات عديدة : « لقد أصابوني ! ... » .

وتقدم رجال الفرقة العالمية خلال الضباب . أتراهم سيصرون المغاربة أم لا ؟

وكان هنريش يشرف على سير المعركة من مركز القيادة الصاخب وسط عديد من التليفونات ، ووصل أحد المدنيين وكان شعره رمادياً مرتباً ، وله شارب . وسأله البير : « ماذا تريد ؟ » وكان ألبير هو مساعد الجنرال ، وهو يهودي مجري متين البنيان مجعد الشعر وطالب سابق وغاسل سابق للمصحون !

- « أنا قائد سابق في الجيش الفرنسي ، وأنتمي إلى اللجنة العالمية المعادية للفاشية منذ إنشائها ، وقد قضيت نهاري فوق مقعد بوزارة الحرب ، وأستطيع أن أكون أكثر نفعاً ، ولهذا بعثوا بي أخيراً إلى هنا ، وأنا في خدمتكم » .

وقدم أوراقه إلى البير : سجله العسكري ، وبطاقة عضويته في اللجنة ، فقال ألبير للجنرال : « أوراقه سليمة يا سيدي الجنرال ... » .

وقال الجنرال : « لقد فقدت جماعة بولندية قائدها الثاني توأ » .

- « حسن جداً » .

والتفت القائد صوب البير :

- « وأين الحلل العسكرية؟ »

فأجابه هنريش : « لن تجد متسعاً من الوقت » .

- « فليكن .. أين الرجال؟ » .

- « سيدلونك على الطريق وأحذرك أن هذا المنصب خطير » .

- « لقد خضت الحرب يا سيدي الجنرال » .

- « حسن .. عظيم » .

- « لقد ولدت محظوظاً ، وأنا أهزأ بالرصاص ! » .

- « عظيم » .

وبين جذوع الأشجار المنتصبة في ذلك المنزه الغربي الذي لم يخلق للقتال ، وفيما وراء الأجساد الراقدة التي لم تعد تكثر بشيء لأنها ميتة - لمح « سيرى » أخيراً العمائم الأولى وكأنها حمامات سمينة تتحرك خلسة ...

- « أغرسوا السونكي في الأرض ! » .

ولم يكن قد رأى المغاربة من قبل ، ولكنه وجد نفسه ذات ليلة في اثناء عمله كوكيل اتصال منذ عدة أيام مضت - في الصف الأول على بعد مائة متر من خنادقهم ، وفي هذا المكان قضى ساعة كاملة ، وكانت ليلة من ليالي نوفمبر حالكة الظلام ، ملفعة بالضباب ، فلم يبصر شيئاً ، ولكنه سمع بوضوح - طيلة المدة التي استغرقتها مهمته - دقات طبولهم التي كانت ترتفع وتنخفض مع ارتفاع نيرانهم وانخفاضها ، وها هو ذا ينتظروهم الآن كما ينتظر قبيلة افريقية ، وكان من الشائع عن المغاربة انهم يسكرون قبل قيامهم بأي هجوم ، وها هم أولاء زملاؤه يحيطون به واقفين أو راقدين أو امواتاً مصوبين بنادقهم أو مطلقين رصاصها ، زملاؤه من ايفري ، أو عمال جرينل ، أو كورنيف ، أو بيلانكور ، أو المهاجرون البولنديون والفلمنكيون ، والمنفيون

الألمان ، والمقاتلون من كومسيون بودابست ، أو عمال السفن من انفرس ،
والعناصر الممثلة لنصف البروليتاريا في أوروبا ، وندت العمائم خلف جذوع
الأشجار وكأنهم يلعبون لعبة (الاستغماية) الاختفاء في سباق محموم .
وكانوا يتقدمون منذ أن استولوا على مليلة .

واخترقت الضباب نصال طويلة حادة من الصلب ، هي نصال السونكي
أو السيوف دون أن تلمع .

والجنود المغاربة من أفضل جنود العالم من حيث استخدام السلاح
الأبيض .

- « ثبتوا الحراب في بنادقكم ! » .

كانت هذه أول معركة تخوضها الفرقة العالمية .

وسحب رجال الفرقة السونكي ، لم يكن سيرى قد اشترك في القتال من
قبل ، ولم تكن الفكرة التي تراوده الآن انه سيقتل أو انه سينتصر ، وإنما كان
يقول في نفسه : هؤلاء الهمج لا يقدرّون ما يفعلون ! « هل ستكون المسألة
كاللعب بالسونكي في أثناء التدريب في الكتيبة ، أو سينفذ السونكي الى
داخل الجسم وفي الحال ؟

وفي الفترة التي تنقضي ما بين انفجار قنبلتين هتف صوت بعيد وراء
الأشجار : « ... الجمهورية ... تب ... »

ولم تكتمل العبارة ، وشخصت الأبصار الى المغاربة اللذين أخذوا
يقترّبون ، وصاح صوت أقرب كثيراً ، صوت ويعرف الجميع تقريباً ما
سيقوله ...

لم تكن كلماته ذات أهمية في حد ذاتها ، وإنما المهم هو أنها ترتجف
حماساً ، وإنما أنهضت هؤلاء الرجال المنحنين ، صاح الصوت لأول مرة
بالفرنسة وسط الضباب :

« في سبيل الثورة ، والحرية والجماعة الثالثة . . . الى الامام » .

كان هينريش يضع سماعة على كل اذن من اذنيه وقد امتلأ قذاله الحليق بالعضون كما تمتلئ الجبهة ، وتقدمت جماعة وراء الأخرى للهجوم بالسونكي .

ووضع ألبير جهاز استقباله :

- « أنا لا أفهم شيئاً يا سيدي الجنرال ، فالكابتن مرسيري يقول : إن الغنائم كثيرة . . والمركز في أيدينا ، وقد استولينا على طنين من الصابون على أقل تقدير ! » .

وكان مرسيري يقود كتيبة اسبانية ترابط على يمين الفرقة العالمية .

- « أي صابون ؟ ماذا يعني هذا الأحق ؟ »

وأمسك البير بجهاز الاستقبال مرة أخرى .

- « ماذا ؟ أي مصنع ؟ أي مصنع ؟ يا إلهي ! » .

قال مخاطباً هينريش : « انه يشرح لي فوائد الصابون » .

وكان الجنرال ينظر الى خريطة .

وأبدل هينريش السماعتين ثم قال :

« حسن ، لقد أخطأ في تقدير الجانب الذي يهاجمه ، واستولى على مصنع للصابون كان لنا ، أطلب من الجنرال الأسباني أن يعزل هذا الأحق فوراً » .

وكان السونكي الذي يستخدمونه أطول مما يظنون .

ولم يتذكر « سيرى » من ربيع الساعة الأخير سوى خليط من الأدغال

والأشجار السامقة تنفجر كلها ، وضوضاء من القنابل تطغي على صوت الرصاصات المتفجرة ، والمغاربة الذين اقتربوا فاغرين أفواههم دون أن يسمع أحد لهم صياحاً .

وأقبلت كتيبة المانية لانقاذ كتيبة سيرى التي انسحبت الى الوراء لاعادة تشكيل صفوفها ، وكانت الغابة مفروشة بالمغاربة كأنهم الأوراق التي تتخلف عن ليلة عيد ! وحين شنت الكتيبة هجومها لم ير منهم أي أحد ، وسرت شائعة بأن كتيبة بولندية اجتازت نهر المانثارس .

وسأل هينريش : « وماذا جرى للقائد الذي أرسل الى البولنديين ؟ »

- « عندما رأى الأحوال هناك قال : ان هذا المركز لا سبيل الى الدفاع عنه . وينبغي لكم أن تتخلوا عنه ، وعلى من يصل الى صفوفنا أن يقولوا : انهم قد رحلوا بناء على أوامري ، ومن الأفضل أن تخرجوا من النوافذ الخلفية ، لن تكون القنابل التي تصيبكم أقل ، ولكن الرصاص سيكون أقل .. هيا ! .. افعلوا ما أمركم به . وقلوا : اني صنعت ما ينبغي أن يصنع .

« وارتدى سترة الكابتن البولندي المقتول ، وهبط درجات السلم ثم أطلق رصاصة من المدفع الرشاش على رأسه ، وهوى أمام الباب » .

- « كم عدد الناجين ؟ » .

- « ثلاثة » .

فقد سيرى كل اتصال بكوجان ، ولم يكن جاراها يفهمان الفرنسية (باستثناء الأوامر) ، كما أنها لا يعرفان الصغير ، وكان سيرى يعلم أنه ليس وراء كتيبتهم سوى حلاقين مسلحين ، وقد سميت كتيبتهم الاحتياطية باسم « كتيبة فيجارو » . وعندما خفت الضوضاء الجهنمية سمع طلقات

الرصاص منبعثة من طابور دوروتي الذي كان يتقدم ، ومن « كتبية الصلب » ، التي كانت تتقدم بدورها ، ومن الأشتراكيين الذين كانوا يتقدمون أيضاً . وكلما تقدموا اتسعت الصفوف . ووراء ذلك الاضطراب الدامي الذي ساد المتنزّه امتد صف مهاجم على طول المدينة ، وتلقى الأسباب الذين رابطوا بين المنازل وصدوا ثلاث هجمات هذا الصباح - الأوامر بالهجوم بدورهم ، فاستردوا المنازل التي استولى عليها المغاربة مستخدمين القنابل اليدوية ، وأوقفوا الدبابات بالديناميت ، ووجد المغاربة الذين دحرتهم حراب الفرقة العالمية - وجدوا امامهم الفوضويين في الشوارع ، وهم يدفعون امامهم مدافع الجمهوريين الى الصفوف الأولى ، ووراءهم كان رجال النقابات ينتظرون أسلحة القتل الأوائل .

كان الفاشيون يتقدمون منذ ان تركوا مراکش ، ولكنهم بدأوا في الانسحاب منذ أن هاجموا المتنزّه الغربي .

وحين تحطمت صفوف المغاربة ، انسحبت الوحدات العشرية التي تتألف منها الفرقة العالمية الى الخلف ، وهناك أعادت تشكيل وحداتها ، ثم هاجمت من جديد ، وتراجع المغاربة تراجعاً سريعاً ، واشتركت في الهجوم وحدات الفوضويين تحت قيادة دوروتي وطوابير الأحزاب القطلونية كما اشترك الأشتراكيون ، والبورجوازيون الذين يؤلفون « كتبية الصلب » .

صاح البير الذي يمسك بجهاز الاستقبال :

- « آلو ! » .

- « العدو يشن هجوماً مضاداً من جديد ، يا سيدي الجنرال » .

- « بالدبابات ؟ » .

فرد البير : « كلا . . . لم تظهر دبابات جديدة ؟ » .

- « طائرات ؟ » .

فأجاب البير : « الطائرات المألوفة » .

ولم يضع السماعه ، بل نظر الى قدمه التي جعلت ترتجف ، وكان جهاز الاستقبال يرتجف أيضاً :

- « سيدي الجنرال ! ها هي ذي .. لقد انقضوا ثانية حتى المانشارس .. سيجتازون المانشارس مرة أخرى يا سيدي الجنرال ! »

ومرت السرايا أمام سرية « سيرى » واحدة اثر الأخرى وهي تهرول للهجوم ، وكان سيرى ورفاقه يحتلون أرضاً تنثر فيها الرجال ذوو الوجوه المكدودة ، ومضت سرايا الأمم المختلفة واحدة تلو الأخرى في الضباب الذي بدأ الآن وكأنه من صنع دخان الانفجارات ، وقد انحنى رجالها بينادقهم الممتدة الى الأمام : منظر من مناظر الأفلام وإن لم يكن مختلفاً عنها مع ذلك كل الاختلاف ، إن كل واحد من هؤلاء الرجال فرد من أهله .. وهم يعودون ، وقد أخفى بعضهم وجهه بقبضتيه ، أو أمسك بطنه بيديه ، أو ربما لا يعودون على الاطلاق ... ولكنهم قبلوا ذلك ، كما قبله هو أيضاً . ووراءهم ترامت مدريد ، وأنبعث ضجيج بنادقهم الكثيب .

وحملتهم موجة هجوم جديد أمام نهر ضيق .

وهتفت الأصوات : « المانشارس » .

وارتاع عصفور ، فأطلق صفيره ، وهناك ، في مكان ما من الضباب كان كوجان ينزف دماً فوق أوراق الشجر المنداة بعد أن نفذت طعنة سونكي في فخذه ، وهناك أجاب نياحة عن الجرحى .. وعن القتلى ! .

دماء اليساريين

الفصل الأول

ازداد الصمت العميق عمقاً على عمقه ، وأحس جرنيكو أن السماء مملوءة هذه المرة . لم يكن الصوت أزيز طائرة ، ولكنه كان ذبذبة شاملة ، تزداد عمقاً رويداً رويداً ، وكأنها نغمة موسيقية متصلة صادرة من القرار ، وكان ضجيج الطائرات التي سمعها حتى الآن يتناوب صعوداً وهبوطاً ، أما هذه المرة فقد كانت المحركات من الكثرة بحيث اختلط أزيزها في صوت آلي مطرد لا سبيل الى تحديد مكانه .

وكانت المدينة تخلو تقريباً من الأنوار الكاشفة ، وعلى هذا كيف تستطيع طائرات المطاردة الحكومية ، أو بالأحرى ما تبقى منها أن تعثر على الفاشيين في هذا الظلام الخالك ؟ ودغدغت تلك الذبذبة العميقة الغليظة أعصاب جرنيكو ، وتمشت في شعره ، ثم أصبحت شيئاً لا يطاق ، لأن القنابل لا تسقط .

وأخيراً انطلق من الأرض انفجار مكتوم كأنه صوت لغم بعيد ، ثم أعقبت ذلك ثلاثة انفجارات عنيفة أشد ما يكون العنف ، الواحد وراء الآخر ، وتلا ذلك انفجار مكتوم آخر ، ثم لا شيء ، انفجار آخر وفوق رأس جرنيكو انفتحت نوافذ شقة كبيرة كلها دفعة واحدة .

ولم يشعل مصباحه الكهربائي خوفاً من أن يظن رجال الميليشيا انها إشارة ضوئية ، وما أسرعهم في اللجوء الى هذا الظن ، واستمرت ضجة المحركات

دون أن تسقط أية قنابل ، وفي هذا الظلام الشامل لم تكن المدينة تستطيع رؤية الفاشيين ، كما لم يكن الفاشيون يستطيعون رؤية المدينة .

وحاول جرنيكو أن يعدو ، بيد أن الأحجار المكدسة في الطريق جعلته يتعثّر بلا انقطاع ، كما أن الظلمة الكثيفة جعلت متابعة الرصيف أمراً مستحيلاً ، ومرقت سيارة مسرعة صبغت مصابيحها باللون الأزرق وتعالّت خمسة انفجارات جديدة وبعض طلقات البنادق وابل غامض من مدفع رشاش . وكان يبدو دائماً ان الانفجارات منبثقة من الأرض ، وانها تنفجر على بعد عشرة امتار في الهواء ، ولكن ما من ضوء يصاحب الانفجارات ، وكانت النوافذ تفتح مدفوعة بعامل مجهول ، وتحطم زجاج النوافذ من جراء انفجار أقرب ، وسقط من علوشاهق على الأسفلت ، وأدرك جرنيكو على صوت الضوضاء أنه لا يستطيع أن يرى إلا الطابق الأول ، وتناهى الى سمعه صليل جرس كأنه صدى كوب ينكسر ، واقترب الصليل ومضى أمامه ، ثم تبدد في الظلام . . هذه أولى عرباته للاسعاف ، ووصل أخيراً الى المركز الصحي ، وكان الشارع الذي خيم عليه الظلام يموج بالناس والحركة .

انهم الأطباء والمرضات والمشرفون على النظام والجراحون وقد اقبلوا في نفس موعده لتسلم عملهم الى جانب زملائهم في الخدمة .

وها هو يحصل أخيراً على عربات للاسعاف ، وكان أحد الأطباء مسؤولاً عن القسم الطبي من العمل ، على حين كان جرنيكو مسؤولاً عن تنظيم وحدات الاغاثة .

قال الطبيب : « لا بأس بذلك الآن . ولكن استمروا على هذا المنوال ، فلن يكون الحال على ما يرام . نحن مرغمون على ارسال عربات الاسعاف بالدور ، والقنابل تسقط على سان - جيرونيمو . وعلى سان كارلوس ، وهلم جرا . . . » .

ملجأ للعجائز ومستشفى ، وتخيّل جرنيكو الجرحى وهم يهرولون خلال

العنابر المظلمة في مستشفى سان - كارلوس .

وسأل في هدوء : « هل تستخدم سيارات الاسعافات بطارياتها الكهربائية ؟ » .

- « إنها تشتغل ، ليس من شك أن الفاشيين يستخدمون قنابل حارقة » .

ورفع الطبيب مصاريع النوافذ الداخلية .

- « أنظر » .

كانت أضواء حمراء خافتة تمضي في اتجاهات شتى متباينة وراء المنازل المظلمة وقال جرنيكو في نفسه : « لقد بدأ حريق مدريد » .

وسأل مرة أخرى متذرعاً بالصبر : « هل البطاريات التي في عربات الإسعاف في حالة جيدة ؟ » .

- « لا أظن ، ولكني أقول لك : إننا لسنا في حاجة إليها » .

كان جرنيكو يشرف على التنظيم في هدوء أثار دهشة الجراحين .

ولم يكن في مسلكه أثر ملهارة الحياة أو مأساتها ، ولم يلبث أن كلف أحد مساعديه حمل البطاريات في كل عربة اسعاف ، ذلك أن النور كان في مثل هذه الظلمة الشاملة - هو الشرط الأول لاغاثة الجرحى .

انفجار جديد ، وبينما كانت إحدى الممرضات تغلق مصاريع النوافذ تناهى الى الأسماع صليل أجراس عربتين للإسعاف يشق ظلمة الليل .

انفجار آخر ، وكان يبدو أن القنابل - وهي قنابل خفيفة بلا شك لا تلقى من طائرة ، وإنما تقذف في وحشية كما تقذف القنابل اليدوية . كان جرنيكو جالساً يقرأ الاخطارات التليفونية التي حملت اليه مكتوبة على بطاقات .

قال : « انهم يحاصرون القصر » .

وقال الطبيب : « ألف جريح .. والبقية تأتي ... »

وكان المستشفى والسفارة السوفياتية متجاورين .

قال جرنيكو : « شارع سان - أغسطس » .

« شارع دي ليون .. ميدان دي كورتيز » .

وقال الطبيب : « انهم لا يضربون الجرحى الآن ، وإنما يضربون الأحياء » . وفتح أحد المساعدين النافذة التي رفع الطبيب مصاريعها نصف فتحة ، وطفى الطنين المنتظم المنبعث من الطائرات الفاشية على أصوات الأوامر ، ورنين التليفون ووقع الخطوات ، وصليل عربات الأسعاف .

وأطار تيار من الهواء بضع وريقات ، وعادت في هذه اللحظة ممرضة كانت قد استقلت عربة الاسعاف المخصصة للملجأ العجائز .

- « آه ! هذا شيء جميل يا عزيزي جرنيكو ! فالمستشفى يحتاج على الأقل إلى عربتين اضافيتين من عربات الاسعاف ! » .

وصاح الطبيب وهو يطارد أوراقه التي أطارها الريح كما يطارد الفراشات .

- « أغلقي الباب ، يا مرسيديس ! » .

- « يا لها من عصابة من الأندال » .

قالت الممرضة ، وكأنها تتحدث عن طنين المحركات التي أغلقت دونه النافذة . « فهناك ساد اضطراب مخيف ، العجائز المسكين يطأ بعضهم بعضاً على درجات السلم ، لقد استولى عليهم الفرع طبعاً ! » .

وسأل جرنيكو : « كم عدد الجرحى ؟ » .

- « عربات الاسعاف تكفي نقل الجرحى . والمشكلة هي إجلاء الباقين عن الملجأ » .

- « عربات الاسعاف جعلت للجرحى ، ولدينا ما يكفي منها .. ولكن هل لجأ العجائز مؤقتاً الى السرايب ؟ » .

- « على ما أظن ! » .

- « وهل السرايب متينة ؟ » .

قالت مرسيديس بصوت خافت بعد أن ثابت فجأة الى الهدوء :

- « أوه ! إنها أشبه بالقبور » .

- « حسن » .

وعهد الى أحد مساعديه بإخطار « الخونتا » (مجلس الثورة) .

- « هل تعلم يا جرنيكو أن بعضهم قد أصابته لثة ... »

وسأل الطبيب : « هل هي قنابل حارقة ؟ » .

- « الأشخاص الذين يدعون انهم يعرفون شيئاً يسمونها قنابل جييرية (كلسيوم) وهي خضراء بلون الأبننت (نوع من الخمر) ، وهي فظيعة ، إذ لا سبيل الى اطفائها ، والشيوخ الذين يتحسسون طريقهم كالعميان ، وقد مدوا أيديهم الى الأمام ، أو أخذوا يظلمون على عكازات .. » .

- « أين سقطت القنبلة ؟ » .

- « في دهليز بين عنابر النوم » .

أترى لم تغلق النافذة باحكام ؟ فما زال أزيز الطائرات العنيد يجوس خلال القاعة تقاطعه زوبعة من رصاص مدفع رشاش جمهوري كمحاولة لرفع الروح المعنوية طبعاً ، ومن تحت أنبعث هزيم كأنه صادر من الأرض ومن الجدران أخذ يرتفع وينخفض مع دقات طبول خفيفة : هجوم جديد للفرقة العالمية على المغاربة على طول ضفة المشارس .

وسأل جرنيكو : « أين تدور رحى القتال ؟ » .

فأجابته مرسيديس : « في كل مكان » .

وقال الطبيب : « في كازادل كامبو (دار الريف) ، وفي المدينة الجامعية » .

وتواثبت أقلام الحبر على المناضد من جراء انفجار قريب ، وسقطت احجار القرميد على سطوح بعيدة ، وتلاحقت أقدام في الطريق تبحث عن ملاذ تحتمي به ، وسادت برهة قصيرة من الصمت ، لم تلبث أن قطعتها صرخة غير مألوفة ردها الليل ، أعقبها سكون جديد .

قال جرنيكو في التليفون مرة أخرى : « قنبلة حارقة على سفارة فرنسا .. قنابل دول عدم التدخل » .

- « هل راكبو الموتوسيكلات في أماكنهم ؟ » .

- « قنبلتان على مقربة من ميدان كورتيز » .

- « ينبغي ارسال ستة من السعاة الراكبي الدراجات الى كاترو - كامينوس » .

وهمس مساعد في أذنه ، فأردف قائلاً :

- « أرسلوا عربة اسعاف اضافية الى سان - كارلوس ، فهناك عدد من الجرحى ، وأرجوكم أن تخبروا راموس أن يقوم بالتفتيش على هذا كله » .

وكانت مهمة راموس منذ أن بدأ الحصار - هي أن يحمل معونة الحزب الشيوعي الى اكثر المواقع تعرضاً للخطر ، ومع أنه كان نافعاً غاية النفع للقسم الطبي الذي يفتقر الى مواد التخدير والى لوحات الأشعة فإنه كان أقل من ذلك نفعاً لهيئة الإسعاف ، غير أن المعونة التي تقدم للجرحى في مدريد أصبحت من الآن فصاعداً وظيفة من الوظائف الرئيسية التي تقوم بها الخونتا (مجلس الثورة) .

الفصل الثاني

كان راموس يسير بأقصى سرعة تتيحها له مصابيح سيارته الزرقاء ، وتوقفت السيارة عند أول حريق كبير ، وفي تلك الليلة التي امتلأت بالصرخات المكتومة ، والخطوات المهرولة ، والانفجارات ، والاستغاثات ، وانبيارات المنازل التي تطغى على صخب المعركة المتصل - في تلك الليلة تهاوى أحد الأديرة بين الحطام ، فاندلعت فيه النيران كأنها الوحوش الكاسرة ، تحت جَيْشان من سحب الدخان الحمراء الداكنة ، ولم يبق بالمبنى أحد ، وكان رجال الميليشيا ، وحرس الهجوم ، وشرطة النجدة - يرقبون عن كثب وقد فتنتهم مشهد النيران المتأججة ، واللهيب الذي لا يخمد له أوار ، وهناك أقمى قط رمادي اللون ، مشرباً برأسه .

تري ، هل انتهت الغارة ؟

ومض بريق خافت على اليسار ، ورنت أحذية ثقيلة في السكون الحافل بالاستغاثات البعيدة ، وأعقت هذا البريق كتلة من اللهب أشبه بالخرشوفة لم تلبث أن خمدت ، ثم استقر على صفحة السماء وعلى المنازل - وميض عظيم . ومع أن الطائرات - كانت قد رحلت (كانت المطارات قريبة ، وليالي نوفمبر طويلة) ، فإن النار واصلت اشتعالها تحت السطوح متسللة من طابق الى آخر ، فاشتعلت على اليسار حرائق أربع جديدة ، ولم تكن نيرانها نيران الكالسيوم الخضراء المشوبة بالزرقة ، وإنما اندلاعات بنية اللون . وعندما مر راموس كانت السنة اللهب القصيرة التي حلت محل

النيران المتأججة - تنخر في المنازل كأنها أسراب من الحشرات أمام خروج صامت : حشايا وسيقان الكراسي تبرز من عربات اليد ، تتبعها عن كثب نسوة عجائز ، ووصلت سيارات الأسعاف ، فادت مهمتها في كفاءة ، وكان راموس يشرف على عشر منها .

وفي سان - كارلوس كانت المنازل تؤلف ستاراً ، والظلمة تامة في كل الشوارع التي تجاور الميدان ، واصطدم راموس بنقالة ، فصرخ حاملوها في وجهه .

ودارت فوق رؤوس الجرحى الممددين على الأرض - الواحد بجوار الآخر - دوامة من الشرر كحفنة من نثار الورق الملون الذي يلقي في المهرجانات ، فأنارت سيقانهم بنور خافت ، ولم يكد راموس يخطو خطوات ثلاثاً ، حتى تعثر بنقالة أخرى ، وفي هذه المرة كان الجريح هو الذي صرخ في وجهه ، وعلى ناصية من الشارع وفوق قطعة من السطح ، كانت أطياف رجال المطافئ تصوب خراطيمها الصغيرة الهزيلة على أتون اللهب ، وأخيراً بلغ راموس الميدان .

وتلاحقت سحب الدخان المتكاثفة ، وارتفع الوهج فبانَت الأشياء جميعاً : ضمادات الجرحى المرصوصين والقطط ، وملا طنين المحركات العميق من جديد السماء السوداء ، وكأنه يصاحب السنة اللهب المتصاعدة .

كان راموس يتلهف على السلام من أجل هؤلاء الجرحى الذين تقوم بإجلائهم سيارات الأسعاف واحدة أثر أخرى الى درجة انه أقنع نفسه بأن ذلك الصوت هو صوت سيارات النجدة القادمة ، بيد أن الحريق خمد برهة عقب ضجة أحدثتها عروق الخشب المتهاوية وسط سكون مليء بالشرر ، ولم يعد ثمة شك في ان الطنين هو طنين الطائرات التي تحلق فوق المدينة . وسقطت حزمتان تتألفان من أربع قنابل تلتها ثمانية إنفجارات ، ثم ضوضاء ساحقة وكان المدينة بأسرها قد استيقظت مرتاعة .

والى جانب راموس وقف فلاح من رجال الميليشيا ، انفكت ضمادته ، فجعل ينظر الى دمه وهو يسيل على طول ذراعه العارية ، وينسكب قطرة قطرة على الاسفلت ، وفي وهج النيران المعتم كان الجلد احمر ، والاسفلت الأسود احمر ، والدم البني الفاتح كالنيذ تحول في أثناء سقوطه الى اصفر متوهج كطرف السيجارة التي يدخنها راموس ، وأمر راموس بنقل هذا الرجل فوراً ، أما الجرحى الآخرون الذين وضعت أذرعهم في الجبس فقد انسابوا كأنهم يرقصون في باليه جنائزي والسواد يغشاهم في مبدأ الأمر كالأشباح ، ثم تحولت مناماتهم الفاتحة الى اللون الأحمر شيئاً فشيئاً كلما اجتازوا الميدان في وهج الحريق المعتم ، وكان هؤلاء الجرحى جميعاً من الجنود ، لم يكن يلوح عليهم الاضطراب والفرع ، بل كان يسودهم نظام صارم ، نسيجة الارهاق والمعجز والسخط والعزم الأكيد ، وسقطت قنبلتان أخريان ، فتلوى صف الجرحى الراقدين كما تتلوى الموجة .

كان كشك التليفون على بعد مائة متر ، في شارع لم يكن يضيئه وهج الحريق ، وتعثر راموس بجسم على الأرض ، فأنار بطاريتة ، وصاح الرجل فاغراً فاه ، ولمس أحد رجال الاسعاف يده :

- « إنه ميت » .

فقال راموس : « كلا . . . انه يصرخ . . . »

كان كل منهما لا يكاد يسمع الآخر إلا في عناء شديد ، وسط ضجة القنابل والطائرات والمدافع البعيدة ، وصفارات الأنداز المتبددة ، بيد ان الرجل كان قد مات فاغراً فاه كأنه يصرخ ، ولعله صرخ فعلاً ، واصطدم راموس بنقالات أخرى وصرخات ، وفجأة سطع وهج شديد انتزع أولئك الناس المنحنين جميعاً من فحمة الظلام .

وطلبت بالتليفون سيارات اسعاف وسيارات نقل ، فقد كان من الممكن إجلاء عدد كبير من الجرحى بسيارات النقل ، (وسأل نفسه : إلى أين ؟ لقد

اشتعلت الحرائق في المستشفيات واحداً وراء الآخر) . ولقد بعث به جرنيكو الى كواترو- كامينوس وهو حي من أفقر الأحياء ، استهدفته الغارات وخاصة منذ بداية الحصار ، (يقولون : ان فرانكو قد أكد أنه لن يمس حي شلمنقة الأنيق) ، واستقل راموس سيارته مرة أخرى .

وفي وهج الحرائق ، وعلى الضوء الشاحب المنبعث من مصابيح الشارع الكهربية الزرقاء ومن الكشافات ، وفي الظلام التام ، استأنف الناس في صمت خروجهم الذي يشبه خروج اليهود من مصر ، وكان عدد من فلاحي منطقة « تاجة » قد لجأوا الى أقاربهم ، واصطحبت كل أسرة حمارها . وبين الأغطية ، والمنبهات وأقاصص العصافير ، والقطط المحمولة على الأذرع كان الجميع يتجهون صوب الأحياء التي هي أغنى دون أن يعرفوا لذلك سبباً ، ودون فزع ، وكأنهم ألفوا عادة الحزن المتصل ، وكانت القنابل تتساقط بالجملة ، وكان أولئك الذين يلقونها يعلمون الناس أن يظلوا فقراء ؛ لأن هذا هو ما ينبغي أن يكون .

كانت مصابيح سيارة راموس الزرقاء لا تكاد تضيء له الطريق ، وأمام المنازل المبقورة مر راموس على ما يقرب من عشرين جثة مسجاة بطريقة متوازية متشابهة جميعاً بين الأنقاض .

وأوقف السيارة ، وأطلق صميراً منادياً على سيارة إسعاف ، ها هوذا ازيز الطائرات الذي لا يهدأ قد مزج دماء الفوضويين والشيوعيين والاشتراكيين والجمهوريين ، وكانوا يعتقدون أنهم أعداء ، مزج بينهم في أخوة الموت الأخيرة . . . ! وعوت صفارات الإنذار في دجى الليل واقتربت وتقاطعت ، ثم تبددت في الظلام الرطب كأنها سفن تشرع في الابحار ، وتوقفت احداها ، فارتفعت صرختها المتصلة وسط هذا الخليط المتقاطع من العواء كأنها صرخة كلب يائس . ومن خلال رائحة الطوب الساخن والخشب المحترق وتمت دوامات الشرر التي اجتاحت الشارع كدوريات مجنونة - تعقب انفجار القنابل الحائق اجراس عربات الأسعاف ، فغطاها بطبقة من الصلب

المتطير ، خرجت منها تلك الأجراس التي لا تعرف الكليل ، كأنها تخرج من أنفاق لتشق طريقها وسط سرب من صفارات الانذار الهائجة ، وكانت الديكة تصيح منذ بداية الغارة ، غير أن الانفجار الوحشي الذي أعقب سقوط طوريبد جوي حولها الى كائنات مخبولة ، فأخذت تتصايح كلها معاً صياحاً ساخطاً متشنجاً كأنه نشيد وحشي للفقير والتعس .

وفي الشعاع النحيل المنبعث من بطارية راموس كأنه في حركته القلقة شعيرات الاستشعار التي تتحسس بها حشرة طريقها ، وأمام الجثث المرصوفة على طول الجدار ظهر رجل ممدد على مصطبة ، وكان يثن للجرح أصابه في أحد جنبه ، وارتفع صليل جرس الاسعاف من مسافة غير بعيدة ، وهنا أطلق راموس صفيره مرة أخرى وقال : « ها هي ذي قادمة » ، فلم يجر الجريح جواباً ، بل استمر في انينه ، وألقت عليه البطارية ضوءها من أعلى ، فعكست على صفحة وجهه ظلال الأعشاب النامية بين أحجار المصطبة ، ونظر راموس في اشفاق الى تلك الظلال الدقيقة غير المكتثرة ، والمرسومة في دقة اتسم بها فن التصوير الياباني - على الوجنتين المرتعشتين ، على حين كانت صيحات الديكة الملتائة ما برحت تتردد في أذنيه .

وعلى ركن من ثغره سقطت أول قطرة من قطرات المطر .

الفصل الثالث

تصاعد وهج الحرائق الأولى الكبرى التي اجتاحت مدريد وراء الخنادق الألمانية التابعة للفرقة العالمية ، ولم يكن المتطوعون يستطيعون رؤية الطائرات ، غير أن السكون الليلي الذي لم يكن سكون الريف بل سكون الحرب الغريب ، كان يهتز كما يهتز قطار يتحول عن قضبانه إلى قضبان أخرى ، وكان الألمان جميعاً قد اجتمعوا معاً من المنفيين لأنهم ماركسيون أو المنفيون لأنهم رومانيون يظنون أنفسهم ثوريين ، وكذلك المنفيون لأنهم يهود ، كما كان هناك أيضاً أولئك الذين لم يكونوا ثوريين ، بل أصبحوا كذلك فيما بعد ، وكانوا يصدون هجمتين في اليوم الواحد منذ أن صدوا هجوم المنتزه الغربي ، إذ كان الفاشيون يحاولون عبثاً اختراق خطوط الدفاع عن المدينة الجامعية .

نظر المتطوعون إلى الوهج الأحمر العظيم الذي تصاعد حتى بلغ السحب المثقلة بماء المطر ، وكان مبيض الحريق الذي يشبه الاعلانات الكهربائية هائلاً في ليالي الضباب ، فبدت المدينة كلها شعلة من النيران ولم يكن أحد من هؤلاء المتطوعين قد شاهد مدريد بعد .

وظل رفيق جريح يستغيث أكثر من ساعة كاملة .

والمغاربة على بعد كيلومتر واحد ، فليس من الممكن إذن أنهم يجهلون مكان الجريح ، والأرجح أنهم ينتظرون أن يسعى إليه رفاقه . ومنذ برهة قتل متطوع جازف بالخروج من الخندق ، وكان المتطوعون على استعداد

لقبول لعبة الصيد هذه ، بيد أن الشيء الذي كانوا يحشونه هو ألا يستطيعوا
الاهتداء الى خنادقهم مرة أخرى في ذلك الليل الحالك الذي لا يضيء
الحريق سوى سمائه .

وأخيراً تمكن ثلاثة من الألمان من الحصول على نصريح بالبحث عن ذلك
الجريح المستغيث وسط فحمة الضباب ، فاجتازوا الحاجز - واحداً اثر
الآخر - ولم يلبث الضباب أن ابتلعهم في جوفه وكان السكويين المخيم على
الخندق مرهف الحس لأقل نامة برغم دوي الانفجارات .

كان الجريح يصيح على بعد أربعمائة متر على أقل تقدير . . المسافة
طويلة إذن ، وهم يعلمون جميعاً أن الانسان لا يستطيع أن يزحف بسرعة ،
ولهذا لا بد من حمله ، ولكن على شرط ألا ينهضوا ، وعلى شرط ألا يقبل
الفجر سريعاً .

السكون والقتال ، وكان الجمهوريون يحاولون لم شمل صفوفهم وراء
خطوط الفاشيين ، أما المغاربة فكانوا يحاولون اختراق المدينة الجامعية «ومن
مكان ما في ظلام الليل كانت مدافع الأعداء الرشاشة تطلق نيرانها من
المستشفى ومدريد تحترق ، والألمان الثلاثة يزحفون على بطونهم .

الجريح يصيح كل دقيقتين أو ثلاث ، اذا أطلق صاروخ فلن يعود
المتطوعون أبداً ، فليس من شك أنهم الآن على بعد خمسمائة متر من
الخندق ، والآخرون يشمون رائحة الوحل الماسخة التي تكاد تكون شبيهة
برائحة الخنادق ، وكأنها قد التصقت بهم ، ولكن ما أطول الفترة التي
استغرقها الجريح قبل أن يطلق استغاثته من جديد ! فاذا لم يخطئوا في
احساسهم بالاتجاه فلا بد أنهم يتجهون الآن نحوه .

وانظر الثلاثة منبطحين على بطونهم ، انتظروا النداء في الضباب الذي
تخلله ومضات الحرائق . . . لقد سكت الصوت ، وكف الجريح عن
النداء .

ونهب كل منهم مستنداً على مرفقه ، وقد امتنعت منهم الوجوه ،
ومدر يد ما زالت تحترق ، وخنادق الألمان ما برحت صامدة ، وعلى دقائق
المدافع الحزينة ما فتىء المغاربة يحاولون اختراق المدينة الجامعية تحت ستار من
ضباب الليل .

الفصل الرابع

وقف « شاد » عند أول منزل خرجت أحشاؤه ، وكان المطر قد انقطع وإن يكن الأحساس بقربه ما برح عالقاً بالنفس ، وتشابكت أيدي نساء يلبسن أوشحة سوداء ، فتألفت منهن سلسلة وراء رجال ميليشيا النجدة الذين أخذوا يسحبون من الانقاص بوقاً لجرامفون ولفافة وعلبة صغيرة .

وفي الطابق الثالث من المنزل الذي تهدم أحد جدرانه فبدا كديكور في مسرحية ، تدلى سرير حال بينه وبين السقوط اشتباك إحدى قوائمه بالسقف المتهدم . وافرغت هذه الحجرة محتوياتها من لوحات ولعب وأواني المطبخ عند قدمي « شاد » . وكان الدور الأرضي برغم خروج أحشائه سليماً هادئاً كالحياة ، على حين حملت عربة اسعاف سكانه المحتضرين ، وفي الطابق الأول فوق سرير لطخته الدماء انطلق جرس منبه ما لبث أن تلاشى في وحشة الصباح الكابي .

وأخذ رجال النجدة يتناقلون ما عثروا عليه من يد الى يد حتى ناول رجل الميليشيا الأخير أول امرأة وقفت بجواره لفاقة ، بيد أن المرأة لم تمسك باللفافة من الوسط بملء يدها ، كما مدت إليها ، وإنما احتضنتها بين ذراعيها ، وكان الرأس متديلاً الى الوراء ، ذلك أن الطفل كان ميتاً ، ونظرت المرأة الى السلسلة التي كونتها النسوة ، وبحثت بعينيها عن شيء ما ، ثم طفقت تتحجب . . . لعلها أبصرت أمه ، ومضى « شاد » في طريقه ، وكانت رائحة النار الممتزجة بضباب الصباح الرطب تملأ المدينة ، رائحة مرحة تنبعث عن

الأخشاب المحترقة في غابات الخريف .

وكان المنزل التالي يخلو من الضحايا ، وإنما وقف سكانه وهم من صغار الموظفين ينظرون صامتين الى النار التي تلتهم منزلهم المتصدع ! وكان « شاد » يبحث في هذا المكان عن شيء يسترعي الأنظار أو شيء مأساوي ، بيد أنه كان في هذه اللحظة يمقت مهنته ، فما يسترعي الأنظار سخيف في العادة ولا شيء أكثر مأساوية مما يحدث كل يوم ومن آلاف الحيات الانسانية التي يشبه بعضها بعضاً ، ومن هذه الوجوه التي يكسوها الألم ، ويرتسم عليها الأرق .

سأله الشخص الذي كان ينظر الى جواره : « أغريب أنت يا سيدي ؟ » ؛ كان وجه المتحدث دقيق الملامح وإن كان طاعناً في السن ، والغضون الرأسية فيه تكشف عن أنه رجل مثقف ، وأشار الى المنزل دون أن ينبس بحرف .

وقال شاد وهو يشد رباط عنقه الصغير : « أنا أفزع من الحرب » .

- « لقد نالك منها الكثير » ، ثم بصوت أشد خفوتاً : « الحرب ، اذا جاز لنا أن نقول ... » .

« يا سيدي ، إن مصنع المصابيح الكهربائية الذي بصوب طريق القلعة يحترق ، وكذلك تحترق سان - كارلوس ، وسان جيرونيمو . . . وجميع المنازل المحيطة بسفارة فرنسا ، وكثير من المنازل المحيطة بميدان كورتيز وحول القصر . . . ودار الكتب » .

كان يتحدث الى « شاد » دون أن ينظر اليه ، وإنما كان يرفع عينيه الى السماء : « أنا أيضاً أفزع من الحرب . . . ولكنها أقل بشاعة من الاغتيل » .

قال شاد في عناد : « كل شيء أفضل من الحرب » .

- « حتى اعطاء السلطان لأولئك الذين يستخدمونه الآن على هذا النحو ؟ » أنا أيضاً لا أستطيع أن أوافق على الحرب ، وكيف يمكن أن أقبل هذه الحرب ؟ ولكن ما العمل ؟ . . . وكان ينظر الى السماء دائماً .

وسأله شاد : « هل استطيع مساعدتك ؟ »

فابتسم الرجل وأشار الى المنزل المحترق الذي تصاعدت منه نيران شاحبة في الصباح الرمادي ، تحت دخان كثيب .
- « في هذا المنزل أوراقي كلها يا سيدي . . . إنني عالم في البيولوجيا » .

وانفجرت قنبلة ضخمة في الميدان على بعد مائة متر أمامهما . فتهمش ما بقي من زجاج النوافذ . . ووسط الزجاج المتهمش طفق حمار مربوط لم يحاول الهرب ينهق بصوت بائس تحت مياه المطر التي بدأت في الانهمار . . .
وعندما عاد شاد الى ملجأ العجائز كان كثير منهم قد صعدوا من السرايب ، وكان الحريق قد أخذ ، بيد أن آثار الغارة المائلة حول أولئك الأشخاص الضعفاء الذين لا يملكون حولاً ولا قوة بحركاتهم الطفولية كانت خالية بصورة لا حد لها من كل معنى .

وسأل شاد شيخاً منهم : « كيف حدث ذلك ؟ »

« آه يا سيدي . . إن الركض لم يعد مناسباً لسنا . . الركض ونحن على هذا الضعف ، وخاصة بالنسبة لأولئك الذين يستندون على عكازات » . .
وأمسك شاد من كفه :

- « أين نذهب يا سيدي ؟ لقد كنت حلاقاً . لفئة معينة من الزبائن فحسب ، وكان أولئك الزبائن يعتمدون عليّ في المناسبات المختلفة : قص الشعر وحلاقة الذقن وخلافه » .

وكان شاد يسمعه في مشقة ، اذ كانت سيارات النقل تمر بهم الواحدة وراء الأخرى ، وهي تهز الجدران والأنقاض معاً .

- « لقد وضعتنا الجهة هنا يا سيدي ، وكنا على ما يرام . . ولم نكد نستقر حتى بدأ كل شيء من جديد . . . ولكن . . سيتهي كل شيء . . . سيتهي كل شيء طبعاً . . . كل ما في الأمر أنني أنا أيضاً . . . »

كان الشيوخ المقيمون في الطابق الأول - وهم الذين يتمتعون بصحة

جيدة - يساعدون في أعمال يجهل شاد طبيعتها ، وكان عددهم اثني عشر كهلاً يتصفون بوقار الشيخوخة الاسبانية ويعملون مرهفي الأذان متطلعين الى السماء كأنما قضي عليهم بالصمت .

وفي الطابق الثاني بين صليل أجراس عربات الاسعاف التي أخذت تذرع المدينة من أذناها الى اقصاها ، وبين ضجة سيارات النقل التي لا تنقطع ، كان بعض رجال الميليشيا يحاولون جر الشيوخ الذين قبعوا تحت الأسرة محتمين بها من الغارة - يحاولون جرهم قسراً بعد أن أصابتهم شبه لوثة جعلتهم يتشبثون بأرجل الأسرة الحديدية لا يريدون التخلي عنها ، وفجأة انطلقت صفارات الانذارات في شوارع المدينة ، وكأنها صدى عربات الاسعاف المنذر ، وهنا تخلى الكهول عن الأسرة وهولوا نحو باب السلم الذي يؤدي الى القبو واضعين أعظيتهم على ظهورهم إلا واحداً منهم حمل سريره كدرع السلحفاة .

ولم تكد تمضي عشر ثوان حتى بعثر الانفجار الأول شظايا الزجاج المهشم المتبقية من الليل على الموائد وتحت النوافذ ، وبدأت ساعات المدينة - واحدة أثر الأخرى - تدق الساعة التاسعة ، وكأن المدينة بأسرها تجيب بناقوس غير مكترث طغى صوته على هزيم المدافع المنطلقة من المدينة الجامعية .

صاح أحد رجال الميليشيا : « ها نحن أولاء نراهم ! »

وتسلل شاد تحت باب المستشفى ، وأطل منه بغليونه الطويل أولاً ثم بأنفه ، ومن وراء البقية الباقية من سطح المنازل ظهرت طائرات اليونكرز الضخمة الشبيهة في ضخامتها بطائرات النقل الألمانية التي كثيراً ما ركبها في اوروبا ، وقد استطالت مقدمتها الى الأمام ، سوداء منخفضة تحت السحب المثقلة بالمطر ، واجتازت الشارع على مهل ، ثم اختفت وراء السطح المقابل ، تتبعها طائرات المطاردة ، وتولى القدر توجيه القنابل الحارقة ، فأنفجرت عن يمين وعن شمال كحبات المسبحة .

وطارت الحمائم عن أبراجها ، وفوق تحويمها الرخو عادت الطائرات الى تحليقها الصارم كالقدر ، وكان هذا الموت الذي يهبط على الناس « مصادفة » يفزع شاد ، ألا يملك رجال الحكومة ما يكفي من طائرات المطاردة لإبعاد طائرة واحدة عن الجبهة ؟ وأمام الباب لم تنقطع سيارات النقل عن المرور ، وقد تقاطر الماء من سقفوها ، اذ كانت السماء تمطر على مقربة من ذلك المكان .

قال صوت صادر من ورائه : « هناك قيو » .

ولكن شاد لم يبرح الباب مع علمه بأنه لا يحميه على الاطلاق .

وسارت أطياف بمحاذاة الجدران ، ثم تتوقف لحظات تحت كل باب لتعاود السير من جديد . ومع أن شاد ذهب مرات عدة الى الجبهة ، فإنه لم يشعر قط بالشعور الذي أحس به هنا . كانت الحرب هي الحرب ، أما هذه فليست حرباً ، وكل ما يريده أن ينتهي حقاً هو تلك المذابح للمدنيين لا الطورييدات ، واستمرت القنابل في سقوطها على أماكن لا سبيل الى التنبؤ بها . وتذكر « شاد » مقابلاته ومذكراته والأغطية المنصوبة في المنازل المبقورة ، ولوحة تحطم زجاجها فوق خط قصير من الدم ، وحلة من حبل الرحلات معلقة فوق حقيبة - وكان هذا كله استعدادات للرحيل الى العالم الآخر . وتذكر حمراً لم يعثروا منه إلا على السنابك ، وآثار الدماء الطويلة التي سالت من جرحى القصر ، فلطخت الأرصفة والجدران والنقالات الخالية إلا من بقعة من الدم مكان كل جرح ما أكثر الدماء التي سيغسلها المطر ! وتقاطعت القذائف الآن مع القنابل ، وانتظر شاد ضجة أحجار القرميد المتساقطة عقب كل انفجار . وعلى الرغم من سقوط المطر فاحت رائحة الحرائق في الشوارع ولم تنقطع سيارات النقل عن المرور .

سأل شاد وهو يشد جناحي رباط عنقه القصير : « ما هذا ؟ » .

- « تعزيزات لوداي الرمل .. « وهم » يحاولون اختراقها من

عل .. » .

الفصل الخامس

تقدمت فرقة مانويل تحت ستار عريض من المطر المائل من جبال وادي الرمل الى منظر من مناظر سنة ١٩١٧ . بقعة تتناثر فيها أبراج الكنائس المحطمة ، وكانت الأطياف تنتزع نفسها من الوحل في مشقة ، وتهبط الى الوادي رويداً رويداً . واتجهت أخاديد طويلة شقتها محارث الفلاحين صوب سهل منخفض ، لا يلبث أن يصاعد من جديد متجهاً الى أفق تغشاه ظلمة المساء في وضوح النهار ، وهناك عند ملتقى الوادي بالأفق يبدو وكأن العالم يبلغ نهايته ، إلا أن وراء هذا الخطر امتدت سهول شقوبية الى ما لا نهاية ، كما يمتد البحر وراء جرف من الصخور . ووراء هذا كله عالم خفي من النوم والمطر يزججر بكل ما يملك من مدافع وخلفه مدريد . . وما زال الرجال يتقدمون دائماً وهم يغوصون أعمق فأعمق في الوحل الذي ازداد سمكه أكثر فأكثر . . . ومن حين الى آخر كان ينبعث صوت مختلف وسط الانفجارات ، وهو صوت قنبلة لم تنفجر ، وإنما تغوص في الوحل .

وكان مركز قيادة مانويل قريباً جداً من خطوط القتال ، وقد الحقت ألوية أخرى بلوائه ، فأصبح بذلك قائداً لفرقة ، وكان جناحاه الأيمن والأوسط على ما يرام ، أما الأيسر فكان يتأرجح قليلاً بين القوة والضعف . وفي المعركة الأخيرة أصيب ستون في المائة من ضباط فرقته ومندوبيها السياسيين ، وقد قال منذ ساعة لضباطه : « تحسنون إليّ صنعاً لو أنكم بقيتم في أماكنكم ولم تذهبوا لإنشاد النشيد العالمي على رأس جنودكم » . ونجح الهجوم المضاد الى

حد بعيد . بيد أن الجناح الأيسر كان مهزوزاً .

ولم يكن الجناح الأيسر مؤلفاً من رجال أرانخويث ، أو من رجال الفرقة الخامسة التي عززتهم ، أو من المتطوعين الجدد الذين التفوا حولهم ، فقد كان هؤلاء يقاتلون على اليمين وفي الوسط ، وإنما كان يتألف من سرايا قادمة من منطقة بلنسية ، وهي السرايا التي يقال عنها أنها فوضوية ، وإن لم ينتم رجالها قط قبل الثورة إلى أية نقابات ومنذ أول أمس لم يعد يشرف على الجناح الأيسر أي جاويش اذ ماتوا جميعاً أو نُقلوا إلى المستشفى .

وأمام هذا اليسار تقدمت دبابات مانويل ، وفي ذلك الثبات الآلي الذي تتميز به الدبابات والذي يجعلها تبدو وكأنها تقوم بمناورات كبيرة حتى أثناء القتال اتجهت صوب حاجز من المدفعية يعادل سمكه سمك صفوف المشاة التي تتبعها ، ولم تكن قنابل المدافع هي التي تخشاهما بقدر ما تخشى الأرض المملوءة بالألغام التي تسير عليها . واختفت إحدى تلك الدبابات كأنما ذابت في المطر ، والواقع انها سقطت في حفرة أعدت للدبابات ، وركدت أخرى في رخاوة على نافورة من الأرض الموحلة المملوءة بالحصى ، على حين تقدمت الدبابات الباقية وسط انبثاقات من الأرض المزروعة التي تتساقط تحت القذائف في منحني رخو موحش كثيب كخطوط المطر المائلة التي لا تنقطع .

ظل مانويل يشاهد طيلة شهور متعاقبة دبابات تتقدم على هذا النحو ، كل ما في الأمر انها كانت دبابات الأعداء . وذات يوم صنعت فرقة ارانخويث دبابة من الخشب ، وكأنها تعويذة سحرية لاغراء الدبابات الحقيقية بالوصول أما اليوم فكانت دباباته تمتد على مرمى البصر متقدمة على اليمين متأخرة على اليسار يتبعها المشاة .

قصف مدافع الجمهوريين الثقيلة صفوف الأعداء التي كانت ترد عليهم ، دون أن تتمكن من صد الهجوم المضاد ، وفي اللون الرمادي الذي اصطبغت به الطبيعة كانت نقط إنسانية صغيرة ذات لون رمادي أشد قتامة

تتبع الدبابات : انهم رجال الديناميت (المفرعات) ، على حين احتلت جماعات المدفعية الرشاشة أرضها - أرضها البائسة الرطبة التي انتزعتها خطوة خطوة من الأوجال .

لماذا بعثوا الى اقصى اليسار بدبابات للتعزيز ؟ الجناح الأيسر يتعثر في تقدمه ، كان صف الدبابات من أقصى اليمين الى آخر عربة في أقصى اليسار قد اتخذ الآن شكل هلال . ترى أنتسحب الدبابات التي على يسار مانويل من المعركة ؟ وكانت الدبابات التي يراها - لا تتقدم نحو الفاشيين ، وإنما تتقدم نحوه هو .

انها لم تكن تعزيزات ، بل دبابات العدو .

لو تخاذل الجناح الأيسر لضاعت الفرقة كلها ولأصبحت هذه الثغرة هي التي يمكن أن ينفذ منها العدو الى مدريد ، أما اذا صمد فلن تتمكن دبابة واحدة للعدو من العودة الى صفوف الفاشيين .

كانت قواته الاحتياطية على أهبة الاستعداد الى جوار سيارات النقل وفي إمكانه أن يقذف بها كلها الى المعركة ، ذلك أن قوات احتياطية أخرى سوف تصل بسيارات النقل من مدريد .

ووقفت أمامه سيارة الاتصال بالجناح اليساري ، وكان من الممكن التعرف على هذه السيارة من غطائها الصوفي الغليظ وفي مؤخرتها جلس القائد واضعاً رأسه في ذراعه المثنية التي على الغطاء ، وكان يبدو أنه يغط في النوم .

سأل مانويل وهو يضرب حذاءه بغصن شجرة صنوبر كان يمكس به :
« ماذا هناك ؟ » .

كان القومندان قد أمر بأن يقاد الى مركز القيادة ، ولم يكن ما يصدر عنه شخيراً ، وإنما كان حشرجة .

وسأل مانويل السائق : « ماذا دهاه ؟ »

ولم يكن قد أبصر الجرح ، فأجابه السائق :

- « جرح في العنق » .

كان من النادر أن يصاب ضابط من الخلف في أثناء الهجوم . . لم يكن من شك أنه قد استدار بجسمه .

قال مانويل أخيراً : « ضعه هنا ، وأسرع باحضار جارتزر » .

كان مانويل قد اتصل تليفونياً طالباً إرسال القوميسير السياسي .

واختفت السيارة بعد أن أحدثت ضجة مباغثة .

وتناول مانويل نظارته المقربة : ثمة رجال على أقصى يساره يركضون صوب الدبابات الفاشية التي بدت وكأنها لا تطلق نيرانها ، اذ لم يسقط أحد ، بيد أن مانويل جعل يدير قرص النظارة المتحرك ، فمس المنظر ثم عاد فحدده وراء المطر - فشاهدهم رافعين أذرعهم الى اعلى . . انهم يذهبون الى العدو . .

ولم تشاهدهم السرية التي تتبعهم ، لأنها كانت تنفصل عنهم بمرتفع من الأرض .

ووراء تلك البقع الصغيرة التي تجري تحت اذرعها المرفوعة كأنها حشرات تحت قرون الاستشعار كانت الأرض تميل الى الانحدار . . حتى مدريد . وتذكر مانويل انهم قد عشروا في المعسكرات على كتابات للفلانجيين منذ أن وصل المتطوعون الجدد .

وكانت السرايا الأخرى التي في المؤخرة تطلق نيرانها ماضية الى المذبحة ، لاعتقادها أن الصفوف الأولى تتقدم . إلا يستطيع قائدوها أن يتعرف على الدبابات الايطالية ؟

وحملوا القائد ملفوفاً في بطانية (كان مركز الاسعاف وراء مركز قيادة مانويل) وكان قد قتل هو أيضاً برصاصة في أسفل الظهر .

هذا الضابط واحد من خيرة ضباط الفرقة ، وقد كان الرئيس القديم لوفد ارانخويث ، وهو يرقد الآن منكمشاً في البطانية وقد بللت مياه المطر شاربيه .

هناك إذن فلانجيون اندسوا وسط الجنود الجدد وهم يطلقون النار على الضباط من الخلف .

وكان الجناح الأيمن يتقدم دائماً .

قال السائق : « لقد قتل القوميسير السياسي لتوه واحداً منهم » .

وطلب مانويل من أحد الضباط أن يحمل محله ، وهرع الى الجناح الأيسر ، بكل ما لديه من قوات احتياطية .

واحتراماً لتعليمات مانويل : «بالأ يذهبوا لغناء نشيد العالمية على رأس جنودهم» - أقام جارتز قوميسير الفرقة السياسي مركز عمله في غابة من غابات الصنوبر عند مدخل الوادي الأول ، وهو الوادي الذي تزحف عليه الآن دبابات الأعداء .

وأقبل عليه أحد الجنود راكضاً ، انه « رامون » الجندي القديم ، وكان مانويل قد وضع في الجناح الأيسر خمسين رجلاً من رجال ارانخويث وسط الجنود الجدد .

- « هناك يا عزيزي القوميسير ستة أقدار بين الجدد يريدون قتل الكولونيل . انهم ستة ، وهم يريدون أن ينضموا الى الجانب الآخر ، لقد اعتقدوا أنني متفق معهم فقالوا : « فلنتظر الآخرين » ثم قالوا : « لقد تخلصنا من الكابتن ومن القومندان ، والآن علينا أن نهتم بصاحب القميص

الأبيض ، وكانوا يعنون القائد . . . أولئك الأوغاد » .

- « أعرف . . » .

- « وكانوا يريدون الانضمام الى الجانب الآخر ، أما أولئك الذين عليهم أن يقتلوا الكولونيل فربما كانوا آخرين غيرهم . وعندما قال ذلك قلت انتظروا . انتظروا فإن لديّ زملاء يريدون هم أيضاً الانضمام الى الأعداء ، فقالوا : إنفقنا ، وهكذا جئت إليك » .

- « وكيف تستطيع أن توقع بهم ؟ الصف كله يتقدم الآن » .

- « أما هم ، فلا يتحركون لأنهم ينتظرون وصول دبابات العدو . . . هناك مؤامرة مدبرة . . ثم هناك أولاد يصيحون مطالبين بالفرار ، لأنه ليس من الممكن الصمود في وجه الدبابات . . . وهم يصيحون صياحاً غريباً . الأمر ليس طبيعياً ، ولهذا أرسلني الرفاق » .

- « وقوميسير اللواء ؟ » .

- « قتل » .

وكان جارتزر قد اصطحب معه عشرة من جنود أرانخويث ، قال :

- « أيها الرفاق ، ثمة خونة اندسوا في الصفوف ، وقد قتلوا الكابتن ، ويريدون ان يقتلوا الكولونيل ، وأن ينضموا الى الفاشيين » .

واستبدل بحلته حلة واحد من الجنود ابقاه هناك ، وكان وجهه الحليق المدبب يبدو حين يخلو من كل تعبير كوجه الأبله ، وخاصة حين يجتهد جارتزر في أن يجعله يبدو كذلك ، وينتهي به الأمر الى أن يتخذ شكل الأبله تماماً حين خلع قبعته العسكرية ووضع « الكبي » فوق شعره الذي تقاطر منه ماء المطر بعد هنيهة ، وعندما حل محله قوميسير لواء آخر ، انطلق مع رجاله .

وكانت الطرقات جميعاً تتقاطع في بطن هذا الوادي ، سواء المتجهة الى مركز قيادة مانويل ، أم مركز نقل الجرحى ، أم المتجهة صوب الطريق الذي

قام فيه رامون بارشاد جارتتر .

وخلف غابة صغيرة من غابات الصنوبر تنسكب منها قطرات المطر ،
كان جنديان من المشاة يهبطان نحوه صائحين :

- « هيا يا أولاد ، لقد أعطوا الإشارة » .

وهنا قال رامون للقوميسير : « ها هم أولاء » .

- « من الستة ؟ » .

- « كلا ، انهم من الهاريين ، وكلهم مرغمون على المرور من هنا » .

صاح جارتتر : « إلى أين تمضون ؟ هل جنتم ؟ » .

لم يكن الستة الجدد قد رأوه من قبل ، فهم لا يعرفون إلا قوميسير
لوائهم ، فليس من شك أنهم قد التقوا به ، بيد أنهم لم يفكروا فيه الآن ،
بل لم يفكروا في شيء على الاطلاق .

- « أقول لك أنه لا سبيل الى الصمود أمامهم .. أمام الدبابات ..
ولن تمضي نصف ساعة حتى يقطعوا علينا الطريق ... فلا نجد مخرجاً » .

- « إن مدريد وراءنا » .

فقال الآخر ، وكان فتى وسيماً استولى عليه الذعر : « لا يعنيني شيء من
ذلك ولو أن الرؤساء كانوا يقومون بواجبهم ما وقعنا في هذه الورطة » .

- « هيا بنا .. فلننقذ ما يمكن إنقاذه » .

- « ما زال الجناح الأوسط صامداً » .

كانت هذه الأقوال أشبه في المطر بالنباح منها بالحوار ، وكان جارتتر يقف
أمام جندي له فم غاية في الصغر في وجه غاية في الضخامة ونكس الجندي
بندقيته :

- « أخبرني .. أنت يا صاحب الوجه الضخم ، أتريد شريطاً ؟ إن كنت حريصاً على أن تسحقك الدبابات فلا تتأخر ، أما اذا كنت تريد أن تسحق زملاءك فأنا قادم اليك » .

ولكمه رامون بقبضته في ضلوعه ، فدار دورة كاملة في الوحل ، وبعد أن جرد هو وزميله من السلاح سيق الى المؤخرة في حراسة أربعة من رجال جارتزر ، على حين ذهب جارتزر الى الأمام ركضاً هذه المرة ، وكانت معاطف رجاله الصفراء تبدو رمادية .

كان الرجال الستة الذين تحدث عنهم رامون يجلسون القرفصاء في حفرة مغطاة بالوحل لا يزيد عرضها على خمسة امتار ، في انتظار رامون ، ولكنهم لم يكونوا على استعداد لخوض المعركة . قال لهم رامون وكأنما يقدم لهم جارتزر والآخرين : « ها هم أولاء الأولاد » .

وسأل القوميسير : « هل نشرع في المسير؟ » .

فقال الشخص الذي يبدو عليه أنه يقود الرجال الستة : « انتظر . فما زال الآخرون في مكانهم الأعلى » .

فسأله جارتزر متظاهراً بالفرع : « من ؟ » .

- « أنت شديد الفضول » .

- « لا يعني الأمر في شيء ، كل ما يهمني أن يكونوا أشخاصاً موثوقاً فيهم ، لأن لديّ أسلحة ، ولكني لا أستطيع أن أعطيها كل من هب ودب ، ما عدد الأسلحة التي تريدها ؟ » .

- « إن عددنا ستة » .

- « يستطيع الرفاق وأنا أن نحصل على عشر بنادق سريعة الطلقات فوراً » .

- « كلا ... نحن ستة . لا أكثر » .

- « إنها مدافع خطيرة عيار ٧,٦٥ بخزان كبير » .

وربت الآخر على بندقيته ، وهو يهز كتفيه .

قال أحد الرجال الستة : « لسنا في حاجة اليها ، ولكنها مفيدة جداً ، في رأيي ، المدافع العشرة جميعاً » .

ووافق الرجل الأول وكأنه يتلقى أمراً عليه أن يطيعه ، وكانت يدا المتحدث الأخير رقيقتين فقال القوميسير لنفسه : هذا من الفلانج » .

استطرد جارتزر مخاطباً أول من تحدث منهم : « أتفهم ؟ إنها شيء مختلف عن البنادق التي تستعملونها ، ليس المدفع من عيار ٧,٦٥ مسدساً تمسكه السيدات ، وتستطيع أنت أن تملأ خزائنه على هذا النحو . . . هو الآن مشحون بخمسين رصاصة . . ولما كنتم ستة ، فإن كلا منكم تخصه ثماني رصاصات في الحلق . . ارفعوا أيديكم » .

ولم يكذب المتحدث الأول بمد يده بمقدار بوصة نحو بندقيته حتى هوى في الحفرة ، بعد أن عاجلته رصاصة في رأسه . . وانثقت دماؤه في الماء ، سوداء تحت سماء واطئة على حين كانت دبابات العدو تتقدم باستمرار .

واقتراد زملاء جارتزر الآخرين أمامهم تحت تهديد السلاح ، وقبل أن يبلغوا المزرعة التقوا بمانويل وسياراته ، فوثب جارتزر الى سيارة مانويل وأخبره بما حدث . . وكان جارتزر قد أرسل الى الجناح الأيسر الجماعة المضادة للدبابات من قواته الاحتياطية .

كان من المنتظر أن تصل الدبابات الفاشية الى تلك الجماعة خلال دقائق معدودات ، فإذا صمد الجناح الأوسط استطاع الاحتياطي أن يحل محل الجناح الأيمن في التقدم ، وبهذا يسير كل شيء على ما يرام .

وكان الجناح الأوسط هو الذي يتألف من رجال أرانخويث ، ومن جميع أولئك الذين انضموا اليه كرجال الميليشيا القدماء من مدريد ومن طليطلة .

نهر تاجة ، ومن سيرها نفسها وعمال من المدن وعمال من زراعيين وصغار الملاك وعمال المعادن والحلاقين ، وعمال النسيج ، والحبازون . وكانوا يجاربون الآن في بقعة تتناثر فيها جدران صغيرة من الصخور الجافة المتوازية كالمنحنيات التي تملاً خرائط أركان الحرب ، ومن ذلك المكان لم يكن من الممكن ألا يروا أنه اذا تقدمت دبابات العدو كيلومترين آخرين (وهذا يستغرق خمس أو عشر دقائق) فإن أحداً منهم لن يعود الى أهله حياً . وأصدر مانويل أوامره بالصمود ، فصمدوا متشبثين بصخورهم ، ملتصقين بشنايا الأرض محتفين وراء أشجار تقل عنهم حجماً ، ومن أمامهم وخلفهم مدافع الهاون ، والمدافع الرشاشة تطلق عليهم نيرانها في مسارات متقاطعة ، وقذائف المدفعية الثقيلة تسعى اليهم في جوف المطر . وقام مانويل بالتفتيش على الجناح الأوسط أولاً ، فرأى رجاله يتساقطون واحداً وراء الآخر ، وهم يدفنون فور سقوطهم تحت الأرض المتطايرة بفعل القذائف الجديدة ، ومن خلال الغضب العنيف الذي تفجرت به الأرض على مساحة تمتد عدة كيلومترات وكأنها تزار في وجه السحب ، وتقذف بحممها من الحصى والدماء والصخر لتختلط بأمطار الشتاء ، لمح مانويل موجة من الأعداء تقدم بالسونكي التي لم تكن تلمع في هذا المنظر الذي يذيب فيه المطر كل ما يلقي اليه من الأرض ، ومع ذلك فقد أحس مانويل بالسونكي ، وأنه قد هوجم بها هو نفسه . وكان ثمة شيء غامض يحدث في أعماق هذا الطوفان من المطر ، وحول تلك الجدران الصغيرة السخيفة التي لا تحصى . وانحسرت موجة الأعداء (ولم تكن تتألف من المغاربة هذه المرة) وكأنها لم تنهزم على أيدي رجال الميليشيا القداماء ، وإنما هزمها المطر الأبدي الذي مزج كثيراً من قتلاهم بالأرض ، ورد موجات الهجوم التي شنها الأعداء صوب الخنادق المحتجة بعد أن أذابها وبددها عبر ستار من الغيث تتخلله انفجارات لا تقل كثرة عن قطرات المطر .

ولجأت المدفعية الفاشية أربع مرات الى السلاح الأبيض ، وذابت أربع

مرات في الستار العظيم الذي أسدلته مياه المطر .

وكان الصف متماسكاً ، بيد أن دبابات الجناح الأيمن الفاشي استطاعت أن تصل الى جماعة مانويل المضادة للدبابات بعد أن اخترقت جناحه الأيسر .

وكان « بيب » هو الذي يقود هذه الجماعة فقد تولى الآن الرئاسة جميع رجال الديناميت الذين عاشوا بعد معركة أغسطس ، وأظهروا أية موهبة في القيادة . أخذ بيب يزجر متحسراً على أن زميله « جونزاليث » ليس معه الآن ليرى بعينيه التجربة الصغيرة التي سيقدم عليها . غير أن « جونزاليث » كان يقاتل في المدينة الجامعية ، وفي الوقت نفسه كان « بيب » يقول مبتهجاً : « سيرون هذه الضربة ، وسيعلمون منها الكثير » وكانت الدبابات الفاشية تتبعها المدفعية على مسافة غير قريبة - تتقدم بأقصى سرعتها صوب الوادي الأول الذي جعلهم في حمى من مدفعية الجمهوريين ، وهناك في كل وادٍ من وديان سيريرا يمتد طريق أو مسلك ولهذا أوصلت سيارات النقل بيب ورجاله في الوقت المناسب .

وعلى جانبي الطريق بقعة مكشوفة من الأرض ، وهنا وهناك تناثرت أجسام من اشجار الصنوبر بدت سوداء في مياه المطر ، ولم يلبث رجال « بيب » أن أخذوا مواقعهم راقدين على الأشواك التي تسيل منها المياه ، ومنبطحين وسط رائحة عيش الغراب .

واقتمحت الدبابة الأولى الوادي على يمين الطريق . . . كانت دبابة المانية تتميز بشدة السرعة والمرونة في الحركة ، وأحسن رجال الديناميت جميعاً أن كل ما يصنعونه يصيبه الصداً تحت هذا الوابل الذي لا ينقطع من المطر ، وهناك ولت الأدبار قطعان من الكلاب المدعورة كانت تلوذ بمنطقة سيريرا .

وظهرت الدبابات الأخرى في وضوح ، ولم يكن « بيب » المنبطح على بطنه يستطيع أن يرى الأرض الممتدة بين الأدغال ، فبدت الدبابات وكأنها تقفز ،

وقد لوت أعنة عجلاتها كما يلوي المرء عنان الجواد ، وأخذت تطلق نيرانها ،
وانبعث عن جنازيرها ما يشبه صليل الأجراس غير مصحوب بضجة الآلات
التي يحملها المطر ، بل بالضوضاء الصادرة عن المدافع الرشاشة والدبابات .
وانتظر .

وبابتسامة معادية كشفت عن أسنانه شرع في اطلاق النار .

وحتى الآلة يمكن أن يرتسم عليها الدهول ، فما كادت الدبابات تسمع
صوت المدافع الرشاشة حتى أندفعت مذعورة ، وتوقفت أربع منها : ثلاث
من الصف الأول ، وواحدة من الصف الثاني ، توقفت معاً وكأنها في حيرة
من أمرها ، ورفعت هاماتها محتدة وكأنها في خطر غامض مائل عبر كابوس
المطر ، واستدارت اثنتان ، ووقعت واحدة . وظلت الرابعة منتصبية في الهواء
مستقيمة تحت شجرة صنوبر شائخة .

ولأول مرة واجهت المدافع الرشاشة المضادة للدبابات ، ولم تشهد الموجة
الثانية شيئاً مما حدث ، فالدبابة تكاد تكون عمياء ، فوصلت تلك الموجة
بأقصى سرعتها ، ومن فوق الصف الأول من المدافع الرشاشة المنبثحة شرع
الصف في اطلاق النار على الدبابات التي أخذت تترنح - باستثناء أربع
دبابات كانت قد اجتازت بيب ، وأخترقت الصف الثاني .

بيد أن مانويل كان مستعداً لهذا الاحتمال ، وأصدر الأوامر الى رجاله بما
ينبغي أن يصنعوه في هذه الحالة ، وهكذا أدارت مدفعية الصف الثاني
مدفعين رشاشين على حين استمر الآخرون ورجال الصف الأول في اطلاق
النار على مجموعة الدبابات التي ولت الأدبار في خطوط متعرجة عبر أشجار
الصنوبر السوداء تحت طوفان المطر المنهمر .

واستدار « بيب » بدوره ، فهذه الدبابات الأربع يمكن أن تكون أخطر
من الدبابات الأخرى جميعاً ، لو كان سائقوها من ذوي العزم ، فقد تفترض
الفرقة التي تشن عليها تلك الدبابات هجومها أن هناك دبابات أخرى
تتبعها .

وكانت ثلاث منها قد اصطدمت كل منها بشجرة من أشجار الصنوبر ،
اذ سارت على غير هدى ، بعد أن قتل سائقوها .

واستمرت الدبابة الأخيرة في التقدم تحت وابل من نيران المدفعين
الرشاشين ، ولكنها لم تلبث أن ترنحت فوق الطريق الخالي ، وسارت على
جنازيرها في ضجة اختلطت بضوضاء المدافع الرشاشة المضادة للدبابات
بسرعة سبعين كيلومتر في الساعة ، دون أن تطلق نيرانها ، وقد بدت ضئيلة
تافهة بين السفوح المتصاعدة ، ضائعة فوق الأسفلت الموحش وحشة غريبة ،
وقد دهنه المطر فعكس السماء الشاحبة . وبلغت أخيراً انحناءة في الطريق ،
ثم اصطدمت بصخرة ، فتسمرت في مكانها كلعبة طفل !

واتجهت الدبابات التي لم يصبها شيء في نفس الاتجاه الذي سارت فيه
دبابات الجمهوريين ، واقتحمت صفوف مدفعيتها المدعورة التي حل بها
الاضطراب .. وأمام أشجار الصنوبر ووسطها وحول الدبابة المنتصبة كشيح من
أشباح الحرب اتخذت الدبابات جميع الأوضاع ، فاكتمى بعضها بالأغصان
الصغيرة ، وبالأشواك ، وبشمار الصنوبر التي قطعها الرصاصات ، وقد نال
منها المطر والصدأ وكأنها هجرت منذ شهور ، وكان مانويل قد وصل لتوه
فاستطاع أن يرى عبر عجلات الدبابات الأخيرة - الجناح الفاشي الأيمن وقد
تشتت خلف مقبرة الفيلة هذه ، وشرعت مدفعية الجمهوريين الثقيلة تقصف
خطوطه المنسحبة .

واتجه مانويل على الفور الى الجناح الأوسط .

تحول تقهقر جناح العدو الأيمن أمام دبابات الى فوضى تامة ، وأخذ
رجال « بيب » الذين لا يستخدمون المدافع الرشاشة يصحبهم رجال
الديناميت وقوات مانويل الاحتياطية - يتعقبون آثار الدبابات المتقهقرة ،
وكانها دباباتهم . وفي هذه الفوضى التي أصابت الجناح الأيمن وقع الجناح
الفاشي الأوسط ، أما جناح مانويل الأوسط الذي دعمه جزء من القوات

القادمة من مدريد في السيارات فقد خرج أخيراً من الجدران الصخرية التي كان يختفي وراءها، واندفع منطلقاً . . إلى الأمام ، على حين بقي الجزء الآخر ضمن القوات الاحتياطية .

وكان هؤلاء الرجال هم الذين انبطحوا في أماكنهم يوم معركة ثكنات الجبل حين أطلق عليهم القناصة النار من جميع النوافذ ، وهم أيضاً الذين كانوا يملكون مدفعاً رشاشاً على جبهة طولها كيلومتر ، والذين كانوا يعيرون غيرهم مدفعهم اذا تعرضوا لهجوم ، وهم أنفسهم الذين صعّدوا للهجوم على القصر ببنادق الصيد ، وهربوا من وجه الطائرات ، وبكوا في المستشفى ، لأن رفاقهم قد تخلّوا عنهم ! ان منهم أولئك الذين هربوا أمام الدبابات ، ومنهم الذين استقبلوها بالديناميت ، انهم جميع أولئك الذين يعرفون أن عليّة السيدات يحكمن على « الشعب الطيب » بمقدار ما يظهره من خنوع ، وهم أيضاً الحشد الذي لا ينتهي ممن سوف يعدمون في المستقبل رمياً بالرصاص ، لا تراهم الأبصار ، مثل ذلك المدفع الذي يطلق نيرانه على صفوفهم من طرف الى آخر في هزيم كهزيم الطبل .

لن يستولي الفاشيون على وادي الرمل هذا اليوم .

وظفق مانويل ينظر الى الصفوف المتشابكة التي تتألف من سرية من ارانخويت ورجال بيب ، وقد وضع غصن الصنوبر تحت أنفه ، وكأنه يشهد زحف انتصاره الأول فوق الأوحال اللزجة مخترقاً ستاراً من الأمطار الرتيبة التي لا نهاية لها .

وما أن حانت الساعة الثانية ، حتى تم الاستيلاء على جميع المواقع الفاشية ، ولكن كان لا بد من الثبات عند هذه المواقع ، ولا محل للتقدم الى شقوبية : ذلك أن الفاشيين المحتمين في الخنادق كانوا يترصدون بهم فيما وراء ذلك ، وكان جيش الوسط لا يمتلك قوات احتياطية أخرى غير تلك القوات المحاربة في الجبهة .

الفصل السادس

كانت موائد مقهى « لاجرانخا » المرصوفة على طول الشارع خالية من الزبائن وإن يكن داخل المقهى مليئاً بهم ، وكانت الأمطار القادمة من « سيرا » قد انقطعت فوق مدريد ، وثمة صوت جديد ينبعث من الانفجارات ، صوت أشد خفوتاً من قنابل الطائرات ، وكأنه صادر عن ارتفاع عشرة أو عشرين متراً من الأرض .

وتساءل مورينو وقد بدا أجمل منه في أي وقت مضى : « هل وصلت مدافعنا المضادة للطائرات ؟ » .

ولم يجبه أحد ، وكان كل من يشرب في ذلك المقهى يعرف الآخرين بأية صورة . وأخذت الأكواب ترتعش على وقع الهزيم المتصل للمدفع الذي يصب قذائفه من المدينة الجامعية ، ولم يكن المقهى مضاءً ، وإنما انتشر فيه الضوء الأصيل الخافت الشبيه بضوء الكهوف ، فملاً القاعة من أدناها الى أقصاها .

وأدار أحد الضباط أكرة الباب فانعكست منها أضواء على ذلك النهار من نوفمبر كأنها مرآة اجتذاب العصافير ، ودخل قائلاً : « لقد اشتعلت النيران في كل مكان . . . وهي الآن في طريقها الينا » .

فقال صوت آخر : « سنطفئها » .

- « ما أيسر القول ، وأصعب الفعل ! لقد وصلت الى شارع سان

مارجوس ، وشارع مارتن دي لوس هيخوس ... » .

- « وشارع أوركيخو ... » .

- « وملجأ سان جيرونيمو ، ومستشفى سان كارلوس ، والمنازل المحيطة
بالقصر ... »

ودخل ضباط آخرون ، ونفذت من الباب المفتوح رائحة صخور
محرقة .

- « ومستشفى الصليب الأحمر ... » .

- « وسوق سان ميغيل ... » .

- « وتمكنوا من إخماد جزء منها .. وانتهت تماماً من سان كارلوس وسان
جيرونيمو » .

- « وما هذا الصوت الذي نسمعه ؟ هل هو صوت المدافع المضادة
للطائرات ؟ »

وقال رفيق مورينو وهو شاب غزير الشعر ، مبعثره : « أيها الساقى ...
كأساً من الأيسنت » .

- « لا أعرف .. ولكني لا أعتقد ذلك » .

وقال الضابط الذي كان آخر الداخلين : « إنها قنابل من طراز
شراينيل .. تنهمر على ميدان اسبانيا انهماراً .. ولكنهم لم يتمكنوا من اجتياز
وادي الرمل » .

وجلس الى جوار مورينو الذي كان يرتدي حلته العسكرية هو أيضاً -
ويبدو شاباً في ذلك اليوم ، بعد أن حلق ذقنه ، وقص شعره .

وتساءل مورينو : « وكيف أخذ الناس في الشوارع هذا الأمر ؟ » .

- « لقد شرعوا في النزول الى المخابء .. غير أن بعضهم تسمر في مكانه

وخاصة النساء . . . ومنهم من هوى على الأرض ، أو أخذ في الصراخ ،
وهناك أولئك الذين هبوا يجرون على غير هدى . . وجميع النساء اللواتي
يسبحن أطفالاً أخذن في الجري . . . وهناك الفضوليون . . . »

فقال مورينو : « أحسست طيلة الصباح ، كأن زلزالاً قد وقع » .
وكان يريد أن يقول : إن الجماهير لم تكن تخشى الفاشيين ، وإنما كانت
تخشى الكارثة ، ومعنى ذلك أن فكرة الاستسلام لم تطرأ على أذهانهم ، لأن
الاستسلام لا يكون لزلزال .

ومرت عربة اسعاف ، يسبقها صليل جرسها .

وفي ضجة الانفجارات ، توابت الأكواب كالأرانب التي يلعب بها
الأطفال ، ثم تساقطت في كل اتجاه فوق الأطباق ، وعلى الخمور المنسكبة ،
وشظايا الزجاج المثلثة المتطايرة من واجهات المحال المحطمة فبدت كأنها
صناديق كبيرة : فقد انفجرت قبلة في الشارع امام المقهى ، وتدحرجت
صينية أحد السقاة ، ثم سقطت محدثة في ذلك السكون رنيناً كرنين
الصناعات المكتومة ، واندفع نصف الزبائن صوب الدرجات المؤدية الى القبو
يصاحبهم رنين الملاعق الصغيرة المتساقطة ، على حين بقي نصف الزبائن
الأخر متردداً ، ولكن كلا . . لم يحدث انفجار آخر . . .

وخرجت السجائر من عشرات الجيوب كالمعتاد ، واشتعلت عشرات
الأعواد من الثقاب دفعة واحدة وسط حلقات الدخان التي أخذت تدور حول
نفسها . وما أن انحسر الدخان بين الثغرتين الكبيرتين اللتين كانتا مرأتين منذ
لحظة وأصبحتا الآن شبيهتين بأسنان المنشار ، حتى ظهر رجل ميت مستند
على قضيب من قضبان الباب بين الواحه الزجاجية المهشمة .

قال الرجل الجالس الى جوار مورينو : « انهم يسددون قذائفهم
علينا » .

- « انت تزعجنا » .

- « أنتم جميعاً مجانين ، ولا تقدرّون ما يحدث لكم ! انتم تقتلون انفسكم بلا مبرر ! قلت لكم : إنهم يقصدوننا ! » .

فقال مورينو : « لا يهمني الأمر في قليل أو كثير » .

- « استمع يا عزيزي ، عفواً ! لقد قمت بنصيبي من القتال . . . هذا شيء مسلم به ، ولا مانع عندي من أن أفعل ما تشاؤون . . . أما أن أقتل نفسي بقتابل الطائرات دون مبرر فلا ، لقد كدحت طيلة حياتي حتى الآن ، وها هي أحلامي جميعاً ماثلة أمامي » .

- « إذن ، ماذا تفعل هنا بحق السماء ؟ انك لم تكلف نفسك عناء الهبوط الى القبو » .

- « لم أبرح مكاني ، مع أنني أرى ذلك حقاً » .

- « قال أحد الفلاسفة : أنظر الى ما أفعله ، ولا تسمع ما أقول » .

وهناك تحت قصف القنابل التي تساقطت من كل جانب كانت انعكاسات نهار الشتاء العالقة بشظايا الزجاج المتبقية على المائدة وعلى الأرض ، ترتعش رعشة غير محسوسة في البرك الصغيرة المرتجفة التي كونتها المائثانللا والفرموث ، والأبسنت . . . وصعد السقاة من القبو .

- « يقولون : إن أونامونو قد مات في شلمنقة » .

وعاد رجل مدني من غرفة التليفون :

- « لقد سقطت قنبلة على مترو بوابة الشمس ، فأحدثت فجوة عمقها عشرة أمتار » .

فقال صوتان : « هيا بنا لنرى » .

- « أكان هناك من أحتمى بالمترو ؟ » .

- « لا أدري » .

- « يقول الاسعاف : أن هناك اكثر من مائتين من القتلى ، وخمسمائة من الجرحى حتى الظهر » .

- « هذه مجرد بداية ! » .

- « . . . يقولون : ان معركة دارت في وادي الرمل . . . »

وجلس الرجل الذي تحدث في التليفون أمام حطام الخمور . . واستطرد رفيق مورينو ذو الشعر الغزير : « لقد سئمت هذا كله . . وأعود فأكرر أنهم يقصدوننا ، ماذا نفعل هنا ، وسط المدينة ! هذه حماقة ! » .

- « عليك بالرحيل » .

- « أجل إلى الصين ، الى بحار الجنوب . . . إلى أي مكان » .

وصاح صوت من الخارج طغى عليه في الحال رنين جديد لأجراس الاسعاف : « سوق كارمن يحترق ! » .

- « وماذا تصنع في بحار الجنوب : عقوداً من الصدف ، أو لعلك تقوم بتنظيم القبائل ! » .

- « سأصيد الأسماك الحمراء ! أي شيء ! ما دمت لن أسمع شيئاً عن هذا ! » .

- « إن فكرة انفصالك عن هذه الجماعة الموجودة الآن تضايقتك الى درجة أنك لم تبرح الى القبو . . وهذه الأقوال التي ترددها بأبها البائس قد رددتها أنا أيضاً على سمع ارنانديث ، صديقي العزيز ! » .

ونظر الى رفيقه بغتة في شيء من الخوف ، ان ارنانديث قد تحول الآن فأصبح هو نفسه مورينو ، وارنانديث قد مات ، بيد أن هذا التطير لم يلبث أن تبدد كما تبدد الدخان أمامهم .

- « كنت اعتزم الهرب الى فرنسا ، ثم ترددت ، واستولت عليّ صداقاتي . . . استولت عليّ الحياة . . ولم أعد أو من - أمام القنابل - بالتأملات ، أو بالحقائق العميقة ، أو بأي شيء . . بل أو من بالخوف . . . الخوف الحقيقي ، لا ذلك الخوف الذي يجعل المرء يتكلم ، بل الذي يجعل المرء يجري . ولو انك هربت ما كان لديّ ما أقوله لك ، ولكن ما دمت قد بقيت فهذا يحل المسألة ، ومن المستحسن أن تصمت .

« ولقد شاهدت في السجن كل ما يمكن أن يشاهده المرء ، وسمعت الرجال وهم يرمون أحجار النرد على حياتهم ، وانتظرت يوم الأحد ، لأن أحداً لا يعدم يوم الأحد . ورأيت رجالاً يلعبون أمام جدار تناثرت عليه أمخاخ المساجين وشعورهم ، وسمعت أكثر من خمسين شخصاً من المحكوم عليهم بالاعدام يلعبون « البخت » في زناياتهم ، وأنا أعرف ما أقول عندما أتحدث عن ذلك .

« كل ما في الأمر - يا عزيزي - هو أن هناك شيئاً آخر ، لقد خضت غمار الحرب في مراکش ، وكان الأمر هناك أشبه بنوع من المباراة الشريفة . . . أما هنا ، في الصفوف فالأمر يجري على نحو آخر تماماً ، فما أن تنقضي الأيام العشرة الأولى حتى تتحول الى شخص يجول في أثناء النوم ، وترى رجالاً كثيرين يتساقطون ، والمدفعية والدبابات ، والطائرات أشياء آلية جداً ، وكل شيء يتجه الى مصير واحد ، ويصبح المرء على يقين من أنه لن ينجو عن هذا المصير . . لا من هذه الورطة التي أنت فيها الآن ، أعني الحرب فحسب ، فأنت أشبه بمن تجرّع سماً سيأتي مفعوله بعد بضع ساعات ، أو كشخص نذر نفسه راهباً . حياتك قد أصبحت وراء ظهرك ، وهكذا تتغير الحياة ، وتجد نفسك فجأة وسط حقيقة أخرى والأخرين مجرد مجانين ! » .

- « وأنت دائماً في حقيقة ما ! » .

- « أجل . . . والأمر على هذا النحو ، أنت تتقدم صوب قنطرة ما ، فلا تعود مشغولاً بشيء حتى ولا بنفسك ، وتتساقط مئآت القذائف ، ويتقدم مئآت الرجال . . كل ما في الأمر أنك أشبه بمن يقدم على الانتحار ، وفي الوقت نفسه تملك أفضل ما في الجميع . . أنت تمتلك أفضل ما في نفوسهم . . شيئاً أشبه ببهجة الجماهير في الكرنفال . . ولست أدري : هل كنت مفهوماً أو لا ؟ لي رفيق يسمي هذا الشيء اللحظة التي يشرع فيها الموت في الغناء . . . وأنا أعرف - منذ شهر - ان الموت يستطيعون الغناء » .

- « هذا شيء قليل جداً بالنسبة لي » .

- « ثمة شيء لم يخطر على بالي قط أنا الضابط الماركسي القديم ، وهو أن هناك أخوة لا توجد إلا في الجانب الآخر من الموت » .

- « ثمة أشخاص يعتقدون انهم قد نالوا ما يكفيهم حين يجاربون الطائرات بالبنادق ، وآخرون يعتقدون انهم قد نالوا ما يكفيهم حين يجاربون الدبابات بالبنادق . . اما أنا فحسبي ما أجده الآن » .

- « كنت في بداية الأمر متوتراً مثلك ، أما الآن . . . » .

- « ستكون أهدأ أعصاباً عندما تموت . . » .

- « أجل . . كل ما في الأمر ، أنني لا أعبأ الآن بشيء » .

وأسفرت ابتسامة مورينو عن أسنانه البديعة ، وتهاوت جميع الزجاجات الموضوعة فوق البار للزينة يصحبها رنين الأكواب الفارغة ، وبدت المناضد كأنها تجمدت بفعل الانفجار ، وسقط اعلان عن الفرموت فوق ظهر مورينو ، فقطعت ابتسامته كأنما أغلقت شفثيه يد إنسان ، وتراجعت من جديد الأنوف التي خرجت من القبر .

واندفع من الخارج صوب الباب مدني مجروح ذو لحية ، وارتمى عليه بكل جسده ، فدار الباب دورة عنيفة ، صدمت الميت في صدره ، وأحدثت رنيناً

ناعماً في الصمت الذي أعقب الانفجار ، يوضرب الجريح بقبضتيه على اللوح
الزجاجي نصف المكسور ، ثم تشبث به وأخيراً تداعى .
ومن كل جانب ارتفعت من جديد أصوات الانفجارات .

الفصل السابع

كانت القنابل الثقيلة تتساقط في المنطقة التي بين المركز الرئيسي للتليفونات (الستترال) والقلعة، وسقطت إحدى هذه القنابل دون أن تنفجر، فحملها رجلان من رجال الميليشيا، أحدهما من الأمام، والآخر من الخلف، وبدأت سماء نهاية الأصيل الكابية تجثم على مدريد المملوءة بالشر وألسنة اللهب، حيث اختلطت رائحة الانفجارات والتراب برائحة أخرى أشد من ذلك إثارة، تلك الرائحة التي عرفها لوبيز في طليطلة، والتي يعتقد أنها رائحة اللحم المحترق.

وكان مجلس صيانة الآثار الفنية الذي عين فيه لوبيز ينتظر هذا الصباح لوحين لالجريكو وثلاث لوحات صغيرة لجويا، وجدت في قصر هجره صاحبه، بيد أن هذه اللوحات لم تصل بعد، وكان لوبيز يريد أن يبعث بها قبل رحيله.

كان لوبيز قليل الكفاية في الحرب، ولكنه أثبت أنه لامع في حماية أعمال الفن، ففضله لم تمس لوحة من لوحات «الجريكو» بسوء في أثناء المهرج والمرج اللذين سادا طليطلة، كما أنه انتزع عشرات اللوحات التي رسمها أعظم أساتذة الفن من غبار اللامبالاة الذي تراكم في مخازن الأديرة.

وعلى مسافة بعيدة إلى حد ما انفجرت قبلة صغيرة أمام إحدى الكنائس، وسرعان ما عادت الحمام التي طارت منذ لحظة يدفعها الفضول إلى معاينة الفجوات الجديدة في زخرف الكنيسة، ومن النوافذ التي انفتحت

الآن على اللانهاية في منزل ظهرت احشاؤه بدا برج الستترال العالي بشعاره
المبني على طراز الباروك شاحباً في نهار نوفمبر المائل الى الزوال .

وكانت معجزة حقاً أن ناطحة السحاب الصغيرة هذه التي تشرف على
مدريد لم تذهب شذر مذر ، ولم يتخدش فيها سوى ركن واحد . . أما فيما
يتعلق بالألواح الزجاجية . . ووراء البرج تصاعد دخان قنبلة ، وقال لوبيز في
نفسه : يا إلهي ، سينتهي الأمر بسقوط واحدة منها على لوحاتي التي رسمها
الجرىكو ! . . .

وثمة حشد من اساس يدور حول نفسه في الشوارع دون جدوى مدركاً
انه يلوذ بالفرار دون أن يعرف الى أين يتجه ؟ وحشد آخر يسير أفراده في غير
مبالاة رافعين أنوفهم بدافع من الفضول أو النسوة . وسقطت قنبلة أخرى في
الأحياء المجاورة ، فركض الأطفال الذين كانوا يسرون الى جوار النسوة أو
الشيخوخ ، وقد استولى عليهم الذعر ، أما الأطفال الآخرون الذين لم يكن
يصحبهم أقارب من أي نوع فكانوا « يناقشون الطلقة » :

« يا لهم من بلهاء ، هؤلاء الفاشيين ، انهم لا يعرفون كيف يصوبون
نيرانهم ، انهم يستهدفون جنود دار الريف (كاسادل كمبرو) . ولكن انظروا
أين تقع قنابلهم ! » .

وذاًت يوم كان ثلاثة من الأطفال يلعبون لعبة الحرب في فناء دار حضانة
« ميدان التقدم » ، وقد رفعوا ذقونهم في الهواء مثل أولئك الذين يسرون
الآن أمام لوبيز ، وقال أحدهم : « قنبلة ! إنبطحوا أرضاً » ورقد الثلاثة
الذين كانوا جميعاً يمثلون دور النظاميين ، وكانت قنبلة حقيقية ، أما الأطفال
الآخرون الذين لم يكونوا يلعبون لعبة الحرب فقد ظلوا واقفين ، ومن ثم فقد
قتلوا أو جرحوا

وسقطت قنبلة على اليسار ، فركضت الكلاب في صف واحد منحرف ،
ووصل قطيع آخر في اتجاه عكسي من شارع مجاور ، وكان دوران الكلاب
المهجورة على نفسها بلا أمل يؤذن بما سيصيب الناس ، وراقبها لوبيز بعين

النحات الصديق حيوانات غير أن حيوانات أخرى كانت في انتظاره .
كان القصر الذي يتجه اليه لوبيز مزيناً في سحاء بالحيوانات المحنطة ،
شأنه في ذلك شأن جميع القصور التي استولت عليها الحكومة مثل قصر
« ألبا » . . . والمعروف أن كثيراً من الأرستقراطيين الأسبان يفضلون الصيد
على اللوحات ، وإذا كانوا يحتفظون بلوحات جويبا فإنهم يضعون الى
جوارها - عن عمد - حيوانات الصيد المحنطة ، وكانت قوائم الحصر والأسر
الكبيرة التي ولت الأدبار (لم تكن الحكومة تستولي إلا على القصور التي هرب
أصحابها) - تحتوي في أغلب الأحيان على عشرات من لوحات كبار الفنانين
(إذ لم تكن قد حملت إلى الخارج في الأسبوع السابق على الثورة) ،
كما كانت تضم أيضاً عدداً غير متوقع من أنياب الفيلة ، وقرون الخرافات ،
والدببة المحنطة ، والحيوانات الأخرى .

وعندما دخل لوبيز الى حدائق القصر حيته قبلة انفجرت على بعد مائة
متر ، وتقدم للقائه أحد رجال الميليشيا .
صاح فيه لوبيز وهو يجبط على كتفه : « ماذا حدث بأيها السلحفاة . . .
للوحات آلجريكو؟ يا إلهي ! » .

- « ماذا؟ اللوحات؟ لم تكن لدينا وسيلة لنقلها : فلقد أصبحت
ضخمة بما فيه الكفاية منذ أن حُزمت في عناية كما يُحزم البيض غير أن
سيارته قد مرت . . . » .
- « متى؟ » .

- « منذ نصف ساعة تقريباً ، ولكنه لم يشأ أن يحمل تلك الحيوانات » .
وكانت الدببة المحنطة تبدو - وقد تناثرت تحت الأشجار واتخذت أوضاعاً
« طبيعية » حول انياب الفيلة المرصوفة بعناية تحت الرواق - كانت تبدو كأنها
تتحرك ، فالقنابل تهز الأرض هزاً خفيفاً ، والدببة المهجورة التي رفعت أيديها
في الهواء لاحت كأنها تبارك مساء الحرب أو لعلها تلعنه .
قال لوبيز في رزانة : « إنها ليست هشة على كل حال » .

وكان يرفض القاء تبعة هذه المتاحف على إدارته ، على حين أن قسما اخر من مجلس صيانة الآثار الفنية هو المسؤول عن تخزينها .

- « اسمع - أيها الرفيق : اذا كانت القنابل ضارة باللوحات فلا بد انها ضارة أيضاً بأنياب الفيلة . . . ومهما يكن من أمر فما شأني أنا بهذا كله ؟ ولا شك أن السماء ستمطر مرة أخرى ! » .

وانفجرت قنبلة في مكان قريب ، فوثبت الحيوانات المحنطة كلها أو انكفأت على وجهها ، وشرع عصفور من عصافير الكناريا كان في قفص من ذهب صنعته شركة جزر الهند الغربية شرع يغني في حماس .

- « سأتصل تليفونياً لكي يبعثوا بمن يحمل ديبك تلك » .

وأشعل لوبيزسيجارة ، ثم انصرف حاملاً القفص في يده ، وكان يهزه الى الامام وإلى الخلف ، وكلما انفجرت قنبلة انطلق عصفور الكناريا في الغناء بقوة أعظم ، ثم لا يلبث أن يلتزم الصمت ، وهناك كانت إحدى العمارات تحترق من أعلاها إلى أسفلها ، كأنها في مشهد من مشاهد السينما ، وخلف وجهتها ذات الزخارف المحوطة بالأطر والتي لم تسقط بعد ، وبنوافذها المفتوحة المحطمة جميعاً - كانت السنة اللهب تملأ الطوابق كلها ولا تريد أن تخرج ، كأن النار قد سكنت فيها ، وعلى مسافة أبعد عند ناصية شارعين انتظرت سيارة ركاب ، وتوقف لوبيز ، وهو يلهث للمرة الأولى منذ خروجه . وطفق يتحرك كالمجنون ، وقد قذف بالقفص الذي يضم عصفور الكناريا كما يقذف حجراً وصاح : « انزلوا ! » ، وتوائب بعض من رآه من الأوتوبيس ، كأنهم مئات من المجانين الآخرين في مئات من الشوارع الأخرى ، وانبطح لوبيز أرضاً . ولم يلبث الأوتوبيس أن انفجر .

وعندما نهض لوبيز مرة أخرى كانت الدماء تسيل على الجدران . ووسط الموق الذين جردهم الانفجار من ثيابهم قام رجل عارٍ ، ولكنه لم يكن جريحاً ، وأخذ في الصباح ، وتلاحقت القنابل مسرعة في اتجاه المركز الرئيسي للتليفونات دائماً .

الفصل الثامن

كان شاد في «الستترال» فهذه هي الساعة التي يبعث فيها بمقاله .
وكانت القذائف تتساقط على الحي كله ، بيد أن كل من يقف في
الستترال كان يظن أنه المقصود بالذات .

وفي الخامسة والنصف أُصيب الستترال ، وكانت القذائف التي تحاصره
الآن قذيفة بعد أخرى ، ذلك انهم بعد أن تمكنوا من إصابته فقدوه ، ثم
عادوا يبحثون عنه ثانية . وأحس العمال والموظفون والسعاة والصحافيون
ورجال الميليشيا انهم في جبهة القتال ، وكانت القنابل تتلاحق على فترات
متقاربة غاية القرب مثلما تتلاحق أصداء الرعود ، وربما كانت الطائرات
مشتركة في هذه المعمة من جديد ، وهبط المساء وانخفضت السحب . بيد
أن أزيزاً للمحركات لم يكن مسموعاً وسط هذا الضجيج كله .

وأقبل رجل من الميليشيا باحثاً عن شاد ، فقد دعا القائد جارسيا
الصحافيين للاجتماع به في احد مكاتب الستترال ، وكان المراسلون المهمون
حاضرين جميعاً ينتظرون ، وتساءل شاد : « ولماذا الآن ؟ » . وكان من
عادات جارسيا حين يريد التعامل مع الصحافيين أن يجمعهم في أشد الأماكن
تعرضاً للخطر .

وفي مكتب من مكاتب ادارة الستترال القديمة - كل ما فيه من الجلد
والخشب والنيكل - كان جارسيا يجمع كل يوم نسخاً من المقالات المرسله من

مدريد موضوعة في ملفين كتب على أحدهما : « سياسة » وعلى الآخر : « وقائع » ، وفي اثناء انتظاره للمراسلين ، أخذ يقلب صفحات الملف الأخير ، وقد أضجره انتماؤه الى بني الانسان ، وكانت المقالات جميعاً حافلة بألوان العنف .

وقرأ مقالاً مرسلأ الى صحيفة « باري سوار » جاء فيه :

« قبل ذهابي الى الستترال شاهدت منظرأ يتسم بجمال وحشي : فقد وجد الناس هذه الليلة على مقربة من بوابة الشمس طفلاً باكياً في الثالثة من عمره ، ضالاً وسط الظلمات ، وكانت إحدى النسوة اللاجئات الى مخبأ في « الشارع الكبير » ، تجهل ما حل بابنها ، وكان هو أيضاً في الثالثة من عمره ، أشقر الشعر كالطفل الذي عثر عليه الناس عند بوابة الشمس ، وحملوا اليها النبأ ، فهرعت الى المنزل الذي احتفظوا فيه بالطفل في « كالي مونتيرا » Calle Montera . وكان الطفل جالساً في حانوت نصف معتم أسدلت ستائره - يمص قطعة من الشوكولاتة ، وتقدمت الأم نحوه ، وقد مدت ذراعها ، غير أن عينيها اتسعتا في ثبات رهيب كعيون المجانين . . . لم يكن الطفل طفلاً .

« وتسمرت في مكانها لحظات طوالاً ، على حين أخذ الطفل الضال بيتسم لها ، فلم يسعها إلا أن تهرول نحوه ، وتحضنه ، وتحمله وهي تفكر في الطفل الذي لم يجده أحد » .

وقال جارسيا في نفسه : « لن يجيزوا ذلك » .

وكان المساء الضارب الى الحمرة يملأ النوافذ التي تحطمت ألواحها الزجاجية . . وواصل قراءته :

إلى رويتر : « كانت هناك امرأة تحمل طفلة صغيرة لا تكاد تصل الى الثانية من عمرها ، وقد فقدت فكها الأسفل ، ولكنها كانت لا تزال على قيد الحياة ، وكانت عيناها مفتوحتين كأنما تتساءل في دهشة عن فعل بها ذلك ،

واجتازت امرأة أخرى الطريق ، وكان الطفل الذي تحمله بين ذراعيها بلا رأس ... !»

وكان جارسيا يعرف الحركة الرهيبة التي تحمي بها الأم ما تبقى من وليدها ، لأنه شاهدها بعيني رأسه ، وما أكثر هذه الحركات اليوم !

وقد انفجرت ثلاث قنابل انفجاراً مكتوماً على مسافة بعيدة ، وكأنها دقات المسرح الثلاث ، وانفتح الباب ، ودخل المراسلون ، وعلى مائدة منخفضة كانت الزهور الصناعية التي في اناء دون أن تتحطم بعد أن تنتفض عند كل انفجار . ولما كانت الألواح الزجاجية قد تهشمت ، فإن رائحة المدينة المحترقة كانت تدخل مع الدخان من النافذتين .

قال جارسيا : « عندما يخلو خط تليفوني فإن من يطلبه سيستدعى الى هنا فوراً ، وأنتم لا تجهلون انني لا أدعوكم الى الاجتماع إلا لكي أعرض عليكم بعض الوثائق ، وقبل أن أطلعكم على الوثيقة التي جمعتم من أجلها اسمحو لي أن استرعي نظركم الى هذه الواقعة : منذ أن بدأت الحرب ، حطمنا - وفقاً للبلاغات الرسمية - طائرات الأعداء في تسعة مطارات ، ومن الأيسر الاغارة على اشبيلية من الاغارة على مطار أشبيلية ، فاذا حدث أن أخطأت بعض قنابلنا الهدف العسكري ، وأصابت بعض المدنيين فإننا على الأقل لم نضرب بقنابلنا قط أية مدينة اسبانية بطريقة منهجية .

« واليكم الآن الوثيقة ، وسأقرأها عليكم ، وعلى كل منكم أن يفحص الأصل بنفسه ، هذا الأصل الذي ستخذ اجراءاتنا بعرضه في لندن وباريس ، بكل تأكيد . والوثيقة ببساطة عبارة عن منشور دوري قصير موجه الى الضباط العظام من المتمردين ، وهذه النسخة وجدت في ٢٨ يوليو بحوزة الضابط مانويل كاراتش الذي أسر في جبهة « وادي الحجارة » وشرع جارسيا في قراءة الوثيقة :

« شرط من الشروط الجوهرية للنصر هو تحطيم معنويات قوات

الأعداء ، والعدو لا يتوافر له العدد الكافي من الجنود أو العدد الكافي من الأسلحة لمقاومتنا ، ومع ذلك فمن الضروري اتباع التعليمات الآتية بدقة :

« لاحتلال مؤخرة مدينة - لا بد من بث رعب في قلوب السكان يدفعهم الى التسليم .

« ومن ثم لا بد من اتباع هذه القاعدة ، وهي أن تكون الوسائل المستخدمة جميعاً مهولة ومؤثرة .

« ولا بد من اعتبار كل موقع على خط انسحاب العدو وكل موقع وراء جبهة العدو - بصفة عامة - منطقة هجوم . وسواء أكانت هذه المواقع تضم قوات للعدو أم لا تضم ، فهذا يؤثر في المسألة . والدعر الذي يسود بين السكان المدنيين الذين عند صفوف العدو المنسحبة يسهم إسهاماً عظيماً في الحط من الروح المعنوية للجنود .

« وتثبت التجارب التي أجريت خلال الحرب العالمية الكبرى أن الخسائر غير المقصودة في الاسعاف ونقل الجرحى الأعداء تؤثر تأثيراً بالغاً في تحطيم معنويات الجنود .

« وعلى رؤساء الوحدات - عقب دخول مدريد - أن ينصبوا على أسطح العمارات ، التي تشرف على المناطق المشتبه فيها وعلى المباني العامة وأبراج الكنائس - أوكاراً للمدافع الرشاشة حتى يتسنى لهم السيطرة على الشوارع المجاورة جميعاً .

« وفي حالة ابداء أية مقاومة من جانب السكان ينبغي اطلاق النار على المعارضين دون تردد ، وبالنظر الى العدد الضخم من النساء اللواتي يحاربن الى جانب العدو لا معنى لوضع جنس هاتيك المحاربات موضع الاعتبار ، وكلما كان موقفنا صارماً كان سحق كل مقاومة يبدتها السكان سريعاً ، وكان نصرنا لاصلاح اسبانيا وشيكاً » .

وقال جارسيا : « وأضيف الى ذلك أن هذه التعليمات منطقية من وجهة النظر الفاشية » . ورأى الشخصي هو أن الارهاب جزء من الوسائل المستخدمة استخداماً منهجياً فنياً بوساطة الثوار منذ اليوم الأول ، وأنتم تشاهدون الآن الدراما التي تعد بظليوس - نسخة مكررة منها . - ولكن فلندع جانباً الآراء الشخصية » .

ثم أضاف في اثناء خروج الصحفيين :

- « وستلقون أيضاً الحديث الذي دار مع فرانكو في السادس عشر من أغسطس والذي يبدأ على النحو التالي : « لن أضرب مدريد بالقنابل أبداً ، ففيها أبرياء » .

وكانت القنابل ما زالت تتساقط ، ولكن على بعد كيلومتر واحد ، ولم يعد في « السترال » من يعبأ بها .

ودخل أحد رجال السكرتاريا ، فسأله جارسيا :

- « هل اتصل الكولونيل مانيان تليفونياً ؟ » .

- « كلا .. يا سيدي القائد ... رجال الفرقة العالمية يحاربون في خيتافي » .

- « ألم يصل الملازم اسكالي بعد ؟ » .

- « لقد اتصلوا تليفونياً من القلعة وقالوا : إنه سيأتي حوالي الساعة العاشرة ... وجئت لأخبرك بأن نيبورج هنا ... ياسيدي القائد » .

كان « نيبورج » - وهو رئيس إحدى بعثات الصليب الأحمر - قد اتى من شملنقة ، وكان جارسيا قد التقى به في مؤتمرين عقدا بجنيف ، ولم يكن القائد يجهد ان نيبورج لم يشهد سوى القليل في شملنقة ، ولكنه على الأقل قد التقى فترة طويلة بميجويل دي أونامونو .

وكان فرانكو قد أقال أعظم كاتب اسباني من منصب مدير الجامعة . ولم يكن جارسيا يجهل مدى تهديد الفاشية - من الآن فصاعداً - لهذا الرجل الذي كان من أبرز المدافعين عنها .

الفصل التاسع

قال الطبيب : « ظل راقداً ستة أسابيع في حجرة صغيرة ، وكان يقرأ ، وبعد إبعاده عن الجامعة قال : « لن أخرج من هذا المكان إلا ميتاً أو محكوماً عليّ بالاعدام ونام في سريره ، وما زال راقداً عليه ، وبعد يومين من عزله ، سلمت الجامعة الى طائفة القلب المقدس » .

ونظر « نيورج » في اثناء عبوره في المرآة الوحيدة القائمة في الحجرة - نظر الى وجهه النحيف الحليق الذي يطمح في أن يكون متألماً ، ولكنه بدا كأنه حطام شبابه الغابر . وفي مستهل المناقشة ، أخرج جارسيا من حافظته خطاباً ، وقال :

- « عندما علمت انك ستحضر الى هنا فتشت في مراسلاتنا الماضية ، فوجدت هذه الرسالة التي كتبها منذ عشر سنوات ، حينما كان في المنفى . . . وجاء في ثناياها : « لا وجود لعدالة سوى الحقيقة ، والحقيقة أكثر اقتداراً من العقل ، كما يقول سوفوكليس ، وكذلك الحياة أكثر اقتداراً من اللذة والألم ، ومن ثم كانت الحقيقة والحياة هما شعاري ، لا العقل أو اللذة . وأحرى بنا أن نحيا في الحقيقة حتى لو تألمنا - من أن نتعقل في اللذة أو من أن نسعد في العقل . . . » .

ووضع جارسيا الرسالة أمامه على المكتب اللامع الذي يعكس السماء الحمراء ، وقال الطبيب :

- « هذا هو مضمون المحاضرة التي تسببت في فصله ، إذ قال : « من الممكن ان تكون للسياسة مقتضياتها التي لن نتعرض لها هنا . . إذ ينبغي أن تكون الجامعة في خدمة الحقيقة . ولن يكون ميغيل دي أونامونو موجوداً حيث يوجد الكذب . أما فيما يتعلق بالفظائع الحمراء التي لا يكفون عن الحديث عنها الينا فاعلموا أن أخط المحاربات - حتى ولو كانت من الموسسات كما يقولون - حين تحارب بالبنديقية في يدها ، وتعرض للموت في سبيل ما اختارت المحاربة من أجله - أشرف أمام العقل من النسوة اللواتي رأيتهن يخرجن من مآدبتنا أول أمس بأذرعهن العارية ، وهن يرفلن في الثياب الغالية ، وبين الزهور لمشاهدة اعدام الماركسيين . . . »

وكان « نيورج » مشهوراً بموهبته في المحاكاة .

واستطرد قائلاً بعد أن استعاد صوته الطبيعي : « وبوصفي طبيباً دعني أخبرك يا عزيزي : ان رعبه من الموت يحمل في طياته شيئاً مرضياً ، ولم يكن من شك أن إرغامه بالذات على الاجابة عن أسئلة الجنرال مؤسس « التريثيو »^(١) قد أثار أعصابه ، وحين شرع في الدفاع عن وحدة اسبانيا الثقافية بدأت المقاطعات . . . »

- « أي مقاطعات ؟ » .

- « الموت لأونامونو . . . الموت للمثقفين ! » .

- « ومن الصائحون ؟ » .

- « شباب الجامعة الحمقى ، وهنا نهض الجنرال ميلان أستريه ، وهتف

قائلاً : « الموت للعقل . . . فليحيا الموت ! » .

- « ماذا كان يقصد بذلك في رأيك ؟ » .

(١) التريثيو فليق خاص هو جزء من التنظيم العسكري الأسباني (المترجم) .

- « انه يعني بكل تأكيد أن سحقاً لكم ، أما ما عناه بكلمة : « فليحيا الموت » . فربما كان تلميحاً الى احتجاجات أونامونو على الاعداد رمياً بالرصاص ! » .

- « لهذه الصيحة معنى عميق في أسبانيا ، فلقد أطلقها الفوضويون أيضاً ذات يوم » .

وسقطت قبيلة فوق الشارع الكبير ، وطفق نيبورج يذرع مكتب جارسيا ، مغتبطاً بشجاعته ، وقد عكست صلته السماء المشتعلة انعكاساً غامضاً ، وعلى جانبي رأسه تهدلت خصلات من شعره الأسود المجعد ، وكان الدكتور نيبورج يزهو منذ عشرين عاماً - على الرغم من شهرته كطبيب - بأن منظره أشبه بقسيس من قساوسة القرن التاسع عشر ، وقد احتفظ من هذا المنظر بشيء ما .

وواصل الطبيب حديثه قائلاً : « وهنا أجب أونامونو بعبارة الشهيرة : « إن اسبانيا بغير بسكاي وبغير قطالونيا تصبح بلداً شبيهاً بك يا سيدي الجنرال ، عوراء كتعاء ! » هذه العبارة التي لا يمكن أن تعتبر مجرد دعابة بعد أن جاءت عقب رده على « مولا » ، ذلك الرد الذي يعرفه العالم أجمع : « الانتصار ليس معناه الاقناع » « وفي المساء . ذهب الى الكازينو ، وهناك أهانه الناس ، فعاد الى حجرته ، وقال : انه لن يبرحها أبداً » .

ومع أن جارسيا كان يصغي في اهتمام فإن عينيه كانتا مثبتتين على رسالة أونامونو القديمة التي على مكتبه ، وقرأ بصوت مرتفع :

- « هل يتخلى رجال الحملة الصليبية وحملة الانتقام عن فكرتهم في تمدين قبائل الريف وهذا معناه تجريدكم من المدنية ؟ ومتى تتخلص من مفهوم « الجلاد » عن الشرف ؟ » .

« ومن هناك ، أو من اسبانيا - لا أريد أن أعرف شيئاً - كما أنني أقل رغبة في معرفة أي شيء من أولئك الذين يصيحون باسم « اسبانيا العظمى »

حتى يصم الصياح آذانهم عن سماع أي شيء ! وإنما ألوذ باسبانيا الأخرى ،
بوطني اسبانيا الصغرى . وما أود أن يكون لديّ العزم على ألا أطلعه أبداً هو
الصحف الأسبانية ، فهي شيء غيف ، وفيها لن تسمع صوت وتر ينقطع
من أوتار القلب ، كل ما تسمعه هو صرير الحبال التي تتحرك بها الدمى ،
وطواحين الهواء التي نخطيء فنحسبها عمالقة ! » .

وتصاعدت جلبة صاحبة من الشارع الكبير ، وكان وهج الحريق يرتعش
فوق الجدران ، كما ترتعش انعكاسات الجداول المشمسة في الصيف على
سقوف الحجرات .

وردد جارسيا وهو يندق بغليونه على ظفر إبهامه : « ولن تسمع فيها حتى
صوت وتر ينقطع من أوتار القلب . . . ! » .

- « أود أن أعرف ما يفكر فيه ، وأستطيع أن أتصوره الآن بسمته
النبيل ، وعينيه الدهشتين المفكرتين كعيني البومة البيضاء ، وهو يشتم ميلان
آستريه . . . ولكن ليس هذا سوى الجانب القصصي من الموضوع ، ثمة
شيء آخر » .

- « في حديثنا الخاص الذي دار بيننا بعد ذلك تكلمنا كثيراً ، أو
بالأجري ، تكلم هو كثيراً ، إذ لم أكن أفعل شيئاً سوى الأصغاء . . . انه
يمقت « آزانا » وهو يرى في الجمهورية ، والجمهورية وحدها ، السبيل الى
الاتحاد الفيدرالي لاسبانيا ، وهو يعارض الفيدرالية المطلقة ، ولكنه يعارض
أيضاً المركزية المفروضة بالقوة . . . ويرى أن هذه المركزية نفسها تتحقق الآن
في الفاشية » .

وملأت حجرة المكتب التي تحطمت ألواحها الزجاجية رائحة غريبة :
مزيج من ماء الكولونيا ومن الحريق ، فقد اشتعلت النيران في مصنع
للعطور .

- « لقد أراد أن يصفح الفاشية دون أن يظن الى أن للفاشية أيضاً
أقداماً ، يا صديقي العزيز . . . واحتفاظه بدعوته الى الوحدة الفيدرالية يفسر
كثيراً من متناقضاته . . . » .

- « انه يؤمن بانتصار فرانكو ، وحين استقبل الصحفيين قال لهم :
« اكتبوا عني : انه مهما حدث فلن أقف أبداً الى جانب المنتصر . . . » .

- « وهذا ما لم يكتبوه . . وماذا قال لك عن أبنائه ؟ » .

- « لم يقل شيئاً . . ولماذا تسألني ؟ » .

وتأمل جارسيا الماء الأحمر ، كأنه يحلم :

- « إن أولاده جميعاً هنا . . واثان منهم يجارب أحدهما الآخر . ولا أظن
أنه لا يفكر فيهما ، كما أن الفرصة لا تتاح له كثيراً للالتقاء بشخص يعرف
أبناء العسكريين . . . » .

- « خرج مرة واحدة ، عقب الحديث ، ويقال انه استدعي - رداً على ما
أدلى به عن النساء - إلى حجرة ذات نوافذ مفتوحة ، تطل على تنفيذ حكم
الاعدام . . . » .

- « سمعت هذه القصة ، ولكنني لم أصدقها تماماً ، فهل لديك معلومات
دقيقة عنها ؟ » .

- « لم ينشئ بشيء عنها ، وهذا طبيعي ، كما أنني لم أذكر له شيئاً عنها يا
عزيزي » .

« وقد اشتد قلقه كثيراً في الأيام الأخيرة نتيجة لالتجاء هذه البلاد بصفة
مستمرة الى العنف والى اللامعقول » .

وحرك جارسيا غليونه حركة غامضة ، وكأنه يريد أن يقول : انه يأخذ
مثل هذا النوع من التعريفات في شيء من التحفظ .

- « ولكنني أرى يا عزيزي جارسيا أن كل ما نقوله خارج عن الموضوع ، ذلك أن اعتراض أونامونو اعتراض أخلاقي ، ومحدثتنا عن هذا الموضوع كانت غير مباشرة ، ولكنها متصلة » .

- « من الجلي أن الاعدام رميةً بالرصاص ليس مشكلة من مشكلات المركزية » .

- « وعندما تركته في ذلك الفراش ، وقد استولت عليه المرارة والحزن ، تحوطه كتبه - احسست أنني أترك وراء ظهري القرن التاسع عشر . . . »

وأشار جارسيا بطرف غليونه - وهو يصحبه الى الخارج - الى السطور الأخيرة من الرسالة التي أمسك بها في يده .

« عندما احول عيون الروح نحو أعوامي الاثني عشر المعذبة الأخيرة ، منذ أن انتزعت نفسي من ذلك الحلم الظليل الذي كان يراودني في مكنتي الصغير بشملنقة - وكم من أحلام تراءت إلي في تلك الحجرة - يبدو لي ذلك حلماً عن حلم ! وتسالني : هل كنت أقرأ ؟ كلا ، لم أعد أقرأ كثيراً ، اللهم إلا عن البحر الذي تتوطد به صداقتي الحميمة يوماً بعد يوم . . . »

وقال جارسيا : « هذا ما كتبه منذ عشرة أعوام ! »

الفصل العاشر

استدعي شاد الى قاعة التليفونات حين اصبح الاتصال بباريس ممكناً ، وفي هذه اللحظة بالذات سقطت قنبلة على مقربة من السترال ، ثم سقطت قنبلتان أخريان أشد قرباً ، وارتمى الموجودون جميعاً على الجدار المقابل للنافذة ، وعلى الرغم من الأنوار الكهربائية فقد كان من الممكن أن يشعر المرء بالوهج الأحمر العميق المنبعث من الخارج ، وبدأ المنظر وكأن الحريق نفسه هو الذي يطلق نيرانه على السترال الذي خلت طوابقه الثلاثة عشر من أي ظل إنساني ، وأخيراً جازف صحافي عجوز له شارب بالابتعاد عن الحائط ، ولم يلبث الآخرون جميعاً أن نظروا - الواحد أثر الآخر - إلى الجدار ، وكأنهم يبحثون عن آثارهم التي تركوها عليه .

وسقطت قنابل جديدة ، لم تكن أقرب من الأولى كثيراً ، بيد أن أحداً لم يبرح المكان الذي انتقل اليه . ويقال : انه في الاجتماعات تسود فترة من الصمت كل عشرين دقيقة ، أما هنا فقد مرت فترة من اللامبالاة .

وهكذا استطاع شاد أن يبدأ في الاملاء ، وفي أثناء تتابع ملاحظاته التي دونها في الصباح - كانت انفجارات القذائف تتقارب ، وكانت أسنة أقلام الرصاص تنوذب على الدفاتر معاً عند كل انفجار ، وكلما انقطع اطلاق النار اشتد القلق ، فهل كانت المدافع تصلح هناك من تصويبها ؟ لم يسع

الجميع إلا الانتظار ، ومضى شاد في الاملاء ، ونقلت باريس ما يليه الى نيويورك .

« هذا الصباح شاهد القنابل تحاصر مستشفى يضم ما يزيد على ألف جريح ، الدماء التي تتركها الحيوانات الجريحة وراءها بعد اصطيادها تسمى آثاراً . وعلى الحائط ، كانت هناك شبكة من الآثار . . . »

وسقطت القنبلة على مسافة تقل عن عشرين متراً ، وفي هذه المرة اندفع الناس اندفاعاً شديداً نحو البدروم ، ولم يبق في القاعة التي أوشكت أن تكون خالية سوى عمال التليفونات والمراسلين الذين يتصلون بصحفهم ، وكان العمال يستمعون الى المكالمات ، بيد أن نظراتهم كانت تبدو وكأنها تترقب وصول القنابل . . . واستمر الصحفيون الذين يملون رسالاتهم في الاملاء ، فلو انقطع الاتصال ما وجدوا إتصالاً آخر يمكنهم من اللحاق بطبعة الصباح ، وكان شاد يملئ ما شاهده في القصر .

و وصلت هذا العصر بعد أن أحدث انفجار امام محل للجزارة بوضع دقائق ، وفي المكان الذي وقفت فيه النسوة صفاً كانت هناك بقع على حين أخذت دماء الجزار المقتول تسيل من مائدة عرض اللحوم ، بين العجول المبقورة والخراف المعلقة في خطاطيف الحديد ، لتسكب على الأرض حيث تجرفها المياه المنسابة من ماسورة محطمة . . .

« وينبغي أن تفهموا جيداً ان هذا كله من أجل لا شيء !

« من أجل لا شيء !

« وليس الارهاب هو الذي يهز سكان مدريد بل الرعب ، وقد قال لي رجل عجوز في اثناء سقوط القنابل : كنت أحتقر دائماً كل سياسة ، ولكن كيف اسمح باعطاء السلطة لأولئك الذين يستغلونها على هذا النحو برغم انها ليست في أيديهم بعد ؟

« ولقد وقفت ساعة كاملة في طابور أمام مخبز ، وكان في هذا الطابور حفنة من الرجال ومائة امرأة ، وكان كل منا يعتقد ان الوقوف ساعة كاملة في نفس المكان ، أخطر من المشي . وعلى بعد خمسة امتار من المخبز ، وعلى الجانب الآخر من الشارع الضيق - كانوا يرصون الجثث التي تخلفت عن منزل حطمته القنابل في التوابيت ، تماماً كما يفعلون الآن في كل منزل مزقته القنابل في مدريد ، وحين لا يعود المرء يسمع صوت المدافع أو الطائرات فإنه يسمع ضربات المطارق ترن في السكون ، والى جوارى كان ثمة رجل يقول للمرأة : « لقد طار ذراعها يا خوانينا ، فهل تعتقدين أن خطيها سيتزوجها وهي على هذه الحال ؟ » كان كل منهم يتحدث عن شؤونه ، ولم تمض لحظة حتى صاحت امرأة : « من البؤس أن نأكل مثلما نأكل ! » فأجابتها امرأة أخرى في وقار وبأسلوب إستعارته النسوة جميعاً الى حد ما من الباسيوناريا Pasionaria :

« أنت تأكلين طعاماً رديئاً ، ونحن نأكل طعاماً رديئاً ، ولكننا لم نكن قبل ذلك نأكل طعاماً حسناً ، وأطفالنا يأكلون الآن كما لم يكونوا يأكلون منذ مائتي عام ! » وأبدى الجميع الموافقة على هذا الكلام .

« وهؤلاء الذين بقرت بطونهم وطاحت رؤوسهم - قد استشهدوا عبثاً .
بيد أن كل قبيلة تجعل سكان مدريد أرسخ إيماناً .

« وتستطيع المخابىء أن تحمي خمسين ألفاً من الأشخاص ، غير أن سكان مدريد يبلغون مليوناً ، وليس في الأحياء التي تقصدها الغارات أي هدف حربي ، ومع ذلك فالغارات متصلة .

« وفي اللحظة التي اكتب فيها هذه السور تنفجر القنابل - دقيقة بعد أخرى - على الأحياء الفقيرة ، وفي هذه الساعة المعتمة من المساء يبلغ وهج الحرائق في هذه اللحظة من القوة بحيث ينحسر النهار عن ليل أشبه بلون النبيذ ، ويرفع القدر ستارة من الدخان عن التجربة الختامية لمسرحية الحرب القادمة ، ولهذا أقول لكم يا رفاقي الأميركان : « فلتسقط أوروبا !

« وعلينا أن نعرف ما نريد ، فحين يتحدث شيوعي في مؤتمر دولي يضع قبضته على المائدة ، وحين يتحدث فاشي في مؤتمر دولي فإنه يضع قدميه على المائدة ، وحين يتحدث ديمقراطي في مؤتمر دولي سواء أكان هذا الديمقراطي اميركياً أم انكليزياً أم فرنسياً - فإنه يهرش في قفاه ، ويضع أسئلة !

« وقد قدم الفاشيون يد المعونة للفاشيين ، وساعد الشيوعيون الشيوعيين ، بل انهم ساعدوا الديمقراطية الأسبانية ، بيد ان الديمقراطيات لا يساعد بعضها بعضاً .

« ونحن - الديمقراطيين - نؤمن بكل شيء ، اللهم إلا بأنفسنا ، ولوأن دولة فاشية أو شيوعية استخدمت قوة الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا متجمعة لاستولى علينا الرعب ، ولكن ما دامت القوة « قوتنا » فإننا لا نؤمن بها .

« فلنعرف ما نريد ، أو يحسن بنا أن نقول للفاشيين : اخرجوا من هنا ، وإلا فسوف نلتقي بكم ! وعلينا أن نقول هذه العبارة نفسها بعد غد للشيوعيين اذا اقتضى الأمر .

« أو علينا أن نقول مرة واحدة والى الأبد : فلتسقط أوروبا !

« وأوروبا التي أراها من هذه النافذة لم تعد قادرة على أن تعلمنا القوة التي فقدتها ، أو الايمان الذي تظهره بتزيين صدور المغاربة بالقلوب المقدسة . يا رفاقي في اميركا ، يا من تريدون السلام ، ويا من تبغضون أولئك الذين يمسخون النشرات الانتخابية بدماء الجزائريين المقتولين فوق موائدهم ، حولوا أنظاركم عن تلك الأرض ! حسنا ما أصابنا من تلك العمة أوروبا التي تلقننا دروسها برأسها الخالي من العقل ، وعواطفها الوحشية ، ووجهها الذي تبدو عليه آثار الغازات السامة ! » .

وما ان انتهى شاد من الاملاء ، حتى صعد الى الطابق الأخير الذي يعد أفضل مكان لملاحظة ما يجري في مدريد ، وهناك وجد اربعة من الصحفيين

وقد زایلهم تقريباً كل توتر :

أولاً - لأنهم الآن في الهواء الطلق ، والمعروف ان الأماكن المغلقة تزيد من حدة القلق . وثانياً - لأن مصباح السترال يبدو أقل تعرضاً للإصابة ، لأنه أصغر من البرج الموضوع فيه . وكان المساء الذي غابت عنه الشمس ، وخلا من الحياة اللهم إلا بما تضيفه النار من حياة ، كان كوكباً ميتاً قد حمل مدينة مدريد - كان المساء قد جعل من ختام ذلك اليوم عودة الى عناصر الطبيعة ، واختفى كل ما هو انساني في ضباب شهر نوفمبر الذي تمزقه القذائف ، وتصبغه بالحمرة السنة الذهب .

وحطمت شعلة متأججة سقفاً صغيراً ، تعجب شاد كيف استطاع هذا السقف الصغير أن يخفيها . وبدلاً من أن تتصاعد النيران هبطت على طول المنزل الذي أحرقته ، حتى وصلت الى الشارع ، وفي نهاية الحريق احترقت الضباب دوامات من الشرر كأنها صواريخ منسقة غاية التنسيق . وأرغم تطاير الشرر الصحافيين على الانحناء ، وعندما عاد الحريق الى الامساك بالنازل التي احترقت فعلاً اضاءها من الخلف ، فبدت حزينة كالأشباح ، ومكث فترة طويلة يتسكع وراء أنقاضها . وخيم الغسق الكئيب فوق عصر النار ، واحترقت المستشفيات الثلاثة الكبرى ، واحترق فندق سافوا ، واحترقت كنائس ومتاحف ، واحترقت دار الكتب الأهلية ، ووزارة الداخلية ، واحترقت احدى الأسواق ، وشبت النار في درجات سلالمها الخشبية ، وتداعت المنازل في وابل من الشرر ، وتوهج حيان تقطعها خطوط من الجدران العالية السوداء ، فكأنها شواية فوق الجمر . وفي تودة مميتة ، ولكن في اصرار النار الغاضبة - أخذ هذا كله يتجه عن طريق ميدان توشا ، وشارع ليون ، صوب بوابة الشمس التي كانت تحترق هي أيضاً .

وقال شاد في نفسه : « هذا هو اليوم الأول . . . » .

وكانت مجموعات القنابل تنهمر الآن ناحية اليسار ، ومن مؤخرة الشارع

الكبير الذي كان شاد يشرف عليه ويراه رؤية غير واضحة - ارتفع صوت صلوات بدائية كان يطغى أحياناً على صوت جرس الإسعاف الذي كان ينحدر من الشارع دون توقف ، وأصغى شاد بكل انتباهه الى هذا الصوت الصادر من أبعد الأزمنة المتوافق توافقاً وحشياً مع عالم النار ! وبدا كأن الشارع كله يجيب عقب جملة تتردد بانتظام - محاكياً دقات طبول جنائزية : دونج - تونجون - دونج .

وأخيراً تكهن شاد بماهية هذا الصوت أكثر من أن يفهمه ، ذلك انه سمع ذلك الايقاع نفسه منذ شهر مضى : كانت ضجة الطبل الانساني تردد Non pasaran رداً على جملة لم يكن يسمعها . وكان شاد قد رأى الباسيوناريا Pasionaria الأرملة الداكنة الصارمة لكل شهداء الأشتوريش - على رأس موكب حزين ضار ، تحت رايات حمر تحمل جملتها الشهيرة : « من الأفضل أن أكون أرملة بطل ، من أن أكون زوجة جبان ! » ، موكب يتألف من عشرين ألف امرأة يرددن تلك العبارة Non pasaran رداً على جملة أخرى طويلة غير واضحة ، وكان حين ذاك أقل تأثراً منه الآن بذلك الحشد الأقل عدداً ، والذي لا يراه ، وإن تصاعدت اليه شجاعته البائسة من خلال دخان الحرائق .

الفصل الحادي عشر

خرج مانويل من دار العمدية ممسكاً في يده بغصن الصنوبر ، هناك حيث انعقد المجلس العسكري المنتخب للحكم بالاعدام على القتلة والفارين من الجندية ، وكان الفوضويون الحقيقيون هم أشد الناس صلابة ضد الفارين ، اذ كانوا يؤمنون بأن البروليتاريا كلها مسؤولة ، وحتى ولو كان الجواسيس الفلانج هم الذين تمكنوا من خداع أولئك الفارين ، فإن ذلك لا يعفيهم من العقاب ، ومرت سيارة وثُتت الأمطار مثلث مصابيحها المزدوج .

قال مانويل في نفسه : « إنهم يستطيعون الآن ضرب مدريد بالقنابل على مهل » . ولم يكن المرء يستطيع أن يتبين شيئاً .

وفي اللحظة التي عبر فيها أمام الباب الصغير الذي لم يلاحظه إلا بفضل الضوء المنبعث من الدهليز انقضت عليه أيديها ، وأمسكته من ساقه ، وفي الضوء المغمم بماء المطر اشعل جارتتر ومن يتبعه بطارياتهم الكهربائية ، فظهر جنديان من جنود الفرقة ، وقد ركما على الوحل الكثيف محتضنين ساقه ، غير أنه لم يتبين وجهيهما .

وصاح أحدهما : « لا يمكن أن نعدمونا رمية بالرصاص ، فنحن متطوعان ! وينبغي أن تقول لهم ذلك ! »

وصمت المدفع ، ولم يكن الرجلان يصيحان بوجه مرفوع ، بل بوجه مطرق نحو الوحل ، وكان حفيف المطر يغلف صيحاتهما . ولم يقل مانويل

شيئاً .

وصاح الرجل الآخر بدوره : « لن يستطيعوا ! لن يستطيعوا ! يا سيدي الكولونيل ! »

وكان الصوت لشاب غض الاهاب ، وما زال مانويل غير مستطيع أن يتبين وجهيهما ، وحول كل قبعة من قبعتيهما اللتين ضغطتا على فخذه ، وفي ضوء البطاريات المعتم أخذت قطرات صغيرة كأنما تصعد من الأرض تتراقص وسط خطوط المطر المتلاصقة . وعندما لم يجب مانويل طيلة الوقت تراجع أحد الرجلين بوجهه فجأة لينظر اليه . كان جاثياً على ركبتيه وقد دفع بجذعه الى الوراء ليرى من فوقه ، وتدلت ذراعه الى الوراء ، فبدا كأنه الضحية دائماً ، وكان قد حك وجهه بشدة في حذاء مانويل الملطخ بالوحل ، فاكتسى جبينه ووجنتاه بطبقة منه حول حدقتيه اللتين ظلتا بيضاوين بياض الجثث .

وهم مانويل بأن يقول : « أنا لست المجلس العسكري » . ولكنه خجل من هذا التنصل ، لم يجد ما يقوله ، فأحس أنه لن يستطيع التخلص من المحكوم عليه الثاني إلا إذا دفعه بقدمه ، وبدت له هذه الفكرة غريبة ، فوقف بلا حراك أمام النظرة المجنونة التي ارتسمت على وجه الرجل الآخر الذي كان يلهث الآن ، وعلى وجهه سالت قنوات من المطر المنهمر ، وكأنه يبكي بكل وجهه .

وتذكر مانويل رجال أرانخويت ورجال الفرقة الخامسة في نفس هذا المطر في نهاية الصباح ، وراء جدرانهم الصغيرة ولم يكن قد اتخذ قراره بدعوة المجلس العسكري الى الاجتماع دون ترو ، ومع ذلك كان الآن في حيرة من أمره ، يتنازع النفاق والغرابة . وإعدام الناس سيء بما فيه من الكفاية دون حاجة الى اضافة المواعظ الأخلاقية .

وصاح الرجل الذي ينظر اليه مرة أخرى : « ينبغي أن تقول لهم !
ينبغي أن تقول لهم ! » .

وقال مانويل في نفسه : « ماذا أقول ؟ » إن دفاع هذين الرجلين يقوم على شيء لا يستطيع التعبير عنه انسان ، شيء يرتسم في هذا الوجه الذي ينسكب منه الماء ، وفي هذا الثغر الفاجر شيء جعل مانويل يفهم أنه ازاء الوجه الأبدي للضحية . ولم يكن قد شعر قط بمثل هذا الشعور الحاد بضرورة الاختيار بين الانتصار والشفقة . وانحنى محاولاً إبعاد ذلك الذي تشبث بساقه ، فالتصق بها الرجل في ضراوة ، دون أن يرفع رأسه وكأنه لا يعرف من العالم كله إلا هذه الساق ، التي تحول بينه وبين الموت . وأوشك مانويل أن يسقط ، فضغط بقوة على منكبى الرجل ، شاعراً بأنه في حاجة الى عدد كبير من الرجال لتخليصه منه . وفجأة ترك الرجل ذراعيه تتدليان ، ونظر الى مانويل هو أيضاً من أسفل الى اعلى . كان شاباً ولكن أقل شباباً مما تصوره مانويل ، وكان قد اجتاز الآن مرحلة التسليم ، وكأنه فهم كل شيء لا في هذه المرة فحسب ، بل الى الأبد ، وقال بالمرارة اللامبالية التي يتصف بها أولئك الذين يتحدثون من عالم آخر انتقلوا اليه فعلاً .

- « والآن ، لم يعد لك صوت تدلي به من أجلنا ؟ »

وظن مانويل الى انه لم يتفوه حتى الآن بكلمة واحدة .

وتقدم بضع خطوات تاركاً الرجلين وراءه .

وطغت رائحة المطر العميقة العالقة بالأوراق والغصون فوق الصوف والجلد اللذين تتألف منها الحلل العسكرية ، ولم يتلفت مانويل خلفه ، ولكنه أحس وراء ظهره بالرجلين الراكعين بلا حراك في الوحل ، يتابعانه برأسيهما .

الفصل الثاني عشر

فجأة حدث توهج أحال نور الكهرباء - للحظة واحدة - الى شيء أشبه بنور الفجر ، وكان لا بد أن يكون هذا الوهج صادراً من شعلة عالية جداً ، ما دام جارسيا واسكالي قد أحسا به على الرغم من وجود المصابيح الكهربائية المضاءة . . . وسعى الإثنان صوب احدى النوافذ . . . وكان الجو بارداً الآن ، وثمة غمامة خفيفة تتصاعد ، وتمزج الضباب بدخان الحرائق التي شبت في مشات المنازل ، ولم تنطلق أية آلة تنبيه ، وإنما كان هناك صوت عربات المطافئ والاسعاف فحسب .

قال اسكالي : « هذه هي الساعة التي تختار فيها الفالكيري بين الأموات » .

- « يبدو وكان مدريد تريد أن تقول لا ونامونو بلسان هذه النيران : ما نفع فكرك لي ؟ إذا كنت لا تستطيع أن تفكر في ماساتي ؟ فلننزل ولنذهب إلى المكتب الآخر ! » .

- « وكان جارسيا يروي لاسكالي المحادثة التي دارت بينه وبين الدكتور نيبورج . والواقع أن اسكالي هو الشخص الوحيد من بين جميع الذين يراهم ليلاً أو نهاراً - الذي يستطيع أن يشعر بمثل شعوره نحو تلك القصة كلها .

قال اسكالي : « حين يهاجم الثورة شخص مثقف كان في يوم من الأيام ثورياً فمعنى ذلك دائماً انه ينقد سياسة الثورة على أساس مذهبه الأخلاقي ، إذ اصح هذا التعبير ، ولكن ألسنت تمنى حقاً - يا قائدي - ألا يتم هذا النقد ؟ » .

- وكيف يمكن أن أتمناه ؟ !

« يعتقد المثقفون دائماً ان الحزب معناه جماعة من الناس يلتفون حول فكرة ، والواقع ان الحزب أشبه بشخصية فاعلة منه بفكرة مجردة ! والحزب من الوجهة النفسية عبارة عن تنظيم لمجموعة من المشاعر التي قد تكون متناقضة من أجل عمل مشترك ، وهذه المشاعر تضم الشعور بالفقر والمذلة والرؤيا والأمل ، وحين يتعلق الأمر بالشيوعيين فإنها تضم حب العمل ، والتنظيم ، والانتاج ، الخ . . . واستنتاج نفسية شخص ما من برنامج حزبه لا يختلف - يا عزيزي - عن ادعائي باستنتاج شخصية أهالي بيرو من أساطيرهم الدينية » .

وتناول قبعته ومسدسه ، وأدار زر الكهرباء ، فانطفأ النور ، واقتحم الحجرة فجأة وهج النيران الذي لم يكن واضحاً في الخارج ، في اثناء وجود النور الكهربائي ، وامتلات حلوقهم بطعم الخشب المحترق ، واندفع الدخان الى حجرة المكتب في تودة لا تقهر ، تتسم بها الحرائق التي أخذت تزحف صوب بوابة الشمس . وبدت السماء التي اتخذت لون عكارة النيذ كأنما تضغط على الحجرة المطفأة . وفوق مبنى السترال ، والشارع الكبير تجمعت السحب الحمراء الداكنة والسوداء . . . كثيفة حتى ليكاد المرء يغرف منها بيده ! وعلى الرغم من أن الدخان لم يزدد كثافة عما كان عليه من قبل وإنما أصبح مرثياً فحسب - فإن اسكالي طفق يسعل ويعطس ، ولم يلبث أن عاد الى النافذة . . . كانت أرضية الشوارق تحترق . . . كلا . . . بل أن الأسفلت اللامع المصطفيح بالحمرية يعكس السنة اللهب القصيرة ، وشرع قطع من الكلاب الضالة في النباح نباحاً ساخراً عدوانياً لا معنى له وكأنه قد ساد تلك الوحشة التي تؤذن بنهاية عالم البشر !

وكان المصعد ما زال صالحاً للاستعمال .

وسار الاثنان في الشوارع السوداء تحت السماء الضارية حتى وصلا الى (البرادو) . وهناك ، في الظلمة الدامسة كانت الأصوات المنبعثة من نافذة

الستيرال ما زالت تحيط بهما : ان مدريد تضمد جراحها ، فاتجها صوب
ضجة أخرى اشبه بصوت آلاف الدقات القصيرة على الاسفلت .

قال اسكالي : « من حسن الحظ أن أونامونو لم يلتق بموته بعد ، فقد هيا
له القدر هنا الجنازة التي كان يحلم بها طيلة حياته . . » .

وكان جارسيا يفكر في حجرة شلمنقة ، فقال :

« ولعله كان يجد ها هنا مأساة أخرى ، ولكنني لست على يقين من أنه
كان سيدركها . ان المثقف الكبير هو رجل الفروق الدقيقة ، والظلال
المتقاربة ، والكيف ، والحقيقة في ذاتها ، وما في الأشياء من تعقيد ، فهو
في جوهره ، وعلى حسب تعريفه ضد المذهب المانوي antimanichéen بيد أن
كل وسائل الفعل مانوية ، لأن كل فعل مانوي ، وهذا العنصر المانوي يكون
حاداً فيما يمس الجماهير ، بل حتى حين لا يمسه ، وكل ثوري حقيقي مانوي
بالسليقة . . بل كل سياسة . . . » .

وأحس أن شيئاً يضغط عليه من كل جانب حتى أعلى فحذبه . من
المستحيل أن يكون هناك هذا العدد الكبير من الجرحى . وحاول أن يتبين
الأمر بيديه . هل هو قطع من الكلاب ؟ ولكن يا لها من رائحة ريفية يختلط
بها الغبار !

وازداد عليه الضغط شيئاً فشيئاً ، حتى تعذر عليه المضي في طريقه .
وكان صوت الحوافر على الاسفلت أصلب وأشد اسراعاً من الصوت الذي
يمكن أن تحدثه مخالب الكلاب .

وصاح اسكالي ، وكان قد ابتعد عن جارسيا بحوالي خمسة امتار :

- « ما هذا ؟ قطع من الأغنام ؟ » .

وعلى بعد امتار أجابه ثغاء الخراف ، واستطاع جارسيا أن يصل الى زر
بطاريته ، بعد أن كاد يخنق من حرارة الجو ، والقت الحزمة المضيئة نوراً
تموجاً على سحابة تكاد تكون أكثف من سحابة الدخان ، وكانت خرافاً

حقاً . ولم تكن البطارية تضيء مسافة بعيدة تكفي لكي يتبين نهاية القطيع الذي يحاصرهما . بيد أن أصوات الثغاء كانت تتجاوب على مسافة مئات من الأمتار . . ولا ظل هناك لأي راعٍ .

وصاح جارسياً محذراً اسكالي : « انحرف الى اليمين ! » .

كانت القطعان التي طردتها المعركة تعود ، مخترقة مدريد ، هابطة صوب بلنسية ، ولم يكن من شك في أن الرعاة الذين يسيرون الآن في جماعات مسلحة - وراء ماشيتهم أو في الشوارع الموازية للطريق الرئيسي ، غير أن القطعان غير المرئية التي أصبحت الآن سيدة « البرادو » ، كما ستصبح عند نهاية تاريخ البشرية - كانت تتقدم بسرعة بين الحرائق المشتعلة ، يقطع سكونها الكثيف من حين الى آخر ثغاء نحيل .

قال جارسياً : « فلنبحث عن سيارتي الصغيرة ، فهذا أقرب الى العقل » .

وصعد الى منتصف المدينة .

- « ماذا كنت تقول يا جارسياً ؟ » .

- « ترو في هذا القول يا اسكالي : في كل البلاد ، وفي كل الأحزاب - يعشق المثقفون الخلاف : أدلر ضد فرويد ، سوريل ضد ماركس . كل ما في الأمر أن المنشقين في السياسة يعدون خارجين على القانون ، والأنتلجنسيا يعطفون عطفاً شديداً على المطرودين من باب الكرم أو الألمعية ، وينسون ان الصواب في نظر الحزب ليس معناه أن يكون للمرء عقل حكيم ، بل هو أن يكسب شيئاً » .

- « إن أولئك الذين يستطيعون نقد السياسة الثورية من الوجهة الانسانية والفنية يجهلون نسج الثورة - اذا صح هذا التعبير . أما هؤلاء الذين عانوا تجربة الثورة ، فإنهم لا يملكون موهبة أونامونو ، أو حتى وسائل

التعبير عنها في أغلب الأحيان » .

- « اذا كان في روسيا عدد كبير من صور ستالين - كما يقولون - فليس ذلك لأن ستالين القابع في ركن من الكرملين قد قرر أن يكون الأمر على هذا النحو . . . وما عليك إلا أن تنظر الى هوس الشعارات ، هنا في مدريد نفسها ، ويعلم الله هل الحكومة تهتم بهذا الأمر؟ والطريف هو ان نفسر لماذا نجد الصور هناك . كل ما في الأمر ، لكي يتحدث المرء الى العاشق عن الحب لا بد أن يكون المرء عاشقاً هو نفسه ، ولا يكفي أن يكون قد قام يبحث عن الحب ، وقوة الفكر لا تكمن - يا عزيزي - في موافقته أو في احتجاجه ، وإنما تكمن في تفسيره ، فليشرح لنا المثقف أولاً : لماذا كانت الأشياء على هذا النحو وكيف؟ وليحتج بعد ذلك اذا اعتقد ان احتجاجه ضروري (ولن يجد في الواقع داعياً لهذا العناء) .

« التحليل قوة عظيمة يا اسكالي ، وأنا لا اعتقد في اخلاقيات لا تستند الى علم النفس » .

ولم تصل الى اسماعها اية جلبة صادرة عن الحريق ، وتحت تلك البقع الهائلة ، ذات اللون الأحمر القاني والداكن الشبيه بلون الحديد المحمي بعد ابتراده ، تقطعها سحب ثقيلة من الدخان ، والأشعة الممزقة التي تغطي صفحة السماء كأن مدريد كلها قد اشتعلت ناراً - كان الصمت تسكنه أحياناً ضجة مكتومة مسرقة تحت تلك السماء الكثيبة : إنها صوت آلاف الخوافر التي مضت في الصعود من « البرادو » .

قال اسكالي : « ومع ذلك فلا بد قبل مضي وقت طويل من تعليم الناس مرة أخرى أن يعيشوا » . . .

وكان يفكر في « ألفير » . . .

« ان يكون المرء إنساناً - في نظري - ليس معناه أن يكون شيعياً

صالحاً ، وأن يكون المرء إنساناً - في نظر المسيحي - هو أن يكون مسيحياً صالحاً . . . وأنا لا أتق في مثل هذا المقياس » .

- « المسألة أبعد عن أن تكون تافهة يا صديقي ، لأنها مسألة المدنية . فلقد ظل الرجل الحكيم - ولتسمح لي بأن أستعمل كلمة حكيم - ظل فترة كافية هو النمط الأعلى في أوروبا ، سواء أكان ذلك صراحة أم ضمناً ، وكان المفكرون هم سدنة عالم يؤلف فيه الساسة طبقة النبلاء ، النظيفة أو القذرة على حد سواء ، ولم تكن مكانة السدنة موضع جدال ، وكانوا هم لا الآخرون (ميجويل ، لا الفونس الثالث عشر ، بل ميجويل ، لا الأسقف) - مسؤولين عن تعليم الناس كيف يعيشون ؟ . وها هم أولاء الزعراء السياسيون الجدد يطالبون بحكومة الروح : ميجويل ضد فرانكو ، وكان بالأمس ضدنا ، توماس مان ضد هتلر ، وجيد ضد ستالين ، وفيريرو ضد موسوليني ، انه صراع على مقاليد السلطة » .

وانحرف الشارع ، ومن فوق فندق « سافوا » غير المرئي ، انعكس فوقهم وهج هائل .

قال اسكالي رافعاً سبابته في الظلام : « أو الأحرى بورجيزي أكثر من فيريرو . ويبدو لي ان هذا كله يدور - اذا شئت - حول الفكرة الشهيرة اللامعقولة ، فكرة الكل الشامل ، هذه الفكرة التي تحيل المثقفين الى مجانين ، و« المدنية الشمولية » في القرن العشرين كلمة خالية من المعنى ، وهذا مثل ما نقول : إن الجيش مدنية شمولية ، والحقيقة ان الشخص الوحيد الذي « يبحث » عن كل شامل حقيقي هو المثقف بالذات » .

- « وربما كان هو وحده الذي يحتاج اليها ، يا صديقي العزيز . ولقد كانت نهاية القرن التاسع عشر سلبية كلها ، ويبدو أن أوروبا الجديدة تقوم على الفعل ، وهذا يستتبع بعض الاختلافات » .

- « ومن وجهة النظر هذه ، يكون الزعيم السياسي في رأي المثقف

دجالاً بالضرورة ، ما دام يزعم انه يحل مشكلات الحياة دون أن يضعها » .
كانا يسيران الآن في ظل منزل ، والبقعة الصغيرة الحمراء التي هي
غليون جارسيا المشتعل ترسم خطأ منحنيًا ، وكأنه يريد أن يقول : ان هذا
يفضي بنا بعيداً عن الموضوع ، وقد أحس اسكالي منذ أن وصل ان جارسيا
يعاني قلقاً غير مألوف عند القائد الصلب ذي الأذنين المديبتين .
- « أخبرني اذن - يا سيدي القائد - ما أفضل ما يستطيع ان يفعله المرء
بحياته ، في نظرك ؟ » .

واقترب جرس الاسعاف بأقصى سرعة كأنه صفارة الأنداز ، ثم عبر
عليهما ، وتلاشى ، واستغرق جارسيا في التفكير :
- « أن أحيل الى الوعي أوسع تجربة ممكنة ، يا صديقي » .

وكان يمر في هذه اللحظة ، أمام دار للسنيما تحتل ناصية شارعين ، وكان
طوريبداً إحدى الطائرات قد شقها نصفين ، وأسقط من أعلى الى اسفل الجدار
القائم ناحية الشارع الأضيق ، وكانت فرقة من فرق الانقاذ تفتش في
الأنقاض بالبطاريات الكهربائية بحثاً عن شيء ما ربما كان الضحايا ، وكان
جرس السنيما الذي يدعو النظارة الى اتخاذ امكانهم يرن في ذلك المساء
الشتوي وكأنه يدعو الناس الى تأمل هذا البحث عن الموق بنفس الرنين الذي
كان يدعوهم به من قبل الى عالم الاحلام ، وراء واجهة تكاد تكون سليمة لم
تمس .

وكان جارسيا يفكر في أرنانديث ، وفي مواجهة حريق مدريد الهائل
أحس في قلق - وكأنه شاهد جماعة من المجانين - بمدى تشابه مآسي الناس ،
وبأنها تدور في حلقة جهنمية ضيقة .

- « الثورة مسؤولة عن حل مشاكلها ، لا عن مشاكلنا . . أما مشاكلنا
فيتوقف حلها علينا ، ولو أن عدداً أقل من الكتاب الروس قدهرب وراء
جيوش المهاجرين ، لما كانت العلاقة بين الكتاب والمسؤولين السوفييت هي

نفسها ، وقد عاش ميجويل حياته بأفضل ما يستطيع ، هذا شيء مفهوم ، وعلى أنبل صورة ممكنة في اسبانيا الملكية التي يمتتها ، وعاش بأفضل ما يستطيع في مجتمع أقل سوءاً . . . وربما وجد صعوبة في ذلك . والواقع ان أية دولة أو أي بناء اجتماعي لا يخلق النبل الذي يميز الشخصية ، أو أية صفة روحية ، كل ما يمكن أن نقدر عليه هو أن نتنظر الظروف الملائمة . . . وهذا كثير . . . » .

- « أنت تعلم جيداً انهم يزعمون . . . » .

- « إن مايزعمه حزب في هذا المجال لا يثبت إلا ذكاء القائمين على الدعاية فيه أو غباءهم ، وما يهمني هو ما يفعله هذا الحزب ، وماذا تصنع أنت هنا ؟ »

وتوقف اسكالي متعجباً من انه لا يستطيع أن يحدد الاجابة ، فرفع انفه مثلما اعتاد أن يفعل دائماً حين يستغرق في التفكير .

- « أما فيما يتعلق بي فلست أرتدي هذه الحلة الرسمية لأنني أنتظر أن تخرج من الجبهة الشعبية أنبل الحكومات ، وإنما أرتديها لأنني أريد أن تتغير ظروف الحياة التي يحياها الفلاحون الأسبان » .

وتذكر اسكالي مناقشة الفير ، واستطرد قائلاً :

- « ولكن ما العمل اذا كنت حين تحررهم اقتصادياً تفرض عليهم دولة تستعبدهم سياسياً ؟ » .

- « في هذه الحالة ما دام الانسان لا يمكن ان يكون على يقين من نقاء مثله العليا في المستقبل - فأولى به أن يترك للفاشيين مقاليد الأمور !

« وفي اللحظة التي نتفق فيها على النقطة الحاسمة ، وهي أن نقاوم الواقع ، فإن هذه المقاومة تصبح فعلاً ، تلتزمه ككل فعل وكل اختيار ، وهذه المقاومة تنطوي في ذاتها على كل حتمياتها ، وفي بعض الحالات يكون

هذا الاختبار مأساوياً ، ويكاد يكون كذلك دائماً بالنسبة للمثقف ، وللفنان بوجه خاص . وماذا بعد ؟ ألا ينبغي أن نقاوم ؟

« والثورة بالنسبة للرجل المفكر - مأساوية ، بيد أن الحياة نفسها بالنسبة لمثل هذا الرجل مأساوية أيضاً ، وإذا كان يعتمد على الثورة للقضاء على المأساة فهو مخطيء ، هذا كل ما في الأمر ، وقد استمعت الى رجل لعلك تعرفه هو الكابتن ارنانديث - يضع أسئلتك كلها تقريباً ، وفي سبيل هذه الأسئلة لقي مصرعه . لا وجود لخمسين طريقة للقتال ، وإنما توجد طريقة واحدة ، هي القتال من أجل الانتصار ، ولا يشترك الانسان في ثورة ، أو يخوض حرباً لمجرد إرضاء ذاته ! .

« ولست أدري الكاتب الذي قال : « إن نفسي مزدحمة بالبحث كالجبانة القديمة » ، ونحن جميعاً مزدحمون بالبحث منذ أربعة أشهر ، أي اسكالي ، كلنا ، على طول الطريق الذي يمتد من الأخلاق الى السياسة ، وهناك بين كل رجل يفعل وظروف فعله يقوم ضرب من الملائكة ، أي الفعل الذي ينبغي عليه أن يقوم به لكي ينتصر ، لا الفعل الذي ينبغي أن يقوم به لكي يفقد ما نريد انقاذه . . . هذه مشكلة من مشاكل الواقع والموهبة ان صح هذا التعبير ، وليست موضوعاً للجدل » .

وردد عبارة « ملاكمة » وكأنه يوجهها لجليونه .

وتذكر اسكالي الصراع الذي قام بين طائرة مارسيلينو والنار التي امسكت

بها .

واستأنف جارسيا حديثه قائلاً : « هناك حروب عادلة مثل الحرب التي نخوضها الآن ، ولكن لا وجود لجيوش عادلة . وإذا جاء شخص مثقف ، شخص وظيفته التفكير مثل ميغيل وقال : « إنني أترككم لأنكم لستم عادلين » - فإنني أرى ان هذا عمل لأخلاقي يا صديقي العزيز ! فثمة سياسة للعدالة ولكن ، لا وجود لحزب عادل . . . » .

- « هذا هو الباب المفتوح لكل ضروب التكتلات . . . » .

- « كل الأبواب مفتوحة لمن يريدون فتحها ، والصفة التي تتسم بها الحياة كالصفة التي يتسم بها العقل ، والضمان الوحيد لكي تتبع حكومة شعبية سياسة مستتيرة ليس هو نظرياتنا ، وإنما وجودنا هنا في هذه اللحظة ، وأخلاق حكومتنا تتوقف على مجهودنا ، وعلى اصرارنا ، ولن يكون العقل في اسبانيا ضرورة غامضة تلزم عن شيء لا ندرسه ، بل سيكون ما نصنع منه » .

وشب حريق جديد على مقربة منها .

وقال جارسيا متهكماً : « يا صديقي العزيز ، إن تحرير البروليتاريا سيكون على أيدي العمال أنفسهم » .

الفصل الثالث عشر

وقف رجال المطاىء فوق سلالهم بلا حراك ، بين المياه المندفعة من خراطيمهم ، وفندق سافوا المشتعل ، كالرماة حين يصوبون على أهدافهم ، وفجأة انتفضوا ، واهتزت خراطيمهم كما تغمز شصوص الصيادين . وتوقف الحريق لحظة ، عقب ضجة أشبه بما يحدثه انفجار لغم : فقد انفجر طوربيد جوي في المؤخرة .

وقال مرسيري في نفسه : « انهم يشعلون النيران بأسرع مما نخمدها » .

وكان يعتقد انه يستطيع أن يكون نافعاً لأسبانيا بوصفه مستشاراً ، أو ربما بوصفه خبيراً في التحركات العسكرية ، ولكن منذ أن تم الاستيلاء على مصنع الصابون عاد مرة أخرى قائداً لفرقة المطاىء ، وفي هذا المنصب ، كان أنفع منه في أي عمل آخر ، كما لم يكن محبوباً قط مثلما كان محبوباً فيه ، ولم يلتق مطلقاً بالعدو في الجبهة ، مثلما التقى به منذ عشرين ساعة . وكان يقول :

« النار منافقة ، ولكننا نستطيع بأسلوب في أن ... أليس كذلك ؟ » .
ثم يفتل شاربه ، وكان ينظر من الرصيف المقابل - وهو يرتدي حلة المطاىء - الى كل مجموعة من النيران كأنها جماعات من العدو تم بالهجوم . وأتون النيران لا يكف عن الاشتعال ، وهالات الكالسيوم لا تنطفئ أبداً ، ومع ذلك كانت تخرج من بعض أوكار الشمال التي خدت تماماً سحب كثيفة من

الدخان الأبيض في خطوط متوازية تدفعها ريح الجبال (سييرا) ، لا يلبث الحريق أن يصبغها باللون الأحمر .

ولم يبق سوى أربعة خراطيم لمكافحة حرائق ثلاثة ، بيد ان هذه الحرائق الأخيرة كانت على بعد أربعة امتار من المنزل المجاور .

وتوهج الحريق الناشب على اليسار مرة أخرى .

وكان من الممكن إيقاف الحريق الذي في أقصى اليمين ، في اخطر درجاته قبل أن يستفحل الحريق الناشب على اليسار ، وانتفضت الخراطيم مرة أخرى فوق مهاذ من النيران المتجمدة ، وفجأة انفجر طوربيد ثانٍ ، وكان انفجاره الى الأمام هذه المرة .

وحاول مرسيري تمييز ضروب الضوضاء التي تصل الى سمعه ، وهناك - على الرغم من الظلام - طائرات فاشية كثيرة تحوم في الجو ، فلقد كانت حرائق مدريد علامات رائحة بالنسبة اليها ، وقد أقيت قبل ذلك بعشر دقائق أربع قنابل حارقة ، كم سقطت قنابل ثقيلة على أحياء العمال واحياء الوسط وعلى مسافة ابعد كانت المدفعية الخفيفة تطلق نيرانها ، فيختلط صوت الطلقات بجلبة المعركة ، يغطيها احياناً زئير صفارات الانذار ، وصليل أجراس الأسعاف ، والانبيارات الناشئة عن الحريق تتخللها نافورات الشرر . غير أن مرسيري لم يسمع أصوات النفير التي تعلن وصول خراطيم التعزيز .

وانفجرت قنبلة ثالثة ، على طول الخط نفسه ، وحين يكافح مرسيري النيران لن تستطيع خمس عشرة قاذفة قنابل أن تزحزحه عن مكانه قيد شعرة .

واتسع حريق الوسط فجأة ، ولكنه عاد فأنكمش على نفسه في الحال ، وناجى مرسيري نفسه قائلاً : « سأحترف المقامرة ، بعد انتهاء الحرب . . . » وكانت حرائق الشمال قد أوقفت عند حدها . حبذا الأمر لو وصل

التعزيز ! ... وأحس مرسيري ببطولة نابليونية ، فأخذ يقتل شاربه وهو جذلان .

وفجأة ، ترك رجل المطافئ الذي في أقصى اليمين خرطوميه ، وظل لحظة معلقاً بالسلم من قدمه ، ثم سقط في النار ، وهبط الآخرون جميعاً درجة درجة في صفوف متوازية .

وهرع مرسيري الى أول شخص وضع قدمه على الأرض ، فقال هذا الأخير :

- «إنهم يطلقون من فوقنا» .

واستدار مرسيري ولم يكن هناك منزل قريب على ارتفاع كافٍ لاطلاق النيران من نوافذه ، ولكن من الممكن أن تصوب عليهم النيران من مسافة بعيدة ، وكان رجال المطافئ يبدون كالأشباح ، ولا تخلو مدريد من الفاشيين .

وقال أحد رجال المطافئ : « آه ! لو وقعت يدي على هذا النذل ! »

وقال آخر : « اعتقد انه على الأرجح مدفع رشاش » .

- « ماذا ؟ هل جننت ؟ » .

فقال مرسيري : « سنرى .. هيا ، تسلقوا السلم مرة أخرى .. فلقد تأججت النيران .. هيا ، من أجل الشعب ، وفي سبيل الحرية ! » .

وأضاف وهو يلتفت قبل أن يلمس السلم : « الحرية الخالدة ! » .

واتخذ مكان رجل المطافئ الذي سقط في الأتون المتأجج .

وتلفت وهو على قمة السلم : لقد توقف اطلاق الرصاص ولكنه لم ير مكاناً يمكن ان يصلح لاطلاق النار ، وليس من العسير أخفاء مدفع رشاش ، بيد أن الضجة قد انذرت الدوريات . وسدد خرطوميه ، وكان الحريق الذي

يكافحه أخطرها جميعاً ، انه عدو أكثر حياة من الانسان ، بل اكثر حياة من أي شيء آخر في العالم . وازاء هذا العدو الذي يتحرك بآلاف الأذرع كالأخطبوط الهائج أحس مرسيري بأنه بطيء بطئاً غير عادي ، وكأنه معدن من المعادن ، ومع ذلك فسوف يتصر على الحريق ، ووراءه كانت تنهمر سيول من الدخان الأحمر والأسود ، وعلى الرغم من ضوضاء النار سمع ثلاثين أو أربعين شخصاً يسعلون في الشارع ، أما هو فكان ينصهر في حرارة مضيئة باهرة وجافة . وانطفأ الحريق ، وما أن تبددت سحبات دخانه الأخيرة حتى أبصر مرسيري من ثقب قاتم مدريد دون أنوار لا تميزها سوى حرائقها البعيدة التي أخذت تنفض عباءاتها الحمراء في غضب على ظلمة الأرض . لقد هجر كل شيء حتى زوجته لكي يجيا العالم حياة أفضل . وتحيل نفسه وهو يوقف بحركة منه عربات الأطفال المزينة البيضاء مثل كعكة المناولة الأولى ، وكانت كل قبلة من القنابل التي يسمعها ، وكل حريق يراه - يستحضر الى ذهنه تلك العربات الصغيرة ، وسدد خرطوميه في عناية على الحريق التالي ، وفي هذه اللحظة مرت سيارة بأقصى سرعتها ، وسقط رجل آخر من رجال المطافئ كأنما بفعل زوبعة نائرة . وفي هذه المرة أدرك مرسيري سر الموضوع : لقد كانت إحدى طائرات المطاردة تطلق عليهم مدفعها الرشاش .

انها طائرتان لا طائرة واحدة .

ورآهما مرسيري وهما تعودان على ارتفاع شديد الانخفاض بصورة غير عادية ، على بعد عشرة امتار فوق الحريق ، ولم تطلقا النيران : ذلك ان الطيارين الذين لا يستطيعون رؤية رجال المطافئ إلا حين بصيبيونهم من الخلف ، وكان مرسيري يحتفظ بمسدسه تحت بزته الرسمية ، وانه ليعلم انه عديم الجدوى ، وأنه لا يستطيع الوصول اليه ، ولكنه احس بحاجة جنونية الى اطلاق الرصاص ، وعادت الطائرتان من جديد ، وسقط رجلان من رجال المطافئ ، أحدهما في النار والآخر على الرصيف ، وأفعمت نفس

مرسيري اشمزازاً الى درجة انه اصبح هادئاً لأول مرة ، ونظر مرسيري الى الطائرتين تستديران متجهتين نحوه تحت سماء مدريد المشبوبة . ولطمه الهواء المندفع عنهما قبل أن تعودا الى « الاتجاه الصحيح » : وهبط ثلاث درجات ، واستدار اليهما منتصباً فوق سلمه المستقيم ، وفي اللحظة التي انقضت عليه الطائرة الأولى كالقنبلة صوب خرطوميه ، ورش جسم الطائرة في احتياج ، ، وتهاوى على السلم ، وقد اخترقت جسده أربع رصاصات وسواء أكان حياً أم ميتاً فإنه لم يتخل عن الخرطوم الذي انحشر بين قضيبين . ولاذ المتفرجون تحت الأبواب فراراً من المدافع الرشاشة التي أصلتهم وابلأ من الرصاص . وأخيراً أنبسطت يدا مرسيري في بطاء وارتطم جسده بالسلم مرتين ، ثم سقط في الشارع المهجور .

الفصل الرابع عشر

كان الضباط ينتظرون مانويل الذي استدعي الى التليفون في قاعة دار
قديمة تغطي الخرائب جدرانها من طرف الى آخر .

قال أحد القواد : « لقد انتحر أحد الفلانج » .

فأجاب جارتتر : « بيد أن عضواً آخر قد وشى بالمنظمة كلها » .

- « ألا يدهشك ذلك ؟ لكي يعترف المرء بمثل هذا العمل ينبغي أن
يكون باعثاً على التقزز ، ولكن ينبغي أن يكون شجاعاً أيضاً . . . » .

- « ما زلنا في حاجة الى معرفة الكثير عن الكائن الانساني يا صديقي
العزيز ، ولقد رأيت الحالة التي وصلوا اليها ، وحين تصل الروح المعنوية الى
أحط درجاتها ، يوجد دائماً شخص على استعداد للخيانة ، على حد تعبير
الكولونيل » .

وسأل صوت آخر : « هل شاهدت الدبابات الألمانية ؟ » .

وكانوا قد رأوا أطيافها فحسب تحت الأمطار .

- « لقد دخلت احداها ، وكانت مفتوحة استطاع احد رجالها الهرب ، أما
الثاني فقد مات ، وكان ما زال في مكانه في الداخل ، وقد خرجت بطانة
جيوبه ، هذا منظر لا أنساه ، مع المطر . . . »

وكان المطر يسيل على اللوح الزجاجي دون كلل .

- « هل جرده زملاؤه من نقوده ؟ » .

- « اعتقد انهم قاموا بتفتيشه حتى لا تقع أية وثيقة بين أيدينا ، ولم يكن لديهم من الوقت ما يكفي إعادة البطانة الى داخل الجيوب » .

- « استطيع أن أفهم ذلك : تجريده من الوثائق .. هذا معقول ، فلعلهم في حاجة اليها ، أما إعادة البطانة بعد ذلك ، فهذا ... » .

- « وهل تم تنفيذ حكم الاعدام فيهم ؟ » .

- « ليس بعد ، على ماأظن » .

- « ماذا يقولون ، في القاعدة ؟ » .

- « الرفاق في منتهى الصلابة ، وخاصة رفاق طليطلة ، وأولئك الذين ولوا الأدبار عندما لم تكن لديهم اسلحة أو رؤساء لا يغفرون لأولئك الذين هربوا مع أن لديهم كل شيء » .

- « أجل ، لقد راودني هذا الاحساس ايضاً : انهم اشد صلابة من الآخرين » .

- « ورجال اليوم يذكرونهم بأولئك الذين يحرصون كل الحرص على نسيانهم .. » .

- « أجل ، فقد هدموا شيئاً تجشموا كثيراً من العناء في تشييده ! » .

- « لقد حضروا من بعيد مثل الكثيرين منا ... ولكن ينبغي ألا ننسى أن قصة الآخرين - أعني أولئك الأندال الذين قتلوا الكابتن - لا تخفف من حدة شعور أحد » .

ووصل مانويل وقد تدلت شفته ، وتأبط غصناً آخر من الصنوبر .

وعلى الجدار كانت هناك علبة للفراشات معلقة بين الخرائط ، وانفجرت قنبلة على مقربة من الدار ، واتصل اطلاق القنابل من جديد . قنبلة ثانية ،

وأفلتت فراشة ، فسقطت على قاعدة العلبة ، شاهرة دبوسها في الهواء .

قال مانويل : « ايها الرفاق ... إن مدريد تحترق ... »

وتحشرج صوته فلم يسمعه أحد ، وكان قد صرخ كثيراً طيلة النهار ، ولكنه لم يصل بعد الى درجة فقدان الصوت ، وأردف بصوت خفيض مخاطباً جارتزر الذي ردد كلامه بصوت أقوى :

- « الفاشيونه يهاجمون على طول الخط الجنوبي الغربي . والفرقة العالمية صامدة ، وهم يلقون الآن قنابلهم من الطائرات والمدافع على السواء » .

وسأل صوت : « وهل نجحوا في ذلك الهجوم ؟ » .

ورفع مانويل غصن الصنوبر وكأنه يريد أن يقول : إنه فيما يتعلق بمدريد لم يعد ثمة شك .

واستأنف حديثه قائلاً : « سيتم تنفيذ أحكام الأعدام ، فهم يرسلون الينا عدداً من رجال الحرس المدني » .

وردد جارتزر ما يقوله مانويل ، غير ان مانويل لم يعد يستطيع الآن الكلام على الاطلاق .

وتوالت انفجارات القنابل دون ان يكثرث لها احد ، وعند كل انفجار قريب كانت تسقط من العلبة فراشة أو فراشتان .

وكتب مانويل عبارة على هامش إحدى خرائط أركان الحرب المبسوطة على المائدة .

ونظر اليه جارتزر ثم نظر الى رفاقه واحداً إثر واحد ، وفجأة ابتلع ريقه بفمه الصغير المغروس في وجهه المنبسط ، ثم قال أخيراً باللهجة التي نعلن بها الانتصار أو الهزيمة أو السلام :

« يا رفاق ، لقد وصلت الطائرات الروسية » .

الفصل الخامس عشر

كان العدو يرتد الى شقوبية ، ولم يكن لدى انصار الحكومة ما يكفي تعقبه سوى عدد قليل جداً من الرجال المسلحين تسليحاً حقيقياً ، كما انهم لم يكونوا يريدون تجريد مدريد من قواتها الدفاعية ، اما اللواء الذي يقوده مانويل ، والقوات التي أُضيفت اليه - فكان يقضي فترة من الراحة ؛ ولهذا رحل منقسماً الى سرايا للتدريب .

وكان المطر قد انقطع ، بيد أن السحب التي تهمل نسيجها في الصباح كانت تمر منخفضة أشد الانخفاض فوق المنازل القشالية التي اصطبغت أحجارها وقرميدها بلون رمادي واحد ، ووقف مانويل فوق درجات سلم دار الحكومة يراقب وصول رجاله الذين كان عنهم مسؤولاً .

وفي مواجهته قام قصر هائل ، تهدم اكثر من نصفه مثل اشباهه من القصور في كل قرية من تلك القرى ، ولكنه مشيد فوق صخور هشة اختلطت اجزاؤها المتكسرة بما تداعى من انقاضه ؛ وعلى اليمين تصاعد شارع اقبلت منه القوات التي كان عليها أن تصطف في الميدان الذي يفصل بين دار الحكومة واطلال القصر ، ولم يكن مانويل قد رأى جنوده مرة أخرى منذ تنفيذ احكام الاعدام في الليلة البارحة .

وصلت السرية الأولى الى مستوى قامته ، وأحذية الجنود الثقيلة تضرب بلاط الشارع المدبب في ايقاع منتظم ، وفي تشكيل يكاد يصل في كفايته الى مستوى تشكيلات الجيش النظامي ، وحين اجتازت درجات السلم التي يقف عليه مانويل أمرهم القائد :

« إلى اليسار ، التفات الى اليسار ! » .

فاستدارت الرؤوس جميعاً دفعة واحدة صوب مانويل ، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يصدر فيها ذلك الأمر في اللواء ، بل انها المرة الأولى بلا شك التي يصدر فيها على طول جبهة مدريد . وكانت هذه التحية التي يرتبط بها جميع المتطوعين بقائدهم قد اصدرها القواد الثوريون ، وأحسن مانويل انها مرتبطة بالأحداث التي وقعت في اثناء الليل .

وعندما وصلت السرية الثانية فعلت مثلما فعلت السرية الأولى ، وكذلك فعلت بقية سرايا ، وأخذ مانويل يراقب هؤلاء الرجال جميعاً وهم يسيرون أمامه في تشكيل القتال . وفي قوة لا تقل عن قوة أعدائهم ، وأحسن انه مسؤول عن الدفاع عنهم ضد كل شيء ، وضد انفسهم ما داموا يدافعون عن الشعب الأسباني ، ولكنه لم يستطع أن ينسى الوجوه المتقلبة الملطخة بالوحل ، أو العبارة التي قيلت له : « إذن ، فلم يعد لديك صوت يدافع عنا ! » ومع ذلك لم تكن تلك النظرات التي تلتقي بنظراته في كل منعطف لامبالية ، أو غامضة ، بل كانت مفعمة باخاء مأساوي . . مفعمة بذلك الليل .

وكان القصر شبيهاً بالقصر الذي أصغى عنده مانويل الى اكسيمينيس على جبهة نهر تاجة ، هناك حيث بدأ حديثه بقوله : « لا تحاول أن تغرر أبداً . . . » أما الآن فالأمر يتعلق بأكثر من مجرد التغرير : فلقد كان عليه أن يقتل ، لا أعداءه ، بل يقتل رجالاً متطوعين ، وذلك لأنه كان مسؤولاً عن حياة كل رجل من الرجال الذين مروا الآن أمامه . . وكل مسؤول يدافع بنفس العملة التي هو مسؤول عنها . . وكانت العملة التي عليه ان يتعامل بها من الآن فصاعداً هي أرواح رجاله !

وفي حزن وصلابة أخذاً يتزايدان شيئاً فشيئاً ، ومضت نظرات مانويل تتقاطع مع نظرات رجاله بعضها إثر بعض . . . تلك النظرات التي تواطأت معه على توقيع حلف الدم . .

الفصل السادس عشر

وما أن مر اللواء ، حتى وجد مانويل نفسه وحيداً في الميدان الخالي بلا نظرات ، مع بعض الكلاب الضالة ، وطلقات مدفع بعيد ، اما جارتز فكان مع الفرقة ، ولم يشعر مانويل قط بمثل هذه الوحدة التي شعر بها الآن .

أمامه من الوقت ساعات ثلاث ، ووجه القصر مرة أخرى صوب اكسيمينيس الذي كان على بعد عشرة أمتار ، يجتلس شيئاً من الراحة هو أيضاً ، وطلبه مانويل بالتليفون ، وكانت البطة العجوز موجودة ، فألقى مانويل بتعليماته ، ثم استقل سيارته .

وكانت القرية التي رابطت فيها فرقة اكسيمينيس قائمة في مؤخرة القرية التي أتى منها مانويل ، وما زال الفلاحون المهاجرون يمرون ، فوصل مانويل الى مركز قيادة الكولونيل عبر صفوف من الحمير والعربات ، واكداس من الأغنام من كل جنس ولون .

وخرج الاثنان معاً ، فضاعفت الرطوبة من صمم اكسيمينيس ، وكان العدو يطلق نيرانه على مسافة بعيدة نوعاً ما الى اليمين ، كما كان مدفع ملويد مسموعاً ، ومن خلال فجوات سلسلة الجبال ظهر وادي شقوبية .

قال مانويل : « اعتقد انني عشت أمس أهم يوم في حياتي » .

- « ولماذا يا بني ؟ » .

فقص عليه مانويل ما حدث ، ثم سارا صامتتين : وكان التغيير الذي طرأ على سمت مانويل ، وشعره المتهدل ، ولهجة السلطة التي يتحدث بها . . . كل ذلك قد أثار دهشة اكسيمينيس للوهلة الأولى ، إذ لم يتبق من الشباب الذي عرفه فيما مضى ، سوى غصن الصنوبر المبتل الذي يمسك به مانويل في يده .

شاع بين الناس ان حرائق هائلة قد شبت في الطريق الى الاسكوريال ، وعلى سفوح سلسلة الجبال جثمت سحابات قاتمة أشد القتامة ، وهناك على مسافة أبعد صوب شقوبية - كانت ثمة قرية تَحترق . وشاهد مانويل بنظارته المقربة الفلاحين والحمير وهم يركضون .

- « لقد اهدتيت الى ما ينبغي أن أفعله ، وقد فعلته . واستقر عزمي على أن أخدم حزبي ، دون أن تعوقني ردود الفعل النفسية ، وأنا لست ممن يتركون أنفسهم نهياً للندم ، فالمسألة تتعلق بشيء آخر . وقد قلت لي ذات يوم : ثمة نبالة أكبر في ان يكون المرء زعيماً من ان يكون مجرد فرد عادي ، اما الموسيقى فلا داعي للحديث ، ضاجعت في الأسبوع الماضي امرأة احببتها عدة سنوات دون طائل ، ومع ذلك فقد احسست اني اريد الابتعاد عنها . . . ولست بنادم على شيء من هذا كله . ولكن اذا هجرتها فذلك من أجل شيء ما ، ولا يستطيع المرء أن يأمر إلا ليعخدم ، وإلا . . . وأنا مسؤول عن احكام الاعدام تلك ، فقد نفذت لانقاذ الآخرين . لانقاذ « رجالنا » . ولكن اسمع : « ما من درجة ارتقيتها متجهاً صوب كفاية اعظم أو قيادة أفضل إلا زادتني بعداً عن الناس ! وفي كل يوم تقل انسانيتي شيئاً ما ، وليس من شك انك قد واجهت اخيراً نفس هذه . . . » .

- « لا أستطيع أن أقول لك إلا أشياء لا تقدر على فهمها يا بني ، فأنت تريد أن تتصرف دون ان تفقد شيئاً من الاخاء ، وأظن أن الانسان اصغر من ان يحقق هذه الغاية » .

وكان يفكر في أن ذلك الاخاء لا يمكن أن يوجد إلا عن طريق السيد المسيح ؛ « ومع ذلك يبدو لي ان الانسان يستطيع ان يدافع دائماً عن نفسه أفضل مما يبدو عليه ، وإن كل ما ينأى بك عن الناس يدنيك من حزبك . . . » .

وكانت هذه الفكرة قد خطرت لمناويل ايضاً مشوبة بشيء من الخوف في بعض الاحيان .

- « الاقتراب من الحزب لا قيمة له إذا انعزل المرء عن أولئك الذين يعمل الحزب من أجلهم ، وأياً كان المجهود الذي يبذله له الحزب فربما لم تحي تلك الرابطة التي تتحدث عنها إلا على المجهود الذي يبذله كل منا .

« لقد قال لي احد الرجلين اللذين صدر عليهما حكم الاعداء : « ألم يعد لديك صوت تدافع به الآن عنا ؟ » .

ولم يصرح بأنه فقد صوته حقاً في تلك اللحظة، ووضع اكسيمينيس ذراعه تحت ذراع مانويل ، كان كل ما يصدر عن الناس الذين يعيشون في الوادي يبدو من ذلك العلو الشاهق تافهاً غاية التفاهة اللهم إلا تلك الأستار البطيئة من النار التي تتصاعد الى السماء حيث تنهادى على مهل السحب التي لا شكل لها وكأنما لا يعدو البشر أن يكونوا في نظر الآلهة - المادة التي منها تشتعل الحرائق .

- « آه ! ماذا تريد إذن يا بني ؟ أن تحكم بالاعداء بضمير هادىء ؟ » .

ونظر اليه بوجه ينم عن العطف ، ويزخر بألف تجربة متناقضة . بل ربما بألف تجربة مريرة ، وقال :

- « وحتى هذا استعتاده . . . ! » .

ومثلما يختار المريض مريضاً آخر ليتحدث اليه عن الموت طفق مانويل يتحدث عن المأساة الأخلاقية الى رجل كانت تلك المأساة بالنسبة اليه شيئاً

مألوفاً ، وكانت تغريه بهذا الحديث الانسانية التي تتسم بها إجاباته اكثر مما تغريه معانيها . ولم يكن مانويل يضع أساس قراره - بوصفه شيوعياً - موضع التساؤل ، كما لم يكن يتشكك فيما يفعل ، بل ان كل سؤال من هذا النوع ينبغي أن يحل في نظرة ، إما عن طريق تعديل أفعاله ، (ولم يكن ثمة ما يسرر تغييره لها) أو برفض التساؤل نفسه ، بيد انه من طبيعة الأسئلة التي لا حل لها انها تلب بكثرة ما يتردد حولها من الكلام .

قال اكسيمينيس : « والصراع الحقيقي يبدأ حين ينبغي لنا أن نحارب جزءاً من أنفسنا . . . فالأمر يكون حتى هذه اللحظة ، يسيراً كل اليسر . بيد ان المرء لا يصبح إنساناً إلا اذا واجه هذه الصراعات . ولا بد من مواجهة العالم في ذاته ، سواء أردنا ذلك أم لم نرد . . . » .

- « لقد قلت لي يوماً : إن واجب الزعيم الأول هو ان يكون محبوباً دون ان يحاول الاغراء من جانبه . . . أن يُحِبَّ المرء دون اغراء . . . حتى ولو كان ذلك الاغراء موجهاً لنفسه . . . » .

ومن خلال فجوة هائلة في الصخور ، ظهرت سفوح سلسلة الجبال الأخرى ، وفوق مدريد التي لا تكاد تبين في ذلك الامتداد الرمادي - كانت سحباً ضخمة داكنة من الدخان تعلو في ابطاء . ومانويل يدرك ما تعنيه هذه السحب : فالمدينة تحتجب خلف الحريق ، كما تحتفي السفن الحربية وراء الستائر التي تسدها من دخان القتال . وكانت اعمدة الدخان ترتفع من أفران عدة لا يظهر منها أقل توهج ، فلا تلبث أن تتحلل حين تصل الى منتصف السماء الكاوية ، وكان السحب جميعاً تنشأ عن ذلك الحريق الذي ينشر دخانه في اتجاه مسيرتهم ، وملأت السماء الواقعة الآلام التي تراكمت فوق الخط الأبيض الدقيق الذي يمثل مدريد الرابضة بين الغابات ، وأحس مانويل أنه حتى ذكرى تلك الليلة قد حملها الريح البطيء الثقيل الذي حمل رائحة افران كواترو كامينوس (الطرق الأربع) .

ووصل ضابط من ضباط اكسيمينيس مستقلاً سيارة :

- « مركز القيادة العليا يطلب اللفتانت - كولونيل مانويل بالتليفون » .

وعادا مسرعين ، وقد استولى قلق غامض على مانويل ، واتصل بالقيادة العليا . . .

- « آلو ! هل طلبتموني ؟ » .

- « القائد الأعلى يهنتك على الطريقة التي عاجلت بها الموقف أمس » .

- « تحت أمرك » .

- « انت تعلم ان بعض الفارين من رجال الميليشيا القدامى يتقدمون بطلبات الالتحاق من جديد » .

- « وقد قرر القائد الأعلى تكوين فرقتين هذه العناصر ، ومعاملة هؤلاء الناس اصعب من معاملة أي عناصر اخرى تحت تصرفنا » .

- « » .

- « ويعتقد رئيس أركان الحرب انك تتمتع بالصفات المطلوبة لقيادة هذه الفرقة » .

- « آه ! » .

- « وحزبك يرى هذا الرأي أيضاً » .

- « » .

- « كما انه رأي الجنرال مياجا أيضاً ، وستولى قيادة هذه الفرقة فوراً » .

- « ولكن ماذا عن اللواء الذي أقوده ؟ لوائي ! . . » .

- « سيضم الى فرقة أخرى » .

- « ولكنني أعرف رجاله فرداً فرداً ! من ذا الذي يستطيع . . . » .

- « الجنرال مياجا يعتقد انك صالح لقيادة الفرقة الجديدة . . . »

وعندما ترك التليفون وجد هنريش في انتظاره ، وكان رجال الفرقة العالمية يدبرون هجوماً مضاداً على شقوبية ، وهنريش يريد الصعود صوب وادي الرمل ، وهكذا رحلاً معاً .

ونزلت السيارة على سفوح الجبال . وشعر مانويل بأنه يعرف هنريش ، لأنه يعرف طبيعته بوصفه قائداً ، ولكنه كلما مضى في تلخيص ما حدث نهار أول امس ، ومحدثه مع اكسيمينيس - بدا له أن الصلة الانسانية الوحيدة التي يمكن ان تقوم بينه وبين الجنرال هي تلك الرابطة الغريبة التي تنشأ دائماً بين المترجم وما يترجم عنه .

ومال هنريش برأسه الى الأمام ، وكان قذاله الحليق ناعم الملمس ، وامارة من التفكير تضفي على وجهه العجوز الأجرد تعبيراً صبيانياً .

- « نحن على وشك تغيير مصير الحرب . ألا تعتقد ان الانسان لا يستطيع تغيير الأشياء إلا اذا غير نفسه ؟ في اليوم الذي تقبل فيه القيادة في جيش للبروليتاريا تفقد كل حق لك على نفسك » .

- « وماذا عن الكونياك ؟ » .

وكان مانويل قد أبصر هنريش يقوم بتوزيع زجاجات الكونياك على جميع السكارى في فرقته ، وقد الصق محل البطاقة الأصلية بطاقة أخرى تحمل هذه العبارة : « هدية من الجنرال هنريش تشرب خارج العمل ولا تشرب في اثناء العمل » .

- « تستطيع الاحتفاظ بقلبك ، هذا شيء آخر ، أما روحك فيجب عليك أن تفقدها . وهأتذا قد فقدت شعرك الطويل فعلاً ، وجرس صوتك » .

تكاد ألفاظه تكون مماثلة لألفاظ اكسيمينيس ، اما لهجته فكانت تلك
اللهجة الصارمة التي تميز بها هينريش ، وكانت عيناه الزرقاوان الخاليتان من
الرموش ثابتتين مثلما كانتا في طليطلة .

- «ماذا تعني - وأنت ماركسي - بفقدان الروح ؟» .

ولم يعد جو الألفة قائماً بينهما كما كان من قبل .

ونظر هينريش الى اشجار الصنوبر التي يلاحق بعضها بعضاً في ذلك
النهار الحزين ، ثم قال :

- « ثمة خسائر في كل انتصار . . . لا في ميدان القتال وحده .

وضغط بيده على ذراع مانويل ضغطاً شديداً ، وقال بلهجة لم يعرف
مانويل هل كانت صادرة عن مرارة التجربة أو عن قوة العزيمة ؟

- « والآن ، ينبغي عليك ألا تشعر بالشفقة « أبداً » على شخص

ضائع ! »

الفصل السابع عشر

مدريد ، في الثاني من ديسمبر :

رقد اثنان من القتلى امام النافذة ، أما الجريح فقد سحب من قدميه الى الخلف . وكان خمسة من الجنود يحرسون السلم ، وقنابلهم اليدوية على مقربة منهم ، وفي الطابق الرابع من منزل وردي الطلاء رابط ثلاثون من رجال الفرقة العالمية .

ومكبر ضخم للصوت من تلك المكبرات التي تحملها سيارات النقل الجمهورية من أجل الدعاية يصبح في ذلك الأصيل الشتوي الذي مال الى المغيب قائلاً :

- « ايها الرفاق ايها الرفاق ، احتفظوا بمراكزكم جميعاً ، ولن يحل المساء حتى تكون ذخيرة الفاشيين قد نفذت ، فقد تمكن طابور أوربياري من أن ينسف هذا الصباح اثنين وثلاثين عربة محملة بالذخيرة . . .

« ايها الرفاق ، ايها الرفاق ، حافظوا . . . »

ومكبر الصوت لا ينتظر إجابة ، ولهذا كان يردد تلك العبارات دون انقطاع . . . ستنفذ ذخيرة الفاشيين ، ولكنهم يملكون ذخيرة في هذه اللحظة ، وقد شنوا هجوماً مضاداً ، وها هم أولاء يحتلون الطابق الأول والثاني ، أما الطابق الثالث فمحايد ، ورجال الفرقة العالمية يحتلون الرابع .

وصاح صوت بالفرنسية صاعد من المدخنة : « يا أيها الأقدار ، سترون : هل لدينا ذخيرة كافية لقتلكم أو لا ؟ » .

وكان الصوت لأحد الجنود « التريو » اتخذ من أسفل المدخنة بوقاً لتكبير صوته .

وأجاب مارنجو « يا أيها الأوغاد المأجورون بعشرة فرنكات في اليوم الواحد ! » .

وكان قد ألقى بنفسه على اطرافه الأربعة ، فقد كانت الرصاصات تصل الى ارتفاع الرأس ! حتى في آخر الشقة . وكان يؤمن من قبل بكل ما يشاع عن الفرقة من قصص رومانتيكية . . رجال متمردون ، أشداء المراس ، وتحته كانت ترابط الفرقة الاسبانية ، وقد جاءت للدفاع عن شيء لا تعلمه ، منتشية بفرور المحاربين . وفي الشهر الماضي اشترك مارنجو في هجوم بالسونكي على ارض المنتزه الغربي ، فما كان ثمن رجل التريو حين ذاك ؟ إن هذه العصابة المتعطشة الى الدماء التي تأتمر بأوامر سادة مجهولين تبعث الرعب في نفسه . ومع أن رجال الفرقة العالمية مأجورون هم أيضاً فإن أبغض شيء الى نفوسهم كان رجال الفرقة الأخرى .

وكانت مدافع الجمهوريين من عيار ١٥٥ تقصف بانتظام ما تبقى من المستشفى .

وكانت الشقة التي يبحث فيها مارنجو وزملاءه عن « زوايا لاطلاق النار » ، وسط الضوضاء البللورية الصادرة عن الزجاج المكسور - شقة طيب اسنان ، وثمة باب فيها مغلق بالمفتاح ، وكان مارنجو ربعة القوام بحيث يبدو بديناً - وله حاجبان سوداوان كثيفان فوق أنف صغير في وجه يذكر المرء بصور الأطفال في اعلانات الألبان الصناعية . وحين حطموا الباب ظهرت غرفة العيادة ، وقد تمدد مغربي بلا مبالاة فوق مقعد العمليات صريعاً ، وكان الجمهوريون هم الذين يحتلون أمس الطوابق السفلى من المنزل ، وهذه

النافذة أوسع من النوافذ الأخرى وأقل ارتفاعاً ، ولم يكن رصاص العدو وقد هشم أدوات الطيب الزجاجية الا على بعد ثلاثة أمتار من الأرض ومن هنا يمكن المرء أن يرى ، وأن يطلق النار .

ولم يكن مارنجو ضابطاً نظامياً ، بل انه لم يؤد بعد الخدمة العسكرية ، ولكنه لم يكن بلا نفوذ في سريته ، فالجميع يعرفون انه كان سكرتير لمصنع من اكبر مصانع الأسلحة . وكان الإيطاليون قد طلبوا من ذلك المصنع الفين من المدافع الرشاشة مخصصة لفرانكو، غير ان مدير المصنع كان من المهوسين بالأسلحة ، ومن ثم فإنه لم يكن يسمح بشحن المدافع في الصناديق « بحجة انها لم تكن صالحة تماماً » . وفي كل ليلة بعد انتهاء العمل كان جناح من المصنع يظل مضيئاً فوق المدينة والمدير العجوز المتحمس يقوم وحده بتعديل وضع مشبك فوق آلة دقيقة في ورشة مضاءة مصلحاً من الجزء الحاسم الذي يجعل من المدافع الرشاشة مدافع بالمعنى الصحيح للكلمة . وفي الساعة الرابعة صباحاً كان العمال الثوار يأتون لإفساد ذلك الجزء الذي كلف المدير كل ذلك العناء بضربات من سلاح حاد تنفيذاً لتعليمات مارنجو .

وظلت هذه المعركة الصابرة بين الحرص على الاتقان الفني من جهة ، والتضامن بين العمال الثوار من جهة أخرى (لم يكن مدير مارنجو فاشياً ، وإن كان أولاده فاشيين) ظلت سجلاً في مصنع الأسلحة فترة تربو على أربعين ليلة ، ولقد أدرك رجال الفرقة الآن - ويحق لهم أن يدركوا - أن هذا العمل لم يكن بلا طائل .

واستقر رفاق مارنجو في مكان فوق مستوى رصاص الأعداء .

وكان ذلك المنزل الذي دار فيه القتال منذ عشرة أيام يتداوله الهجوم تارة والحصار تارة أخرى ، ولم يكن مما يمكن النيل منه إلا عن طريق السلم الذي تعاقب على حيراسته خمسة من رجال الفرقة العالمية ، يحملون قنابلهم اليدوية ، ولم تكن زاوية الرؤية تسمح بوضع مدفع ثقيل ، ولكن ما دام

رجال « التريو » في الطوابق السفلى فإن المنزل لن ينسف حتى ولو وضعت تحته الألغام .

وما برحت مدافع الجمهوريين عيار ١٥٥ تطلق نيرانها دائماً ، والشارع يخلو من المارة ، والسباب متبادلاً بين عشرة منازل من خلال المداخن . وفي بعض الأحيان كان هذا الجانب أو ذاك يشن هجوماً يحاول به احتلال الشارع ، ولكنه ييؤء بالفشل ، ثم لا يلبث أن يتراجع ، أما رجال الاستطلاع الذين لم يعد الموت نفسه قادراً على تخليصهم من الضجر فكانوا ينتظرون في بلادة وراء النوافذ . ولو حاول صحافي تعس القاء نظرة على ما يدور في ذلك المكان لاستقرت اذن على الفور رصاصة من النحاس في جسده !

وراء كل نافذة بندقية أو مدفع رشاش ، ومكبر الصوت يطغي بصيحاته المتحشجة على شتائم المداخن . . . والشارع مهجور الى الأبد .

ولكن على اليمين ، يقوم المستشفى ، وهو أفضل موقع فاشي على طول جبهة مدريد ، فقد كان ناطحة السحاب المتينة ، تحيط به الخضرة من كل جانب ويشرف على حي القيللات كله ، وكان زملاء مارنجو الذين احتلوا الطابق الرابع يرون الجمهوريين في كل شارع مجاور ، وقد ساروا على أربع في الوحل ، ولكنهم لم يكونوا يلمحون المستشفى الذي شعروا بوجوده تحميماً - من ارتفاعه الشاهق الذي لا يستطيع أي جسم حي أن يتجاوزه .

وكان المستشفى الذي يطلق مدافعه الرشاشة جميعاً دون انقطاع يبدو مهجوراً ، كالمنازل المجاورة له في الشارع . ناطحة سحاب متجهمة قاتلة ، كأنها ظلل من برج بابل ، تحلم كالثور وسط القذائف التي تصفعها بما يتطاير من انقاض .

ووجد أحد رجال الفرقة العالمية نظارة مسرح بعد ان فتش في جميع الدواليب . وانفجرت قنابل داخل السلم ، فذهب مارنجو الى الرحبة

(البسطة) .

قال أحد رجال الحرس من الفرقة العالمية وسط ضجيج القنابل « ليس هذا شيئاً . » وكان رجل من « الترتيو » قد حاول الصعود مرة أخرى .

وتناول مارنجو النظارات المقربة ، وكان المستشفى يتغير لونه حين يراه المرء عن كثب فيتحول الى اللون الأحمر ، ويحتفظ بشكله المحدد إلا بالنسبة لكتلته فحسب : واضفت عليه نوافذه التي ظهرت الآن للأعين منظر خلية هجرها النحل . ومع هذا كله كان الناس يزحفون على الأرصفة التي غمرتها الأمطار وعلى قضبان الترام التي علاها الصداً بعيداً عن تلك القلعة التي أضحت حطاماً .

وزجر مارنجو مطوحاً بذراعيه البدينتين في الهواء : « يا إلهي ! لقد حدث ... لقد حدث .. إن رجالنا يهاجمون ! » .

وتلاصق الجميع الواحد بالآخر متزاحمين في الرقعة الضيقة القائمة بين المغربي المقتول فوق مقعد طبيب الأسنان وبين النافذة . وانبثق من الأرض رجال الديناميت ورماة القنابل اليدوية كالبعق السوداء حول المستشفى ، ورفعوا أذرعهم ، ثم غاصوا في الوحل مرة أخرى ، وعادوا الى الظهور هناك حيث كان الديناميت والقنابل اليدوية تبدو منذ خمس دقائق مضت كالمسبحة الحمراء .

وركض مارنجو الى المدخنة، وصاح في وجه « الترتيو » :

« أنظروا قليلاً الى ما يجري في المستشفى ، أيها الحمقى ! » .

ثم عاد ركضاً الى مكانه . وكان رجال الديناميت قرييين غاية القرب ومن الخلية المحطمة انقضت على صفوف الفاشيين اسراب من الحشرات تتبعها مدافعها الرشاشة .

ولم ترد المدخنة . ووضع رجل تشيكي بندقيته الى كتفه ، ثم مال أكثر

من الآخرين وأخذ يطلق النار ويطلق ، ويطلق . ومن المنازل الأخرى القائمة على الرصيف المقابل حيث حوَّصر رجال الفرقة العالمية اطلقوا نيرانهم أيضاً ، وحين تمكنوا من هدم الجدار هرب رجال « التريثيو » من المنزل الوردي ، فلقد وضعت تحته الألغام ، ولن يلبث أن ينفجر .

تقدم النجاشي صوب اللغم المضاد ، وكان قد فقد إيمانه بالثورة منذ شهر مضى . لقد انتهت الرؤيا ، ولم يبق غير الصراع ضد الفاشية ، واحترامه للمدافعين عن مدريد . والحكومة تضم اعضاء من الفوضويين ، ومن هؤلاء في برشلونة من يدافع باستماتة عن المذهب ومراكز السلطة ، أما دوروتي فقد مات ، غير ان النجاشي قد عاش رداً طويلاً على النضال ضد البورجوازية ، وها هو ذا الآن يحيا بلا عناء من نضاله ضد الفاشية والواقع ان عواطفه كانت سلبية دائماً ، ومع ذلك لم يعد أسلوبه ذاك مجدداً ، وكان قد استمع الى رجاله وهم يذيعون نداءهم مطالبين بالنظام ، وأحس بالحسد نحو الشيوعيين الشبان الذين تحدثوا بعدهم ، والذين لم تنقلب حياتهم رأساً على عقب في ستة أشهر . انه يجارب هنا مع جونتال ذلك العملاق البدين الذي هاجم معه بيب الدبابات الايطالية أمام طليطلة . وكان جونتال من الاتحاد القومي للعمال ، بيد ان هذا كله لم يكن يعني النجاشي في شيء . ينبغي أولاً سحق الفاشيين ، ولتأت المناقشة بعد ذلك وكان يقول : « إن الشيوعيين يعملون جيداً ، أتفهمون ؟ واستطيع أن أعمل معهم ، أما أن أحبهم فلا ، وقد بذلت أقصى ما في وسعي لكي أحبهم ولكن دون جدوى . . . »

وكان جونتال عاملاً في مناجم الأشتوريش ، والنجاشي عاملاً من عمال النقل في برشلونة .

وكان النجاشي قد انضم منذ معركة قاذفات اللهب التي دارت في « القصر » الى جنود الألغام ، الى ذلك القتال تحت الأرض الذي يجبه ، والذي يعرف كل من يخوضه ان الموت كان عليه مقضياً ، والذي يحتفظ بطابع فردي رومانسي . وعندما لا يستطيع النجاشي التخلص من مشاكله

يلجأ دائماً الى العنف أو الى التضحية أو الى الأثنين معاً ، وهذا أفضل .

وتقدم بجسمه النحيل ، يتبعه جونثال صوب لغم مضاد ينتهي عند مسافة أبعد قليلاً من المنزل الوردى . واشتد رنين الأرض شيئاً فشيئاً ، وهذا يعني أن لغم الأعداء بات قريباً جداً (ولكنه لم يسمع طرقاتاً) ، أورياً ؟ . . .
وأستعد لالقاء قنبلة يدوية .

وغاصت ضربة الفأس الأخيرة في الفراغ ، وتدحرج الرجل المجد ، يحمله حماسه داخل فجوة عظيمة تحت الأرض ، وتحسس النجاشي المكان ببطاريته الكهربية كما يتحسس الأعمى بيده ، فأبصر أمامه جراراً ضخمة في ارتفاع قامة الرجل . . انه قبو . وأطفأ النجاشي مصباحه ، ثم قفز ، اذ رأى في مواجهته بطارية أخرى تتحسس الطريق مثله ، ولم يكن الذي يمك بها قد أبصر مصباح النجاشي ، فأطفأ مصباحه أولاً ، انه فاشي ، فهل يطلق عليه النار ؟ ولم يكن النجاشي يرى الرجل ، والمنزل الوردى فوقهما تقريباً .
وجونثال ما زال يعمل في اللغم ، والقى النجاشي قنبلته اليدوية .

وعندما تبدد الدخان الذي أخذ يدور حول نفسه في ضوء مصباح جونثال كان اثنان من الفاشيين قد غاصا حتى عنقيهما في بحيرة لزجة من الزيت أو النيذ تطفو على سطحهما شظايا من تلك الجرار الضخمة ، ثم أخذت هذه البحيرة تعلو وتعلو في ضوء البطارية الثابت حتى وصلت الى مناكبهما ، الى ثغريهما ، وأخيراً إلى عيونهما .

وانتهى الهجوم المضاد الذي شنه الجمهوريون : وفك الحصار عن مارنيجو وزملائه ، وعاد جونثال ورجاله الى مركز الفرقة ، وكان لا بد من أن يجتازوا جزءاً من مدريد للوصول اليه .

واعتادت المدينة الغارات ، فما أن يسمع المارة صوت قنبلة حتى يختفوا وراء باب ، ثم يعاودوا السير ، وهنا وهناك كانت أعمدة الدخان التي تتلوى بتأثير ريح هينة تضيء على المأساة هدوءاً قريباً من الهدوء الذي تضيفه

المدخن على القرى ساعة العشاء . وسقط صريع بعرض الشارع ، وقد تأبط حقيية من حقائب الحمامين ، لم يجروُ أحد على لمسها . . . وكانت المقاهي مفتوحة ، ومن مداخل المترو تخرج افواج من الناس كأنما تخرج من بيت مشبوه ، وأفواج أخرى تحمل حشايا ومناشف وعربات أطفال ، وعربات أخرى تكدست فوقها آنية المطبخ ، وموائد ولوحات وأطفالاً يحتضنون ثيراناً من الورق المقوى . وثمة فلاح يحاول أن يدفع حماراً عنيداً ، وكان الفاشيون يغيرون يومياً ، منذ ٢١ ديسمبر ، وحول اطراف شلمنقة كانت تدور مفاوضات عجيبة لاستغلال الموقف . . . وأحياناً كانت الانقراض تتحرك ، وتظهر يد ، وقد تشنجت أصابعها تشنجاً غريباً ، بيد ان الأطفال كانوا يلعبون بطائرة المطاردة على مقربة من المناطق المضروبة ، وسط وجوه الفارين التي استبد بها الذعر ، وكانت النسوة يعدن الى مدريد ملفوفات في الملاءات والحشايا كنساء الحكايات العربية . وقال سائق ترام انضم الى الجنود العائدين الى ثكناتهم ، قال لجونثالث :

- « أما انها حياة فهي حياة ، أتفهمني ؟ ولكن اذا أخذتها على انها مهنة فهي ليست مهنة ، فأنت تبدأ وتقوم بدورتك ، وتصل الى نهاية المطاف مع نصف الزبائن ، على حين يكون النصف الآخر قد لقي مصرعه في اثناء الطريق ، ولهذا أقول : إنها ليست مهنة . . . » .

وتوقف سائق الترام ، وتوقف جونثالث ، وتوقف مارننجو ، وتوقف المارة جميعاً ، أو هرولوا تحت الأبواب ، فقد وصلت فوق سماء مدريد خمس طائرات من طراز يونكرز تحميها أربع عشرة طائرة من طراز هاينكل .

وصاح صوت : « لا تخافوا ، فسوف تعادون ذلك » .

وقبل أن يشاهد جونثالث ومارننجو شيئاً على سماء المساء الرمادية - خرجت حشود هائلة من المخابئ والأقبية ، والأبواب والنازل ، ومحطات المترو ، وقد وضعوا السجائر في أفواههم ، وأمسكوا أدوات أو أوراقاً في أيديهم ، وارتدوا ثياب العمل أو السترات أو المنامات ، أو الملاءات .

قال أحد المدنيين : « إنها طائراتنا » .

فسأله جونثالث : « وكيف عرفت ؟ » .

- « لأن أصواتها أوضح من أصوات الأخرى ! »

ومن الجانب الآخر من مدريد ، وصلت لأول مرة ست وثلاثون طائرة من طائرات المطاردة يملكها الجمهوريون .

وكانت هذه هي الطائرات التي باعها الاتحاد السوفياتي بعد أن تخلى عن سياسة عدم التدخل ، والتي وجدت أخيراً من يقودها ، وبعضها قد حارب فعلاً فوق جبهة خيتافي ، وكانت طائرات الفرقة العالمية قد القت منشورات فوق مدريد لتعلن إعادة تنظيم سلاح الطيران الجمهوري . . غير ان تلك التشكيلات الأربعة التي يتألف كل تشكيل فيها من تسع طائرات تسير على هيئة شبه منحرف ويقودها سميرانو- أبلت لأول مرة لحماية مدريد .

وأنحرفت الطائرة التي تسير في المقدمة ، يميناً ، ثم انحرفت يسرة وترددت . وانقضت الطائرات الجمهورية بكل سرعتها على قاذفات القنابل المعادية . وتشبث أيدي الرجال بأكتاف نسائهم أو بأفخاذهن ، ومن الشوارع جميعاً ، ومن أسطح المنازل ومن مداخل المترو- رفع الناس الذين ظلوا ينتظرون القنابل ساعة بعد ساعة طيلة ثمانية عشر يوماً- رفعوا عيونهم ينظرون ! وأخيراً دارت طائرات الأعداء نصف دورة متجهة صوب خيتافي ، وتعالى هدير يتألف من خمسمائة ألف صوت ، هدير وحشي لا إنساني ، يشيع فيه الخلاص تعالى الى عنان السماء الرمادية التي توغلت فيها طائرات مدريد .

وكان هنريش يراقب من النافذة التي تطل على الليل المقبل حشداً من الجنود الذين انعزلوا عن وحداتهم ، وهم يسعون للانضمام الى تلك الوحدات من جديد ، وانبسط أمامه الخريطة التي يدون فيها الملاحظات

المنقولة اليه بواسطة البير- كما هي العادة ، عن طريق التليفون . وكانت الجوانب جميعاً تؤكد أن الفاشيين لا يملكون أية ذخيرة ، بعد أن قطع عنهم الكولونيل أوريباري قطار الذخيرة .

- « لقد أمكن صد الهجوم الذي شنه الأعداء على بوزويلو- أرافاكا ، يا سيدي الجنرال » وبين هينريش المواقع الجديدة على الخريطة ، وبدت غضون عنقه الأبيض كأنها تبتسم .

وأبلغه ضابط آخر من هيئة إركان الحرب :

- « لقد صد الهجوم على « لاس روزاس » .

ودق جرس التليفون مرة أخرى ، فأجاب البير :

- « حسن ، وشكراً ... »

وكان قد ابلغ انهم تمكنوا من صد الهجوم على مونكلوا Moncloa وشعر الجميع بأنه لا بد من الاحتفال .

وقال هينريش : « ستوزع كؤوس من النبيذ على الجميع عند النجاح المقبل ! » .

وقامت وزارة الحرب بابلاغ البير تليفونياً بالمراكز الجديدة وفقاً لنظام تابعها ، وكانت الفرق تتصل به من جهاز تليفون آخر .

قال البير : « أريد الكونياك يا سيدي ! فنحن نتقدم صوب باب الحديد ، والطريق الى كوروني مفتوح » .

- « استرددنا فيللا فردي ! » .

- « نحن نزحف على كيمادا وجاراليتو ، يا سيدي الجنرال ! » .

لجزء الثالث

الأمل

الفصل الأول

٨ من فبراير :

التقى مانيان بفارجاس مرة أخرى في وزارة الطيران ببلنسية مثلما التقى به من قبل في مدريد مساء معركة مدلان . وكان الوزراء قد تغيروا ، وارتدى المحاربون حلة رسمية ، وأوشك فرانكو أن يستولي على مدريد ، وبدأ الجيش الشعبي في التكوين ، بيد ان الحرب كانت دائماً هي الحرب ، واذا كان كثير من الآخرين قد لقوا حتفهم ، وكثيرون لاقوا مصيرهم فإن فارجاس ومانيان لم يتغيرا كثيراً ، وذهب فارجاس لاحضار الويسكي والسجائر ، كما كان يفعل في مدريد ، كذلك ارتسم على وجهيهما ارهاق آخر الليل ، كما كانت حالهما في مدريد .

قال فارجاس : « لقد ضاعت ملقة يا مانيان »

ولم يكن في ذلك ما يبعث على دهشة مانيان ، فقد كان يعتقد ان الجمهوريين لن يستطيعوا انقاذ الجبهات التي انقطع اتصالها بقوات الوسط من برائن القوات الايطالية والالمانية ، وكان جارسيا قد قال له منذ ثمانية أيام مضت : « إنني انتظر كل شيء من الوسط ، ولا أنتظر شيئاً من الجبهات الصغيرة ، وملقة طليطلة ثانية . » .

- « إن هجرة السكان غير عادية ، يا مانيان . . . فهناك اكثر من مائة الف نسمة لاذوا بالفرار .. هذا شيء فظيع . . . ! » .

وفي منتصف قاعة الاستقبال في ذلك القصر القديم الذي كان يملكه
تاجر غني أطل فوقهم نسر محنط يحمل الثريا الكهربائية .

« والطائرات الإيطالية تتعقبهم ، وسيارات النقل . . . ولو اننا استطعنا
ايقاف السيارات فسيصل اللاجئون إلى آلميريا . . . »

وبعينين كئيبتين وشارب حزين - أتى مانيان بحركة من يريد أن يقول :
متى نرحل ؟

- « ينبغي أن تكون أفضل طائرتنا في مدريد يا مانيان ، وأنا أعلم
أن . . . »

وكان الفاشيون قد شنوا هجوماً شديداً على شرنبة (خاراما) .

« ونحتاج الى قاذفتين للقنابل من أجل طريق ملقة . ولا نكاد نملك هنا
طائرات مطاردة . . . »

ولكن هناك أيضاً مهمة في ترويل . . . ولا يعرف ترويل أحد من رجال
الفرقة العالمية مثلك . . . وأتمنى ألا . . . »

وأكمل حديثه بالأسبانية :

« تختار أعظم المخاطر بل أكثر البعثات فائدة . أنت الى ترويل ،
وسمبرانو الى ملقة . . انه هنا » .

وأضاف قائلاً : وأنت تعلم انه ليست في ترويل أيضاً طائرات
مطاردة . . . »

وكانت فرقة الطيران العالمية قد قاتلت فوق جبهة شرق البحر الأبيض
المتوسط منذ شهرين ، وهي الجبهة التي تمتد من جزر البليار والأندلس
وترويل . وانتهى عهد طيارات البليكان ، واستطاعت تلك الفرقة بصعودها
مرتين الى الجو يومياً ، وبعدد لا بأس به من رجالها في المستشفى ، وبمساندتها

للفرقة العالمية طوال معركة ترويل - استطاعت أن تقا تل ، وأن تقوم باصلاحات ، وأن تلتقط صوراً للغارات اثناء القتال ، كان الطيارون يسكنون قصراً مهجوراً وسط اشجار البرتقال على مقربة من مطار سري ، وقد تمكنوا في اثناء المعركة من نسف المحطة ومركز القيادة في ترويل تحت وابل من قنابل المدافع . المضادة للطائرات ولهذا علقوا صورة مكبرة للانفجار على حائط مطعمهم ، وكان مانيان وطياروه يعرفون تلك الجهة معرفة أفضل من الخرائط .

وسأل مانيان : « في الفجر ؟ » .

وذهبا الى حجرة الخرائط .

كان جيم واسكالي وجارديه وبول وأتينييس وكارليتس ، وسعيدي ، وهو عامل ميكانيكي قادم من الفرقة العالمية - يحتسون المانتانللا في المدينة .

ومن خلفهم على الجانب الآخر من واجهة المقهى اقيمت سوق خيرية صغيرة ، كانت تنبعث منها موسيقى تصل الى القاعة ، ويجري فيها سحب اليانصيب وبيع الحلوى ، والتصويب على الأهداف ، وكان هذا اليوم هو عيد الأطفال ، وأجذب لعبة التصويب على الأهداف رماة المدافع الرشاشة ، فلم يتوانوا عن تحطيم الغلايين والخنازير المصنوعة من الجبس ، وهناك وجدوا كارليتس وسط حلقة من المعجبين ، ولم يكن جارديه وسعيدي قد حضرا من أجل الاطلاق على الاهداف بقدر ما حضرا من أجل الأطفال ، فأنفقا ما يملكان من نقود في شراء الحلوى وتوزيعها عليهم ، وكان جارديه يعشق الأطفال مثلما كان يعشق شاد الحيوانات تعويضاً عما لقيه في حياته من مرارة ، أما سعيدي فكان يحبهم لما تنطوي عليه نفسه من طفولة ، من شفقة اسلامية .

قال بول : « انهم لطاف . . . هؤلاء الأميركيان ! » .

وكان المتطوعون الاميركيون الأوائل في سلاح الطيران قد وصلوا لتوهم .

فقال جارديه : « أما أنا فإن ما يعجبني هو أنهم لا يعتقدون انهم ينقدون الديمقراطية في كل مرة يديرون فيها محرك طائرة » .

وقال اتينيس : « ولهذا بعثوا جنودهم المرتزقة للتسكع » .

وكان اتينيس يبغض المرتزقة بفطرته .

واستطرد بول قائلاً : « أما بالنسبة للقائد الجديد فهو مجرد أحق على الطراز الوطني » .

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يبدو فيها القائد الاسباني الذي يدير المطار مع مانيان - رئيساً لا يحتمل .

قال اتينيس : « دعونا من هذا ، فنحن لا نؤمن بأن الكمال لا يوجد إلا عندنا . والمسألة مسألة وقت ، وسيعود سمبرانو ، ويكفي أن نؤدي عملنا ، وعلى أية حال - فإن الكابتن الاسباني لفرقة البريجيه رجل مدهش » .

- « ومقاتلة الطائرات الحديثة - أسبوعاً بعد أسبوع ونحن على هذه الحالة - تتطلب صبراً عظيماً ! » .

قال اسكالي : « ثمة شيء عجيب : فما من بلد يتمتع بموهبة الأسلوب مثل هذا البلد ، فأنت تأخذ فلاحاً أو صحافياً أو مثقفاً وتعطيه وظيفة ، فيؤديها على وجه حسن أو سيء ، ولكنه يؤديها دائماً تقريباً بأسلوب فيه عبرة لأوروبا ، وهذا القائد لا يتمتع بأسلوب ، وحين يفقد الرجل الاسباني الأسلوب فهذا معناه انه فقد كل شيء فعلاً » .

قال كارليتش : « شاهدت الليلة في قصر الحمراء شيئاً شبيهاً بما تقول : راقصة تكاد تكون عارية ظهرت على المسرح ، يوشك الجمهور أن يلمسها باصبعه ، وهرول نحوها سكير من رجال الميليشيا ، فضمها ملء ذراعيه ،

وهنا تعالت ضحكات الجمهور ، فالتفت اليهم رجل الميليشيا مغمض العينين ومغلق اليد كأنما قد سلب المرأة جمالها حين احتضنها ، واحتفظ بها في يده ، والتفت صوب الجمهور ، ثم القى عليه في احتقار بما قبض عليه من جمال ! شيء مدهش ، ولكنه لا يمكن أن يحدث إلا هنا »

كان يتحدث بلغة فرنسية أشد ركاكة مما كانت عليه من قبل ، ولما كان رئيساً لوحدة من الجنود غير النظاميين بدأ كأنه يخرج من حمام حل فيه الكافور محل ماء الكولونيا ، وأزاح قبعته بوصفه قائداً ، فتعرف اسكالي على « شوشته » السوداء الكثة .

قال بول : « إن ما أحبه هنا هو انني اتعلم شيئاً . هذا حق ! أما فيما يتعلق بالقائد فانه مأفون بكل تأكيد » .

قال كارلتيش في شراسة : « لا ينبغي الحديث عن قائد على هذا النحو » .

وكان قد أطلق شاربه ، واتخذ وجهه طابعاً أقل طفولية ، وأشد قسوة، فأحس اسكالي ان الضابط القديم الذي كان يحارب مع رانجل قد عاد الى الظهور .

وهز بول منكبيه ، ورفع سبابته :

- « قلت انه أحق على الطراز الوطني » .

وقال اتينيس في نفسه : إن الموقف ينذر بالشر .

فسأل سعيدي : « كيف جئت الى هنا ؟ » .

- « عندما علمت أن المغاربة يقاتلون لحساب فرانكو قلت للقسم الأشتراكى الذي أنتمي اليه : يجب أن نفعل شيئاً ، وإلا فماذا سيظن رفاقنا العمال بالعرب ، يا سمعان ؟ » .

قال جيم : « اني الملح أنواراً » . وكان يعيث بسلك من الحديد ، ومن هذه الأسلاك كان يصنع طائرات تسير آلياً ، ثم لا يلبث الطيارون أن ينتزعوها منه .

وما برح منذ شهر يرى أنواراً كل يوم ، وفي البداية كان أصدقاه يبحثون عنها ، ولكن كانوا يؤوبون دائماً بالحزن نفسه ولا يجدون أنواراً ، وكان اسكالي وجيم يجلسان متجاورين في مواجهة الآخرين .

قال كارليتش : « ومن ثم فقد استولينا على البارسان ، وكان فيها واحد من كبار المسؤولين الفاشيين ، ولكنه كان شاباً صغيراً ، ربما لا تزيد سنه على عشرين عاماً .

« وكان مختبئاً ، وحين دخلناها لم تكن هناك سوى امرأتين عجوزتين . أما الصبي فرمما وشى بخمسين من رجالنا وبآخرين لم يكونوا معنا . . . وقد أعدموا جميعاً .

قال اسكالي : « لا شيء العن من أولئك الفتيان المراهقين » .

- « وقالت لنا إحدى هاتين المرأتين : « كلا ، كلا ، لا يوجد أحد اللهم إلا ابن أختي الآخر . . . » وكانت هاتان السيدتان خالتيه ، ولكن حدث بعد ذلك أن خرج صبي يرتدي جورباً ، وقبعة . . . » .

وأق كارليتش بحركة دائرية حول رأسه ليصور بها قبعة بحار .

« . . . وحلة بحرية ، وسروالاً قصيراً . فقالت المرأتان : هانتم أولاء هانتم أولاء ترون جيداً ! . . . وكان هو الوغد الذي نبحت عنه ، بيد أنها البستاه ثياب صبي صغير حتى نظن أنه . . . »

قال جيم « الأنوار تدور » ، وكان قد خلع نظارته السوداء .

فضحك كارليتش تلك الضحكة التي كانت تشير اسكالي في شهر اغسطس .

- « وقد أعدمناه » .

وكان الجميع يعلمون ان كارليتش قد ذهب مرتين للبحث عن رفاقه الجرحى تحت وابل من نيران الأعداء ، وانه لا بد ملاقي مصرعه إن عاجلاً أو آجلاً . فالخدمة عنده عاطفة مسيطرة ، ينتظر أن يجدها أيضاً عند من يخدمون تحت امرته ، وفي أول مرة اكتشف فيها أن المغاربة يعذبون جرحاه ، ذهب ليزهق بنفسه أرواح ضباطهم ، ومهما يكن من أمر فإن شخصيته في جملتها كانت تعلق اسكالي وأتينييس ، أما الآخرون فكانوا يعتقدون أنه مجنون الى حد ما ، وفي هذا كله كان سعيدي يرتاب ارتياباً شديداً .

وتذكر اسكالي لحظة وصول كارليتش ، كان يتعل حين ذاك حذاء فخماً عالي الرقبة ، وما أن التقى بأول ماسح للأحذية حتى جلس أمامه لتلميعه ، غير ان تلميع حذاء ركوب من الأحذية القوقازية الجميلة لا يمكن ان يكون هو نفسه تلميع حذاء عادي ، وهكذا جلس ثلاثون من الخبراء العسكريين ينتظرون كارليتش نصف ساعة ، وقد أخذ هذا ينقر على المائدة حانقاً حتى ينتهي ماسح الأحذية من لمساته الأخيرة في تلميع فردة الحذاء الأخرى .

قال جيم : « لقد توقفت الأنوار » .

كان هذا الأمل المتجدد بلا انقطاع يشيع حوله في كل مرة جواً من الحرج الرهيب ، ويزداد هذا الحرج بمقدار شعوره بالخجل من أنه أعمى ، وبأنه يرغب نفسه على المرح ، وذات يوم وعدهم بتقديم مجموعة من المحار اعتقد انه يستطيع الحصول عليها بحيلة ما ، وكان في ذلك مخططاً ، ووجد أوائل القادمين (وكان هو واسكالي من أواخرهم) ورقة تنتظرهم في المقهى وقد كتبت عليها هذه العبارة : « بعد تفكير طويل قررنا عدم الحضور : توقيع « المحار » .

وسأل أتينييس كارليتش : « هذه الحياة : أتراها تعجبك ؟ » .

- « عندما توفي والدي (كان لي ثلاثة أشقاء) . كنت حينئذٍ ملتحقاً

بالجيش ، وقال والدي : « فلينعم الثلاثة بالسعادة أما الآخر فعليه أن ينتصر » .

وروى اسكالي مرة أخرى ما اثاره في نفسه القلق طيلة الشهرين الماضيين ، وكان ما يقلقه هو ما يسميه المتخصصون في دراسة الحرب « بالمحاربين » . والواقع ان اسكالي كان يحب المقاتلين ، ويرتاب في العسكريين ، ويبغض « المحاربين » بالسليقة . وكارليتش بسيط غاية البساطة ، ولكن ماذا عن الآخرين ؟ وعند فرانكو آلاف من أولئك المحاربين .

استطرد المدفعي قائلاً : « أرجو أن أنضم الى سلاح الدبابات » .

رجال الدبابات والطيارون ، وضاربوا المدافع الرشاشة : هل سيعود المرتزقة الألمان الى الظهور في أوروبا مرة أخرى ؟
- « ماذا يخيفك من الحرب يا كارليتش ؟ » .

وكان يريد أن يقول : ماذا أثار رعبك أو شفقتك ؟ ولكنه احجم عن مثل هذا التدقيق في اختيار الألفاظ .

- « الخوف ؟ كل شيء ، في بداية الأمر » .

- « ثم ، بعد ذلك ؟ » .

- « لست أدري » .

وسأل جيم : « هل ترون الأنوار ؟ » .

واستطرد كارليتش قائلاً : « انتظر . . . هناك شيء آخر يخيفني . .
الرجال المشنوقون . . . وأنت ؟ » .

- « لم أشاهد أحداً منهم قط » .

- « من حسن حظك . . . فهذا شيء مخيف . . عندما يحدث شيء

كهذا ، وتسيل الدماء - يكون كل شيء طبيعياً .. اما المشنوقون فليسوا طبيعيين .. عندما لا يكون هناك دم لا يكون الأمر طبيعياً ... وحينما لا تكون الأمور طبيعية يكون الخوف» .

ظل اسكالي يستمع الى ما يقال عن « مفهوم الانسان » زهاء عشرين عاماً ، وكان هذا الموضوع يؤرقه .. ما أجمل التفكير في مفهوم الانسان اذا وضع ازاء الانسان المشتبك في الصراع بين الحياة والموت ! والواقع ان اسكالي لم يعد يعرف ما يريد على وجه التحديد ! هناك الشجاعة والسخاء ، ولكن هناك الجانب الفسيولوجي أيضاً ، هناك الثوريون ، ولكن هناك الجماهير أيضاً ، وهناك السياسة ، ولكن هناك الأخلاق أيضاً ، وكان الفير يقول : « أريد أن أعرف عم أتحدث ؟ » .

قال جيم : « ها هي ذي الأنوار تتحرك مرة أخرى » .

ونفض اسكالي فاغز الفم واضعاً قبضتيه على المائدة ملقياً بالطائرة المصنوعة من الأسلاك الحديدية على بعد ثلاثة امتار منه ، وأمسك جارديه بجيم من منكبيه ، وأخذ الأثنان ينظران عبر واجهة المقهى الزجاجية الى الكرات الكهربائية الضخمة التي فوق الجياد الخشبية التي شرعت مرة أخرى في الدوران .

جعل جيم وزملاؤه يطلقون صفيراً كعصافير الحقول وكأنما جن جنونهم ، وكان مانيان معهم في سيارة أخرى ، وهم في طريقهم الى المطار ، لكي يطيروا منه الى ملقة ، وكان سرب من أسراب العدو يضرب الميناء بالقنابل على بعد ستة كيلومترات وثمة رذاذ يغطي بلنسية ، وينساب في رفق على ثمار البرتقال ، وكانت النقابات قد قررت تنظيم موكب لم يسبق له مثيل بمناسبة عيد الأطفال ، وطلبت وفود الأطفال - حين أخذ رأيها - اشتراك

شخصيات الصور المتحركة في الموكب ، فأقامت النقابات نماذج ضخمة من شخصيات ميكي ماوس ، والقط فيلكس ، والبطة دونالد (تتقدمها شخصية دون كيشوت وسانشوبانثا) . ووفد الى مدريد من جميع الأقاليم آلاف من الأطفال للاحتفال بالعيد الذي خصص ايراده لصالح الأطفال اللاجئين ، وكان الكثيرون منهم بلا مأوى ، وفي الشوارع الخارجي وقفت العربات مهجورة بعد ان انتهى الاستعراض ، وقد ظهرت على ضوء مصابيح السيارات وعلى مسافة طولها كيلومتران الحيوانات الناطقة في عالم الجن الحديث ، ذلك العالم الذي يبعث فيه كل من يقتلهم الناس وتحت التماثيل المصنوعة من الورق المقوى ، بين سيقان القسط والفئران - قبع الأطفال الذين لا يعرفون لهم مأوى ، وواصل سرب العدو ضرب الميناء بالقنابل ، وعلى ايقاع الانفجارات وتحت حراسة دون كيشوت الليلية - كانت الحيوانات التي ترتعش بتأثير المطر ، تهز رؤوسها فوق الأطفال النائمين .

كان ايتينييس هو قاذف القنابل في طائرة سمبرانو ، وقد اختلط طاقم الطائرتين ، وفي طائرة سمبرانو كان يعمل پول بوصفه ميكانيكياً ، وكذلك كان يعمل فيها ايتينييس ، كما اصطحب سمبرانو معه طياره الثاني ، وهو من اقليم الباس ويدعى ريبس Reyes ، وقد وجدوا في آخر مطار من جهة الجنوب قنابل لا بد من تغييرها ، واضطراباً خليقاً بطليطلة ، فهناك قبل الوصول الى ملقة بقليل كانت هجرة مائة وخمسين الفاً من الناس تمتد على طول الطريق المحاذي للبحر ، ومن الخلف الطرادات الفاشية المتجهة صوب الميريا في صباح بديع وهي تسحب خلفها ذبلاً طويلاً من الدخان الكثيف ، وأخيراً يأتي أول طابور من الطوابير الايطالية - الاسبانية المدرعة ، فاذا نظرت اليه من الطائرة خيل إليك انه سوف يلحق بالمهاجرين بعد ساعات قلائل ، وتبادل ايتينييس وسمبرانو النظرات ، وهبطا الى أقصى ما يمكن الهبوط اليه ،

فلم يلمحاً أثراً للطابور .

وكيما يعود سمبرانو بأسرع ما يمكن أطلق جهاز السرعة ويم شطر
البحر .

وحين التفت اتينيس كان الميكانيكي يحك راحتيه الملطختين بزيت
مقابض الأجهزة القاذفة للقنابل ، ونظر اتينيس امامه مرة أخرى الى السماء
المملوءة بالسحب الكثيفة الواضحة المعالم ، وهناك رأى ثماني عشرة طائرة
مطاردة من طائرات العدو ، وقد تحلفت ، وانقسمت مجموعتين ، ومن
المحتمل أن تكون وراءها طائرات أخرى .

واخترقت الرصاصات البرج الأمامي .

ولم يلبث سمبرانو أن تلقى ضربة وحشية على ذراعه اليمنى التي بدأ
الأحساس يفارقها تماماً ، فالتفت صوب الطيار الثاني قائلاً : « أمسك
المقبض ! » ولم يكن ريس ممسكاً بالمقبض ، بل كان ممسكاً بيطنه بكلتا
يديه ، ولولا الحزام الذي يمنعه لسقط فوق اتينيس الذي عاد الى الخلف ،
وتمدد على مقعده في الطائرة ، وقد غاصت قدمه في الدم . ولم يكن من شك
أن طائرات العدو المطاردة التي تسير وراء طائراتهم سوف تطلق عليهم نيرانها
منفوق ، ولم تكن هناك أية حماية ممكنة ، اذ يتحتم أمام هذا العدد من العدو
أن تقوم طائرات المطاردة الخمس التابعة للجمهوريين بحماية قاذفة القنابل
الأخرى التي في مركز أفضل للقتال .

وكانت الثقوب التي في جسم الطائرة ثقباً أحدثتها قذائف صغيرة ، فقد
كان الإيطاليون يملكون مدافع رشاشة تطلق قذائف لا رصاصاً ، فهل أصيب
المدفعي الخلفي أو لم يصب ؟ وفي اللحظة التي التفت فيها سمبرانو - وقعت
عيناه على المحرك الأيمن ، فألفاه مشتعلاً ، فما كان منه إلا أن أسقطه ، ولم

بعد أحد من رجال مدفعيته يطلق النيران ، وأخذت الطائرة تهبط لحظة بعد أخرى ، وأنحى أتينييس فوق ريس الذي انزلق من مقعده ، وجعل يطلب في الحاح شيئاً لشربه ، وقال سمبرانو لنفسه : « الجرح في البطن » . وانهاه سيل جديد من رصاص الأعداء فوق الطائرة ، بيد انه لم يلمس سوى الجناح الأيمن ، وكان سمبرانو يقود الطائرة بقدميه وذراعه اليسرى ، وعلى وجنته سالت الدماء في رفق . ولم يكن من شك أنه قد أصيب في رأسه أيضاً ، ولكنه ، لم يكن يتألم ، وما فتئت الطائرة تزداد انخفاضاً ، ووراءها ملقة ، وتحتها البحر ، وهناك عبر شريط من الرمال يبلغ عرضه عشرة أمتار امتدت سلسلة من الصخور .

ولم يكن ثمة مجال للتفكير في الهبوط بالمظلات ، لأن طائرات العدو المطاردة تتعقبهم ، كما ان طائراتهم انخفضت انخفاضاً شديداً ، وكذلك كان من المستحيل عليهم أن يرتفعوا ، لأن جهاز الارتفاع الذي مزقته بكل تأكيد القذائف المتفجرة لم يكن يستجيب لهم ، وكان الماء قريباً منهم الآن الى درجة ان مدفعي البرج الأسفل عاد الى برجه ، وورق داخل جسم الطائرة ، وقد دميت ساقاه هو أيضاً . وأغمض «رييس» عينيه وشرع يهذي بلغة الباسك ، ولم يعد الجرحى ينظرون الى طائرات الأعداء المطاردة التي انطلقت منها بضع رصاصات أخيرة متفرقة ، وإنما كانوا ينظرون الى البحر ، كثيرون منهم لا يعرفون السباحة ، ولا يستطيع المرء أن يسبح ورصاصة متفجرة مدفونة في قدمه أو ذراعه أو بطنه ، وكانوا على بعد كيلومتر واحد من الشاطئ ، وعلى ارتفاع ثلاثين متراً فوق سطح البحر ، والماء تحتهم على عمق أربعة أمتار أو خمسة أمتار . وعادت طائرات العدو المطاردة ، ثم أطلقت جميع مدافعها الرشاشة مرة أخرى . فرسمت الرصاصات حول الطائرة خطوطاً حمراء تشبه نسيج العنكبوت . وكانت أمواج الصباح الصافية الساجية تعكس الشمس - تحت سمبرانو- في سعادة لامبالية : إن أفضل ما يستطيع أن يفعله هو أن يغمض عينيه ، وأن يترك الطائرة تهبط متمهلة

حتى . . وفجأة التقت عيناه بوجه بول القلق الملطخ بالدم الذي لم يفارقه
المرح قط في ظاهر الأمر ، وأحاطت خطوط الرصاصات الحمراء بالطائرة
المملوءة بالدماء ، حيث انحنى اتينيس الآن على ريس الذي انزلت عن
مقعده ، وبدا كأنه يحتضر ، وكانت الدماء تسيل أيضاً من وجه بول ، وهو
الشخص الوحيد الذي يراه سمبرانو وجهاً لوجه ، بيد أن رغبة عارمة للحياة
كانت تلوح على الوجنتين الناعمتين لذلك الرجل الباسم ، بحيث دفعت
الطيار الى أن يبذل مجهوداً أخيراً لاستخدام ذراعه اليمنى . . . بيد أن زراعه
كانت قد اختفت ، فحاول بكل قوة قدميه وذراعه اليسرى الارتفاع
بالطائرة .

وكان بول قد أخرج العجلات ، ولكنه أعادها الآن إلى مكانها ، وانزلت
جسم الطائرة على الماء كالزورق البخاري ، وهدأت سرعة الطائرة لحظة ،
ثم غاصت في زبد الأمواج الهادئة ، وأخيراً انكفأت على وجهها . وكافحوا
جميعاً المياه التي اندفعت داخل الطائرة كأنها قطط غارقة بيد أن الماء لم يصل
الى ارتفاع جسم الطائرة الذي أصبح الآن مقلوباً ، وهرول بول نحو الباب
محاولاً أن يفتحه من أعلى الى أسفل ، كما اعتاد ، ولكنه لم ينجح في
المحاولة ، وأدرك أنه ينبغي أن يبحث عن المقبض من أعلى ، ما دامت
الطائرة قد انقلبت ، بيد ان الباب كان قد تسمر بفعل رصاصة متفجرة ،
وأخذ سمبرانو بعد أن أتخذ وضعاً معقولاً في الطائرة المنقلبة يبحث عن ذراعه
في الماء كما يدور كلب حول ذيله ، وأحدث الجرح بقعاً حمراء في الماء الذي
استحال وريداً داخل جسم الطائرة ، غير أن الذراع كانت في مكانها ،
واستطاع المدفعي الأمامي أن يشق طريقه الى أحد ألواح برجه الذي انفتح
عند اصطدام الطائرة بالماء . . وتمكن هو وسمبرانو واتينيس وبول من
الخروج ، فوجدوا انفسهم أخيراً في مواجهة صف المهاجرين اللاتائي ،
جذوعهم في الهواء الطلق ، وسيقانهم في الماء .

وصاح اتينيس مستنداً على الميكانيكي ، غير أن الأمواج أغرقت صوته ،

ولعل الفلاحين الهاربين قد شاهدوا حركاته ، وكان اتينيس يعلم أن كل شخص في حشد ما يظن ان النداء موجه الى الآخرين . . . وسار فلاح على الشاطئ فزحف اتينيس على أربع حتى بلغ الرمال ، وصاح حين اعتقد أن صوته سيكون مسموعاً : « تعال لنجدتهم » فأجاب الآخر : « لا أعرف السباحة » ، فقال اتينيس وهو يزحف دائماً : « الماء ضحل » ولم يتزحزح الفلاح عن مكانه . وحين رأى اتينيس خارج الماء وعلى مقربة منه ، قال أخيراً : « إن عندي أطفالاً » . ومضى لطيته ، وربما كان صادقاً فيما يقول ، وما المساعدة التي يمكن أن ينتظرها المرء من رجل يتوقف عن هذا الهروب المتعجل ليبتظر الفاشيين صابراً ؟ ولعله يرتاب في الأمر : فإن وجه اتينيس القوي الأشقر يطابق ما يمكن أن يتصوره فلاح من ملقة عن وجوه الطيارين الألمان . وفي الشرق على مقربة من ذرى الجبال - اختفت طائرات الجمهوريين . وغمغم أتينيس : « فلنأمل أن يبعثوا إلينا بسيارة » .

وسحب بول وسمبرانو الجرحى من الطائرة ، ونقلوهم الى الشاطئ .

وخرجت جماعة من رجال الميليشيا من زحمة الحشد ، كانوا واقفين على كتيب من الرمال ، فبدوا أعلى من الحشد ، وكانوا لا يتحركون ، فبدوا متوافقين مع الصخور ومع السحب الثقيلة اكثر من توافقهم مع الكائنات الحية ، وكأن ما لا يهرب لا يمكن ان يكون كائناً حياً ، وشخصت انظارهم على تلك الطائرة التي التهمت النيران ، والتي انبعثت منها خارج الماء السنة قصار من اللهب حجبت لون الخطوط المرسومة على أجنحتها ، وهم يشرفون على ذلك الحشد من المناكب البارزة الى الأمام والأيدي المرفوعة في الهواء ، كأنهم حراس في أسطورة ، وبين سيقانهم المتباعدة لكي تقاوم ربح البحر كانت الرؤوس تتدحرج كأوراق الشجر الميتة ، وأخيراً انحدروا صوب اتينيس الذي صاح فيهم : « ساعدوا الجرحى ! » ، وتقدموا حتى وصلوا الى الطائرة خطوة خطوة ، يعوقهم الماء ووقف الرجل الأخير مع اتينيس ، ثم وضع ذراع الطيار فوق كتفه .

قال اتينيس : « هل تعرف أين التليفون ؟ » .

- « أجل » .

كان رجال الميليشيا ينمون حرس القرية ، وقد خرجوا دون مدافع أو بنادق سريعة الطلقات ، يحاولون الدفاع عن قريتهم المبنية من الحصى ضد طوابير الايطاليين المدرعة . وعلى الطريق ، رافقهم مائة وخمسون ألفاً لا سلاح معهم ، من المهاجرين البالغ عددهم مائتي الف من سكان ملقة تعاطفاً و فراراً حتى الموت من « محرر اسبانيا » .

وتوقفوا عند منتصف السفح ، وقال اتينيس في نفسه : « من الوقاحة أن يقال : ان جروح الرصاص لا تؤذي ! ومياه البحر لا تخفف شيئاً من الألم » وفوق الكتيب كانت الجذوع المنحنية تتقدم دائماً صوب الغرب ، بعضها يسير متتداً ، وبعضها الآخر - يهرول ركضاً وأمام بعض الأفواه ، كانت ثمة قبضة تمسك شيئاً غير واضح المعالم ، كأنها تعزف جميعاً في نفيير صامت . والواقع انهم كانوا يأكلون نوعاً من الحشائش القصيرة الغليظة ، ربما كانت نوعاً من « الكرفس » . قال رجل الميليشيا : « هناك حقل » . وهبطت امرأة عجوز صائحة ، واقتربت من اتينيس وناولته زجاجة : « يا اطفالي المساكين ، يا اطفالي المساكين ! » ونظرت الى الآخرين الراقدين عند اقدام الكتيب ، واستعادت الزجاجة قبل أن يمسك بها اتينيس ، وهبطت بأسرع ما تستطيع دون ان تكف عن الصياح بنفس العبارة .

وشرع اتينيس في صعود الكتيب مستنداً على رجل الميليشيا ، ومرت بعض النسوة راكضات . . . ثم توقفن ، وبدأن في الصياح وهن ينظرن الى الطيارين الجرحى ، والى الطائرة التي خدت نيرانها ، ثم واصلن سيرهن .

وقال اتينيس في نفسه بمرارة حين وصل الى الطريق : « شارع الأحد » . وتحت جلبة الفرار المنتظمة مع ايقاع امواج البحر ارتفعت ضوضاء أخرى يعرفها اتينيس جيداً : طائرة مطاردة من طائرات الأعداء ، وتشتت

الحشد ، فقد سبق له أن تعرض لقنابل الطائرات ومدافعها الرشاشة .

كانت الطائرة تتجه في خط مستقيم صوب قاذفة القنابل التي أخذت نيرانها الأخيرة تنطفئ في البحر ، وكان رجال الميليشيا ينقلون الجرحى ، وسيصلون الى الطريق قبل وصول الطائرة المعادية ، لا بد من الصباح لكي ينبطح الناس ارضاً ، غير أن أحداً لم يسمع شيئاً ، وأرقد رجال الميليشيا الجرحى الى جدار صغير ، وفقاً لتعليمات سميرانو . وهبطت الطائرة الى مستوى منخفض كل الانخفاض ، ودارت حول قاذفة القنابل التي رفعت عجلاتها في الهواء ، وكستها السنة اللهب للأخذه في الانطفاء كأنها دجاجة تشوى ، ولم يكن من شك أنها تلتقط لها صورة ثم لم تلبث أن ابتعدت ، وحدث اتينيس نفسه قائلاً : « لا تنسوا سياراتكم التي كانت عجلاتها في الهواء أيضاً » .

ومرت عربة ، فأوقفها اتينيس ، وترك كتف رجل الميليشيا ، وتحلى فلاح شاب عن مكانه ليجلس عليه اتينيس بجوار امرأة عجوز ، ومضت العربة في سبيلها ، وكانت تحمل خمسة من الفلاحين . ولم يوجه اليه احد سؤالاً ، كما أن اتينيس لم يفه بكلمة : كان العالم كله في هذه اللحظة ينساب في اتجاه واحد .

وسار رجل الميليشيا الى جوار العربة ، وكان الطريق يتعد عن البحر بعد كيلومتر واحد ، وفي الحقول أضمرت النيران ، تلك النيران التي انبعث منها نفس ذلك القلق المنبعث من أولئك الناس المنكمشين أو الراقدين في سكونهم أو في فرارهم . وواصلت تلك الكتلة السلبية من المهاجرين هجرتها اليائسة عبر الحقول متجهة صوب أليريا ، وتشابكت العربات تشابكاً لا سبيل الى حله ، فلم تجد العربة التي تحمل اتينيس مناصاً عن الوقوف .

وسأل اتينيس : اما زالت بعيدة ؟ » .

فأجابه رجل الميليشيا : « ثلاثة كيلومترات » .

ومر عليهم فلاح يمتطي حماراً ، وكانت الحمير تخرج عن الطريق دون انقطاع ، وتتسلل في كل مكان ، وتسير بسرعة أكبر .

- « اعزني حمارك ، سأعيده اليك عند مكتب بريد القرية . . . من أجل الطيارين الجرحى » .

ونزل الفلاح دون أن ينطق حرفاً ، واتخذ مكان اتينيس في العربة . ومر على الحمار فتي وفتاة طالبان بلا شك ، تبدو عليهما الأناقة ، ولا يحملان متاعاً ، وكان كل منهما يمسك بيد الآخر ، ولاحظ اتينيس انه لم يشاهد حتى الآن إلا حشداً من المساكين ، ومن العمال أحياناً ، ولكنه يكاد يكون من الفلاحين دائماً . . . وعلى ظهور أفراده أغطية مكسيكية دائماً . . . بيد انه لم يلحظ انهم تبادلوا الحديث فيما بينهم ، وإنما رأهم يطلقون صيحات ، ثم يجيم الصمت عليهم من جديد .

وامتد الطريق داخل نفق ، فبحث اتينيس عن بطاريته الكهربائية ، وحاول انتزاعها من جيبه المبلل ، ولكن دون جدوى ، واشتعلت أضواء صغيرة لا حصر لها ، مصابيح من كل الأنواع ، أعواد ثقاب ، مشاعل ، جذوات ، ولكنها لا تلبث ان تنطفئ جميعاً ، صفراء حمراء ، أو قد تبقى محوطة بهالة على جانبي الحشد والحيوانات والعربات . وهناك ، في حمى من الطائرات ، استقر مخيم كبير من المهاجرين في الحياة القائمة تحت الأرض بين فجوتين زرقاوين بعيدتين تبعثان من ضوء النهار ، وأخذ شعب من الظلال يتحرك حول المشاعل أو مصابيح العاصفة الثابتة ، وقد تظهر جذوعهم ورؤوسهم لحظة كالأطيار ، وتظل سيقانهم غارقة في الظلام ، وكانت ضجة العربات تهدر تحت الصخرة كأنها نهر يجري تحت الأرض ، في سكون بلغ من قوته أنه فرض نفسه على الحيوانات .

وارتفعت حرارة اتينيس داخل النفق ، وربما كان هذا الارتفاع ناشئاً

عن الجموع المحتشدة ، أو عن الحمى التي سرت في دمائه . لا بد من الوصول الى التليفون ، لا بد - بكل تأكيد - من الوصول الى التليفون ، ولكن ألم يمت اتينيس على الطريق ؟ ألا يمكن أن تكون العربة والحمار مجرد أحلام تتخلل احتضاراً فيه شيء من عذوبة ؟ ومن الماء الذي غمره ، تسلسل الى ذلك العالم المسدود داخل أعماق الأرض . غير أن دليلاً أقوى من كل أدلة الأحياء اليقينية انساب من ذلك الدم الذي انسال منه في جسم الطائرة ، وصحبه حتى هذا النفق الخائق ، وأخذ كل ما كانت تعنيه الحياة يتحلل مثلما تتحلل الذكريات في حذر عميق موحش ، وتحولت النقاط المضية الى اسماك تحيا حياتها داخل تلك الظلمة الحارة ، وانزلق القوميسير السياسي ساكناً دون ثقل فيما وراء الموت ، عبر نهر من النوم واسع عظيم .

وفجأة سطع نور النهار الذي كان آخذاً في الاقتراب عند منعطف في الطريق ، فتنبه جسده كله ، وكان ذلك النور كان مثلجاً ، وأستولت عليه الدهشة حين الفى كل شيء في مكانه : فكرة التليفون المسيطرة عليه ، قدمه التي تنبض بالألم ، حمارة بين ساقيه . ولما كان قد نفذ بجلده من الطائرة ، ومن المعركة - فقد أحس انه عائد من عالم الأشباح ليوواجه سر الحياة مرة أخرى . ومن جديد فوق زحمة الشعب الهارب امتدت ارض اسبانيا الحمراء حتى البحر الأبيض المتوسط ، وقد اعتلت صخورها عنزات سوداء .

وتدافعت الجموع التي هزتها الأحداث من كل جانب - حول أول قرية صادفتها تاركة آلاف الأدوات حول الجدران الأولى ، كما يترك البحر عند انحساره الحصى والحطام . وأحاطت الحيطان بأناس يرتدون خليطاً عجيباً من الثياب برزت منها الأسلحة هنا وهناك ، فبدوا كأنهم قطع من الماشية في حظيرة ، وهنا فقد المهاجرون قوتهم التي لا تقل عن قوة السيل العارم ، ولم يعد ثمة غير حشد من الناس .

واستطاع اتينيس الذي ظل ممتطياً ظهر حمارة أن يصل الى مكتب التليفون ، بفضل رجل الميليشيا ، غير أن الأسلاك كانت مقطوعة !

سأل بول رجال الميليشيا اين يستطيع أن يجد سيارات النقل ، وذلك بعد أن أرقد الجرحى صفاً الى جوار الحائط ، فأجابوه : « في المزارع ، ولكن ، لا يوجد بنزين ! » وجرى الى اول مزرعة ، وشاهد سيارة ، ولكنه وجد خزان البنزين خالياً . فعاد مرة اخرى ركضاً ، حاملاً دلوأ ، واستطاع أن يضع فيها جزءاً من البنزين الذي تبقى في خزان السيارة . السليم ، ورجع الى المزرعة ، وهو يحمل الدلو في وضع متزن ، مما أرغمة على السير وثيداً خارج تيار المهاجرين الذي لا ينقطع منتظراً بين لحظة وأخرى وصول السيارات التي تسير في اعقاب تلك التي نسفها في الصباح ، وحاول تسيير السيارة ، غير أن محرك السيارة كان مكسوراً .

وجرى صوب المزرعة الثانية ، وكان سمبرانو يعتقد ان أتينييس لن يتمكن من التصرف دون عناء وسط هذا الاضطراب ، ولهذا فقد كان يريد العثور على سيارة بدلاً من انتظار سيارة مرسلة ، وفي تلك المزرعة التي تشبه داراً ريفية خالية من الأثاث ، ويبدو خزفها المغربي وفريسكاتها الرومانسية المزيفة المحلاة بالبيغاوات كأنها تنتظر اشتعال الحريق - كانت ضجة الجماهير الهاربة المنبعثة من جوف الأرض تهدد بوصول العدو لحظة بعد أخرى . وفي هذه المرة عاد اليه سمبرانو مسنداً بيده اليمنى ذراعه اليسرى التي ضمدها له أحد رجال المدفعية الاسبان . . وما أن عثروا على سيارة حتى رفع سمبرانو غطاءها ، ولكنه وجد موصل البنزين محطماً ! وهكذا ، كانت السيارات قد خربت تخريباً منظماً حتى لا يستطيع الفاشيون استخدامها ، وانتصب سمبرانو الذي انحنى على السيارة فاغراً فاه مغمضاً عينيه نصف اغماضة ، كأنه فولتير في حالة نعاس ، وبخطوة شبيهة بخطوة ملاكم ثمل اتجه صوب المزرعة التالية ، دون أن يغلق فاه .

وسمع صوتاً ينادي باسمه ، وسط حقل من الحقول : انه المدفعي

الاسباني ، بجسمه المستدير الشبيه بتفاحة ناضجة ، وما برحت الدماء تسيل منه دون انقطاع ، يعدو نحوه ، وهو يقفز ، ويتواثب . وكان اتينيس قد عاد بسيارة ، إذ أخطرت طائرات المطاردة التابعة للجمهوريين المستشفى ، فوضع سميرانو وبول الجرحى فوق ارضية السيارة ، وعلى الأريكة الخلفية ، على حين بقي المدفعي معهم .

وحضر مع السيارة طبيب هو رئيس القسم الكندي لنقل الدم .

ما من طيار من الطيارين لم يتحدث عن وصول الفاشيين منذ سقوط الطائرة ، وليس من شك ان أحداً منهم لم يكف - كما فعل اتينيس - عن أن يمثل لذنه الطابور المدرع الذي أغارت عليه الطائرات عند خروجه من ملقة .

وبدت السيارة ، المشحونة في المقدمة خالية في المؤخرة ، وكان رجال الميليشيا يوقفونها كلما قطعت كيلومتر لاركاب بعض النسوة ، فإذا شاهدن الجرحى وهن على سلم السيارة امتنعن عن الركوب . وقد اعتقد الجمهور لأول وهلة أن اللجان لاذت بالفرار هي أيضاً ، وحين شاهدوا الجرحى مكدسين في كل سيارة تبدو خالية ، تعودوا ان ينظروا الى السيارة في مودة حزينة ، وكان ريس في حشرجة الموت ، فقال الطبيب لأتينيس : « سنحاول أن ننقل اليه كميات من الدم ، ولكن أملي ضعيف » .

وعلى حافة الطريق رقد كثير من الناس حتى أصبح من المتعذر تمييز الجرحى من النائمين ، وكان عدد النسوة ينام بعرض الطريق ، ونزل الطبيب ، وتحدث اليهن ، فنهضن بدافع من الفضول ، وتركن السيارة تمر في صمت ، ثم عدن الى الرقاد انتظاراً للسيارة القادمة .

وأخذ شيخ عجوز حولته الشيخوخة الى غضون وأعصاب ، شيخوخة مفتولة يبدو أنها لا توجد لا لدى الفلاحين - أخذ يصيح مستنجداً وقد حمل فوق ذراعه اليسرى المطوية طفلاً لا يزيد عمره على بضعة أشهر ، وعلى طول الطريق تناثرت أحزان أخرى عظيمة ، ولكن ربما كان الإنسان اضعف ما

يكون حين يرى الطفولة المعذبة منه حين يرى أي شيء آخر : فلقد أوقف الطبيب السيارة على الرغم من احتضار ريبس ، وكان من المستحيل ان يركب الفلاح في الداخل ، ومن ثم فقد استقر على جناح السيارة ، وما زال حاملاً الطفل على ذراعه اليسرى ، ولكنه لم يجد شيئاً يتشبث به ، وكان بول قد استقر على الجناح الآخر ، وهو يمسك بيده اليسرى مقبض الباب ، ومن ثم فقد مد يده اليسرى ، فأمسك بها الفلاح ، ولم يجد السائق بدأً من أن يقود السيارة وهو نصف قائم ، اذ اشتبكت اليدين أمام زجاج السيارة الأمامي .

ولم يستطع الطبيب وأتينييس ان يحولا عيونهما عنهما ، وكان الطبيب يشعر دائماً ازاء مشاهد الحب في المسرح والسينما بأنه يختلس النظر ، وهنا أيضاً ، كان مشهد هذا العامل الغريب العائد الى القتال ممسكاً بقبضة الفلاح الأندلسي العجوز ، امام شعب يلوذ بالفرار . . . كان هذا المشهد يحيره ، فحاول جاهداً أن يتحاشى النظر اليهما . ومع ذلك فقد ظل أعرق أجزاء نفسه مرتبطاً بهاتين اليدين - وهذا الجزء من نفسه هو بعينه الذي جعله يتوقف منذ لحظة ، وهو بعينه الذي يتعرف على الأمومة والطفولة والموت في اشد مظاهرها تفاهة .

وصاح أحد رجال الميليشيا : « قف ! » ولم يخفف السائق من سرعته فصوب رجل الميليشيا بندقيته نحوها ، وهنا صاح السائق : « طيارون جرحى » ، فوثب رجل الميليشيا فوق سلم السيارة صائحاً : « قف بحق السماء ! » .

- « قلت لك : انهم طيارون جرحى ، أيها الغبي ! ألا ترى جيداً ؟ » وتبادلا جملتين أخريين لم يفهمهما الجرحى ، وأطلق رجل الميليشيا النار ، فانكفاً السائق على عجلة السيارة ، وكادت السيارة تصطدم بشجرة ، فداس رجل الميليشيا على الفرامل ، وقفز ، ثم مضى في طريقه .

ووثب داخل السيارة رجل من رجال الميليشيا الفوضويين ، يضع على رأسه قبعة عسكرية حمراء وسوداء ، ويحمل سيفاً الى جانبه ، قال : « لماذا

أوقفكم ذلك المافون ؟ » فأجابه أتينييس : « لا أدري ! » .

ووثب الفوضوي الى الأرض ، وجرى وراء رجل الميليشيا الآخر ، ولم يلبث الأثنان أن اختفيا وراء الأشجار الخضراء القائمة في ضوء الشمس ، وظلت السيارة في مكانها لا تريم ، فلم يكن بين الجرحى من يستطيع قيادتها ، وعاد الفوضوي الى الظهور ، وكأنه خرج من وراء الكواليس ، وقد أمسك بيده سيفاً أحمر ، وعاد حتى بلغ السيارة ، فوضع السائق المقتول على حافة الطريق ، ثم جلس مكانه ، وقاد السيارة دون أن يوجه سؤالاً ، والتفت بعد عشر دقائق ، وهو يلوح بسيفه الملطخ بالدماء : « وغد ، عدو الشعب ، لن يعود الى ما فعل » .

وهز سمبرانو منكببه ضجراً من الموت ، فاستاء الفوضوي ، وأشاح برأسه .

قاد السيارة متعمداً ألا ينظر الى جيرانه ، ولم يكن يقود في عناية فحسب ، بل كان يحاول أن يتجنب المطبات أيضاً .

وقال بول بالفرنسية ، وكان وجهه خارج السيارة على مقربة من القبعة العسكرية الحمراء - السوداء : « أنت تتحدث عن رجل من رجال الميليشيا المحليين ، وحين ينتهي من تجهمه ، سيقص علينا القصة ! » .

ونظر أتينييس الى وجه الفوضوي المغلق المعادي المائل خلف يدين متشبثين بزجاج السيارة .

وأخيراً وصلوا الى المستشفى .

كان المستشفى خالياً ، وإن امتلأ بالأجهزة والضمادات وبجميع الآثار الدالة على مرور الألم في ذلك المكان ، وعلى الأسرة غير المرتبة الملطخة بالدماء في كثير من الأحيان ، والتي كان خلوها الممتزج في قسوة بآثار ما زالت طرية للأشخاص الذين ناموا عليها ، كانت تبدو وكأنما لم ينم عليها أشخاص أحياء أو أموات بوجوههم الخاصة ، وإنما نامت عليها الجراح نفسها : فثمة

دماء مكان الذراع ، أو الرأس ، أو الساق ، وكان لنور الكهرباء وطأة ثقيلة ثابتة أضفت على القاعة كلها طابعاً غير واقعي ، ولسيطرة اللون الأبيض الواحد طابع الحلم لولا بقع الدماء ، وبعض الأجسام التي فرضت في وحشية حضور الحياة ، وكانت ثلاث حالات لا يمكن نقلها تنتظر الفاشيين ، وقد وضع كل شخص من أصحاب هذه الحالات مسدسه الى جواره .

لم يكن هؤلاء ينتظرون شيئاً سوى الموت على أيديهم أو على أيدي اعدائهم ، اللهم إلا اذا حضرت الطائرات الصحية في الوقت المناسب ، ونظروا في صمت الى دخول بول بشعره المجعد ، وسمبرانو بشفته البارزة ، والى الآخرين بوجوه علاها الألم ، وامتألت القاعة بذلك الاخاء الذي يجمع بين المنكوبين .

الفصل الثاني

وادي الحجارة

تمكن أربعون ألفاً من الايطاليين الذين تضمهم الوحدات المدرعة بدباباتهم وطياراتهم من اختراق جبهة الجمهوريين عند فيلافيشيوزا ، وكان عليهم أن ينحدروا من وديان أنجيريا وتاخونيا ، وان يسلكوا طريق وادي الحجارة ، وقلعة عبد السلام (هنارس) للانضمام الى جيش فرانكو الجنوبي الذي أوقف عند أرجاندا ، وبذلك يقطعون كل اتصال بمدريد .

ولم يجد الايطاليون - الذين ازدهاهم انتصارهم في ملقة - سوى خمسة آلاف من الرجال أمامهم . بيد أن رجال الميليشيا هزموا في ملقة مثلما هزموا في طليطلة ، ولم يكن قتالهم هنا أفضل منه في مدريد . وفي اليوم الحادي عشر تمكن الاسبان والبولنديون والألمان والفرنسيون البلجيكيون وأتباع غاريبالدي في الفرقة الأولى - ثمانية ضد واحد - من صد الغارة الايطالية على جانبي طريق سرقسطة وطريق بريويجا .

وما ان تسللت اضواء الفجر الشاحبة من السحب المثقلة بالثلوج ، حتى شرعت القذائف الأحرار والغابات المفتوحة التي اعتمد عليها الألمان في كتيبة ادجار - آندريه والمتطوعون الجدد الذين أرسلوا على عجل ، وانخلعت اشجار الزيتون من قذيفة واحدة ، فتطايرت جميعاً ، حتى بلغت عنان السماء هناك حيث كانت الثلوج معلقة في السحب ، ثم تهاوت كالصواريخ النارية تتقدمها فروعها ، في جلبة اشبه بتكسر الأوراق .

ووصلت موجة الهجوم الايطالية الأولى . وهنا قال قوميسير سياسي :
« يا رفاق ، إن مصير الجمهورية سيتحدد خلال الدقائق العشر القادمة ،
ورابط رجال المدفعية الرشاشة الثقيلة الى جوار مدافعهم ساحين مزليجها
قبل موتهم مباشرة ، واستطاع الجمهوريون أن يشيدوا خطأ للدفاع تحت
وابل النيران ، وأن يدعموا جناحيهم .

وفي بعض الأحيان كانت قذائف الفاشيين تمتنع عن الانفجار .

ونض قوميسير السرية الجديدة ، قائلاً :

- « تحية للعمال الذين أعدموا في ميلانو بتهمة تخريب القذائف ! » .

ووقف الجميع وإن تردد عمال مصانع الأسلحة ، وكانوا يعلمون: إن
القذائف لا تنفجر دائماً .

ووصلت الدبابات الفاشية .

غير ان رجال الفرقة العالمية ورجال الديناميت كانوا قد اعتادوا مواجهة
الدبابات في معركة نهر شرنبة Jarama وحين وصلت الدبابات الى العراء
انكمش الألمان تحت الأشجار ، لا يبرحونها . وكانت الدبابات مزودة بمدافع
رشاشة ، ولكنهم كانوا أيضاً مزودين بمثلها ، وأمام الأشجار المتلاصقة أخذت
الدبابات تجوس جيئة وذهاباً دون جدوى ، مثل كلاب ضخمة ، ومن حين
الى آخر كانت شجرة بلوط صغيرة تطير حتى تصل الى السحب المثقلة
بالثلوج .

ومن الغابة المنسحقة حصدت المدافع الرشاشة الفلمنكية صفوف
الفاشيين المهاجمة ، وصاح رئيس رجال المدفعية : « ما دنا نملك ذخيرة لتلك
الآلات فسكوه كل شيء على ما يرام » ، صاح بهذه الجملة وسط هدير
المدافع الراعدة ، وأزيز طلقات البنادق ، وانهمارات المدافع الرشاشة ،
وانفجارات الرصاصات المتفجرة ، وصفير قذائف الدبابات الحاد ، وطنين
الطائرات التي لم تستطع الخروج من السحب المنخفضة أشد الانخفاض .

وفي المساء هاجم الايطاليون بقاذفات اللهب ، ولكنها لم تنجح فيما فشلت فيه الدبابات .

وعادت فرقة الصاعقة الايطالية الى الهجوم في اليوم الثاني عشر ، والتقت بكتائب الفرقة الخامسة ، وهي كتائب مانويل والفرسيين والألمان . وفي ختام النهار احتشد الايطاليون فوق رقعة ضيقة من الأرض ، وقد تقطعت خطوط مواصلاتهم ، ولم تعد ذخيرتهم الثقيلة وتموينهم يصلان الى الجبهة ، وبدأ الجليد في السقوط ، وظل الطريق يتهدده الخطر ، بيد أن الجيش الايطالي لم يكن أقل من ذلك تعرضاً للأخطار .

وفي اليوم الثالث عشر انقطع انهمار الجليد ، ومات بعض المتحاربين من الصقيع .

ووصلت في اثناء الليل تعزيزات من الكتائب الاسبانية قادمة من مدريد ، وكذلك وصلت تعزيزات من الفرقة العالمية ومن رجال اكسيمينيس الحاملي الغدارات . وأصبح الجمهوريون يقاتلون بجندي منهم ضد اثنين من جنود الأعداء ، ووقف الآن رجال الفرقة العالمية في خط النار مجهزين ، وإن لم يكونوا مسلحين تسليحاً جيداً ، وفي الجانب الآخر من الطريق ، وفي خط مواز لهؤلاء صعد رجال مانويل وفرقة ليستر بأحذيتهم المصنوعة من المطاط . ولم يشعر سيري ومارنجو (وقد انضموا الآن الى الكتيبة الفرنسية - البلجيكية) لم يشعرا قط منذ ثلاثة اشهر من المعارك المشتركة انها أقرب الى الاسبان منها في ذلك المساء القارص من أمسيات مارس ، حين صعد جيش الشعب في خطوة منتظمة بأحذيته المطاطية صوب ذلك الأفق الذي رجته القنابل رجاً . وأحياناً كان مدفع ثقيل ينبع نباحاً أسرع ، فتجيبه مدافع أخرى ، كما كانت تفعل الكلاب في حقول وادي الحجارة ، وكلما تعالت ضجة المدافع ، اشتد تلاصق الرجال بعضهم الى بعض .

في اليوم الرابع عشر هاجمت قوات الفرقة الخامسة ومانويل مدينة تريجوك ، واستولت عليها ، أما جناح الأعداء الآخر فكان يحميه قصر

« ايبارا » ، ووراء كل نافذة بندقية سريعة الطلقات ، وما فتئت القوات الفرنسية - البلجيكية والقوات الجاريبالدية تهاجمه منذ الساعة الثانية بعد الظهر .

وكان ستون في المائة من القوات الجاريبالدية تزيد سنهم على خمسة وأربعين عاماً .

لم يكونوا يرون الآن شيئاً من القصر المنخفض المسطح ، وهم قابعون تحت أشجار الغابة - سوى أسنة قصار من اللهب تتخلل الليل الهابط ، والجليد الذي عاد الى الإنهار ، وخفت حدة النيران ، فتناهت الى اسماعهم مرة أخرى طلقات متفرقات، وصوت هائل اذا قيس بالصوت الأدمي كان أشبه بالمدفع بالقياس الى البندقية - شرع يزجر باللغة الايطالية قائلاً :

- « يا رفاق ، يا عمال وفلاحي ايطاليا . . لماذا تحاربون ضدنا ؟ وحين تكفون عن الاستماع الى مكبر الصوت هذا - ستكون الضجة التي تطغي عليه هي ضجة الموت . فهل تموتون لكي تمنعوا عمال اسبانيا وفلاحيها من أن يجيوا حياة حرة ؟ إنهم يمدعونكم . . . ونحن . . . »

وطغى انطلاق المدافع والقنابل اليدوية على صوت مكبر الصوت الجمهوري ، وكان ذلك المكبر للصوت رباعي الأركان أشبه بصفيحة بترول ملقاة على جنبها ، وأضحخ من السيارة التي تحمله - يكاد يكون وحيداً خلف ستار الغابة مهجوراً ، ولكنه حي ما دام يتكلم . . . وهذا الزئير المنطلق من مسافة كيلومترين ، وكأنه يعلن نهاية العالم ، في لهجة بطيئة حتى ليصعب الى المرء تمييز عباراته - كان يصرخ في البداية عبر الليل المنسدل والأشجار ذات الأغصان التي قطعتها الرصاصات والجليد الذي لا ينتهي :

« يا رفاق ، سيقول لكم أسراكم عندنا : إن « الهمجين الحمر » قد استقبلوهم بأذرع مفتوحة ما زالت دماؤها تسيل من الجروح التي أحدثتموها . . . »

وتقدمت دورية فاشية عبر الجليد والغابة التي سيطر عليها مكبر الصوت .

وصاح صوت بالاطيالية في أثناء برهة من الصمت : « ألقوا أسلحتكم » .

وصاح الضابط : كفوا عن اطلاق النار ، يا أيها الحمقى المعتوهون .. اننا نحن ! » .

- « ألقوا أسلحتكم ! » .

- « ولكنني قلت من نكون ! »

- « نعلم ذلك ، لكن ألقوا أسلحتكم » .

- « ألقوا أنتم أسلحتكم ! » .

- « بعد أن نعد ثلاثة سنطلق النار » .

وبدأت الدورية تدرك ان الايطاليين الذين يجيئون عليها ليسوا من رجالها .

- « واحد . . . استسلموا ! » .

- « لن يحدث ذلك أبداً » .

- « اثنان . . . استسلموا ! » .

وألقت الدورية سلاحها .

هاجم الجارريالديون « القصر » من جانب ، والفرنسيون - البلجيكيون من الجانب الآخر ، وارتفع صارخ فوق الغابة ، فأضاء أغصاناً سوداء وسط دوامات من الجليد . وقفزت شجرة ذات أغصان منخفضة متشابكة وفي أثناء سقوطها بعيداً في ضجة أحدثتها شاهد سيري خمسة من زملائه

يركضون . . . لم يلبث أن سقط منهم أربعة ، وأختفى رأس زميله الأيمن ، والرصاصات تحفر الأرض في كل مكان ، وثمة شخص يشير الى شيء ما ، فإذا أعاد يده الى مكانها عادت ملطخة . وقبل أن يدرك سيرري أن اختفاء الشجرة معناه أنه اصبح تحت رحمة النيران المنطلقة من إحدى نوافذ قصر « ايبارا » - جرى بأقصى سرعته ، وقد تقلصت عضلات ظهره ليمنع الرصاص من النفاذ فيه ، عندما عاد اليه تفكيره السليم فجأة انبطح على بطنه أمام ملازم ، ولم يلبث هذا الملازم أن نهض ، ثم سقط من فوره مرة أخرى وهو يطلق آهة مدهوشة : « أوه ! أوه ! . . . ! » وتساءل سيرري هامساً : « ماذا دهاه ؟ أه جريح هو ؟ » فأجابه صوت : « ميت » وكان سيرري قد اقترب هو ورفاقه من حائط القصر ، غير أن الفجوة الكبيرة التي احدثها انتزاع الشجرة ركّز على هذا المكان الرصاص المنطلق من عشرين نافذة زيتنها البنادق السريعة الطلقات ، وتراجع الجنود زاحفين الى الوراء وبطونهم ملتصقة الى الأرض وكأنما اصبوا جميعاً في بطونهم ، وكان الخنفس الجريح ، وقد ارتسم الذعر على وجهه ، ولكنه لم يتخل عنه ، وكان سيرري يسمع دقات ساعته الضعيفة خلال ضجة المدافع والبنادق ، والرشاشات والرصاص المتفجر ، اذ كان يسند رأسه فوق ذراعه اليسرى . وما دام يسمع هذه الدقات فمعنى ذلك أنه لم يقتل . وكان يشعر شعوراً غامضاً بأنه ارتكب ذنباً يريد أن يخفيه ، احساساً شبيهاً بخوفه من خفراء الحقول ، حين كان يسرق الكمشري . وأخيراً وصل الى مكان غير مكشوف ، في نفس الوقت الذي وصل فيه الشخص الذي يسحب الجريح .

وكان مارنوجو على بعد عشرة امتار من الحائط الذي يحمي القصر ، ومن هناك يمكن المرء أن يلقي بالقنابل اليدوية ، وكانت طلقات الأعداء تتوالى فوق قمة الجدار . . . في الليل والجليد صادرة من الأرض ، خلف كل نافذة ، فتحدث لها قرقرة كقرقرة الحريق . وطفق مارنوجو البدين يطلق ويطلق على الومضات الحمراء وعلى الانفجارات ، واحس بالراحة ومال عليه شخص من الخلف : « انه القائد . لا تصخب هكذا ، فإنك بهذا تدل

على مكانك » . وكان أحد رجال الفرقة العالمية معلقاً من يديه الاثنتين الى حائط القصر مقتولاً بلا شك ! وتقدم مارنجدو دون أن يكف عن اطلاق النار : وعلى يمينه زحف زملاؤه أيضاً وسط ضجة القذائف والمدافع الرشاشة ، والقنابل اليدوية والزججرات التي لا معنى لها . وارتفع صاروخ آخر بين الأشجار فكشف ضوءه عن انفجارات القنابل اليدوية المتشنجة وعن الأغصان وعن ذراع مبتورة ذات أصابع متباعدة . وكانت بندقية مارنجدو مشتتة من شدة اطلاق النار فوضعها فوق الجليد وشرع يقذف بقنابله اليدوية التي ناوها إياها جريح من رجال الفرقة العالمية . وفتح آخر فاه وأغلقه بالتناوب كسمكة تحتق ، وأطلق ثلاثة آخرون بنادقهم . . لم يتبق سوى مترين ، وكان الآن قريباً أشد القرب من الجدار بقنابله اليدوية وبين شفثيه سيجارة كان يتوهم أنه يدخنها .

وصاح صوت أمر من خلال الجليد : « ماذا يصنعون على اليسار ؟ اطلقوا النار بأسرع من ذلك ! » .

فأجاب صوت آخر : « إنهم أموات . . . »

وحاول أشجع الفاشيين الدفاع عن الجدار ، غير أن أفضل رماتهم أحسوا بأنهم لا يحسنون اطلاق النار وذلك لأن الجاريبالدين والفرنسيين والبلجيكين ألقوا بأنفسهم على الحائط في حالة من الهياج وكأنما جن جنونهم بفعل القتال والجليد فلم يكونوا يسقطون إلا بعد لحظات من أصابتهم . ومن القصر والغابة انطلقت فجأة صيحات قلقة ، وسادت فترة من الصمت عندما شاهد الفاشيون والأفاقون الذين جمعوا من كل أركان صقلية ، على ضوء الصاروخ - شاهدوا الجاريبالدين المخضرمين ذوي الشوارب الشهباء وهم يحملون عليهم عبر الجليد الأزرق ، ثم استؤنفت الضجة . وسواء بلغ المهاجمون الجدار أو أن ذلك الصمت الغريب الذي يسيطر أحياناً على المقاهي والاجتماعات في الحرب أيضاً فقد بدا ان احتدام الانفجارات قد تعالي فجأة مع دوامات من الجليد حملتها رياح غاضبة صوب السماء السوداء وكأنما كان مكبر الصوت ينتظر هذا السكون ، اذ سمعه الفاشيون والجاريبالديون

والفرنسيون والبلجيكيون وهو يقول :

- « استمعوا .. أيها الرفاق أليس هذا حقاً؟ أليس هذا حقاً؟ . هذا انجلو يتحدث اليكم ، أولاً : انهم يملكون دبابات وقد شاهدتها ومدافع ! وجنرالات ... وهؤلاء الجنرالات قد استجوبونا !

« انهم لا يطلقون النيران عليكم ، إنني أنا انجلو ! إنني لم أعدم ! بل على العكس لقد خدعونا وسوف يقتلوننا جميعاً ! .. تعالوا يا أولاد تعالوا » .

وأخذ سيرى « ينصت بعد أن عاد الى الجدار وأنصت الجاربيالديون أيضاً ، أما مارنجو والفرنسيون والبلجيكيون فكانوا يخمنون ما يقال ، وأجابت بنادق الفاشيين الرشاشة جميعاً من القصر ، وهذأت حدة الريح على حين تساقط الجليد غير المكترث مرة أخرى في تناقل .

وقف سيرى عند ركن الجدار ، وهناك بعيداً كانت تقوم بعض المنازل الصغيرة تحت الأشجار ، منازل اليمين يحتلها الجمهوريون ومنازل اليسار يحتلها الفاشيون . وسمع « سيرى » أصوات أسرى البارحة الذين يحاربون الآن مع الجاربيالديين - وقد تناهت اليه ضعيفة ، كأنها أصوات الجرحى - عقب مكبر الصوت ، سمعهم يصيحون عبر الجليد .

« كارلو ، كارلو ، لا تكن معتوهاً ، لا تبقي في الداخل انني أنا جويدولا تخش شيئاً سأدبر كل شيء » .

- « يا عصابة من الأوغاد ، يا عصابة من الخونة ! » .

وصدر أمر أعقبه سيل من رصاص البنادق السريعة الطلقات .

- « برونو انهم الزملاء فلا تطلق النار ! » .

وتعالت الضججة ، ثم هبطت مع الزوابع الشديدة ، كأن الريح التي تثير ندف الثلج تثير أيضاً حمية القتال ، وقذف مارنجو بأخر قنابله اليدوية ، وتناول بندقيته مرة أخرى ، ولكنها انتزعت في الحال من يديه ، في نفس الوقت طار فيه زملاؤه الثلاثة داخل اللهب ، وأذرعهم مثنية نحوهم ،

فجرى صوب الحائط ، والتصق به ، ثم التقط بنديقة زميله المعلق الى الصخور من يديه الأثنتين .

وانقطع سقوط الجليد .

وساد من جديد صمت مفاجيء ، وكأن عناصر الطبيعة أقوى من الحرب ، وكأن السلام الهابط من سماء الشتاء التي لم تعد شظايا الجليد قادرة على اخفائها قد فرض على القتال . ومن ثغرة عظيمة لاح القمر ، ولأول مرة بدا الجليد ناصع البياض ، بعد أن كان أزرق اللون في ضوء الصواريخ . وشن البولنديون هجوماً بالسلاح الأبيض ، وراء رجال الفرقة العالمية ، فوق أرض مغلقة تحوطها جدران صغيرة على هيئة طوابق ، ولم يكونوا يهاجمون بكتلتهم ، بل بجماعات صغيرة متفرقة ، تحميهم الجدران المنخفضة المدفونة الى نصفها في الجليد ، وكان الفرنسيون والبلجيكيون والجاريبالديون يتبينونهم في مشقة ، ولكن ، حين توقف الزحف بالحراب ، وصلت الى أسماعهم في وضوح طلقات الرصاص وهي تقترب ، وكان أولئك الرجال غير المرئيين تقريباً الذين تتقدم طلقات بنادقهم في اصرار وسط انطلاق القذائف والانفجارات ، مثلما يتقدم هجوم تحت الأرض ، عبر ستار عمودي هائل من شذرات الجليد الناعم في ضوء القمر . . كان أولئك الرجال يصعدون السلم الجليدي العريض الممتد فوق سفح التل ، وكأنهم كتائب مستسرة بعثتها الآلهة . . . كما جاء في الأساطير . . .

وعلى مبعدة ، سمع « سيرى » عواء غير مفهوم منبعثاً من مكبر اسباني للصوت كان يتحدث فيه الأب باركا ، الزميل القديم لكل من مانويل وجارسيا .

وفجأة تساءل سيرى ومارنجو ، والفرنسيون - البلجيكيون ، والجاريبالديون الذين يحاربون الى جانبهم - تساءلوا : هل مسهم طائف من الجنون ؟ فمن القصر هبطت أغنية يعرفونها حق المعرفة . وكان رجال الفرقة العالمية يهاجمون من جهات ثلاث ، وكان من الممكن أن تنفذ سرايا أخرى الى

القصر في الوقت الذي توقفت فيه هذه الفرقة عند الحائط .

بيد أن الجميع كانوا يتذكرون « نشيد العالمية » الذي انشده الفاشيون في معركة شرنبة (خاراما) ثم انقضوا عليهم بعد ذلك في خنادقهم ، ولهذا صاحوا : « ألقوا أسلحتكم أولاً ! » فلم يرد عليهم أحد ، واستمر قصف المدافع وإن خفت حدة اطلاق النار ، وعاد الجليد الى الانهمار في زوابع اشد عنفاً ، ومع ذلك فهناك في مؤخرة هذا الجليد خمدت ألسنة اللهب الحمراء الصغيرة في نوافذ القصر ، واستمر النشيد : بالاطالية كان أم بالفرنسية ؟ من المحال تمييز الكلمات . . . وتوقف اطلاق النار عليهم ، وهتف مكبر الصوت بالاسبانية من خلال الأشجار المجردة من فروعها : « أوقفوا النار ، فقد تم الاستيلاء على قصر « ايارا » .

واعتقد الجميع انهم سيهاجمون صباح اليوم التالي .

الفصل الثالث :

مساء اليوم التالي ، جبهة الساحل الشرقي

كان تليفون المطار في كشك ، وكان مانيان يضع السماعة فوق أذنه ، ويراقب طائرة « البطة » وهي تهبط في غبار الشمس الغاربة .

- « هنا ادارة العمليات الحربية . . . هل لديكم طياران مستعدان ؟ » .

- « أجل . . . »

وكانت الطائرات التي تستخدم كل يوم في الغارة على ترويل ، والتي اصلحت بقطع رديئة قد اصبحت أقل صلاحية مما كانت عليه في طليبة ، وكان طاقم التشغيل مشغولاً دائماً بالكاربوراتيرات .

- « القومندان جارسيا بيعث اليكم بفلاح من شمالي « ألباراسان » استطاع أن يجتاز خطوط الفاشيين في الليلة الماضية ، ويبدو أن هناك مطاراً مليئاً بالطائرات على مقربة من قريته ولا مخابء تحت الأرض » .

- « أنا لاؤ من بمخابئهم الكامنة تحت الأرض ، كما لاؤ من بمخابئنا . وقد كتبت ذلك امس في تقريري ، لقد أغرنا على مطار طريق سرقسطة بلا طائل ، لأن الطائرات في مطارات سرية ، لا لأنها تحت الأرض » .

- « سنرسل اليك الفلاح ، فابحث الموضوع ، واتصل بنا » .

- « آلو ! » .

- « آلو ؟ »

- « وما الضمانات التي يقدمها الفلاح ؟ » .

- « القومندان ، ونقابته على ما أظن » .

ووصل الفلاح بعد نصف ساعة يقوده صف ضابط من ادارة العمليات . وأمسكه مانيان من ذراعه ، وشرع يمشي معه على طول المطار ، وكانت الطائرات تحتم اختباراتها في أضواء النهار الأخير .

وعلى امتداد التلال أرخى المساء هدوءه على مساحات واسعة من الفضاء ، وعلى البحر ، وعلى المطارات . أين رأى مانيان هذا الوجه من قبل ؟ في كل مكان ، انه وجه الأقزام الأسبان . غير ان الرجل كان متين البنيان ، وأطول منه .

- « لقد اجتزت الخطوط لتحذيرنا . شكراً على ما تجشمت من عناء » .

فابتسم الفلاح ابتسامة الأحذب اللطيفة .

- « اين الطائرات ؟ » .

- « في الغابات » ورفع الفلاح سبابته ثم قال : « في الغابات » . ونظر

من خلال أشجار الزيتون الى الممرات الخالية التي أخفيت فيها طائرات الفرقة العالمية ، ثم أستطرد قائلاً : « إنها ممرات شبيهة بهذه . . . نفس الشيء ، وإن تكن أشد توغلاً . . . لأنها غابة حقيقية » .

- « وما شكل المطار ؟ » .

- « ذلك المكان الذي يطرون منه ؟ » .

- « أجل . . . »

وتلفت الفلاح حواليه .

- « إنه لا يشبه هذا » .

وأخرج مانيان مفكرته ، ورسم الفلاح المطار .

- « أضحى هو جداً ؟ » .

- « انه ليس واسعاً . . . بيد ان الجنود يعملون فيه عملاً شاقاً . . انهم يريدون توسيعه » .

- « وأين يتجه ؟ » .

فأغمض الفلاح عينيه ، وجعل يدير رأسه يمنة ويسرة :

- « في مواجهة ربح الشرق » .

- « إيه . . ثم . . حسن ، وعلى هذا تكون الغابة على الجانب الغربي من المطار ؟ وهل أنت متيقن ؟ » .

- « كل التيقن » .

ونظر مانيان الى جهاز تحديد اتجاه الرياح القائم فوق اشجار الزيتون : كانت الرياح في هذه اللحظة آتية من الغرب ، وعلى هذا ، فلا بد أن تنطلق الطائرات اذا كان المطار صغيراً - عكس اتجاه الرياح ، فاذا كانت الرياح تتجه نفس اتجاهها في ترويل فينبغي لتلك الطائرات ان تصعد في حالة الهجوم ، والرياح خلفها .

- « هل تذكر اتجاه الرياح أمس ؟ » .

- « شمالية غربية ، واعتقد الناس أن السماء ستمطر » .

اذن فمما لا شك فيه أن الطائرات بقيت هناك دائماً ، واذا لم تتغير الرياح سارت الأمور على ما يرام .

- « كم عدد الطائرات ؟ » .

وكان للفلاح شوشة تسقط فوق جبهته اشبه بمنقار البيغاء ، ورفع سبابته مرة أخرى قائلاً :

- « انا . . أفهم ما أعني ؟ - أنا أحصيت ست طائرات صغيرة . .

ولكن هناك زملاء استطاعوا احصاءها أيضاً . . غير انهم ليسوا جميعاً على اتفاق . . . ويقولون : إن الطائرات الضخمة هي كذلك على الأقل . . . على الأقل . . . وربما كانت أكثر . . . » .

واستغرق مانيان في التفكير . ثم أخرج خريطته ، بيد أن الفلاح لم يكن يعرف القراءة ، كما توقع .

- « ليست هذه مهنتي ، ولكن اصحبي في طائرتك ، فإني ساريك فوراً » .

وأدرك مانيان لماذا دافع جارسيا عن الفلاح .

- « هل ركبت طائرة من قبل ؟ » .

- « كلا » .

- « ألا تشعر بالقلق ؟ » .

ولكنه لم يفهم هذه العبارة الأخيرة جيداً .

- « أعني ، هل تشعر بالخوف ؟ » .

فأمعن في الفكر ، ثم قال :

- « كلا » .

- « هل ستتعرف على المطار ؟ » .

- « لقد عشت في القرية ثمانية وعشرين عاماً ، واشتغلت في المدينة ،

أنت تدلني على طريق سرقسطة ، وأنا أدلك على المطار . . . بكل هدوء » .

وأرسل مانيان الفلاح الى القصر ، وأتصل تليفونياً بإدارة العمليات . . .

- « يبدو أن هناك اثنتي عشرة طائرة للعدو . . . تقريباً . . . ومن الجلي أن

أفضل وسيلة هي الاغارة في الفجر ، ولكن ليس تحت تصرفي صباح غد

سوى قاذفتين للقنابل ، وليس لدي طائرات مطاردة ، لأنها جميعاً فوق وادي

الحجارة . . وأنا أعرف المنطقة جيداً ، بيد أن المهمة خطيرة تمام الخطورة ، لأن الجو هناك في تلك اللحظة لا يكون صافياً إلا في النادر . . وعلى ذلك ، فمن رأى أن أتصل تليفونياً بمحطة الأرصاد الجوية في ساريون في الساعة الخامسة صباحاً ، فاذا لم يكن الجورديشاً كل الرداءة فلا مانع من الذهاب . »

- « الكولونيل فارجاس يترك لك اتخاذ القرار ، فاذا قررت الرحيل وضع تحت تصرفك طائرة الكابتن موروس . ولا تنس انه قد توجد طائرات مطاردة للحماية في ساريون . »

- « شكراً لك . . . آه ! شيء آخر : الرحيل ليلاً أمر لا غبار عليه ، ولكن ليس بالمطار أنوار أرضية . . فهل لديك مصابيح للإرشاد ؟ » .

- « كلا » .

- « امتيقن أنت ؟ » .

- « انهم يطلبون مني ذلك طيلة النهار » .

- « وماذا عن وزارة الحرب ؟ » .

- « نفس الشيء » .

- « فلتكن مصابيح سيارات اذن ؟ » .

- « كلها مستخدمة » .

- « حسن ، سأحاول أن أتدبر أمري » .

واتصل تليفونياً بوزارة الحرب ، فتلقى نفس الرد .

لا بد اذن من الرحيل من مطار صغير يخلو من الأنوار ، ومن الممكن أن تسير الأمور لو وضعت سيارات على جوانب ثلاثة . . لم يبق اذن إلا العثور على السيارات .

واستقل مانيان سيارته، وانطلق عبر الليل المنسدل ، الى اللجنة التي في أول قرية .

كانت الأشياء التي تم الاستيلاء عليها مكدسة على الأرض : من آلات للخياطة ، ولوحات وشماعات ، وسرر وسروج ، كانت مقابض الأدوات بينها تلتقط أضواء المصابيح التي فوق منضدة في نهاية القاعة . . . وكانت هذه الأشياء تضيء على الطابق الأرضي فوضى منظمة توحى بصالة المزاد ، وكان الفلاحون يمشون واحداً اثنى الآخر أمام تلك المنضدة ، وأقبل أحد المسؤولين صوب مانيان .

قال هذا الأخير وهو يصفحه : « احتاج الى سيارات » .

ورفع المندوب الفلاح ذراعيه الى السماء دون أن يتفوه بشيء ، وكان مانيان يعرف جيداً مندوبي القرى هؤلاء : من النادر أن يكونوا شباناً ، وعلى سيماهم علامات الجد ، والصرامة (نصف وقتهم ضائع في الدفاع عن اللجنة ضد الانتهازيين) . ولكنهم اكفاء دائماً .

قال مانيان : « إن المسألة هي أننا أنشأنا مطاراً جديداً ، ولكنه لم يزود بالأنوار الأرضية بعد ، أعني انه لم يجهز بالأنوار اللازمة لارشاد الطائرات في رحيلها وعودتها في اثناء الليل . ولا توجد غير وسيلة واحدة هي احاطة المطار بمصابيح السيارات . ووزارة الحرب لا تمتلك سيارات ، أما أنت فتمتلك بعضها ، ولهذا لا بد أن تعبرني الليلة عدداً منها » .

- « انني احتاج الى اثنتي عشرة سيارة ، وليس عندي سوى خمس ، ثلاث منها سيارات نقل صغيرة ، فكيف تريدني أن أعيرك إياها ؟ واحدة منها . . . »

- « كلا . . لا أريد واحدة اذا كانت طائراتنا في ترويل فإنها تستطيع صد الفاشيين . . وإلا فإن الفاشيين هم الذين سيذهبون ليسحقوا رجال الميليشيا . هل فهمت ؟ لهذا لا بد من سيارات ، سواء أكانت سيارات نقل صغيرة أم لم تكن . انها مسألة حياة أو موت بالنسبة لرفاقنا الذين يمتطون متن

الهواء . . . اسمع ، فيم تستخدم سيارتك ؟ » .

- « في اشيء أقل من ذلك أهمية ، كل ما في الأمر هو انه ليس من حقي إعارة السيارات دون سائقين ، والسائقون قد عملوا اليوم خمس عشرة ساعة ، . . . و . . . » .

- « اذا أرادا النوم في السيارات . . . واذا أردتني أن اتحدث الى سائقك فسأتحدث اليهم ، وأنا على ثقة من انهم سيوافقون . . . وسيقبلون اذا شرحت لهم بنفسك أهمية المسألة » .

- « في أي ساعة تريد السيارات ؟ » .

- « الساعة الرابعة صباحاً » .

وذهب المندوب لمناقشة الموضوع مع اثنين آخرين كانا يقفان وراء المنضدة التي وضعت عليها مصابيح الغاز ، ولم يلبث أن عاد .

- « سنفعل ما نستطيع ، وإني أعدك بثلاث سيارات . . . وبأكثر من ذلك العدد إن أمكن » .

وانتقل مانيان من قرية مظلمة الى قرية أخرى مظلمة ، ومن القاعات التي تكدست فيها مختلف الأشياء الى القاعات البيضاء الفسيحة التي القى على جدرانها المندوبون والفلاحون الواقفون في قمصانهم السوداء مجموعات من الظلال ، وعبر الميادين الملونة كأنها ديكورات مسرحية ، والتي أخذت تخلو من الناس شيئاً فشيئاً ، هناك حيث ألت أضاء المقاهي ، وأضاء مصابيح الغاز الأخيرة بقعاً فوسفورية كبيرة على القباب البنفسجية للكنائس المعطلة .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية والنصف صباحاً حين عاد الى أول قرية بدأ بها ، وفي الضوء الخافت الذي يضيء واجهة منزل اللجنة كان ثمة رجال ينقلون زكائب بعضهم وراء الآخر ، مثل أولئك الذين يشحنون السفن بالفحم ، وكانوا يجتازون الشارع ليدخلوا دار العمدية ، فلم يجد سائق مانيان مناصاً من الوقوف ، ومر أحدهم على مقربة من غطاء السيارة منحنيًا

تحت نصف عجل مسلوخ . . .

وسأل مانيان فلاحاً يجلس أمام الباب : « من هؤلاء ؟ » .

- « المتطوعون » .

- « المتطوعون من أجل ماذا ؟ » .

- « من أجل الطعام ، فقد طلبوا متطوعين للنقل ، فرحلت سيارتنا الى المطار ، لمساعدة مدريد » .

وعندما عاد مانيان الى المطار كانت السيارة قد وصلت ، وفي الساعة الرابعة والنصف ، كانت هناك اثنتا عشرة سيارة وست سيارات نقل صغيرة بسائقيها ، وحمل كثيرون مصابيح العاصفة دون قصد .

- « أليس هنا عمل آخر نستطيع أن نقوم به ؟ » .

وكان أحد المتطوعين يسب ويلعن ، دون أن يعرف لذلك سبباً .

وحدد مانيان لكل سيارة مكانها ، وأصدر تعليماته بعدم انارة المصابيح إلا حين الاستماع الى محركات الطائرات . ثم عاد الى القصر .

وكان فارجاس في انتظاره .

- « مانيان . . . إن جارسيا يقول : إن هناك اكثر من خمس عشرة طائرة في ذلك المكان » .

- « هذا أفضل » .

- « كلا ، لأن معنى ذلك أنها ستطير الى مدريد ، وأنت تعلم أن هجوماً على وادي الحجارة قد بدأ منذ أول أمس ، واستطاع الأعداء اختراق جبهة فيلافيشوزا ، ولكننا أوقفناهم عند بريويجا . وهم يريدون الانقضاض على أرجاندا » .

- « من هم ؟ » .

- « خمس فرق ايطالية مدرعة : دبابات ، وطائرات ، وكل شيء ! »

وكانت القيادة الألمانية قد حاولت في الشهر الماضي - من اليوم السادس الى اليوم العشرين منه - الاستيلاء على أرجاندا من الجنوب في معركة من أعنف معارك الحرب .

قال فارجاس : « سأرحل عند الفجر » .

فأجاب مانيان وهو يلمس مقبض مسدسه الخشبي : « إلى اللقاء » .

الساعة الخامسة صباحاً ، والجو بارد ، تلك البرودة التي تسبق الفجر . ومانيان يريد قديماً من القهوة ، وأمام القصر الذي بدأ في الظلام أزرق اللون - أضواء سيارته أحد الكروم هناك حيث كانت ظلال رجاله المتأهبين تثب وسط الأشجار ، لجمع ثمار البرتقال البيضاء بياض الثلج اللامعة بقطرات الندى . وفي أقصى المطار كانت السيارة تنتظر في الظلمة .

في اثناء انتظار صدور النداء - أخذ مانيان يشرح المهمة لقائدي الطائرات الذين سيتولون نقلها الى رجالهم حين تصعد الطائرات الى الجو . وتيقن أن رجال المدفعية الرشاشة يرتدون قفازاتهم . . . ووراء السيارة التي اضواء البرتقال والتي ينبغي أن تتيقن قيام الاتصال بين الطائرات حتى آخر لحظة - كان رجال الطائرات الملقوفون في ثياب الطيران كأنهم عمور صغيرة يجتازون المطار الزاخر بروائح الليل الأخيرة .

كانت الطائرات تنتظر بأجنحتها التي لا تكاد تظهر تحت صفحة السماء . وكان الرجال يجرون أقدامهم صامتين ، وقد باغتهم تلك الأنوار غير المتوقعة ، وهم أقرب الى الكآبة منهم الى الانتعاش تحت تأثير تلك الريح التي لطمت وجوههم بالماء الثلج الذي نضحوا به تلك الوجوه . ففي برد تلك الرحلات الليلية كان كل منهم يعلم أنه ذاهب لملاقة مصيره .

وبدأ الميكانيكيون عملهم على ضوء بطاريات الجيب ، ودارت محركات الطائرة الأولى استعداداً للرحيل . وفي أقصى المطار ، اضيء مصباحان في ليلٍ لا يبالي شيئاً .

ها هي ذي محركات طائرتين أخيرين : واستمع سائقو السيارات الى المحركات . وكان مانيان يستطيع أن يتبين في مشقة التلال البعيدة ، وأزيز قاذفة قنابل تحلق عالياً فوق رأسه ، ثم ظهر جناح طائرة أخرى فوق حلقة المحرك الزرقاء . وأضيء مصباحان آخران ، وحددت السيارات الثلاث معالم الطرف الأقصى من المطار . ووراء هذا كله امتدت غابات من أشجار اليوسفي ، وفي هذا الاتجاه نفسه كانت تقوم مدينة ترويل . وهناك ، كان رجال الفرقة العالمية وطوابير الفوضويين ينتظرون الهجوم متلفعين بمعاطفهم التي تشبه معاطف المكسيكيين على مقربة من الجبانة ، أو في الجبال ذات السيول المتجمدة .

وأضرمت نيران وقودها البرتقال الجفاف ، وكان لهيها الأحمر الشائر ضعيفاً بين أنوار المصابيح ، بيد أن رائحتها المريرة التي حملتها الريح كانت تعبّر المطار في سحب من الدخان من حين الى حين . وأضيئت المصابيح الأخرى ، واحداً وراء الآخر . وتذكر مانيان الفلاح الذي حمل نصف العجل المسلوخ فوق ظهره ، والمتطوعين الذين يشحنون المخزن كأنه باخرة . كانت المصابيح مضاءة الآن على الجوانب الثلاثة في وقت واحد ، تصل بينها نيران البرتقال ، وتدور حولها المعاطف ، وتوقفت محركات الطائرة لحظة ، فتناهى الى الأسماع الشخير المتناثر لثماني عشرة سيارة من القرية . وفي تلك الكتلة الهائلة من الظلماء التي لم تستطع أن تنفذ الى قلبها أشعة النور - بدت الطائرات المختبئة التي زجرت محركاتها كلها فجأة في آن واحد - كأنها نذبت هذه الليلة لحماية وادي الحجارة ، على أيدي الفلاحين الأسبان جميعاً .

وكان مانيان آخر الراحلين . وحامت طائرات ترويل الثلاث فوق المطار ، وقد أخذت كل منها تبحث عن انوار الأخرى لكي تتنظم في

التشكيل ، وتحتها ضاعت رقعة المطار التي بدت صغيرة الآن - في رحابة الريف الليلية ، ولاحت لعيني مانيان كأنها تتجمع كلها صوب تلك النيران البائسة ، ودارت قاذفات القنابل الثلاث . وأضاء مانيان بطاريتة ليلقي نظرة على التخطيط الذي رسمه الفلاح على الخريطة . واقتحم البرد الطائرة من فتحة في البرج ، فقال في نفسه لا بد أن أرتدي قفازي بعد خمس دقائق ولا سبيل الى استخدام قلم الرصاص » .

وانتظمت الطائرات الثلاث في تشكيل الطيران ، وسدد مانيان اتجاه الطائرة صوب ترويل . وكانت الريح تحمل رائحة نيران البرتقال من المطار ، وجوف الطائرة يسبح في الظلام ، حين أشرقت الشمس على سحنة المدفعي المرحة القرمزية .

- « مرحى .. أيها الرئيس ! » .

ولم يستطع مانيان أن ينتزع نظرتة عن هذا الثغر الواسع الضاحك المفتوح ، وعن تلك الأسنان المكسورة التي بدت وردية في ضوء الشمس المشرقة . وتبدد ظلام الطائرة قليلاً ، أما الأرض فما زالت تحيا في عتمة الليل . وتقدمت الطائرات صوب أول حاجز من الجبال قام وسط نهار متردد . وعلى الأرض بدأت تشكل رسوم غامضة لخرائط بدائية .

« اذا لم تكن طائراتهم في الجو فهذا معناه اننا وصلنا في الوقت المناسب » .

وبدأ مانيان في تمييز أسطح بعض المزارع .. لقد أشرق النهار على الأرض ..

كان مانيان قد حارب كثيراً فوق جبهة ترويل هذه التي تمتد صوب الجنوب كأنها شبه جزيرة الملايو ، ولهذا فقد كان يحفظها عن ظهر قلب ويخلق

فوقها بشعوره فحسب ، وما أن كف المدفعيون والميكانيكيون - المتوترون دائماً قبل كل معركة - عن النظر ناحية ترويل حتى طفقوا يخلتسون النظر نحو الفلاح ، فالتقت نظراتهم بتلك الشوشة التي تشبه عرف البيغاء في رأس انخفض في عناد بين خوذات الطيران ، أو بذلك الوجه الذي ارتسمت عليه علامات القلق - برهة من الزمان - فأخذ بعض شفثيه بأسنانه !

ولم تكن مدفعية الأعداء تطلق نيرانها : والطائرات تحميها السحب . وعلى الأرض طلع النهار طلوغاً تاماً . ولاحظ مانيان على يمينه طائرة « البطة المنطلقة » التي يقودها جارديه ، وعلى يساره قاذفة للوراء قليلاً ، وترتبطان بالطيارة « مارا » كأنها ذراعان في جسم ، محتفظان بالتشكيل في تلك الرحابة الهادئة المنبسطة بين الشمس وعباب من السحب . وفي كل مرة يمر سرب من الطيور تحت الطائرة كان الفلاح يرفع سبابته . وهنا وهناك كانت تمرقن جبال ترويل السوداء ، وعلى اليمين تلك الكتلة الضخمة التي يسميها الطيارون جبل الجليد في بياضها اللامع تحت شمس الشتاء ، فوق بياض السحب الأشد نضاعة . واعتاد مانيان الآن ذلك الهدوء الشبيه بهدوء بداية العالم والمخيم فوق اطماع الناس وعنادهم . بيد أن السحب لم تقهر هذه المرة ، ولم يكن هذا الخضم اللامبالي من السحب أقوى من تلك الطائرات التي تحلق جناحاً الى جناح ، صوب عدو واحد ، تربط بينها صداقة واحدة ، وخطر محتجب في كل مكان تحت تلك السماء الساجية ، كما لم يكن أقوى من أولئك الرجال الذين ارتضوا الموت في سبيل شيء آخر غيرهم ، توحد بينهم حركة البوصلة في مصير أخوي بعينه ، ولم يكن من شك أن ترويل في متناول النظر تحت السحب ، غير أن مانيان لم يكن يريد النزول حتى لا تكون حركته إيذاناً ببدء الهجوم . وصاح في أذن الفلاح : « سنجتاز تلك الغابة فوراً » ، وأحس أن هذا الرجل يسائل نفسه : كيف يقودهم وهو لا يرى شيئاً ؟

وكان حاجز البرانس الساطع البعيد يتتابع على هيئة بقع مستطيلة كأنها بحيرات داكنة في الجليد ، تتجه نحوهم ، ولم يكن أمامهم مرة أخرى سوى الانتظار .

واستدارت الطائرات ، بذلك الصبر المتوعد الذي تتسم به أجهزة الحرب . والآن ظهرت لهم خطوط الأعداء .

وأخيراً بدت بقعة رمادية كأنها تنزلق على السحب ، وعبرتها بعض الأسطح التي لم تلبث أن انزلقت هي أيضاً من حافة البقعة الى حافتها الأخرى كأنها أسماك حمراء ساكنة ، ثم عروق استحالت الى ممرات ، ولكن دون أن يكون لها بعد ثالث . وهذه أسطح أخرى ، ودائرة ضخمة شاحبة اللون ، إنها حلبات مصارعة الثيران ! وأعقب ذلك في الحال مجموعة من الأسطح صفراء وحمراء في الضوء الرمادي كأنها قشرة هائلة تكسو ظهر سمكة ، وتملأ الفجوة الممتدة بين السحب ، وأمسك مانيان بالفلاح من كتفه .

- « ترويل ! » .

ولم يفهم الآخر شيئاً .

وصاح مانيان في أذنه : « ترويل ! »

وتضخمت المدينة في الثغرة الرمادية وحيدة بين السحب التي تموج حتى الأفق ، بين ريفها ونهرها وقضبانها التي أخذت تتحدد شيئاً فشيئاً .

- « هل هذه ترويل ؟ هل هذه ترويل ؟ » .

ونظر الفلاح الى تلك الخريطة المختلة المتأكلة الممتدة تحته ، وهو يحرك خصلة شعره المنتصبه .

وكان طريق سرقسطة الشاحب في ذلك الصباح المبكر يخرج من ذلك المهاد القاتم من الحقول شمال الجبانة التي شن عليها الجيش الجمهوري هجومه ، ولما كان مانيان واثقاً من موقعه فقد اخترق السحب في الحال .

وفي خط مستقيم ، تبعته الطائرات على طريق سرقسطة دون أن تراه . وكانت قرية الفلاح على بعد اربعين كيلومتراً منحرفة الى اليمين قليلاً . أما

المطار الآخر الذي أغارت عليه الطائرات ليلة البارحة دون طائل فكان على بعد عشرين متراً . ومن المرجح أنهم يخلقون الآن فوقه . وكان مانيان يحسب المسافة بالثواني . فاذا لم يعثروا بسرعة على المطار الثاني ، وأعطى الانذار- ركبت فوق ظهورهم طائرات العدو المطاردة من سرقسطة ، وكالاموشا ، والمطارات السرية ، ومن هذا المطار أيضاً اذا وجدت فيه طائرات ، لتقطع عليهم خط الرجعة . السحب هي الحماية الوحيدة .. الطائرة تقطع ٣١ كيلومتراً في طريقها الى ترويل .. ٣٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ... وانقضت الطائرة .

وما أن أحاط الضباب الأبيض بالطائرة حتى بدا القتال كأنه بدأ .. . وألقى مانيان نظرة على جهاز تحديد الارتفاع ، لم تعد ثمة تلال في هذا الجزء من الجبهة ، ولكن : هل كانت هناك طائرات مطاردة في الانتظار تحت ذلك الكتيب من السحب ؟ وكان أنف الفلاح ملتصقاً بزجاج النافذة ، وبدأ خط الطريق في الظهور كأنه مرسوم فوق الضباب ، وتلته منازل القرية الحمراء كأنها بقع حمر من الدم جفت فوق رداء السحب . ولم تظهر بعد أية طائرات مطاردة أو أية مدفعية ، ولكن امتدت عدة حقول مستطيلة شرق القرية ، تحف بها جميعاً من نفس الجانب غابات صغيرة .

لم يعد ثمة وقت للدوران .. . والرؤوس جميعاً مشرئبة الى الأمام ، وحلقت الطائرة فوق الكنيسة ، وكان الطريق الذي سلكته موازياً للشارع الرئيسي ، وأمسك مانيان كتفي الفلاح مرة أخرى ، وأشار الى الأسطح التي أخذت تتتابع تحتهم بأقصى سرعة كأنها قطيع من الأعناب . ونظر الى الفلاح متوتراً بكل قوته ، وقد فغرفاه ، وسالت دموعه في خطوط متعرجة فوق وجنتيه ، دمعة دمعة ، ولكنه لم يتعرف على شيء .

وصاح مانيان : « الكنيسة ! الشارع ! طريق سرقسطة ! » .

وتعرف الفلاح عليها حينما أشار مانيان اليها ، ولكنه لم يتمكن من تحديد اتجاهه ، وكان ذقنه يهتز متشنجاً تحت خديه الثابتين اللذين سالت عليهما الدموع .

ولم تبق غير وسيلة واحدة: إتخاذ زاوية للنظر تكون مألوفة لديه . واقتربت الأرض اقتراباً شديداً من الطائرة ، وهي تتأرجح يمنة ويسرة كأنما فقدت كل توازن ، وتنطلق في نفس الوقت اسراب الطيور من كل جانب : وانخفض مانيان الى مسافة ثلاثين متراً فوق الأرض .

واقفت أثره طائرة « البطة » ، والطائرة الأسبانية .

وكانت الأرض مستوية ، ولم يكن مانيان يخشى من الدفع الأرضي ، أما فيما يتعلق بالمدفعية الخفيفة فلو أن هناك مدفعية مضادة للطائرات تحمي المطار فإنها لن تستطيع أن تطلق نيرانها على مثل هذه المسافة المنخفضة . وكان ينبغي عليه اصدار الأوامر لاطلاق المدافع الرشاشة ، ولكنه خشي أن يستولي الذعر على الفلاح . وفي اقترابهم من الأرض وصلوا الى الغابات بزواوية للرؤية قريبة من زاوية سيارات السباق . وتحتهم ، كانت قطعان الماشية تولي الأدبار في حالة شديدة من الهياج . ولو أمكن المرء أن يموت من النظر والبحث لمات هذا الفلاح من فوره ، وأمسكه مانيان من منتصف ثوبه ، وأشار بأصبعه الى شيء ما .

- « ماذا ؟ ماذا ؟ » .

وخلع مانيان خوذته .

- « ها هي ذي ! » .

- « ماذا ؟ يا إلهي ! »

ودفعه الفلاح بكل قوته الى اليسار ، وكان مانيان هو الطائرة . وأشار الى اعلان اسود وأصفر عن الفرموت قائم على شملهم ، وهو يفرس أصبعه المشنية على مادة الميكا التي تكسو النافذة .

وصاح مانيان : « أيها . . . ؟ »

وعلى مسافة ستمائة متر الى الأمام - كانت هناك أريع بقع من الغابات

وما برح الفلاح يدفعه ناحية اليسار . هل يقصد الغابة التي في أقصى اليسار؟ » .

- « أتعني هذه ؟ » .

وأيد الفلاح هذا القول برأسه ومنكبيه جميعاً دون أن يحرك ذراعه الممدودة دائماً ، وفي هذه اللحظة نفسها انبثقت عند حافة الغابة حلقة من الضوء الساطع فوق مهاد الأوراق الداكن ناشئة عن دوران محرك طائرة ، وظهرت لأعينهم طائرة من طائرات العدو المطاردة تهم بالصعود من الغابة .

والفت قاذف القنابل ، فقد شاهدها هو أيضاً . . . ولكن ، فات أو ان القاء القنابل ، كما انه كان على ارتفاع منخفض ، ولم يكن مدفعي المقدمة قد أبصر شيئاً ، ولهذا لم يطلق النار .

وصاح مانيان مخاطباً مدفعي المؤخرة في نفس الوقت الذي لمح فيه قاذفة قنابل جاثمة في مكان مكشوف :

- « أطلق النار على الغابة ! » .

واستخدم المدفعي الدواسات ليدير برجه ، وأطلق النار ، غير أن زاوية الأشجار كانت قد حجبت طائرة المطاردة .

وأدرك جارديه ان هذه المناورة المرجحة لا يمكن أن تنجح إلا اذا صاحبها انتباه شديد ، وكان قد تولى منذ دقائق المدفع الرشاش الذي في مقدمة « البطة » ، ولم يحول نظره عن الطائرة « مارا » . فما أن أبصر مؤخرة الطائرة تطلق النار حتى استطاع أن يميز المحرك الساطع فوق مهاد الغابة الأخضر الداكن ، فغمغم قائلاً : « لحظة ! » وشرع في اطلاق النار .

وأظهرت رصاصاته المتلاحقة طائرة الفيات « لاسكالي » التي تولها مدفع المؤخرة في « البطة » . وكان قد تحلى عن القاء القنابل الى اطلاق المدفع الرشاش ، منذ أن الحت عليه مشاكله ، فما كانت السلية ثلاثمه الآن ، أما في البرج الخلفي . فإن « ميرو » لم يستطع اطلاق النار لأن ذيل الطائرة

يعوقه ، غير أن طائرة « موروس » تمكنت من اطلاق مدافعها الرشاشة الثلاثة .

استدار مانيان صاعداً بطائرتة ، فرأى في خوذته محرك طائرة المطاردة يتوقف . وكانت جماعة من الناس تدفع قاذفة القنابل تحت الأشجار ، ولم يكن من شك أن الفاشيين يتصلون في هذه اللحظة تليفونياً من الغابة نفسها بالمطارات الأخرى ، وصعدت الطائرة « مارا » في خط لولبي حتى لا تسقط بتأثير قنابلها نفسها حين تقذف بها ، كما ينبغي توسيع الدورة حتى يتاح الوقت الكافي لقاذف القنابل للتصويب ، وحتى يتمكن « داراس » من التيقن انه يعبر فوق الغابة . وقال مانيان في نفسه : « تكفيه مرة واحدة » . فلقد كانت الغابة هدفاً واضحاً كل الوضوح ، ولو ان خزان البنزين موجود ، وهذا محتمل جداً ، لثم اذن نفس كل شيء ، واقترب من قاذف القنابل ، متحسراً على اتينيس .

« ألقى القنابل كلها دفعة واحدة ! »

تأرجت الطائرة مرتين لتشير الى الهدف المقصود ، وتوقفت عن الصعود على بعد أربعمائة متر ، وعادت الى الغابة ، في خط مستقيم بأقصى سرعتها ، وهي تطلق مدافعها الرشاشة ، وتمكن قاذفو القنابل من احكام تصويبهم على بعد ٤٠٠ متر واجتهد الفلاح المنكمش على نفسه بجوار الميكانيكي ألا يعوق أحداً ، على حين نظر الميكانيكي وقد وضع يديه الاثنتين على المقابض - الى يد قاذف القنابل المرفوعة ، وهو يراقب دخول الغابة في مجال تصويبه .

وهبطت الأيدي جميعاً .

وكان لا بد من ان تستدير الطائرة في زاوية قائمة لكي يرى مانيان النتيجة : وتبعته الطائرتان الأخرتان ، وكان الدائرة المنحرفة التي تألفت منها مستمرة ، ومن الغابة ارتفع دخان أسود كثيف يعرفه الجميع جيداً ، انه البنزين . كان يصعد في دوامات صغيرة متلاحقة ، وكأنها اشتعلت خزانات

مدفونة في باطن الثرى تحت تلك الغابة الهادئة الصغيرة التي لا تفترق عن غيرها من الغابات في مطلع ذلك النهار الكابي ، وخرج عشرة رجال من تحت الأشجار راكضين ، ولم تمض بضعة ثوان حتى خرج مائة لا يختلفون في اضطرابهم وذعرهم عن قطعان الماشية التي ولت الأدبار منذ لحظة ، وبدأ الدخان الذي ساقته الريح صوب الحقول - ينتشر مع المنحنى الفخم الذي اتخذته حرائق البنزين ، ولم يكن من شك الآن في أن طائرات العدو المطاردة قد سيطرت على الجو ، وكان قاذف القنابل يلتقط صوراً ، وعينه على ضابط الرؤية في الآلة الصغيرة ، كما كانت على جهاز التصوير الخاص بالطائرة . اما الميكانيكي فكان يحفف يديه اللتين تركتا مقابض اجهزة اطلاق القنابل ، على حين جعل الفلاح الذي اصطبغ انفه بلون قرمزي نتيجة لالتصاقه بالنافذة - جعل يضرب رباط حذائه بجدار الطائرة تعبيراً عن شعوره بالفرح والبرد معاً ، وعادت الطائرة الى الدخول في السحب ، متجهة صوب بلنسية .

وما أن اجتاز مانيان السحب مرة أخرى ، وأشرف ببصره على مسافة بعيدة حتى ادرك أن الأمور لا تسير على ما يرام .

وانحلت السحب ، وهناك فيما وراء ترويل اسفرت فجوة بين السماء والأرض عن رقعة عمقها خمسون كيلومتراً .

وكان لا بد من القيام بدورة واسعة عن طريق الخطوط الفاشية ، اذا ارادوا العودة دون الخروج من السحب - وكان من الممكن أن تتفكك السحب هنا أيضاً بسرعة فائقة .

يبقى أمل واحد ، وهو أن تصل طائرات ساريون المطاردة قبل وصول طائرات العدو .

وكان مانيان قد استخفه الفرع بالنجاح وأشتدت رغبته في ألا يموت هذا اليوم ، ولهذا أخذ يحصي الدقائق ، فاذا لم تلحق بهم الطائرات قبل أن يصل الى عشرين . . .

ووصل الى سماء خالية من السحب . . .

وخرجت طائرات العدو من السحاب واحدة وراء الأخرى : واحدة ، اثنتان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة . . . وكانت طائرات المطاردة الجمهورية ذات مقعد واحد ، وأجنحة منخفضة بحيث لا يمكن ان يخلط المرء بينها وبين الطائرات من طراز هاينكل ، وانزل مانيان نظارته المكبرة ، وثبتها ، وضم الطائرات الثلاث في مجال رؤيته ، وقال في نفسه : « لو أن لدينا مدافع رشاشة مناسبة لاستطعنا الانتصار عليهم » . ولكن لم يكن لديه إلا مدافع رشاشة عتيقة من طراز لويس غير المزدوج « ٨٠٠ طلقة في الدقيقة مضروبة في ثلاثة مدافع رشاشة = ٢٤٠٠ طلقة . فاذا اصيبت كل طائرة من طراز هاينكل بـ ١٨٠٠ مضروبة في أربعة كان الناتج ٧٢٠٠ طلقة » . وكان يحفظ ذلك عن ظهر قلب ، غير أن ترديد هذه الحقيقة كان يثلج صدره تماماً .

ووصل الفاشيون الى المجموعة المؤلفة من قاذفات القنابل الثلاث ، وكانوا يتجهون الى اليسار ، عازمين على مهاجمة قاذفة واحدة في أول الأمر ، ولم تكن هناك طائرة مطاردة جمهورية واحدة في الجو .

وكانت أسراب السمان تمر تحت الطائرات في طريقها الى مكان هجرتها السنوية . طائرة اليسار هي التي يقودها جارديه .

وألقى بوجول - الطيار الأول - قطعاً من اللبان الى سعيدي ليقوم بتوزيعها كعلامة على الاحتفال . وكان بوجول من المحافظين على تقاليد لكثير الطيبة : وهو بلحيته التي ازال ناحية واحدة منها (وفاء بنذر عاطفي قطعته على نفسه) وقبعته التي تشبه قبعة البستاني المحلاة بريشات قرمزية اعاد وضعها على رأسه بعد الانتهاء من الغارة ، وبأعوامه الأربعة والعشرين ، وبأنفه الذي يشبه النفير ، وبوشاحه الخاص بالاتحاد الفوضوي الأيبيري (وإن لم يكن عضواً فيه) . . . كان بهذا كله يشبه الصورة التي يتخيلها الفاشيون عن قطاع الطرق الحمر (الشيوعيين) . . أما الآخرون فكانوا

عادين ، هذا اذا غضضنا الطرف عن بعض الجوازب التي طويت تحت
خوذاتهم ، وعن بندقية جارديه الصغيرة . وكان هذا الأخير الذي يحافظ على
النظام الضروري للكفاية العسكرية في سلطة صارمة ، وإن تكن مقنعة - كان
يرحب بكل ما يسترعي الانظار ، مثل بندقيته الخشبية الصغيرة ، وكان
مانيان على استعداد هو أيضاً للتساهل تساهلاً خاصاً عن الحماقات التي
تصيب الفعل بالشلل ، ولا سيما اذا احس انها مرتبطة برموز سحرية .

وفطن جارديه - هو أيضاً - الى المناورة الألمانية ، ورأى أن مانيان قد
جعل الطائرتين تهبطان تحت « البطة » لكي يربط بين نيران المدافع الرشاشة
كلها في حالة الهجوم على تلك الطائرة الأخيرة . وألقى نظرة فاحصة على
مدافع طائرته ، ثم تولى بنفسه مدفع المقدمة ، وتذكر مرة أخرى أن المدافع
من طراز لويس تثير تفززه ، فأدار برجه صوب طائرات الهابنكل التي
تضخمت فوق منطقة التصويب .

ووصلت عدة رصاصات .

وصاح جارديه : « لا تفعل ذلك ! فهناك غيرها ! » .

وتقدم بوجول في خط متعرج كحرف S . وكانت هذه أول مرة يهاجم
فيها من الأمام ، ويشاهد طائرة مطاردة للعدو تنقض عليه بأقصى سرعتها .
فأحس بالمرارة التي يشعر بها كل طيار يقود طائرة ثقيلة بطيئة حين تهاجمه
طائرات سريعة . وكان رجال طائرات البليكان ، يعلمون أن أفضل مقاتليهم
يستطيعون ارغام طائرات العدو على الهبوط دون عناء ، وكما يحدث قبل كل
معركة أحسوا جميعاً بالفراغ الممتد تحتهم .

وبينما كان « اسكالي » يضع مدفعه الرشاش موضع الاستعداد لاحظ
فجأة على شماله قنبلة من قنابلهم الضخمة ، لم تكن قد اطلقت في اثناء
الغارة .

- « ها هم أولاء ! » .

وكان مانيان قد حدد مسافاته جيداً : لم تتمكن طائرات الهاينكل من محاصرة البطة ، وهناك طائرتان فوقها ، وطائرتان تحتها ، وثلاث طائرات الى جوارها ، وتضخمت الطائرات حتى أصبح من الممكن رؤية خوذات الطيارين .

واهتزت « البطة » بكل ما فيها ، حين أطلقت مدافعها الرشاشة نيرانها في وقت معاً ، ومضت ثوان عشر امتلأت بضجة كأنها الجحيم ، امتزجت فيها جلبة الأخشاب المتفجرة بفعل رصاص الأعداء بشبكة من الرصاص المتلاحق .

وشاهد جارديه طائرة من طائرات الهاينكل - التي تطير تحته - تهبط عمودياً ، وقد أصابها اسكالي ، أو المدافع الرشاشة في قاذفات القنابل الأخرى ، وأحس مرة أخرى بالفراغ ، وغادر ميرو البرج الخلفي فاغراً فاه ، ومن ذراعه المتدلالية سالت دماؤه على ارض الطائرة كأنما تسيل من دلو ماء ، وصعد اسكالي من برجه وعمد على ظهره ، وبدت إحدى فردي حذائه كأنها انفجرت .

وصاح جارديه : « أربط نفسك ! » وقذف لفاقة من صيدلية الطائرة صوب ميرو ، ثم قفز عائداً الى برجه ، وتولى سعيدي مدفعه الرشاش ، على حين تولى قاذف القنابل مدفع ميرو ، وكان يبدو ان الطيارين لم يصابوا .
وعادت طائرات الهاينكل على اعقابها .

لم تعد هناك طائرات تحتهم هذه المرة ، أما الطائرات التي حاولت الهجوم بالصعود اليهم فكانت تحت رحمة نيران مدفع المؤخرة ، والمدافع الستة في طائرة « مارا » وطائرة « موروس » التي كونت آثارهما المتقاطعة تحت « البطة » شبكة من الدخان .

ومرت فوقهم الطائرة التي هبطت ، والتي كانت مرافقة للطائرة الهاينكل . وشق بوجول الفضاء بأقصى سرعة ، وقد أصبحت تعرجاته التي

يصنعها على هيئة حرف S أكثر إتساعاً .

نفس الرصاصات المتلاحقة ، ونفس الضجة ، ونفس قرقعة الأخشاب المتكسرة ، وترك سعيدي البرج الخلفي دون أن ينبس بكلمة ، وابتكأ على مرفقه فوق اسكالي ، بجوار المكان الذي تمدد فيه ميرو ، وقال جارديه في نفسه : « لو أن عندهم من الجرأة ما يسمح لهم بإقتفاء أثرنا بدلاً من المرور علينا . . . ؟ »

وكان النهار يتألق في الظلال عبر الثغرات التي يحدثها رصاص الأعداء - كأنه شعل صغيرة ، وتوقف المحرك الأيسر عن الدوران ، وأحاطت الطائرة « مارا » وطائرة الأسباني « بالبطة » ، وانحنى بوجول داخل الطائرة برأسه الدامي الذي لم يزل يحتفظ فوقه بقبعة البستاني ذات الريش .

- « انهم يولون الأدبار ! » .

والواقع ان طائرات الهاينكل كانت تنسحب . وتناول جارديه نظارته المقربة . لقد وصلت طائرات المطاردة الجمهورية من الجنوب .

ووثب من برجه ، وفتح صندوق الاسعاف الذي لم يلمسه أحد ، وقام بتضميد ميرو (كان قد أصيب بثلاث رصاصات في ذراعه اليسرى ، وبواحدة في كتفه ، نفذت الى جسمه جميعاً في وقت واحد) ، وبتضميد اسكالي (أصيب برصاصة متفجرة في قدمه) وكان سعيدي قد أصيب برصاصة في فخذه اليمنى ، ولكنه لم يكن يتألم إلا قليلاً .

وذهب جارديه الى مقعد القيادة ، كانت الطائرة تطير بزاوية منحرفة مقدارها ثلاثون درجة ، ولا يحملها سوى محرك واحد . وأشار لانجلوا - الطيار الثاني - الى عداد المسافة بسبابته : ١٤٠٠ بدلاً من ١٨٠٠ ، لم يبق أمام الطائرة إلا الاعتماد على ارتفاعها . وكانوا قد وصلوا الآن فوق جبل الجليد . وعلى الأرض ، كان ثمة دخان هادىء مستقيم استقامة تامة يتصاعد من أحد المنازل .

وأحس بوجول الذي كان يدمي - وان كان جرحه طفيفاً - ان المقبض داخل جسده ، كما يحس الآخرون بجراحهم . . . وانتقل العدد من ١٢٠٠ الى ١١٠٠ .

الطائرة تهبط متراً في الثانية .

وتحتهم تناثرت نتوءات جبل الجليد . الهبوط هنا معناه التهشم فوق الصخور ، كما يتحطم « دبور » ثمل على جدار ، وفيها وراء ذلك انبسطت مساحات مترامية من الجليد المتموج ، ولكن ماذا تحت هذا كله ؟

وعبروا سحابة ، وكانت ارضية الطائرة ملطخة ، بأثار النعال الدامية وسط هذا البياض الشامل ، وحاول بوجول الخروج من السحب بالصعود . والواقع أنهم خرجوا منها هابطين : فأصبحوا على بعد ستين متراً من الجبل ، وكانت الأرض ترمي نحوهم ، ولكن ، ماذا ستصنع بهم تلك المنحنيات الرخوة من الجليد . وشعروا برغبة ملحة في الخروج من هذا المأزق ولا سيما بعد أن نجحوا في غاراتهم ، وافلتوا من النيران .

وصاح جارديه : « القنبلة ! » .

ذلك انها اذا لم تسقط هذه المرة فستنسف كل شيء ، وأنزل سعيدي المقبضين معاً لاسقاطها حتى أوشكا أن ينكسرا ، وسقطت القنبلة فكأنما قذفت بالأرض على الطائرة ، وتلقى الجميع الجليد في بطونهم .

ففر بوجول من مقعده الى السماء المكشوفة فجأة . هل أصيب بالصمم ؟ كلا ، وإنما هذا هو السكون الذي تلفع به الجبل بعد ضجة السقوط ، اذ سمع نعيب غراب ، وضوتين يصرخان ، وكانت الدماء الدافئة تسيل برفق فوق وجهه ، فتحفر أمام حذائه ثقباً حراً في الجليد ، ولم يكن لديه سوى يديه يزيح بهما تلك الدماء التي غشيت عينيه ، واستطاع من خلالها أن يبصر

ركاماً معدنياً أسود مليئاً بالاستغاثات ، انه ذلك الخليط المتشابك من حطام الطائرات .

استطاع مانيان وموروس أن يعودا ، واتصلت ادارة العمليات تليفونياً بالمطار لتبلغه أن الجرحى قد نقلوا الى مستشفى « مورا » الصغيرة ، وكان لا بد من اعادة فحص الطائرات ، على ألا تطير إلا في اليوم التالي ، وأصدر مانيان بعض التعليمات ، ثم رحل في الحال لتتبعه فيما بعد عربة اسعاف .

وقال ضابط الخدمة في التليفون : « قتيل واحد ، ومصابان بجراح خطيرة . أما الآخرون جميعاً فإصاباتهم طفيفة » .

وكان يجهل اسماء الجرحى والقتيل ، ولم يكن قد تلقى بعد نتيجة الغارة .

وسارت عربة مانيان بين غابات البرتقال الواسعة ، وكانت أشجارها تمتد عدة كيلومترات ، تحف بها هنا وهناك أشجار السر وتطل عليها « ساجنتو » بقلاعها التي اوضحت أطلالاً ، والاستحكامات المسيحية فوق الاستحكامات الرومانية ، والرومانية فوق اليونانية : إنها سنة الحرب . . . وفوقها جميعاً كان الجليد الذي يكسو جبال ترويل يرتعش تحت سماء صافية .

وحلت اشجار البلوط محل اشجار البرتقال . . . وبدأت سلسلة الجبال . واتصل مانيان تليفونياً مرة أخرى بادارة العمليات : كانت هناك ست عشرة طائرة فوق المطار الذي أرشد عنه الفلاح ، وقد احترقت جميعاً .

كان مستشفى « مورا » قائماً داخل مدرسة ، ولم يظهر حتى الآن أي طيارين ، وهناك مستشفى آخر داخل دار العمدية ولكن لم يظهر فيه الطيارون أيضاً ، وأشارت لجنة الجهة الشعبية على مانيان بالاتصال تليفونياً بلينارس ، وكانت لينارس قد طلبت طبيباً من أطباء « مورا » للجرحى ، فاتجه مانيان

صوب مكتب البريد بصحبة مندوب من اللجنة ، وسارا تحت الشرفات الخشبية خلال شوارع ذات منازل زرقاء ووردية وخضراء بلون الفستق ، واجتازا جسوراً تعلوها بواك ، تبدو متضائلة الى جوار أطلال القصور ذات الطابع الرومانتيكي .

وكان ناظر مكتب البريد مناضلاً اشتراكياً عجوزاً ، وقد جلس ابنه الطفل على مكتب البرقيات .

- « إنه يريد أن يكون طياراً ، هو أيضاً » .

وكانت هناك آثار رصاص على الحائط .

قال الناظر : « كان سلفي عضواً في الاتحاد القومي للعمال ، وفي يوم الثورة لم ينقطع عن ارسال البرقيات الى مدريد ، ولم يكن الفاشيون يعرفونه ، ومع ذلك فقد قتلوه ، وهذه هي الرصاصات . . . » .

وأخيراً أجابت لينارس : « كلا ، لم يكن الطيارون هناك ، وانما سقطوا على مقربة من قرية صغيرة تدعى فالدينارس ، في مكان أعلى فوق الجليد .

بأي قرية ينبغي عليه أن يتصل الآن ؟ « أعلى فوق الجليد ! » ومع ذلك أحس مانيان من لهجة الاجابات بأن أسبانيا حاضرة حوله أكثر من أي وقت مضى ، وكأنما كان ينتظره في كل مستشفى وكل لجنة وكل مكتب تليفون - فلاح ودود يرحب به ، وأخيراً دق جرس التليفون ، ورفع ناظر المكتب يده أخيراً : فالدينارس ترد ، وأخذ ينصت ثم استدار قائلاً :

- « إن واحداً من الطيارين يستطيع السير ، وقد ذهب للبحث عنه » .

ولم يعد الطفل قادراً على التحرك .

وناول ناظر المكتب مانيان سماعة التليفون القديمة ، فانبعث منها صوت مكتوم .

- « آلو ! من المتحدث ؟ » .

- « مانيان . أنت بوجول ، أليس كذلك ؟ » .

- « بلى » .

- « من القتيل ؟ » .

- « سعيدي » .

- « والجرحى ؟ » .

- « جارديه ، فحسب ، وهم يخشون على عينيه ، وأصيب تايفير في ساقه اليسرى بكسور في ثلاثة مواضع ، واخترقت أربع رصاصات ذراع ميرو ، ونفذت رصاصة متفجرة في قدم اسكالي ، اما لانجلوا وأنا ، فلم نصب بشيء يذكر » .

- « من منكم يستطيع المشي ؟ » .

- « للنزول ؟ » .

- « أجل » .

- « لا أحد » .

- « أو حتى على البغال » .

- « لا نجلوا وأنا ، وقد يستطيع اسكالي ، اذا استند على أحد ، ولكنني لست واثقاً » .

- « وكيف تولوا العناية بكم ؟ » .

- « كلما أسرعوا في انزالنا كان ذلك أفضل ، وعلى كل حال فإنهم يفعلون كل ما في وسعهم » .

- « هل توجد نقالات ؟ » .

- « كلا . . . ليس هنا . . انتظر : الطبيب الذي هنا يقول شيئاً » .

وسمع صوت الطبيب .

قال مانيان : « آلو ! هل يمكن نقل جميع الجرحى ؟ » .

- « أجل . . . اذا كانت لديكم نقالات » .

وسأل مانيان ناظر المكتب . لم يكن يعلم شيئاً . فربما كانت هناك نقالات في المستشفى ، ولكن من المؤكد أن عددها لا يمكن أن يكون ست نقالات . وتناول مانيان السماعة مرة أخرى .

- « ألا تستطيعون صنع محفات من الأغصان والأشرطة والحشايا ؟ » .

- « أنا . . . بلى . . . » .

- « سأحمل ما استطيع حمليه من النقالات ، وتستطيعون من الآن البدء في اعداد المحفات ، والشروع في النزول ، وأنا أنتظر هنا عربة اسعاف ، وستصعد الى اقصى مكان يمكن أن تصعد اليه » .

- « وماذا عن القتل ؟ » .

- « انزلوا الجميع . . آلو ! . آلو ! تستطيع أن تقول للطيارين : اننا قد حططنا ست عشرة طائرة من طائرات العدو . لا تنس ذلك » .

وعاودوا المسير خلال الشوارع ذات المنازل الملونة ، واجتازوا ميداناً تنتثر فيه نافورات ، كما اجتازوا الجسور المقوسة كظهر الحمار ، والصخور المدبية التي ما برحت تتألق برذاذ المطر المتساقط في الصباح ، تحت سماء واطئة دائماً ، ولم يكن هناك سوى محفتين ربطتا فوق ظهر السيارة .

- « أليس ارتفاعها الآن أعلى من باب القرية ؟ » .

وأخيراً بدأ مانيان رحلته الى لينارس .

لقد دخل - من الآن فصاعداً - في اسبانيا الأبدية . وحين اجتازت السيارة القرية الأولى ذات مخازن الغلال المفتوحة على الدرابزين ، وصلت

أمام مضيق أضفت عليه السماء الرمادية لوناً كاياً ، وانعكست عليه ظلال قرنين متباعدين لثور من ثيران الحلبة ، وانبعثت عداوة بدائية من الأرض التي تركت عليها تلك القرى الكردية بصماتها كأنها حروق ، عداوة اشتدت حدة كلما تحول نظر مانيان عن ساعته التي أخذ ينظر اليها كل خمس دقائق الى الصخور فيتذكر قسوتها على الجرحى وما من مكان يستطيع أن يتوقف عنده ، لا شيء سوى حقول وصخور وأشجار ، وفي كل مرة كانت السيارة تهبط سفحاً تراءى لخاطره الطائرة وهي تقترب من تلك الأرض الخالية من كل امل .

ولينارس قرية يحوطها جدار ، وكان هناك صبية صعداوا الى الاطلال ، على جانبي البوابة . وعند الفندق الذي تكدست عربات صغيرة بعجلاتها المرفوعة في الهواء ، عند طابقه الأرضي ، وقف الحمالون ينتظرون ، ووجد في قاعة اللجئة طيباً كان قد حضر من الوادي ، وخمسة عشر شاباً ، أخذوا يحمقون في فضول الى ذلك العملاق الغريب ذي الشاربين المتدليين الذي يرتدي زي الطيران الأسباني .

قال مانيان : « لسنا في حاجة الى هذا العدد من الحمالين » .

فقال مندوب اللجئة : « لقد أصروا على الحضور » .

- « فليكن . . . اين عربة الاسعاف ؟ » .

واتصل المندوب تليفونياً بمورا ، لم تكن عربة الاسعاف قد وصلت بعد ، وكان الحمالون يجلسون في فناء الفندق ، وقد أحاطت بهم عرباتهم على هيئة نصف دائرة ، وأخذوا يأكلون من اناء واحد على هيئة ناقوس ضخم مقلوب ، يفور منه زيت الزيتون ، ويحجب السواد الحروف المنقوشة عليه ، وفوق الباب كتب رقم ١٦١٤ .

وأخيراً ، رحلت القافلة .

- « كم تستغرق من الوقت للوصول الى أعلى ؟ » .

- « أربع ساعات . . . ولكنك سوف تلتقي بهم قبل ذلك » .

كان مانيان يتقدمهم بمائتي متر ، وقد ظهر ظله الأسود - بقبعته العسكرية ومعطفه الجلدي - واضح المعالم على سفح الجبل . ولم يكن ثمة وحل تقريباً ، والحجارة هي وحدها التي تعترض طريقه ، وسار خلفه الطيب ممتطياً ظهر البغل ، ومن ورائه الحمالون يرتدون الصديري وألقبة الباسكية (هذا هو الزي المحلي الذي يلبس في أيام الأعياد أو حين يصل المرء الى الشيخوخة) ، وأبعد منهم كانت البغال والنقلات .

ولن تلبث الثيران والحقول أن تختفي ، فلا تبقى سوى الحجارة . حجارة اسبانيا الصفراء الحمراء التي تضي عليها السماء البيضاء لوناً باهتاً رصاصياً . في تلك الظلال العمودية الضخمة ، وهذه الحجارة تتناثر على سفح الجبل ابتداء من الجليد الذي يقطعه الأفق حتى أعماق الوادي ، وكان الحصى يتدحرج تحت أقدامهم من حافة الطريق الى بطن الجبل ، فيرن من صخرة الى صخرة ، ثم يضع صداه في سكون المضائق حيث يتلاشى هدير سيل يتعد شيئاً فشيئاً .

وقطعوا الوادي في اكثر من ساعة ، فظهرت لينارس في فجوة منه ، وحين فصلهم عنه نتوء في الجبل لم يعد مانيان يسمع هدير الماء ، وكان الطريق الجليي يمر وراء صخرة عمودية تشرف عليه . من حين الى حين ، وهناك حيث غير الطريق اتجاهه نهائياً انتصبت شجرة تفاح ظهر ظلها على خلفية السماء وسط حقل صغير غاية الصغر . ولم يكن أحد قد جمع ثمارها ، فتساقطت حول الشجرة ، لتؤلف حلقة كثيفة ، كانت تندمج في العشب رويداً رويداً ، وكانت شجرة التفاح هذه هي وحدها التي تدب فيها الحياة وسط الصخور ، حياة النبات المتجددة بغير حد ، وسط تلك اللامبالاة الجيولوجية .

وكلما صعد مانيان جعله التعب يشعر بعضلات منكبیه وفخذيہ . ولم يلبث الجهد أن شمل جسده كله قليلاً قليلاً ، حتى فرض نفسه على كل فكرة تدور في رأسه . . . وتصور في هذه اللحظة النقلات وهي توشك ان تنزل تلك الممرات الوعرة نفسها حاملة أذرعاً محطمة ، وسيقاناً مكسورة ، وتقلبت عيناه بين ما يشاهده في ذلك الممر وبين تلك القمم الجليدية المشتبكة في صفحة السماء البيضاء ، وكان كل جهد جديد يبذله يجعل فكرته الأخوية عن مفهومه للزعامة تزداد رسوخاً في نفسه .

وتبعه فلاحولينارس الذين لم يروا جريماً واحداً من هؤلاء الجرحى ، تبعوه دون أن ينطق بكلمة في تبجيل صارم هادئ ، أما هو فكان يفكر في سيارات القرى الأخرى .

وظل يصعد طيلة ساعتين على الأقل حتى انتهى الطريق الذي دار حول نتوء في الجبل . وكان الممر يتابع الآن مضيئاً جديداً عبر الجليد ، متجهاً صوب الشطر الأعلى والأقل وعورة من الجبل . ذلك الشطر الذي شاهدته الطائرات الى جانب الشطر الآخر حين طارت قاصدة ترويل . وكانت السيول قد تجمدت ابتداء من هذا المكان . وعند ناصية الطريق وقف مقاتل شرقي أسود اللون على خلفية السماء - وقف ينتظر كشجرة التفاح التي مروا بها منذ قليل - وقد انكمشت قامته كالتماثيل المنصوبة فوق قاعدة مرتفعة . وكان الحصان بغلاً ، والمقاتل الشرقي هو بوجول في خوذة الطيار ، والتفت هاتفاً في السكون العميق كأنه المنظر الجانبي لوجه محفور : « هذا مانيان ! » .

ساقان طويلتان متصلبتان متدلّيتان على جانبي جحش صغير وخصلات من الشعر المتصب تبرز من ضمادة : انه الطيار الثاني لانجلوا .

وفي اللحظة التي صافح فيها مانيان يد بوجول لاحظ ان معطفه الجلدي قد غطته طبقة سميكة من الدم المتجلط تحت الحزام حتى أصبح شبيهاً بجلد التمساح . ترى أي جرح استطاع أن يدمي الجلد على هذا النحو؟ وعلى

الصدر كانت خطوط الدماء تتقاطع على هيئة شبكة ، وكانت سميكة الى درجة يستطيع معها المرء أن يشم رائحة الدم .

قال بوجول : « انه معطف جارديه الجلدي » .

ولم يستطع مانيان النهوض ، إذ لم يكن ثمة ركاب ، فأشرب بعنقه بحثاً عن جارديه ، بيد أن النقلات كانت لا تزال في الجانب الآخر من الصخرة .

وظلت نظرة مانيان مسددة على الجلد على حين شرع بوجول في سرد القصة

كان لانجلوا مصاباً بجرح طفيف في الرأس ، فاستطاع أن يجر نفسه ظالماً على ساق واحدة ، لأن الساق الأخرى كانت مرضوضة . أما اسكالي وسعيدي فكانا يرقدان في ذلك الصندوق الطويل المحطم الذي كان يعد فيما سبق جسم الطائرة . وقبع ميرو تحت قبة برج الطائرة المقلوب ، وقد خرجت أطرافه من صحن البرج الذي كان جزؤه الأعلى يضغط على كتفه المتهشمة كأنه في لوحة محفورة تصور وسائل التعذيب القديمة . وبين الحطام استلقى قاذف القنابل أما جميع الذين كانوا يستطيعون الصياح بعد أن أستولى عليهم الخوف من خطر النار فقد صاحوا في السكون العميق الذي شمل الجبل .

وتمكن بوجول ولانجلوا من انتزاع اسكالي وسعيدي من داخل الطائرة ، ثم شرع لانجلوا في اخراج قاذف القنابل ، على حين حاول بوجول رفع البرج الذي سحق « ميرو » ، وأخيراً استطاع أن يقلبه في جلبة جديدة اختلطت فيها أصوات الحديد والميكا ، وجعلت الجرحى الراقدين فوق الجليد ينتفضون ، ولم تلبث أن تلاشت .

وكان جارديه قد شاهد كوخاً ، فسعى اليه ، مسنداً فكه المكسورة على قبضة مسدسه (لم يكن يجروء على اسناده على يده ، وكانت دماؤه تسيل) ،

وحين ابصره فلاح من بعيد ولى الأدبار ، ولم يكن في الكوخ الذي يبعد بمسافة لا تزيد على الكيلومتر - غير حصان فحسب ، نظر اليه متردداً ، ثم أخذ في الصهيل ، فقال جارديه في نفسه : « لا بد أن تكون سحنتي مشوهة تشويهاً غريباً . ومع ذلك فإن وجود مثل هذا الجواد الدافئ يثبت اننا في الجبهة الشعبية . . . » وكان الكوخ دافئاً وسط وحشة الجليد ، فراودته رغبة شديدة في ان يستلقي وينام . ولم يحضر أحد ، فتناول جارديه بيد واحدة جاروفاً كان ملقى في ركن ، لكي يخرج سعيدي حين يعود الى الطائرة ، ولكي يعينه على المسير . ولم يعد يرى شيئاً في وضوح اللهم إلا مواقع قدميه : وانتفخ جفناه العلويان ، وعاد على أعقابيه مهتدياً بقطرات الدم على الجليد ، وبآثار أقدامه الطويلة المتشابكة في كل مرة سقط فيها .

وتذكر في أثناء سيره أن ثلث « البطة » مصنوع من قطع طائرة دفع ثمنها عمال أجنب وأحضرها الى سيرا كوميون باريس .

وفي اللحظة التي وصل فيها الى الطائرة اقترب طفل من بوجول ، فقال الطيار في نفسه : « لو اننا الآن لدى الفاشيين لهلكنا كالفئران . » أين المسدسات ؟ فالمرء لا يستطيع الانتحار بمدفع رشاش .

وسأل بوجول : « من هنا . . . الشيوعيون ، أم أتباع فرانكو ؟ » .

ونظر اليه الطفل ، بهيئته الماكرة ، وبأذنيه المتباعدتين ، وبسنبله فوق قمة رأسه - دون أن يجيب . وفطن بوجول الى أن منظره لا بد أن يكون شيئاً لامعقولاً . فقد ظلت القبعة ذات الريش الأحمر على رأسه . وكان قد وضعها دون أن يدري . وكان ذقنه حليقاً من جانب واحد ، والدم ينزف منه ويسيل على حلته البيضاء .

- « من هؤلاء ؟ أخبرني ؟ » .

وكان قد دنا من الطفل الذي أخذ يتراجع . التهديد لا ينفع كما انه لا يملك قطعاً من اللادن .

- « جمهوريون أم فاشيون ؟ » .

وتناهى الى سمعه هدير سيل بعيد ، ونعيب غربان متلاحق .

وأجاب الطفل وهو ينظر الى الطائرة : « هنا ، من جميع الأنواع : جمهوريون وفاشيون ! » .

وصاح جارديه : « والنقابة ؟ » .

ففهم بوجول .

- « أي النقابات أكبر : الاتحاد العام للعمال ، أم الاتحاد القومي للعمال ، أم الكاثوليك ؟ » .

وتقدم جارديه صوب ميرو ، على يمين الطفل الذي لم يكن يرى سوى ظهره ، والبندقية الخشبية الصغيرة المعلقة عليه .

قال الطفل باسمًا : « الاتحاد العام للعمال » .

واستدار جارديه . . كان وجهه يتكىء دائماً على قبضة مسدسه ، وقد شق من إحدى أذنيه الى الأخرى ، وتدلت أرنبه أنفه ، والدماء التي ما برحت تسيل بعد أن نزلت في البداية كتلاً كبيرة - تجمدت فوق سترة الطيار الجلدية التي ارتداها جارديه فوق عفريته . وزجر الطفل ، ثم لاذ بالفرار واثباً وثبة منحرفة كالقطة .

وساعد جارديه ميرو على جمع أطرافه المتباعدة الى جسمه ، وعلى النهوض فوق ركبتيه ، وحين انحنى أحس بوجهه يحترق . فحاول أن يساعد ميرو مع الاحتفاظ برأسه مرفوعاً الى أعلى .

قال بوجول : « نحن فوق أرضنا ! » .

فقال جارديه : « لقد تشوهت تشويهاً تاماً هذه المرة ، رأيت كيف هرب ذلك الطفل ؟ » .

- « أنت معتوه ! » .

- « في حاجة الى عملية تربنة » .

- « ثمة اشخاص قادمون » .

والواقع ان عدداً من القرويين كانوا يتقدمون نحوهم ، يصحبهم ذلك الفلاح الذي ولى الأدبار حين أبصر جارديه ، ولكنه تجاسر الآن على العودة ، حين لم يعد وحده . وكانت القرية قد خرجت على بكرة أبيها عندما انفجرت القنبلة ، واقترب أكثر أهلها جراً .

صاح بوجول « الجبهة الشعبية ! » ورمى قبعته في الركام الحديدي .

وشرع القرويون في الجري ، وكانوا قد افترضوا بلا شك أن الطيارين الذين سقطوا من رجالهم ، اذ حضروا مجردين من السلاح تقريباً ، ولعل واحداً منهم استطاع أن يتبين الخطوط الحمراء فوق الأجنحة قبل سقوط الطائرة ولمح جارديه المرأة العاكسة معلقة في مكانها بين ركام الدعائم والأسلاك أمام مقعد بوجول : « لو أنني نظرت الى نفسي لانتحرت » .

وحين اقترب الفلاحون بحيث يستطيعون رؤية ذلك الخليط من الصلب المحطم ومن قطع الأجنحة ومن الآلات المهشمة والمحرك الملتوي كأنه ذراع والأجساد الممددة فوق الجليد - تسمروا في أماكنهم ، وسعى جارديه اليهم ، وكان القرويون والنساء المتشحات بشيلا ن سود ينتظرون صامتين محتشدين كأنهم ينتظرون كارثة . « انتبهوا ! » بهذه العبارة صاح أول فلاح رأى فك جارديه المحطم مستنداً على قبضة المسدس . ورسمت النسوة علامة الصليب ، بعد أن تذكرن تقاليدهن الماضية امام منظر الدم ، ورفع أحد القرويين قبضته ناظراً الى جارديه وبوجول الذي أخذ يقترب بدوره بأقل مما ينظر الى الأجسام الراقدة . ورفع الجميع قبضاتهم الواحد تلو الآخر - صامتين - في اتجاه الطائرة المحطمة والأجسام التي ظن الفلاحون انها ميتة .

وغمغم جارديه : « لا داعي لهذا كله » ، ثم أردف بالأسبانية :

« ساعدونا » .

وعادوا الى الجرحى ، وما أن أدرك الفلاحون ان هناك قتيلاً واحداً
فحسب بين الأجسام الممددة حتى شاع بينهم اضطراب عاطفي مرتبك .
- « لحظة ! » .

وشرع جارديه في اقرار شيء من النظام ، وكان يهوجول يتحرك كثيراً ،
بيد أن أحداً لم يظهر له الطاعة ، فقد كان جارديه هو الرئيس ، لا لأنه كان
كذلك حقاً ، ولكن لأنه كان مصاباً في وجهه ، ولهذا قال في نفسه : « لو أن
الموت حضر بنفسه ، لأذعن له الجميع ! » لا بد من ارسال قروي لاحضار
طبيب . والطبيب بعيد جداً . ولكن لا بد من احضاره ولم يكن نقل اسكالي
وميرو وقاذف القنابل يبدو هيناً ، بيد ان سكان الجبال تعودوا رؤية السيقان
المكسورة ، ويستطيع المشي كل من بوجول ولانجلوا ، كما يستطيع هو أيضاً
ارغام نفسه على السير .

وبدأوا في النزول الى القرية الصغيرة رجالاً يبدون اقزاماً فوق الجليد .
ألقي جارديه نظرة أخيرة على المرآة العاكسة قبل أن يفقد وعيه ، وكانت المرآة
قد تحطمت في اثناء السقوط ، محال أن توجد مرآة بين حطام طائرة .

وظهرت النقالة الأولى أمام مانيان ، وكان أربعة من القرويين يحملونها -
عمود على كتف كل واحد منهم ، يتبعهم أربعة من الرفاق ، وعلى النقالة ،
كان قاذف القنابل .

لم يكن يبدو عليه أن ساقه مكسورة ، بل بدا عليه أنه مريض بذات
الرئة منذ سنوات : وجه غائر بقسوة ، يضيفي على العينين كل ما فيها من
حدة ، ويحيل هذا الرأس ذا الشارين القصيرين الذي تميز المحارب الربعة إلى
قناع رومانتيكي .

ولم يكن وجه ميرو الذي تبعه أقل من ذلك تحولاً ، بيد أن هذا التحول
كان مختلفاً ، فهنا كان الألم يبحث عن ملامح الطفولة .

قال حين صافحه مانيان : « كان الجليد يتساقط في أثناء سقوطنا ، وهذا شيء مزعج » وابتسم ، ثم أغمض عينيه .

واستمر مانيان في التقدم ، يتبعه همالو لينارس ، ولم يكن من شك أن النقالة التالية تحمل جارديه ، فهذه ضمادة تغطي الوجه كله تقريباً ، ولا يظهر منها سوى جفنين متفخين على وشك الانفجار ، ولونها بنفسجي باهت ، وقد ضما بعضها الى بعض بالرباط الواحد الى الآخر بين خوذة الطيران والضمادة المنبسطة التي تمسك بها ، بحيث بدا الأنف تحتها مخفياً ، وحين رأى الحمالان اللذان يسيران في المقدمة أن مانيان يريد أن يتحدث ، وضعا النقالة على رجليها الأماميتين ، وهكذا ظل جسم مانيان مائلاً عدة لحظات ، وكأنه عرض لمشهد من معركة .

ولم يكن من الممكن الاتيان بأية حركة ، وكانت يدا جارديه تحت الغطاء . واعتقد مانيان انه لمح خطأ بين جفني العين اليسرى .

- « هل ترى ؟ » .

- « ليس كثيراً .. ولكنني أراك أنت ... أخيراً ! » .

وأحس مانيان برغبة في احتضانه ، وهزه .

- « أهناك ما نستطيع أن نفعله من أجلك ؟ » .

- « قل للسيدة العجوز ان ترحمني من حسائنها ! وأخبرني متى نصل الى المستشفى ؟ » .

- « الى عربة الاسعاف أسفل الجبل ، في ساعة ونصف الساعة ، وسنصل الى المستشفى هذا المساء » .

وساروا بالنقالة مرة أخرى ، يتبعها نصف سكان قلدلينارس . واقتربت سيطة عجوز غطت شعرها بمنديل أسود تحمل كوباً - حين مرت نقالة اسكالي امام مانيان - وقدمت الحساء للجريح وكانت تحمل سلة ، وفي داخل هذه

السلة زجاجة ترموس ، وكوب ياباني ، ولعل هذا كله ما تملكه من ترف .
وتحليل مانيان حافة الكوب ، وهي تدخل تحت ضمادة جارديه المرفوعة .

فقال لها : « يحسن بك ألا تعطي من هذا الحساء الجريح المصاب في وجهه » .

فأجابته في وقار : « لقد كانت الدجاجة الوحيدة في القرية » .

- « حتى لو كان الأمر كذلك » .

- « إن ابني في الجبهة هو أيضاً . . . وأنا . . . » .

وراقب مانيان النقلات والقرويين وهم يمرون به حتى أولئك الذين يحملون النعش ، وكانوا قد صنعوه في وقت أسرع من الوقت الذي صنعوا فيه النقلات ، وهذه هي العادة . . . وفوق غطاء التابوت ، ربط الفلاحون مدفعا رشاشاً من مدافع الطائرة المحطمة .

وكان الحمالون يتبادلون الأوضاع كل خمس دقائق ، ولكن دون أن يضعوا النقلات على الأرض . وأذهل مانيان ذلك التقابل الحاد بين منظر النسوة الذي يدل على الفقر المدقع ، وبين زجاجات الترموس التي تحملها كثيرات منهن في سلاهن ، واقتربت منه إحداهن ، وسألته مشيرة الى ميرو .

- « كم يبلغ من العمر ؟ » .

- « سبعة وعشرين عاماً » .

وكانت تتبع النقالة منذ بضع دقائق ، وهي تشعر برغبة غامضة في ان تكون نافعة ، وكانت حركاتها تتسم بالحنان الرقيق الواضح ، وبطريقة في اسناد كتفي الجريح في كل مرة يرغم فيها الحمالون على التيقن من مواضع أقدامهم في المنحدرات الوعرة . وفي هذه الحركات تعرف مانيان على غريزة الأمومة الأبدية .

واشتد انحدار الوادي شيئاً فشيئاً ، وكان الجليد يتصاعد في أحد جوانبه

حتى يبلغ السماء التي لا سبيل الى تمييز لونها ، أو تحديد زمنها ؛ وفي الجانب الآخر انزلت سحببات متجهمة فوق ذرى الجبال .

لم يتبادل الرجال كلمة واحدة ، واقتربت احدى النسوة من مانيان مرة أخرى .

- « من ، هؤلاء الأعراب ؟ » .

- « أحدهم بلجيكي ، والثاني ايطاليا ، والباقون فرنسيون » .

- « هل هذه هي الفرقة العالمية ؟ » .

- « كلا . . . ولكن الأمر سيان » .

- « وهذا الذي . . . »

وأشارت الى وجهه اشارة غامضة .

فقال مانيان : « انه فرنسي » .

- « والرجل الميت . . . فرنسي أيضاً ؟ » .

- « كلا . . . إنه عربي . . . »

- « عربي ؟ من كان يظن ذلك ! إذن ، فهو عربي ؟ . . . »

وهرعت لنشر الخبر .

وعاد مانيان الذي كان يسير في نهاية الموكب تقريباً الى النقالة التي تحمل اسكالي ، وكان اسكالي هو الوحيد الذي يستطيع الاتكاء على مرفقه ، وامامه انحدر الممر في خطوط متعرجة تكاد تكون متساوية حتى لانجلوا الذي توقف أمام جدول صغير متجمد ، أما بوجول فقد عاد الى المؤخرة . وعند الجانب الآخر من الماء كان الطريق ينحطف بزواوية قائمة ، وكانت تفصل بين النقالات مسافة قدرها نحو مائتين من الأمتار . أما لانجلوا ذلك المرشد المسرف ذو الشعر الكث - فكان يعد بحوالي كيلومتر ، وكأنه في الضباب

الذي بدأ يتصاعد - كيف يركب حماراً . ولم يكن وراء اسكالي ومانيان سوى
النعش ، واجتازت النقلات الجدول ، واحدة اثر الأخرى : وانبسبت ظلال
الموكب عمودية على جدار الصخور الهائلة .

قال اسكالي : « انظر . . . كنت فيما مضى . . . »

- « انظر الى هذا . . يا لها من لوحة ! » -

ولم يستأنف اسكالي القصة التي كان يريد أن يرويها ؛ ولم يكن من شك
أنه سوف يثير اعصاب مانيان ، كما تثير اعصاب اسكالي المقارنة بين لوحة ما
وبين ما يشاهدونه الآن .

كان احد الأسبانيين يغازل شقيقته في اثناء حكم الجمهورية الأولى ، ولم
تظهر له هذه امتعاضاً أو اعجاباً ، فصحبها ذات يوم الى منزله الريفي بناحية
مرسيه ، وكان هذا المنزل حماقة من حماقات أواخر القرن الثامن عشر :
أعمدة بلون القشدة على خلفية من جدران برتقالية ، وديكورات من المرمر
على هيئة ازهار السوسن ، واعشاب الحديقة ترسم صوراً للنخيل تحت
الورود الحمراء ، وكان أحد ملاكه القدماء قد شيد مسرحاً صغيراً لخيال
الظل يتسع لثلاثين مقعداً فحسب ، فاذا دخل المدعوون وجدوا الفانوس
السحري مضيئاً ، والظلال الصينية تتراقص فوق الشاشة الصغيرة ، ونجح
الرجل الأسباني ، اذ باتت عشيقته ذلك المساء ، وكان اسكالي يشعر بالغيرة
من ذلك الجو الزاخر بالأحلام .

وفي اثناء نزوله صوب الجدول تذكر الألواح الأربعة القرمزية المذهبة التي
لم يرها قط . . . منزل حافل بالأغصان والنباتات ، مليء بالتماثيل النصفية
المصنوعة من الجبس وسط أوراق اشجار البرتقال . واجتازت نقالته
الجدول ، وانعطفت . فظهرت الثيران في مواجهته مرة أخرى . هذه اسبانيا
التي عاش فيها مرحلة صباه ، وحبه ، ووهمه ، وشقائه ! اسبانيا هي هذا
المدفع الرشاش المحطم على نعش رجل عربي ، وهي هذه العصفير المقرورة
التي تصيح فوق تلك الأخاديد ! .

استدارت البغال الأولى واختفت من جديد ، عائدة الى وجهتها الأولى .
ومن المنحدر الجديد هبط الطريق مباشرة صوب لينارس ، وتعرف مانيان على
شجرة التفاح .

على أية غاية يسيل مثل هذا المطر ، من الجانب الآخر للصخرة ؟ ولكن
مانيان بغله ليجري خبياً ، فتجاوز الجميع ، وبلغ المنعطف . . . لا وجود
للمطر ، وإنما كان ذلك هدير السيول التي فصلتها الصخور عنه مثلما تحجب
منظراً ، فما كان يستطيع أن يسمعه من السفح الآخر ، وكان الصوت يصاعد
من لينارس ، وكأن عربات الاسعاف والحياة التي يعودون اليها من جديد
تبعث من أعماق الوادي هذا الهدير الممتد للريح يعث بأوراق الشجر . ولم
يكن المساء قد أسدل استاره بعد ، بيد أن النور بدأ يفقد سطوته ، وأخذ
مانيان - وكأنه تمثال خيالي فوق بغل بلا سرج - يراقب شجرة التفاح القائمة
وسط ثمارها الميتة . ومر رأس لانجلوا ذو الخصلات الدامية أمام الأغصان .
وفي هذا السكون الذي امتلاً فجأة بخيرير المياه الحية - بدت هذه الحلقة
المتعفنة المملوءة بالبذور وكأنها - عبر حياة البشر وموتهم - ايقاع حياة الأرض
وموتها . وجالت نظرة مانيان من جذعها الى الأخاديد التي لا عمر لها ،
ومرت الثقالات الواحدة اثر الأخرى ، وكما امتدت الأغصان فوق رأس
لانجلوا كذلك امتدت فوق جوانب الثقالات ، وفوق ابتسامة « تايفير »
الشبيهة بابتسامة الجثث ، ووجه ميرو الطفلي وضمادة جارديه العريضة ،
وشفتي اسكالي المشقوقتين ، فوق كل جسم تنزف منه الدماء وتحمله الأيدي
في رفق أخوي . ومر النعش بمدفعه الرشاش المتلوي كالغصن . . . وواصل
مانيان سيره .

ولم يدرك مانيان كيف يتوافق عمق الأخاديد التي غاصوا فيها الآن كأنما
يغوصون في جوف الأرض نفسها مع أبدية الأشجار ، وتذكر المحاجر التي
كانوا يتركون المساجين فيها ليعاجلهم الموت . . . بيد أن الساق المحطمة
الأجزاء التي لا تكاد العضلات تربط بينها ، والذراع المتدللية ، والوجه

المشوه ، والمدفع الرشاش الذي فوق النعش - هذه كلها مخاطر إرادية ، وهذا الموكب الحزين البدائي من النقلات كل هذا يتسم بطابع مسيطر مثل تلك الصخور الهابطة من السماء الثقيلة ، ومثل أبدية التفاحات المتناثرة على الأرض : ومن جديد صاحت الطيور الجارحة القريبة من السماء غاية القرب . ترى ما عدد الأعوام الباقية له على الأرض ؟ عشرون عاماً .

- « لماذا انضم الطيار العربي الى المعركة ؟ » .

وتقدمت نحوه إحدى النسوة مع اثنتين أخريين .

وفي السماء ، حومت الطيور بأجنحة ثابتة كأجنحة الطائرات .

- « أصبح انهم يركبون أنوفاً جديدة الآن ؟ » .

وكلما اقترب الأخدود من لينارس اتسع الطريق ، وكان القرويون يسرون حول النقلات ، على حين كانت النسوة المتشحات بالسواد - المناديل فوق رؤوسهن ، والسلاسل في أذرعهن - يتنقلن دائماً بين الجرحى يمينة ويسرة ، أما الرجال فكانوا يتبعون النقلات دون أن يتجاوزوها بصدور مستقيمة بارزة الى الأمام كأولئك الذين يحملون عبثاً فوق أكتافهم . وعند كل تغيير كان الحمالون الجدد يتخلون عن مشيتهم المتصلبة حين يتناولون النقلات في حركة تتسم بالرفق والرعاية ، ويواصلون السير بمصاحبة أصوات العمل اليومي ، وكأنهم يريدون اخفاء ما أظهرته حركتهم من عاطفة . وكانوا يتقدمون بخطوة منتظمة مثثة عند كل منحدر ، لا تسيطر عليهم سوى الرغبة في التفادي من الأحجار التي تعترض طريق الممر ، ولا يفكرون إلا في المحافظة على النقلات دون اهتزاز ، وكان هذا الايقاع المتوافق مع الألم في هذا الطريق الطويل يملاً هذا الأخدود السحيق الذي أخذت تصرخ فوه الطيور الأخيرة ، كأنها دقات طبول حزينة في موكب جنائزي ، ومع ذلك لم يكن الموت هو الذي يتمشى مع الجبال في هذه اللحظة ، وإنما إرادة البشر .

وبدأوا يتبينون لينارس عند نهاية الأخدود ، وتقاربت النقلات بعضها من بعض ، ولحق النعش بنقالة اسكالي ؛ وكان المدفع الرشاش مربوطاً حيث

كان من المؤلف أن توضع أكاليل الزهور ؛ وكان الموكب كله بالنسبة للجنائزات كأنه هذا المدفع الرشاش الملتوي بالنسبة لأكاليل الزهور ، وهناك ، بالقرب من طريق سرقسطة وحول الطائرات الفاشية ، كانت أشجار الغابة السوداء ما زالت تحترق في ضوء النهار الذي بدأ يجبو . هذه الطائرات لن تذهب أبداً الى وادي الحجارة ، وبدت هذه المسيرة كلها المؤلفة من فلاحين يرتدون السواد ، ونسوة يخفين شعورهن تحت مناديل لا عمر لها - بدت وكأنها تسير في موكب للنصر أكثر من أن تكون تابعة للجرحى .

كان المنحدر هيناً الآن ؛ وبارحت النقلات الطريق ، وانتشرت عبر الأعشاب ، وتناثر رجال الجبال على هيئة مروحة ، وأقبل الأطفال راكضين من لينارس ، وحين وصلوا الى مسافة تبعد مائة متر عن النقلات تباعدوا وافسحوا لها الطريق ، ثم ساروا وراءها . وكان الطريق المليء بالحصى المتراكم على الجانبين ، الذي هو أشد وعورة من مسالك الجبال - يصعد بمحاذاة الأسوار حتى يصل الى البوابة .

واجتمعت لينارس كلها خلف المتاريس ، وضوء النهار يجبو ، غير ان المساء لم يكن قد حل بعد ، وعلى الرغم من ان السماء لم تمطر فقد كانت الحصباء تتألق ، والحمالون يتقدمون في عناية ، وفي المنازل التي كانت طوابقها تعلو على مستوى الأسوار أضيئت بعض الأنوار الخافتة .

وكان قاذف القنابل يتقدم الموكب دائماً ، والفلاحات الواقفات فوق الأسوار ينظرن في وقار ، ولكن دون دهشة ، وكان وجه الجريح هو وحده الخارج عن الغطاء ، وليس فيه أي أثر للإصابة ، وبالمثل ، كان اسكالي وميرو ، أما لانجلوا ، فقد أثار دهشتهم ، بمنظره الذي يشبه دون كيشوت ، وبالضمادة الملتصقة بالدماء التي لف بها رأسه ، وإبهام قدمه نحو السماء (كان قد خلع حذاءه لأن قدمه مرضوضة) . أمن الممكن أن تنتهي على هذا النحو حرب الطيران التي هي أكثر الحروب رومانتيكية ؟ وثقلت وطأة الجو حين مر بوجول ؛ فقد كان ضوء النهار المتبقي كافياً لكي تبصر تلك العيون المتنبهة

بقع الدماء الكبيرة على الجلد ، وحين وصل جارديه امام هذا الحشد الصامت فعلاً ران صمت جديد حتى تناهى الى الأسماع فجأة خريبر الجداول البعيدة .

كان الجرحى الآخرون جميعاً يستطيعون النظر ، وحين شاهدوا الحشد أرغموا أنفسهم على الابتسام ، لم يشذ عنهم في ذلك قاذف القنابل ، ولم ينظر اليهم جارديه . . كان حياً فحسب ، ومن ورائه ، كانت الجموع تستطيع أن تبتين النعش العريض عبر الأسوار . كانت الملاء تغطي وجهه حتى الذقن ، والضمادة عريضة تحت خوذته حتى ليصعب على المرء أن يتخيل تحتها أنفاً ، وعلى هذه الهيئة كان الجريح صورة مجسدة لما تخيله الفلاحون عن الحرب ، منذ قرون ، ومع ذلك فإن أحداً لم يجبره على خوض القتال ، وانتاهم التردد لحظة ، لا يعرفون فيها كيف يتصرفون ، وإن انعقد منهم العزم على أن يفعلوا شيئاً ، وأخيراً رفعوا قبضاتهم ، كما فعل أهالي فالديلينارس .

وتساقط رذاذ من المطر على حين تقدمت النقلات الأخيرة ، والقرويون سكان الجبال والبغال الأخيرة ، وسط منظر الصخور الممتد ، هناك حيث تجمعت السحب المطيرة ، ومئات من القرويين الذين وقفوا بلا حراك رافعين قبضاتهم ، وانسابت دموع النسوة في هدوء ، وبدا الموكب كأنه يهرب من سكنون الجبال الغريب بما صاحبه من ضجيج الحوافر ، وصرخات جوارح الطير الأبدية والزفرات المكتومة .

ورحلت عربة الاسعاف .

ومن النافذة التي تسمح بالاتصال بالسائق أبصر اسكالي مربعات من المنظر الليلي ، ومن هنا وهناك كان يظهر جزء من أسوار ساجوتنة ، ومن أشجار السرو الصلبة السوداء في ضوء القمر الزاخر بالضباب . . الضباب الذي يحمي غارات الليل ، والمنازل البيضاء الخيالية . . . منازل السلام ،

وثمار البرتقال التي تشع بالأضواء في البساتين السوداء .. بساتين
شكسبير ... وأشجار السرو الايطالية ... « في ليل مثل مثل هذا يا
جيسكا ... » السعادة « موجودة » أيضاً .. في العالم ، وكان قاذف القنابل
يتأوه فوق نقالته عند كل اهتزازة .

ولم يكن ميرو « يفكر في شيء ، فالحمى شديدة ، كان يسبح بصعوبة
في مياه حارة !

أما قاذف القنابل فكان يفكر في ساقه .

وجارديه يفكر في وجهه ؛ لأنه يحب النساء .

وكان مانيان يستمع في التليفون الى فارجاس :

- « انها المعركة الفاصلة يا مانيان ... اصطحب معك كل ما

تستطيع .. بأفضل ما تستطيع »

- « لقد تحطمت تقريباً في الطائرة « مارا » اجهزة التحكم في

الاتجاه »

- « افعل ما تستطيع » .

الفصل الرابع

وادي الحجارة ، في ١٨ مارس

شن الايطاليون هجوماً مضاداً في بريويجا Brihuga فاذا استطاعوا اختراق هذه المدينة طوقوا مؤخرة القوات الجمهورية جميعاً ، وهذا معناه تهديد وادي الحجارة مرة أخرى ، وقطع الاتصال بين جيش الوسط وبين مدريد بحيث توشك المدينة أن تكون بلا دفاع ، ولا تجد كتائب ديميتروف وتالمان وجاربيالدي ، وأندرية مارتى ، والسادس من فبراير خطأً تنسحب اليه ، ولا تعود ثمة قيمة من الاستيلاء على ترجويك ، وايسارا ، وضياح كاميسينو في غابتها .

وصمدت كتيبتا تالمان وادجار- أندرية مرة أخرى .

وكانت كتيبة ديميتروف (وتضم جنوداً من كرواتيا وبلغاريا ورومانيا وضربيا والبلقان ، ومن الطلبة اليوغوسلافيين في باريس) - تشعر حين تواجه الفاشيين انها تواجه قتلة أهلها ، وقد أمضى افرادها أربعاً وعشرين ساعة يسبون الدبابات الايطالية محمّين بالغابة ، كما فعلوا في جبهة « شرنبة » واستولوا على رقعة من الأرض طولها كيلومتر ولكنهم أرغموا على التخلي عنها ساخطين للمحافظة على استقامة الصفوف ، وناموا متلاصقين كالذباب لمكافحة البرد ، وهاجموا تحت وابل من قنابل « الشراييل » . وكان أحد

رؤساء الجماعة ، وهو من أهالي ماونتنجرو^(١) يجري نحو المؤخرة صائحاً :
« اهتموا بمراكزكم ، ولا تهتموا بي ، يا أيها الأوغاد ! » وكان يسند ذراعه
اليسرى المكسورة على ذراعه اليمنى حين نسفت رصاصة متفجرة رأسه في
دوامة من الجليد .

وتساقط الجليد من جديد ، وعلى طول الجبهة أحس الرجال الزاحفون ،
برؤوسهم المخفية بين مناكبهم ، وعضلات بطونهم المتقلصة انتظاراً
للإصابات ، أحسوا بالرصاصات المتفجرة تعصف بهم كما تعصف دوامات
الجليد .

ولم تكن تتردد في كتيبة تالمان سوى عبارتين فحسب : « أين
الطعام ! » ، « يا عزيزي ، لا حرب بلا ضحايا ! » .

وكان المندوب السامي لجماعة المدفعية الرشاشة يصيح بعد أن أصيب في
بطنه ، وانتابه ضرب من الهذيان : « أرسلوا دباباتنا ! أرسلوا دباباتنا ! » .

وكانت الكتيبة قد شنت هجومها الحادي عشر منذ بداية المعركة ، وما
زالت الأشجار تحتفظ بجذوعها ، وإن تجردت من أغصانها تماماً .

صاح سيري بين الفرنسيين - البلجيكين : « هذه ليست الحرب ! إنها
صفعة لا تنتهي أبداً ! » .

وجعل يحاكي غناء العصفور تلك المحاكاة التي لا علاج له منها ،
وبدأت البنادق تحرق الأكف .

ولم يبق عند رجال بيب الذين يعملون تحت قيادة مانويل سوى سبعمائة
وخمسين رصاصة لمدفع رشاش يطلق ستمائة رصاصة في الدقيقة . وتم توزيع
نصفها على الرماة المهرة ، وأمام البنادق التي لم تعد صالحة للاستعمال أخذ

(١) منطقة جبلية في شبه جزيرة البلقان ، شمالي البانيا . كانت امارة مستقلة ثم تحولت الى مملكة
مونتنجرو سنة ١٩١٠ ، ثم اتحدت بيوغوسلافيا سنة ١٩١٩ ، وهي الآن إحدى ولايات
يوغوسلافيا الاتحادية ، وعاصمتها تيتوغراد . (المترجم) .

الجنود الجدد سيكون من فرط الخلق ، وصاح رئيس الجماعة : « احضروا المدفع الرشاش هنا ! » وحين تبدد دخان القذيفة الأولى ، كان قد لقي مصرعه في نفس المكان الذي اشار من فوره اليه باصبعه . بيد أن الذخيرة وصلت مع بعض البنادق الاضافية .

وأخيراً انحدرت صرخة من الغابات والسهول المؤدية الى بريويجا التقطتها الأذان برغم قصف المدافع الذي بدأ من جديد ، وتصاعدت من غابات الزيتون ومن الجدران الصغيرة التي التصق بها الجمهوريون كالخشرات ، ومن المزارع والحقول المخربة ، ولاح الأفق كأنه يمتد بتأثير الانفجارات الغاضبة الصادرة عن المدفعية الفاشية جميعاً : فلقد وصلت الدبابات الجمهورية .

وكانت تهاجم على طول الجبهة اكثر من خمسين دبابة في الصف الواحد ، ومن طرف الى الطرف الآخر من الأفق الذي كان الجليد يجحبه ويكشف عنه على التناوب . وشرع أولئك الذين اختلسوا عشرين دقيقة ناموا فيها نوماً قلقاً تحت أشجار الزيتون المتجمدة من البرد ، وأولئك الذين ناموا بعد أن هدهم التعب ، فاستيقظوا متصلبين . . شرع أولئك وهؤلاء يركضون وراء الدبابات الأخيرة التي كانت تحجب عنهم عواصف الجليد على فترات متقطعة .

وفي الفرقة الخامسة كان رئيس الجماعة الأولى هو أول القتلى ، ولم تمض بضع دقائق حتى انفجرت احدى الدبابات الجمهورية مشتعلة بالنيران ، فأضاءت الحقل الذي كساه الجليد ضوءاً أزرق كثيباً ، وكذلك أضاءت ندف الجليد المعلقة فوقه . وأخذ الرجال الذين حاصرتهم سيول متقاطعة من المدافع الرشاشة ، فانبطحوا على بطونهم وراء جذوع الأشجار ، وأخذوا يحفرون الجليد بخزانات رصاصهم وبخوذاتهم ولو (انهم حفروا بالسونكي لكان عليهم أن ينهضوا) ؛ وقبعوا في الحفر ، ثم قاموا فجأة لالقاء قنابلهم اليدوية برهة وجيزة ، ثم عادوا الى الانبطاح من جديد تحت المدافع الرشاشة

التي اجتاحت الميدان ، وسقط أربعة من المتطوعين الستة الذين أرادوا إعادة الجرحى . ولم يكن رجال الفرقة العالمية المجاورون يسمعون سوى الرصاصات المتفجرة من ورائهم ، وأحياناً كانوا يسمعون صوتاً يصيح : « إذن هل انتم على ما يرام ؟ » فيجيبه آخرون : « لا بأس . وأنت ؟ » وتحت هذه الأصوات كانت تنطلق صيحات كأنها كورس يائس على امتداد الميدان كله : « النجدة ! النجدة ! » .

ومع ذلك فقد أطبق عليهم النوم في الساعة الثالثة من فرط الاعياء ، ووزعت عليهم القهوة مرة أخرى ؛ وكان الجنود يجزعون من برد الليل ، وأخذوا يتذكرون تحت قبعاتهم الصوفية خنادق مدريد ، فهناك كانوا يطلقون النار أحياناً في أثناء الأكل ، وكان الأشخاص المرحون منهم يدرّبون الفئران ، والمتزوجون منهم يتأملون في صمت صور أطفالهم في انتظار انطلاق القذائف ، وتذكروا أيضاً جبهة شرنبة ، حيث كانوا يشنون هجوماً وراء الدبابات الفاشية عندما نفذت الذخيرة منها ، وأقبل عليهم أشخاص يصيحون ويطلبون ما يبرد فوهات المدافع الرشاشة .

وكان ييب يقول : « لا دبابات بلا رصاص ، ولا رصاص بلا دبابات » موجهاً كلامه الى رجاله الزاحفين راضياً عن هذه العبارة ، وعلى يمينه كان رجال الفرقة الخامسة يتقدمون أيضاً وسط سيل كثيف من الرصاص ، خلف قذائف المدفعية ، التي يقودها ضابط اسباني قيادة بارعة ، وكان المدنيون من فرق الاسعاف يهاجمون الدبابات ، وقد أمسكوا بأيديهم قنابل يدوية ، وتجردوا من السلاح ، وذلك حتى يتمكنوا من نقل جرحاهم .

وتعالت بضعة أصوات بالنشيد العالمي ، ولم تلبث أن طغت عليها صيحة عظيمة حانقة من جانب الأسبانيين ، وزججرة قصيرة بعشر لغات من جانب رجال الفرقة العالمية : « الى الأمام ! » .

قال أحد ضباط سلاح الطيران : « الفاشيون لا يساندتهم طيرانهم » .

وكانت السحب على بعد مائتين من الأمتار ، والجليد قد استأنف سقوطه .

اجاب سمبرانو : « إن مطاراتهم على الجانب الآخر من سلسلة الجبال . . ومن غير المحتمل أن يحاولوا اجتيازها » .

كان يربط ذراعه بوشاح ، ولم يكن يستطيع قيادة الطائرة ، وكانت القوات الايطالية محصورة بين الجمهوريين وسلسلة الجبال .

ولم يقل فارجاس شيئاً .

وقال أحد الضباط : « من الطبيعي أننا لو خرجنا فإننا نجازف بسحق طيراننا على بكرة أبيه : ويكفي أن يتحول هذا الجو الى عاصفة . . . وما من سلطة عسكرية يمكن أن تأخذ على مسؤوليتها مثل هذه الكارثة . . . » .

واستدعى فارجاس ضابط النوبة .

قال سمبرانو : « تستطيع طائراتهم في ترويل أن تدور حول سلسلة الجبال ، حتى في مثل هذا الطقس . . »

فاجاب فارجاس : « لا أعتقد أن شيئاً تبقى من تلك الطائرات . . . »
واتصل ضابط النوبة بالتليفون قائلاً : « آلو القلعة ؟ ابعثوا فوراً بكل ما تحت تصرفكم من طائرات الى مطار ١٧ في وادي الحجارة . آلو . . . مطار ٢١ ؟ ابعثوا بكل ما تحت تصرفكم من طائرات الى مطار ١٧ في وادي الحجارة . . . آلو . ساربون . . ابعثوا بكل ما تحت تصرفكم الى مطار ١٨ في وادي الحجارة » .

قال فارجاس : « لو اننا خسرنا هذ المعركة فسنخسر كل شيء . ومهما يكن من أمر فإن الشعب الأسباني لا يثق فينا إلا من أجل طيراننا ، أما بالنسبة للفاشيين فالمسألة أشد من ذلك تعقيداً . . . هيا بنا » .

ولأول مرة منذ عدة شهور ، وضع خوذة الطيران على رأسه .

شن الجنود الجدد هجوماً ، وقد تألفت هذه الكتيبة التي لم يلحق جنودها بعد بالسرايا الوطنية من المتطوعين القادمين حديثاً من بلاد بعيدة : من اليونانيين ، واليهود ، والسوريين الذين يعيشون في اميركا الشمالية ، والكوبيين والكنديين والاييرلنديين والأميركيين الجنوبيين ، والمكسيكيين ، وبعض الصينيين وقد شرعوا في اطلاق النار جزافاً : ذلك أن الرجال الذين لا يحتاجون الى احداث ضجة في أول معركة لهم نادرون ، وظنوا أنهم جرحوا في أول صدام ؛ إذ أكدوا لهم أن الجروح الأولى لا تؤلم ، واكد البعض حين انطلقت الرصاصات الأولى ان « هذه ليست إلا ضوضاء العصفير الأسبانية » . وكانت خوداتهم التي يصدمون حافتها الأمامية أو غطاء العنق في كل مرة يطلقون فيها الرصاص تعوقهم عن الحركة ، وما يحيط بالموت من جو غير واقعي يزعجهم ، وانتظروا صامتين أمام الجرحى الأوائل الأمر بالهجوم ، وقد ارتسمت على جميع الوجوه نفس الابتسامة المتكلفة ، ثم تناهت الى اسماعهم ضوضاء مكتومة تشير الى كتيبة أذجار - آندريه المرابطة على يمينهم قد خرجت الى العراء ، فاندفوا وراء الدبابات بقنابلهم اليدوية .

وعلى أقصى اليسار شن العدو هجوماً خاطفياً بالمدافع الرشاشة ترك كئائب مانويل في حالة من الذهول لم يخرجوا منها إلا بعد ان هاجمت الخيالة المغربية خنادقهم بالبنادق السريعة الطلقات ، وكان التأثير مباشراً ، فقد ولى الأدبار أولئك الذين واجهوا البنادق السريعة الطلقات لأول مرة ، غير أن مانويل حاصر جنوده برجال الديناميت الذين درهمهم « پيب » . وكان هؤلاء يعلمون أن الفرسان لا يستطيعون التصويب في اثناء الحركة ، ومن ثم ، فقد كانوا محميين ، فواجهوا الحملة الأولى بالقنابل اليدوية ، وخندقوا على الفور وراء حاجز سميك من الجياد المقتولة ، يعاونهم الجنود الذين فهموا ، فأخذوا الآن يطلقون النار من بنادقهم على الفرسان الذين كانوا بسيلهم الى التجمع ، وشرعوا يزحفون تحت الجياد بحثاً عن البنادق السريعة الطلقات . . . ولم يبق في المؤخرة سوى المجندين الفلاحين الذين كانوا على استعداد لمقاتلة الرجال ، ولكنهم لا يجراؤون على قتل مثل هذه الخيول

الجميلة ، وتحدث اليهم جارتز ، واقفاً خلف دبابة ، حريصاً على ألا يأتي من الاشارات ما يجاوز حدود برجها .

وعلى طول الجبهة اصطبغت أيدي المرضين باللون الأحمر .

وظهرت أول طائرة جمهورية ، وكأنما انزلت من بين جليد الأرض الناصع البياض ، وجليد السحب المشوب ، ولم تلبث بعد ذلك أن ظهرت الطائرات القديمة واحدة تلو الأخرى في مظهر شاذ ، كجنود جرحى ، تلك الطائرات التي لم يرها أحد منذ شهر أغسطس ، تتبعها طائرات سيدات الطبقة الراقية ، وطائرات النقل ، والبريد ، وطائرات الاتصال ، وطيارة لكثير « الأوريون » ، وطائرات التدريب ، واستقبلتها القوات الأسبانية بابتسامة قلقة ، هي أقصى ما يمكن أن تسمح به مشاعرهم الآن . وحين حمل وفد « الرؤيا » هذا حملته على المدافع الرشاشة الايطالية - مارقاً وسط الجليد - تلقت جميع كتائب الجيش الشعبي المنتظرة الأمر بالزحف . وعلى الرغم من السحب الواطئة والجليد المنذر تقدمت الطائرات في بداية الأمر ثلاثاً ، ثم سرباً وراء سرب مصطدمة بالسحب كأنها طيور تصطدم بالسقف ؛ لتعود الى الهبوط مغطية الأفق المرئي الذي لم يكن سوى أفق المعركة بهدير جعل الجليد ينبض فوق الأرض وعلى الأموات ناشرة الوحشة فوق السهول المائلة ، القائمة قتامة لا تقل عن قتامة الغابات . . .

. . . تقدمت ثمانون طائرة جمهورية في تشكيل القتال كأنها تقوم

بغزو . . .

وعلى الأرض ، تقدم الجمهوريون متلفعين بمعاطفهم ، وقد غطوا رؤوسهم بالقنصوات المدبية كالمغاربة ، ومن خلال فلول السحب المهلهلة الهاربة أمام الطائرات ظهر - للحظة واحدة فحسب - طريق مرتعش تحول الى طاوور ايطالي مدرع ؛ ولما كانت الريح تهب من جانب الخطوط الجمهورية لم يكن مانيان يستطيع في طائرته « الأوريون » أن يرى أهل الطاوور يهرب أمام

القلنسوات وأمام الدبابات المتضائلة فوق الحقول الواسعة وأمام الطائرات أو أن الريح تجرفها كما تجرف السحب التي لا نهاية لها ، وكما تجرف العالم بأسره ؟

ومع ذلك فإنه لم يشعر قط من قبل بأنه مندمج في القتال على هذا النحو ؛ وكان السحب والطوابير تعبير عن ارادة خفية ، وكان المدافع والفاشية ، والعاصفة متواطئة في الهجوم معاً ، وكأنه منفصل عن النصر بهذا العالم الأغبر .

وارتمت سحابة هائلة ، متشابكة الى درجة ان الطيارين حسبوا انفسهم عمياناً - ارتمت على الطائرات السياحية التي حف الجليد بأجنحتها ، وأخذت تنتفض في تلك المسيرة الهوجاء لدوامات الجليد التي غمرتها وحجبت عنها السماء والأرض ، وحاصرتها عن يمين وعن شمال ، فبدت وكأنها لا تتحرك من مكانها في كفاحها بكل قوتها ضد الريح ، وما أن خرج مانيان الى بقعة رمادية تكاد تكون سوداء حتى رأى أن « الأوريون » تستدير بزاوية ١٨٠° . وتعطلت البوصلة ، وكانت الأجهزة التي تشير الى خط السير الأفقي قد تحطمت ، وعلى الرغم من البرودة ازاح داراس خوذته ، وانحنى على جهاز تحديد الارتفاع - وكان قد تحطم هو أيضاً - فكشف عن شعره الأبيض ككل ما يحيط بالطائرة . من يدري لعله يهبط الى الأرض بسرعة ٣٠٠ كيلومتر في الساعة ، ولعلمهم على ارتفاع ٤٠٠ متر عن سطح الأرض ...

كلا : لقد خرجوا من ناحية قمم السحب .

وبين السحب المهلهلة التي تفككت فوق الأرض وبين عباب اخر من السحب المنبسطة الشاحية - تقدمت جميع الطائرات الحربية الجمهورية صفاً واحداً .

وحاول داراس أن يهز الأجنحة لكي يسقط الجليد .

- « حذار من القنابل ، بحق السماء ! » .

ولكنه انقض مرة أخرى ، دون أن يأخذ حذره كثيراً .

وقال مانيان في نفسه : « حبذا القتال في الجليد ! » إن طائراته متناثرة مع رياح اسبانيا كلها ، ورفاقه متناثرون في المقابر جميعاً ، وإن لم يكن ذلك بغير طائل ، ولم يبق ما يحيا من أجله الآن سوى طائرته الأوريون هذه التي تلمطمها عاصفة الجليد في عنف شديد ، وتلك الطائرات المتهافئة التي تهتز كما تهتز أوراق الشجر أمام الأسطول الجوي الجمهوري الذي أعيد تشكيله ، ولم تكن تلك الصفوف الواضحة المحددة من القلنسوات تحت خضم السحب تغطي المراكز التي اتخذها الايطاليون بالأمس فحسب ، وإنما تغطي عَصراً متطوراً بأكمله ، وتعرف مانيان على ما يبصره اليوم ممتداً تحته ، وطائرته الأوريون تهزه كأنه في مصعد أصابته لوثة : إنها نهاية حرب العصابات ، ومولد الجيش المنظم .

وبرزت « كامبسينو » من الغابة ، وهبطت الوحدات الجاريبالدية والفرنسية - البلجيكية وراء كتيبة دوميروفسكي ، على حين كانت وحدات القربينات تصعد على طول جبهة « تاخونيا » . ومن طرف آخر من الجبهة ، كان المدفعيون يغيرون مواشير مدافعهم الرشاشة ، وقد انتصبوا بعد أن لسعهم المعدن المشتعل ، فحصدتهم الرصاص على الفور ، ومن طرف إلى آخر من الجبهة كانت الدبابات تتقدم ، والجنود خلفها يذرعون الجبهة بالملوك ليجمعوا في أغطيتهم حصاداً لا ينتهي من الجرحى . وكانت هناك دبابة جمهورية يخرج نصف جنازيرها فوق فراغ أخدود ، وتبرز صفحتها الجانبية على خلفية السماء الواطئة ، وأخذ كارليتس الذي أصبح أخيراً رئيس جماعة من سلاح الدبابات - يتقدم مطلقاً رصاصه دون توقف على جماعات العدو المضادة للدبابات . . . مجرد ظلال لرجال لا عيون لهم انحنت ظهورهم ، وأمسكوا بالقنابل اليدوية في أيديهم .

وعند ترويل شاهد مانيان في اثناء تحليقه فوقها آثار الممتلكات الواسعة ، بئراها اللامبالية أو العنيدة - متناثرة فوق الجبال التي دارت عليها رحى الحرب ؛ ولكنه شاهد هنا آثاراً أقل وضوحاً ، تختلط - عبر الجليد - بجدران صغيرة من الأحجار كان رجال الفرقة العالمية وفرق مدريد يهاجمون

تحتها ، وذكرته أيضاً بالجدران الحجرية المنخفضة الجديدة التي شاهدها في ترويل وفي الجنوب متكثلة قصيرة ، يتهدها الخطر بين الآثار القديمة الهائلة ، وتذكر الأراضي البور التي لم يكن للعمال الزراعيين - المصايين بتضخم الغدد من يؤسهم - الحق في فلاحتها . . . وكان هؤلاء الفلاحون الحائقون الذين يقاتلون تحت امرته يقاتلون لتشييد هذه الجدران الصغيرة ، التي تعد أول شرط من شروط اثبات كرامتهم ، وشعر مانيان في جميع أحلامه التي تحبب فيها منذ شهور بشيء بسيط أساسي كالميلاد أو الفرح أو الألم أو الموت ، شيء لا تستطيع عبارات المدن المنمقة التعبير عنها ، انه ذلك الصراع القديم بين من يفلح الأرض وبين من يملكها بالوراثة .

وحين عادت « الأوريون » للمرة الخامسة مع أسطولها العتيق ، مرت الطائرات الجمهورية تحت السحب ، وهاجمت صفوف القلنسوات من الأمام ، ولم يظهر الطيران الفاشي تقريباً ، وعلى الأرض كانت الدبابات الجمهورية تهاجم كأنها تقوم باستعراض في الميدان الأحمر ، ثم تعود لتهاجم من جديد . ولم تكن أديرة بريويجا وكنائسها تطل برأسها من ضباب المساء إلا في صعوبة على ضوء القنابل . وكانت الانفجارات ترسم الآن حدوة الحصان التي يؤلفها الجيش الجمهوري في حصاره للمدينة ، وفي كل طرف من طرفي هذه الحدوة كانت تشتعل بطاريات المدفعية اللاهثة كأنها أكوام من الحطب أضمرت فيها النيران لمواجهة الجليد الذي أخذ يتساقط من جديد ، فاذا التحم هذان الطرفان كان معنى ذلك الانسحاب الايطالي على طول جبهة وادي الحجارة .

وفي مقدمة الفراغ الذي يفصل بينها امتدت على الأرض ألواح اعطاء الاشارات ، بيد أن الضباب كان قد غمر الآن كل شيء فأصبح من المحال تمييز أية حلة عسكرية . لو أن الليل أنقذ الايطاليين فسوف يشنون هجوماً مضاداً على تريجويك . وترنحت « الأوريون » (كانت قد افرغت حمولتها من القنابل . وكفت عن الاشتراك في القتال ؛ ولكنها لبثت هناك ، تتأرجح

وتكافح ذلك الليل الزاحف فوق مصير اسبانيا ، كما زحف في اثناء عودة
مارسيلينو . وكان خط الطيران الحربي الكثيف يحوم فوق ميدان المعركة
بحوالي مائتين من الأمتار على الأقل ، ولم يكن الطيارون يرون شيئاً ؛ ومع
ذلك لم يكونوا يريدون الرحيل ، وكان الضباب يواصل صعوده دائماً من
وادي « تاخونيا » .

وتحت الطائرات كان المتطوعون يواصلون مجهودهم الضاري ، المجهود
الذي سيدعم انشاء الجيش الجمهوري أو يوهن منه ، وحامت الطائرات التي
لعلها كسبت المعركة ، بدلاً من أن ترحل لا رغبة في الهجوم على العدو ، بل
انتظاراً للنصر ، متناسية مطاراتها التي تفتقر الى الأنوار الأرضية مفتونة بالليل
المنسدل .

وحلق مانيان على الفضاء الممتد بين طرفي الحدوة ، فوق طريق من طرق
« هوركا » ، كان متسعاً عند ذلك الموضع ، تحفه سيارات نقل مهجورة .
وانقض بطائرته انقضاضاً شبيهاً بما فعله مع الفلاح فوق مطار ترويل ؛ بينما
كان الجنود الجمهوريون يمحطون أجنحته بوابل من رصاصهم ، وقد اخطأوا
فحسبوه عدواً - تعرف على علامات الاشارة التي وضعها الفوضوي « ميرا » و
« كامبسينو » ، وجنود الغدارات .

الفصل الخامس

كانت الالتحامات الأخيرة للمعركة تهدر من بعيد ؛ وطاف مانويل بالقرية - بعد ان استقرت خطوطه - للاستيلاء على سيارات النقل يتبعه كلبه ، وكان قد تبنى كلباً بديعاً من فصيلة الذئب (وولف) فاشياً سابقاً جرح أربع مرات ؛ فكلما أحس انه منعزل عن الناس تضاعف حبه للحيوانات من ثيران وجياد حربية وكلاب ذئبية وديكة مقاتلة ؛ وكان الايطاليون قد تركوا وراءهم كثيراً من السيارات ، وفي انتظار التوزيع الرسمي حاول قائد كل وحدة أن يضم اليه أكبر عدد ممكن منها (مؤكداً في خبث انه لو انتظر وصول كامبسينو فلن تبقى سيارة واحدة) . وكانت تلك السيارات تأوي مؤقتاً الى أي مكان يتسع لها سواء أكان كنيسة أو دار للعمدية ، أم مخزناً للمحصولات ، وفي القرية التي كان يحتلها رجال القرينات رابطت في كنيسة ، بيد انهم حذروا مانويل من أن أكسيمينيس قد ذهب الى القرية منتوياً نفس ما ينتويه مانويل .

كانت الكنيسة عالية مشيدة من الأحجار الحمراء وقد هشمت الرصاصات نخيلها المدهون بالجير ، وانكسرت اشعة النهار التي نفذت من خلال الكاتدرائية فوق ركام من المقاعد يصلح وقوداً للمدافع ، وفوق السيارات المرصوفة بنظام وسط صحن الكنيسة ، وسار أحد رجال الميليشيا الذين يجرسون الكنيسة في أعقاب مانويل وجارتر .

وتساءل هذا الأخير : « هل رأيت الكولونيل ؟ » .

- « انه هناك ، وراء السيارات » .

فزجر جارتير : « وأسفاه ! لقد سبقنا في الاستيلاء عليها » .

وتوقفت نظرة مانويل التي لم تكن قد اعتادت الظلمة بعد - عند خليط ذهبي اللون يرتعض في الظلال فوق الدهليز كأنه حريق ثابت : ملائكة يضعون أقدامهم على الهواء ، ويملأون الجدار كله حول أنابيب للنفخ لأرغونات عجيبة الشكل ، وأبصر مانويل سلماً لوليباً ، فصعده في شيء من القلق واللهفة .

وتبعه رجل الميليشيا على حين مكث مانويل في مكانه ، وكأنه يريد حراسة السيارات ، والكلب خلفه .

وسأل مانويل رجل الميليشيا : « كيف ظلت هذه الكنيسة سليمة لم تُمس ؟ » .

- « بفضل لجنة الفن الثورية ، لقد حضر الرفاق وقالوا للجنة المحلية : « للأرغن والكورس أهمية عظيمة » . وكانوا على حق ؛ لأن العمل كثيراً ؛ ومن ثم فقد اتخذوا اجراءاتهم » .

- « والايطاليون ؟ » .

- « لم يحاربوا كثيراً في هذا المكان » .

وكان أحد الفوضويين قد رسم حديثاً فوق قبر سرفانتس بشعلة كان يريد أن يحرق بها الكنيسة - سهماً كبيراً في اتجاه الصليب الذي لم يمس ، وكتب هذه العبارة : « لقد أنقذك سرفانتس » .

وسأل مانويل : « وهل توافق على ذلك ؟ » .

- « لقد صنع الانسان تلك التماثيل ، وهو يعيش ما يصنع . ولقد كنت دائماً ضد كل تدمير ، أما القساوسة ، فلا أوافق عليهم بكل تأكيد . . . ولا أشعر بشيء ضد كل الكنائس ، وفكرتي أنه ينبغي تحويلها الى مسارح ؛ فهذه الكنائس فخمة ، كما ان المرء يسمع فيها جيداً . . . »

وتذكر مانويل رجال الميليشيا الذين استجوبهم بالاشتراك مع اكسيمينيس عند جبهة نهر تاجة ، وفحص صحن الكنيسة جيداً حتى انتهى به الأمر الى اكتشاف الشعر المقصوص الذي كان يلمع في الظل الى جوار أحد الأعمدة كأنه زغب فرخ صغير .

وكان مانويل يعلم ان اكسيمينيس يستمع الى الموسيقى ، فنظر في عطف الى الهالة البيضاء التي تحيط برأس « البطة العجوز » ، وابتسم كأنه يدبر مكيدة مازحة ، وجلس أمام الأرغن .

وشرع في العزف ، وكانت أول مقطوعة خطرت على ذاكرته هي مقطوعة « رحمتك اللهم » لبالسترينا . وانتشر النشيد المقدس في صحن الكنيسة الخالي صارماً وقوراً كالأنسجة القوطية متنافراً مع الحرب متناغماً مع الموت ؛ وعلى الرغم من المقاعد المحطمة ، والسيارات والحرب - استولى صوت العالم الآخر على الكنيسة ، وأحس مانويل بالقلق ، لا بسبب النشيد ، ولكن بسبب ماضيه ، ونظر رجل الميليشيا مذهولاً الى ذلك الكولونيل الذي أخذ يعزف نشيداً كنسياً .

قال حين فرغ مانويل من العزف : « تلك الحيلة تنجح دائماً » .

ونزل مانويل مرة أخرى ، وجعل يلاطف قلبه الذي لم ينبس طيلة تلك الفترة . وكان يلاطفه في كثير من الأحيان ، ولم يكن يمسك بيده اليمنى شيئاً هذه المرة . وانتظره جارتزر عند مدخل السلم ، وعلى مقربة من السيارات كانت بقع سوداء تغطي بلاط الكنيسة ، وكان مانويل قد كف عن التساؤل عن طبيعة السائل الذي أحدث هذه البقع .

قال في شيء من الارتباك : « هذا النشيد الديني رائع ، وقد كنت أعزفه وأنا أفكر في شيء سواه ، انتهت علاقتي بالموسيقى ، ولعلك رأيت حزمة كبيرة من أفضل مؤلفات شوبان ملقاة فوق البيانو في الأسبوع الماضي ، وقد تصفحتها ، وكأني أقلب في صفحات من عالم آخر . . . » .

- « ربما كان ذلك متأخراً جداً . . . أو مبكراً جداً . . . » .

- « ربما . . . ولكنني لا أظن ذلك ، وإنما أعتقد أن حياة أخرى قد بدأت بالنسبة لي حين خضت القتال تماماً كما بدأت حياة جديدة حين ضاجعت امرأة للمرة الأولى . . الحرب تعيد الانسان الى الطهارة . . . » .

- « ثمة اشياء كثيرة يمكن ان تقال في هذا الموضوع » .

ووجدا الكولونيل أخيراً ، وكان يفحص محركات السيارات ، فقال لهما :

- « إذن ؛ فقد كنت أنت يا بني الذي عزفت لي نشيد الملائكة ذاك ؟ شكرأ لك . . . لقد تعمدت هذا العزف ، أليس كذلك ؟ » .

- « لقد أسعدني ما فعلت من أجلك » .

ونظر اليه اكسيمينيس :

- « ستكون جزراً قبل أن تبلغ الخامسة والثلاثين يا مانويل . . . » .

فقال مانويل بابتسامته الجادة التي تنخفض بها شفتاه : « إنني اسباني انتمي الى القرن السادس عشر » .

- « ولكن أخبرني : انك لست موسيقياً محترفاً ، فأين بحق الشيطان تعلمت العزف على الأرغن ؟ » .

- « كان ذلك نتيجة لنوع من الابتزاز : فالقسيس الذي كان مكلفاً بتعليمي اللاتينية لم يكن يفعل ذلك إلا في ساعة واحدة من الساعتين المخصصتين للدرس ، أما الساعة الثانية فكان يتركها لمتعتي الخاصة . وفي بداية الأمر كنت أنزل عن هذا الحق ليمارس هو متعته الخاصة ، فكان يضع ابرة من العاج - وهي ترف عظيم في تلك الأيام - فوق اسطوانات يديرها على جرامفون قديم من طراز عتيق - ليستمع الى فردي ، وقد حفظت أوبرا « الأفريقية » عن ظهر قلب ، ثم أصررت بعد ذلك على تلقي دروس في التكتيك (في التكتيك ، يا سيدي الكولونيل !) ، فأفهمني أن ذلك لا

يدخل ضمن معارفه أو شخصيته ، ولكنه حمل علبة من علب الأحذية مملوءة
بجنود من الورق المقوى . . . » .

ومرت عليهم نقالات تحمل جنوداً من لحم ودم ، احياء وأمواتاً تلفهم
الأغطية .

- « وظهرت بعد ذلك اسطوانات بالسترينا ، وعلى أمل خبيث في
التخلص من دروس التكتيك وضعها تحت ابرة العاج فوق الجرامفون
العتيق ، ونجح نجاحاً عظيماً . فقد هجرت التكتيك ، وطلبت الأرغن
وكنت حين ذاك عازفاً ماهراً على البيانو » .

قال البطة العجوز ساخراً : « ومع ذلك ، لا وجود لغير قساوسة سيئين
يا بني ! » .

وحول مانويل دفة الحديث في براعة الى سياراته ، ولكن ما أن بدأ
الحديث حتى قاطعه اكسيمينيس قائلاً :

- « لا جدوى من أية حيل استراتيجية ؛ فهذه السيارات مقدسة حتى
تصل الأوامر » .

- « بكل تأكيد . . . فقد وجدناها في كنيسة . . غير أن رجالك الحاملي
القربينات قد وجدوا سيارات صغيرة » .

وقهقهه اكسيمينيس ، وهو يغمض إحدى عينيه كما كان يفعل من قبل .

- « لا جدوى من الخيلة معي ، ستكون جنراً في سن الثلاثين ،
ولكنك لن تحصل على سيارتي ، فضلاً عن ذلك فإنها لا تكفي . . . هيا
نبحث عن سيارات أخرى معاً » .

- « قلت لاحدى نساء الميليشيات في سيرا : ان لها شعراً جميلاً ،
وطلبت منها أن تعطيني شعرة ، فرفضت ، وأنت في بخلك لا تقل عنها » .

- « خذ مفتاحاً انكليزياً . . . ودعنا من هذا الموضوع » .

وشرعا في المسير ، وقبل أن يصلا الى بريويجا ، وجد كل منهما ثلاث سيارات ، وجلس السائقون الذين اصطحبهم جارتزر ، واكسيمينيس الى عجلات القيادة ، وتبعوهما .

قال مانويل : « ان هذا العرس الأندلسي الصغير يعجبني » .

وصاح فيهم جندي من جنود المراسلة : « نحن عند الكيلو ٨٨ ! » .
وكان النصر يشيع في الجو .

وفي ميدان بريويجا امام مركز القيادة (كان على جميع الضباط المسؤولين أن يمشوا على هذا المركز في الصباح) - أصغى مانيان الى ثرثار عجوز يرتدي رباط عنق عجيبياً ، ولم يخلق لحيته منذ أيام ، وتدلل كل الشواهد على أنه خرج من الكهف حديثاً :

- « حين قرروا طردنا رتبوا المكان جيداً ، لكنهم تركوا الأسلاك التي كنا نعلق عليها سراويلنا . . . ولم يستطع المرشدون الجدد أن يبرروا وجود هذه الأسلاك إلا واحداً منهم . . . زميل قديم ، فنان . . . هو ذلك الذي . . .
وأق بيده حركة من يمشط شعراً طويلاً :

« كان يصور بألوان الماء ، ويقرض شعراً . . . ويضع كل شيء ، هو باختصار فنان ؛ ومن ثم كان يقول للسياح الذين يزورون قصر طليطلة : « سيداتي سادتي ، كان « السيد كامبيادو » يقوم بأعمال كثيرة ، بالطبع ، وحين ينتهي من أعماله جميعاً من أوامر ومكاتبات ، وحملات - كان يأتي الى هذه القاعة . . . بمفرده تماماً . فماذا كان يفعل لكي ينعم بالراحة ؟ كان يتعلق بهذا السلك . و « هوب » ! يأخذ في التأرجح » .

قال جارسيا مخاطباً مانويل واكسيمينيس : « لقد كان هذا الرفيق دليلاً في قصر وادي الحجارة ، ومن قبل ذلك في طليطلة » .

كان رجلاً عجوزاً ، له سوافل طويلة اشبه بمخالب الأرنب ، ووجهه

وحركاته أشبه بوجه الممثل المحترف وحركاته . . . أو بأولئك الذين لا يستطيعون أن يعيشوا إلا في عالم وهمي !

« وكنت أنا أيضاً ، مولعاً بهذا كله ، بالأشياء الأصيلّة ، قبل أن أفقد زوجتي الأولى . . . وقد طفت بالعالم ، وكنت في صحبة سيرك وما من مرة أسمع فيها عن شيء جديد ، حتى أهرع لرؤيته . . . بيد أن هذه القصة . . . هنا . . . » .

وأشار بإبهامه في اتجاه وادي الحجارة ، حيث كانت الريح تحمل تحت السحب الواطئة رائحة المنازل المحترقة ، وحيث يتجه الأسرى الإيطاليون .

« هذه هي القصة كلها . . . وهؤلاء الكاردينالات ، وحتى الفنانون من أمثال الجريكو ، والسياح ، وغيرهم ، وجميع تلك الآلات . . . حين نراهم طيلة خمسة وعشرين عاماً . . . والحرب حين نراها ستة أشهر . . . »

وكان يشير دائماً صوب الجنوب الغربي ، الى وادي الحجارة ومدريد وطليلة ، وكأنه يهش ذباباً في غير مبالاة .

وجاء ضابط ليتحدث الى مانويل ، فصاح هذا الأخير وهو يربت ربتة شديدة على ظهر الكلب :

- « لقد وصلنا الى الكيلو التسعين . . . وتخلّى العدو عن عتاده جميعاً ! »

واستطرد الدليل قائلاً : « أتريد أن تسمعي يا سيدي ؟ » .

وهز كتفيه ، ثم قال وكأنه يلخص تجربة حياته كلها :

- « أحجار . . . مجرد أحجار قديمة . . . هذا هو كل شيء ، ولكنك لو انحدرت الى الجنوب لوجدت أشياء تستحق العناء ، أشياء من عهد الرومان قبل ميلاد المسيح بأكثر من ثلاثين عاماً ! إنني أقول « قبل » ، وهذا يعني شيئاً كثيراً . . . وساجونته ، مشهد عظيم . أو انك تريد التحدث إليّ عن الأحياء الجديدة في برشلونة ، ولكن ماذا عن الآثار القديمة : انها كالحرب :

مجرد أحجار . . . » .

ومر بعض المغاربة من الأسرى الإيطاليين .

قال جارسيا مخاطباً مانيان :

- « كلما حاربت ازددت توغلاً داخل اسبانيا . . اما انا فكلما انهمكت في العمل ابتعدت عنها ، لقد انفتحت الصباح في استجواب الأسرى المغاربة .

« كان المغاربة الذين هنا قلائل ، ولكنهم كانوا هنا على كل حال . . . انهم في كل مكان هل تتذكر يا مانيان ما قاله لهم فارجاس : لا يوجد غير اثني عشر ألفاً من المغاربة ؟ حسن ، الواقع ان ها هنا عدداً كبيراً من المغاربة القادمين من الممتلكات الفرنسية ، وما زال الفرنسيون والانكليز يسيطرون على النظم الادارية في شمالي افريقيا ، أما الإيطاليون فيسيطرون على الهيئات الدينية ، والنتيجة الأولى لهذا أننا نأخذ هنا في بريوجيا أسرى مغاربة وأسرى إيطاليون ، وهناك اضطرابات في مراكش الفرنسية وليبيا ، واضطرابات في فلسطين ومصر ، ووعدهم من فرانكو باعادة جامع قرطبة الى المسلمين . . . »

كان جارسيا مولعاً بالكلام ، والآخرين يودون أن يمضي في كلامه ، فهم لا يطالعون سوى الصحف الخاضعة لرقابة الحزب ، كان جارسيا عليماً بيوطن الأمور ، غير أن مانويل واكسيمينيس لم ينسيا سياراتهما .

وعند باب المنزل الذي التجأ اليه في اثناء الاحتلال الإيطالي - نادى الدليل امرأة .

قال هذا لجارسيا : « والآن ، نحن ننتظر « آزانا » لمعالجة الموقف . . . فماذا سيفعل ؟ هذا هو المجهول الأعظم . . . » .

وتخلى فجأة عن تلك اللهجة الغامضة التي اصطنعها ليقول في غير مبالاة شديدة ، رافعاً سبابته صوب السماء المنخفضة :

- « لا شيء . . . انه لن يفعل . . . ولا يستطيع أحد أن يفعل

شيئا . . . وفرانكو ، مجرد غوريللا بالطبع . . . ولكن بغض النظر عنه سيان
عندي آزانو أو كاباليرو ، أو انتم ما دمت قد خرجت الآن من كهفي
فسأخدم زبائن ، وأعمل دليلاً للحمقى ، وسأموت في وادي الحجارة ، وأنا
أخدم الزبائن ، وأعمل دليلاً للحمقى . . . »

ونادته المرأة مرة أخرى ، فانصرف .

قال مانيان : « لقد نجح » .

فأجاب جارسيا : « في أشد الحروب الأهلية حماساً نجد دائماً عدداً كبيراً
من الأشخاص غير المكترئين بشيء . . . »

« وهأتذا ترى يا مانيان ، انه بعد ثمانية اشهر من الحرب ، ما زال
هناك شيء غامض في نظري ، هذا الشيء هو اللحظة التي يقرر فيها
شخص ما أن يحمل بندقية » .

قال مانويل : « إن لدى صديقنا باركا افكاراً جادة عن هذا الموضوع » .

(ونبح الكلب - الذئب مؤيداً) - « عن الأسباب التي تدفع الى
القتال . . . أجل ، ولكن ما يهمني هو تلك اللحظة ، لحظة انطلاق الزناد ،
ويقولون : إن الصراع والرؤيا والأمل مجرد طعم تستخدمه الحرب لاصطياد
الرجال . . . وكذلك يبدأ مرض الزهري بالحب ، والقتال جزء من المهزلة التي
يلعبها كل انسان على نفسه ، وهو يجعل الانسان يندمج في الحرب ، كما
تجعلنا مهازلنا جميعاً نندمج في الحياة . . . والآن . . . تبدأ الحرب » .

كان هذا هو ما خطر لمانيان في طيارته « الأوريون » وما خطر لكثيرين
غيره بلا شك ، وذكرته هذه المحادثة بما دار بينه وبين جارسيا وفارجاس مساء
معركة مدلان Medellin ، واحس للمرة الثانية أن فرقة الطيران العالمية قد
ماتت .

قال جارسيا : « لن تلبث اليابان أن تثبت وجودها في الحياة الدولية . . .
ان امبراطورية لا تقل عن الامبراطورية البريطانية تُشيد هناك . . . » .

وقال مانيان : « فكروا فيما كانت عليه أوروبا عندما كنا في العشرين من
عمرنا ، وما آلت اليه اليوم . . . »

واستأنف مانويل وجارترز واكسيمينيس بحثهم عن السيارات ، وتأبط
جارسيا ذراع مانيان ، وسأله :
- « ماذا عن اسكالي ؟ » .

- « اصابته رصاصة متفجرة في قدمه في اثناء معركة ترويل . . سيفقد
قدمه . . . » .

- « وأين كان يتجه بميوله السياسية ؟ » .

- « الواقع انه كان يزداد ميلاً الى النزعة الفوضوية ، والى مذهب
سوريل ، حتى كاد يكون معادياً للشيوعية . . » .

- « انه لا يعادي الشيوعية ، ولكنه يعادي الحزب » .

- « أخبرني اذن يا سيدي القائد : ما رأيك في الشيوعيين ؟ » .

وقال جارسيا في نفسه : « مرة أخرى ! » .

فأجاب : قال صديقي جرنيكو : « انهم يتحلون بفضائل الفعل ،
ولا شيء سواها ، ولفعل هو الشيء المهم في هذه اللحظة » .

وانخفض صوته ، كما ينخفض دائماً حين يلخص تجربة مريرة :

- « كنت هذا الصباح عند الأسرى الايطاليين ، وكان بينهم أسير ،
تخطى سن الشباب ، أخذ ينتحب كالطفل ، فسألته ماذا به ، ولكنه ظل
يبكي ويبكي ويبكي . . . وأخيراً قال : « إن لي سبعة اطفال . . . ثم
ماذا ؟ » فهمت بعد لأي انه مقتنع بأننا سوف نعدم الأسرى رميةً
بالرصاص . فشرحت له اننا لن نفعل شيئاً من ذلك ، وأخيراً عزم على
تصديقي . وعلى حين بغتة وثب فوق الدكة غاضباً ، وألقى خطبة أشبه
بالعواء تتألف من عشر جمل : « لقد خدعونا في ايطاليا » ، الخ ، ثم نبه

قائلاً : « الموت لموسوليني ! » وكان رد الفعل ضعيفاً ، فصرخ من جديد ، ورد عليه الأسرى من حوله : « الى الموت ، » بصوت لا يكاد يسمع ، وكأنهم كورس بأفواه مغلقة ، وعيونهم شاخصة - في ذعر - الى الباب . ومع ذلك ، فإنهم لدينا ...

« لم يكن الخوف من البوليس - يا مانيان - هو الذي يستولي عليهم ، كما لم يكن الخوف من موسوليني نفسه .. انه الخوف من الحزب الفاشي ... مع انهم عندنا .. وكان الفلانج المخلصون يموتون - في بداية الحرب - وهم يهتفون : « فلتحيا اسبانيا ! ولكنهم كانوا يهتفون فيما بعد : « فليحيا الفلانج ! » .. فهل انت على يقين من أن طياريك الشيوعيين الذين كانوا يهتفون في البداية في اثناء موتهم بقولهم : « فلتحيا البروليتاريا ! أو فلتحيا الشيوعية ! لن يهتفوا اليوم وهم في نفس الظروف قائلين : « فليحيا الحزب ! ... ؟ » .

- « لن نتاح لهم الفرصة للهتاف ، فهم جميعاً تقريباً في المستشفى أو في باطن الثرى ... وربما كانت المسألة كلها فردية . سيهتف أتينييس قائلاً بلا شك :

- « يحيا الحزب ! » ، وسيهتف غيره بشيء آخر ... »

- « إن كلمة « حزب » مضللة على كل حال ، ومن العسير كل العسر أن ندرج تحت بطاقة واحدة مجموعات من الناس اتحدوا بطبيعة الصوت الذي أدلوا به ، وأحزاباً تمتد جذورها الضخمة الى ما في الانسان من عناصر عميقة لا معقولة ... إن عصر الأحزاب يبدأ يا صديقي العزيز » .

وقال مانيان في نفسه : « ومع كل هذا فقد اكد لي جارسيا أن الاتحاد السوفييتي لن يستطيع التدخل وهو شائق الحديث ، ولكنه ليس نبوءة لا تحتمل الخطأ ، وضغط القائد على ذراعه الذي لم يتركه :

- « ينبغي ألا نغالي في انتصارنا ، وهذه المعركة ليست معركة المارن ،

ولكنها مع هذا كله انتصار . . . وقد كان ضدنا هنا من العاطلين أكثر من أصحاب القمصان السود ، ولهذا لجأت - كما تعلم - الى الدعاية بمكبرات الأصوات . . . ولكننا كنا نحارب مع ذلك وحدات فاشية . ونستطيع أن ننظر الى هذا البلد نظرة احترام - يا صديقي العزيز ، فهي معركة « فالمي (١) » بالنسبة لنا ولأول مرة يلتقي هنا الحزبان الحقيقيان .

وخرج من مركز القيادة ضباط يجبطون بعضهم على مناكب بعض ، وصاحوا في الطريق : « وصلنا الى الكيلو الثاني والتسعين ! » .

وسأل مانيان جارسيا : « هل اجتزت ايبارا ؟ » .

- « أجل ، ولكن في اثناء القتال » .

- « في كل ركن منها أحواض لزراعة الأرز ، ويبدو أنه أرز باللبن ، ظل الحاربيالديون يطلبونه منذ مدة طويلة (فهم ييغضون الزيت الاسباني) ، وأخيراً استطاعوا أن يصنعوه لهم . بيد أن الأرز في الأحواض قد غطاه الجليد ، وكذلك القتلى الأوائل ، وقد أخرجوهم من تحت الجليد لدفنهم ، وكانت وجوه هؤلاء الموتى جميعاً وجوهاً سعيدة تعلوها ابتسامة هائثة على الشفاه . . . ابتسامة الشراهة . . . » .

- « قال جارسيا : « ما اعجب هذه الحياة ! . . . »

وكان مانيان يفكر في القرويين ، ولم تكن له ألفة جارسيا بالأفكار ، غير أن ممارسة الطيران أضفت على تفكيره نزعة نسبية لها طابع جسدي صرف كانت تعوضه عن العمق ، وكان القرويون يسيطرون تماماً على فكره : ذلك الفلاح الذي أرسله جارسيا ، أولئك الذين طلب منهم سيارات في القرى ، والذين رافقوه في النزول من الجبال ، والذين رأهم يحاربون بالأمس تحت قيادته .

(١) « فالمي » هي المعركة الشهيرة التي انتصر فيها جيش الثورة الفرنسية على اعدائه البروسيين والنمساويين والمهاجرين الفرنسيين عقب الثورة الفرنسية . (المترجم) .

ولم يسأل سوى هذا السؤال : « وماذا عن القرويين ؟ » .

- « قبل أن أحضر الى هنا تناولت قهوة بالينسون في وادي الحجارة (بدون سكر دائماً) وكان صاحب المقهى يصغي الى ابنته وهي تطالع له الصحيفة ، فقد كانت تعرف القراءة . . أما أن يصنع فرانكو ما نصنع في الأماكن التي انتصر فيها ، أو عليه أن يخوض حرب عصابات لا نهاية لها . والمسيح لم ينتصر إلا على قسطنطين . ونابليون سحق في ووترلو ، ولكن كان من المستحيل الغاء الميثاق الفرنسي . . . ومن أشد الأمور ازعاجاً لي هو كيف يتبنى كل جانب في الحرب صفات عدوه ، أراد ذلك أم لم يرد . . . » .

كان الدليل يقف خلف جارسيا الذي لم يفطن الى عودته . ورفع سبابته ، وضيق عينيه ، وأضفى الاستمرار شيئاً من التهذيب على وجهه كله ، على الرغم من انفه الذي يشبه أنف السكرير .

- « العدو الرئيسي للإنسان - أيها السادة - هو الغابة . انها أقوى منا ، أقوى من الجمهورية ، أقوى من الثورة ، أقوى من الحرب . . . ولو ان الانسان توقف عن القتال ، لغطت اذن الغابة أوروبا في أقل من ستين عاماً . ستكون الغابة هنا في الشارع ، وفي المنازل المفتوحة ، وستخرج الأغصان من النوافذ ، وستختلط آلات البيانو بالجذور . . . إيه . . . إيه . . . يا سادة . . هذه . . . » .

وكان بعض الجنود الذين دخلوا الى المنازل المحطمة يعزفون على البيانو بإصبع واحدة .

وصاح صوت من إحدى النوافذ : « الكيلو الثالث والتسعون ! » .
وعبر الميدان أسرى جدد .

قال الدليل : « عصابة الأندال . لماذا لا يمكثون في بلادهم ؟ » .
وخفض عينيه ، فالتقت نظرتة بحذائه الجديد .

- « غير ان حذائي منهم ! ومهما يكن من أمر فقد تركوا شيئاً مادياً وراءهم ! وفيهم أيضاً أناس طيبون . . انشدوا لنا شيئاً ! »

صاح بهذه العبارة الأخيرة ملوحاً بذراعيه الى أولئك الذين كانوا يمرون على مقربة منه . وأجاب أحد الأسرى بجملته لم يفهمها الدليل .
« ماذا يقول ؟ »

فترجم له جارسيا : « التعساء لا يعرفون الغناء ! »
وأردف الدليل بالاسبانية : « نحن . . . أيها الأحمق ! »
وابتعد الأسرى ، فتابعهم بنظراته :
- « لا أهمية لذلك يا صديقي المسكين . . لا أهمية لذلك ! »
ومن بعيد ، انبعث صوت اكورديون من كتية جاريبالدي .

« أجل . . لا أهمية لذلك ! . . كنت في وادي الحجارة حارساً لحديقة . . وكانت السحالي تأتي . . . وعندما كنت في جزر الهند مع السيرك ، تعلمت لحناً هندوكياً . . وكنت أصفر هذا اللحن ، فتجري السحالي على وجهي . . . ويكفي أن تغمض عينيك . وأن تحفظ اللحن ، ولكن ماذا ؟ انها الحرب . . . الحرب ، والأسرى والأموات . . . وعندما ينتهي كل شيء سأستلقي كعادتي على الدكة اصفر ، فتسعى السحالي على وجهي . . . »

قال مانيان وهو يشد شاربه : « أحب أن أرى هذا فيما بعد . »

ونظر اليه الدليل ، ثم رفع سبابته من جديد :

- « لن يفهم ذلك أحد ، يا سيدي ، لا أحد . »

ثم اشار بسبابته الى الباب الذي نودي عليه منه :

- « حتى ولا زوجتي الثانية » .

وصاح رسول آخر : « الكيلو الرابع والتسعون ! » .

الفصل السادس

ما أن وصل أمر الاستيلاء على السيارات الايطالية من مركز القيادة العامة حتى ترك مانويل اكسيمينيس عائداً على قدميه الى ثكنات فرقته ، والى جواره كلبه الرزين ، على حين ذهب جارتز لاعادة السيارات التي تم الاستيلاء عليها من قبل .

وكان الجنود يتسكعون في بريويجا دوغما هدف بأيدٍ حاوية ، والشارع الكبير بمنزله الوردية الصفراء ، وكنائسه المتجهمة وأديرته الضخمة مليء بالأنقاض ، وبالمنازل التي خرجت احشاؤها ، وأفرغت أثائها في الطريق . . . كان هذا الشارع مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالحرب الى درجة انها عندما توقفت تحول الى شيء يخلو من الواقعية والمعنى ، كالمعابد والمقابر التي كانت في يوم من الأيام لأجناس أخرى من البشر ، أو كهؤلاء الجنود الذين يجولون فيه بلا بنادق كالعاطلين .

وثمة شوارع أخرى - بدت على العكس من ذلك سليمة لم تمس ، وقد روى جارسيا لمانويل أن واجهات المنازل جميعاً في مدينة جيبور بجزر الهند مرسومة بصور مضللة ، وأن كل منزل من اللبن يحمل أمامه ديكوره الوردى كالقناع . ولم تكن بريويجا ، في عديد من شوارعها - مدينة مصنوعة من اللبن ، بل مدينة أموات . . . الموت يقبع وراء واجهاتها التي تتألف من نوم القيلولة ، وبنوافذها نصف المفتوحة تحت السماء الموحشة .

ولم يكن مانويل يسمع سوى خرير الينابيع ، فقد بدأ ذوبان الجليد ،

والمياه تسيل تحت الحواف الحجرية ، أو في القنوات العادية ثم لا تلبث أن تنتشر في الجداول فوق الحصباء المدبية التي اشتهرت بها اسبانيا القديمة ، أو تنحدر في هدير كهدير السيول الصغيرة المنحدرة من الجبل بين اللوحات الملقاة في الشارع وقطع الأثاث وأوعية المطبخ والأنقاض . ولم يبق حيوان واحد ، غير أن رجال الميليشيا الذين كانوا ينتقلون في تلك الوحشة التي يملؤها خرير الماء - من شارع الى آخر في سكون - كانوا يتسللون كالقطط - وكلما اقترب مانويل من منتصف المدينة اختلطت ضجة أخرى بخرير الماء ، ضجة بللورية مثل ذلك الخرير وتمشى معه كأنها نغمة مصاحبة : هي ألحان تعزف على البيانو . . . ففي منزل قريب تداعت واجهته في الشارع ، وانفتحت حجراته على السناء المكشوفة ، كان أحد رجال الميليشيا يعزف باصبع واحد لحناً رومانسياً على البيانو . . وأصغى مانويل في عناية ، فاستطاع أن يميز فوق خرير الماء ثلاث آلات للبيانو ، وكان كل منها تعزف عليه أصبع واحدة . لم يكن اللحن نشيد « العالمية » ، وإنما كانت كل أصبع تعزف « رومانس » بطيئة كأنها لا تعزف إلا اللحن اللامتناهي الجاثم على السفوح التي تناثرت عليها السيارات المحطمة . . . السفوح المتصاعدة من بريويجا صوب السناء الشاحبة .

وكان مانويل قد انبأ جارتز بأنه قد هجر الموسيقى ، غير انه ادرك أن أقصى ما تمناه في هذه اللحظة التي يقف فيها وحيداً في هذا الشارع من المدينة المنكسرة ، هو ان يستمع الى شيء من الموسيقى . . . بيد أنه لم يكن يود العزف ، كما كان يريد أن يبقى وحيداً . . . وكان هناك اثنان من الجرامفونات في قاعة الطعام بفرقته ، ولم يكن قد احتفظ بالأسطوانات التي حملها معه في بداية الحرب ، غير ان عدداً كبيراً منها كان في غطاء الجرامفون الكبيرة . وكان جارتز المانياً .

وجد بعض سمفونيات بيتهوفن ، وصوناتا الوداع ، ولم يكن مولعاً ببيتهوفن ، ولكن لا أهمية لذلك الآن ، حمل الجرامفون الصغير الى حجرته ، وأدار عليه الأسطوانات .

ولما كانت الموسيقى تعطل إرادته فقد تخلى عن طاقته كلها للماضي ،
وتذكر الحركة التي ناول البها مسدسه . من يدري ؟ لعله قد وجد الحياة
التي خلق لها ، على حد تعبير اكسيمينيس . . لقد ولد للحرب ، ولد
لمسؤولية الموت . وكما يستيقظ الجائل في اثناء النوم فجأة ، فيجد نفسه فوق
حافة سطح - قذفت هذه النغمات الهابطة في نفسه بوعي عن توازنه
الرهيب ، التوازن ، الذي لا يسقط منه المرء إلا في الدم . وتذكر المتسول
الأعمى الذي التقى به في مدريد ليلة معركة كارابانشل . وكان
حين ذاك مع رئيس قوات الأمن في سيارة هذا الأخير ، وأضاءت مصابيح
السيارة فجأة الراحتين اللتين مدهما الأعمى أمامه ، وضخمت حجمهما
تضخياً هائلاً بسبب انحدار الشارع الكبير تلويهما الأحجار وتقطعها الأرصفة
وتسحقهما سيارات الحرب القليلة التي ما زالت تذرع الشوارع . . . راحتان
طويلتان كأنهما راحتا ال قدر ! . . .

وتصايحت اصوات متناثرة في المدينة بلهجة واحدة : « الكيلو الخامس
والتسعون الكيلو الخامس والتسعون ! » .

وأحس بالحياة من حوله حافلة بالبشائر ، وكأنما تنتظره في سكون وراء
تلك السحب الواطئة التي لم تعد المدافع تهزها - مصائر عمياء ، وأصغى
الكلب ممدداً بكل جسمه كأنه صورة بارزة منحوتة على جدار . . سيأتي
السلام يوماً ، وسيصبح مانويل شخصاً آخر ، شخصاً يجهل نفسه ، مثلما
كان محارباً اليوم مجهولاً بالنسبة لذلك الشخص الذي اشترى سيارة صغيرة
ليذهب بها الى سلسلة الجبال للانزلاق على الجليد .

والأمر على هذا النحو - دون شك - بالنسبة لكل رجل من هؤلاء الرجال
الذين يعبرون الشارع ، والذين يعزفون باصبع واحدة ألحانهم الرومانسية
العنيدة على البيانو ، تحت السماء المكشوفة ، والذين حاربوا بالأسس متلفعين
بقلنسواتهم المدبية . وكان مانويل يعرف ذاته - في الماضي - حين يعكف على
تأمل نفسه ، أما اليوم فإنه يعرفها حين تنتزع المصادفة من الفعل لتقذف

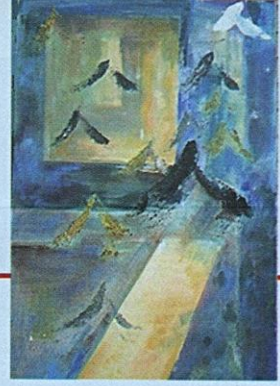
بماضيه في وجهه ، وستبلغ اسبانيا الوعي بنفسها أخيراً - مثله ومثل كل واحد من هؤلاء الرجال - حين تجف دماؤها - فتكون أشبه بمن يسائل نفسه فجأة ساعة الموت ، وإذا كنا لا نكتشف الحرب سوى مرة واحدة ، فإننا نكتشف الحياة مرات عدة .

وتحدثت تلك الحركات الموسيقية المتعاقبة المتزجة بماضيه ، كما كان من الممكن ان تتحدث المدينة التي صعدت المغاربة ، وهذه السماء ، وتلك الحقول الأبدية ، ولأول مرة انصت مانويل الى صوت أشد رهبة من دماء البشر ، وأبعث على القلق من وجودهم على الأرض : إنه امكانية مصيرهم اللامتناهية ، وأحس في نفسه بذلك الحضور المتمزج بخيرير الجداول وخطوات الأسرى . . . حضور دائم عميق مثل نبض قلبه ! . .

« انتهت » .

الأمل

آندريه مالرو



تتطرق هذه الرواية إلى أجزاء من الحرب الأهلية الإسبانية، وقد استمد مالرو جزءاً كبيراً من مادة هذه الرواية من خلال انخراطه الشخصي في الثورة التي قادها الجمهوريون الإسبان ضد الجنرال فرانكو. وقد أثارت هذه الرواية إعجاب اليمين واليسار على حدٍ سواء. إذ جمعت في طرحها بين البطولة والإنسانية والجمالية الفنية، حيث تناول من خلالها مسألة الثورة ووحدة الأمة، ولتناول متافيزيقيا الحياة والموت والتضحية والبطولة والفداء، وملخصاً جوهر وظيفة المثقف في النطاق السياسي. هذا المثقف الذي يمكن التعويل عليه في المساهمة، ولو بقدر ضئيل، في تصحيح الوضع الإنساني، ولاسيما في عالمنا الثالث ومنه فضاؤنا العربي. إذ يكون قادراً على إنتاج الأسئلة الضرورية، وفي الوقت المناسب. هذه الأسئلة ربما تكون نوعاً ما حائلاً دون تكرار حدوث "الحوادث" في أفق مستقبلنا.

علي مولا

رواية B8

S.P800



1 5 3 1 3 5

عالم المعرفة
الامل



للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - هاتف - 009611471307 - 009611372871

توزيع دار الفارابي